شرح

الطحاوية

في العقيدة السلفية

تأليف العلامة

صدر الدين علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي

(٧٣١ - ٧٩٢ هـ)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرًا.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا. أما بعد:

فلقد خلق الله الخلق لغاية شريفة سامية وهي عبادته وحده لا شريك له، قال تعـالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1]. وإذا كانت الغاية من إيجاد البشرية هي عبادة الله وحده، وبما أن التوحيد هو رأس العبادات وأساسها - فإن أوجب ما يجب على العبد معرفته والتسليم له والإيمان به هو توحيد الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، والتصديق بما يستلزم ذلك من إيمانٍ بملائكته ورسله وكتبه واليوم الآخر.... ولأجل تحقيق ذلك في حياة البشرية فقد أخذ الله عليها العهد والميثاق على أن تؤمن به، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾[2].

وحتى لا يكون للناس على الله حجة فقد أرسل رسله وأنزل كتبه، قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ

(١) سورة الذاريات الآية ٥٦ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾[1].

وبعد ذهاب الرسل وانطماس السبل... تختلف الغايات وتفسد التصورات وتتعدد الرايات ولا نجاة ولا مخرج من هذا الاختلاف والفساد والتفرق إلا باتباع الكتاب والسنة واقتفاء أثر سلف هذه الأمة.

ومن أجل المساهمة في تحقيق ذلك في حياة الأمة، فقد أولت الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الكتاب الإسلامي جل عنايتها ترجمةً وتحقيقًا ونشرًا لتبصير المسلمين بالعقيدة الصحيحة وبيان العقائد الباطلة والانحرافات الشركية التي انتشرت في كثير من بلاد المسلمين.

وهذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للقارئ المسلم - (شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي رحمه الله - من خير ما يحقق ذلك؛ إذ موضوعه من أشرف الموضوعات وهو علم العقيدة.

وقد تضافر على تأليفه إمامان جليلان هما: الإمام الطحاوي رحمه الله مؤلف المتن، وابن أبي العز رحمه الله مؤلف الشرح.

وقد قامت الرئاسة ممثلة في وكالة الطباعة والترجمة بتصحيح الكتاب وتنقيحه من الأخطاء، وفق الأمور التالية:

١ - جعلت طبعة أحمد محمد شاكر - رحمه الله - أصلًا يُطبع منه.

٢- حين يوجد عبارة مشكلة في نسخة أحمد شاكر يتم الرجوع إلى طبعة عام ١٣٤٩ هـ في المطبعة السلفية بمكة المكرمة، حيث إن طبعة مكة هذه أصلًا لطبعة أحمد شاكر.

---

(١) سورة النساء آية ١٦٤ ، ١٦٥ .

٣- إذا لم يوجد تصحيح للمشكل في المطبوعتين السابقتين يكون الرجوع إلى النسخ المطبوعة التالية:

أ- الطبعة الأولى للمكتب الإسلامي عام ١٣٩٢هـ، وقد استفدنا منها إضافة إلى ذلك ترجمة الإمام الطحاوي - رحمه الله.

ب- طبعة مؤسسة الرسالة التي حققها وعلق عليها وخرج أحاديثها الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي، والأستاذ: شعيب الإرناؤوط. الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ.

جـ - طبعة مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ. تحقيق وتخريج: شعيب الإرناؤوط.

فإن اتفقت النسخ كلها أو أكثرها على عبارة معينة أثبت الصحيح بين القوسين هكذا [ ]، وعلق عليها بما يفيد أن في هذا الأصل كذا، وأن ما أثبت هو من سائر النسخ أو أكثرها أو إحداها أو نحو ذلك. ثم يختم التعليق بالحرف (ن) ليدل على أن هذا التعليق من قبل الناشر وهو الرئاسة.

أما إذا وجد عبارة بين قوسين هكذا [ ] ولم يعلق عليه بشيء - فهو من فعل أحمد شاكر رحمه الله.

٤- إذا كان النص المشكل منقولًا من كتب أحد العلماء يكون التصحيح من الكتاب الذي نقل منه المؤلف مع الإشارة إلى ذلك، إذا وجد النص، أما إذا لم نعثر على هذا النص فيكون التصحيح من سائر النسخ الخطية لهذا الشرح.

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل وأن يجزل الأجر والثواب لمؤلفيه ومن قام بتصحيحه وتنقيحه ولكل من ساهم في طبعه ونشره وتوزيعه.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل. والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وكالة الطباعة والترجمة
في الرئاسة العامة لإدارات
البحوث
العلمية والإفتاء والدعوة
والإرشاد

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على أشرف المرسلين، وسيد الخلق أجمعين، محمد عبد الله ورسوله الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

هذا شرح نفيس، للعقيدة السلفية التي كتبها " الطحاوي " الإمام العلامة الحافظ، صاحب التصانيف البديعة: أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي المصري الحنفي، وهو إمام ثقة جليل. وهو ابن أخت المزني صاحب الإمام الشافعي.

قال ابن يونس: كان ثقة ثبتًا فقيهًا عاقلًا، لم يخلف مثله.

ولد بمصر سنة ٢٣٩هـ. ومات با في مستهل ذو القعدة سنة ٣٢١هـ. رحمه الله [١].

ومخطوطة الشرح التي وجدت، كانت غُفْلًا من اسم المؤلف، فلم يعرف إذْ ذاك من هو ؟ وكانت نسخة سقيمة كثيرة الغلط والتحريف. ولما توجد منه مخطوطة صحيحة بعدُ.

ولكن الشرح نفيس، وأبحاثه دقيقة عميقة، وتحقيقاته بديعة متقنة. وقد طبع للمرة الأولى سنة ١٣٤٩هـ، بمكة المكرمة، في المطبعة السلفية، وكان لها فرع هناك إذ ذاك.

وعني بتصحيحه والإشراف على طبعه لجنة من المشايخ والعلماء، برئاسة العلامة الكبير، الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ، رئيس القضاة في الحجاز (حالا). فبذلوا جهدًا عظيمًا في تصحيحه، ولكنه لم يخل من أغلاط كثيرة، وكل عمل في أوله عسير. وهم مشكورون على ما أتقنوا من تصحيح، مأجورون - إن شاء الله - على ما اجتهدوا.

وقد قرأت الكتاب عند ظهوره قراءة عابرة، فلم أتقن معرفته، ولم أتعمق في دراسته.

(١) مصادر ترجمته بيناها في التعليق على كلام الشارح ، ص : ٢١ .

ثم كان من فضل الله عليّ، حين كنت بمدينة (الرياض) في شهر جمادى الأولى من هذا العام، سنة ١٣٧٣هـ - أن كلفني الأستاذ المفتي الأكبر العالم العلامة الجليل، الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وشقيقه الأخ الفاضل، الأستاذ الكبير، الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم، مدير المعهد العلمي بالرياض - أن أعيد طبع هذا الشرح النفيس في مصر، وأن أُعنى بتصحيحه ما استطعت.

فما أن شرعت في قراءته، والتحقق منه، حتى وجدت بين يديّ كتابًا يندر أن يؤلف مثله، في دقته وعمقه، وتحقيقه وبيانه، والتزامه مذهب السلف الصالح، من غير حيدة عنه، ولا تأول ولا تمحل.

ووجدتني حُملت عبئًا عظيمًا من تحقيقه، إذ لم أجد منه مخطوطة معتمدة، بل لم أجد المخطوط الأصلي الذي طبع عنه الطبعة السالفة.

فاجتهدت في تصحيح كلام الشارح ما استطعت، وعدت إلى الأحاديث والآثار والنصوص التي ينقلها - فيما أجد من أصولها عندي.

ولعلي- بذا- أكون قد أدّيت الأمانة في حدود مقدوري واستطاعتي، ولكني لا أزال أرى هذه الطبعة مؤقتة أيضًا، حتى يوفقنا الله إلى أصل محفوظ للشرح صحيح، يكون عمدة في التصحيح. فنعيد طبعه، ونتقنه، ونخرجه إخراجًا سليمًا إن شاء الله ذلك ويسره، وكان في العمر بقية.

وقبيل الطبع أرشدني الأخ الجليل النبيل صاحب السعادة الشيخ محمد بن حسين نصيف إلى أن السيد مرتضى الزبيدي ذكر هذا الشارح، وسماه باسمه، ونقل عنه قطعة كبيرة في شرح الإحياء. فرجعت إلى الموضع الذي أشار إليه من شرح الإحياء، وهو ٢: ١٤٦، فوجدته بعد أن شرح استدلال الغزالي في مسألة الكلام، بقول الشاعر:

إن الكـلام لفـي الفـؤاد وإنمـا جُعـل اللسـان على الفؤاد دليلًا

- قال ما نصه:

"وقد استرسل بعض علمائنا، من الذين لهم تقدم ووجاهة، وهو: علي بن علي بن

محمد الغزي [كذا] الحنفي. فقال في شرح عقيدة الإمام أبي جعفر الطحاوي، ما نصه: وأما من قال إنه معنى واحد، واستدل بقول الأخطل المذكور - فاستدلال فاسد، ولو استدل مستدل بحديث في الصحيحين لقالوا... ".

فنقل قول الشارح في هذا الشرح - ابتداء من السطر الأول من (ص: ١٤٨) إلى بعض السطر السادس عشر من نفس الصفحة من طبعتنا هذه. ثم قال السيد مرتضى الزبيدي ردا عليه وتعقيبًا: "ولما تأملته حق التأمل؛ وجدته كلامًا مخالفًا لأصول مذهب إمامه !! وهو في الحقيقة كالرد على أئمة السنة، كأنه تكلم بلسان المخالفين، وجازف وتجاوز عن الحدود، حتى شبه قول أهل السنة بقول النصارى ! فليتنبه لذلك".

فهذه القطعة التي نقلها الزبيدي، وهي تزيد على ١٤ سطرًا - تدل دلالة قاطعة على أنه ينقل عن هذا الشرح نفسه، خصوصًا وأنا من الكلام الاستقلالي العالي، الذي يكتبه الرجل عن ذات نفسه، لا ينقله عن غيره، ولا يقلد فيه غيره. كما هو بين لا شك فيه.

ولكنا نلاحظ أنه أخطأ في نسبة المؤلف، فقال: " الغزي " ! وصوابه: " علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي "، كما في ترجمته في الدرر الكامنة ٣: ٨٧، وقد وصفه بأنه "قاضي القضاة بدمشق ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق" وذكر أنه ولد سنة ٧٣١، ومات سنة ٧٩٢.

والحمد لله على ما وفقنا إليه أولًا وآخرًا.

القاهرة يوم السبت ١١ شوال سنة ١٣٧٣هـ.

كتبه

أحمد محمد شاكر

عفا الله عنه بمنّه.

ترجمة الإمام الطحاوي
صاحب العقيدة

هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة بن عبد الملك بن سلمة بن سليم بن سليمان بن جواب الأزدي الطحاوي - نسبة إلى قرية بصعيد مصر- الإمام المحدث الفقيه الحافظ.

ولد - رحمه الله - سنة تسع وثلاثين ومائتين، وعندما بلغ سن الإدراك تحول إلى مصر لطلب العلم، وأخذ يتلقى العلم على خاله إسماعيل بن يحيى المزني أفقه أصحاب الإمام الشافعي. وكان كلما اتسعت دائرة أُفقه يجد نفسه حائرًا أمام كثير من المسائل الفقهية، ولم يكن ليجد عند خاله ما يشفي غليله عنها، فأخذ يترقب ما يصنعه خاله عندما تعترضه تلك المسائل، فإذا هو كثير التعريج على كتب أصحاب أبي حنيفة، وإذا هو يختار ما ذهب إليه أبو حنيفة في كثير منها، وقد أودع هذه الاختيارات في كتابه "مختصر المزني ".

فلم يسعه بعد ذلك إلا أن ينظر في كتب أصحاب أبي حنيفة ويطلع على منهجهم في التأصيل والتفريع حتى إذا اكتملت معرفته بمذهب الإمام أبي حنيفة تحول إليه واقتدى به وأصبح من أتباعه. ولم يمنعه ذلك من مخالفته لبعض أقوال الإمام وترجيح ما ذهب إليه غيره من الأئمة؛ لأنه- رحمه الله- لم يكن مقلدًا لأبي حنيفة، إنما كان يرى أن منهجه في التفقه أمثل المناهج في نظره فكان يسير عليه، ويأتم به، ولذلك تجده في كتابه "معاني الآثار" يرجح ما لم يقل به إمامه. ومما يؤيد ما ذكرناه ما قاله ابن زولاق: سمعت أبا الحسن علي بن أبي جعفر الطحاوي يقول سمعت أبي يقول وذكر فضل أبي عبيد حربويه وفقهه فقال: كان يذاكرني في المسائل، فأجبته يومًا في مسألة فقال لي: ما هذا قول أبي حنيفة، فقلت له: أيها القاضي: أوكل ما قاله أبو حنيفة أقول به ؟ فقال: ما ظننتك إلا

مقلدًا. فقلت له: وهل يقلد إلا عصبي. فقال لي: أو غبي. قال: فطارت هذه بمصر حتى صارت مثلًا وحفظها الناس [(١)].

وقد تخرج على كثير من الشيوخ، وأخذ عنهم، وأفاد منهم، وقد أربى عددهم على ثلاثمائة شيخ، وكان شديد الملازمة لكل قادم إلى مصر من أهل العلم من شتى الأقطار، حتى جمع إلى علمه ما عندهم من العلوم، وهذا يدلك على مبلغ عنايته في الاستفادة، وحرصه الأكيد على العلم. وقد أثنى عليه غير واحد من أهل العلم، ووصفوه بأنه ثقة ثبت فقيه عاقل حافظ دين، له اليد الطولى في الفقه والحديث.

قال ابن يونس: كان الطحاوي ثقة ثبتًا فقيهًا عاقلًا لم يخلف مثله.

وقال الذهبي في "تاريخه الكبير": الفقيه المحدث الحافظ أحد الأعلام، وكان ثقة ثبتًا فقيهًا عاقلًا.

وقال ابن كثير في "البداية والنهاية": هو أحد الثقات الأثبات والحفاظ الجهابذة.

وأما تصانيفه - رحمه الله- فهي غاية في التحقيق والجمع وكثرة الفوائد وحسن العرض.

فمن مصنفاته: "العقيدة الطحاوية" وهي التي نقدمها مع شرحها في طبعتها الأنيقة للقراء، وهي على صغر حجمها غزيرة النفع سلفية المنهج، تجمع بين دفتيها كل ما يحتاج إليه المسلم في عقيدته. ومنها كتاب "معاني الآثار" وهو كتاب يعرض فيه الأبحاث الفقهية مقرونة بدليلها، ويذكر في غضون بحثه المسائل الخلافية، ويسرد أدلتها ويناقشها، ثم يرجح ما استبان له الصواب منها، وهذا الكتاب يدرب طالب العلم على التفقه، ويطلعه على وجوه الخلاف. ويربي فيه ملكة الاستنباط، ويكون له شخصية مستقلة.

ومنها كتاب "مشكل الآثار" [(٢)]

---

(١) انظر هذا الخبر في " لسان الميزان " لابن حجر في ترجمة المصنف .

(٢) يقع هذا الكتاب في سبع مجلدات ضخام ، وهو من محفوظات مكتبة فيض الله شيخ الإسلام في إستنبول ، والقسم المطبوع منه في حيدر آباد في أربعة أجزاء ربما لا يكون نصف الكتاب . وهو كتاب جليل القدر عظيم

في نفي التضاد واستخراج الأحكام منها، ومنها "أحكام القرآن" و"المختصر" و"شرح الجامع الكبير" و"شرح الجامع الصغير" وكتاب "الشروط" و"النوادر الفقهية" و"الرد على أبي عبيد" و"الرد على عيسى بن أبان" وغير ذلك من التصانيف الجليلة المعتبرة.

تُوفي - رحمه الله - سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ليلة الخميس مستهل ذي القعدة بمصر، ودفن بالقرافة.

النفع يسوق الأحاديث التي تبدو لأول وهلة أنا متعارضة ، ثم يأخذ في دفع ذلك التعارض بطريقته الفذة التي يرتاح إليها المؤمن المنصف .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة النشر

في الطبعة الأولى - بالمطبعة السلفية، بمكة المكرمة

الحمد لله عالم السر والخفيات، المطلع على الضمائر والنيات.

(أما بعد) فحيث إن مؤلف هذا الشرح الحافل الجليل، وجامع هذا السفر العديم المثيل، لم يجعل لكتابه المذكور اسمًا، ولم يذكر اسم نفسه، كما هو عادة غالب الشراح والمؤلفين، إما تواضعًا منه - رحمه الله- وهضمًا لحقوق نفسه، وإما لغير ذلك من المقاصد الحسنة. وقد نسب الشرح المذكور في عنوان النسخة الخطية التي بأيدينا إلى أحد تلامذة ابن كثير صاحب التفسير، بلا تعيين، اعتمادًا على ما صرح به الشارح نفسه في موضعين أو ثلاثة من شرحه حيث يقول: قال شيخنا العماد ابن كثير.

فحرصًا على الوقوف على حقيقة الشارح، وخدمة للعلم، وقيامًا بواجبه، راجعنا ما في أيدينا من كتب التراجم والفنون، فلم نجد ما يمكننا معه الجزم بنسبته لشخص بعينه. وإنا نثبت هنا أسماء شارحي هذه العقيدة الذين عدهم صاحب "كشف الظنون" وهم سبعة من علماء الأحناف في مختلف الأزمان.

منهم: محمود بن أحمد الحنفي القونوي المتوفى سنة ٧٧٠هـ، صدر شرحه بقوله: حمدًا لله المتوحد بكمال صمديته.

ومنهم: المولى أبو عبد الله محمود بن محمد بن أبي إسحاق الفقيه الحنفي، صدر شرحه بقوله: الحمد لله الذي هدانا لهذا.

وهاتان الخطبتان مغايرتان لخطبة الشارح.

ومنهم: شجاع الدين هبة الله التركستاني المتوفى سنة ٧٣٦هـ.

ومنهم: نجم الدين بكبرس التركي المتوفى سنة ٩٥٢هـ.

والقاضي: سراج الدين عمر بن إسحاق الهندي الحنفي المتوفى سنة ٧٧٣هـ. ورتب الأصل على مقدمة، ومهمات، وتتمة وفي مقدمته عشر تنبيهات.

ومنهم: المولى كافي الحسن البسنوي الاقحصاري المتوفى سنة ١٠٢٥هـ.

وكل هؤلاء كما ترى لا يغلب الظن على أحد منهم بأنه صاحب هذا الشرح لتباين ما بينهم وبين الشيخ ابن كثير في الزمن والوطن. ولمغايرة صنيعهم في شروحهم لصنيع صاحب الشرح.

ومنهم: صدر الدين علي بن محمد بن أبي العز الأذرعي الدمشقي الحنفي المتوفى سنة ٧٤٦هـ، [(١)]

، وهو الذي يترجح الظن أنه الشارح، لاتفاقه مع الشيخ ابن كثير في الوقت والبلد، والله أعلم.

ولما كانت النسخة الخطية لشرح "العقيدة الطحاوية" التي جرى عليها الطبع كثيرة الغلط والتحريف، حيث إنا لم تصحح، ولم يوجد لها أصل صحيح للمقابلة عليه. فقد اعتنى صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ "عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ" بتصحيحها: فشكل لجنة من المشايخ وطلبة العلم النجديين والحجازيين، لا يقل عددهم عن العشرة، فقُرئت على فضيلته بمسمع من المذكورين وصححت بقدر الطاقة والاجتهاد، لتتم الفائدة، ويعم النفع با للمسلمين.

(١) الصواب أنه ولد سنة ٧٣١ ومات سنة ٧٩٢ ، كما قلنا في مقدمتنا ، وشيخه الحافظ ابن كثير مات سنة ٧٧٤ .

بِسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرحِيمِ

وبه أستعين

الْحَمْدُ لِلهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيئَاتِ أَعْمَالِنَا. مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَنَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ونشهد أن سَيدَنا مُحَمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

(أما بَعْدُ) فَإِنهُ لَما كَانَ عِلْمُ أُصُولِ الدينِ أَشْرَفَ الْعُلُومِ، إِذْ شَرَفُ الْعِلْمِ بِشَرَفِ الْمَعْلُومِ. وَهُوَ الْفِقْهُ الْأَكْبَرُ بِالنسْبَةِ إِلَى فِقْهِ الْفُرُوعِ، وَلِهَذَا سَمى الْإِمَامُ أَبو حَنِيفَةَ - رحمه الله تعالى - مَا قَالَهُ وَجَمَعَهُ فِي أَوْرَاقٍ مِنْ أُصُولِ الدينِ " الْفِقْهُ الْأَكْبَرَ " وَحَاجَةُ الْعِبَادِ إِلَيْهِ فَوْقَ كُل حَاجَةٍ، وَضَرُورَتُهُمْ إِلَيْهِ فَوْقَ كُل ضَرُورَةٍ؛ لِأَنهُ لَا حَيَاةَ لِلْقُلُوبِ، وَلَا نَعِيمَ وَلَا طُمَأْنِينَةَ، إِلا بِأَنْ تَعْرِفَ رَبهَا وَمَعْبُودَهَا وَفَاطِرَهَا، بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَيَكُونَ مَعَ ذَلِكَ كُلهِ أَحَب إِلَيْهَا مِما سِوَاهُ، وَيَكُونَ سَعْيُهَا فِيمَا يُقَربُهَا إِلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ سَائِرِ خَلْقِهِ.

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ تَسْتَقِلَ الْعُقُولُ بِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ وَإِدْرَاكِهِ عَلَى التفْصِيلِ، فَاقْتَضَتْ رَحْمَةُ الْعَزِيزِ الرحِيمِ أَنْ بَعَثَ الرسُلَ بِهِ مُعَرفِينَ، وَإِلَيْهِ دَاعِينَ، وَلِمَنْ أَجَابَهُمْ مُبَشرِينَ، وَلِمَنْ خَالَفَهُمْ مُنْذِرِينَ، وَجَعَلَ مِفْتَاحَ دَعْوَتِهِمْ، وَزُبْدَةَ رِسَالَتِهِمْ، مَعْرِفَةَ الْمَعْبُودِ سُبْحَانَهُ (١) بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، إِذْ عَلَى هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ تُبْنَى مَطَالِبُ الرسَالَةِ كُلهَا مِنْ أَولِهَا إِلَى آخِرِهَا.

ثُم يَتْبَعُ ذَلِكَ أَصْلَانِ عَظِيمَانِ:

أَحَدُهُمَا: تَعْرِيفُ الطرِيقِ الْمُوصِلِ إِلَيْهِ، وَهِيَ شَرِيعَتُهُ الْمُتَضَمنَةُ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ.

وَالثانِي: تَعْرِيفُ السالِكِينَ مَا لَهُمْ بَعْدَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ مِنَ النعِيمِ الْمُقِيمِ.

---

(١) لو قال : " معرفة المعبود بإلهيته وأسمائه " إلخ ، لكان أحسن .

فأعرف الناس بالله ﷺ أتبعهم للطريق الموصل إليه، وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه. ولهذا سمى الله ما أنزله على رسوله روحا، لتوقف الحياة الحقيقية عليه، ونورا لتوقف الهداية عليه. فقال الله تعالى: ﴿ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (١) وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾ (٢) ولا روح إلا فيما جاء به الرسول، ولا نور إلا في الاستضاءة به، وهو الشفاء، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ ﴾ (٣) فهو وإن كان هدى، وشفاء مطلقا، لكن لما كان المنتفع بذلك هم المؤمنين (٤) خصوا بالذكر.

والله تعالى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، فلا هدى إلا فيما جاء به.

ولا ريب أنه يجب على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول إيمانا عاما مجملا، ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول على التفصيل فرض على الكفاية، فإن ذلك داخل في تبليغ ما بعث الله به رسوله، وداخل في تدبر القرآن وعقله وفهمه، وعلم الكتاب والحكمة، وحفظ الذكر، والدعاء إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإلى سبيل الرب بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ونحو ذلك مما أوجبه الله على المؤمنين، فهو واجب على الكفاية منهم.

---

(١) سورة غافر : الآية : ١٥ .

(٢) سورة الشورى الآيتان : ٥٢-٥٣ .

(٣) سورة فصلت الآية : ٤٤ .

(٤) في المطبوعة " المؤمنون "

وَأما مَا يَجِبُ عَلَى أَعْيَانِهِمْ: فَهَذَا يَتَنوعُ بِتَنوعِ قُدَرِهِمْ [(١)] وَحَاجَاتِهِمْ وَمَعْرِفَتِهِمْ، وَمَا أُمِرَ بِهِ أَعْيَانُهُمْ، وَلَا يَجِبُ عَلَى الْعَاجِزِ عَنْ سَمَاعِ بَعْضِ الْعِلْمِ أَو عَنْ فَهْمِ دَقِيقِهِ مَا يَجِبُ عَلَى الْقَادِرِ عَلَى ذَلِكَ. وَيَجِبُ عَلَى مَنْ سَمِعَ النصُوصَ، وَفَهِمَهَا مِنْ عِلْمِ التفْصِيلِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا، وَيَجِبُ عَلَى الْمُفْتِي الْمُحَدثِ وَالْحَاكِمِ مَا لَا يَجِبُ عَلَى مَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَن عَامةَ مَنْ ضَل فِي هَذَا الْبَابِ أَوْ عَجَزَ فِيهِ عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَق، فَإِنمَا هُوَ لِتَفْرِيطِهِ فِي اتبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ، وَتَرْكِ النظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ الْمُوصِلِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ. فَلَما أَعْرَضُوا عَنْ كِتَابِ اللهِ ضَلوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ . [(٢)].

قَالَ ابْنُ عَباسٍ رضي الله عنه: تَكَفلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ، أَنْ لَا يَضِل فِي الدنْيَا، وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ، ثُم قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الذِي رَوَاهُ الترْمِذِي وَغَيْرُهُ عَنْ عَلِي رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " إِنهَا سَتَكُونُ فِتَنٌ "، قُلْتُ: فَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: كِتَابُ اللهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَصْلُ، لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى مِن غَيْرِهِ أَضَلهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسُنُ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، وَلَا تَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، مَنْ قَالَ

---

(١) بضم القاف وفتح الدال جمع " قدرة " .

(٢) سورة طه ، الآيات : ١٢٣-١٢٦ .

بِه صَدق، وَمن عَمِل بِه أجِر، وَمن حَكمَ بِه عَدل، وَمن دَعَا إلَيْه هُدِي إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ ﴾ [١] ، إلى غَيْر ذَلكَ مِنَ الْآياتِ وَالْأحَادِيثِ الدالةِ عَلى مِثْل هَذا الْمعْنى.

وَلَا يَقْبلُ اللهُ مِنَ الْأولينَ وَالْآخِرينَ دِينًا يَدِينُونَ به، إلا أنْ يَكُونَ مُوَافِقًا لِدِينِه الذِي شَرَعَهُ عَلى ألْسِنَةِ رُسُلِه.

وَقدْ نَزه اللهُ - تَعالَى - نَفْسَهُ عَما يَصِفُهُ بِه الْعِبادُ، إلا مَا وَصفَهُ بِه الْمُرْسَلُونَ، بِقَوْلِه سُبْحَانَهُ: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾ [٢] فَنزه نَفْسَهُ سُبْحَانَهُ عَما يَصِفُهُ بِه الْكَافِرُونَ، ثُم سَلمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ، لِسَلَامَةِ مَا وَصَفُوهُ بِه مِنَ النقَائِصِ وَالْعُيوبِ، ثُم حَمِدَ نَفْسَهُ عَلى تَفردِه بِالْأوْصَافِ التي يَسْتَحِق عَلَيْها كَمالَ الْحَمْدِ.

وَمضَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْه الرسُولُ ﷺ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَهُمُ الصحَابَةُ وَالتابِعُونَ لَهُمْ بِإحْسَانٍ، يُوصِي بِه الْأولُ الْآخِرَ [٣] وَيَقْتدِي فِيه اللاحِقُ بِالسابِقِ. وَهُمْ في ذَلكَ كُلِه بِنَبِيهِمْ مُحَمدٍ ﷺ مُقْتَدُونَ، وَعَلى مِنْهاجِه سَالِكُونَ، كَمَا قَالَ تَعالَى فِي كِتَابِه الْعَزِيزِ: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [٤]. فَإنْ كَانَ قَوْلُهُ: ﴿ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ [٥] مَعْطُوفًا عَلَى الضمِيرِ فِي ﴿ أَدْعُوٓا۟ ﴾ [٦] ، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلى أن أتْبَاعَهُ هُم الدعَاةُ إلَى اللهِ، وَإنْ كَانَ مَعْطُوفًا عَلى الضمِيرِ الْمُنْفَصِلِ، فَهُوَ صَرِيحٌ أن أتْبَاعَهُ هُمْ أهْلُ الْبَصِيرَةِ فِيمَا جَاءَ بِه دُونَ غَيْرِهِمْ، وَكِلَا الْمَعْنَيينِ حَق.

---

(١) الترمذي فضائل القرآن (٢٩٠٦) ، أحمد (٩١/١) ، الدارمي فضائل القرآن (٣٣٣١) .

(٢) سورة الصافات ، الآيات : ١٨٠-١٨٢ .

(٣) في المطبوعة " للآخر " .

(٤) سورة يُوسُف آية : ١٠٨ .

(٥) سورة يوسف آية : ١٠٨ .

(٦) سورة يوسف آية : ١٠٨ .

وَقدْ بَلغ الرسُولُ ﷺ الْبلَاغَ الْمبِينَ، وَأوْضَحَ الْحُجةَ لِلْمُسْتَبْصِرِينَ، وَسَلَكَ سَبِيلَهُ خَيْرُ الْقُرُونِ.

ثُم خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ اتبَعُوا أهْوَاءَهُمْ، وَافْتَرَقُوا، فَأَقَامَ اللهُ لِهَذِهِ الْأمةِ مَنْ يَحْفَظُ عَلَيْهَا أصُولَ دِينِهَا، كَمَا أخْبَرَ الصادِقُ ﷺ ﴿لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أمتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَق، لَا يَضُرهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ﴾ [(1)].

وَمِمنْ قَامَ بِهَذَا الْحَق مِنْ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ: الْإِمَامُ أَبُو جَعْفَرٍ أحْمَدُ بْنُ مُحَمدِ بْنِ سَلَامَةَ الْأزْدِي الطحَاوِي، تَغَمدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، بَعْدَ الْمِائَتَيْنِ، فَإِن مَوْلِدَهُ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَمِائَتَيْنِ، وَوَفَاتَهُ سَنَةَ إِحْدَى وَعِشْرِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ [(2)]

فَأخْبَرَ رَحِمَهُ اللهُ عَما كَانَ عَلَيْهِ السلَفُ، وَنَقَلَ عَنِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ النعْمَانِ بْنِ ثَابِتٍ الْكُوفِي، وَصَاحِبَيْهِ أَبِي يُوسُفَ يَعْقُوبَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْحِمْيَرِي الْأنْصَارِي، وَمُحَمدِ بْنِ الْحَسَنِ الشيْبَانِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - مَا كَانُوا يَعْتَقِدُونَ مِنْ أُصُولِ الدينِ، وَيَدِينُونَ بِهِ رَب الْعَالَمِينَ.

وَكُلمَا [(3)] بَعُدَ الْعَهْدُ، ظَهَرَتِ الْبِدَعُ، وَكَثُرَ التحْرِيفُ الذِي سَماهُ أهْلُهُ تَأوِيلًا لِيُقْبَلَ، وَقَل مَنْ يَهْتَدِي إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَ التحْرِيفِ وَالتأوِيلِ. إِذْ قَدْ يُسَمى صَرْفُ الْكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ إِلَى مَعْنًى آخَرَ يَحْتَمِلُهُ اللفْظُ فِي الْجُمْلَةِ تَأوِيلًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَم قَرِينَةٌ تُوجِبُ ذَلِكَ، وَمِنْ هُنَا حَصَلَ الْفَسَادُ. فَإِذَا سَموْهُ تَأوِيلًا قُبِلَ وَرَاجَ عَلَى مَنْ لَا يَهْتَدِي إِلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا.

---

(١) مسلم الإمارة (١٩٢٠) ، الترمذي الفتن (٢٢٢٩) ، أبو داود الفتن والملاحم (٤٢٥٢) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٥٢) ، أحمد (٢٧٩/٥) .

(٢) تجد ترجمته مفصلة في : تذكرة الحفاظ للذهبي ٣ : ٢٨ -٢٩ . وتاريخ ابن كثير ١١ : ١٧٤ ، والمنتظم لابن الجوزي ٦ : ٢٥ ، وشذرات الذهب ٢ : ٢٨٨ ، واللباب لابن الأثير ٢ : ٨٢ ، والجواهر المضيئة لابن أبي الوفا ١ : ١٠٢- ١٠٥ ، والفوائد البهية : ٣١ -٣٤ ، ولسان الميزان ١ : ٢٧٤-٢٨٢ ، وتذيب تاريخ ابن عساكر ٢ : ٥٤-٥٥ ، وابن خلكان ١ : ٥٣-٥٥ طبعة مكتبة النهضة بمصر .

(٣) في المطبوعة " وكل ما " .

فَاحْتَاجَ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى إِيضَاحِ الْأَدِلَّةِ، وَدَفْعِ الشُّبَهِ الْوَارِدَةِ عَلَيْهَا، وَكَثُرَ الْكَلَامُ وَالشَّغَبُ، وَسَبَبُ ذَلِكَ إِصْغَاؤُهُمْ إِلَى شُبَهِ الْمُبْطِلِينَ، وَخَوْضُهُمْ فِي الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، الَّذِي عَابَهُ السَّلَفُ، وَنَهَوْا عَنِ النَّظَرِ فِيهِ وَالِاشْتِغَالِ بِهِ وَالْإِصْغَاءِ إِلَيْهِ، امْتِثَالًا لِأَمْرِ رَبِّهِمْ، حَيْثُ قَالَ: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ ﴾ [1] فَإِنَّ مَعْنَى الْآيَةِ يَشْمَلُهُمْ.

وَكُلٌّ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالِانْحِرَافِ عَلَى مَرَاتِبَ: فَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا، وَقَدْ يَكُونُ فِسْقًا، وَقَدْ يَكُونُ مَعْصِيَةً، وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً.

فَالْوَاجِبُ اتِّبَاعُ الْمُرْسَلِينَ، وَاتِّبَاعُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ خَتَمَهُمُ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ، ﷺ فَجَعَلَهُ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ، وَجَعَلَ كِتَابَهُ مُهَيْمِنًا عَلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ كُتُبِ السَّمَاءِ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَجَعَلَ دَعْوَتَهُ عَامَّةً لِجَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ، الْجِنِّ وَالْإِنْسِ، بَاقِيَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَانْقَطَعَتْ بِهِ حُجَّةُ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ.

وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ بِهِ كُلَّ شَيْءٍ، وَأَكْمَلَ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ الدِّينَ خَبَرًا وَأَمْرًا [2] ، وَجَعَلَ طَاعَتَهُ طَاعَةً لَهُ، وَمَعْصِيَتَهُ مَعْصِيَةً لَهُ، وَأَقْسَمَ بِنَفْسِهِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوهُ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى غَيْرِهِ، وَأَنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ - وَهُوَ الدُّعَاءُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ - صَدُّوا صُدُودًا، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِنَّمَا أَرَادُوا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا، كَمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ وَغَيْرِهِمْ: إِنَّمَا نُرِيدُ أَنْ نُحِسَّ [3] الْأَشْيَاءَ بِحَقِيقَتِهَا، أَيْ: نُدْرِكَهَا وَنَعْرِفَهَا، وَنُرِيدُ التَّوْفِيقَ بَيْنَ الدَّلَائِلِ الَّتِي يُسَمُّونَهَا " الْعَقْلِيَّاتِ "، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ: جَهْلِيَّاتٌ ! وَبَيْنَ الدَّلَائِلِ النَّقْلِيَّةِ الْمَنْقُولَةِ عَنِ

(١) سورة الأنعام ، آية : ٦٨ .

(٢) قال العلامة الشيخ عبد الله بن حسن : الخبر هو توحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات . والأمر : هو توحيد الألوهية . انتهى من تقرير شيخنا ووالدنا حسن بن حسين .

(٣) في المطبوعة " نحسن " .

الرسُول، أوْ نُرِيدُ التوْفِيقَ بيْنَ الشرِيعَةِ وَالْفَلْسَفَةِ. وَكمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُبتَدِعَةِ، مِنَ الْمُتَنسكَةِ وَالْمُتَصوفَةِ: إِنمَا نُرِيدُ الْأَعْمَالَ بِالْعَمَلِ الْحَسَنِ، وَالتوْفِيقَ بيْنَ الشرِيعَةِ وَبيْنَ مَا يَدعُونَهُ مِنَ الْبَاطِلِ، الذِي يُسَموْنَهُ " حَقَائِقَ " وَهِيَ جَهْلٌ وَضَلَالٌ. وَكمَا يَقُولُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَمَلكَةِ وَالْمُتَأمرَةِ: إِنمَا نُرِيدُ الْإِحْسَانَ بِالسيَاسَةِ الْحَسَنَةِ، وَالتوْفِيقَ بيْنَهَا وَبيْنَ الشرِيعَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

فَكُل مَنْ طَلَبَ أنْ يُحَكمَ فِي شَيْءٍ مِنْ أمْرِ الدينِ غَيْرَ مَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ، وَيَظُن أن ذَلِكَ حَسَنٌ، وَأن ذَلِكَ جَمْعٌ بيْنَ مَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ وَبيْنَ مَا يُخَالِفُهُ - فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلْ مَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ كَافٍ كَامِلٌ، يَدْخُلُ فِيهِ كُل حَق.

وَإِنمَا وَقَعَ التقْصِيرُ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَعْلَمْ مَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْكَلَامِيةِ الِاعْتِقَادِيةِ، وَلَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الْعِبَادِيةِ، وَلَا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْإِمَارَةِ السيَاسِيةِ، أوْ نَسَبُوا إِلَى شَرِيعَةِ الرسُولِ، بِظَنهِمْ وَتَقْلِيدِهِمْ مَا لَيْسَ مِنْهَا، وَأخْرَجُوا عَنْهَا كَثِيرًا مِما هُوَ مِنْهَا.

فَبِسَبَبِ جَهْلِ هَؤُلَاءِ وَضَلَالِهِمْ وَتَفْرِيطِهِمْ، وَلِبسِ عُدْوَانِ أُولَئِكَ وَجَهْلِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، كَثُرَ النفَاقُ، وَدَرَسَ كَثِيرٌ مِنْ عِلْمِ الرسَالَةِ.

بَلِ إنما يكون الْبَحْثُ التام، وَالنظَرُ الْقَوِي، وَالِاجْتِهَادُ الْكَامِلُ، فِيمَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ، ﷺ لِيُعْلَمَ وَيُعْتَقَدَ، وَيُعْمَلَ بِهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، فَيَكُونَ قَدْ تُلِيَ حَق تِلَاوَتِهِ، وَأنْ لَا يُهْمَلَ مِنْهُ شَيْءٌ.

وَإِنْ كَانَ الْعَبْدُ عَاجِزًا عَنْ مَعْرِفَةِ بَعْضِ ذَلِكَ، أوِ الْعَمَلِ بِهِ، فَلَا يَنْهَى عَما عَجَزَ عَنْهُ مِما جَاءَ بِهِ الرسُولُ، بَلْ حَسْبُهُ أنْ يَسْقُطَ عَنْهُ اللوْمُ لِعَجْزِهِ، لَكِنْ عَلَيْهِ أنْ يَفْرَحَ بِقِيَامِ غَيْرِهِ بِهِ، وَيَرْضَى بِذَلِكَ، وَيَوَد أنْ يَكُونَ قَائِمًا بِهِ، وَأنْ لَا يُؤْمِنَ بِبَعْضِهِ وَيَتْرُكَ بَعْضَهُ، بَلْ يُؤْمِنُ بِالْكِتَابِ كُلهِ، وَأنْ يُصَانَ عَنْ أنْ يُدْخَلَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، مِنْ رِوَايَةٍ أوْ رَأْيٍ، أوْ يَتبِعَ مَا

لَيس مِنْ عِنْدِ اللهِ، اِعْتِقادًا أو عَمَلًا، كَمَا قالَ تَعالَى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾[1].

وَهَذِهِ كَانَتْ طَرِيقَةَ السابِقِينَ الْأَولينَ، وَهِيَ طَرِيقَةُ التابِعِينَ لَهُمْ بِإحْسَانٍ إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَأولُهُمْ السلَفُ الْقَدِيمُ مِنَ التابِعِينَ الْأولينَ، ثُم مَنْ بَعْدَهُمْ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ أَئِمةُ الدينِ الْمَشْهُودُ لَهُمْ عِنْدَ الْأُمةِ الْوَسَطِ بِالْإِمَامَةِ.

فَعَنْ أَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى أَنهُ قَالَ لِبِشْرٍ الْمرِيسِي: الْعِلْمُ بِالْكَلَامِ هُوَ الْجَهْلُ، وَالْجَهْلُ بِالْكَلَامِ هُوَ الْعِلْمُ، وَإِذَا صَارَ الرجُلُ رَأْسًا فِي الْكَلَامِ قِيلَ: زِنْدِيقٌ، أَوْ رُمِيَ بِالزنْدَقَةِ، أَرَادَ بِالْجَهْلِ بِهِ اعْتِقَادَ عَدَمِ صِحتِهِ، فَإِن ذَلِكَ عِلْمٌ نَافِعٌ، أَوْ أَرَادَ بِهِ الْإِعْرَاضَ عَنْهُ أَوْ تَرْكَ الِالْتِفَاتِ إِلَى اعْتِبَارِهِ، فَإِن ذَلِكَ يَصُونُ عِلْمَ الرجُلِ وَعَقْلَهُ، فَيَكُونُ عِلْمًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَعَنْهُ أَيْضًا أَنهُ قَالَ: مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ بِالْكَلَامِ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ الْمَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أَفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذَبَ.

وَقَالَ الْإِمَامُ الشافِعِي رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى: حُكْمِي فِي أَهْلِ الْكَلَامِ أَنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْعَشَائِرِ وَالْقَبَائِلِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسنةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ.

وَقَالَ أَيْضًا رَحِمَهُ اللهُ - تَعَالَى - شِعْرًا:

كُـلُّ الْعُلُـومِ سِوَى الْقُرْآنِ مَشْغَلَةٌ ... إِلَّـا الْحَدِيثَ وَإِلَّا الْفِقْهَ فِي الدينِ

الْعِلْـمُ مَـا كَـانَ فِـيهِ قَـالَ حَدثَنَا ... وَمَـا سِـوَى ذَاكَ وَسْـوَاسُ الشيَاطِينِ

وَذَكَرَ الْأَصْحَابُ فِي الْفَتَاوَى: أَنهُ لَوْ أَوْصَى لِعُلَمَاءِ بَلَدِهِ: لَا يَدْخُلُ الْمُتَكَلمُونَ، وَأَوْصَى إِنْسَانٌ أَنْ يُوقَفَ مِنْ كُتُبِهِ مَا هُوَ مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ، فَأَفْتَى السلَفُ أَنْ يُبَاعَ مَا فِيهَا مِنْ كُتُبِ الْكَلَامِ. ذُكِرَ ذَلِكَ بِمَعْنَاهُ فِي الْفَتَاوَى الظهِيرِيةِ.

---

(١) سورة الْبَقَرَة ، آية : ٤٢ .

فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الْأُصُولِ، بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ؟ !

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

أَيُّهَا الْمُغْتَدِي لِيَطْلُبَ عِلْمًا ... كُلُّ عِلْمٍ عَبْدٌ لِعِلْمِ الرَّسُولِ

تَطْلُبُ الْفَرْعَ كَيْ تُصَحِّحَ أَصْلًا ... كَيْفَ أَغْفَلْتَ عِلْمَ أَصْلِ الْأُصُولِ

وَنَبِيُّنَا ﷺ أُوتِيَ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَخَوَاتِمَهُ وَجَوَامِعَهُ، فَبُعِثَ بِالْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ وَالْعُلُومِ الْأَوَّلِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ عَلَى أَتَمِّ الْوُجُوهِ، وَلَكِنْ كُلَّمَا ابْتَدَعَ شَخْصٌ بِدْعَةً اتَّسَعُوا فِي جَوَابِهَا، فَلِذَلِكَ صَارَ كَلَامُ الْمُتَأَخِّرِينَ كَثِيرًا، قَلِيلَ الْبَرَكَةِ، بِخِلَافِ كَلَامِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَإِنَّهُ قَلِيلٌ، كَثِيرُ الْبَرَكَةِ، لَا كَمَا يَقُولُهُ ضُلَّالُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَجَهَلَتُهُمْ: إِنَّ طَرِيقَةَ الْقَوْمِ أَسْلَمُ، وَإِنَّ طَرِيقَتَنَا أَحْكَمُ وَأَعْلَمُ ! وَلَا كَمَا يَقُولُهُ مَنْ لَمْ يُقَدِّرْهُمْ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى الْفِقْهِ: إِنَّهُمْ لَمْ يَتَفَرَّغُوا لِاسْتِنْبَاطِ الْفِقْهِ وَضَبْطِ قَوَاعِدِهِ وَأَحْكَامِهِ اشْتِغَالًا مِنْهُمْ بِغَيْرِهِ ! وَالْمُتَأَخِّرُونَ تَفَرَّغُوا لِذَلِكَ، فَهُمْ أَفْقَهُ !!

فَكُلُّ هَؤُلَاءِ مَحْجُوبُونَ عَنْ مَعْرِفَةِ مَقَادِيرِ السَّلَفِ، وَعُمْقِ عُلُومِهِمْ، وَقِلَّةِ تَكَلُّفِهِمْ، وَكَمَالِ بَصَائِرِهِمْ. وَتَاللهِ مَا امْتَازَ عَنْهُمُ الْمُتَأَخِّرُونَ إِلَّا بِالتَّكَلُّفِ وَالِاشْتِغَالِ بِالْأَطْرَافِ الَّتِي كَانَتْ هِمَّةُ الْقَوْمِ مُرَاعَاةَ أُصُولِهَا، وَضَبْطَ قَوَاعِدِهَا، وَشَدَّ مَعَاقِدِهَا، وَهِمَمُهُمْ مُشَمِّرَةٌ إِلَى الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَالْمُتَأَخِّرُونَ فِي شَأْنٍ، وَالْقَوْمُ فِي شَأْنٍ آخَرَ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا.

وَقَدْ شَرَحَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ بَعْضَ الشَّارِحِينَ قَدْ أَصْغَى إِلَى أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، وَاسْتَمَدَّ مِنْهُمْ، وَتَكَلَّمَ بِعِبَارَاتِهِمْ.

وَالسَّلَفُ لَمْ يَكْرَهُوا التَّكَلُّمَ بِالْجَوْهَرِ وَالْجِسْمِ وَالْعَرَضِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ اصْطِلَاحًا جَدِيدًا عَلَى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالِاصْطِلَاحِ عَلَى أَلْفَاظِ الْعُلُومِ الصَّحِيحَةِ، وَلَا كَرِهُوا أَيْضًا الدَّلَالَةَ عَلَى الْحَقِّ وَالْمُحَاجَّةَ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ.

بل كرهوه لاشتماله على أمور كاذبة مخالفة للحق، ومن ذلك مخالفتها للكتاب والسنة، ولهذا لا تجد عند أهلها من اليقين والمعرفة ما عند عوام المؤمنين، فضلًا عن علمائهم، ولاشتمال مقدماتهم على الحق والباطل، كثر الكلام، وانتشر القيل والقال، وتولد لهم عنها من الأقوال المخالفة للشرع الصحيح والعقل الصريح ما يضيق عنه المجال. وسيأتي لذلك الكلام زيادة بيان عند قوله: " فمن رام علم ما حظر عنه علمه ".

وقد أحببت أن أشرحها سالكًا طريق السلف في عباراتهم، وأنسج على منوالهم، متطفلًا عليهم، لعلي أن أنظم في سلكهم، وأدخل في عدادهم، وأحشر في زمرتهم ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (١).

ولما رأيت النفوس مائلة إلى الاختصار، آثرته على التطويل والإسهاب. (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب). وهو حسبنا ونعم الوكيل.

قوله: (نقول في توحيد الله معتقدين بتوفيق الله: إن الله واحد لا شريك له).

ش: اعلم أن التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ (٢) وقال هود عليه السلام لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓۚ ﴾ (٣) وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ ﴾ (٤) وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ

(١) سورة النساء آية : ٦٩ .
(٢) سورة الأعراف ، آية : ٥٩ .
(٣) سورة الأعراف آية : ٦٥ .
(٤) سورة الأعراف ، آية : ٧٣ .

غَيْرُهُۥٓ ﴾ [(١)] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [(٢)] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [(٣)].

وَقَالَ ﷺ ﴿ أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَاسَ حَتى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَن مُحَمدًا رَسُولُ اللهِ ﴾ [(٤)]. وَلِهَذَا كَانَ الصحِيحُ أن أولَ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكلفِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إلا اللهُ، لَا النظَرُ، وَلَا الْقَصْدُ إلى النظَرِ، وَلَا الشك، كَمَا هِيَ أَقْوَالٌ لِأَرْبابِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ. بَلْ أَئِمةُ السلَفِ كُلهُمْ مُتفِقُونَ عَلَى أن أولَ مَا يُؤْمَرُ بِهِ الْعَبْدُ الشهَادَتانِ، وَمُتفِقُونَ عَلَى أن مَنْ فَعلَ ذَلِكَ قَبلَ الْبُلُوغِ لَمْ يُؤْمَرْ بِتَجْدِيدِ ذَلكَ عَقِيبَ بُلُوغِهِ، بَلْ يُؤْمَرُ بِالطهَارَةِ والصلَاةِ إذَا بَلَغَ أَوْ ميزَ عِنْدَ مَنْ يَرى ذَلِكَ، وَلَمْ يُوجِبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى وَليهِ أَنْ يُخَاطِبَهُ حِينَئِذٍ بِتَجْدِيدِ الشهَادَتَيْنِ، وَإِنْ كَانَ الْإِقْرارُ بِالشهَادَتَيْنِ وَاجِبًا بِاتفَاقِ الْمُسْلِمِينَ، وَوُجُوبُهُ يَسْبِقُ وُجُوبَ الصلَاةِ، لَكِنْ هُوَ أدى هَذَا الْوَاجِبَ قَبْلَ ذَلِكَ.

وَهُنا مَسَائِلُ تَكلمَ فِيهَا الْفُقَهَاءُ؛ كَمَنْ صَلى وَلَمْ يَتكلمْ بِالشهَادَتَيْنِ، أَوْ أَتى بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ، وَلَمْ يَتكلمْ بِهَا - هَلْ يَصِيرُ مُسْلِمًا أَمْ لَا ؟ فَالصحِيحُ أَنهُ يَصِيرُ مُسْلِمًا بِكُل مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ. فَالتوْحِيدُ أولُ مَا يُدْخَلُ بِهِ فِي الْإِسْلَامِ، وَآخِرُ مَا يُخْرَجُ بِهِ مِنَ الدنْيا، كَمَا قَالَ النبي ﷺ ﴿ مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلَهَ إلا اللهُ دَخَلَ الْجَنةَ ﴾ [(٥)]. وَهُوَ أولُ وَاجِبٍ وَآخِرُ وَاجِبٍ.

---

(١) سورة الأعراف ، آية : ٨٥ .

(٢) سورة النحل ، آية : ٣٦ .

(٣) سورة الأنبياء ، آية : ٢٥ .

(٤) البخاري الإيمان (٢٥) ، مسلم الإيمان (٢٢) .

(٥) أبو داود الجنائز (٣١١٦) ، أحمد (٢٣٣/٥) .

فَالتوْحِيدُ أولُ الْأمرِ وَآخِرُه، أعْنِي تَوْحِيدَ الْإلَهيةِ.

فإن التوْحِيدَ يَتضَمنُ ثَلَاثَةَ أنوَاعٍ:

أحَدُهَا: الْكَلَامُ فِي الصفَاتِ. وَالثانِي: تَوْحِيدُ الربُوبِيةِ، وَبَيَانُ أن اللهَ وَحْدَهُ خَالِقُ كُل شَيْءٍ. وَالثالِثُ: تَوْحِيدُ الْإلَهِيةِ، وَهُوَ اسْتِحْقَاقُه سُبْحَانَه وَتَعالَى أنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

أما الْأولُ: فَإِن نُفَاةَ الصفَاتِ أدْخَلُوا نَفْيَ الصفَاتِ فِي مُسَمى التوْحِيدِ، كَالْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَمَنْ وَافَقَه، فَإِنهُمْ قَالُوا: إِثْبَاتُ الصفَاتِ يَسْتَلْزِمُ تَعَددَ الْوَاجِبِ ! وَهَذَا الْقَوْلُ مَعْلُومُ الْفَسَادِ بِالضرُورَةِ، فَإِن إِثْبَاتَ ذَاتٍ مُجَردَةٍ عَنْ جَمِيعِ الصفَاتِ لَا يُتَصَورُ لَهَا وُجُودٌ فِي الْخَارِجِ، وَإِنمَا الذهْنُ قَدْ يَفْرِضُ الْمُحَالَ وَيَتَخَيلُه، وَهَذَا غَايَةُ التعْطِيلِ. وَهَذَا الْقَوْلُ قَدْ أفْضَى بِقَوْمٍ إِلَى الْقَوْلِ بِالْحُلُولِ وَالِاتحَادِ، وَهُوَ أقْبَحُ مِنْ كُفْرِ النصَارَى، فَإِن النصَارَى خَصوهُ بِالْمَسِيحِ، وَهَؤُلَاءِ عَموا جَمِيعَ الْمَخْلُوقَاتِ.

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا التوْحِيدِ: أن فِرْعَوْنَ وَقَوْمَه كَامِلُو الْإِيمَانِ، عَارِفُونَ بِاللهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ !

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أن عُبادَ الْأصْنَامِ عَلَى الْحَق وَالصوَابِ، وَأنهُمْ إِنمَا عَبَدُوا اللهَ لَا غَيْرَه ! وَمِنْ فُرُوعِهِ: أنه لَا فَرْقَ فِي التحْرِيمِ وَالتحْلِيلِ بَيْنَ الْأم وَالْأخْتِ وَالْأجْنَبِيةِ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْخَمْرِ وَالزنَى وَالنكَاحِ، الْكُل مِنْ عَيْنٍ وَاحِدَةٍ، لَا بَلْ هُوَ الْعَيْنُ الْوَاحِدَةُ.

وَمِنْ فُرُوعِهِ: أن الْأنبِيَاءَ ضَيقُوا عَلَى الناسِ.

تَعالَى اللهُ عَما يَقُولُونَ عُلُوا كَبِيرًا.

وَأما الثانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الربُوبِيةِ، كَالْإِقْرَارِ بِأنهُ خَالِقُ كُل شَيْءٍ، وَأنهُ لَيْسَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصفَاتِ وَالْأفْعَالِ، وَهَذَا التوْحِيدُ حَق لَا رَيْبَ فِيهِ، وَهُوَ الْغَايَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أهْلِ النظَرِ وَالْكَلَامِ وَطَائِفَةٍ مِنَ الصوفِيةِ. وَهَذَا التوْحِيدُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَى نَقِيضِهِ طَائِفَةٌ مَعْرُوفَةٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، بَلِ الْقُلُوبُ مَفْطُورَةٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ أعْظَمَ مِنْ كَوْنِهَا مَفْطُورَةً

عَلَى الْإِقْرَارِ بِغَيْرِهِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ، كَمَا قَالَتِ الرسلُ فِيمَا حَكَى اللهُ عَنْهُمْ: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (1).

وَأَشْهَرُ مَنْ عُرِفَ تجاهلُه وَتظَاهُرُه بِإِنْكَارِ الصانِعِ: فِرْعَوْنُ، وَقَدْ كَانَ مُسْتَيْقِنًا بِهِ فِي الْبَاطِنِ، كَمَا قَالَ مُوسَى: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ (2).

وَقَالَ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنْ قَوْمِهِ: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (3).

وَلِهَذَا [لما] قَالَ: وَمَا رب الْعَالَمِينَ ؟ عَلَى وَجْهِ الْإِنْكَارِ لَهُ تَجَاهُلَ الْعَارِفِ - قَالَ لَهُ مُوسَى: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (4).

وَقَدْ زَعَمَ طَائِفَةٌ أن فِرْعَوْنَ سَأَلَ مُوسَى مُسْتَفْهِمًا عَنِ الْمَاهِيةِ، وَأن الْمَسْئول عَنْهُ لما لَمْ يكُنْ لَهُ مَاهِيةٌ، عَجَزَ مُوسَى عَنِ الْجَوَابِ ! وَهَذَا غَلَطٌ. وَإِنمَا هَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ وَجَحْدٍ، كَمَا دل سَائِرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ عَلَى أن فِرْعَوْنَ كَانَ جَاحِدًا لِلهِ، نَافِيًا لَهُ، لَمْ يَكُنْ مُثْبِتًا لَهُ طَالِبًا لِلْعِلْمِ بِمَاهِيتِه. فَلِهَذَا بين لَهُمْ مُوسَى أَنهُ مَعْرُوفٌ، وَأن آيَاتِهِ وَدَلَائِلَ رُبُوبِيتِهِ أَظْهَرُ وَأَشْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ عَنْهُ بِمَا هُوَ ؟ بَلْ [إنه] أَعْرَفُ وَأَظْهَرُ وَأَبْيَنُ مِنْ أَنْ يُجْهَلَ، بَلْ مَعْرِفَتُه مُسْتَقِرةٌ فِي الْفِطَرِ أَعْظَمَ مِنْ مَعْرِفَةِ كُل مَعْرُوفٍ.

وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْ أَحَدٍ مِنَ الطوَائِفِ أَنهُ قَالَ: إِن الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَمَاثِلَانِ فِي الصفَاتِ وَالْأَفْعَالِ.

---

(1) سورة إِبْرَاهِيمَ آية : ١٠ .

(2) سورة الْإِسْرَاءِ آية : ١٠٢ .

(3) سورة النمل آية : ١٤ .

(4) سورة الشعَرَاءِ الآيات : ٢٤-٢٨ .

فَإن الثَنوية مِنَ الْمَجُوسِ، وَالْمَانَوية الْقَائِلِينَ بِالْأَصْلَيْنِ النورِ وَالظلْمَةِ، وَأن الْعَالَمَ صَدَرَ عَنْهُمَا -: مُتفِقُونَ عَلَى أن النورَ خَيْرٌ مِنَ الظلْمَةِ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْمَحْمُودُ، وَأن الظلْمَةَ شِرِيرَةٌ مَذْمُومَةٌ، وَهُمْ مُتَنَازِعُونَ فِي الظلْمَةِ، هَلْ هِيَ قَدِيمَةٌ أَوْ مُحْدَثَةٌ ؟ فَلَمْ يُثْبِتُوا رَبينِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

وَأما النصَارَى الْقَائِلُونَ بِالتثْلِيثِ، فَإنهَمْ لَمْ يُثْبِتُوا لِلْعَالَمِ ثَلَاثَةَ أَرْبَابٍ يَنفَصِلُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ، بَلْ مُتفِقُونَ عَلَى أن صَانِعَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ، وَيَقُولُونَ: بِاسْمِ الْأَبِ وَالِابْنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إِلَهٌ وَاحِدٌ. وَقَوْلُهُمْ فِي التثْلِيثِ مُتَنَاقِضٌ فِي نَفْسِهِ، وَقَوْلُهُمْ فِي الْحُلُولِ أَفْسَدُ مِنْهُ. وَلِهَذَا كَانُوا مُضْطَرِبِينَ فِي فَهْمِهِ، وَفِي التعْبِيرِ عَنْهُ، لَا يَكَادُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يُعَبرُ عَنْهُ بِمَعْنًى مَعْقُولٍ، وَلَا يَكَادُ اثْنَانِ يَتفِقَانِ عَلَى مَعْنًى وَاحِدٍ، فَإِنهُمْ يَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ بِالذاتِ، ثَلَاثَةٌ بِالْأُقْنُومِ ! وَالْأَقَانِيمُ يُفَسرُونَهَا تَارَةً بِالْخَوَاصِّ، وَتَارَةً بِالصفَاتِ، وَتَارَةً بِالْأَشْخَاصِ. وَقَدْ فَطَرَ اللهُ الْعِبَادَ عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ بَعْدَ التصَورِ التامِّ. وَبِالْجُمْلَةِ فَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِإِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ.

وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أنهُ لَيْسَ فِي الطوَائِفِ مَنْ يُثْبِتُ لِلْعَالَمِ صَانِعَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ، مَعَ أن كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنظَرِ وَالْفَلْسَفَةِ تَعِبُوا فِي إِثْبَاتِ هَذَا الْمَطْلُوبِ وَتَقْرِيرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنِ اعْتَرَفَ بِالْعَجْزِ عَنْ تَقْرِيرِ هَذَا بِالْعَقْلِ، وَزَعَمَ أنهُ يُتَلَقى [1] مِنَ السمْعِ.

وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ النظَرِ إِثْبَاتُهُ بِدَلِيلِ التمَانُعِ، وَهُوَ: أنهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ فَعِنْدَ اخْتِلَافِهِمَا مِثْلَ أَنْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا تَحْرِيكَ جِسْمٍ وَآخَرُ تَسْكِينَهُ، أَوْ يُرِيدَ أَحَدُهُمَا إِحْيَاءَهُ وَالْآخَرُ إِمَاتَتَهُ: فَإما أَنْ يَحْصُلَ مُرَادُهُمَا، أَوْ مُرَادُ أَحَدِهِمَا، أَوْ لَا يَحْصُلُ مُرَادُ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَالْأَولُ مُمْتَنِعٌ؛ لِأنهُ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ الضدَّيْنِ، وَالثالِثُ مُمْتَنِعٌ؛ لِأنهُ يَلْزَمُ خُلُو الْجِسْمِ عَنِ الْحَرَكَةِ وَالسكُونِ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ، وَيَسْتَلْزِمُ أَيْضًا عَجْزَ كُل مِنْهُمَا، وَالْعَاجِزُ لَا يَكُونُ إِلَهًا، وَإِذَا حَصَلَ مُرَادُ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ، كَانَ هَذَا هُوَ الْإِلَهَ الْقَادِرَ، وَالْآخَرُ عَاجِزًا لَا يَصْلُحُ لِلْإِلَهِيةِ، وَتَمَامُ الْكَلَامِ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مَعْرُوفٌ فِي مَوْضِعِهِ.

---

(١) في المطبوعة " يلتقي " .

وكثيرٌ من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ (١)؛ لاعتقادهم أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الإلهية الذي بينه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك، بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد الإلهية المتضمن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإن المشركين من العرب كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، وأن خالق السماوات والأرض واحد، كما أخبر تعالى عنهم بقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (٢). ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ (٣).

ومثل هذا كثير في القرآن، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنها مشاركة لله في خلق العالم، بل كان حالهم فيها كحال أمثالهم من مشركي الأمم من الهند والترك والبربر وغيرهم، تارة يعتقدون أن هذه تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شفعاء، ويتوسلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب، قال تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (٤). وقد ثبت في صحيح البخاري، وكتب التفسير، وقصص الأنبياء وغيرها، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره من السلف، أن هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وأن هذه الأصنام بعينها صارت إلى قبائل العرب، ذكرها ابن عباس رضي الله

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٢ .
(٢) سورة لقمان آية : ٢٥ .
(٣) سورة المؤمنون الآيتان : ٨٤-٨٥ .
(٤) سورة نوح آية : ٢٣ .

عَنْهُمَا قِيلَةً قِيلَةً. وَقَدْ ثبت فِي صَحِيح مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهياج الْأَسَدِي، قَالَ: قَالَ لِي عَلِي بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ ألَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ؟ ﴿ أَمَرَنِي أَنْ لَا أَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلا سَوَّيْتُهُ، وَلَا تِمْثَالًا إِلا طَمَسْتُهُ ﴾ [(١)]. وَفِي " الصحيحَيْنِ " عَنِ النبِي ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ: ﴿ لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنصَارَى، اتخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ ﴾ [(٢)] ، يُحَذِّرُ مَا فَعَلُوا، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: وَلَوْلَا ذَلِكَ لَأُبْرِزَ قَبْرُهُ، وَلَكِنْ كُرِهَ أَنْ يُتخَذَ مَسْجِدًا، وَفِي " الصحِيحَيْنِ " أَنَّهُ ذُكِرَ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ كَنِيسَةٌ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَذُكِرَ لَهُ مِنْ حُسْنِهَا وَتَصَاوِيرَ فِيهَا، فَقَالَ: ﴿ إِن أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرجُلُ الصالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ التصَاوِيرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [(٣)].

وَفِي " صَحِيحِ مُسْلِمٍ " عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ: ﴿ إِن مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ ﴾ [(٤)].

وَمِنْ أَسْبَابِ الشرْكِ عِبَادَةُ الْكَوَاكِبِ، وَاتخَاذُ الْأَصْنَامِ بِحَسَبِ مَا يُظَن أَنَّهُ مُنَاسِبٌ لِلْكَوَاكِبِ مِنْ طِبَاعِهَا.

وَشِرْكُ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السلَامُ كَانَ - فِيمَا يُقَالُ - مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَكَذَلِكَ الشرْكُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْجِن، وَاتخَاذُ الْأَصْنَامِ لَهُمْ.

---

(١) مسلم الجنائز (٩٦٩) ، الترمذي الجنائز (١٠٤٩) ، النسائي الجنائز (٢٠٣١) ، أبو داود الجنائز (٣٢١٨) ، أحمد (١٢٩/١) .

(٢) البخاري الجنائز (١٣٢٤) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٣١) ، النسائي المساجد (٧٠٣) ، أحمد (٦/ ١٤٦) ، الدارمي الصلاة (١٤٠٣) .

(٣) البخاري الصلاة (٤١٧) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٨) ، النسائي المساجد (٧٠٤) ، أحمد (٥١/٦) .

(٤) مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٢) .

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع، وأنه ليس للعالم صانعان، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء، كما أخبر عنهم تعالى بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾[1]. ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[2]. وكذلك كان حال الأمم السالفة المشركين الذين كذبوا الرسل. كما حكى الله تعالى عنهم في قصة صالح عليه السلام عن التسعة الرهط الذين تقاسموا بالله، أي: تحالفوا بالله، لنبيتنه وأهله. فهؤلاء المفسدون المشركون تحالفوا بالله على قتل نبيهم وأهله، وهذا بين أنهم كانوا مؤمنين بالله إيمان المشركين.

فعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية، الذي يتضمن توحيد الربوبية. قال تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾[3].

﴿ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ إِذَا

(١) سورة الزمر آية : ٣ .
(٢) سورة يونس آية : ١٨ .
(٣) سورة الروم آية : ٣٠ .

هُمۡ يَقۡنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (1). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ (2).

وَقَالَ ﷺ ﴿ كُل مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ﴾ (3) وَلَا يُقَالُ: إِن مَعْنَاهُ يُولَدُ سَاذِجًا لَا يَعْرِفُ تَوْحِيدًا وَلَا شِرْكًا، كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ لما تلونا، وَلِقَوْلِهِ ﷺ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ ﷻ ﴿ خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ ﴾ (4) الْحَدِيثَ. وَفِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ مَا يَدُل عَلَى ذَلِكَ، حَيْثُ قَالَ: ﴿ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ﴾ (5) وَلَمْ يَقُلْ: وَيُسْلِمَانِهِ. وَفِي رِوَايَةٍ: "يُولَدُ عَلَى الْمِلةِ " وَفِي أُخْرَى: " عَلَى هَذِهِ الْمِلةِ ".

وَهَذَا الذِي أَخْبَرَ بِهِ ﷺ هُوَ الذِي تَشْهَدُ الْأَدِلةُ الْعَقْلِيةُ بِصِدْقِهِ. مِنْهَا، أَنْ يُقَالَ: لَا رَيْبَ أَن الْإِنسَانَ قَدْ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الِاعْتِقَادَاتِ وَالْإِرَادَاتِ مَا يَكُونُ حَقًّا، وَتَارَةً مَا يَكُونُ بَاطِلًا، وَهُوَ حَساسٌ مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَاتِ، وَلَا بُد لَهُ مِنْ أَحَدِهِمَا، وَلَا بُد لَهُ مِنْ مُرَجِّحٍ لِأَحَدِهِمَا. وَنَعْلَمُ أَنهُ إِذَا عُرِضَ عَلَى كُل أَحَدٍ أَنْ يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ وَأَنْ يُكَذِّبَ وَيَتَضَرَّرَ، مَالَ بِفِطْرَتِهِ إِلَى أَنْ يُصَدِّقَ وَيَنْتَفِعَ، وَحِينَئِذٍ فَالِاعْتِرَافُ بِوُجُودِ الصانِعِ الْإِيمَانُ بِهِ هُوَ الْحَق أَوْ نَقِيضُهُ، وَالثانِي فَاسِدٌ قَطْعًا، فَتَعَينَ الْأَولُ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي الْفِطْرَةِ مَا يَقْتَضِي مَعْرِفَةَ الصانِعِ وَالْإِيمَانَ بِهِ. وَبَعْدَ ذَلِكَ: إِما أَنْ يَكُونَ فِي فِطْرَتِهِ مَحَبتُهُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ أَوْ لَا. وَالثانِي فَاسِدٌ قَطْعًا، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي فِطْرَتِهِ مَحَبةُ مَا يَنْفَعُهُ.

---

(1) سورة الروم الآيات من : ٣١- إلى ٣٦ .

(2) سورة إبراهيم آية : ١٠ .

(3) البخاري الجنائز (١٣١٩) ، مسلم القدر (٢٦٥٨) ، الترمذي القدر (٢١٣٨) ، أبو داود السنة (٤٧١٤) ، أحمد (٢/٢٧٥) ، مالك الجنائز (٥٦٩) .

(4) مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٥) ، أحمد (٤/١٦٢) .

(5) البخاري الجنائز (١٢٩٢) ، مسلم القدر (٢٦٥٨) ، الترمذي القدر (٢١٣٨) ، أبو داود السنة (٤٧١٤) ، أحمد (٢/٣١٥) ، مالك الجنائز (٥٦٩) .

وَمِنْهَا: أنهُ مَفْطُورٌ عَلَى جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِ بِحِسِهِ. وَحِينَئِذٍ لَمْ تَكُنْ فِطْرَةُ كُلِ وَاحِدٍ مُسْتَقِلَةً بِتَحْصِيلِ ذَلِكَ، بَلْ يَحْتَاجُ إِلَى سَبَبٍ مُعَيِنٍ لِلْفِطْرَةِ، كَالتَعْلِيمِ وَنَحْوِهِ، فَإِذَا وُجِدَ الشَرْطُ، وَانْتَفَى الْمَانِعُ، اسْتَجَابَتْ لِمَا فِيهَا مِنَ الْمُقْتَضِي لِذَلِكَ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ: مِنَ الْمَعْلُومِ أن كُلَ نَفْسٍ قَابِلَةٌ لِلْعِلْمِ وَإِرَادَةِ الْحَقِ، وَمُجَرَدُ التَعْلِيمِ وَالتَحْضِيضِ لَا يُوجِبُ الْعِلْمَ وَالْإِرَادَةَ، لَوْلَا أن فِي النفْسِ قُوَةً تَقْبَلُ ذَلِكَ، وَإِلا فَلَوْ عُلِمَ الْجُهالُ وَالْبَهَائِمُ وَحُضضَا لَمْ يَقْبَلَا. وَمَعْلُومٌ أن حُصُولَ إِقْرَارِهَا بِالصانِعِ مُمْكِنٌ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ مُنْفَصِلٍ مِنْ خَارِجٍ، وَتَكُونُ الذاتُ كَافِيَةً فِي ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ الْمُقْتَضِي قَائِمًا فِي النفْسِ وَقُدِرَ عَدَمُ الْمُعَارِضِ، فَالْمُقْتَضِي السالِمُ عَنِ الْمُعَارِضِ يُوجِبُ مُقْتَضَاهُ، فَعُلِمَ أن الْفِطْرَةَ السلِيمَةَ إِذَا لَمْ يَحْصُلْ لَهَا مَا يُفْسِدُهَا، كَانَتْ مُقِرةً بِالصانِعِ عَابِدَةً لَهُ.

وَمِنْهَا: أَنْ يُقَالَ، أنهُ إِذَا لَمْ يَحْصُلِ الْمُفْسِدُ الْخَارِجُ، وَلَا الْمُصْلِحُ الْخَارِجُ، كَانَتِ الْفِطْرَةُ مُقْتَضِيَةً لِلصلَاحِ، لِأن الْمُقْتَضِيَ فِيهَا لِلْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ قَائِمٌ، وَالْمَانِعَ مُنْتَفٍ.

وَيُحْكَى عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ: أن قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ أَرَادُوا الْبَحْثَ مَعَهُ فِي تَقْرِيرِ تَوْحِيدِ الربُوبِيةِ. فَقَالَ لَهُمْ: أَخْبِرُونِي قَبْلَ أَنْ نَتَكَلمَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ سَفِينَةٍ فِي دِجْلَةَ، تَذْهَبُ، فَتَمْتَلِئُ مِنَ الطعَامِ وَالْمَتَاعِ وَغَيْرِهِ بِنَفْسِهَا، وَتَعُودُ بِنَفْسِهَا، فَتَرْسُو بِنَفْسِهَا، وَتُفْرِغُ وَتَرْجِعُ، كُل ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُدَبرَهَا أَحَدٌ ؟ ! فَقَالُوا: هَذَا مُحَالٌ لَا يُمْكِنُ أَبَدًا ! فَقَالَ لَهُمْ: إِذَا كَانَ هَذَا مُحَالًا فِي سَفِينَةٍ، فَكَيْفَ فِي هَذَا الْعَالَمِ كُلِهِ عُلْوِهِ وَسُفْلِهِ !! وَتُحْكَى هَذِهِ الْحِكَايَةُ أَيْضًا عَنْ غَيْرِ أَبِي حَنِيفَةَ.

فَلَوْ أَقَر رَجُلٌ بِتَوْحِيدِ الربُوبِيةِ، الذِي يُقِر بِهِ هَؤُلَاءِ النظارُ، وَيَفْنَى فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ التصَوفِ، وَيَجْعَلُونَهُ غَايَةَ السالِكِينَ، كَمَا ذَكَرَهُ صَاحِبُ " مَنَازِلِ السائِرِينَ " وَغَيْرُهُ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ إِنْ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ وَحْدَهُ وَيَتَبرأْ مِنْ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ - كَانَ مُشْرِكًا مِنْ جِنْسِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ تَقْرِيرِ هَذَا التوْحِيدِ وَبَيَانِهِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ أنهُ يقرر تَوْحِيدَ الربوبية، وَيبين أنه لا خَالِقَ إلا الله، وَأن ذَلِكَ مُسْتَلزِمٌ أنْ لا يُعْبَدَ إلا الله، فَيَجْعَلُ الأولَ دَلِيلًا عَلَى الثانِي، إذْ كَانُوا يُسلمُونَ في الأولِ، وَيُنازِعُونَ فِي الثانِي، فَيبين لَهُمْ سُبْحَانَهُ أنكُمْ إذَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ أنهُ لا خَالِقَ إلا اللهُ وحده، وَأنهُ هُوَ الذِي يَأْتِي الْعِبَادَ بِمَا يَنْفَعُهُمْ، وَيَدْفَعُ عَنْهُمْ مَا يَضُرهُمْ، لا شَرِيكَ لَهُ فِي ذَلِكَ، فَلِمَ تَعْبُدُونَ غَيْرَه، وَتجْعَلُونَ معه آلِهَةً أخْرَى ؟ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (1) الْآيَاتِ. يَقُولُ اللهُ تَعالَى فِي آخِرِ كُل آيَةٍ: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ (2) أيْ أإلَهٌ مع اللهِ فَعلَ هَذَا ؟ وَهَذا اسْتِفْهَامُ إنْكَارٍ، يَتضمنُ نفْيَ ذَلِكَ، وَهُمْ كَانُوا مُقرينَ بِأنهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلكَ غَيْرُ اللهِ، فَاحْتج عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، وَلَيْسَ الْمَعْنَى أنه اسْتِفْهَامٌ: هَلْ مَعَ اللهِ إلَهٌ ؟ كَمَا ظَنهُ بَعْضُهُمْ؛ لِأن هَذَا الْمَعْنَى لا يُناسِبُ سِيَاقَ الْكَلَامِ، وَالْقَوْمُ كَانُوا يَجْعَلُونَ مع اللهِ آلِهَةً أُخْرَى، كَمَا قَالَ تَعالَى: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ ﴾ (3) وَكَانُوا يَقُولُونَ: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾ (4) لَكِنهُمْ مَا كَانُوا يَقُولُونَ: إن مَعَهُ إلَهًا: ﴿ جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ ﴾ (5) بَلْ هُمْ مُقرونَ بِأن اللهَ وَحْدَهُ فَعلَ هَذا، وَهَكَذَا سَائِرُ الْآيَاتِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟

(1) سورة النمل الآيتان : 59-60 .
(2) سورة النمل آية : 60 .
(3) سورة الأنعام آية : 19 .
(4) سورة ص آية : 5 .
(5) سورة النمل آية : 61 .

﴿رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [(١)] وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ [(٢)]. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَإِذَا كَانَ تَوْحِيدُ الرُبُوبِيةِ، الذِي يَجْعَلُهُ هَؤُلَاءِ النظارُ، وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الصوفِيةِ هُوَ الْغَايَةَ فِي التوْحِيدِ -: دَاخِلًا فِي التوْحِيدِ الذِي جَاءَتْ بِهِ الرسُلُ، وَنَزَلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، فَلْيُعْلَمْ أَن دَلَائِلَهُ مُتَعَددَةٌ، كَدَلَائِلِ إِثْبَاتِ الصانِعِ وَدَلَائِلِ صِدْقِ الرسُولِ، فَإِن الْعِلْمَ كُلمَا كَانَ الناسُ إِلَيْهِ أَحْوَجَ كَانَتْ أَدِلتُهُ أَظْهَرَ، رَحْمَةً مِنَ اللهِ بِخَلْقِهِ.

وَالْقُرْآنُ قَدْ ضَرَبَ اللهُ لِلناسِ فِيهِ مِنْ كُل مَثَلٍ، وَهِيَ الْمَقَايِيسُ الْعَقْلِيةُ الْمُفِيدَةُ لِلْمَطَالِبِ الدينِيةِ، لَكِن الْقُرْآنَ يُبَينُ الْحَق فِي الْحُكْمِ وَالدلِيلِ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَق إِلا الضلَالُ ؟ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُقَدمَاتِ مَعْلُومَةً ضَرُورِيةً مُتفَقًا عَلَيْهَا، اسْتُدِل بِهَا، وَلَمْ يُحْتَجْ إِلَى الِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا.

وَالطرِيقَةُ الفصيحَة فِي الْبَيَانِ أَنْ تُحْذَفَ، وَهِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ، بِخِلَافِ مَا يَدعِيهِ الْجُهالُ، الذِينَ يَظُنونَ أَن الْقُرْآنَ لَيْسَ فِيهِ طَرِيقَةٌ بُرْهَانِيةٌ، بِخِلَافِ مَا قَدْ يَشْتَبِهُ وَيَقَعُ فِيهِ نِزَاعٌ، فَإِنهُ يُبَينُهُ وَيَدُل عَلَيْهِ.

وَلَما كَانَ الشرْكُ فِي الرُبُوبِيةِ مَعْلُومَ الِامْتِنَاعِ عِنْدَ الناسِ كُلهِمْ، بِاعْتِبَارِ إِثْبَاتِ خَالِقَيْنِ مُتَمَاثِلَيْنِ فِي الصفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، وَإِنمَا ذَهَبَ بَعْضُ الْمُشْرِكِينَ إِلَى أَن ثَم خَالِقًا خَلَقَ بَعْضَ الْعَالَمِ، كَمَا يَقُولُهُ الثنَوِيةُ فِي الظلْمَةِ، وَكَمَا يَقُولُهُ الْقَدَرِيةُ فِي أَفْعَالِ الْحَيَوَانِ، وَكَمَا يَقُولُهُ الْفَلَاسِفَةُ الدهْرِيةُ فِي حَرَكَةِ الْأَفْلَاكِ، أَوْ حَرَكَاتِ النفُوسِ، أَوِ الْأَجْسَامِ الطبِيعِيةِ، فَإِن هَؤُلَاءِ يُثْبِتُونَ أُمُورًا مُحْدَثَةً بِدُونِ إِحْدَاثِ اللهِ إِياهَا، فَهُمْ مُشْرِكُونَ فِي بَعْضِ الرُبُوبِيةِ، وَكَثِيرٌ مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ قَدْ يَظُن فِي آلِهَتِهِ شَيْئًا مِنْ نَفْعٍ أَوْ ضُر، بِدُونِ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ ذَلِكَ.

---

(١) سورة البقرة آية : ٢١ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٤٦ .

فلما كان هذا الشرك في الربوبية موجودًا في الناس، بين القرآن بطلانه، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ ﴾ (١).

فتأمل هذا البرهان الباهر، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر. فإن الإله الحق لا بد أن يكون خالقًا فاعلًا، يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه في ملكه، لكان له خلق وفعل، وحينئذ فلا يرضى تلك الشركة، بل إن قدر على قهر ذلك الشريك وتفرده بالملك والإلهية دونه فعل، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه. فلا بد من أحد ثلاثة أمور:

إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه.

وإما أن يعلو بعضهم على بعض.

وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء، ولا يتصرفون فيه، بل يكون وحده هو الإله، وهم العبيد المربوبون المقهورون من كل وجه.

وانتظام أمر العالم كله وإحكام أمره، من أدل دليل على أن مدبره إله واحد، وملك واحد، ورب واحد، لا إله للخلق غيره، ولا رب لهم سواه. كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد، لا رب غيره ولا إله سواه، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية. فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان.

فالعلم بأن وجود العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته، مستقر في الفطر معلوم بصريح العقل بطلانه، فكذا تبطل إلهية اثنين. فالآية الكريمة موافقة لما ثبت واستقر في الفطر من توحيد الربوبية، دالة مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية.

---

(١) سورة المؤمنون آية : ٩١ .

وَقَرِيبٌ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١).

وَقَدْ ظَنَّ طَوَائِفُ أَنَّ هَذَا دَلِيلُ التَّمَانُعِ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ، وَهُوَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ صَانِعَانِ الخ، وَغَفَلُوا عَنْ مَضْمُونِ الْآيَةِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ غَيْرُهُ، وَلَمْ يَقُلْ: أَرْبَابٌ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ هَذَا إِنَّمَا هُوَ بَعْدَ وُجُودِهِمَا، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ فِيهِمَا وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ آلِهَةٌ سِوَاهُ لَفَسَدَتَا.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿ لَفَسَدَتَا ﴾ (٢)، وَهَذَا فَسَادٌ بَعْدَ الْوُجُودِ، وَلَمْ يَقُلْ: لَمْ يُوجَدَا.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِمَا آلِهَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ، بَلْ لَا يَكُونُ الْإِلَهُ إِلَّا وَاحِدًا، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْإِلَهُ الْوَاحِدُ إِلَّا اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَأَنَّ فَسَادَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْآلِهَةِ فِيهِمَا مُتَعَدِّدَةً، وَمِنْ كَوْنِ الْإِلَهِ الْوَاحِدِ غَيْرَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَا صَلَاحَ لَهُمَا إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ الْإِلَهُ فِيهِمَا هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا غَيْرُ. فَلَوْ كَانَ لِلْعَالَمِ إِلَهَانِ مَعْبُودَانِ لَفَسَدَ نِظَامُهُ كُلُّهُ، فَإِنَّ قِيَامَهُ إِنَّمَا هُوَ بِالْعَدْلِ، وَبِهِ قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.

وَأَظْلَمُ الظُّلْمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ الشِّرْكُ، وَأَعْدَلُ الْعَدْلِ التَّوْحِيدُ.

وَتَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ مُتَضَمِّنٌ لِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ دُونَ الْعَكْسِ. فَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ يَكُونُ عَاجِزًا، وَالْعَاجِزُ لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ ﴾ (٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (٤)

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٢ .

(٢) سورة الأنبياء آية : ٢٢ .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٩١ .

(٤) سورة النحل آية : ١٧ .

وقال تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ﴾ (١).

وفيها للمتأخرين قولان:

أحدهما: لاتخذوا سبيلًا إلى مغالبته. والثاني، وهو الصحيح المنقول عن السلف، كقتادة وغيره، وهو الذي ذكره ابن جرير ولم يذكر غيره: لاتخذوا سبيلًا بالتقرب إليه، كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴾ (٢) وذلك أنه قال: ﴿ لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ ﴾ (٣).

وهم لم يقولوا: إن العالم له صانعان، بل جعلوا معه آلهة اتخذوهم شفعاء، وقالوا: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (٤) بخلاف الآية الأولى.

(١) سورة الإسراء آية : ٤٢ .
(٢) سورة الإنسان آية : ٢٩ .
(٣) سورة الإسراء ، آية : ٤٢ .
(٤) سورة الزمر آية : ٣ .

أنواع التَّوْحِيدُ الذِي دَعَتْ إلَيْهِ الرُسُلُ

ثم التوحيد الذي دعت إليه رسل الله وَنزَلَتْ بِهِ كُتُبُهُ نَوْعَانِ: تَوْحِيدٌ فِي الْإِثْبَاتِ وَالْمَعْرِفَةِ، وَتَوْحِيدٌ فِي الطلَبِ وَالْقَصْدِ.

فَالْأولُ: هُوَ إِثْبَاتُ حَقِيقَةِ ذَاتِ الرب تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ وَأَسْمَائِهِ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي ذَلِكَ كُلِهِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ، وَكَمَا أَخْبَرَ رَسُولُهُ ﷺ.

وَقَدْ أَفْصَحَ الْقُرْآنُ عَنْ هَذَا النوْعِ كُل الْإِفْصَاحِ، كَمَا فِي أول " الْحَدِيدِ " وَ " طه " وَآخِرِ " الْحَشْرِ " وَأول " الم تَنْزِيلُ السجْدَةِ " وَأول " آل عِمْرَانَ " وَسُورَةِ " الْإِخْلَاصِ " بِكَمَالِهَا، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالثانِي: وَهُوَ تَوْحِيدُ الطلَبِ وَالْقَصْدِ، مِثْلَ مَا تَضَمَنَتْهُ سُورَةُ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ ﴾ [(١)] وَ ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ [(٢)] وَأولُ سُورَةِ " تَنْزِيلُ الْكِتَابِ " وَآخِرُهَا، وَأولُ سُورَةِ " يُونُسَ " وَأَوْسَطُهَا وَآخِرُهَا، وَأولُ سُورَةِ " الْأَعْرَافِ " وَآخِرُهَا، وَجُمْلَةُ سُورَةِ " الْأَنعَامِ ".

وَغَالِبُ سُوَرِ الْقُرْآنِ مُتَضَمنَةٌ لِنَوْعَي التوْحِيدِ، بَلْ كُل سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ. فَإِن الْقُرْآنَ إما خَبَرٌ عَنِ اللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَهُوَ التوْحِيدُ الْعِلْمِي الْخَبَرِي. وَإما دَعْوَةٌ إِلَى عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَخَلْعُ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ، فَهُوَ التوْحِيدُ الْإِرَادِي الطلَبِي. وَإما أَمْرٌ وَنَهْيٌ وَإِلْزَامٌ بِطَاعَتِهِ، فَذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ التوْحِيدِ وَمُكَملَاتِهِ. وَإما خَبَرٌ عَنْ إِكْرَامِهِ لِأَهْلِ تَوْحِيدِهِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدنْيَا، وَمَا يُكْرِمُهُمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ جَزَاءُ تَوْحِيدِهِ. وَإما خَبَرٌ عَنْ أَهْلِ الشرْكِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الدنْيَا مِنَ النكَالِ، وَمَا فَعَلَ بِهِمْ فِي الْعُقْبَى مِنَ الْعَذَابِ [(٣)]

---

(١) سورة الكافرون آية : ١ .

(٢) سورة آل عِمْرَانَ آية : ٦٤ .

(٣) عبر بقوله : " وما فعل " بصيغة الماضي - لأن ما توعد الله به أهل الشرك متحقق ثابت بموتهم مشركين . فكأنه وقع فعلا ، وذلك التعبير - بصيغة الماضي الواقع عما سيكون يوم القيامة - كثير في القرآن .

فهو جزاء من خرج عن حكم التوحيد.

فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. فـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] توحيد، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[2] توحيد، ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾[3] توحيد متضمن لسؤال الهداية إلى طريق أهل التوحيد، ﴿ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾[4] الذين فارقوا التوحيد.

وكذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله.. قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[5]. فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد، والرد على جميع طوائف الضلال، فتضمنت أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها، من أجل شاهد، بأجل مشهود به.

وعبارات السلف في (شهد) - تدور على الحكم، والقضاء، والإعلام، والبيان، والإخبار. وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها؛ فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبره، وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه.

فلها أربع مراتب:

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٢ .

(٢) سورة الفاتحة آية : ٣ .

(٣) سورة الفاتحة آية : ٦ .

(٤) سورة الفاتحة آية : ٧ .

(٥) سورة آل عمران الآيتان : ١٨-١٩ .

فأول مراتبها: علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته. وثانيها: تكلمه بذلك، وإن لم يعلم به غيره، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها. وثالثها: أن يعلم غيره بما يشهد به ويخبره به ويبينه له. ورابعها: أن يلزمه بمضمونها ويأمره به.

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية والقيام بالقسط تضمنت هذه المراتب الأربع: علمه بذلك سبحانه، وتكلمه به، وإعلامه، وإخباره لخلقه به، وأمرهم وإلزامهم به.

فأما مرتبة العلم، فإن الشهادة تضمنها ضرورة، وإلا كان الشاهد شاهدًا بما لا علم له به. قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1] وقال - ﷺ - ﴿ على مثلها فاشهد ﴾ ، وأشار إلى الشمس.

وأما مرتبة التكلم والخبر، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾[2]. فجعل ذلك منهم شهادة، وإن لم يتلفظوا بلفظ الشهادة، ولم يؤدوها عند غيرهم.

وأما مرتبة الإعلام والإخبار فنوعان: إعلام بالقول، وإعلام بالفعل. وهذا شأن كل معلم لغيره بأمر. تارة يعلمه به بقول، وتارة بفعل، ولهذا كان من جعل داره مسجدًا وفتح بابها، وأبرزها بطريقها وأذن للناس بالدخول والصلاة فيها -: معلمًا أنها وقف، وإن لم يتلفظ به. وكذلك من وجد متقربًا إلى غيره بأنواع المسار، يكون معلمًا له ولغيره أنه يحبه، وإن لم يتلفظ بقوله، وكذلك بالعكس. وكذلك شهادة الرب ﷻ وبيانه وإعلامه، يكون بقوله تارة، وبفعله أخرى. فالقول ما أرسل به رسله وأنزل به كتبه. وأما بيانه وإعلامه بفعله، فكما قال ابن كيسان: شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه -: أنه لا إله إلا هو. وقال آخر:

(١) سورة الزخرف آية : ٨٦ .

(٢) سورة الزخرف آية : ١٩ .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

. ومما يدل على أن الشهادة تكون بالفعل، قوله تعالى:

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ شَـٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ ﴾ (١).

فهذه شهادة منهم على أنفسهم بما يفعلونه.

والمقصود أنه سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه، ودلالتها إنما هي بخلقه وجعله.

وأما مرتبة الأمر بذلك والإلزام به، وأن مجرد الشهادة لا يستلزمه، لكن الشهادة في هذا الموضع تدل عليه وتتضمنه - فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به، وقضى وأمر وألزم عباده به، كما قال تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (٢) وقال الله تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (٤) ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (٦) وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۘ ﴾ (٧)

والقرآن كله شاهد بذلك.

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك: أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو، فقد أخبر ونبأ وأعلم وحكم وقضى أن ما سواه ليس بإله، وأن إلهية ما سواه باطلة، فلا يستحق العبادة

---

(١) سورة التوبة آية : ١٧ .

(٢) سورة الإسراء آية : ٢٣ .

(٣) سورة النحل آية : ٥١ .

(٤) سورة البينة آية : ٥ .

(٥) سورة التوبة آية : ٣١ .

(٦) سورة الإسراء آية : ٢٢ .

(٧) سورة القصص آية : ٨٨ .

سِواه، كما لا تصلح الإلهية لغيره. وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحده إلها، والنهي عن اتخاذ غيره معه إلها. وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفي والإثبات، كما إذا رأيت رجلا يستفتي رجلا أو يستشهده أو يستطبه وهو ليس أهلا لذلك، ويدع من هو أهل له، فتقول: هذا ليس بمفت ولا شاهد ولا طبيب، المفتي فلان، والشاهد فلان، والطبيب فلان، فإن هذا أمر منه ونهي.

وأيضا: فالآية دلت على أنه وحده المستحق للعبادة.. فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة، تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم، وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم.

وأيضا: فلفظ " الحكم " و " القضاء " يستعمل في الجملة الخبرية، ويقال للجملة الخبرية: قضية، وحكم، وقد حكم فيها بكذا. قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝١٥٢ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝١٥٣ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝١٥٤ ﴾[1]. فجعل هذا الإخبار المجرد منهم حكما. وقال تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٥ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٦ ﴾[2]. لكن هذا حكم لا إلزام معه.

والحكم والقضاء بأنه لا إله إلا هو متضمن الإلزام، ولو كان المراد مجرد شهادة لم يتمكنوا من العلم بها، ولم ينتفعوا بها، ولم تقم عليهم بها الحجة. بل قد تضمنت البيان للعباد ودلالتهم وتعريفهم بما شهد به، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادة ولم يبينها بل كتمها، لم ينتفع بها أحد، ولم تقم بها حجة.

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها، فهو سبحانه قد بينها غاية البيان بطرق ثلاثة: السمع، والبصر، والعقل.

(١) سورة الصافات الآيات : ١٥١-١٥٤ .

(٢) سورة القلم الآيتان : ٣٥-٣٦ .

أما السمْعُ: فِسمْعِ آياتِهِ الْمتْلوةِ الْمُبينةِ لِمَا عَرفنَا إياهُ مِنْ صِفَاتِ كمَالِهِ كُلهَا، الْوحْدانية وَغيْرِهَا، غَايةَ الْبيانِ، لَا كمَا يَزْعُمُهُ الْجَهْمِيةُ وَمَنْ وَافقَهُمْ مِنَ الْمُعْتزلةِ وَمُعطلةِ بَعْضِ الصفَاتِ مِنْ دَعْوى احْتِمَالَاتٍ تُوقِعُ فِي الْحَيْرةِ، تُنَافِي الْبيانَ الذِي وَصَفَ اللهُ بِهِ كِتَابَهُ الْعزِيزَ وَرَسُولَهُ الْكرِيمَ، كمَا قَالَ تَعالَى: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ ﴾[1]، ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ ﴾[2]، ﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۝ ﴾[3]، ﴿ هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ۝ ﴾[4]، ﴿ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝ ﴾[5]، ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ۝ ﴾[6].

وَكذَلِكَ السنةُ تَأتِي مُبينةً وَمُقررةً لِمَا دَلَّ عَليْهِ الْقُرْآنُ، لَمْ يُحْوجْنَا رَبنَا سُبْحَانَهُ وَتَعالَى إِلى رَأْيِ فُلَانٍ، وَلَا إِلَى ذَوْقِ فُلَانٍ، وَوَجْدِهِ فِي أُصُولِ دِينِنَا. وَلِهَذَا تَجِدُ مَنْ خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسنةَ مُخْتلِفينَ مُضْطرِبينَ. بَلْ قَدْ قَالَ تَعالَى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾[7]. فَلَا يَحْتاجُ فِي تَكْمِيلِهِ إِلَى أَمْرٍ خَارِجٍ عَنِ الْكِتَابِ وَالسنةِ.

وَإِلَى هَذَا الْمَعْنى أَشَارَ الشيْخُ أَبو جَعْفرٍ الطحَاوِي فِيمَا يَأتِي مِنْ كَلَامِهِ بِقوْلِهِ: لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتأوِلينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتوَهِمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلا مَنْ سَلمَ لِلهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ - ﷺ.

---

(١) سورتا الزُخْرُف والدخان الآيتان : ١-٢ .

(٢) سورة يُوسُفَ آية : ١ .

(٣) سورة الْحِجْرِ آية : ١ .

(٤) سورة آلِ عِمْرَانَ آية : ١٣٨ .

(٥) سورة الْمَائِدَةِ آية : ٩٢ .

(٦) سورة النحْلِ آية : ٤٤ .

(٧) سورة الْمَائِدَةِ آية : ٣ .

وَأما آيَاتُه الْعِيَانية الْخَلْقية: فالنظرُ فِيهَا وَالِاسْتِدْلَالُ بِهَا يَدُل عَلى مَا تَدُل عَلَيْهِ آيَاتُه الْقَوْلية والسمْعِية، وَالْعقْلُ يَجْمَعُ بين هَذِه وَهَذِه، فَيَجْزِمُ بِصِحةِ مَا جَاءَتْ بِهِ الرسُلُ، فَتَتفِقُ شَهَادَةُ السمْعِ وَالْبصرِ وَالْعقْلِ وَالْفِطْرَة.

فَهُوَ سُبْحَانَه لِكمَال عَدْلِه وَرَحْمَتِه وَإِحْسَانِه وَحِكْمَتِه وَمَحَبتِه لِلْعُذْرِ وَإِقَامَةِ الْحُجةِ - لَمْ يَبْعَثْ نَبِيا إِلا وَمَعَهُ آيَةٌ تَدُل عَلى صِدْقِهِ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ. قَالَ تَعالَى: ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ ﴾ (١) وَقَالَ تَعالَى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ ﴾ (٢) وَقَالَ تَعالَى: ﴿ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ ﴾ (٣) وَقَالَ تَعالَى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (٤) وَقَالَ تَعالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ ﴾ (٥) حَتى إِن مِنْ أَخْفَى آيَاتِ الرسُلِ آيَاتُ هُودٍ، حَتى قَالَ لَهُ قَوْمُهُ: (يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنةٍ)، وَمَعَ هَذَا فَبَيِّنَتُه مِنْ أَوْضَحِ الْبَيِّنات لِمَنْ وَفقَه اللهُ لِتَدَبرِهَا، وَقَدْ أَشَارَ إِلَيْهِ بِقَوْلِه: ﴿ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ ﴾ (٦).

---

(١) سورة الْحَدِيد آية : ٢٥ .

(٢) سورة النحْل الآيتان : ٤٣-٤٤ .

(٣) سورة آل عِمْرَانَ آية : ١٨٣ .

(٤) سورة آل عِمْرَانَ آية : ١٨٤ .

(٥) سورة الشورَى آية : ١٧ .

(٦) سورة هُودٍ الآيات : ٥٤-٥٦ .

فَهذَا مِنْ أعْظَمِ الْآيَاتِ: أن رَجْلًا وَاحِدًا يُخَاطِبُ أمةً عَظِيمَةً بِهذَا الْخِطَابِ، غَيْرَ جَزِعٍ وَلَا فَزِعٍ وَلَا خَوارٍ، بَلْ هُوَ وَاثِقٌ بِمَا قَالَهُ، جَازِمٌ بِهِ، فَأَشْهَدَ اللهَ أولًا عَلَى بَرَاءَتِهِ مِنْ دِينِهِمْ وَمَا هُمْ عَلَيْهِ، إِشْهَادَ وَاثِقٍ بِهِ مُعْتَمِدٍ عَلَيْهِ، مُعْلِمٍ لِقَوْمِهِ أنَّهُ وَلِيُّهُ وَنَاصِرُهُ وَغَيْرُ مُسَلِّطٍ لَهُمْ عَلَيْهِ. ثُم أشْهَدَهُمْ إِشْهَادَ مُجَاهِرٍ لَهُمْ بِالْمُخَالَفَةِ أنَّهُ بَرِيءٌ مِنْ دِينِهِمْ وَآلِهَتِهِمُ التي يُوَالُونَ عَلَيْهَا وَيَبْذُلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فِي نُصْرَتِهِمْ لَهَا، ثُم أكدَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ بِالاسْتِهَانَةِ لهمْ وَاحْتِقَارِهِمْ وَازْدِرَائِهِمْ وَلَو [(١)] يَجْتَمِعُونَ كُلُّهُمْ عَلَى كَيْدِهِ وَشِفَاءِ غَيْظِهِمْ مِنْهُ، ثُم يُعَاجِلُونَهُ وَلَا يُمْهِلُونَهُ، لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه. ثُم قَرر دَعْوَتَهُمْ أحْسَنَ تَقْرِيرٍ، وَبين أن رَبهُ تَعَالَى وَرَبهُمُ الذِي نَوَاصِيهِمْ بِيَدِهِ هُوَ وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ الْقَائِمُ بِنَصْرِهِ وَتَأْيِيدِهِ، وَأَنهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، فَلَا يَخْذُلُ مَنْ تَوكلَ عَلَيْهِ وَأَقر بِهِ، وَلَا يُشْمِتُ بِهِ أَعْدَاءَهُ.

فَأَي آيَةٍ وَبُرْهَانٍ أَحْسَنُ مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ وَبَرَاهِينِهِمْ وَأَدِلتِهِمْ ؟ وَهِيَ شَهَادَةٌ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ بَينَهَا لِعِبَادِهِ غَايَةَ الْبَيَانِ.

وَمِنْ أَسْمَائِهِ تَعَالَى " الْمُؤْمِنُ " وَهُوَ فِي أَحَدِ التفْسِيرَيْنِ: الْمُصَدقُ الذِي يُصَدقُ الصادِقِينَ بِمَا يُقِيمُ لَهُمْ مِنْ شَوَاهِدِ صِدْقِهِمْ، فَإِنهُ لَا بُد أنْ يُرِيَ الْعِبَادَ مِنَ الْآيَاتِ الْأُفُقِيةِ وَالنفْسِيةِ مَا يُبَينُ لَهُمْ أن الْوَحْيَ الذِي بَلغَهُ رُسُلُهُ حَق. قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [(٢)] أي الْقُرْآنَ، فَإِنهُ الْمُتَقَدمُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [(٣)] ثُم قَالَ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [(٤)].

(١) لعله : وأنم لو .

(٢) سورة فُصلَتْ آية : ٥٣ .

(٣) سورة الأحقاف آية : ١٠ .

(٤) سورة فُصلَتْ آية : ٥٣ .

فَشهدَ سُبْحَانه لرَسُوله بقَوْله أن مَا جَاءَ بِهِ حق، ووَعَدَ أنهُ يري الْعباَد من آيَاته الْفِعْلية الْخَلْقية مَا يَشْهدُ بذَلكَ أيْضًا. ثُم ذكَرَ مَا هُوَ أعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ كُله وَأجَل، وَهُوَ شَهَادَتُه سُبْحَانه بأنه عَلَى كُل شَيْءٍ شَهِيدٌ، فَإن مِنْ أسْمَائِهِ " الشهيدَ " الذِي لَا يَغِيبُ عَنْه شَيْءٌ، وَلَا يَعْزُبُ عَنْه، بَلْ هُوَ مُطلعٌ عَلَى كُل شَيْءٍ مُشَاهِدٌ لَه، عَلِيمٌ بتَفَاصِيله، وَهَذَا اسْتِدْلَالٌ بِأسْمَائِهِ وَصِفَاتِه، وَالْأولُ اسْتِدْلَالٌ بِقَوْلِه وَكلمَاتِه، وَاسْتِدْلَاله بالْآيَاتِ الْأفُقية وَالنفْسِية اسْتِدْلَالٌ بِأفْعَالِه وَمَخْلُوقَاتِه.

فَإنْ قُلْتَ: كَيفَ يُسْتَدَل بِأسْمَائِهِ وَصِفَاتِه، فَإن الِاسْتِدْلَالَ بِذَلِكَ لَا يُعْهَدُ فِي الِاصْطِلَاحِ؟

فَالْجَوَابُ: أن اللهَ تَعَالَى قَدْ أوْدَعَ فِي الْفِطْرَةِ الَتِي لَمْ تَتَنَجسْ بِالْجُحُودِ وَالتعْطِيلِ، وَلَا بِالتشْبِيهِ وَالتمْثِيلِ، أنهُ سُبْحَانَه الْكَامِلُ فِي أسْمَائِهِ وَصِفَاتِه، وَأنهُ الْمَوْصُوفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رُسُلُهُ، وَمَا خَفِيَ عَنِ الْخَلْقِ مِنْ كَمَالِهِ أعْظَمُ وَأعْظَمُ مِما عَرَفُوهُ مِنْه، وَمِنْ كَمَالِهِ الْمُقَدسِ شَهَادَتُهُ عَلَى كُل شَيْءٍ وَاطلَاعُهُ عَلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَغِيبُ عَنْه ذَرةٌ فِي السمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأرْضِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا: وَمَنْ هَذَا شَأنُه كَيْفَ يَلِيقُ بِالْعِبَادِ أنْ يُشْرِكُوا بِهِ، وَأنْ يَعْبُدُوا غَيْرَه، وَيَجْعَلُوا مَعَهُ إلَهًا آخَرَ؟ وَكَيفَ يَلِيقُ بِكَمَالِهِ أنْ يُقِر مَنْ يَكْذِبُ عَلَيْهِ أعْظَمَ الْكَذِبِ، وَيُخْبِرَ عَنْه بِخِلَافِ مَا الْأمْرُ عَلَيْهِ، ثُم يَنْصُرُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيُؤَيدُهُ وَيُعْلِي شَأنَهُ، وَيُجِيبَ دَعْوَتَهُ وَيُهْلِكَ عَدُوهُ، وَيُظْهِرَ عَلَى دِينِه مِنَ الْآيَاتِ وَالْبَرَاهِينِ مَا يَعْجِزُ عَنْ مِثْلِهِ قُوَى الْبَشَرِ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كَاذِبٌ عَلَيْهِ مُفْتَرٍ؟!

وَمَعْلُومٌ أن شَهَادَتَهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُل شَيْءٍ وَقُدْرَتَهُ وَحِكْمَتَهُ وَعِزتَهُ وَكَمَالَهُ الْمُقَدسَ يَأْبَى ذَلِكَ، وَمَنْ جَوزَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ أبْعَدِ الناسِ عَنْ مَعْرِفَتِه.

وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ هَذِهِ الطرِيقِ، وَهِيَ طَرِيقُ الْخَوَاصِ، يَسْتَدِلونَ بِاللهِ عَلَى أفْعَالِهِ وَمَا يَلِيقُ بِهِ أنْ يَفْعَلَهُ وَلَا يَفْعَلُهُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ

بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1]

وَسيأتي لِذَلكَ زِيادَةُ بَيانٍ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى.

وَيستدل أيضًا بأسْمائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَحْدَانيتِهِ وعَلى بُطْلَانِ الشرْكِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَـٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[2]. وَأضْعَافُ ذَلكَ فِي الْقُرْآنِ.

وَهذِهِ الطريقُ قَلِيلٌ سَالِكُهَا، لَا يَهتَدِي إليها إلا الْخَوَاص. وَطَرِيقَةُ الْجُمْهُورِ الِاسْتِدْلَالُ بِالْآيَاتِ الشاهِدَةِ، لِأنها أسْهَلُ تَنَاوُلًا وَأوسَعُ. وَاللهُ سُبْحَانَهُ يُفَضل بَعْضَ خَلْقِهِ عَلَى بَعْضٍ.

فَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ قَدِ اجْتَمَعَ فِيهِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ فِي غَيْرِهِ، فَإِنهُ الدلِيلُ وَالْمَدْلُولُ عَلَيهِ، وَالشاهِدُ وَالْمَشْهُودُ. قَالَ تَعالى لِمَنْ طَلبَ آيَةً تَدل عَلى صِدْقِ رَسُولِهِ: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[3].

وَإذَا عُرِفَ أن تَوْحِيدَ الْإِلَهِيةِ هُوَ التوْحِيدُ الذِي أُرْسِلَتْ بِهِ الرسُلُ وَأُنزِلَتْ بِهِ الْكُتُبُ، كَمَا تَقَدمَتْ إلَيهِ الْإِشَارَةُ - فَلَا يُلْتَفَتُ إلَى قَوْلِ مَنْ قَسمَ التوْحِيدَ إلَى ثَلَاثَةِ أنْوَاعٍ، وَجَعَلَ هَذَا النوْعَ تَوْحِيدَ الْعَامةِ، وَالنوْعَ الثانِيَ تَوْحِيدَ الْخَاصةِ، وَهُوَ الذِي يَثْبُتُ بِالْحَقَائِقِ، وَالنوْعَ الثالِثَ تَوْحِيدًا قَائِمًا بِالْقِدَمِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ خَاصةِ الْخَاصةِ !

فَإِن أكْمَلَ الناسِ تَوْحِيدًا الْأنبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِمْ، وَالْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ أكْمَلُ فِي ذَلكَ، وَأُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرسُلِ أكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا، وَهُمْ: نُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسَى، وَمُحَمدٌ، - صَلى اللهُ عَلَيهِمْ أجْمَعِينَ. وَأكْمَلُهُمْ تَوْحِيدًا الْخَلِيلَانِ: مُحَمدٌ وَإِبْرَاهِيمُ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيهِمَا وَسَلَامُهُ، فَإِنهُمَا قَامَا مِنَ التوْحِيدِ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ غَيْرُهُمَا عِلْمًا، وَمَعْرِفَةً،

(١) سورة الْحَاقةِ الآيات : ٤٤-٤٧ .

(٢) سورة الْحَشْرِ آية : ٢٣ .

(٣) سورة الْعَنْكَبُوتِ آية : ٥١ .

وحالًا، ودعوةً للخلق وجهادًا، فلا توحيد أكملُ من الذي قامت به الرسلُ، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه. ولهذا أمر سبحانه نبيه أن يقتدي بهم فيه، كما قال تعالى بعد ذكر مُناظرة إبراهيم قومه في بطلان الشرك، وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [1] فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم، وكان ﷺ يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين» [2]. فملة إبراهيم: التوحيد، ودين محمد - ﷺ ما جاء به من عند الله قولًا وعملًا واعتقادًا. وكلمة الإخلاص: هي شهادة " أن لا إله إلا الله "، وفطرة الإسلام: هي ما فطر عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له عبودية وذلًا وانقيادًا وإنابة.

فهذا توحيد خاصة الخاصة، الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء. قال تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [3].

وكل من له حس سليم وعقل يميز به، لا يحتاج في الاستدلال إلى أوضاع أهل الكلام والجدل واصطلاحهم وطرقهم البتة، بل ربما يقع بسببها في شكوك وشبه يحصل له بها الحيرة بالضلال والريبة، فإن التوحيد إنما ينفع إذا سلم قلب صاحبه من ذلك. وهذا هو القلب السليم الذي لا يفلح [4] إلا من أتى الله به.

---

(١) سورة الأنعام آية : ٩٠ .

(٢) أحمد (٣/٤٠٧) ، الدارمي الاستئذان (٢٦٨٨) .

(٣) سورة البقرة الآيتان : ١٣٠- ١٣١ .

(٤) في الأصل : (لا يصلح) والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

وَلَا شَك أن النوْعَ الثانِيَ وَالثالِث مِنَ التوْحِيدِ، الذِي ادعَوْا أنهُ تَوْحِيدُ الْخَاصةِ وَخَاصةِ الْخَاصةِ، يَنْتَهِي إِلى الْفَنَاءِ الذِي يُشَمرُ إِلَيْهِ غَالِبُ الصوفِيةِ، وَهُوَ دَرْبٌ خَطِرٌ، يُفْضِي إِلى الِاتحَادِ، [أنْظُرْ إِلى مَا أنْشَدَه] (١) شَيْخُ الْإِسْلَامِ أبو إِسْمَاعِيلَ - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالى - حَيْث يَقُولُ شعرا:

مَـا وَحَّـدَ الْوَاحِـدَ مِـنْ وَاحِدٍ ... إِذْ كُـلُّ مَـنْ وَحَّـدَهُ جَـاحِدُ
تَوْحِـيدُ مَـنْ [يَـنْطِقُ عَـنْ نَعْـتِهِ] ... عَارِيَـةٌ أبطَلَهَـا الْوَاحِـدُ
تَوْحِـيدُه إِيـاهُ تَوْحِـيدُهُ ... وَنَعْـتُ مَـنْ يَنْعَـتُهُ لَاحِدُ

وَإِنْ كَانَ قَائِلُهُ رَحِمَهُ اللهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الِاتحَادَ، لَكِنْ ذَكَرَ لَفْظًا مُجْمَلًا مُحْتَمَلًا جَذَبَهُ بِهِ الِاتحَادِي إِلَيْهِ، وَأقْسَمَ بِاللهِ جَهْدَ أيمَانِهِ إِنه مَعَهُ، لَوْ سَلَكَ الْألْفَاظَ الشرْعِيةَ التِي لَا إِجْمَالَ فِيهَا كَانَ أحَق، مَعَ أن الْمَعْنَى الذِي حَامَ حَوْلَهُ لَوْ كَانَ مَطْلُوبًا مِنا لَنَبهَ الشارِعُ عَلَيْهِ وَدَعَا الناسَ إِلَيْهِ وَبَينَهُ، فَإِن عَلى الرسُولِ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، فَأيْنَ قَالَ الرسُولُ هَذَا تَوْحِيدُ الْعَامةِ، وَهَذَا تَوْحِيدُ الْخَاصةِ، وَهَذَا تَوْحِيدُ خَاصةِ الْخَاصةِ ؟ أوْ مَا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى ؟ أو أشار إلى هَذِهِ النقُولِ وَالْعُقُولُ [حَاضِرَةٌ] (٢).

فَهَذَا كَلَامُ اللهِ الْمُنزلُ عَلى رَسُولِه، ﷺ وَهَذِهِ سُنةُ الرسُولِ، وَهَذَا كَلَامُ خَيْرِ الْقُرُونِ بَعْدَ الرسُولِ، وَسَادَاتِ الْعَارِفِينَ مِنَ الْأئِمةِ، هَلْ جَاءَ ذِكْرُ الْفَنَاءِ، وَهَذَا التقْسِيمُ عَنْ أحَدٍ مِنْهُمْ ؟ وَإِنمَا حَصَلَ هَذَا مِنْ زِيَادَةِ الْغُلُو فِي الدينِ، الْمُشْبِهِ لِغُلُو الْخَوَارِجِ، بَلْ لِغُلُو النصَارَى فِي دِينِهِمْ. وَقَدْ ذَم اللهُ - تَعَالى - الْغُلُو فِي الدينِ وَنَهَى عَنْهُ، فَقَالَ: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ ﴾ (٣).

(١) في الأصل : (الاتحاد ، إلى ما أنشد) والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .
(٢) في الأصل : (خطرة) والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .
(٣) سورة المائدة آية : ٧٧ .

وَقَالَ - ﷺ - ﴿ لَا تُشَدِّدُوا فَيُشَدِّدَ اللهُ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شَدَّدُوا فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ، رَهْبَانِيَّةٌ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾[1].

رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

قَوْلُهُ: (وَلَا شَيْءَ مِثْلُهُ).

ش: اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، لَا فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ. وَلَكِنَّ لَفْظَ " التَّشْبِيهِ " قَدْ صَارَ فِي كَلَامِ النَّاسِ لَفْظًا مُجْمَلًا يُرَادُ بِهِ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ، وَهُوَ مَا نَفَاهُ الْقُرْآنُ وَدَلَّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ، مِنْ أَنَّ خَصَائِصَ الرَّبِّ - تَعَالَى - لَا يُوصَفُ بِهَا شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا يُمَاثِلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ فِي شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[2] رَدٌّ عَلَى الْمُمَثِّلَةِ الْمُشَبِّهَةِ، ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[3] رَدٌّ عَلَى النُّفَاةِ الْمُعَطِّلَةِ. فَمَنْ جَعَلَ صِفَاتِ الْخَالِقِ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ، فَهُوَ الْمُشَبِّهُ الْمُبْطِلُ الْمَذْمُومُ، وَمَنْ جَعَلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِ مِثْلَ صِفَاتِ الْخَالِقِ، فَهُوَ نَظِيرُ النَّصَارَى فِي كُفْرِهِمْ، وَيُرَادُ بِهِ أَنَّهُ لَا يَثْبُتُ لِلَّهِ شَيْءٌ مِنَ الصِّفَاتِ، فَلَا يُقَالُ: لَهُ قُدْرَةٌ، وَلَا عِلْمٌ، وَلَا حَيَاةٌ؛ لِأَنَّ الْعَبْدَ مَوْصُوفٌ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ! وَلَازِمُ هَذَا الْقَوْلِ أَنَّهُ لَا يُقَالُ لَهُ: حَيٌّ، عَلِيمٌ، قَدِيرٌ، لِأَنَّ الْعَبْدَ يُسَمَّى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَكَذَلِكَ كَلَامُهُ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَإِرَادَتُهُ وَغَيْرُ ذَلِكَ. وَهُمْ يُوَافِقُونَ أَهْلَ السُّنَّةِ عَلَى أَنَّهُ مَوْجُودٌ، عَلِيمٌ، قَدِيرٌ، حَيٌّ. وَالْمَخْلُوقُ يُقَالُ لَهُ: مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، وَلَا يُقَالُ: هَذَا تَشْبِيهٌ يَجِبُ نَفْيُهُ، وَهَذَا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَصَرِيحُ الْعَقْلِ، وَلَا يُخَالِفُ فِيهِ عَاقِلٌ. فَإِنَّ اللهَ سَمَّى نَفْسَهُ بِأَسْمَاءٍ، وَسَمَّى بَعْضَ عِبَادِهِ بِهَا، وَكَذَلِكَ سَمَّى صِفَاتِهِ بِأَسْمَاءٍ، وَسَمَّى بِبَعْضِهَا صِفَاتِ خَلْقِهِ، وَلَيْسَ الْمُسَمَّى كَالْمُسَمَّى، فَسَمَّى نَفْسَهُ: حَيًّا، عَلِيمًا، قَدِيرًا، رءوفًا، رَحِيمًا، عَزِيزًا، حَكِيمًا، سَمِيعًا،

---

(١) أبو داود الأدب (٤٩٠٤) .

(٢) سورة الشورى آية : ١١ .

(٣) سورة الشورى آية : ١١ .

بَصِيرًا، مَلِكًا، مُؤْمِنًا، جَبارًا، مُتكبرًا. وَقَدْ سَمى بَعْض عِبَادِهِ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ فَقَالَ: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [1]، ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ [2]، ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [3]، ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4]، ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [5]، ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ [6]، ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [7]، ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا ﴾ [8]، ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [9]. وَمَعْلُومٌ أَنهُ لَا يُمَاثِلُ الْحَي الْحَي، وَلَا الْعَلِيمُ الْعَلِيمَ، وَلَا الْعَزِيزُ الْعَزِيزَ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَسْمَاءِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ ﴾ [10]، ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [11]، ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ [12]، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [13]، ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [14].

---

(١) سورة الأنعام آية : ٩٥ .
(٢) سورة الصافات آية : ١٠١ .
(٣) سورة الذاريات آية : ٢٨ .
(٤) سورة التوبة آية : ١٢٨ .
(٥) سورة الإنسان آية : ٢ .
(٦) سورة يوسف آية : ٥١ .
(٧) سورة الكهف آية : ٧٩ .
(٨) سورة السجدة آية : ١٨ .
(٩) سورة غافر آية : ٣٥ .
(١٠) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .
(١١) سورة النساء آية : ١٦٦ .
(١٢) سورة فاطر آية : ١١ .
(١٣) سورة الذاريات آية : ٥٨ .
(١٤) سورة فصلت آية : ١٥ .

وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: ﴿كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالْأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لْيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلَا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلَا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي، وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي، وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ. قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ﴾ (١) ، رَوَاهُ الْبُخَارِي. وَفِي حَدِيثِ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ الَّذِي رَوَاهُ النَّسَائِي وَغَيْرُهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدُّعَاءِ: ﴿اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْغِنَى وَالْفَقْرِ، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ، وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ، وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مُهْتَدِينَ﴾ (٢). فَقَدْ سَمَّى اللهُ وَرَسُولُهُ صِفَاتِ اللهِ عِلْمًا وَقُدْرَةً وَقُوَّةً. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٖ قُوَّةٗ﴾ (٣) ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا

---

(١) البخاري الجمعة (١١١٣) ، الترمذي الصلاة (٤٨٠) ، النسائي النكاح (٣٢٥٣) ، أبو داود الصلاة (١٥٣٨) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٨٣) ، أحمد (٣/٣٤٤) .

(٢) البخاري المرضى (٥٣٤٧) ، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٠) ، الترمذي الجنائز (٩٧١) ، النسائي الجنائز (١٨٢١) ، أبو داود الجنائز (٣١٠٨) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٦٥) ، أحمد (٣/٢٠٨) .

(٣) سورة الروم آية : ٥٤ .

عَلَّمْنَاهُ ﴾ [1] وَمَعْلُومٌ أَنهُ لَيسَ الْعِلْمُ كَالْعِلْمِ، وَلَا الْقُوةُ كَالْقُوةِ، وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ، وَهَذَا لَازِمٌ لِجَمِيعِ الْعُقَلَاءِ.

فَإِن مَنْ نَفَى صِفَةً مِنْ صِفَاتِهِ التِي وَصَفَ اللهُ بِهَا نَفْسَهُ، كَالرضَا وَالْغَضَبِ، وَالْحُب وَالْبُغْضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَزَعَمَ أَن ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التشْبِيهَ وَالتجْسِيمَ ! قِيلَ لَهُ: فَأَنتَ تُثْبِتُ لَهُ الْإِرَادَةَ وَالْكَلَامَ وَالسمْعَ وَالْبَصَرَ، مَعَ أَن مَا تُثْبِتُهُ لَهُ لَيسَ مِثْلَ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، فَقُلْ فِيمَا نَفَيْتَهُ وَأَثْبَتَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِثْلَ قَوْلِكَ فِيمَا أَثْبَتهُ؛ إِذْ لَا فَرْقَ بَيْنَهُمَا.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا مِنَ الصفَاتِ ! قِيلَ لَهُ: فَأَنتَ تُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، مِثْلَ: حَي، عَلِيمٍ، قَدِيرٍ. وَالْعَبْدُ يُسَمى بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ، وَلَيسَ مَا يَثْبُتُ لِلرب مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مُمَاثِلًا لِمَا يَثْبُتُ لِلْعَبْدِ، فَقُلْ فِي صِفَاتِهِ نَظِيرَ قَوْلِكَ فِي مُسَمى أَسْمَائِهِ.

فَإِنْ قَالَ: وَأَنَا لَا أُثْبِتُ لَهُ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، بَلْ أَقُولُ: هِيَ مَجَازٌ، وَهِيَ أَسْمَاءٌ لِبَعْضِ مُبْتَدَعَاتِهِ، كَقَوْلِ غُلَاةِ الْبَاطِنِيةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ !

قِيلَ لَهُ: فَلَا بُد أَنْ تَعْتَقِدَ أَنهُ مَوْجُودٌ حَق [2] قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَالْجِسْمُ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، وَلَيسَ هُوَ مُمَاثِلًا لَهُ.

فَإِنْ قَالَ: أَنَا لَا أُثْبِتُ شَيْئًا، بَلْ أُنْكِرُ وُجُودَ الْوَاجِبِ.

قِيلَ لَهُ: مَعْلُومٌ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَن الْمَوْجُودَ إِما وَاجِبٌ بِنَفْسِهِ، وَإِما غَيْرُ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ، وَإِما قَدِيمٌ أَزَلِي، وَإِما حَادِثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَإِما مَخْلُوقٌ مُفْتَقِرٌ إِلَى خَالِقٍ، وَإِما غَيْرُ مَخْلُوقٍ وَلَا مُفْتَقِرٍ إِلَى خَالِقٍ، وَإِما فَقِيرٌ إِلَى مَا سِوَاهُ، وَإِما غَنِي عَما سِوَاهُ. وَغَيْرُ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ لَا يَكُونُ إِلا بِالْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ، وَالْحَادِثُ لَا يَكُونُ إِلا بِقَدِيمٍ، وَالْمَخْلُوقُ لَا يَكُونُ إِلا بِخَالِقٍ، وَالْفَقِيرُ لَا يَكُونُ إِلا بِغَنِي عَنْهُ. فَقَدْ لَزِمَ عَلَى تَقْدِيرِ النقِيضَيْنِ وُجُودُ مَوْجُودٍ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ قَدِيمٍ أَزَلِي خَالِقٍ غَنِي عَما سِوَاهُ، وَمَا سِوَاهُ بِخِلَافِ ذَلِكَ. وَقَدْ عُلِمَ

---

(١) سورة يُوسُفَ آية : ٦٨ .

(٢) لعله : حي .

بِالْحِس وَالضرُورَةِ وُجُودُ مَوْجُودٍ حَادِثٍ كَائِنٍ بَعْدَ أنْ لَمْ يكُنْ، وَالْحَادِثُ لَا يَكُونُ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ، وَلَا قَدِيمًا أَزَلِيا، وَلَا خَالِقًا لِمَا سِوَاهُ، وَلَا غَنِيا عَما سِوَاه، فَثبتَ بِالضرُورَةِ وُجُودُ مَوْجُودَيْنِ: أَحَدُهُمَا وَاجِبٌ، وَالْآخَرُ مُمْكِنٌ، أَحَدُهمَا قَدِيمٌ، وَالْآخَرُ حَادِثٌ، أَحَدُهُمَا غَنِي، وَالْآخَرُ فَقِيرٌ، أَحَدُهُمَا خَالِقٌ، وَالْآخَرُ مَخْلُوقٌ. وَهُمَا مُتفِقَانِ فِي كَوْنِ كُل مِنْهُمَا شَيْئًا مَوْجُودًا ثَابِتًا. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَيْضًا أن أَحَدَهُمَا لَيْسَ مُمَاثِلًا لِلْآخَرِ فِي حَقِيقَتِهِ، إِذْ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَتَمَاثَلَا فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ، وَأَحَدُهُمَا يَجِبُ قِدَمُهُ وَهُوَ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ، وَالْآخَرُ لَا يَجِبُ قِدَمُهُ وَلَا هُوَ مَوْجُودٌ بِنَفْسِهِ، وَأَحَدُهُمَا خَالِقٌ وَالْآخَرُ لَيْسَ بِخَالِقٍ، وَأَحَدُهُمَا غَنِي عَما سِوَاهُ، وَالْآخَرُ فَقِيرٌ.

فَلَوْ تَمَاثَلَا لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ كُل مِنْهُمَا وَاجِبَ الْقِدَمِ لَيْسَ بِوَاجِبِ الْقِدَمِ، مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ مَوْجُودٍ بِنَفْسِهِ، خَالِقًا لَيْسَ بِخَالِقٍ، غَنِيا غَيْرَ غَنِي، فَيَلْزَمُ اجْتِمَاعُ الضدَيْنِ عَلَى تَقْدِيرِ تَمَاثُلِهِمَا. فَعُلِمَ أن تَمَاثُلَهُمَا مُنْتَفٍ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ، كَمَا هُوَ مُنْتَفٍ بِنُصُوصِ الشرْعِ.

فَعُلِمَ بِهَذِهِ الْأَدِلةِ اتفَاقُهُمَا مِنْ وَجْهٍ، وَاخْتِلَافُهُمَا مِنْ وَجْهٍ. فَمَنْ نَفَى مَا اتفَقَا فِيهِ كَانَ مُعَطلًا قَائِلًا لِلْبَاطِلِ، وَمَنْ جَعَلَهُمَا مُتَمَاثِلَيْنِ كَانَ مُشَبهًا قَائِلًا لِلْبَاطِلِ، وَاللهُ أَعْلَمُ؛ وَذَلِكَ لِأَنهُمَا وَإِنِ اتفَقَا فِي مُسَمى مَا اتفَقَا فِيهِ، فَاللهُ تَعَالَى مُخْتَص بِوُجُودِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ، وَالْعَبْدُ لَا يَشْرَكُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَالْعَبْدُ أَيْضًا مُخْتَص بِوُجُودِهِ وَعِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَاللهُ - تَعَالَى - مُنَزهٌ عَنْ مُشَارَكَةِ الْعَبْدِ فِي خَصَائِصِهِ.

وَإِذَا اتفَقَا فِي مُسَمى الْوُجُودِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَهَذَا الْمُشْتَرَكُ مُطْلَقٌ كُلي يُوجَدُ فِي الْأَذْهَانِ لَا فِي الْأَعْيَانِ، وَالْمَوْجُودُ فِي الْأَعْيَانِ مُخْتَص لَا اشْتِرَاكَ فِيهِ.

وَهَذَا مَوْضِعٌ اضْطَرَبَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ النظارِ، حَيْثُ تَوَهمُوا أن الِاتفَاقَ فِي مُسَمى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ يُوجِبُ أَنْ يَكُونَ الْوُجُودُ الذِي لِلرب كَالْوُجُودِ الذِي لِلْعَبْدِ. وَطَائِفَةٌ ظَنتْ أن لَفْظَ " الْوُجُودِ " يُقَالُ بِالِاشْتِرَاكِ اللفْظِي، وَكَابَرُوا عُقُولَهُمْ، فَإِن هَذِهِ الْأَسْمَاءَ عَامةٌ قَابِلَةٌ لِلتقْسِيمِ، كَمَا يُقَالُ: الْمَوْجُودُ يَنْقَسِمُ إِلَى وَاجِبٍ وَمُمْكِنٍ، وَقَدِيمٍ وَحَادِثٍ. وَمَوْرِدُ التقْسِيمِ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْأَقْسَامِ، وَاللفْظُ الْمُشْتَرَكُ كَلَفْظِ " الْمُشْتَرِي " الْوَاقِعِ عَلَى الْمُبْتَاعِ

وَالْكَوْكَبِ، لَا يَنقَسِمُ مَعْنَاهُ، وَلَكِنْ يُقَالُ: لَفْظُ " الْمُشْتَرِي "يُقَالُ عَلَى كَذَا أَوْ عَلَى كَذَا، وَمِثَالُ هَذِهِ الْمَقَالَاتِ الَّتِي قَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي مَوْضِعِهِ.

وَأَصْلُ الْخَطَأِ وَالْغَلَطِ: تَوَهُّمُهُمْ أَن هَذِهِ الْأَسْمَاءَ الْعَامَّةَ الْكُلِّيَةَ يَكُونُ مُسَمَّاهَا الْمُطْلَقُ الْكُلِّي هُوَ بِعَيْنِهِ ثَابِتًا فِي هَذَا الْمُعَيَّنِ وَهَذَا الْمُعَيَّنِ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ، فَإِن مَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ لَا يُوجَدُ مُطْلَقًا كُلِّيا، بَلْ لَا يُوجَدُ إِلا مُعَيَّنًا مُخْتَصا، وَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ إِذَا سُمِّيَ اللهُ بِهَا كَانَ مُسَمَّاهَا مُخْتَصا بِهِ، فَإِذَا سُمِّيَ بِهَا الْعَبْدُ كَانَ مُسَمَّاهَا مُخْتَصا بِهِ. فَوُجُودُ اللهِ وَحَيَاتُهُ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُه، بَلْ وُجُودُ هَذَا الْمَوْجُودِ الْمُعَيَّنِ لَا يَشْرَكُهُ فِيهَا غَيْرُه، فَكَيْفَ بِوُجُودِ الْخَالِقِ ؟ أَلَا تَرَى أَنكَ تَقُولُ: هَذَا هُوَ ذَاكَ، فَالْمُشَارُ إِلَيْهِ وَاحِدٌ لَكِنْ بِوَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ.

وَبِهَذَا وَمِثْلِهِ يَتَبَيَّنُ لَكَ أَن الْمُشَبِّهَةَ أَخَذُوا هَذَا الْمَعْنَى وَزَادُوا فِيهِ عَلَى الْحَق فَضَلوا، وَأَن الْمُعَطِّلَةَ أَخَذُوا نَفْيَ الْمُمَاثَلَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ وَزَادُوا فِيهِ عَلَى الْحَق حَتى ضَلوا، وَأَن كِتَابَ اللهِ دَل عَلَى الْحَق الْمَحْضِ الَّذِي تَعْقِلُهُ الْعُقُولُ السَّلِيمَةُ الصَّحِيحَةُ، وَهُوَ الْحَق الْمُعْتَدِلُ الَّذِي لَا انْحِرَافَ فِيهِ. فَالنُّفَاةُ أَحْسَنُوا فِي تَنْزِيهِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ عَنِ التَّشْبِيهِ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ، وَلَكِنْ أَسَاءُوا فِي نَفْيِ الْمَعَانِي الثَّابِتَةِ لِلهِ - تَعَالَى - فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَالْمُشَبِّهَةُ أَحْسَنُوا فِي إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ، وَلَكِنْ أَسَاءُوا بِزِيَادَةِ التَّشْبِيهِ.

وَاعْلَمْ أَن الْمُخَاطَبَ لَا يَفْهَمُ الْمَعَانِيَ الْمُعَبَّرَ عَنْهَا بِاللَّفْظِ إِلا أَنْ يَعْرِفَ عَيْنَهَا أَوْ مَا يُنَاسِبُ عَيْنَهَا، وَيَكُونُ بَيْنَهَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ وَمُشَابَهَةٌ فِي أَصْلِ الْمَعْنَى، وَإِلا فَلَا يُمْكِنُ تَفْهِيمُ الْمُخَاطَبِينَ بِدُونِ هَذَا قَط، حَتى فِي أَولِ تَعْلِيمِ مَعَانِي الْكَلَامِ بِتَعْلِيمِ مَعَانِي الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ، مِثْلَ تَرْبِيَةِ الصَّبِي الَّذِي يُعَلَّمُ الْبَيَانَ وَاللُّغَةَ، يُنْطَقُ لَهُ بِلَفْظِ الْمُفْرَدِ له وَيُشَارُ لَهُ إِلَى مَعْنَاهُ إِنْ كَانَ مَشْهُودًا بِالْإِحْسَاسِ الظَّاهِرِ [أَوِ] الْبَاطِنِ، فَيُقَالُ لَهُ: لَبَنٌ، خُبْزٌ، أم، أَبٌ، سَمَاءٌ، أَرْضٌ، شَمْسٌ، قَمَرٌ، مَاءٌ، وَيُشَارُ لَهُ مَعَ الْعِبَارَةِ إِلَى كُل مُسَمى مِنْ هَذِهِ الْمُسَمَّيَاتِ، وَإِلا لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَى اللَّفْظِ وَمُرَادَ النَّاطِقِ بِهِ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ يَسْتَغْنِي عَنِ التَّعْلِيمِ السَّمْعِي، كَيْفَ وَآدَمُ أَبُو الْبَشَرِ أَولُ مَا عَلَّمَهُ اللهُ - تَعَالَى - أُصُولَ الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ وَهِيَ

الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، وَكَلَّمَهُ وَعَلَّمَهُ بِخِطَابِ الْوَحْيِ مَا لَمْ يَعْلَمْهُ بِمُجَرَّدِ الْعَقْلِ. فَدَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْمَعْنَى هِيَ بِوَاسِطَةِ دَلَالَتِهِ عَلَى مَا عَنَاهُ الْمُتَكَلِّمُ وَأَرَادَهُ، وَإِرَادَتُهُ وَعِنَايَتُهُ فِي قَلْبِهِ، وَلَا يُعْرَفُ بِاللَّفْظِ ابْتِدَاءً، وَلَكِنْ لَا يُعْرَفُ الْمَعْنَى بِغَيْرِ اللَّفْظِ حَتَّى يَعْلَمَ أَوَّلًا أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى الْمُرَادَ هُوَ الَّذِي يُرَادُ بِذَلِكَ اللَّفْظِ وَيُعْنَى بِهِ. فَإِذَا عَرَفَ ذَلِكَ ثُمَّ سَمِعَ اللَّفْظَ مَرَّةً ثَانِيَةً، عَرَفَ الْمَعْنَى الْمُرَادَ بِلَا إِشَارَةٍ إِلَيْهِ. وَإِنْ كَانَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى مَا يُحَسُّ بِالْبَاطِنِ، مِثْلِ الْجُوعِ وَالشِّبَعِ وَالرِّيِّ وَالْعَطَشِ وَالْحُزْنِ وَالْفَرَحِ، فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ اسْمَ ذَلِكَ حَتَّى يَجِدَهُ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِذَا وَجَدَهُ اسْتُ لَهُ إِلَيْهِ، وَعُرِّفَ أَنَّ اسْمَهُ كَذَا، وَالْإِشَارَةُ تَارَةً تَكُونُ إِلَى جُوعِ نَفْسِهِ أَوْ عَطَشِ نَفْسِهِ، مِثْلَ أَنْ يَرَاهُ أَنَّهُ قَدْ جَاعَ فَيَقُولُ لَهُ: جُعْتَ، أَنْتَ جَائِعٌ، فَيَسْمَعُ اللَّفْظَ وَيَعْلَمُ مَا عَيَّنَهُ بِالْإِشَارَةِ أَوْ مَا يَجْرِي مَجْرَاهَا مِنَ الْقَرَائِنِ الَّتِي تُعَيِّنُ الْمُرَادَ، مِثْلَ نَظَرِ أُمِّهِ إِلَيْهِ فِي حَالِ جُوعِهِ وَإِدْرَاكِهِ بِنَظَرِهَا أَوْ نَحْوِهِ أَنَّهَا تَعْنِي جُوعَهُ، أَوْ يَسْمَعُهُمْ يُعَبِّرُونَ بِذَلِكَ عَنْ جُوعِ غَيْرِهِ.

وَإِذَا عُرِفَ ذَلِكَ فَالْمُخَاطَبُ الْمُتَكَلِّمُ إِذَا أَرَادَ بَيَانَ مَعَانٍ، فَلَا يَخْلُو إِمَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّا أَدْرَكَهَا الْمُخَاطَبُ الْمُسْتَمِعُ بِإِحْسَاسِهِ وَشُهُودِهِ، أَوْ بِمَعْقُولِهِ، وَإِمَّا [أَنْ] لَا يَكُونَ كَذَلِكَ. فَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْقِسْمَيْنِ الْأَوَّلَيْنِ لَمْ تَحْتَجْ إِلَّا إِلَى مَعْرِفَةِ اللُّغَةِ، بِأَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَ مَعَانِيَ الْأَلْفَاظِ الْمُفْرَدَةِ وَمَعْنَى التَّرْكِيبِ، فَإِذَا قِيلَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ ﴾ (١) أَوْ قِيلَ لَهُ: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٢) وَنَحْوَ ذَلِكَ، فَهِمَ الْمُخَاطَبُ بِمَا أَدْرَكَهُ بِحِسِّهِ. وَإِنْ كَانَتِ الْمَعَانِي الَّتِي يُرَادُ تَعْرِيفُهُ بِهَا لَيْسَتْ مِمَّا أَحَسَّهُ وَشَهِدَهُ بِعَيْنِهِ، وَلَا بِحَيْثُ صَارَ لَهُ مَعْقُولٌ كُلِّيٌّ يَتَنَاوَلُهَا حَتَّى يَفْهَمَ بِهِ الْمُرَادَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ، بَلْ هِيَ مِمَّا [لَا] يُدْرِكُهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَوَاسِّهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، فَلَا بُدَّ فِي تَعْرِيفِهِ مِنْ طَرِيقِ

---

(١) سورة البَلَد الآيتان : ٨-٩ .

(٢) سورة النَّحْل آية : ٧٨ .

الْقِيَاسِ وَالتَّمْثِيلِ وَالِاعْتِبَارِ بِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَعْقُولَاتِ الْأُمُورِ الَّتِي شَاهَدَهَا مِنَ التَّشَابُهِ وَالتَّنَاسُبِ، وَكُلَّمَا كَانَ التَّمْثِيلُ أَقْوَى، كَانَ الْبَيَانُ أَحْسَنَ، وَالْفَهْمُ أَكْمَلَ.

فَالرَّسُولُ - صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - لَمَّا بَيَّنَ لَنَا أُمُورًا لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ فِي لُغَتِهِمْ لَفْظٌ يَدُلُّ عَلَيْهَا بِعَيْنِهَا، أَتَى بِأَلْفَاظٍ تُنَاسِبُ مَعَانِيهَا تِلْكَ الْمَعَانِيَ، وَجَعَلَهَا أَسْمَاءً لَهَا، فَيَكُونُ بَيْنَهَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ، كَالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْكُفْرِ، وَكَذَلِكَ لَمَّا خَبَّرَنَا بِأُمُورٍ تَتَعَلَّقُ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَهَا قَبْلَ ذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ لَهُمْ أَلْفَاظٌ تَدُلُّ عَلَيْهَا بِعَيْنِهَا، أَخَذَ مِنَ اللُّغَةِ الْأَلْفَاظَ الْمُنَاسِبَةَ لِتِلْكَ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ بَيْنَ تِلْكَ الْمَعَانِي الْغَيْبِيَّةِ، وَالْمَعَانِي الشُّهُودِيَّةِ الَّتِي كَانُوا يَعْرِفُونَهَا، وَقَرَنَ بِذَلِكَ مِنَ الْإِشَارَةِ وَنَحْوِهَا مَا يُعْلَمُ بِهِ حَقِيقَةُ الْمُرَادِ، كَتَعْلِيمِ الصَّبِيِّ، كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ: " النَّاسُ فِي حُجُورِ عُلَمَائِهِمْ كَالصِّبْيَانِ فِي حُجُورِ آبَائِهِمْ ".

وَأَمَّا مَا يُخْبِرُ بِهِ الرَّسُولُ مِنَ الْأُمُورِ الْغَائِبَةِ، فَقَدْ يَكُونُ مِمَّا أَدْرَكُوا نَظِيرَهُ بِحِسِّهِمْ وَعَقْلِهِمْ، كَإِخْبَارِهِمْ بِأَنَّ الرِّيحَ أَهْلَكَتْ عَادًا، فَإِنَّ عَادًا مِنْ جِنْسِهِمْ، وَالرِّيحَ مِنْ جِنْسِ رِيحِهِمْ، وَإِنْ كَانَتْ أَشَدَّ.

وَكَذَلِكَ غَرَقُ فِرْعَوْنَ فِي الْبَحْرِ، وَكَذَا بَقِيَّةُ الْأَخْبَارِ عَنِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ، وَلِهَذَا كَانَ الْإِخْبَارُ بِذَلِكَ فِيهِ عِبْرَةٌ لَنَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [(١)].

وَقَدْ يَكُونُ الَّذِي يُخْبِرُ بِهِ الرَّسُولُ مَا لَمْ يُدْرِكُوا مِثْلَهُ الْمُوَافِقَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَكِنْ فِي مُفْرَدَاتِهِ مَا يُشْبِهُ مُفْرَدَاتِهِمْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ. كَمَا إِذَا أَخْبَرَهُمْ عَنِ الْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْلَمُوا مَعْنًى مُشْتَرَكًا وَتَشْبِيهًا بَيْنَ مُفْرَدَاتِ تِلْكَ الْأَلْفَاظِ وَبَيْنَ مُفْرَدَاتِ الْأَلْفَاظِ مَا عَلِمُوهُ فِي الدُّنْيَا بِحِسِّهِمْ وَعَقْلِهِمْ. فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ

---

(١) سورة يُوسُفَ آية : ١١١ .

الْمَعْنى الذِي فِي الدنْيا لَمْ يَشْهَدُوهُ بَعْدُ، وَيرِيدُ أَنْ يَجْعَلَهُمْ يشْهَدُوهُ مُشَاهَدَةً كَامِلَةً لِيَفْهَمُوا بِهِ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَهُ وَبين الْمَعْنى الْغَائِبِ، أَشْهَدَهُمْ إِياهُ، وَأَشَارَ لَهُمْ إِلَيْهِ، وَفَعَلَ قَوْلًا يَكُونُ حِكَايَةً لَهُ وَشَبَهًا بِهِ، يَعْلَمُ الْمُسْتَمِعُونَ أَن مَعْرِفَتَهُمْ بِالْحَقَائِقِ الْمَشْهُودَةِ هِيَ الطرِيقُ الَتِي يَعْرِفُونَ بِهَا الْأُمورَ الْغَائِبَةَ.

فَينْبَغِي أَنْ يعْرفَ هَذِهِ الدرجَاتُ: أَولُها: إِدْرَاكُ الْإِنسَانِ الْمَعَانِيَ الْحِسيةَ الْمُشَاهَدَةَ. وَثَانِيهَا: عَقْلُهُ لِمَعَانِيهَا الْكُلِيةِ. وَثَالِثُهَا: تَعْرِيفُ الْأَلْفَاظِ الدالةِ عَلَى تِلْكَ الْمَعَانِي الْحِسيةِ وَالْعَقْلِيةِ. فَهَذِهِ الْمَرَاتِبُ الثلاثُ لَا بُد مِنْهَا فِي كُل خِطَابٍ. فَإِذَا أخبرنا عَنِ الْأُمورِ الْغَائِبَةِ فَلَا بد مِن تَعْرِيفِنَا الْمَعَانِيَ الْمُشْتَرَكَةَ بَيْنَها وَبين الْحَقَائِقِ الْمَشْهُودَةِ وَالاشْتِبَاهَ الذِي بَيْنَهُمَا، وَذَلِكَ بِتَعْرِيفِنَا الْأُمورَ الْمَشْهُودَةَ، ثُم إِنْ كَانَتْ مِثْلَهَا لَمْ نَحْتَجْ إِلَى ذِكْرِ الْفَارِقِ، كَمَا تَقَدمَ فِي قَصَصِ الْأُمَمِ، وَإِنْ لَمْ تكُنْ مِثْلَهَا، بينَ ذَلِكَ بِذِكْرِ الْفَارِقِ، بِأَنْ يُقَالَ: لَيس ذَلِكَ مِثْلَ هَذَا، وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَإِذَا تَقرَرَ انْتِفَاءُ الْمُمَاثَلَةِ كَانَتِ الْإِضَافَةُ وَحْدَهَا كَافِيَةً فِي بَيانِ الْفَارِقِ، وَانْتِفَاءُ التسَاوِي لَا يَمْنَعُ منه وُجُودُ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ الذِي هُوَ مَدْلُولُ اللفْظِ الْمُشْتَرَكِ مَا أَمْكَنَ ذَلِكَ قَط.

قَوْلُهُ: (وَلَا شَيءَ يُعْجِزُهُ).

ش: لِكَمَالِ قُدْرَتِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1]، ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [2]، ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ [3]، ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [4] " لَا يَئُودُهُ " أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ وَلَا

---

(١) سورة الْبَقَرَة آية : ٢٠ .

(٢) سورة الْكَهْف آية : ٤٥ .

(٣) سورة فَاطِر آية : ٤٤ .

(٤) سورة الْبَقَرَة آية : ٢٥٥ .

يعجزه، فهذا النفي لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله - تعالى - في الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضده، كقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [1] لكمال عدله، ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [2] لكمال علمه، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [3] لكمال قدرته، ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [4] لكمال حياته وقيوميته، ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [5] لكمال جلاله وعظمته وكبريائه، وإلا فالنفي الصرف لا مدح فيه، ألا ترى أن قول الشاعر:

قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

لما اقترن بنفي الغدر والظلم عنهم ما ذكره قبل هذا البيت وبعده، وتصغيرهم بقوله: " قبيلة " علم أن المراد عجزهم وضعفهم، لا كمال قدرتهم وقول الآخر:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ... ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

لما اقترن بنفي الشر عنهم ما يدل على ذمهم، علم أن المراد عجزهم وضعفهم أيضًا.

ولهذا يأتي الإثبات للصفات في كتاب الله مفصلًا، والنفي مجملًا، عكس طريقة أهل الكلام المذموم: فإنهم يأتون بالنفي المفصل والإثبات المجمل، يقولون: ليس بجسم، ولا شبح، ولا جثة، ولا صورة، ولا دم، ولا لحم، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عرض، ولا لون، ولا رائحة، ولا طعم، ولا بجثة، ولا بذي حرارة، ولا برودة، ولا رطوبة، ولا يبوسة، ولا طول، ولا عرض، ولا عمق، ولا اجتماع، ولا افتراق، ولا يتحرك، ولا يسكن، ولا يتبعض، وليس بذي أبعاض وأجزاء وجوارح وأعضاء، وليس بذي جهات، ولا بذي يمين

(١) سورة الكهف آية : ٤٩ .
(٢) سورة سبإ آية : ٣ .
(٣) سورة ق آية : ٣٨ .
(٤) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .
(٥) سورة الأنعام آية : ١٠٣ .

وَلَا شِمَالٍ وَأَمامٍ وَخَلْفٍ وَفَوْقٍ وَتَحْتٍ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ مَكَانٌ وَلَا يَجْرِي عَلَيْهِ زَمَانٌ، وَلَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْمَمَاسَةُ وَلَا الْعُزْلَةُ وَلَا الْحُلُولُ فِي الْأَمَاكِنِ، وَلَا يُوصَفُ بِشَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ الدالةِ عَلَى حُدُوثِهِمْ، وَلَا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مُتَنَاهٍ، وَلَا يُوصَفُ بِمِسَاحَةٍ، وَلَا ذَهَابٍ فِي الْجِهَاتِ، وَلَيْسَ بِمَحْدُودٍ، وَلَا وَالِدٍ وَلَا مَوْلُودٍ، وَلَا تُحِيطُ بِهِ الْأَقْدَارُ، وَلَا تَحْجُبُهُ الْأَسْتَارُ إِلَى آخِرِ مَا نَقَلَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِي - رَحِمَهُ اللهُ - عَنِ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ حَق وَبَاطِلٌ، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ لِمَنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَ وَالسنةَ. وَهَذَا النفْيُ الْمُحددُ مَعَ كَوْنِهِ لَا مَدْحَ فِيهِ، [فِيهِ] إِسَاءَةُ أَدَبٍ، فَإِنكَ لَوْ قُلْتَ لِلسلْطَانِ: أَنتَ لَسْتَ بِزَبالٍ وَلَا كَساحٍ وَلَا حَجامٍ وَلَا حَائِكٍ ! لَأَدبَكَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ وَإِنْ كُنتَ صَادِقًا، وَإِنمَا تَكُونُ مَادِحًا إِذَا أَجْمَلْتَ النفْيَ فَقُلْتَ: أَنتَ لَسْتَ مِثْلَ أَحَدٍ مِنْ رَعِيتِكَ، أَنتَ أَعْلَى مِنْهُمْ وَأَشْرَفُ وَأَجَل، فَإِذَا أَجْمَلْتَ فِي النفْيِ أَجْمَلْتَ فِي الْأَدَبِ.

وَالتعْبِيرُ عَنِ الْحَق بِالْأَلْفَاظِ الشرْعِيةِ النبَوِيةِ الْإِلَهِيةِ هُوَ سَبِيلُ أَهْلِ السنةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَالْمُعَطلَةُ يُعْرِضُونَ عَما قَالَهُ الشارِعُ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصفَاتِ، وَلَا يَتَدَبرُونَ مَعَانِيَهَا، وَيَجْعَلُونَ مَا ابْتَدَعُوهُ مِنَ الْمَعَانِي وَالْأَلْفَاظِ هُوَ الْمُحْكَمَ الذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ. وَأَما أَهْلُ الْحَق وَالسنةِ وَالْإِيمَانِ فَيَجْعَلُونَ مَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الْحَق الذِي يَجِبُ اعْتِقَادُهُ وَاعْتِمَادُهُ. وَالذِي قَالَهُ هَؤُلَاءِ إِما أَنْ يُعْرِضُوا عَنْهُ إِعْرَاضًا جمليا، أَوْ يُبَينُوا حَالَهُ تَفْصِيلًا، وَيُحْكَمُ عَلَيْهِ بِالْكِتَابِ وَالسنةِ، لَا يُحْكَمُ بِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسنةِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَن غَالِبَ عَقَائِدِهِمُ السلُوبُ: " لَيْسَ بِكَذَا "، وَأَما الْإِثْبَاتُ فَهُوَ قَلِيلٌ، وَهِيَ أَنهُ عَالِمٌ قَادِرٌ حَي، وَأَكْثَرُ النفْيِ الْمَذْكُورِ لَيْسَ مُتَلَقى عَنِ الْكِتَابِ وَالسنةِ، وَلَا عَنِ الطرُقِ الْعَقْلِيةِ التِي سَلَكَهَا غَيْرُهُمْ مِنْ مُثْبِتَةِ الصفَاتِ، فَإِن اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ (١).

---

(١) سورة الشورى آية : ١١ .

فَفي هَذَا الْإِثْبَاتِ مَا يُقرِرُ مَعْنى النفْي. فَفُهِمَ أن الْمُرَادَ انْفِرَادُهُ سُبْحَانَه بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، فَهو سُبحَانَهُ وَتَعالى مَوْصُوفٌ بِمَا وَصفَ بِهِ نَفْسَهُ، ووَصَفَهُ بِهِ رُسُلُه، لَيْس كَمِثْلِه شَيْءٌ فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أسْمَائِهِ وَلَا فِي أفْعَالِه، مما أخْبَرَنا بِهِ مِنْ صِفَاتِه، وَلَهُ صِفَاتٌ لَمْ يَطلِعْ عَلَيْهَا أحَدٌ مِنْ خَلْقِه، كَمَا قَالَ رَسُولُهُ الصادِقُ ﷺ فِي دُعَاءِ الْكَرْبِ: «اللهُمَ إِني أسْألُكَ بِكُل اسْمٍ هُوَ لَكَ سَميْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أوْ أنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أوْ عَلَمْتَهُ أحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أو اسْتَأثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلَاءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمي وَغَمي»[1]. وَسَيأتِي التنْبِيهُ عَلَى فَسَادِ طَرِيقَتِهِمْ فِي الصفَاتِ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى.

وَلَيس قَوْلُ الشيْخِ - رَحِمَهُ اللهُ: " وَلَا شَيْءَ يُعْجِزُهُ " مِنَ النفْيِ الْمَذْمُومِ، فَإن اللهَ تَعَالى قَالَ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾[2].

فَنبهَ سُبْحَانَهُ وَتَعالى فِي آخِرِ الْآيَةِ عَلَى دَلِيلِ انْتِفَاءِ الْعَجْزِ، وَهُوَ كَمَالُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَإِن الْعَجْزَ إنمَا يَنْشَأ إما مِنَ الضعْفِ عَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرِيدُهُ الْفَاعِلُ، وَإما مِنْ عَدَمِ عِلْمِهِ بِهِ، وَاللهُ تَعالى لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرةٍ، وَهُوَ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَقَدْ عُلِمَ بِبَدَايِهِ[3] الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ كَمَالُ قُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ، فَانْتَفَى الْعَجْزُ، لِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُدْرَةِ مِنَ التضَادِ، وَلِأن الْعَاجِزَ لَا يَصْلُحُ أنْ يَكُونَ إلَهًا، تَعَالى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوا كَبِيرًا.

قَوْلُهُ: (وَلَا إِلَهَ غَيْرُهُ).

ش: هَذِهِ كَلِمَةُ التوْحِيدِ التِي دَعَتْ إِلَيْهَا الرسُلُ كُلُهُمْ، كَمَا تَقَدمَ ذِكْرُهُ. وَإِثْبَاتُ التوْحِيدِ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ بِاعْتِبَارِ النفْيِ وَالْإِثْبَاتِ الْمُقْتَضِي لِلْحَصْرِ، فَإِن الْإِثْبَاتَ الْمُجَردَ قَدْ

---

(١) أحمد (٣٩١/١) .

(٢) سورة فاطر آية : ٤٤ .

(٣) بدايه " : جمع بديهة ، وأصلها بالهمزة " بدائه " ثم سهلت الهمزة فجعلت ياء .

يتطرق إليه الاحتمال. ولهذا - والله أعلم - لما قال تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ (١) قال بعده: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٢). فإنه قد يخطر ببال أحد خاطر شيطاني: هب أن إلهنا واحد، فلغيرنا إله غيره، فقال تعالى: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ ﴾ (٣).

وقد اعترض صاحب المنتخب على النحويين في تقدير الخبر في ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٤) - فقالوا: تقديره: لا إله في الوجود إلا الله، فقال: يكون ذلك نفيا لوجود الإله. ومعلوم أن نفي الماهية أقوى في التوحيد الصرف من نفي الوجود، فكان إجراء الكلام على ظاهره والإعراض عن هذا الإضمار أولى.

وأجاب أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل المرسي في (ري الظمآن) (٥) ، فقال: هذا كلام من لا يعرف لسان العرب، فإن (إله) في موضع المبتدأ على قول سيبويه، وعند غيره اسم " لا "، وعلى التقديرين فلا بد من خبر للمبتدأ، وإلا فما قاله من الاستغناء

(١) سورة البقرة آية : ١٦٣ .
(٢) سورة البقرة آية : ١٦٣ .
(٣) سورة البقرة آية : ١٦٣ .
(٤) سورة البقرة آية : ١٦٣ .
(٥) في الأصل المخطوط " رأي الظمآن " وهو خطأ . والمرسي هذا : هو شرف الدين محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل المرسي الأندلسي ، " الأديب النحوي المفسر المحدث الفقيه " ، كما وصفه ياقوت . لقيه ياقوت بمصر سنة ٦٢٤ هـ ، وأخبره أن مولده سنة ٥٧٠هـ ، وذكر كثيرًا من مؤلفاته ، منها : " تفسير القرآن ، سماه : ري الظمآن في تفسير القرآن ، كبير جدا ، قصد فيه ارتباط الآي بعضها ببعض " . انظر ترجمته في معجم الأدباء ٧ : ١٦-١٨ . وتوفي شرف الدين هذا في طريق العريش سنة ٦٥٥ هـ . وترجمه ابن كثير في التاريخ ١٣ : ١٩٧ ، وابن العماد في الشذرات ٥ : ٢٦٩ . وهو الذي سمع منه رضي الدين الطبري " صحيح ابن حبان " ، كما أثبتنا ذلك في مقدمة " صحيح ابن حبان " ص : ٢٧ . ومما يستغرب من شأنه ، ما ذكره ياقوت : أنه " كانت له كتب في البلاد التي يتنقل فيها ، بحيث لا يستصحب كتبا في سفره ، اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه " . رحمه الله .

عَنِ الْإِضْمَارِ فَاسِدٌ. وَأما قَوْلُه: إِذَا لَمْ يُضْمَرْ يَكُونُ نَفْيًا لِلْمَاهِيةِ - فَلَيس بِشَيْءٍ، لِأن نَفْيَ الْمَاهِيةِ هُوَ نَفْيُ الْوُجُودِ، لَا تُتَصَورُ الْمَاهِيةُ إِلا مَعَ الْوُجُودِ، ولَا فَرْقَ بين " لَا مَاهِية " " لَا وُجُودَ ". وَهَذَا مَذْهَبُ أَهْلِ السنةِ، خِلَافًا لِلْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنهمْ يُثْبِتُونَ مَاهِيةً عَارِيَةً عَنِ الْوُجُودِ، و " إِلا اللهُ " - مَرْفُوعٌ، بَدَلًا مِنْ " إِلَهَ " لَا يَكُونُ خَبَرًا لِـ " لَا "، وَلَا لِلْمُبْتَدَأ. وَذَكَرَ الدِلِيلَ عَلَى ذَلِكَ.

وَلَيسَ الْمُرَادُ هُنَا ذِكْرَ الْإِعْرَابِ، بَلِ الْمُرَادُ دَفْعُ الْإِشْكَالِ الْوَارِدِ عَلَى النحَاةِ فِي ذَلِكَ، وَبَيَانُ أَنهُ مِنْ جِهَةِ الْمُعْتَزِلَةِ. وَهُوَ فَاسِدٌ: فَإِن قَوْلَهُمْ: "نَفْيَ الْوُجُودِ " لَيسَ تَقْيِيدًا، لِأَن الْعَدَمَ لَيسَ بِشَيْءٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ [(1)].

وَلَا يُقَالُ: لَيسَ قَوْلُه: " غَيرُه " كَقَوْلِهِ: " إِلا اللهُ " لِأَن " غَيرَ " مُعْرَبٌ بِإِعْرَابِ الِاسْمِ الْوَاقِعِ بَعْدَ " إِلا " فَيَكُونُ التقْدِيرُ لِلْخَبَرِ فِيهِمَا وَاحِدًا. فَلِهَذَا ذَكَرْتُ هَذَا الْإِشْكَالَ وَجَوَابَهُ هُنَا.

قَوْلُهُ: (قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ).

ش: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾ [(2)].

وَقَالَ - ﷺ - ﴿ اللهُم أَنتَ الْأَولُ فَلَيسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنتَ الْآخِرُ فَلَيسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ ﴾ [(3)]. فَقَوْلُ الشيْخِ: قَدِيمٌ بِلَا ابْتِدَاءٍ، دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ، هُوَ مَعْنَى اسْمِهِ الْأَولِ وَالْآخِرِ. وَالْعِلْمُ بِثُبُوتِ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ مُسْتَقِر فِي الْفِطْرَةِ، فَإِن الْمَوْجُودَاتِ لَا بُد أَنْ تَنْتَهِيَ إِلَى وَاجِبِ الْوُجُودِ لِذَاتِهِ، قَطْعًا لِلتسَلْسُلِ، فَأَنت تُشَاهِدُ حُدُوثَ الْحَيَوَانِ وَالنبَاتِ وَالْمَعَادِنِ وَحَوَادِثِ الْجَو كَالسحَابِ وَالْمَطَرِ وَغَيرِ ذَلِكَ، وَهَذِهِ الْحَوَادِثُ وَغَيرُهَا لَيسَتْ مُمْتَنِعَةً،

---

(1) سورة مَرْيَم آية : ٩ .

(2) سورة الْحَدِيدِ آية : ٣ .

(3) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧١٣) ، الترمذي الدعوات (٣٤٨١) ، أبو داود الأدب (٥٠٥١) ، ابن ماجه الدعاء (٣٨٣١) ، أحمد (٥٣٦/٢) .

فإن الْمُمْتنع لَا يُوجَد، وَلَا وَاجبَة الْوُجُودِ بِنفْسِهَا، فَإن وَاجِبَ الْوُجُودِ بِنفْسِهِ لَا يَقْبلُ الْعَدَمَ، وَهَذِه كَانَتْ مَعْدُومَةً ثُم وُجِدَتْ، فَعدَمُهَا يَنْفِي وُجُودَهَا، وَوُجُودُهَا يَنفِي امْتِنَاعَهَا، وَمَا كَانَ قَابلًا لِلْوُجُودِ وَالْعَدَمِ لَمْ يَكُنْ وُجُودُهُ بِنفْسِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[1]. يَقُولُ سُبْحَانَهُ: أَحَدَثُوا مِنْ غَيرِ مُحْدِثٍ أَم هُمْ أَحْدَثُوا أَنفُسَهُمْ ؟ وَمَعْلُومٌ أن الشيْءَ الْمُحْدَثَ لَا يُوجِدُ نَفْسَهُ، فَالْمُمْكِنُ الذِي لَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وُجُودٌ وَلَا عَدَمٌ لَا يَكُونُ مَوْجُودًا بِنفْسِهِ، بَلْ إِنْ حَصَلَ مَا يُوجِدُهُ، وَإِلا كَانَ مَعْدُومًا، وَكُل مَا أَمْكَنَ وُجُودُهُ بَدَلًا عَنْ عَدَمِهِ، وَعَدَمُهُ بَدَلًا عَنْ وُجُودِهِ، فَلَيْسَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وُجُودٌ وَلَا عَدَمٌ لَازِمٌ [لَهُ] [2].

وَإِذَا تَأملَ الْفَاضِلُ غَايَةَ مَا يَذْكُرُهُ الْمُتَكلمُونَ وَالْفَلَاسِفَةُ مِنَ الطرُقِ الْعَقْلِيةِ، وَجَدَ الصوَابَ مِنْهَا مَا يَعُودُ إِلَى بَعْضِ مَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الطرُقِ الْعَقْلِيةِ بِأَوْضَحِ عِبَارَةٍ وَأَوْجَزِهَا، وَفِي طُرُقِ الْقُرْآنِ مِنْ تَمَامِ الْبَيَانِ وَالتحْقِيقِ مَا لَا يُوجَدُ عِنْدَهُمْ مِثْلُهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾[3].

وَلَا نَقُولُ: لَا يَنفَعُ الِاسْتِدْلَالُ بِالْمُقَدمَاتِ الْخَفِيةِ وَالْأَدِلةِ النظَرِيةِ: فَإِن الْخَفَاءَ وَالظهُورَ مِنَ الْأُمُورِ النسْبِيةِ، فَرُبمَا ظَهَرَ لِبَعْضِ الناسِ مَا خَفِيَ عَلَى غَيْرِهِ، وَيَظْهَرُ لِلْإِنْسَانِ الْوَاحِدِ فِي حَالٍ مَا خَفِيَ عَلَيْهِ فِي حَالٍ أُخْرَى. وَأَيْضًا فَالْمُقَدمَاتُ وَإِنْ كَانَتْ خَفِيةً فَقَدْ يُسَلمُهَا بَعْضُ الناسِ وَيُنَازِعُ فِيمَا هُوَ أَجلُ مِنْهَا، وَقَدْ تَفْرَحُ النفْسُ بِمَا عَلِمَتْهُ بِالْبَحْثِ وَالنظَرِ مَا لَا تَفْرَحُ بِمَا عَلِمَتْهُ مِنَ الْأُمُورِ الظاهِرَةِ. وَلَا شَك أَن الْعِلْمَ بِإِثْبَاتِ الصانِعِ وَوُجُوبِ وُجُودِهِ أَمْرٌ ضَرُورِي فِطْرِي، وَإِنْ كَانَ يَحْصُلُ لِبَعْضِ الناسِ مِنَ الشبَهِ مَا يُخْرِجُهُ إِلَى الطرُقِ النظَرِيةِ.

---

(١) سورة الطور آية : ٣٥ .

(٢) لم ترد في الأصل ، والصواب إثباتا كما في سائر النسخ . ن .

(٣) سورة الفرقان آية : ٣٣ .

وَقَدْ أَدْخَلَ الْمُتَكَلِّمُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ - تَعَالَى - " الْقَدِيمَ "، وَلَيْسَ هُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الله تعالى الْحُسْنَى، فَإِن الْقَدِيمَ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ الَتِي نَزَلَ بِهَا الْقُرْآنُ: هُوَ الْمُتَقَدِّمُ عَلَى غَيْرِهِ، فَيُقَالُ: هَذَا قَدِيمٌ، لِلْعَتِيقِ، وَهَذَا حَدِيثٌ، لِلْجَدِيدِ. وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ هَذَا الِاسْمَ إِلا فِي الْمُتَقَدِمِ عَلَى غَيْرِهِ، لَا فِيمَا لَمْ يَسْبِقْهُ عَدَمٌ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴾[1].

وَالْعُرْجُونُ الْقَدِيمُ: الَذِي يَبْقَى إِلَى حِينِ وُجُودِ الْعُرْجُونِ الثانِي، فَإِذَا وُجِدَ الْحَدِيثُ قِيلَ لِلْأَولِ: قَدِيمٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ﴾[2] أَيْ مُتَقَدِمٌ فِي الزمَانِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ۝ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ۝ ﴾[3] فَالْأَقْدَمُ مُبَالَغَةٌ فِي الْقَدِيمِ، وَمِنْهُ: الْقَوْلُ الْقَدِيمُ وَالْجَدِيدُ لِلشافِعِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ ﴾[4]؛ أَيْ يَتَقَدَمُهُمْ، وَيُسْتَعْمَلُ مِنْهُ الْفِعْلُ لَازِمًا وَمُتَعَدِيًا، كَمَا يُقَالُ: أَخَذَنِي مَا قَدُمَ وَمَا حَدُثَ، وَيُقَالُ: هَذَا قَدَمَ هَذَا وَهُوَ يَقْدُمُهُ. وَمِنْهُ سُمِيَتِ الْقَدَمُ قَدَمًا، لِأَنهَا تَقْدُمُ بَقِيةَ بَدَنِ الْإِنْسَانِ. وَأَما إِدْخَالُ " الْقَدِيمِ " فِي أَسْمَاءِ اللهِ - تَعَالَى - فَهُوَ مَشْهُورٌ عِنْدَ أَكْثَرِ أَهْلِ الْكَلَامِ. وَقَدْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ السلَفِ وَالْخَلَفِ، مِنْهُمُ ابْنُ حَزْمٍ. وَلَا رَيْبَ أَنهُ إِذَا كَانَ مُسْتَعْمَلًا فِي نَفْسِ التقَدمِ، فَإِن مَا يقَدم عَلَى الْحَوَادِثِ كُلِّهَا فَهُوَ أَحَق بِالتقَدمِ مِنْ غَيْرِهِ. لَكِن أَسْمَاءَ اللهِ تَعَالَى هِيَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى التِي تَدُل عَلَى خُصُوصِ مَا يُمْدَحُ بِهِ، وَالتقَدمُ فِي اللغَةِ مُطْلَقٌ لَا يَخْتَص بِالتقَدمِ عَلَى الْحَوَادِثِ كُلِّهَا، فَلَا يَكُونُ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى. وَجَاءَ الشرْعُ بِاسْمِهِ " الْأَولِ ". وَهُوَ أَحْسَنُ مِنَ " الْقَدِيمِ "؛ لِأَنهُ يُشْعِرُ بِأَن مَا بَعْدَهُ آيِلٌ إِلَيْهِ وَتَابِعٌ لَهُ، بِخِلَافِ الْقَدِيمِ. وَاللهُ تَعَالَى لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.

---

(١) سورة يس آية : ٣٩ .

(٢) سورة الْأَحْقَافِ آية : ١١ .

(٣) سورة الشعَرَاءِ الآيتان : ٧٥-٧٦ .

(٤) سورة هُودٍ آية : ٩٨ .

قَوْلُهُ: (لا يَفْنى وَلا يَبِيدُ).

ش: إِقْرَارٌ بِدَوَامِ بَقَائِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ عَز مِنْ قَائِلٍ: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾[1].

وَالْفَنَاءُ وَالْبَيدُ مُتَقَارِبَانِ فِي الْمَعْنى، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا فِي الذكْرِ لِلتأْكِيدِ، وَهُوَ أَيْضًا مُقَرِّرٌ وَمُؤَكدٌ لِقَوْلِهِ: دَائِمٌ بِلَا انْتِهَاءٍ.

قَوْلُهُ: (وَلَا يَكُونُ إِلا مَا يُرِيدُ).

ش: هَذَا رَد لِقَوْلِ الْقَدَرِيةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، فَإِنهُمْ زَعَمُوا أَن اللهَ أَرَادَ الْإِيمَانَ مِنَ الناسِ كُلهِمْ وَالْكَافِرُ أَرَادَ الْكُفْرَ. وَقَوْلُهُمْ فَاسِدٌ مَرْدُودٌ، لِمُخَالَفَتِهِ الْكِتَابَ وَالسنةَ وَالْمَعْقُولَ الصحِيحَ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْقَدَرِ الْمَشْهُورَةُ، وَسَيَأْتِي لَهَا زِيَادَةُ بَيَانٍ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَسُموا " قَدَرِيةً " لِإِنْكَارِهِمُ الْقَدَرَ، وَكَذَلِكَ تُسَمى الْجَبْرِيةُ الْمُحْتَجونَ بِالْقَدَرِ قَدَرِيةً أَيْضًا. وَالتسْمِيَةُ عَلَى الطائِفَةِ الْأُولَى أَغْلَبُ.

وَأَما أَهْلُ السنةِ فَيَقُولُونَ: إِن اللهَ وَإِنْ كَانَ يُرِيدُ الْمَعَاصِيَ قَدَرًا - فَهُوَ لَا يُحِبهَا وَلَا يَرْضَاهَا وَلَا يَأْمُرُ بِهَا، بَلْ يُبْغِضُهَا وَيَسْخَطُهَا وَيَكْرَهُهَا وَيَنْهَى عَنْهَا. وَهَذَا قَوْلُ السلَفِ قَاطِبَةً، فَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ؛ وَلِهَذَا اتفَقَ الْفُقَهَاءُ عَلَى أَن الْحَالِفَ لَوْ قَالَ: وَاللهِ لَأَفْعَلَن كَذَا إِنْ شَاءَ اللهُ - لَمْ يَحْنَثْ - إِذَا لَمْ يَفْعَلْهُ وَإِنْ كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبا، وَلَوْ قَالَ: إِنْ أَحَب اللهُ - حَنِثَ - إِذَا كَانَ وَاجِبًا أَوْ مُسْتَحَبا.

وَالْمُحَققُونَ مِنْ أَهْلِ السنةِ يَقُولُونَ: الْإِرَادَةُ فِي كِتَابِ اللهِ نَوْعَانِ: إِرَادَةٌ قَدَرِيةٌ كَوْنِيةٌ خَلْقِيةٌ، وَإِرَادَةٌ دِينِيةٌ أَمْرِيةٌ شَرْعِيةٌ.

فَالْإِرَادَةُ الشرْعِيةُ هِيَ الْمُتَضَمنَةُ لِلْمَحَبةِ وَالرضَا، وَالْكَوْنِيةُ هِيَ الْمَشِيئَةُ الشامِلَةُ لِجَمِيعِ الْحوادث.

(١) سورة الرحْمن الآيتان : ٢٦-٢٧ .

وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ (١).

وَقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السلَامُ: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ ﴾ (٢) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ ﴾ (٣).

وَأما الْإِرَادَةُ الدينيةُ الشرْعِيةُ الْأمرِيةُ، فَكَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ (٤) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (٥) وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (٦) وقوله تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (٧) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ (٨) وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (٩).

---

(١) سورة الْأَنعَامِ آية : ١٢٥ .

(٢) سورة هُودٍ آية : ٣٤ .

(٣) سورة الْبَقَرَة آية : ٢٥٣ .

(٤) سورة الْبَقَرَة آية : ١٨٥ .

(٥) سورة النساء آية : ٢٦ .

(٦) سورة النسَاءِ آية : ٢٧ .

(٧) سورة النسَاءِ آية : ٢٨ .

(٨) سورة الْمَائِدَة آية : ٦ .

(٩) سورة الْأَحْزَابِ آية : ٣٣ .

فَهذِهِ الْإِرَادَةُ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي مِثْلِ قَوْلِ الناسِ لِمَنْ يَفْعَلُ الْقَبَائِحَ: هَذَا يَفْعَلُ مَا لَا يُرِيدُهُ اللهُ، أَيْ: لَا يُحِبهُ وَلَا يَرْضَاهُ وَلَا يَأْمُرُ بِهِ.

وَأما الْإِرَادَةُ الْكَوْنيةُ فَهِيَ الْإِرَادَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِ الْمُسْلِمِينَ: مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ.

وَالْفَرْقُ ثَابِتٌ بَيْنَ إِرَادَةِ الْمُرِيدِ أَنْ يَفْعَلَ، وَبَيْنَ إِرَادَتِهِ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَفْعَلَ. فَإِذَا أَرَادَ الْفَاعِلُ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا فَهذِهِ الْإِرَادَةُ مُعَلقَةٌ بِفِعْلِهِ، وَإِذَا أَرَادَ مِنْ غَيْرِهِ أَنْ يَفْعَلَ فِعْلًا فَهذِهِ الْإِرَادَةُ لِفِعْلِ الْغَيْرِ. وَكِلَا النوْعَيْنِ مَعْقُولٌ لِلناسِ، وَالْأَمْرُ يَسْتَلْزِمُ الْإِرَادَةَ الثانِيَةَ دُونَ الْأُولَى، فَاللهُ - تَعَالَى - إِذَا أَمَرَ الْعِبَادَ بِأَمْرٍ فَقَدْ يُرِيدُ إِعَانَةَ الْمَأْمُورِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ وَقَدْ لَا يُرِيدُ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُرِيدًا مِنْهُ فِعْلَهُ.

وَتَحْقِيقُ هَذَا مِما يُبَينُ فَصْلَ النزَاعِ فِي أَمْرِ اللهِ - تَعَالَى -: هَلْ هُوَ مُسْتَلْزِمٌ لِإِرَادَتِهِ أَمْ لَا ؟ فَهُوَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ الْخَلْقَ عَلَى أَلْسُنِ رُسُلِهِ بِمَا يَنْفَعُهُمْ وَنَهَاهُمْ عَما يَضُرهُمْ، وَلَكِن مِنْهُمْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَهُ، فَأَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَخْلُقَ ذَلِكَ الْفِعْلَ وَيَجْعَلَهُ فَاعِلًا لَهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَخْلُقَ فِعْلَهُ، فَجِهَةُ خَلْقِهِ سُبْحَانَهُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، غَيْرُ جِهَةِ أَمْرِهِ لِلْعَبْدِ عَلَى وَجْهِ الْبَيَانِ لِمَا هُوَ مَصْلَحَةٌ لِلْعَبْدِ أَوْ مَفْسَدَةٌ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ - إِذْ أَمَرَ فِرْعَوْنَ وَأَبَا لَهَبٍ وَغَيْرَهُمَا بِالْإِيمَانِ - كَانَ قَدْ بَينَ لَهُمْ مَا يَنْفَعُهُمْ وما يُصْلِحُهُمْ إِذَا فَعَلُوهُ، وَلَا يَلْزَمُ إِذَا أَمَرَهُمْ أَنْ يُعِينَهُمْ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِي خَلْقِهِ لَهُمْ ذَلِكَ الْفِعْلَ وَإِعَانَتِهِمْ عَلَيْهِ وَجْهُ مَفْسَدَةٍ مِنْ حَيْثُ هُوَ فِعْلٌ لَهُ، فَإِنهُ يَخْلُقُ مَا يَخْلُقُ لِحِكْمَةٍ، وَلَا يَلْزَمُ إِذَا كَانَ الْفِعْلُ الْمَأْمُورُ بِهِ مَصْلَحَةً لِلْمَأْمُورِ إِذَا فَعَلَهُ - أَنْ يَكُونَ مَصْلَحَةً لِلْآمِرِ إِذَا فَعَلَهُ هُوَ أَوْ جَعَلَ الْمَأْمُورَ فَاعِلًا لَهُ. فَأَيْنَ جِهَةُ الْخَلْقِ مِنْ جِهَةِ الْأَمْرِ ؟ فَالْوَاحِدُ مِنَ الناسِ يَأْمُرُ غَيْرَهُ وَيَنْهَاهُ مُرِيدًا النصِيحَةَ وَمُبَينًا لِمَا يَنْفَعُهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَ ذَلِكَ لَا يُرِيدُ أَنْ يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ الْفِعْلِ، إِذْ لَيْسَ كُل مَا كَانَ مَصْلَحَتِي فِي أَنْ آمُرَ بِهِ غَيْرِي وَأَنْصَحَهُ - يَكُونُ مَصْلَحَتِي فِي أَنْ أُعَاوِنَهُ أَنَا عَلَيْهِ، بَلْ قَدْ تَكُونُ مَصْلَحَتِي إِرَادَةَ مَا يُضَادهُ. فَجِهَةُ أَمْرِهِ لِغَيْرِهِ نُصْحًا غَيْرُ جِهَةِ فِعْلِهِ لِنَفْسِهِ، وَإِذَا أَمْكَنَ الْفَرْقُ فِي حَق الْمَخْلُوقِينَ فَهُوَ فِي حَق اللهِ أَوْلَى بِالْإِمْكَانِ.

وَالْقَدَرِيةُ تَضْرِبُ مَثَلًا بِمَنْ أمر غَيْرَهُ بِأمْرِه، فَإنهُ لَا بُد أنْ يَفْعَل مَا يَكُونُ الْمَأْمُورُ أقْرَبَ إلَى فِعْلِه، كَالْبِشْرِ وَالطَلَاقَةِ وَتَهْيِئَةِ الْمَسَانِدِ وَالْمَقَاعِدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذَا يَكُونُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ تَكُونَ مَصْلَحَةُ الْآمِرِ تَعُودُ إِلَى الْأمرِ، كَأمرِ الْمَلِكِ جُنْدَهُ بِمَا يُؤَيدُ مُلْكَهُ، وَأمرِ السيدِ عَبْدَهُ بِمَا يُصْلِحُ مُلْكَهُ، وَأمرِ الْإنْسَانِ شَرِيكَهُ [1] بِمَا يُصْلِحُ الْأمرَ الْمُشْتَرَكَ بَيْنَهُمَا، وَنَحْوِ ذَلِكَ. الثانِي: أنْ يَكُونَ الْآمِرُ يَرَى الْإعَانَةَ لِلْمَأْمُورِ مَصْلَحَةً لَهُ، كَالْأمرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَإذَا أعَانَ الْمَأْمُورَ عَلَى الْبِر وَالتقْوَى فَإنهُ قَدْ عَلِمَ أن اللهَ يُثِيبُهُ عَلَى إعَانَتِهِ عَلَى الطاعَةِ، وَأنهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أخِيهِ، فَأما إذَا قُدرَ أن الْآمِرَ إنمَا أمَرَ الْمَأْمُورَ لِمَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ، لَا لِنَفْعٍ يَعُودُ عَلَى الْآمِرِ مِنْ فِعْلِ الْمَأْمُورِ، كَالناصِحِ الْمُشِيرِ وقد رأى أنهُ إذَا أعَانَهُ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْآمِرِ، وَأن فِي حُصُولِ مَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ مَضَرةً عَلَى الْآمِرِ، مِثْلَ الذِي جَاءَ مِنْ أقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى وَقَالَ لِمُوسَى: ﴿ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ۝٢٠ ﴾ [2]. فَهَذَا مَصْلَحَتُهُ فِي أنْ يَأمُرَ مُوسَى -عَلَيْهِ السلَامُ- بِالْخُرُوجِ، لَا فِي أنْ يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ، إذْ لَوْ أعَانَهُ لَضَرهُ قَوْمُهُ. وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ.

وَإذَا قِيلَ: إن اللهَ أمرَ الْعِبَادَ بِمَا يُصْلِحُهُمْ، لَمْ يَلْزَمْ مِنْ ذَلِكَ أنْ يُعِينَهُمْ عَلَى مَا أمَرَهُمْ بِهِ، لَا سِيمَا وَعِنْدَ الْقَدَرِيةِ لَا يَقْدِرُ أنْ يُعِينَ أحَدًا عَلَى مَا بِهِ يَصِيرُ فَاعِلًا. وَإذَا عُللَتْ أفْعَالُهُ بِالْحِكْمَةِ، فَهِيَ ثَابِتَةٌ فِي نَفْسِ الْأمرِ، وَإنْ كُنا نَحْنُ لَا نَعْلَمُهَا. فَلَا يَلْزَمُ إذَا كَانَ فِي نَفْسِ الْآمِرِ لَهُ حِكْمَةٌ فِي الْأمرِ أنْ يَكُونَ فِي الْإعَانَةِ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ حِكْمَةٌ، بَلْ قَدْ تَكُونُ الْحِكْمَةُ تَقْتَضِي أنْ لَا يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ، فَإنهُ إذَا أمكَنَ فِي الْمَخْلُوقِ أنْ يَكُونَ مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ وَالْمَصْلَحَةِ أنْ يَأمُرَ لِمَصْلَحَةِ الْمَأْمُورِ، وَأنْ تَكُونَ الْحِكْمَةُ وَالْمَصْلَحَةُ لِلْآمِرِ أنْ لَا يُعِينَهُ عَلَى ذَلِكَ - فَإمْكَانُ ذَلِكَ فِي حَق الرب أوْلَى وَأحْرَى.

---

(١) في المطبوعة : " شركاه " .

(٢) سورة الْقَصَص آية : ٢٠ .

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّهُ يُمْكِنُ فِي حَقِّ الْمَخْلُوقِ الْحَكِيمِ أَنْ يَأْمُرَ غَيْرَهُ بِأَمْرٍ وَلَا يُعِينَهُ عَلَيْهِ، فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِإِمْكَانِ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مَعَ حِكْمَتِهِ. فَمَنْ أَمَرَهُ وَأَعَانَهُ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَ ذَلِكَ الْمَأْمُورُ بِهِ قَدْ تَعَلَّقَ بِهِ خَلْقُهُ وَأَمْرُهُ إِنْشَاءً وَخَلْقًا وَمَحَبَّةً، فَكَانَ مُرَادًا بِجِهَةِ الْخَلْقِ وَمُرَادًا بِجِهَةِ الْأَمْرِ. وَمَنْ لَمْ يُعِنْهُ عَلَى فِعْلِ الْمَأْمُورِ كَانَ ذَلِكَ الْمَأْمُورُ قَدْ تَعَلَّقَ بِهِ أَمْرُهُ وَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ خَلْقُهُ، لِعَدَمِ الْحِكْمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِتَعَلُّقِ الْخَلْقِ بِهِ، وَلِحُصُولِ الْحِكْمَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِخَلْقِ ضِدِّهِ. وَخَلْقُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يُنَافِي خَلْقَ الضِّدِّ الْآخَرِ، فَإِنَّ خَلْقَ الْمَرَضِ - الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ ذُلُّ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ وَدُعَاؤُهُ وَتَوْبَتُهُ وَتَكْفِيرُ خَطَايَاهُ وَيَرِقُّ بِهِ قَلْبُهُ وَيُذْهِبُ عَنْهُ الْكِبْرِيَاءَ وَالْعَظَمَةَ وَالْعُدْوَانَ - يُضَادُّ خَلْقَ الصِّحَّةِ الَّتِي لَا تَحْصُلُ مَعَهَا هَذِهِ الْمَصَالِحُ. وَلِذَلِكَ [كَانَ] خَلْقُ ظُلْمِ الظَّالِمِ - الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ لِلْمَظْلُومِ مِنْ جِنْسِ مَا يَحْصُلُ بِالْمَرَضِ - يُضَادُّ خَلْقَ عَدْلِهِ الَّذِي لَا يَحْصُلُ بِهِ هَذِهِ الْمَصَالِحُ، وَإِنْ كَانَتْ مَصْلَحَتُهُ هُوَ فِي أَنْ يَعْدِلَ.

وَتَفْصِيلُ حِكْمَةِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، تَعْجِزُ عَنْ مَعْرِفَتِهَا عُقُولُ الْبَشَرِ.

وَالْقَدَرِيَّةُ دَخَلُوا فِي التَّعْطِيلِ عَلَى طَرِيقَةٍ فَاسِدَةٍ: مَثَّلُوا اللَّهَ فِيهَا بِخَلْقِهِ، وَلَمْ يُثْبِتُوا حِكْمَةً تَعُودُ إِلَيْهِ.

قَوْلُهُ: (لَا تَبْلُغُهُ الْأَوْهَامُ، وَلَا تُدْرِكُهُ الْأَفْهَامُ).

ش: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾[1]. قَالَ فِي الصِّحَاحِ: تَوَهَّمْتُ الشَّيْءَ: ظَنَنْتُهُ، وَفَهِمْتُ الشَّيْءَ: عَلِمْتُهُ. فَمُرَادُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: أَنَّهُ لَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ وَهْمٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ عِلْمٌ. قِيلَ: الْوَهْمُ مَا يُرْجَى كَوْنُهُ، أَيْ: يُظَنُّ أَنَّهُ عَلَى صِيغَةِ كَذَا، وَالْفَهْمُ: هُوَ مَا يُحَصِّلُهُ الْعَقْلُ وَيُحِيطُ بِهِ. وَاللَّهُ - تَعَالَى - لَا يُعْلَمُ كَيْفَ هُوَ سُبْحَانَهُ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَإِنَّمَا نَعْرِفُهُ سُبْحَانَهُ بِصِفَاتِهِ، وَهُوَ أَنَّهُ أَحَدٌ، صَمَدٌ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ

(١) سورة طه : ١١٠ .

مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾[1]. ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٤ ﴾[2].

قَوْلُه: (وَلَا يُشْبِهُ الْأَنَام).

ش: هَذَا رَد لِقَوْلِ الْمُشبهَة، الذِينَ يُشَبِّهُونَ الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ ﷻ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١ ﴾[3]. وَلَيْسَ الْمُرَادُ نَفْيَ الصفَاتِ كَمَا يَقُولُ أَهْلُ الْبِدَعِ فَمِنْ كَلَامِ أَبِي حَنِيفَةَ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ: لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ خَلْقِهِ. ثُم قَالَ بَعْدَ ذَلِكَ: وَصِفَاتُهُ كُلهَا خِلَافُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا. انْتَهَى. وَقَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمادٍ: مَنْ شَبهَ اللهَ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ أَنْكَرَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيمَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهٌ.

وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهْوَيْه: مَنْ وَصَفَ اللهَ بشيء فَشَبهَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللهِ الْعَظِيمِ، وَقَالَ: عَلامَةُ جَهْمٍ وَأَصْحَابِهِ دَعْوَاهُمْ عَلَى أَهْلِ السنةِ وَالْجَمَاعَةِ مَا أُولِعُوا بِهِ مِنَ الْكَذِبِ -: أَنهُمْ مُشَبهَةٌ، بَلْ هُمُ الْمُعَطلَةُ. وَكَذَلِكَ قَالَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمةِ السلَفِ: عَلَامَةُ الْجَهْمِيةِ تَسْمِيَتُهُمْ أَهْلَ السنةِ مُشَبهَةً، فَإِنهُ مَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ نُفَاةِ شَيْءٍ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصفَاتِ إِلا يُسَمي الْمُثْبِتَ لَهَا مُشَبهًا، فَمَنْ أَنْكَرَ أَسْمَاءَ اللهِ بِالْكُلية مِنْ غَالِيَةِ الزنَادِقَةِ، الْقَرَامِطَةِ وَالْفَلَاسِفَةِ، وَقَالَ: إِن اللهَ لَا يُقَالُ لَهُ: عَالِمٌ وَلَا قَادِرٌ -: يَزْعُمُ أَن مَنْ سَماهُ بِذَلِكَ فَهُوَ مُشَبهٌ؛ لِأَن الِاشْتِرَاكَ فِي الِاسْمِ يُوجِبُ الِاشْتِبَاهَ فِي مَعْنَاهُ،

---

(١) سورة الْبَقَرَة آية : ٢٥٥ .

(٢) سورة الْحَشْرِ الآيتان : ٢٣-٢٤ .

(٣) سورة الشورَى آية : ١١ .

ومن أثبت الاسم وقال: هو مجاز، كغالية الجهمية، يزعم أن من قال: إن الله عالم حقيقة؛ قادر حقيقة -: فهو مشبه، ومن أنكر الصفات وقال: إن الله ليس له علم ولا قدرة ولا كلام ولا محبة ولا إرادة - قال لمن أثبت الصفات: إنه مشبه، وإنه مجسم. ولهذا كتب نفاة الصفات، من الجهمية والمعتزلة والرافضة ونحوهم، كلها مشحونة بتسمية مثبتي الصفات مشبهة ومجسمة، ويقولون في كتبهم: إن من جملة المجسمة قوما يقال لهم: المالكية، ينسبون إلى رجل يقال له: مالك بن أنس، وقوما يقال لهم الشافعية، ينسبون إلى رجل يقال له: محمد بن إدريس !! حتى الذين يفسرون القرآن منهم، كعبد الجبار، والزمخشري، وغيرهما، يسمون كل من أثبت شيئا من الصفات وقال بالرؤية - مشبها. وهذا الاستعمال قد غلب عند المتأخرين من غالب الطوائف.

ولكن المشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السنة المشهورين: أنهم لا يريدون بنفي التشبيه نفي الصفات، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات. بل مرادهم أنه لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله، كما تقدم من كلام أبي حنيفة: أنه تعالى يعلم لا كعلمنا، ويقدر لا كقدرتنا، ويرى لا كرؤيتنا، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (١) فنفى المثل وأثبت الوصف.

وسيأتي في كلام الشيخ إثبات الصفات، تنبيها على أنه ليس نفي التشبيه مستلزما لنفي الصفات.

ومما يوضح هذا: أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع، ولا بقياس شمولي يستوي أفراده، فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء، فلا يجوز أن يمثل بغيره، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت (٢) قضية كلية يستوي أفرادها. ولهذا لما سلكت طوائف المتفلسفة والمتكلمة مثل هذه الأقيسة في المطالب

---

(١) سورة الشورى آية : ١١ .

(٢) في المطبوعة " بحيث " ، وهو تصحيف واضح .

الْإِلَهِيةِ - لَمْ يَصِلُوا بِهَا إِلَى الْيَقِينِ، بَلْ تَنَاقَضَتْ أَدِلَّتُهُمْ، وَغَلَبَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ التَّنَاهِي الْحَيْرَةُ وَالِاضْطِرَابُ، لِمَا يَرَوْنَهُ مِنْ فَسَادِ أَدِلَّتِهِمْ أَوْ تَكَافِيهَا.

وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ قِيَاسُ الْأَوْلَى، سَوَاءٌ كَانَ تَمْثِيلًا أَوْ شُمُولًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [(١)]. مِثْلَ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمُمْكِنِ أَوْ لِلْمُحْدَثِ، لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَهُوَ مَا كَانَ كَمَالًا لِلْوُجُودِ غَيْرَ مُسْتَلْزِمٍ لِلْعَدَمِ بِوَجْهٍ -: فَالْوَاجِبُ الْقَدِيمُ أَوْلَى بِهِ. وَكُلُّ كَمَالٍ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، ثَبَتَ نَوْعُهُ لِلْمَخْلُوقِ وَالْمَرْبُوبِ الْمُدَبَّرِ -: فَإِنَّمَا اسْتَفَادَهُ مِنْ خَالِقِهِ وَرَبِّهِ وَمُدَبِّرِهِ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ، وَأَنَّ كُلَّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ مَا تَضَمَّنَ سَلْبَ هَذَا الْكَمَالِ، إِذَا وَجَبَ نَفْيُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ وَالْمُحْدَثَاتِ -: فَإِنَّهُ يَجِبُ نَفْيُهُ عَنِ الرَّبِّ تَعَالَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى.

وَمِنْ أَعْجَبِ الْعَجَبِ: أَنَّ مِنْ غُلَاةِ نُفَاةِ الصِّفَاتِ الَّذِينَ يَسْتَدِلُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ أَوِ الْأَسْمَاءِ، وَيَقُولُونَ: وَاجِبُ الْوُجُودِ لَا يَكُونُ كَذَا وَلَا يَكُونُ كَذَا - ثُمَّ يَقُولُونَ: أَصْلُ الْفَلْسَفَةِ هِيَ التَّشَبُّهُ بِالْإِلَهِ عَلَى قَدْرِ الطَّاقَةِ، وَيَجْعَلُونَ هَذَا غَايَةَ الْحِكْمَةِ وَنِهَايَةَ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ، وَيُوَافِقُهُمْ عَلَى ذَلِكَ بَعْضُ مَنْ يُطْلِقُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ، وَيُرْوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ» ، فَإِذَا كَانُوا يَنْفُونَ الصِّفَاتِ، فَبِأَيِّ شَيْءٍ يَتَخَلَّقُ الْعَبْدُ عَلَى زَعْمِهِمْ ؟ ! وَكَمَا أَنَّهُ لَا يُشْبِهُ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَعَالَى، لَا يُشْبِهُهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، لَكِنِ الْمُخَالِفُ فِي هَذَا النَّصَارَى وَالْحُلُولِيَّةُ وَالِاتِّحَادِيَّةُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ، وَنَفْيُ مُشَابَهَةِ شَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ لَهُ، مُسْتَلْزِمٌ لِنَفْيِ مُشَابَهَتِهِ لِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ. فَلِذَلِكَ اكْتَفَى الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ: " وَلَا يُشْبِهُهُ الْأَنَامُ "، وَالْأَنَامُ: النَّاسُ، وَقِيلَ: كُلُّ ذِي رُوحٍ،

---

(١) سورة النحْل آية : ٦٠ .

وقيل: الثقلان. وظاهر قوله تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ ﴾ (١) يشهد للأول أكثر من الباقي. والله أعلم.

قوله: (حي لا يموت قيوم لا ينام).

ش: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ (٢).

فنفي السنة والنوم دليل على كمال حياته وقيوميته، وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ ﴾ (٤) وقال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ ﴾ (٥) وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ (٦). وقال - ﷺ -: ﴿إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام ﴾ (٧). الحديث.

لما نفى الشيخ - رحمه الله التشبيه - أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه، بما يتصف به - تعالى - دون خلقه: فمن ذلك: أنه حي لا يموت؛ لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى دون خلقه فإنهم يموتون. ومنه: أنه قيوم لا ينام؛ إذ هو مختص بعدم النوم والسنة دون خلقه، فإنهم ينامون. وفي ذلك إشارة إلى أن نفي التشبيه ليس المراد منه نفي الصفات، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال، لكمال ذاته. فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعا ولهوا ولعبا

(١) سورة الرحمن آية : ١٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٣) سورة آل عمران الآيات : ١-٣ .

(٤) سورة طه : ١١١ .

(٥) سورة الفرقان آية : ٥٨ .

(٦) سورة غافر آية : ٦٥ .

(٧) مسلم الإيمان (١٧٩) ، أحمد (٤/٤٠٥) .

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ ﴾[(١)]. فَالْحَيَاةُ الدنْيا كَالْمَنامِ، وَالْحَيَاةُ الْآخِرَةُ كَالْيقظَةِ، وَلَا يُقَالُ: فَهَذِهِ الْحَيَاةُ الْآخِرَةُ كَامِلَةٌ، وَهِيَ لِلْمَخْلُوقِ -: لِأَنا نَقُولُ: الْحَي الذِي الْحَيَاةُ مِنْ صِفَاتِ ذَاتِهِ اللازِمَةِ لَهَا، هُوَ الذِي وَهَبَ الْمَخْلُوقَ تِلْكَ الْحَيَاةَ الدائِمَةَ، فَهِيَ دَائِمَةٌ بِإِدَامَةِ اللهِ لَهَا، لَا أن الدوَامَ[(٢)] وَصْفٌ لَازِمٌ لَهَا لِذَاتِهَا، بِخِلَافِ حَيَاةِ الرب تَعَالَى. وَكَذَلِكَ سَائِرُ صِفَاتِهِ، فَصِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

وَاعْلَمْ أن هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ، أَعْنِي " الْحَي الْقَيومَ " مَذْكُورَانِ فِي الْقُرْآنِ مَعًا فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ كَمَا تَقدمَ، وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى، حَتى قِيلَ: إِنهُمَا الِاسْمُ الْأَعْظَمُ، فَإِنهُمَا يَتَضَمنَانِ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَكْمَلَ تَضَمنٍ وَأَصْدَقَهُ، وَيَدُل الْقَيومُ عَلَى مَعْنَى الْأَزَلِيةِ وَالْأَبَدِيةِ مَا لَا يَدُل عَلَيْهِ لَفْظُ " الْقَدِيمِ ". وَيَدُل أَيْضًا عَلَى كَوْنِهِ مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ، وَهُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ وَاجِبَ الْوُجُودِ. وَ " الْقَيومُ " أَبْلَغُ مِنَ " الْقَيامِ " لِأَن الْوَاوَ أَقْوَى مِنَ الْأَلِفِ، وَيُفِيدُ قِيَامَهُ بِنَفْسِهِ، بِاتفَاقِ الْمُفَسرِينَ وَأَهْلِ اللغَةِ، وَهُوَ مَعْلُومٌ بِالضرُورَةِ. وَهَلْ تُفِيدُ إِقَامَتَهُ لِغَيْرِهِ وَقِيَامَهُ عَلَيْهِ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ، أَصَحهُمَا: أَنهُ يُفِيدُ ذَلِكَ. وَهُوَ يُفِيدُ دَوَامَ قِيَامِهِ وَكل قِيَامِهِ، لِمَا فِيهِ مِنَ الْمُبَالَغَةِ، فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يَزُولُ وَلَا يَأْفُلُ، فَإِن الْآفِلَ قَدْ زَالَ قَطْعًا، أَيْ: لَا يَغِيبُ وَلَا يَنْقُصُ وَلَا يَفْنَى وَلَا يُعْدَمُ، بَلْ هُوَ الدائِمُ الْبَاقِي الذِي لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ. وَاقْتِرَانُهُ بِالْحَي يَسْتَلْزِمُ سَائِرَ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَيَدُل عَلَى بَقَائِهَا وَدَوَامِهَا، وَانْتِفَاءِ النقْصِ وَالْعَدَمِ عَنْهَا أَزَلًا وَأَبَدًا. وَلِهَذَا كَانَ قَوْلُهُ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ ﴾[(٣)] أَعْظَمَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصحِيحِ عَنِ النبِي ﷺ. فَعَلَى[(٤)] هَذَيْنِ الِاسْمَيْنِ مَدَارُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى كُلهَا، وَإِلَيْهِمَا تَرْجِعُ مَعَانِيهَا. فَإِن الْحَيَاةَ

---

(١) سورة العنكبوت آية : ٦٤ .

(٢) في المطبوعة " لأن الدوام " ، وهو خطأ ظاهر .

(٣) سورة البقرة آية : ٢٥٥ .

(٤) في المطبوعة " فعلا " ، وهو خطأ .

مُسْتَلْزِمَةٌ لِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ، وَلَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا صِفَةٌ مِنْهَا إِلَّا لِضَعْفِ الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَانَتْ حَيَاتُهُ - تَعَالَى - أَكْمَلَ حَيَاةٍ وَأَتَمَّهَا، اسْتَلْزَمَ إِثْبَاتُهَا إِثْبَاتَ كُلِّ كَمَالٍ يُضَادُّ نَفْيُهُ كَمَالَ الْحَيَاةِ. وَأَمَّا " الْقَيُّومُ " فَهُوَ مُتَضَمِّنٌ كَمَالَ غِنَاهُ وَكَمَالَ قُدْرَتِهِ، فَإِنَّهُ الْقَوِيمُ بِنَفْسِهِ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ الْمُقِيمُ لِغَيْرِهِ، فَلَا قِيَامَ لِغَيْرِهِ إِلَّا بِإِقَامَتِهِ. فَانْتَظَمَ هَذَانِ الِاسْمَانِ صِفَاتِ الْكَمَالِ أَتَمَّ انْتِظَامٍ.

قَوْلُهُ: (خَالِقٌ بِلَا حَاجَةٍ، رَازِقٌ بِلَا مؤنَةٍ).

ش: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨ ﴾[1]. ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ ﴾[2]. ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ ﴾[3]. ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ ﴾[4]. وَقَالَ ﷺ مِنْ حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ - رضي الله عنه - «يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ - مَا نَقَصَ ذَلِكَ عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ

---

(١) سورة الذاريات الآيات : ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) سورة فاطر آية : ١٥ .

(٣) سورة محمد آية : ٣٨ .

(٤) سورة الأنعام آية : ١٤ .

الْمِخْيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ ﴾ [1] الْحَدِيث. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَقَوْلُهُ: " بِلَا مؤنة ": بِلَا ثِقَلٍ وَلَا كُلْفَةٍ.

قَوْلُهُ: (مُمِيتٌ بِلَا مَخَافَةٍ، بَاعِثٌ بِلَا مَشَقَّةٍ).

ش: الْمَوْتُ صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ، خِلَافًا لِلْفَلَاسِفَةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ [2]. وَالْعَدَمُ لَا يُوصَفُ بِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا. وَفِي الْحَدِيثِ: أَنَّهُ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُذْبَحُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ. وَهُوَ وَإِنْ كَانَ عَرَضًا فَاللَّهُ - تَعَالَى - يَقْلِبُهُ عَيْنًا، كَمَا وَرَدَ فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ: أَنَّهُ يَأْتِي صَاحِبَهُ فِي صُورَةِ الشَّابِّ الْحَسَنِ، وَالْعَمَلُ الْقَبِيحُ عَلَى أَقْبَحِ صُورَةٍ وَوَرَدَ فِي الْقُرْآنِ: أَنَّهُ يَأْتِي عَلَى صُورَةِ الشَّابِّ الشَّاحِبِ اللَّوْنِ، الْحَدِيثَ. أَيْ قِرَاءَةَ الْقَارِئِ. وَوَرَدَ فِي الْأَعْمَالِ: أَنَّهَا تُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ، وَالْأَعْيَانُ هِيَ الَّتِي تَقْبَلُ الْوَزْنَ دُونَ الْأَعْرَاضِ. وَوَرَدَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ: أَنَّهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍّ. وَفِي الصَّحِيحِ: أَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قَوْلُهُ: (مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ، لَمْ يَزْدَدْ بِكَوْنِهِمْ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ قَبْلَهُمْ مِنْ صِفَتِهِ، كَمَا كَانَ بِصِفَاتِهِ أَزَلِيًّا، كَذَلِكَ لَا يَزَالُ عَلَيْهَا أَبَدِيًّا).

ش: أَيْ: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ الْكَمَالِ: صِفَاتِ الذَّاتِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ. وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ وُصِفَ بِصِفَةٍ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَّصِفًا بِهَا، لِأَنَّ صِفَاتِهِ - سُبْحَانَهُ - صِفَاتُ كَمَالٍ، وَفَقْدَهَا صِفَةُ نَقْصٍ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حَصَلَ لَهُ الْكَمَالُ بَعْدَ أَنْ كَانَ مُتَّصِفًا بِضِدِّهِ. وَلَا يَرِدُ عَلَى هَذَا صِفَاتُ الْفِعْلِ وَالصِّفَاتُ الِاخْتِيَارِيَّةُ

---

(1) مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٩٥) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٥٧) ، أحمد (٥/١٥٤) .

(2) سورة الْمُلْكِ آية : ٢ .

وَنحْوُهَا، كَالْخَلْقِ وَالتصْوِيرِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ، وَالْقَبْضِ وَالْبَسْطِ وَالطي، وَالاسْتِوَاءِ وَالْإِتيانِ وَالْمَجِيءِ وَالنزُولِ، وَالْغَضَبِ وَالرضَا، وَنحْوِ ذَلكَ مِما وَصَفَ بِهِ نفْسَهُ وَوَصَفَهُ بِهِ رَسُولُه، وَإِنْ كُنا لَا نُدْرِكُ كُنْهَهُ وَحَقِيقَتَهُ التِي هِيَ تَأْوِيلُهُ، وَلَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِلِينَ بِآرَائِنَا، وَلَا مُتَوَهِمِينَ بِأَهْوَائِنَا، وَلَكِن أَصْلَ مَعْنَاهُ مَعْلُومٌ لَنا، كَمَا قَالَ الْإِمَامُ مَالِكٌ ﷺ لَما سُئِلَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [1] كَيْفَ اسْتَوَى ؟ فَقَالَ: الاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ. وَإِن كَانَتْ هَذِهِ الْأَحْوَالُ تَحْدُثُ فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ الشفَاعَةِ: «إِن رَبي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ» [2] ؛ لِأَن هَذَا الْحُدُوثَ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ غَيْرُ مُمْتَنِعٍ، وَلَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ أَنهُ حَدَثَ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، أَلَا تَرَى أَن مَنْ تَكَلمَ الْيَوْمَ وَكَانَ مُتَكَلمًا بِالْأَمْسِ لَا يُقَالُ: أَنهُ حَدَثَ لَهُ الْكَلَامُ، وَلَوْ كَانَ غَيْرَ مُتَكَلِمٍ لِآفَةٍ كَالصغِيرِ وَالْخَرَسِ، ثُم تَكَلمَ يُقَالُ: حَدَثَ لَهُ الْكَلَامُ، فَالساكِتُ لِغَيْرِ آفَةٍ يُسَمى مُتَكَلمًا بِالْقُوةِ، بِمَعْنَى أَنهُ يَتَكَلمُ إِذَا شَاءَ، وَفِي حَالِ تَكَلمِهِ يُسَمى مُتَكَلمًا بِالْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ الْكَاتِبُ فِي حَالِ الْكِتَابَةِ هُوَ كَاتِبٌ بِالْفِعْلِ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ كَوْنِهِ كَاتِبًا فِي حَالِ عَدَمِ مُبَاشَرَتِهِ لِلْكِتَابَةِ.

وَحُلُولُ الْحَوَادِثِ بِالرب تَعَالَى، الْمَنْفِي فِي عِلْمِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، لَمْ يَرِدْ نَفْيُهُ وَلَا إِثْبَاتُهُ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنةٍ. وَفِيهِ إِجْمَالٌ: فَإِنْ أُرِيدَ بِالنفْيِ أَنهُ سُبْحَانَهُ لَا يَحِلُ فِي ذَاتِهِ الْمُقَدسَةِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ الْمُحْدَثَةِ، وَلَا يَحْدُثُ لَهُ وَصْفٌ مُتَجَددٌ لَمْ يَكُنْ - فَهَذَا نَفْيٌ صَحِيحٌ. وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ نَفْيُ الصفَاتِ الِاخْتِيَارِيةِ، مِنْ أَنهُ لَا يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ، وَلَا يَتَكَلمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ، وَلَا أَنهُ يَغْضَبُ وَيَرْضَى لَا كَأَحَدٍ مِنَ الْوَرَى، وَلَا يُوصَفُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ النزُولِ وَالِاسْتِوَاءِ وَالْإِتيانِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ - فَهَذَا نَفْيٌ بَاطِلٌ.

---

(١) سورة الْأَعْرَافِ آية : ٥٤ ، وسورة يونس آية : ٣ .

(٢) البخاري تفسير القرآن (٤٤٣٥) ، مسلم الإيمان (١٩٤) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٤) .

وَأَهْلُ الْكَلَامِ الْمَذْمومِ يُطْلِقُونَ نَفْيَ حُلُولِ الْحَوَادِثِ، فَيُسَلِّمُ السني لِلْمُتَكَلِّمِ ذَلِكَ، عَلَى ظَن أَنَّهُ نَفَى عَنْهُ - سُبْحَانَهُ - مَا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، فَإِذَا سَلَّمَ لَهُ هَذَا النفْيَ أَلْزَمَهُ نَفْيَ الصفَاتِ الِاخْتِيَارِيَةِ وَصِفَاتِ الْفِعْلِ، وَهُوَ غير لَازِمٍ لَهُ. وَإِنمَا أُتِيَ السني مِنْ تَسْلِيمِ هَذَا النفْيِ الْمُجْمَلِ، وَإِلا فَلَو اسْتَفْسَرَ وَاسْتَفْصَلَ له لَمْ يَنقَطِعْ مَعَهُ.

وَكَذَا مَسْأَلَةُ " الصفَةِ ": هَلْ هِيَ زَائِدَةٌ عَلَى الذاتِ أَم لَا ؟ لَفْظُهَا مُجْمَلٌ.

وَكَذَلِكَ لَفْظُ الْغَيرِ، فِيهِ إِجْمَالٌ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا لَيْسَ هُوَ إِيَّاهُ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا جَازَ مُفَارَقَتُهُ لَهُ.

وَلِهَذَا كَانَ أَئِمةُ السنةِ لَا يُطْلِقُونَ عَلَى صِفَاتِ اللهِ وَكَلَامِهِ أَنهُ " غَيْرُهُ "، وَلَا أَنهُ " لَيْسَ غَيْرَهُ ". لِأَن إِطْلَاقَ الْإِثْبَاتِ قَدْ يُشْعِرُ أَن ذَلِكَ مُبَايِنٌ لَهُ، وَإِطْلَاقَ النفْيِ قَدْ يُشْعِرُ بِأَنهُ هُوَ، إِذْ كَانَ لَفْظُ " الْغَيْرِ " فِيهِ إِجْمَالٌ، فَلَا يُطْلَقُ إِلا مَعَ الْبَيانِ وَالتفْصِيلِ: فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَن هُنَاكَ ذَاتًا مُجَرَدَةً قَائِمَةً بِنَفْسِهَا مُنْفَصِلَةً عَنِ الصفَاتِ الزائِدَةِ عَلَيْهَا - فَهَذَا غَيْرُ صَحِيحٍ، وَإِنْ أُرِيدَ بِهِ أَن الصفَاتِ زَائِدَةٌ عَلَى الذاتِ الَتي يُفْهَمُ مِنْ مَعْنَاهَا غَيْرُ مَا يُفْهَمُ مِنْ مَعْنَى الصفَةِ - فَهَذَا حَق، وَلَكِنْ لَيسَ فِي الْخَارِجِ ذَاتٌ مُجَردَةٌ عَنِ الصفَاتِ، بَلِ الذاتُ الْمَوْصُوفَةُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الثابِتَةِ لَهَا لَا تَنْفَصِلُ عَنْهَا، وَإِنمَا يَعْرِضُ للذهْنُ ذَات وَصِفَة، كُل وَحْدَه، وَلَكِنْ لَيْسَ فِي الْخَارِجِ ذَاتٌ غَيْرُ مَوْصُوفَةٍ، فَإِن هَذَا مُحَالٌ. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلا صِفَةَ الْوُجُودِ، فَإِنهَا لَا تَنفَك عَنِ الْوُجُودِ، وَإِنْ كَانَ الذهْنُ يَفْرِضُ ذَاتًا وَوُجُودًا، يَتَصَوَرُ هَذَا وَحْدَهُ، وَهَذَا وَحْدَهُ، لَكِنْ لَا يَنفَك أَحَدُهُمَا عَنِ الْآخَرِ فِي الْخَارِجِ.

وَقَدْ يَقُولُ بَعْضُهُمْ: الصفَةُ لَا عَيْنُ الْمَوْصُوفِ وَلَا غَيْرُهُ. وَهَذَا لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ، وَهُوَ: أَن الصفَةَ لَيْستْ عَيْنَ ذَاتِ الْمَوْصُوفِ الَتي يَفْرِضُهَا الذهْنُ مُجَرَدَةً بَلْ هِيَ غَيْرُهَا، وَلَيْسَتْ غَيْرَ الْمَوْصُوفِ، بَلِ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِهِ وَاحِدٌ غَيْرُ مُتَعَدِدٍ. فإذا قلت: " أعوذ بالله "، فقد عذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التي لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه.

وَإِذَا قُلْت: " أَعُوذُ بِعِزةِ اللهِ "، فَقَدْ عُذْت بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ اللهِ، وَلَمْ تَعُذْ بِغَيْرِ اللهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى يُفْهَمُ مِنْ لَفْظِ " الذاتِ "، فَإِن " ذَات " فِي أَصْلِ مَعْنَاهَا لَا تُسْتَعْمَلُ إلا مُضَافَةً، أَيْ: ذَاتُ وُجُودٍ، ذَاتُ قُدْرَةٍ، ذَاتُ عِز، ذَاتُ عِلْمٍ، ذَاتُ كَرَمٍ، إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصفَاتِ. فـ " ذَاتُ كَذَا " بِمَعْنَى صَاحِبَةِ كَذَا: تَأْنِيثُ ذُو. هَذَا أَصْلُ مَعْنَى الْكَلِمَةِ. فَعُلِمَ أن الذاتَ لَا يُتَصَورُ انْفِصَالُ الصفَاتِ عَنْهَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَإِنْ كَانَ الذهْنُ قَدْ يَفْرِضُ ذَاتًا مُجَردَةً عَنِ الصفَاتِ، كَمَا يَفْرِضُ الْمُحَالَ. وَقَدْ قَالَ ﷺ ﴿ أَعُوذُ بِعِزةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَر مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ ﴾ (1). وَقَالَ ﷺ ﴿ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التامات مِنْ شَر مَا خَلَقَ ﴾ (2). وَلَا يَعُوذُ ﷺ بِغَيْرِ اللهِ. وَكَذَا قَالَ ﷺ ﴿ اللهُم إني أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ﴾ (3). وَقَالَ ﷺ ﴿ وَنَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا ﴾. وَقَالَ ﷺ ﴿ أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظلُمَاتُ ﴾ .

وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: الِاسْمُ عَيْنُ الْمُسَمى أَوْ غَيْرُهُ ؟ وَطَالَمَا غَلِطَ كَثِيرٌ مِنَ الناسِ فِي ذَلِكَ، وَجَهِلُوا الصوَابَ فِيهِ: فَالِاسْمُ يُرَادُ بِهِ الْمُسَمى تَارَةً، وَيُرَادُ بِهِ اللفْظُ الدال عَلَيْهِ أُخْرَى، فَإِذَا قُلْت: قَالَ اللهُ كَذَا، أَوْ سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ - فَهَذَا الْمُرَادُ بِهِ الْمُسَمى نَفْسُهُ، وَإِذَا قُلْت: اللهُ اسْمٌ عَرَبِي، وَالرحْمَنُ اسْمٌ عَرَبِي، وَالرحمن مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ - فَالِاسْمُ هَاهُنَا هُوَ الْمُرَادُ لَا الْمُسَمى، وَلَا يُقَالُ غَيْرُهُ، لِمَا فِي لَفْظِ الْغَيْرِ مِنَ الْإِجْمَالِ: فَإِنْ أُرِيدَ بِالْمُغَايَرَةِ أن اللفْظَ غَيْرُ الْمَعْنَى فَحَق، وَإِنْ أُرِيدَ أن اللهَ سُبْحَانَهُ كَانَ

---

(1) مسلم السلام (٢٢٠٢) ، الترمذي الطب (٢٠٨٠) ، أبو داود الطب (٣٨٩١) ، ابن ماجه الطب (٣٥٢٢) ، أحمد (٢١٧/٤) ، مالك الجامع (١٧٥٤) .

(2) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٨) ، الترمذي الدعوات (٣٤٣٧) ، ابن ماجه الطب (٣٥٤٧) ، أحمد (٤٠٩/٦) ، الدارمي الاستئذان (٢٦٨٠) .

(3) مسلم الصلاة (٤٨٦) ، الترمذي الدعوات (٣٤٩٣) ، النسائي التطبيق (١١٣٠) ، أبو داود الصلاة (٨٧٩) ، ابن ماجه الدعاء (٣٨٤١) ، أحمد (٥٨/٦) ، مالك النداء للصلاة (٤٩٧) .

وَلَا اسْمَ لَهُ، حَتى خَلَقَ لِنفْسِهِ أسْمَاءَ، أوْ حَتى سَماهُ خَلْقُهُ بِأسْمَاءٍ مِنْ صُنْعِهِمْ - فَهَذَا مِنْ أعْظَمِ الضلَالِ وَالْإلْحَادِ فِي أسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى.

وَالشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ أشَارَ بِقَوْلِهِ: "مَا زَالَ بِصِفَاتِهِ قَدِيمًا قَبْلَ خَلْقِهِ" إلَى آخِرِ كَلَامِهِ - إلَى الرد عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَالْجَهْمِيةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الشيعَةِ. فَإنهُمْ قَالُوا: إن الله - تَعَالَى - صَارَ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ وَالْكَلَامِ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ قَادِرًا عَلَيْهِ، لِكَوْنِهِ صَارَ الْفِعْلُ وَالْكَلَامُ مُمْكِنًا بَعْدَ أنْ كَانَ مُمْتَنِعًا، وَأنهُ انْقَلَبَ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذاتِي إلَى الْإمْكَانِ الذاتِي ! وَابْنِ كِلَابٍ وَالْأشْعَرِي وَمَنْ وَافَقَهُمَا، فَإنهُمْ قَالُوا: إن الْفِعْلَ صَارَ مُمْكِنًا لَهُ بَعْدَ أنْ كَانَ مُمْتَنِعًا مِنْهُ. وَأما الْكَلَامُ عِنْدَهُمْ فَلَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ، بَلْ هُوَ شَيْءٌ وَاحِدٌ لَازِمٌ لِذَاتِهِ.

وَأصْلُ هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْجَهْمِيةِ، فَإنهُمْ قَالُوا: إن دَوَامَ الْحَوَادِثِ مُمْتَنِعٌ، وَإنهُ يَجِبُ أنْ يَكُونَ لِلْحَوَادِثِ مَبْدَأٌ؛ لِامْتِنَاعِ حَوَادِثَ لَا أولَ لَهَا، فَيَمْتَنِعُ أنْ يَكُونَ الْبَارِي ﷻ لَمْ يَزَلْ فَاعِلًا مُتَكَلمًا بِمَشِيئَتِهِ، بَلْ يَمْتَنِعُ أنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى ذَلِكَ، لِأن الْقُدْرَةَ عَلَى الْمُمْتَنِعِ مُمْتَنِعَةٌ ! وَهَذَا فَاسِدٌ، فَإنهُ يَدُل عَلَى امْتِنَاعِ حُدُوثِ الْعَالَمِ وَهُوَ حَادِثٌ، وَالْحَادِثُ إذَا حَدَثَ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ مُحْدَثًا فَلَا بُد أنْ يَكُونَ مُمْكِنًا، وَالْإمْكَانُ لَيْسَ لَهُ وَقْتٌ مَحْدُودٌ، وَمَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدرُ إلا وَالْإمْكَانُ ثَابِتٌ فِيهِ، فَلَيْسَ لِإمْكَانِ الْفِعْلِ وَجَوَازِهِ وَصِحتِهِ مَبْدَأٌ يَنْتَهِي إلَيْهِ، فَيَجِبُ أنهُ لَمْ يَزَلِ الْفِعْلُ مُمْكِنًا جَائِزًا صَحِيحًا، فَيَلْزَمُ أنهُ لَمْ يَزَلِ الرب قَادِرًا عَلَيْهِ، فَيَلْزَمُ جَوَازُ حَوَادِثَ لَا نِهَايَةَ لِأولِهَا.

قَالَتِ الْجَهْمِيةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ: نَحْنُ لَا نُسَلمُ أن إمْكَانَ الْحَوَادِثِ لَا بِدَايَةَ لَهُ، لَكِنْ نَقُولُ: إمْكَانُ الْحَوَادِثِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مَسْبُوقَةً بِالْعَدَمِ لَا بِدَايَةَ لَهُ، وَذَلِكَ لِأن الْحَوَادِثَ عِنْدَنَا تَمْتَنِعُ أنْ تَكُونَ قَدِيمَةَ النوْعِ، بَلْ يَجِبُ حُدُوثُ نَوْعِهَا وَيَمْتَنِعُ قِدَمُ نَوْعِهَا. لَكِنْ لَا يَجِبُ الْحُدُوثُ فِي وَقْتٍ بِعَيْنِهِ، فَإمْكَانُ الْحَوَادِثِ بِشَرْطِ كَوْنِهَا مَسْبُوقَةً بِالْعَدَمِ لِأولِهِ، بِخِلَافِ جِنْسِ الْحَوَادِثِ.

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَبْ أنكُمْ تَقُولُونَ ذَلِكَ، لَكِنْ يُقَالُ: إمْكَانُ جِنْسِ الْحَوَادِثِ عِنْدَكُمْ لَهُ بِدَايَةٌ، فَإنهُ صَارَ جِنْسُ الْحُدُوثِ عِنْدَكُمْ مُمْكِنًا، بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ مُمْكِنًا، وَلَيْسَ لِهَذَا

الْإِمْكَانِ وَقْتٌ مُعين، بَلْ مَا مِنْ وَقْتٍ يُفْرَضُ إِلا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ قَبْلَهُ، فَيَلْزَمُ دَوَامُ الْإِمْكَانِ، وَإِلا لَزِمَ انْقِلَابُ الْجِنْسِ مِنَ الِامْتِنَاعِ إِلَى الْإِمْكَانِ مِنْ غَيْرِ حُدُوثِ شَيْءٍ، وَمَعْلُومٌ أَن انْقِلَابَ حَقِيقَةِ جِنْسِ الْحُدُوثِ، أَوْ جِنْسِ الْحَوَادِثِ، أَوْ جِنْسِ الْفِعْلِ، أَوْ جِنسِ الإِحْدَاثِ، أَو مَا أَشْبَهَ هَذَا مِنَ الْعِبَارَاتِ - مِنَ الِامْتِنَاعِ إِلَى الْإِمْكَانِ هُوَ: مُصَيرُ ذَلِكَ مُمْكِنًا جَائِزًا بَعْدَ أَنْ كَانَ مُمْتَنِعًا مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ تَجَدد، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي صَرِيحِ الْعَقْلِ. وَهُوَ أَيْضًا انْقِلَابُ الْجِنْسِ مِنَ الِامْتِنَاعِ الذاتِي إِلَى الْإِمْكَانِ الذاتِي، فَإِن ذَاتَ جِنْسِ الْحَوَادِثِ عِنْدَهُمْ تَصِيرُ مُمْكِنَةً بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مُمْتَنِعَةً، وَهَذَا الِانْقِلَابُ لَا يَخْتَص بِوَقْتٍ مُعَينٍ، فَإِنهُ مَا مِنْ وَقْتٍ يُقَدرُ إِلا وَالْإِمْكَانُ ثَابِتٌ قَبْلَهُ، فَيَلْزَمُ أَنهُ لَمْ يَزَلْ هَذَا الِانْقِلَابُ مُمْكِنًا، فَيَلْزَمُ أَنه لَمْ يَزَلِ الْمُمْتَنِعُ مُمْكِنًا ! وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الِامْتِنَاعِ مِنْ قَوْلِنَا: لَمْ يَزَلِ الْحَادِثُ مُمْكِنًا، فَقَدْ لَزِمَهُمْ فِيمَا فَروا إِلَيْهِ أَبْلَغُ مِما لَزِمَهُمْ فِيمَا فَروا مِنْهُ ! فَإِنهُ يُعْقَلُ كَوْنُ الْحَادِثِ مُمْكِنًا، وَيُعْقَلُ أَن هَذَا الْإِمْكَانَ لَمْ يَزَلْ، وَأَما كَوْنُ الْمُمْتَنِعِ مُمْكِنًا فَهُوَ مُمْتَنِعٌ فِي نَفْسِهِ، فَكَيْفَ إِذَا قِيلَ: لَمْ يَزَلْ إِمْكَانُ هَذَا الْمُمْتَنِعِ ؟ ! وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

فَالْحَاصِلُ: أَن نَوْعَ الْحَوَادِثِ هَلْ يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَالْمَاضِي أَمْ لَا ؟ أَوْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَقَطْ ؟ أَوِ الْمَاضِي فَقَطْ ؟ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ مَعْرُوفَةٍ لِأَهْلِ النظَرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ، أَضْعَفُهَا: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ، لَا يُمْكِنُ دَوَامُهَا لَا فِي الْمَاضِي وَلَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ، كَقَوْلِ جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ وَأَبِي الْهُذَيْلِ الْعَلافِ. وَثَانِيهَا: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ دُونَ الْمَاضِي، كَقَوْلِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَغَيْرِهِمْ. وَالثالِثُ: قَوْلُ مَنْ يَقُولُ: يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا يَقُولُهُ أَئِمةُ الْحَدِيثِ، وَهِيَ مِنَ الْمَسَائِلِ الْكِبَارِ. وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ يُمْكِنُ دَوَامُهَا فِي الْمَاضِي دُونَ الْمُسْتَقْبَلِ.

وَلَا شَك أَن جُمْهُورَ الْعَالَمِ مِنْ جَمِيعِ الطوَائِفِ يَقُولُونَ: إِن كُل مَا سِوَى اللهِ -تَعَالَى- مَخْلُوقٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، وَهَذَا قَوْلُ الرسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْيَهُودِ وَالنصَارَى وَغَيْرِهِمْ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالْفِطْرَةِ أَن كَوْنَ الْمَفْعُولِ مُقَارِنًا لِفَاعِلِهِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مَعَهُ - مُمْتَنِعٌ مُحَالٌ، وَلَما كَانَ تَسَلْسُلُ الْحَوَادِثِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الرب

سُبْحَانَهُ هُوَ الْآخِرَ الذِي لَيسَ بَعْدَهُ شيْءٌ، فَكَذَا تَسَلْسُلُ الْحَوَادِثِ فِي الْمَاضِي لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْأولَ الذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ. فَإِن الرب - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَيَتَكلَّمُ إِذَا يَشاءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [1]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [2]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [3]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [4]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [5].

وَالْمُثْبَتُ إِنمَا هُوَ الْكَلام [6]. الْمُمْكِنُ الْوُجُودُ، وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ النوْعُ دَائِمًا فَالْمُمْكِنُ [7]. هُوَ القديم [8]. عَلَى كُل فَرْدٍ مِنَ الْأفْرَادِ بِحَيْثُ لَا يَكُونُ فِي أَجْزَاءِ الْعَالَمِ شَيْءٌ يُقَارِنُهُ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوه.

وَأما دَوَامُ الْفِعْلِ فَهُوَ أَيضًا مِنَ الْكَمَالِ، فَإِن الْفِعْلَ إِذَا كَانَ صِفَةَ كَمَالٍ فَدَوَامُهُ دَوَامُ الْكَمَالِ.

---

(١) سورة آل عِمْرَانَ آية : ٤٠ .

(٢) سورة الْبَقَرَة آية : ٢٥٣ .

(٣) سورة الْبُرُوجِ الآيتان : ١٥-١٦ .

(٤) سورة لُقْمَانَ آية : ٢٧ .

(٥) سورة الْكَهْفِ آية : ١٠٩ .

(٦) في باقي النسخ " الكمال " . ن .

(٧) في باقي النسخ زيادة " وَالْأَكْمَلُ " . ن .

(٨) في باقي النسخ " التقَدُّمُ " . ن .

قَالُوا: وَالتسَلْسُلُ لَفْظٌ مُجْمَلٌ، لَمْ يرِدْ بِنَفْيِهِ وَلَا إِثْبَاتِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنةٌ، لِيَجِبَ مُرَاعَاةُ لَفْظِهِ، وَهُوَ يَنْقَسِمُ إِلَى وَاجِبٍ وَمُمْتَنِعٍ وَمُمْكِنٍ: فَالتسَلْسُلُ فِي الْمُؤَثرِينَ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ مُؤَثرُونَ كُل وَاحِدٍ مِنْهُمُ اسْتَفَادَ تَأْثِيرَهُ مِما قَبْلَهُ لَا إِلَى غَايَةٍ.

وَالتسَلْسُلُ الْوَاجِبُ: مَا دَل عَلَيْهِ الْعَقْلُ وَالشرْعُ، مِنْ دَوَامِ أَفْعَالِ الرب - تَعَالَى - فِي الْأَبَدِ، وَأَنهُ كُلمَا انْقَضَى لِأَهْلِ الْجَنةِ نَعِيمٌ أَحْدَثَ لَهُمْ نَعِيمًا آخَرَ لَا نَفَادَ لَهُ، وَكَذَلِكَ التسَلْسُلُ فِي أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ مِنْ طَرَفِ الْأَزَلِ، وَأَن كُل فِعْلٍ مَسْبُوقٌ بِفِعْلٍ آخَرَ، فَهَذَا وَاجِبٌ فِي كَلَامِهِ، فَإِنهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلمًا إِذَا شَاءَ، وَلَمْ تَحْدُثْ لَهُ صِفَةُ الْكَلَامِ فِي وَقْتٍ، وَهَكَذَا أَفْعَالُهُ التِي هِيَ مِنْ لَوَازِمِ حَيَاتِهِ، فَإِن كُل حَي فَعالٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْحَي وَالْمَيتِ: الْفِعْلُ، وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السلَفِ: الْحَي الْفَعالُ، وَقَالَ عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ: كُل حَي فَعالٌ، وَلَمْ يَكُنْ رَبنَا - تَعَالَى - قَط فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مُعَطلًا عَنْ كَمَالِهِ، مِنَ الْكَلَامِ وَالْإِرَادَةِ وَالْفِعْلِ.

وَأَما التسَلْسُلُ الْمُمْكِنُ: فَالتسَلْسُلُ فِي مَفْعُولَاتِهِ مِنْ هَذَا الطرَفِ، كَمَا تَتَسَلْسَلُ فِي طَرَفِ الْأَبَدِ، فَإِنهُ إِذَا لَمْ يَزَلْ حيا قَادِرًا مُرِيدًا مُتَكَلمًا، وَذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِهِ فَالْفِعْلُ مُمْكِنٌ لَهُ بِمُوجِبِ هَذِهِ الصفَاتِ لَهُ، وَأَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِنْ أَنْ لَا يَفْعَلَ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنهُ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ مَعَهُ، فَإِنهُ سُبْحَانَهُ مُتَقَدمٌ عَلَى كُل فَرْدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ تَقَدمًا لَا أَولَ لَهُ، فَلِكُل مَخْلُوقٍ أَولٌ، وَالْخَالِقُ - سُبْحَانَهُ - لَا أَولَ لَهُ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْخَالِقُ، وَكُل مَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ كَائِنٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ.

قَالُوا: وَكُل قَوْلٍ سِوَى هَذَا فَصَرِيحُ الْعَقْلِ يَرُدهُ وَيَقْضِي بِبُطْلَانِهِ، وَكُل مَنِ اعْتَرَفَ بِأَن الرب تَعَالَى لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ لَزِمَهُ أَحَدُ أَمْرَيْنِ، لَا بُد لَهُ مِنْهُمَا: إِما أَنْ يَقُولَ بِأَن الْفِعْلَ لَمْ يَزَلْ مُمْكِنًا، وَإِما أَنْ يَقُولَ لَمْ يَزَلْ وَاقِعًا، وَإِلا تَنَاقَضَ تَنَاقُضًا بَينًا، حَيْثُ زَعَمَ أَن الرب تَعَالَى لَمْ يَزَلْ قَادِرًا عَلَى الْفِعْلِ، وَالْفِعْلُ مُحَالٌ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ، لَوْ أَرَادَهُ لَمْ يُمْكِنْ وُجُودُهُ، بَلْ فَرْضُ إِرَادَتِهِ عِنْدَهُ مُحَالٌ وَهُوَ مَقْدُورٌ لَهُ. وَهَذَا قَوْلٌ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

وَالْمَقْصُودُ: أن الذِي دَل عَلَيْهِ الشرْعُ وَالْعَقْلُ، أن كُل مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى مُحْدَثٌ كَائِنٌ بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ، أما كَوْنُ الرب - تَعَالَى - لَمْ يَزَلْ مُعَطلًا عَنِ الْفِعْلِ ثُم فَعَلَ، فَلَيْسَ فِي الشرْعِ وَلَا فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ، بَلْ كِلَاهُمَا يَدُل عَلَى نَقِيضِهِ.

وَقَدْ أوْرَدَ أبو الْمَعَالِي فِي إرْشَادِهِ وَغَيْرُهُ مِنَ النظارِ عَلَى التسَلْسُلِ فِي الْمَاضِي، فَقَالُوا: إنكَ لَوْ قُلْتَ: لَا أُعْطِيكَ دِرْهَمًا إلا أُعْطِيكَ بَعْدَهُ دِرْهَمًا، كَانَ هَذَا مُمْكِنًا، وَلَوْ قُلْتَ: لَا أُعْطِيكَ دِرْهَمًا حَتى أُعْطِيَكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا، كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا.

وَهَذَا التمْثِيلُ وَالْمُوَازَنَةُ غَيْرُ صَحِيحَةٍ، بَلِ الْمُوَازَنَةُ الصحِيحَةُ أنْ تَقُولَ: مَا أعْطَيْتُكَ دِرْهَمًا إلا أعْطَيْتُكَ قَبْلَهُ دِرْهَمًا، فَتَجْعَلُ مَاضِيًا قَبْلَ مَاضٍ، كَمَا جَعَلْتَ هُنَاكَ مُسْتَقْبَلًا بَعْدَ مُسْتَقْبَلٍ. وَأما قَوْلُ الْقَائِلِ: لَا أُعْطِيكَ حَتى أُعْطِيَكَ قَبْلَهُ، فَهُوَ نَفْيٌ لِلْمُسْتَقْبَلِ حَتى يَحْصُلَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَيَكُونُ قَبْلَهُ [١]. فَقَدْ نَفَى الْمُسْتَقْبَلَ حَتى يُوجَدَ الْمُسْتَقْبَلُ، وَهَذَا مُمْتَنِعٌ. أما نَفْيُ [٢] الْمَاضِي حَتى يَكُونَ قَبْلَهُ مَاضٍ، فَإن هَذَا مُمْكِنٌ. وَالْعَطَاءُ الْمُسْتَقْبَلُ إبْتَاؤُهُ مِنَ المعطي والْمُسْتَقْبَلِ الذِي لَهُ ابْتِدَاءٌ وَانْتِهَاءٌ لَا يَكُونُ قَبْلَهُ مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ، فَإن مَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فِيمَا يَتَنَاهَى مُمْتَنِعٌ.

قَوْلُهُ: (لَيْسَ بَعْدَ خَلْقِ الْخَلْقِ اسْتَفَادَ اسم " الْخَالِقِ "، وَلَا بِإحْدَاثِهِ الْبَرِية اسْتَفَادَ اسم " الْبَارِي ").

ش: ظَاهِرُ كَلَامِ الشيْخِ - رَحِمَهُ اللهُ - أنهُ يَمْنَعُ تَسَلْسُلَ الْحَوَادِثِ فِي الْمَاضِي، وَيَأْتِي فِي كَلَامِهِ مَا يَدُل عَلَى أنهُ لَا يَمْنَعُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: " وَالْجَنةُ وَالنارُ مَخْلُوقَتَانِ لَا تَفْنَيَانِ أبَدًا وَلَا تَبِيدَانِ "، وَهَذَا مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ كَمَا تَقَدمَ. وَلَا شَك فِي فَسَادِ قَوْلِ مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ فِي الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، كَمَا ذَهَبَ إلَيْهِ الْجَهْمُ وَأتْبَاعُهُ، وَقَالَ بِفَنَاءِ الْجَنةِ وَالنارِ، لِمَا يَأْتِي مِنَ الْأدِلةِ إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(١) في المطبوعة " قبلي " . وهو خطأ .

(٢) في المطبوعة " لم ينف " بدل " أما نفي " وهو خطأ ، لا يصلح في سياق الكلام .

وَأما قَوْلُ مَنْ قَالَ بِجَوَازِ حَوَادِث لَا أول لَها، مِنَ الْقَائِلينَ بِحَوَادِث لَا آخِرَ لَهَا - فَأَظْهَرُ فِي الصحةِ مِنْ قَوْلِ مَنْ فَرق بَيْنهُمَا، فَإِنَّه سُبحَانَهُ لَمْ يَزَلْ حيا، وَالْفِعْلُ مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ، فَلَمْ يَزَلْ فَاعِلًا لِمَا يُرِيدُ، كَمَا وَصفَ بِذَلِكَ نَفْسَهُ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ﴾ [1]. وَالْآيَةُ تَدُل عَلَى أُمُورٍ:

أَحَدُهَا: أَنَهُ تَعَالَى يَفْعَلُ بِإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ.

الثانِي: أَنَه لَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ؛ لِأَنَهُ سَاقَ ذَلِكَ فِي مَعْرِضِ الْمَدْحِ وَالثنَاءِ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَن ذَلِكَ مِنْ كَمَالِهِ سُبْحَانَهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَادِمًا لِهَذَا الْكَمَالِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [2] وَلما كَانَ مِنْ أَوْصَافِ كَمَالِهِ وَنُعُوتِ جَلَالِهِ، لَمْ يَكُنْ حَادِثًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ.

الثالِثُ: أَنهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا فَعَلَهُ، فَإِن " مَا " مَوْصُولَةٌ عَامةٌ، أَيْ: يَفْعَلُ كُل مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، وَهَذَا فِي إِرَادَتِهِ الْمُتَعَلقَةِ بِفِعْلِهِ. وَأَما إِرَادَتُهُ الْمُتَعَلقَةُ بِفِعْلِ الْعَبْدِ فَتِلْكَ لَهَا شَأْنٌ آخَرُ: فَإِنْ أَرَادَ فِعْلَ الْعَبْدِ وَلَمْ يُرِدْ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يُعِينَهُ عَلَيْهِ وَيَجْعَلَهُ فَاعِلًا لَمْ يُوجَدِ الْفِعْلُ، وَإِنْ أَرَادَهُ حَتى يُرِيدَ مِنْ نَفْسِهِ أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا [3] وَهَذِهِ هِيَ النكْتَةُ الَتِي خَفِيَتْ عَلَى الْقَدَرِيةِ وَالْجَبْرِيةِ، وَخَبطُوا فِي مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، لِغَفْلَتِهِمْ عَنْهَا، وَفَرْقٌ بين إِرَادَتِهِ أَنْ يَفْعَلَ الْعَبْدُ وَإِرَادَةِ أَنْ يَجْعَلَهُ فَاعِلًا. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

الرابِعُ: أن فِعْلَهُ وَإِرَادَتَهُ مُتَلَازِمَانِ، فَمَا أَرَادَ أَنْ يَفْعَلَ فَعَلَ، وَمَا فَعَلَهُ فَقَدْ أَرَادَهُ. بِخِلَافِ الْمَخْلُوقِ " فَإِنهُ يُرِيدُ مَا لَا يَفْعَلُ، وَقَدْ يَفْعَلُ مَا لَا يُرِيدُهُ. فَمَا ثم فَعالٌ لِمَا يُرِيدُ إِلا اللهُ وَحْدَهُ.

---

(١) سورة البُرُوجِ الآيتان : ١٥-١٦ .

(٢) سورة النحْلِ آية : ١٧ .

(٣) في الكلام هنا نقص ظاهر . ولعل أصله : " وإن أراده حتى يريد من نفسه أن (يعينه عليه و) يجعله فاعلا ، (وجد الفعل) " .

الْخَامِسُ: إِثْبَاتُ إِرَادَاتٍ [1] مُتَعَدِدَةٍ بِحَسَبِ الْأَفْعَالِ، وَأَن كُل فِعْلٍ لَهُ إِرَادَةٌ تَخُصهُ، هَذَا هُوَ الْمَعْقُولُ فِي الْفِطَرِ، فَشَأْنُه سُبْحَانَهُ أَنهُ يُرِيدُ عَلَى الدوَامِ وَيَفْعَلُ مَا يُرِيدُ.

السادِسُ: أَن كُل مَا صَح أَنْ تَتَعَلقَ بِهِ إِرَادَتُهُ جَازَ فِعْلُهُ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْزِلَ كُل لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدنْيَا، وَأَنْ يَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَأَنْ يُرِيَ عِبَادَهُ نَفْسَهُ، وَأَنْ يَتَجَلى لَهُمْ كَيْفَ شَاءَ، وَيُخَاطِبَهُمْ، وَيَضْحَكَ إِلَيْهِمْ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِما يُرِيدُ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْتَنِعْ عَلَيْهِ فِعْلُهُ، فَإِنهُ تَعَالَى فَعالٌ لِمَا يُرِيدُ. وَإِنمَا يَتَوَقفُ صِحةُ ذَلِكَ عَلَى إِخْبَارِ الصادِقِ بِهِ، فَإِذَا أمر [2] .، وَكَذَلِكَ [3] مَحْوُ مَا يَشَاءُ، وَإِثْبَاتُ مَا يَشَاءُ، كُل يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والقول بأن الحوادث لها أول، يلزم منه التعطيل قبل ذلك، وأن الله سبحانه وتعالى لم يزل غير فاعل ثم صار فاعلا. ولا يلزم من ذلك قِدم العالم، لأن كل ما سوى الله محدَث ممكن الوجود، موجود بإيجاد الله تعالى له، ليس له من نفسه إلا العدم، والفقر والاحتياج وصف ذاتي لازم لكل ما سوى الله تعالى. والله تعالى واجب الوجود لذاته، غني لذاته، والغنى وصف ذاتي لازم له سبحانه وتعالى. وَلِلناسِ قَوْلَانِ فِي هَذَا الْعَالَمِ: هَلْ هُوَ مَخْلُوقٌ مِنْ مَادةٍ أم لا ؟ وَاخْتَلَفُوا فِي أول هَذَا الْعَالَمِ مَا هُوَ ؟ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [4].

وَرَوَى الْبُخَارِي وَغَيْرُهُ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: ﴿ قَالَ أَهْلُ الْيَمَنِ لِرَسُولِ اللهِ - ﷺ جِئْنَاكَ لِنَتَفَقهَ فِي الدينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ [أول] هَذَا الْأَمْرِ، فَقَالَ: " كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ "، وَفِي رِوَايَةٍ: " وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مَعَهُ "، وَفِي رِوَايَةٍ غَيْرِهِ: " وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ؛ وَكَتَبَ فِي الذكْرِ كُل شَيْءٍ، وَخَلَقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ "، وَفِي لَفْظٍ: " ثُم خَلَقَ

---

(١) في المطبوعة " إرادة " بالإفراد . وهو خطأ .

(٢) بياض بالأصل .

(٣) في سائر النسخ : (فإذا أَخْبَرَ وَجَبَ التصْدِيقُ ، وَكَذَلِكَ . .) إلخ . ن .

(٤) سورة هُودٍ آية : ٧ .

السماوات والأرض ﴾ [1]. فقوله: " كتب في الذكر ": يعني اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ ﴾ [2] ؛ يسمى ما يكتب في الذكر ذكرا، كما يسمى ما يكتب في الكتاب كتابا.

والناس في هذا الحديث على قولين:

منهم من قال: إن المقصود إخباره بأن الله كان موجودا وحده ولم يزل كذلك دائما، ثم ابتدأ إحداث جميع الحوادث، فجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا في زمان، وأن الله صار فاعلا بعد أن لم يكن يفعل شيئا من الأزل إلى حين ابتداء الفعل ولا كان الفعل ممكنا.

والقول الثاني: المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش، كما أخبر القرآن بذلك في غير موضع، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء ﴾ [3]. فأخبر ﷺ أن تقدير هذا العالم المخلوق في ستة أيام كان قبل خلق السماوات بخمسين ألف سنة، وأن عرش الرب - تعالى - كان حينئذ على الماء.

دليل صحة هذا القول الثاني من وجوه:

أحدها: أن قول أهل اليمن " جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر "، [هو] [4] إشارة إلى حاضر مشهود موجود، والأمر هنا بمعنى المأمور، أي الذي كونه الله بأمره. وقد أجابهم النبي ﷺ عن بدء هذا العالم الموجود، لا عن جنس المخلوقات، لأنهم لم يسألوه

---

(١) البخاري التوحيد (٦٩٨٢) ، الترمذي المناقب (٣٩٥١) ، أحمد (٤/٤٢٦) .

(٢) سورة الأنبياء آية : ١٠٥ .

(٣) مسلم القدر (٢٦٥٣) ، الترمذي القدر (٢١٥٦) ، أحمد (٢/١٦٩) .

(٤) في الأصل وسائر النسخ : (وهو) ، ولعل الصواب حذف الواو كما أثبتناه من الفتاوى ١٨ / ٢١٥ . ن .

عَنْهُ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ عَنْ خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ حَالَ كَوْنِ عَرْشِهِ عَلَى الْمَاءِ، وَلَمْ يُخْبِرْهُمْ عَنْ خَلْقِ الْعَرْشِ، وَهُوَ مَخْلُوقٌ قَبْلَ خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿ كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ ﴾ [1] ، وَقَدْ رُوِيَ (مَعَهُ)، وَرُوِيَ (غَيْرَهُ)، وَالْمَجْلِسُ كَانَ وَاحِدًا، فَعُلِمَ أَنَّهُ قَالَ أَحَدَ الْأَلْفَاظِ وَالْآخَرَانِ رُوِيَا بِالْمَعْنَى، وَلَفْظُ الْقَبْلِ ثبتَ عَنْهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْحَدِيثِ. فَفِي صحيح مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النبِي - ﷺ ﴿ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللهُم أَنتَ الْأَولُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ ﴾ [2] ، الْحَدِيثَ. وَاللفْظَانِ الْآخَرَانِ لَمْ يَثْبُتْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَلِهَذَا كَانَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِنمَا يَرْوِيهِ بِلَفْظِ الْقَبْلِ، كَالْحُمَيْدِي وَالْبَغَوِي وَابْنِ الْأَثِيرِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا اللفْظِ تَعَرضٌ لِابْتِدَاءِ الْحَوَادِثِ، وَلَا لِأَولِ مَخْلُوقٍ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿ " كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ " أَوْ " مَعَهُ " أَوْ " غَيْرَهُ "، " وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَكَتَبَ فِي الذكْرِ كُل شَيْءٍ ﴾ [3]. فَأَخْبَرَ عَنْ هَذِهِ الثلَاثَةِ بِالْوَاوِ، ﴿ وَخَلَقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ رُوِيَ بِالْوَاوِ وَبِثُم، فَظَهَرَ أَن مَقْصُودَهُ إِخْبَارُهُ إِياهُمْ بِبَدْءِ خَلْقِ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَهِيَ الْمَخْلُوقَاتُ التِي خُلِقَتْ فِي سِتةِ أَيامٍ، لَا ابْتِدَاءَ خَلْقِ مَا خَلَقَهُ اللهُ قَبْلَ ذَلِكَ، وَذَكَرَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِمَا يَدُل عَلَى خَلْقِهِمَا، وَذَكَرَ مَا قَبْلَهُمَا بِمَا يَدُل عَلَى كَوْنِهِ وَوُجُودِهِ، وَلَمْ يَتَعَرضْ لِابْتِدَاءِ خَلْقِهِ.

وَأَيْضًا: فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ الْحَدِيثُ قَدْ وَرَدَ بِهَذَا وَهَذَا، فَلَا يُجْزَمُ بِأَحَدِهِمَا إِلا بِدَلِيلٍ، فَإِذَا رَجَحَ أَحَدُهُمَا فَمَنْ جَزَمَ بِأَن الرسُولَ أَرَادَ الْمَعْنَى الْآخَرَ فَهُوَ مُخْطِئٌ قَطْعًا، وَلَمْ يَأْتِ فِي الْكِتَابِ وَلَا فِي السنةِ مَا يَدُل عَلَى الْمَعْنَى الْآخَرِ، فَلَا يَجُوزُ إِثْبَاتُهُ بِمَا يُظَن أَنَّهُ مَعْنَى

---

(١) البخاري التوحيد (٦٩٨٢) ، الترمذي المناقب (٣٩٥١) ، أحمد (٤/٤٢٦) .

(٢) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧١٣) ، الترمذي الدعوات (٣٤٨١) ، أبو داود الأدب (٥٠٥١) ، ابن ماجه الدعاء (٣٨٣١) ، أحمد (٢/٥٣٦) .

(٣) البخاري التوحيد (٦٩٨٢) ، الترمذي المناقب (٣٩٥١) ، أحمد (٤/٤٢٦) .

الْحَدِيثِ، وَلَمْ يَرِدْ ﴿ كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ﴾ مُجَردًا، وَإِنمَا وَرَدَ عَلَى السِّيَاقِ الْمَذْكُورِ، وَلَا يُظَن أن مَعْنَاهُ الْإِخْبَارُ بِتَعْطِيلِ الرب - تَعَالَى - دَائِمًا عَنِ الْفِعْلِ حَتى خَلَقَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ.

وَأَيْضًا: فَقَوْلُهُ - ﷺ - ﴿ " كَانَ اللهُ وَلَم يكن شَيْءٌ قَبْلَهُ "، أَوْ " مَعَهُ "، أَوْ " غَيْرُهُ "، " وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [1] ، لَا يَصِح أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى أَنهُ تَعَالَى مَوْجُودٌ وَحْدَهُ لَا مَخْلُوقَ مَعَهُ أَصْلًا؛ لِأَن قَوْلَهُ: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [2] يَرُدُّ ذَلِكَ، فَإِن الْجُمْلَةَ وَهِيَ: ﴿ كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ [3] إِما حَالِيَّةٌ، أَوْ مَعْطُوفَةٌ، وَعَلَى كِلَا التقْدِيرَيْنِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ مَوْجُودٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ، فَعُلِمَ أن الْمُرَادَ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنَ الْعَالَمِ الْمَشْهُودِ.

قَوْلُهُ: (لَهُ مَعْنَى الربُوبِيةِ وَلَا مَرْبُوبَ، وَمَعْنَى الْخَالِقِ وَلَا مَخْلُوقَ).

ش: يَعْنِي أن اللهَ - تَعَالَى - مَوْصُوفٌ بِأَنهُ " الرب " قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَرْبُوبٌ، وَمَوْصُوفٌ بِأَنهُ " خَالِقٌ " قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ مَخْلُوقٌ.

قَالَ بَعْضُ الْمَشَايِخِ الشارِحِينَ: وَإِنمَا قَالَ: " لَهُ مَعْنَى الربُوبِيةِ وَمَعْنَى الْخَالِقِ " دُونَ " الْخَالِقِيةِ "، لِأَن " الْخَالِقَ " هُوَ الْمُخْرِجُ لِلشيْءِ مِنَ الْعَدَمِ إِلَى الْوُجُودِ لَا غَيْرُ، وَ " الرب " يَقْتَضِي مَعَانِيَ كَثِيرَةً، وَهِيَ: الْمُلْكُ وَالْحِفْظُ وَالتدْبِيرُ وَالتَّرْبِيَةُ وَهِيَ تَبْلِيغُ الشيْءِ كَمَالَهُ بِالتدْرِيجِ، فَلَا جَرَمَ أَتَى بِلَفْظٍ يَشْمَلُ هَذِهِ الْمَعَانِيَ، وَهِيَ " الربُوبِيةُ ". انْتَهَى.

وَفِيهِ نَظَرٌ، لِأَن الْخَلْقَ يَكُونُ بِمَعْنَى التقْدِيرِ أَيْضًا.

قَوْلُهُ: (وَكَمَا أَنهُ مُحْيِي الْمَوْتَى بَعْدَمَا أَحْيَا، اسْتَحَق هَذَا الِاسْمَ قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، كَذَلِكَ اسْتَحَق اسْمَ الْخَالِقِ قَبْلَ إِنْشَائِهِمْ).

---

(١) البخاري التوحيد (٦٩٨٢) ، الترمذي المناقب (٣٩٥١) ، أحمد (٤/٤٢٦) .

(٢) البخاري بدء الخلق (٣٠٢٠) ، الترمذي المناقب (٣٩٥١) ، أحمد (٤/٤٣٢) .

(٣) البخاري بدء الخلق (٣٠٢٠) ، الترمذي المناقب (٣٩٥١) ، أحمد (٤/٤٣٢) .

ش: يَعْنِي: أنهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَوْصُوفٌ بِأنهُ " مُحْيِي الْمَوْتَى " قَبْلَ إِحْيَائِهِمْ، فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِأنهُ " خَالِقٌ " قَبْلَ خَلْقِهِمْ، إِلْزَامًا لِلْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ قَالَ بِقَوْلِهِمْ، كَمَا حَكَيْنَا عَنْهُمْ فِيمَا تَقَدمَ. وَتَقَدمَ تَقْرِيرُ أنهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ.

قَوْلُهُ: (ذَلِكَ بِأنهُ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُل شَيْءٍ إِلَيْهِ فَقِيرٌ، وَكُل أَمْرٍ إِلَيْهِ يَسِيرٌ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، وَهُوَ السمِيعُ الْبَصِيرُ).

ش: ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى ثُبُوتِ صِفَاتِهِ فِي الْأَزَلِ قَبْلَ خَلْقِهِ. وَالْكَلَامُ عَلَى (كُل) وَشُمُولِهَا وَشُمُولِ " كُل " فِي كُل مَقَامٍ بِحَسَبِ مَا يَحْتَفُ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ، يَأْتِي فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

وَقَدْ حَرفَتِ الْمُعْتَزِلَةُ الْمَعْنَى الْمَفْهُومَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾[1].

فَقَالُوا: إِنهُ قَادِرٌ عَلَى كُل مَا هُوَ مَقْدُورٌ لَهُ، وَأَما نَفْسُ أَفْعَالِ الْعِبَادِ فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا عِنْدَهُمْ ! وَتَنَازَعُوا: هَلْ يَقْدِرُ عَلَى مِثْلِهَا أَمْ لَا ؟ ! وَلَوْ كَانَ الْمَعْنَى عَلَى مَا قَالُوا لَكَانَ هَذَا بِمَنْزِلَةِ أَنْ يُقَالَ: هُوَ عَالِمٌ بِكُل مَا يَعْلَمُهُ ! وَخَالِقٌ لِكُل مَا يَخْلُقُهُ !

وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْعِبَارَاتِ التِي لَا فَائِدَةَ فِيهَا. فَسَلَبُوا صِفَةَ كَمَالِ قُدْرَتِهِ عَلَى كُل شَيْءٍ.

وَأَما أَهْلُ السنةِ، فَعِنْدَهُمْ أن اللهَ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَكُل مُمْكِنٍ فَهُوَ مُنْدَرِجٌ فِي هَذَا. وَأَما الْمُحَالُ لِذَاتِهِ، مِثْلَ كَوْنِ الشيْءِ الْوَاحِدِ مَوْجُودًا مَعْدُومًا فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ، فَهَذِهِ لَا حَقِيقَةَ لَهُ، وَلَا يُتَصَورُ وُجُودُهُ، وَلَا يُسَمى شَيْئًا، بِاتفَاقِ الْعُقَلَاءِ. وَمِنْ هَذَا الْبَابِ: خَلْقُ مِثْلِ نَفْسِهِ، وَإِعْدَامُ نَفْسِهِ ! وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الْمُحَالِ.

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ الْإِيمَانُ بِرُبُوبِيتِهِ الْعَامةِ التامةِ، فَإِنهُ لَا يُؤْمِنُ بِأنهُ رَب كُل شَيْءٍ إِلا مَنْ آمَنَ أَنهُ قَادِرٌ عَلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِتَمَامِ رُبُوبِيتِهِ وَكَمَالِهَا إِلا مَنْ آمَنَ بِأنهُ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَإِنمَا تَنَازَعُوا فِي الْمَعْدُومِ الْمُمْكِنِ: هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا ؟ وَالتحْقِيقُ: أن

(١) سورة آل عمران آية : ٢٩ .

الْمَعْدُوم لَيْس بِشَيْءٍ فِي الْخَارِج، وَلَكِن الله يَعْلَمُ مَا يَكُونُ قَبْل أَنْ يَكُونَ وَيَكْتُبُه، وَقَدْ يَذْكُرُه وَيُخْبِرُ بِه، كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ ﴾ (١) فَيَكُونُ شَيْئًا فِي الْعِلْمِ وَالذِكْرِ وَالْكِتَاب، لَا فِي الْخَارِج، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ ﴾ (٢) [وقَالَ] (٣) تَعَالَى: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝ ﴾ (٤) أَيْ: لَمْ تَكُنْ شَيْئًا فِي الْخَارِج وَإِنْ كَانَ شَيْئًا فِي عِلْمِه تَعَالَى.

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝ ﴾ (٥).

وَقَوْلُه: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ (٦) رَد عَلَى الْمُشَبِهَة. وَقَوْلُه تَعَالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝ ﴾ (٧) رَد عَلَى الْمُعَطِلَة، فَهُوَ - سُبْحَانَه وَتَعَالَى - مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَال، وَلَيْسَ لَه فِيهَا شبه. فَالْمَخْلُوقُ وَإِنْ كَانَ يُوصَفُ بِأَنَّه سَمِيعٌ بَصِيرٌ - فَلَيْس سَمْعُه وَبَصَرُه كَسَمْعِ الرب وَبَصَرِه، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ إِثْبَاتِ الصفَةِ تَشْبِيهٌ، إِذْ صِفَاتُ الْمَخْلُوق كَمَا يَلِيقُ بِه، وَصِفَاتُ الْخَالِق كَمَا يَلِيقُ بِه. وَلَا تَنْفِي عَنِ اللهِ مَا وَصَفَ بِه نَفْسَه، وَمَا وَصَفَه بِه أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِرَبِه وَمَا يَجِبُ لَه وَمَا يَمْتَنِعُ عَلَيْه، وَأَنْصَحُهُمْ لِأُمتِه، وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ عَلَى الْبَيَان. فَإِنَكَ إِنْ نَفَيْتَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ كُنْتَ كَافِرًا بِمَا أُنزِلَ عَلَى مُحَمدٍ ﷺ وَإِذَا وَصَفْتَه بِمَا وَصَفَ بِه نَفْسَه فَلَا تُشَبهه بِخَلْقِه، فَلَيْسَ كَمِثْلِه شَيْء، فَإِذَا شَبَهْتَه بِخَلْقِه كُنْتَ كَافِرًا بِه. قَالَ نُعَيْمُ بْنُ حمادٍ الْخُزَاعِي شَيْخُ الْبُخَارِي: مَنْ شَبَهَ اللهَ بِخَلْقِه فَقَدْ كَفَر، وَمَنْ جَحَدَ مَا

(١) سورة الحج آية : ١ .

(٢) سورة يس آية : ٨٢ .

(٣) في الأصل : (قال) والصواب ما أثبتناه ، كما في أكثر النسخ . ن .

(٤) سورة مريم آية : ٩ .

(٥) سورة الإنسان ، آية : ١ .

(٦) سورة الشورى آية : ١١ .

(٧) سورة الشورى آية : ١١ .

وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ، وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ الطَّحَاوِي رَحِمَهُ اللهُ: " وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ ".

وَقَدْ وَصَفَ اللهُ - تَعَالَى - نَفْسَهُ بِأَنَّ لَهُ الْمَثَلَ الْأَعْلَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ ﴾ (١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٢). فَجَعَلَ سُبْحَانَهُ مَثَلَ السَّوْءِ - الْمُتَضَمِّنَ لِلْعُيُوبِ وَالنَّقَائِصِ وَسَلْبِ الْكَمَالِ - لِأَعْدَائِهِ الْمُشْرِكِينَ وَأَوْثَانِهِمْ، وَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَثَلَ الْأَعْلَى - الْمُتَضَمِّنَ لِإِثْبَاتِ الْكَمَالِ كُلِّهِ - لِلَّهِ وَحْدَهُ. فَمَنْ سَلَبَ صِفَاتِ الْكَمَالِ عَنِ اللهِ - تَعَالَى - فَقَدْ جَعَلَ لَهُ مَثَلَ السَّوْءِ، وَنَفَى عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْمَثَلِ الْأَعْلَى، وَهُوَ الْكَمَالُ الْمُطْلَقُ، الْمُتَضَمِّنُ لِلْأُمُورِ الْوُجُودِيَّةِ، وَالْمَعَانِي الثُّبُوتِيَّةِ، الَّتِي كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ فِي الْمَوْصُوفِ وَأَكْمَلَ - كَانَ بِهَا أَكْمَلَ وَأَعْلَى مِنْ غَيْرِهِ.

وَلَمَّا كَانَتْ صِفَاتُ الرَّبِّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أَكْثَرَ وَأَكْمَلَ، كَانَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَكَانَ أَحَقَّ بِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ. بَلْ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَشْتَرِكَ فِي الْمَثَلِ الْأَعْلَى الْمُطْلَقِ اثْنَانِ، لِأَنَّهُمَا إِنْ تَكَافَآ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، لَمْ يَكُنْ أَحَدُهُمَا أَعْلَى مِنَ الْآخَرِ، وَإِنْ لَمْ يَتَكَافَآ، فَالْمَوْصُوفُ بِهِ أَحَدُهُمَا وَحْدَهُ، فَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِمَنْ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى مِثْلٌ أَوْ نَظِيرٌ.

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَاتُ الْمُفَسِّرِينَ فِي " الْمَثَلِ الْأَعْلَى ". وَوَفَّقَ بَيْنَ أَقْوَالِهِمْ بَعْضُ مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ وَهَدَاهُ، فَقَالَ: " الْمَثَلُ الْأَعْلَى " يَتَضَمَّنُ: الصِّفَةَ الْعُلْيَا، وَعِلْمَ الْعَالَمِينَ بِهَا، وَوُجُودَهَا الْعِلْمِيَّ، وَالْخَبَرَ عَنْهَا وَذِكْرَهَا، وَعِبَادَةَ الرَّبِّ - تَعَالَى - بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ الْقَائِمَةِ بِقُلُوبِ عَابِدِيهِ وَذَاكِرِيهِ.

فَهَاهُنَا أُمُورٌ أَرْبَعَةٌ:

---

(١) سورة النحل آية : ٦٠ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٧ .

ثُبوتُ الصفَاتِ الْعُلْيا لِلهِ، سُبْحانَهُ وَتَعالَى، سَوَاءٌ عَلِمَهَا الْعِبَادُ أوْ لا، وَهَذَا مَعْنى قَوْلِ مَنْ فَسرَهَا بِالصفَةِ.

الثانِي: وُجُودُهَا فِي الْعِلْمِ وَالشعُورِ، وَهَذَا مَعْنى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السلَفِ وَالْخَلَفِ: إنهُ مَا فِي قُلُوبِ عَابِدِيهِ وَذَاكِرِيهِ، مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَذِكْرِهِ، وَمَحَبتِهِ وَجَلَالِهِ، وَتَعْظِيمِهِ، وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَالتوَكلِ عَلَيْهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ، وَهَذَا الذِي فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْمَثَلِ الْأعْلَى لَا يَشْرَكُهُ فِيهِ غَيْرُهُ أصْلًا، بَلْ يَخْتَص بِهِ فِي قُلُوبِهِمْ، كَمَا اخْتَص بِهِ فِي ذَاتِهِ. وَهَذَا مَعْنى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُفَسرِينَ: مَعْنَاهُ أن أهْلَ السمَاوَاتِ يحبونه وَيُعَظمُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ، وَأهْلُ الْأرْضِ كَذَلِكَ، وَإنْ أشْرَكَ بِهِ مَنْ أشْرَكَ، وَعَصَاهُ مَنْ عَصَاهُ، وَجَحَدَ صِفَاتِهِ مَنْ جَحَدَهَا، فَأهْلُ الْأرْضِ مُعَظمُونَ لَهُ، مُجِلونَ، خَاضِعُونَ لِعَظَمَتِهِ، مُسْتَكِينُونَ لِعِزتِهِ وَجَبَرُوتِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ٢٦ ﴾ [1].

الثالِثُ: ذِكْرُ صِفَاتِهِ وَالْخَبَرُ عَنْهَا وَتَنْزِيهُهَا مِنَ الْعُيُوبِ وَالنقَائِصِ وَالتمْثِيلِ.

الرابِعُ: مَحَبةُ الْمَوْصُوفِ بِهَا وَتَوْحِيدُهُ، وَالْإِخْلَاصُ لَهُ، وَالتوَكلُ عَلَيْهِ، وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ. وَكُلمَا كَانَ الْإِيمَانُ بِالصفَاتِ أكْمَلَ كَانَ هَذَا الْحُب وَالْإِخْلَاصُ أقْوَى.

فَعِبَارَاتُ السلَفِ كُلهَا تَدُورُ عَلَى هَذِهِ الْمَعَانِي الْأرْبَعَةِ. فَمَنْ أضَل مِمنْ يُعَارِضُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [2] وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ [3]. ؟ وَيَسْتَدِل بِقَوْلِهِ: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ ﴾ [4] عَلَى نَفْيِ الصفَاتِ وَيَعْمَى عَنْ تَمَامِ الْآيَةِ وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ ﴾ [5] حتى أفْضَى هَذَا الضلَالُ بِبَعْضِهِمْ، وَهُوَ

---

(١) سورة الروم آية : ٢٦ .

(٢) سورة الروم آية : ٢٧ .

(٣) سورة الشورى آية : ١١ .

(٤) سورة الشورى آية : ١١ .

(٥) سورة الشورى آية : ١١ .

أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دُؤَادَ الْقَاضِي، إلى أَنْ أَشَارَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى سِتْرِ الْكَعْبَةِ: لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، حَرفَ كَلَامَ اللهِ بِنَفِي وصفه -تَعَالَى - بِأَنَّهُ السمِيعُ الْبَصِيرُ !! كَمَا قَالَ الضال الْآخَرُ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ: وَدِدْتُ أَني أَحُك مِنَ الْمُصْحَفِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ (١) فنسأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ السمِيعَ الْبَصِيرَ أَنْ يُثَبِّتَنَا بِالْقَوْلِ الثابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، بِمَنِهِ وَكَرَمِهِ.

(١) سورة الْأَعْرَافِ آية ٥٤ ، وسورة يونس آية ٣ .

[بَيانُ وُجُوهِ إِعْرَابِ "كَمِثْلِه"]

وَفي إِعْرَابِ كَمِثْلِهِ - وُجُوهٌ، أَحَدُهَا: أن الْكَافَ صِلَةٌ زِيدَتْ لِلتأْكِيدِ، قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ … خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

وَقَالَ آخَرُ:

مَا إِنْ كَمِثْلِهِمُ فِي الناسِ مِنْ بَشَرٍ

وَقَالَ آخَرُ:

وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النخِيلِ

فَيَكُونُ (مِثْلِهِ) خَبَرَ لَيْسَ وَاسْمُهَا شَيْءٌ. وَهَذَا وَجْهٌ قَوِي حَسَنٌ، تَعْرِفُ الْعَرَبُ مَعْنَاهُ فِي لُغَتِهَا، وَلَا يَخْفَى عَنْهَا إِذَا خُوطِبَتْ بِهِ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ أَيْضًا زِيَادَةُ الْكَافِ لِلتأْكِيدِ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ:

وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤَثْفَيْنَ [(١)]

وَقَوْلِ الْآخَرِ:

فَأَصْبَحَتْ مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ

الْوَجْهُ الثانِي: أن الزائِدَ (مِثْلِ) أَيْ: لَيْسَ كَهُوَ شَيْءٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ بَعِيدٌ، لِأَن مِثْلَ اسْمٌ وَالْقَوْلُ بِزِيَادَةِ الْحَرْفِ لِلتأْكِيدِ أَوْلَى مِنَ الْقَوْلِ بِزِيَادَةِ الاسْمِ.

---

(١) رجز لخطام المجاشعي ، كما في اللسان(ثفا) . والصاليات : الحجارة المحترقة و(يؤثفين) : بضم الياء وسكون الهمزة وفتح الثاء المثلثة والفاء وسكون الياء والنون . قال في اللسان : " جاء به على الأصل ضرورة . ولولا ذلك لقال : يثفين . قال الأزهري : أراد يثفين ، من أثفى يثفى ، فلما اضطره بناء الشعر رده إلى الأصل ، فقال يؤثفين ، لأنك إذا قلت : أفعل يفعل - علمت أنه كان في الأصل يؤفعل ، فحذفت الهمزة لثقلها ، كما حذفوا ألف رأيت من : أرى ، وكان في الأصل : أرأى ، فكذلك من : يرى ، وترى ، ونرى . الأصل فيها : يرأى ، وترأى ، ونرأى . فإذا جاز طرح همزتا وهي أصلية - كانت همزة يؤفعل أولى بجواز الطرح ، لأنا ليست من بناء الكلمة في الأصل " . و " أثفى القدر " : جعلها على الأثافي ، وهي التي تنصب وتجعل القدر عليها .

الثالِثُ: أنهُ لَيسَ ثَم زِيَادَةٌ أَصْلًا، بَلْ هَذَا مِنْ بَابِ قَوْلِهِمْ: مِثْلُكَ لَا يَفْعَلُ كَذَا، أَيْ: أَنْتَ لَا تَفْعَلُهُ، وَأَتى بِمِثْلِ لِلْمُبَالَغَةِ، وَقَالُوا فِي مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ هُنا: أَيْ: لَيسَ كَمِثْلِهِ مِثْلٌ لَوْ فُرِضَ الْمِثْلُ، فَكَيْفَ وَلَا مِثْلَ لَهُ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْأَولُ أَظْهَرُ.

[خَلْقُهُ سُبْحَانَهُ لِلْخَلْقِ وَهُوَ عَالِمٌ بِهِمْ]

قَوْلُهُ: (خَلَقَ الْخَلْقَ بِعِلْمِهِ)

ش: خَلَقَ: أَيْ: أَوْجَدَ وَأَنْشَأَ وَأَبْدَعَ. وَيَأْتِي خَلَقَ أَيْضًا بِمَعْنَى: قَدَرَ. وَالْخَلْقُ: مَصْدَرٌ، وَهُوَ هُنَا بِمَعْنَى الْمَخْلُوقِ. وَقَوْلُهُ: (بِعِلْمِهِ) فِي مَحَلِّ نَصْبٍ عَلَى الْحَالِ، أَيْ: خَلَقَهُمْ عَالِمًا بِهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [1]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾ [2]. وَفِي ذَلِكَ رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكِّيُّ صَاحِبُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللهُ وَجَلِيسُهُ، فِي كِتَابِ الْحَيْدَةِ، الَّذِي حَكَى فِيهِ مُنَاظَرَتَهُ بِشْرًا الْمَرِيسِيَّ عِنْدَ الْمَأْمُونِ حِينَ سَأَلَهُ عَنْ عِلْمِهِ تَعَالَى: فَقَالَ بِشْرٌ: أَقُولُ: لَا يَجْهَلُ، فَجَعَلَ يُكَرِّرُ السُّؤَالَ عَنْ صِفَةِ الْعِلْمِ، تَقْرِيرًا لَهُ، وَبِشْرٌ يَقُولُ: لَا يَجْهَلُ، وَلَا يَعْتَرِفُ لَهُ أَنَّهُ عَالِمٌ بِعِلْمٍ، فَقَالَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ: نَفْيُ الْجَهْلِ لَا يَكُونُ صِفَةَ مَدْحٍ، فَإِنَّ هَذِهِ الْأُسْطُوَانَةَ لَا تَجْهَلُ، وَقَدْ مَدَحَ اللهُ تَعَالَى الْأَنْبِيَاءَ وَالْمَلَائِكَةَ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالْعِلْمِ، لَا بِنَفْيِ الْجَهْلِ. فَمَنْ أَثْبَتَ الْعِلْمَ فَقَدْ نَفَى الْجَهْلَ، وَمَنْ نَفَى الْجَهْلَ لَمْ يُثْبِتِ الْعِلْمَ، وَعَلَى الْخَلْقِ أَنْ يُثْبِتُوا مَا أَثْبَتَهُ اللهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ، وَيَنْفُوا مَا نَفَاهُ، وَيُمْسِكُوا عَمَّا أَمْسَكَ عَنْهُ.

وَالدَّلِيلُ الْعَقْلِيُّ عَلَى عِلْمِهِ تَعَالَى: أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ إِيجَادُهُ الْأَشْيَاءَ مَعَ الْجَهْلِ، وَلِأَنَّ إِيجَادَهُ الْأَشْيَاءَ بِإِرَادَتِهِ، وَالْإِرَادَةُ تَسْتَلْزِمُ تَصَوُّرَ الْمُرَادِ، وَتَصَوُّرُ الْمُرَادِ: هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُرَادِ، فَكَانَ الْإِيجَادُ مُسْتَلْزِمًا لِلْإِرَادَةِ، وَالْإِرَادَةُ مُسْتَلْزِمَةً لِلْعِلْمِ، فَالْإِيجَادُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْعِلْمِ. وَلِأَنَّ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهَا مِنَ الْأَحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ مَا يَسْتَلْزِمُ عِلْمَ الْفَاعِلِ لَهَا، لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمُحْكَمَ الْمُتْقَنَ يَمْتَنِعُ

---

(١) سورة الْمُلْكِ آية ١٤ .

(٢) سورة الْأَنْعَامِ الآيتان ٥٩-٦٠ .

صُدُورُهُ عَنْ غَيْرِ عِلْمٍ، وَلِأَنَّ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ مَا هُوَ عَالِمٌ، وَالْعِلْمُ صِفَةُ كَمَالٍ، وَيَمْتَنِعُ أَنْ لَا يَكُونَ الْخَالِقُ عَالِمًا. وَهَذَا لَهُ طَرِيقَانِ: أَحَدُهُمَا: أَنْ يُقَالَ: نَحْنُ نَعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْخَالِقَ أَكْمَلُ مِنَ الْمَخْلُوقِ، وَأَنَّ الْوَاجِبَ أَكْمَلُ مِنَ الْمُمْكِنِ، وَنَعْلَمُ ضَرُورَةً أَنَّا لَوْ فَرَضْنَا شَيْئَيْنِ، أَحَدُهُمَا عَالِمٌ وَالْآخَرُ غَيْرُ عَالِمٍ - كَانَ الْعَالِمُ أَكْمَلَ، فَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْخَالِقُ عَالِمًا لَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْمُمْكِنُ أَكْمَلَ مِنْهُ، وَهُوَ مُمْتَنِعٌ. الثَّانِي: أَنْ يُقَالَ: كُلُّ عِلْمٍ فِي الْمُمْكِنَاتِ، الَّتِي هِيَ الْمَخْلُوقَاتُ - فَهُوَ مِنْهُ، وَمِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يَكُونَ فَاعِلُ الْكَمَالِ وَمُبْدِعُهُ عَارِيًا مِنْهُ بَلْ هُوَ أَحَقُّ بِهِ. وَاللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى، وَلَا يَسْتَوِي هُوَ وَالْمَخْلُوقَاتُ، لَا فِي قِيَاسٍ تَمْثِيلِيٍّ، وَلَا فِي قِيَاسٍ شُمُولِيٍّ، بَلْ كُلُّ مَا ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ مِنْ كَمَالٍ فَالْخَالِقُ بِهِ أَحَقُّ، وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ مَخْلُوقٌ مَا فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهُ أَوْلَى.

[أَقْدَارُ وَآجَالُ الخَلَائِق]

[آجَالُ الْخَلَائِقِ مُقدرَةٌ وَأَسْبَابهَا مُخْتَلِفَةٌ]

قَوْلُهُ: (وَقدر لَهُمْ أَقْدَارًا).

ش: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ (١) وقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩ ﴾ (٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ﴾ (٣). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ (٤). وَفِي صَحِيح مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عَنِ النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « قَدر اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ قَبل أَنْ يَخْلُقَ السماوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » (٥).

قَوْلُهُ: (وَضَرَبَ لَهُمْ آجَالًا)

ش: يَعْنِي: أن الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى قدرَ آجَالَ الْخَلَائِقِ، بِحَيْثُ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤ ﴾ (٦). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ ﴾ (٧).

---

(١) سورة الْفُرْقَان آية ٢ .

(٢) سورة الْقَمَر آية ٤٩ .

(٣) سورة الْأَحْزَاب آية ٣٨ .

(٤) سورة الْأَعْلَى الآيتان ٢-٣ .

(٥) مسلم القدر (٢٦٥٣) ، الترمذي القدر (٢١٥٦) ، أحمد (٢/١٦٩) .

(٦) سورة الأعراف آية ٣٤ والنحل آية ٦١ .

(٧) سورة آل عِمْرَان آية ١٤٥ .

وَفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعُودٍ قَالَ: ﴿قَالَتْ أُم حَبِيبَةَ زَوْجُ النبي ﷺ وَرَضِيَ اللهُ عَنْهَا: اللهُم أَمْتِعْني بِزَوْجِي رَسُولِ اللهِ، وَبِأَبِي أَبِي سُفْيَانَ، وَبِأَخِي مُعَاوِيَةَ، قَالَ: فَقَالَ النبي ﷺ قَدْ سَأَلْتِ اللهَ لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ، وَأَيامٍ مَعْدُودَةٍ، وَأَرْزَاقٍ مَقْسُومَةٍ، لَنْ يُعَجلَ شَيْئًا قَبْلَ أَجَلِهِ، وَلَنْ يُؤَخرَ شَيْئًا عَنْ أَجَلِهِ، وَلَوْ كُنْتِ سَأَلْتِ اللهَ أَنْ يُعِيذَكِ مِنْ عَذَابٍ فِي النارِ وَعَذَابٍ فِي الْقَبْرِ -: كَانَ خَيْرًا وَأَفْضَلَ﴾ [1].

فَالْمَقْتُولُ مَيتٌ بِأَجَلِهِ، فَعَلِمَ اللهُ تَعَالَى وَقَدرَ وَقَضَى أَن هَذَا يَمُوتُ بِسَبَبِ الْمَرَضِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْقَتْلِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْهَدْمِ، وَهَذَا بِسَبَبِ الْحَرْقِ، وَهَذَا بِالْغَرَقِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ. وَاللهُ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، وَخَلَقَ سَبَبَ الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

وَعِنْدَ الْمُعْتَزِلَةِ: الْمَقْتُولُ مَقْطُوعٌ عَلَيْهِ أَجَلُهُ، وَلَوْ لَمْ يُقْتَلْ لَعَاشَ إِلَى أَجَلِهِ فَكَأَن لَهُ أَجَلَانِ وَهَذَا بَاطِلٌ، لِأَنهُ لَا يَلِيقُ أَنْ يُنْسَبَ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنهُ جَعَلَ لَهُ أَجَلًا يَعْلَمُ أَنهُ لَا يَعِيشُ إِلَيْهِ الْبَتةَ، أَوْ يَجْعَلُ أَجَلَهُ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ، كَفِعْلِ الْجَاهِلِ بِالْعَوَاقِبِ، وَوُجُوبِ الْقِصَاصِ وَالضمَانِ عَلَى الْقَاتِلِ، لِارْتِكَابِهِ الْمَنْهِي عَنْهُ وَمُبَاشَرَتِهِ السبَبَ الْمَحْظُورَ. وَعَلَى هَذَا يَخْرُجُ قَوْلُهُ ﷺ ﴿صِلَةُ الرحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ﴾ أَيْ: سَبَبُ طُولِ الْعُمُرِ. وَقَدْ قَدرَ اللهُ أَن هَذَا يَصِلُ رَحِمَهُ فَيَعِيشُ بِهَذَا السبَبِ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ السبَبُ لَمْ يَصِلْ إِلَى هَذِهِ الْغَايَةِ، وَلَكِنْ قَدرَ هَذَا السبَبَ وَقَضَاهُ، وَكَذَلِكَ قَدرَ أَن هَذَا يَقْطَعُ رَحِمَهُ فَيَعِيشُ إِلَى كَذَا، كَمَا قُلْنَا فِي الْقَتْلِ وَعَدَمِهِ.

[الدعَاءُ الْمَشْرُوعُ وَآثَارُهُ]

فَإِنْ قِيلَ: هَلْ يَلْزَمُ مِنْ تَأْثِيرِ صِلَةِ الرحِمِ فِي زِيَادَةِ الْعُمُرِ وَنُقْصَانِهِ تَأْثِيرُ الدعَاءِ فِي ذَلِكَ أَمْ لَا؟ فَالْجَوَابُ: أَن ذَلِكَ غَيْرُ لَازِمٍ، لِقَوْلِهِ ﷺ لِأُم حَبِيبَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ﴿قَدْ سَأَلْتِ اللهَ

(١) مسلم القدر (٢٦٦٣) ، أحمد (١/٣٩٠) .

تَعالى لِآجَالٍ مَضْرُوبَةٍ ﴾ [1] الْحَدِيث، كَمَا تَقدمَ. فَعُلِمَ أن الْأَعْمَار مُقدرَةٌ، لَمْ يُشْرَع الدعَاءُ بتغيرِهَا، بِخِلَافِ النجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَة. فَإِن الدعَاءَ مَشْرُوعٌ لَهُ نَافِعٌ فِيه، أَلَا تَرَى أن الدعَاءَ بِتَغْيِير الْعُمرِ لما تَضمنَ النفْعَ الْأُخْرَوي - شُرِعَ كَمَا فِي الدعَاءِ الذِي رَوَاهُ النسَائِي مِنْ حَدِيثِ عَمارِ بْنِ يَاسِرٍ عَنِ النبِي ﷺ أَنهُ قَالَ: ﴿ اللهُم بِعِلْمِكَ الْغَيبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي ﴾ [2] ، إِلَى آخِرِ الدعَاءِ. وَيُؤَيدُ هَذَا مَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ ثَوْبَانَ ؓ عَنِ النبِي ﷺ ﴿ لَا يَرُد الْقَدَرَ إِلا الدعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمُرِ إِلا الْبِر، وَإِن الرجُلَ لَيُحْرَمُ الرزْقَ بِالذنْبِ يُصِيبُهُ ﴾ [3].

وَفِي الْحَدِيثِ رَد عَلَى مَنْ يَظُن أَن النذْرَ سَبَبٌ فِي دَفْعِ الْبَلَاءِ وَحُصُولِ النعْمَاءِ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصحِيحَيْنِ عَنِ النبِي ﷺ ﴿ أَنهُ نَهَى عَنِ النذْرِ، وَقَالَ: أَنهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ ﴾ [4].

وَاعْلَمْ أن الدعَاءَ يَكُونُ مَشْرُوعَا نَافِعًا فِي بَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ، وَكَذَلِكَ هُوَ. وَكَذَلِكَ لَا يُجِيبُ اللهُ الْمُعْتَدِينَ فِي الدعَاءِ. وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ يَكْرَهُ أَنْ يُدْعَى لَهُ بِطُولِ الْعُمرِ، وَيَقُولُ: هَذَا أَمْرٌ قَدْ فُرِغَ مِنْهُ.

---

(١) مسلم القدر (٢٦٦٣) ، أحمد (٣٩٠/١) .

(٢) البخاري المرضى (٥٣٤٧) ، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٨٠) ، الترمذي الجنائز (٩٧١) ، النسائي الجنائز (١٨٢١) ، أبو داود الجنائز (٣١٠٨) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٦٥) ، أحمد (٢٠٨/٣) .

(٣) ابن ماجه الفتن (٤٠٢٢) .

(٤) البخاري الأيمان والنذور (٦٣١٥) ، مسلم النذر (١٦٣٩) ، النسائي الأيمان والنذور (٣٨٠٣) ، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٨٧) ، ابن ماجه الكفارات (٢١٢٢) ، أحمد (١١٨/٢) ، الدارمي النذور والأيمان (٢٣٤٠) .

[تأويل قوله تعالى "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب"]

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴾ [1] فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى: ﴿ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ [2] أنه بمنزلة قولهم: عندي درهم ونصفه، أي: ونصف درهم آخر، فيكون المعنى: ولا ينقص من عمر معمر آخر، وقيل: الزيادة والنقصان في الصحف التي في أيدي الملائكة، وحمل قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩ ﴾ [3] على أن المحو والإثبات من الصحف التي في أيدي الملائكة، وأن قوله: ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩ ﴾ [4]. اللوح المحفوظ. ويدل على هذا الوجه سياق الآية، وهو قوله: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ ﴾ [5]، ثم قال: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ ﴾ [6]، أي: من ذلك الكتاب، ﴿ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩ ﴾ [7]، أي: أصله، وهو اللوح المحفوظ. وقيل: يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه، والسياق أدل على هذا الوجه من الوجه الأول، وهو قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ ﴾ [8]. فأخبر تعالى أن الرسول لا يأتي بالآيات من قبل

---

(١) سورة فاطر آية ١١ .

(٢) سورة فاطر آية : ١١ .

(٣) سورة الرعد الآيتان ٣٨-٣٩ .

(٤) سورة الرعد آية : ٣٩ .

(٥) سورة الرعد آية : ٣٨ .

(٦) سورة الرعد آية : ٣٩ .

(٧) سورة الرعد آية : ٣٩ .

(٨) سورة الرعد آية : ٣٨ .

نَفْسِهِ، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ، ثُم قَالَ: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ﴾ [1] أيْ: إن الشرَائِعَ لَهَا أَجَلٌ وغَايَةٌ تَنْتَهِي إلَيْهَا، ثُم تُنْسَخُ بِالشرِيعَةِ الْأُخْرَى، فَيَنْسَخُ اللهُ مَا يَشَاءُ مِنَ الشرَائِعِ عِنْدَ انْقِضَاءِ الْأَجَلِ، وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ. وَفِي الْآيَةِ أَقْوَالٌ أُخْرَى، وَاللهُ أَعْلَمُ بِالصوَابِ.

(١) سورة الرعْدِ الآيتان ٣٨-٣٩

[شُمولُ عِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى]

قَوْلُهُ: (وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبلَ أَنْ يَخْلُقَهم، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ).

ش: فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا لَمْ يَكُنْ أَنْ لَوْ كَانَ كَيفَ يَكُونُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ ﴾ [1] وَإِنْ كَانَ يَعْلَمُ أَنهم لَا يُردونَ، وَلَكِنْ أَخْبَرَ أَنهُمْ لَوْ رُدوا لَعَادُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [2] وَفي ذَلِكَ رَد عَلَى الرافِضَةِ وَالْقَدَرِية، وَالذِينَ قَالُوا: إِنهُ لَا يَعْلَمُ الشيْءَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُ وَيُوجِدَهُ. وَهِيَ مِنْ فُرُوعِ مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ، وَسَيأْتِي لَهَا زِيَادَةُ بيَانٍ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

قَوْلُهُ: (وَأَمَرَهُمْ بِطَاعَتِه، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِه).

ش: ذَكَرَ الشيْخُ الْأَمرَ وَالنهيَ، بَعْدَ ذِكْرِهِ الْخَلْقَ وَالْقَدَرَ، إِشَارَةً إِلَى أَن اللهَ تَعَالَى خَلَقَ الْخَلْقَ لِعِبَادَتِه، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [3] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ ﴾ [4].

---

(١) سورة الأنعام آية ٢٨ .

(٢) سورة الأنفال آية ٢٣ .

(٣) سورة الذاريات آية ٥٦ .

(٤) سورة الملك آية ٢ .

[مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ]

[الْأَدِلَةُ عَلَى أَنهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ]

قَوْلُهُ: (وَكُل شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ، إِلا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ)

ش: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ (1) وَقَالَ: ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ (2) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ (3) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ ﴾ (4) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ ﴾ (5) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ (6) وَقَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السلَامُ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ ﴾ (7) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ (8) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلَةِ عَلَى أَنهُ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ. وَكَيْفَ يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يَشَاءُ!

---

(١) سورة الإنسان آية ٣٠ .

(٢) سورة التكْوِيرِ آية ٢٩ .

(٣) سورة الْأَنعَامِ آية١١١ .

(٤) سورة الْأَنعَامِ : ١١٢ .

(٥) سورة يُونُسَ آية ٩٩ .

(٦) سورة الْأَنعَامِ آية ١٢٥ .

(٧) سورة هُودٍ آية ٣٤ .

(٨) سورة الْأَنعَامِ آية ٣٩ .

وَمَنْ أضل سَبِيلًا وَأَكْفَرُ مِمن يَزْعُمُ أن الله شَاءَ الْإِيمَانَ مِنَ الْكَافِرِ، وَالْكَافِرُ شَاءَ الْكُفْرَ فَغَلَبَتْ مَشِيئَةُ الْكَافِرِ مَشِيئَةَ اللهِ!! تَعَالَى اللهُ عَما يَقُولُونَ عُلُوا كَبِيرًا.

[الْإِشْكَالُ الْمُتَوهمُ فِي ثَلَاثِ آياتٍ وَالْجَوَابُ عَلَيْهِ]

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴾ (١) الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴾ (٢) الْآيَةَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَـٰنُ مَا عَبَدْنَـٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (٣) فَقَدْ ذَمهُمُ اللهُ تَعَالَى حَيْثُ جَعَلُوا الشرْكَ كَائِنًا مِنْهُمْ بِمَشِيئَةِ اللهِ، وَكَذَلِكَ ذَم إِبْلِيسَ حَيْثُ أَضَافَ الْإِغْوَاءَ إِلَى اللهِ تَعَالَى، إِذْ قَالَ: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٤)

قِيلَ: قَدْ أُجِيبَ عَلَى هَذَا بِأَجْوِبَةٍ، مِنْ أَحْسَنِهَا: أَنهُ أَنكَرَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ لِأَنهُمُ احْتَجوا بِمَشِيئَتِهِ عَلَى رِضَاهُ وَمَحَبتِهِ، وَقَالُوا: لَوْ كَرِهَ ذَلِكَ وَسَخِطَهُ لَمَا شَاءَهُ، فَجَعَلُوا مَشِيئَتَهُ دَلِيلَ رِضَاهُ، فَرَد اللهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ. أَوْ أَنهُ أَنكَرَ عَلَيْهِمُ اعْتِقَادَهُمْ أَن مَشِيئَةَ اللهِ دَلِيلٌ عَلَى أَمْرِهِ بِهِ. أَوْ أَنهُ أَنكَرَ عَلَيْهِمْ اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به. أو أنه أنكر عليهم مُعَارَضَةَ شَرْعِهِ وَأَمْرِهِ الذِي أَرْسَلَ بِهِ رُسُلَهُ وَأَنزَلَ بِهِ كُتُبَهُ بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، فَجَعَلُوا الْمَشِيئَةَ الْعَامةَ دَافِعَةً لِلْأَمرِ، فَلَمْ يَذْكُرُوا الْمَشِيئَةَ عَلَى جِهَةِ التوْحِيدِ، وَإِنمَا ذَكَرُوهَا مُعَارِضِينَ بِهَا لِأَمْرِهِ، دَافِعِينَ بِهَا لِشَرْعِهِ، كَفِعْلِ الزنَادِقَةِ، وَالْجُهالِ إِذَا أُمِرُوا أَوْ نُهُوا احْتَجوا بِالْقَدَرِ. " وَقَدِ احْتَج سَارِقٌ عَلَى عُمَرَ ﷺ بِالْقَدَرِ، فَقَالَ: وَأَنَا أَقْطَعُ يَدَكَ بِقَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ ". يَشْهَدُ

---

(١) سورة الْأَنعَامِ آية ١٤٨ .

(٢) سورة النحْلِ آية ٣٥ .

(٣) سورة الزخْرُف آية٢٠ .

(٤) سورة الْحِجْرِ آية ٣٩ .

لِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ: ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ ﴾ (١) فَعُلِمَ أن مُرَادَهُمُ التكْذِيبُ، فَهُوَ مِنْ قَبلِ الْفِعْلِ، مِنْ أَيْنَ لَهُ أن اللهَ لَمْ يُقدِّرْهُ؟ أَطَلَعَ الْغَيبَ؟!

[حَدِيثُ احْتِجَاجِ آدَمَ عَلَى مُوسَى وَبَيَانُ مَعْنَاهُ]

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا يَقُولُونَ فِي احْتِجَاجِ آدَمَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِمَا السلَامُ بِالْقَدَرِ، إِذْ قَالَ لَهُ: أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبلَ أَنْ أُخْلَقَ بِأَرْبَعِينَ عَامًا؟ وَشَهِدَ النبِي ﷺ أن آدَمَ حَجَّ مُوسَى، أَيْ: غَلَبَ عَلَيْهِ بِالْحُجةِ؟ قِيلَ: نَتَلَقاهُ بِالْقَبُولِ وَالسمْعِ وَالطاعَةِ، لِصِحتِهِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا نَتَلَقاهُ بِالرد وَالتكْذِيبِ لِرَاوِيهِ، كَمَا فَعَلَتِ الْقَدَرِيةُ، وَلَا بِالتأْوِيلَاتِ الْبَارِدَةِ. بَلِ الصحِيحُ أن آدَمَ لَمْ يَحْتَجَّ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ عَلَى الذنْبِ، وَهُوَ كَانَ أَعْلَمَ بِرَبهِ وَذَنْبِهِ، بَلْ آحَادُ بَنِيهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَحْتَجُّ بِالْقَدَرِ، فَإِنهُ بَاطِلٌ. وَمُوسَى عَلَيْهِ السلَامُ كَانَ أَعْلَمَ بِأَبِيهِ وَبِذَنْبِهِ مِنْ أَنْ يَلُومَ آدَمَ عَلَى ذَنْبٍ قَدْ تَابَ مِنْهُ وَتَابَ اللهُ عَلَيْهِ وَاجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ، وَإِنمَا وَقَعَ اللوْمُ عَلَى الْمُصِيبَةِ التِي أَخْرَجَتْ أَوْلَادَهُ مِنَ الْجَنةِ، فَاحْتَجَّ آدَمُ بِالْقَدَرِ عَلَى الْمُصِيبَةِ، لَا عَلَى الْخَطِيئَةِ، فَإِن الْقَدَرَ يُحْتَجُّ بِهِ عِنْدَ الْمَصَائِبِ، لَا عِنْدَ الْمَعَائِبِ. وَهَذَا الْمَعْنَى أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِي الْحَدِيثِ. فَمَا قُدرَ مِنَ الْمَصَائِبِ يَجِبُ الِاسْتِسْلَامُ لَهُ، فَإِنهُ مِنْ تَمَامِ الرضَى بِاللهِ رَبا، وَأَما الذنُوبُ فَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يُذْنِبَ، وَإِذَا أَذْنَبَ فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ. فَيَتُوبَ مِنَ الْمَعَائِبِ، وَيَصْبِرَ عَلَى الْمَصَائِبِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ (٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ ﴾ (٣)

---

(١) سورة يُونُس آية ٣٩ .

(٢) سورة غافر آية ٥٥ .

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آية ١٢٠ .

وَأما قَوْلُ إِبْلِيسَ: ﴿ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ (1) إنمَا ذُم عَلَى احْتجَاجِهِ بِالْقَدَرِ، لَا عَلَى اعْتِرَافِهِ بِالْمُقَدرِ وَإِثْبَاتِهِ لَهُ. أَلَمْ تَسْمَعْ قَوْلَ نُوحٍ عَلَيْهِ السلَامُ: ﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (2)

وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

مَـا شِـئْتَ كَـانَ وَإِنْ لَـمْ أَشَأْ ... وَمَـا شِـئْتُ إِنْ لَـمْ تَشَأْ لَمْ يَكُنْ

وَعَنْ وَهْبِ بْنِ مُنبِهٍ، أَنهُ قَالَ: نَظَرْتُ فِي الْقَدَرِ فَتَحَيرْتُ، ثُم نَظَرْتُ فِيهِ فَتَحَيرْتُ، وَوَجَدْتُ أَعْلَمَ الناسِ بِالْقَدَرِ أَكَفهُمْ عَنْهُ، وَأَجْهَلَ الناسِ بِالْقَدَرِ أَنطَقَهُمْ بِهِ.

---

(1) سورة الحجر آية ٣٩ .

(2) سُورَةُ هُودٍ آية ٣٤ .

[مَسْألةُ الْهُدَى وَالضلال]

قَوْلُهُ: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلًا. وَيضِل مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ وَيبتَلِي عَدْلًا).

ش: هَذَا رَد عَلَى الْمُعتزِلَة فِي قَوْلهِمْ بِوُجُوبِ فِعْلِ الْأَصْلَحِ لِلْعَبْدِ عَلَى اللهِ، وَهِيَ مَسْأَلَةُ الْهُدَى وَالضلالِ. قَالَتِ الْمُعتزِلَةُ: الْهُدَى مِنَ اللهِ: بَيانُ طَرِيقِ الصوابِ، وَالْإِضْلَالُ: تَسْمِيَةُ الْعَبْدِ ضَالًّا، أَوْ حُكْمُهُ تَعَالَى عَلَى الْعَبْدِ بِالضلالِ عِنْدَ خَلْقِ الْعَبْدِ الضلالَ فِي نَفْسِهِ. وَهَذَا مَبْنِي عَلَى أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ: أن أَفْعَالَ الْعِبَادِ مَخْلُوقَةٌ لَهُمْ. وَالدلِيلُ عَلَى مَا قُلْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [1] وَلَوْ كَانَ الْهُدَى بَيانُ الطرِيقِ - لَمَا صح هَذَا النفْيُ عَنْ نَبِيهِ، لِأَنهُ ﷺ بين الطرِيقَ لِمَنْ أَحب وَأَبغَضَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [2] ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾ [3] وَلَوْ كَانَ الْهُدَى مِنَ اللهِ الْبَيانُ، وَهُوَ عَام فِي كُل نَفْسٍ - لَمَا صَح التقْيِيدُ بِالْمَشِيئَةِ. وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [4] وَقَوْلُهُ ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾ [5]

قَوْلُهُ: (وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ، بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ).

ش: فَإِنهُمْ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ [6] فَمَنْ هَدَاهُ إِلَى الْإِيمانِ فَبِفَضْلِهِ، وَلَهُ الْحَمْدُ، وَمَنْ أَضَلهُ فَبِعَدْلِهِ، وَلَهُ الْحَمْدُ. وَسَيَأْتِي لِهَذَا

(١) سُورَةُ الْقَصَصِ آية ٥٦ .
(٢) سُورَةُ السجْدَةِ آية ١٣ .
(٣) سُورَةُ الْمُدثرِ آية ٣١ .
(٤) سورة الصافات آية٥٧ .
(٥) سُورَةُ الْأَنْعَامِ آية ٣٩ .
(٦) سُورَةُ التغَابنِ آية ٢ .

الْمَعْنَى زِيَادَةُ إِيضَاحٍ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى، فَإِن الشَّيْخَ رَحِمَهُ اللهُ لَمْ يَجْمَعِ الْكَلَامَ فِي الْقَدَرِ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ، بَلْ فَرقَهُ، فَأَتَيْتُ بِهِ عَلَى تَرْتِيبِهِ.

قَوْلُهُ: (وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الْأَضْدَادِ وَالْأَنْدَادِ).

ش: الضد: الْمُخَالِفُ، وَالند: الْمِثْلُ. فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا مُعَارِضَ لَهُ، بَلْ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَلَا مِثْلَ لَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ (١)

وَيُشِيرُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ - بِنَفْيِ الضد وَالند - إِلَى الرد عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ، فِي زَعْمِهِمْ أَن الْعَبْدَ يَخْلُقُ فِعْلَهُ.

قَوْلُهُ: (لَا رَاد لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعقب لِحُكْمِهِ، وَلَا غَالِبَ لِأَمْرِهِ).

ش: أَيْ: لَا يَرد قَضَاءَ اللهِ رَاد، وَلَا يُعقبُ، أَيْ لَا يُؤَخرُ حُكْمَهُ، مُؤَخرٌ، وَلَا يَغْلِبُ أَمْرَهُ غَالِبٌ، بَلْ هُوَ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهارُ.

قَوْلُهُ: (آمَنا بِذَلِكَ كُلهِ، وَأَيْقَنا أَن كُلًّا مِنْ عِنْدِهِ)

ش: أَما الْإِيمَانُ فَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَالْإِيقَانُ: الِاسْتِقْرَارُ، مِنْ يَقِنَ الْمَاءُ فِي الْحَوْضِ إِذَا اسْتَقَر. وَالتنْوِينُ فِي (كُلًّا) بَدَلُ الْإِضَافَةِ، أَيْ: كُل كَائِنٍ مُحْدَثٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ، أَيْ: بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ وَإِرَادَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَكْوِينِهِ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي مَوْضِعِهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(١) سُورَةُ الْإِخْلَاصِ آيَة ٤ .

[كَمَالُ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبودِيتِهِ لِلهِ تَعَالَى]

[تَوَهمُ أن الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ الْعُبودِيةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ]

قَوْلُهُ: (وَإِن مُحَمدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى، وَنَبِيهُ الْمُجْتَبى، وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضَى).

ش: الِاصْطِفَاءُ وَالِاجْتِبَاءُ وَالِارْتِضَاءُ: مُتَقَارِبُ الْمَعْنَى. وَاعْلَمْ أن كَمَالَ الْمَخْلُوقِ فِي تَحْقِيقِ عُبودِيتِهِ لِلهِ تَعَالَى. وَكُلمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَحْقِيقًا لِلْعُبودِيةِ ازْدَادَ كَمَالُهُ وَعَلَتْ دَرَجَتُهُ وَمَنْ تَوَهمَ أن الْمَخْلُوقَ يَخْرُجُ عَنِ الْعُبودِيةِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَأن الْخُرُوجَ عَنْهَا أَكْمَلُ، فَهُوَ مِنْ أَجْهَلِ الْخَلْقِ وَأَضَلهِمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ (١) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ. وَذَكَرَ اللهُ نَبِيهُ ﷺ بِاسْمِ الْعَبْدِ فِي أَشْرَفِ الْمَقَامَاتِ، فَقَالَ فِي ذِكْرِ الْإِسْرَاءِ: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ﴾ (٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ (٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ (٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ (٥) وَبِذَلِكَ اسْتَحَقَ التقْدِيمَ عَلَى الناسِ فِي الدنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلِذَلِكَ يَقُولُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السلَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِذَا طَلَبُوا مِنْهُ الشفَاعَةَ بَعْدَ الْأَنبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السلَامُ: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمدٍ، عَبْدٌ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخرَ. فَحَصَلَتْ لَهُ تِلْكَ الْمَرْتَبَةُ بِتَكْمِيلِ عُبودِيتِهِ لِلهِ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ: وَإِن مُحَمدًا بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ، عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: إِن اللهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ. لِأَن الْكُل مَعْمُولُ الْقَوْلِ، أَعْنِي: قَوْلَهُ (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللهِ).

(١) سُورَةُ الْأَنبِيَاءِ آية ٢٦ .
(٢) سورة الْإِسْرَاءِ آية ١ .
(٣) سُورَةُ الْجِن آية ١٩ .
(٤) سُورَةُ النجْمِ آية ١٠ .
(٥) سُورَةُ الْبَقَرَةِ آية ٢٣ .

[دَلَائِلُ نُبوةِ الْأَنبِيَاءِ كَثِيرَةٌ وَمُتَنوعَةٌ]

وَالطرِيقَةُ الْمَشْهُورَةُ عِنْدَ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالنظَرِ، تَقْرِيرُ نُبوةِ الْأَنْبِيَاءِ بِالْمُعْجِزَاتِ، لَكِنْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعرِفُ نُبوةَ الْأَنبِيَاءِ إلا بِالْمُعْجِزَاتِ، وَقَدْ رُوِيَ (١) ذَلِكَ بِطُرُقٍ مُضْطَرِبَةٍ، وَالْتَزَمَ كَثِيرٌ مِنهُمْ إِنْكَارَ خَرْقِ الْعَادَاتِ لِغَيْرِ الْأَنبِيَاءِ، حَتى أَنْكَرُوا كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَالسحْرِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَلَا رَيْبَ أن الْمُعْجِزَاتِ دَلِيلٌ صَحِيحٌ، لَكِن الدلِيلَ غَيْرُ مَحْصُورٍ فِي الْمُعْجِزَاتِ، فَإِن النبوةَ إِنمَا يَدعِيهَا أَصْدَقُ الصادِقِينَ أَوْ أَكْذَبُ الْكَاذِبِينَ، وَلَا يَلْتَبِسُ هَذا بِهَذَا إِلا عَلَى أَجْهَلِ الْجَاهِلِينَ. بَلْ قَرَائِنُ أَحْوَالِهِمَا تُعرِبُ عَنْهُمَا، وَتُعَرِفُ بِهِمَا (٢) وَالتمْيِيزُ بَيْنَ الصادِقِ وَالْكَاذِبِ لَهُ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ فِيمَا دُونَ دَعْوَى النبوةِ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى النبُوةِ؟ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ حَسانُ رضي الله عنه

لَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مُبَينَةٌ ... كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبَرِ

وَمَا مِنْ أَحَدٍ ادعَى النبوةَ مِنَ الْكَذابِينَ إِلا وَقَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْكَذِبِ وَالْفُجُورِ وَاسْتِحْوَاذِ الشيَاطِينِ عَلَيْهِ - مَا ظَهَرَ لِمَنْ لَهُ أَدْنى تَمْيِيزٍ. فَإِن الرسُولَ لَا بُد أَنْ يُخْبِرَ الناسَ بِأُمُورٍ وَيَأْمُرَهُمْ بِأُمُورٍ، وَلَا بُد أَنْ يَفْعَلَ أُمورًا [يُبَينُ بِهَا صِدْقَهُ]. وَالْكَاذِبُ يَظْهَرُ (٣) فِي نَفْسِ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيُخْبِرُ عَنْهُ وَمَا يَفْعَلُهُ مَا يُبيِنُ بِهِ كَذِبُهُ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ. وَالصادِقُ ضِدهُ. بَلْ كُل شَخْصَيْنِ ادعَيَا أَمرًا: أَحَدُهُمَا صَادِقٌ وَالْآخَرُ كَاذِبٌ - لَا بُد أَنْ يَظْهَرَ صِدْقُ هَذَا وَكَذِبُ هَذَا وَلَوْ بَعْدَ مُدةٍ، إِذِ الصدْقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْبِر، وَالْكَذِبُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْفُجُورِ، كَمَا فِي الصحِيحَيْنِ عَنِ النبِي ﷺ أَنهُ قَالَ: ﴿عَلَيْكُمْ بِالصدْقِ، فَإِن الصدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِر، وَإِن الْبِر يَهْدِي إِلَى الْجَنةِ، وَمَا يَزَالُ الرجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرى الصدْقَ، حَتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِديقًا، وَإِياكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِن الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِن الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النارِ،

---

(١) هَكَذَا وَرَدَ فِي الْأَصْلِ ، وفي النسخ الأخرى : وقرروا . ن .

(٢) في المطبوعة : " بل قرائن أحوالها تعرب عنهما ، وتعرب با " وسياق الكلام يدل على أن الصواب ما أثبتنا .

(٣) في المطبوعة " ينظر " : ولا معنى لها هنا .

وَمَا يَزَالُ الرجُلُ يَكْذِبُ وَيَتحَرى الْكَذِبَ، حَتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذابًا ﴾ [1]. [2] وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ [3]. فَالْكُهانُ وَنَحْوُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا أَحْيَانًا يُخْبِرُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْغَيبِياتِ، وَيَكُونُ صِدْقًا - فَمَعَهُمْ مِنَ الْكَذِبِ وَالْفُجُورِ مَا يُبَينُ أَن الذِي يُخْبِرُونَ بِهِ لَيسَ عَنْ مَلَكٍ، وَلَيْسُوا بِأَنْبِيَاءَ وَلِهَذَا ﴿ لما قَالَ النبِي ﷺ لِابْنِ صَيادٍ: قَدْ خَبأْتُ لَكَ خَبِيئًا، فَقَالَ: هُوَ الدخ - قَالَ لَهُ النبِي ﷺ اخْسأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ يَعْنِي: إِنمَا أَنتَ كَاهِنٌ ﴾ [4]. وَقَدْ قَالَ لِلنبِي ﷺ يَأْتِينِي صَادِقٌ وَكَاذِبٌ. وَقَالَ: أَرى عَرْشًا عَلَى الْمَاءِ، وَذَلِكَ هُوَ عَرْشُ الشيْطَانِ وَبَينَ أَن الشعَرَاءَ يَتبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، وَالْغَاوِي: الذِي يَتبِعُ هَوَاهُ وَشَهْوَتَهُ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مُضِرا لَهُ فِي الْعَاقِبَةِ.

فَمَنْ عَرَفَ الرسُولَ وَصِدْقَهُ وَوَفَاءَهُ وَمُطَابَقَةَ قَوْلِهِ لِعَمَلِهِ [5] - عَلِمَ عِلْمًا يَقِينًا أَنهُ لَيْسَ بِشَاعِرٍ وَلَا كَاهِنٍ.

---

(١) البخاري الأدب (٥٧٤٣) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٠٧) ، الترمذي البر والصلة (١٩٧١) ، أبو داود الأدب (٤٩٨٩) ، ابن ماجه المقدمة (٤٦) ، أحمد (٤٠٥/١) ، الدارمي الرقاق (٢٧١٥) .

(٢) الزيادتان ثابتتان ٢ : ٢٨٩ ، وكان في المطبوعة (ولا يزال) في الموضعين ، وأثبتنا ما في مسلم أيضًا ، لأن الرواية التي نقلها المؤلف أقرب الألفاظ إلى رواية مسلم ، من طريق وكيع وأبي معاوية ، كلاهما عن الأعمش . وكذلك رواه أحمد : ٤١٠٨ ، عن وكيع وأبي معاوية ، بنحوه . وقد تساهل المؤلف في نسبة الحديث بذا اللفظ للصحيحين . لأن البخاري إنما روى بعضه بنحو معناه مختصرًا من طريق آخر . ولعله تبع في ذلك المنذري في الترغيب والترهيب ٤ : ٢٦- ٢٧ ، فقد تساهل أيضًا ونسبه للبخاري . انظر فتح الباري ١٠ : ٤٢٢- ٤٢٣ .

(٣) سُورَةُ الشعَرَاءِ الْآيَات ٢٢١-٢٢٦ .

(٤) البخاري الجنائز (١٢٨٩) ، مسلم الفتن وأشراط الساعة (٢٩٣١) ، أحمد (١٤٩/٢) .

(٥) في المطبوعة (لعلمه) وهو خطأ .

وَالناسُ يُميزُونَ بَيْنَ الصادِقِ وَالْكَاذِبِ بِأَنوَاعٍ مِنَ الْأَدِلةِ، حَتى فِي الْمُدعِي لِلصنَاعَاتِ وَالْمقَالَاتِ، كَمَنْ يَدعِي الْفِلَاحَةَ وَالنسَاجَةَ وَالْكِتَابَةَ، وَعِلْمَ النحْوِ وَالطب وَالْفِقْهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

[قَدْ يَقْتَرِنُ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ مِنَ الْقَرَائِنِ مَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْعِلْمُ الضرُورِي]

وَالنبُوةُ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عُلُومٍ وَأَعْمَالٍ لَا بُد أَنْ يَتصِفَ الرسُولُ بِهَا، وَهِيَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ وَأَشْرَفُ الْأَعْمَالِ. فَكَيْفَ يَشْتَبِهُ الصادِقُ فِيهَا بِالْكَاذِبِ؟ وَلَا رَيْبَ أَن الْمُحَققِينَ عَلَى أَن خَبَرَ الْوَاحِدِ وَالِاثْنَيْنِ وَالثلَاثَةِ: قَدْ يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ مَا يَحْصُلُ مَعَهُ الْعِلْمُ الضرُورِي، كَمَا يَعْرِفُ الرجُلُ رِضَى الرجُلِ وَحُبهُ وَبُغْضَهُ وَفَرَحَهُ وَحُزْنَهُ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِما فِي نَفْسِهِ، بِأُمُورٍ تَظْهَرُ عَلَى وَجْهِهِ، قَدْ لَا يُمْكِنُ التعْبِيرُ عَنْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ ﴾ (1) ثُم قَالَ: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ ﴾ (2). وَقَدْ قِيلَ: مَا أَسَر أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلا أَظْهَرَهَا اللهُ عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ.

[يَعْلَمُ صِدْقَ الْمُخْبِرِ بِمَا يَقْتَرِنُ بِهِ مِنَ الْقَرَائِنِ]

فَإِذَا كَانَ صِدْقُ الْمُخْبِرِ وَكَذِبُهُ يُعْلَمُ بِمَا يَقْتَرِنُ مِنَ الْقَرَائِنِ، فَكَيْفَ بِدَعْوَى الْمُدعِي أَنهُ رَسُولُ اللهِ، كَيْفَ يَخْفَى صِدْقُ هَذَا مِنْ كَذِبِهِ؟ وَكَيْفَ لَا يَتَمَيزُ الصادِقُ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكَاذِبِ بِوُجُوهٍ مِنَ الْأَدِلةِ؟

وَلِهَذَا لَما كَانَتْ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تَعْلَمُ مِنَ النبِي ﷺ أَنهُ الصادِقُ الْبَار، قَالَ لَهَا لَما جَاءَهُ الْوَحْيُ: «إِني قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي (3) فَقَالَتْ: كَلا - وَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ، إِنكَ لَتَصِلُ الرحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَل، وَتَقْرِي الضيْفَ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ،

---

(1) سُورَةُ مُحَمدٍ آية ٣٠ .

(2) سورة محمد آية : ٣٠ .

(3) في المطبوعة " على عقلي " ! وهو خطأ فاحش ، لعله من الناسخ ، بل هو كلام غير معقول ، وحاشا رسول الله أن يقول هذا . بل إن بعض العلماء فسر خشيته على نفسه ، في هذا الحديث ، بأنه خشي الجنون! واستنكره الحافظ في الفتح ١ : ٢٣ ، قال وأبطله أبو بكر بن العربي ، وحق له أن يبطل " .

وَتعين عَلَى نَوائِبِ الْحَق». فَهُوَ لَمْ يَخَفْ مِنْ تَعمدِ الْكَذِبِ، فَهُوَ يَعْلَمُ مِنْ نَفْسِهِ ﷺ أَنه لَمْ يَكْذِبْ، وَإِنمَا خَافَ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَضَ لَهُ عَارِضُ سُوءٍ، وَهُوَ الْمَقَامُ الثانِي، فَذَكَرَتْ خَدِيجَةُ مَا يَنْفِي هَذَا، وَهُوَ مَا كَانَ مَجْبُولًا عَلَيْهِ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الشيَمِ، وَقَدْ عُلِمَ مِنْ سُنةِ اللهِ أَن مَنْ جَبَلَهُ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَنَزهَهُ عَنِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ: فَإِنهُ لَا يُخْزِيهِ.

وَكَذَلِكَ قَالَ النجَاشِي لَما اسْتَخْبَرَهُمْ عَما يُخْبِرُ بِهِ وَاسْتَقْرَأَهُمُ الْقُرْآنَ فَقَرَؤُوا عَلَيْهِ: إِن هَذَا وَالذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى عَلَيْهِ السلَامُ لَيَخْرُجُ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ. وَكَذَلِكَ وَرَقَةُ ابْنُ نَوْفَلٍ، لَما أَخْبَرَهُ النبِي ﷺ بِمَا رَآهُ، وَكَانَ وَرَقَةُ قَدْ تَنَصرَ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْإِنْجِيلَ بِالْعَرَبِيةِ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيْ عَم، اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ مَا يَقُولُ، فَأَخْبَرَهُ النبِي ﷺ بِمَا رَأَى فَقَالَ: هَذَا هُوَ الناموسُ الذِي كَانَ يَأْتِي مُوسَى.

وَكَذَلِكَ هِرَقْلُ مَلِكُ الرومِ، فَإِن النبِي ﷺ لَما كَتَبَ إِلَيْهِ كِتَابًا يَدْعُوهُ فِيهِ إِلَى الْإِسْلَامِ، طَلَبَ مَنْ كَانَ هُنَاكَ مِنَ الْعَرَبِ، وَكَانَ أَبُو سُفْيَانَ قَدْ قَدِمَ فِي طَائِفَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ فِي تِجَارَةٍ إِلَى الشامِ، وَسَأَلَهُمْ عَنْ أَحْوَالِ النبِي ﷺ فَسَأَلَ أَبَا سُفْيَانَ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ إِنْ كَذَبَ أَنْ يُكَذبُوهُ، فَصَارُوا بِسُكُوتِهِمْ مُوَافِقِينَ لَهُ فِي الْأَخْبَارِ، سَأَلَهُمْ: هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقَالُوا: لَا، قَالَ: هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقَالُوا: لَا، وَسَأَلَهُمْ: أَهُوَ ذُو نَسَبٍ فِيكُمْ؟ فَقَالُوا: نَعَمْ، وَسَأَلَهُمْ: هَلْ كُنْتُمْ تَتهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقَالُوا: لَا، مَا جَربْنَا عَلَيْهِ كَذِبًا، وَسَأَلَهُمْ: هَلِ اتبَعَهُ ضُعَفَاءُ الناسِ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَذَكَرُوا أَن الضعَفَاءَ اتبَعُوهُ؟ وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرُوا أَنهُمْ يَزِيدُونَ، وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَرْجِعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقَالُوا: لَا، وَسَأَلَهُمْ: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قَالُوا: نَعَمْ، وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقَالُوا: يُدَالُ عَلَيْنَا مَرةً وَنُدَالُ عَلَيْهِ أُخْرَى، وَسَأَلَهُمْ: هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرُوا أَنهُ لَا يَغْدِرُ، وَسَأَلَهُمْ: بِمَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَقَالُوا: يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَانَا عَما كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصلَاةِ وَالصدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصلَةِ. وَهَذِهِ أَكْثَرُ مِنْ عَشْرِ مَسَائِلَ، ثُم بَينَ لَهُمْ مَا فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنَ الْأَدِلةِ، فَقَالَ: سَأَلْتُكُمْ

هَلْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، قُلْتُ: لَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ لَقُلْتُ: رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكُمْ هَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ فِيكُمْ أَحَدٌ قَبْلَهُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، فَقُلْتُ: لَوْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ أَحَدٌ قَبْلَهُ لَقُلْتُ: رَجُلٌ ائْتَمَّ بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكُمْ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، فَقُلْتُ: قَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَدَعَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ثُمَّ يَذْهَبُ فَيَكْذِبُ عَلَى اللهِ، وَسَأَلْتُكُمْ أَضُعَفَاءُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ أَشْرَافُهُمْ؟ فَقُلْتُمْ: ضُعَفَاؤُهُمْ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، يَعْنِي فِي أَوَّلِ أَمْرِهِمْ، ثُمَّ قَالَ: وَسَأَلْتُكُمْ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَقُلْتُمْ، بَلْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكُمْ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ سُخْطَةً لَهُ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، إِذَا خَالَطَتْ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ لَا يَسْخَطُهُ أَحَدٌ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ عَلَامَاتِ الصِّدْقِ وَالْحَقِّ، فَإِنَّ الْكَذِبَ وَالْبَاطِلَ لَا بُدَّ أَنْ يَنْكَشِفَ فِي آخِرِ الْأَمْرِ، فَيَرْجِعَ عَنْهُ أَصْحَابُهُ، وَيَمْتَنِعَ عَنْهُ مَنْ لَمْ يَدْخُلْ فِيهِ، وَالْكَذِبُ لَا يَرُوجُ إِلَّا قَلِيلًا ثُمَّ يَنْكَشِفُ.

وَسَأَلْتُكُمْ كَيْفَ الْحَرْبُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ؟ فَقُلْتُمْ: إِنَّهَا دُوَلٌ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى وَتَكُونُ الْعَاقِبَةُ لَهَا، قَالَ: وَسَأَلْتُكُمْ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَقُلْتُمْ: لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَهُوَ لِمَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِهِ بِعَادَةِ الرُّسُلِ وَسُنَّةِ اللهِ فِيهِمْ أَنَّهُ تَارَةً يَنْصُرُهُمْ وَتَارَةً يَبْتَلِيهِمْ وَأَنَّهُمْ لَا يَغْدِرُونَ - عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ عَلَامَاتُ الرُّسُلِ، وَأَنَّ سُنَّةَ اللهِ فِي الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ بِالسَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ، لِيَنَالُوا دَرَجَةَ الشُّكْرِ وَالصَّبْرِ.

كَمَا فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَقْضِي اللهُ لِلْمُؤْمِنِ قَضَاءً إِلَّا كَانَ خَيْرًا لَهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1].

---

(١) مسلم الزهد والرقائق (٢٩٩٩) ، أحمد (٣٣٢/٤) ، الدارمي الرقاق (٢٧٧٧) .

وَاللَّهُ تَعالى قَدْ بينَ فِي الْقُرْآنِ مَا فِي إِدَالَةِ الْعَدُو عَلَيْهِمْ يوم أُحُدٍ مِنَ الْحِكْمَةِ فَقَالَ: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [1] الْآيَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [2] الْآيَاتِ.

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الدالةِ عَلَى سُنتِهِ فِي خَلْقِهِ وَحِكْمَتِهِ الَتِي بَهَرَتِ الْعُقُولَ.

قَالَ: وَسَأَلْتُكُمْ عَما يَأْمُرُ بِهِ؟ فَذَكَرْتُمْ أَنهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيأْمُرُكُمْ بِالصلَاةِ وَالصدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصلَةِ، وَيَنْهَاكُمْ عَما كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ، وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِي، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَن نَبِيا يُبْعَثُ، وَلَمْ أَكُنْ أَظُنهُ مِنْكُمْ، وَلَوَدِدْتُ أَني أَخْلُصُ إِلَيْهِ، وَلَوْلَا مَا أَنَا فِيهِ مِنَ الْمُلْكِ لَذَهَبْتُ إِلَيْهِ، وَإِنْ يَكُنْ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَي هَاتَيْنِ.

وَكَانَ الْمُخَاطَبَ بِذَلِكَ أَبو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ، وَهُوَ حِينَئِذٍ كَافِرٌ مِنْ أَشَد الناسِ بُغْضًا وَعَدَاوَةً لِلنبِي ﷺ قَالَ أَبو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ: فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي وَنَحْنُ خُرُوجٌ، لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنهُ لَيَعظمُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، وَمَا زِلْتُ مُوقِنًا بِأَن أَمرَ النبِي ﷺ سَيَظْهَرُ، حَتى أَدْخَلَ اللهُ عَلَي الْإِسْلَامَ وَأَنا كَارِهٌ.

وَمِما يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ: أَن مَا يَحْصُلُ فِي الْقَلْبِ بِمَجْمُوعِ أُمُورٍ، قَدْ لَا يَسْتَقِل بَعْضُهَا بِهِ، بَلْ مَا يَحْصُلُ لِلْإِنسَانِ - مِنْ شِبَعٍ وَرِي [3] وَشُكْرٍ وَفَرَحٍ وَغَم - فَأُمُورٌ مُجْتَمِعَةٌ، لَا يَحْصُلُ بِبَعْضِهَا، لَكِنْ بِبَعْضِهَا قَدْ يَحْصُلُ بَعْضُ الْأَمرِ. [4]

---

(١) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ آية ١٣٩ .

(٢) سُورَةُ الْعَنكَبوتِ الآيتان ١-٢ .

(٣) في الأصل : (شفيع ووزير) والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٤) كذلك جاءت هذه الفقرة في المطبوعة! ولم نستطع تصحيحها .

وَكَذَلِكَ الْعِلْمُ بِخَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ، فَإِن خَبَرَ الْوَاحِدِ يُحصلُ لِلْقَلْبِ نَوْعَ ظَنٍ، ثُم الْآخَرُ يُقَوِيهِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَى الْعِلْمِ، حَتى يَتَزَايَدَ وَيَقْوَى. وَكَذَلِكَ الْأَدِلةُ عَلَى الصدْقِ وَالْكَذِبِ وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَأَيْضًا: فَإِن اللهَ سُبْحَانَهُ أَبْقَى فِي الْعَالَمِ الْآثَارَ الدالةَ عَلَى مَا فَعَلَهُ بِأَنْبِيَائِهِ وَالْمُؤْمِنينَ مِنَ الْكَرَامَةِ، وَمَا فَعَلَهُ بِمُكَذِبِيهِمْ مِنَ الْعُقُوبَةِ، كَثُبوتِ الطوفَانِ، وَإِغْرَاقِ فِرْعَوْنَ وَجُنُودِهِ، وَلَما ذَكَرَ سُبْحَانَهُ قَصَصَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيا بَعْدَ نَبِي، فِي سُورَةِ الشعَرَاءِ، كَقِصةِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ وَنُوحٍ وَمَنْ بَعْدَهُ، يَقُولُ فِي آخِرِ كُل قِصةٍ: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (١)

وَبِالْجُمْلَةِ: فَالْعِلْمُ بِأَنهُ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَنْ يَقُولُ إِنهُ رَسُولُ اللهِ، وَأَن أَقْوَامًا اتبَعُوهُمْ، وَأَن أَقْوَامًا خَالَفُوهُمْ، وَأَن اللهَ نَصَرَ الرسُلَ وَالْمُؤْمِنِينَ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ، وَعَاقَبَ أَعْدَاءَهُمْ: هُوَ مِنْ أَظْهَرِ الْعُلُومِ الْمُتَوَاتِرَةِ وَأَجْلَاهَا. وَنَقْلُ أَخْبَارِ هَذِهِ الْأُمُورِ أَظْهَرُ وَأَوْضَحُ مِنْ نَقْلِ أَخْبَارِ مَنْ مَضَى مِنَ الْأُمَمِ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ وَعُلَمَاءِ الطب، كَبُقْرَاط وَجَالِينُوسَ وَبطْلِيمُوسَ وَسُقْرَاط وَأَفْلَاطُونَ وَأَرِسْطُو وَأَتْبَاعِهِ.

وَنَحْنُ الْيَوْمَ إِذَا عَلِمْنَا بِالتوَاتُرِ مِنْ أَحْوَالِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَوْلِيَائِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ - عَلِمْنَا يَقِينًا أَنهُمْ كَانُوا صَادِقِينَ عَلَى الْحَق مِنْ وُجُوهٍ مُتَعَددَةٍ: مِنْهَا: أَنهُمْ أَخْبَرُوا الْأُمَمَ بِمَا سَيَكُونُ مِنِ انْتِصَارِهِمْ وَخِذْلَانِ أُولَئِكَ وَبَقَاءِ الْعَاقِبَةِ لَهُمْ. وَمِنْهَا: مَا أَحْدَثَهُ اللهُ لَهُمْ مِنْ نَصْرِهِمْ وَإِهْلَاكِ عَدُوهِمْ، إِذَا عُرِفَ الْوَجْهُ الذِي حَصَلَ عَلَيْهِ، - كَغَرَقِ فِرْعَوْنَ وَغَرَقِ قَوْمِ نُوحٍ وَبَقِيةِ أَحْوَالِهِمْ - عُرِفَ صِدْقُ الرسُلِ.

وَمِنْهَا: أَن مَنْ عَرَفَ مَا جَاءَتْ بِهِ الرسُلُ مِنَ الشرَائِعِ وَتَفَاصِيلِ أَحْوَالِهَا، تَبَين لَهُ أَنهُمْ أَعْلَمُ الْخَلْقِ، وَأَنهُ لَا يَحْصُلُ مِثْلُ ذَلِكَ مِنْ كَذابٍ جَاهِلٍ، وَأَن فِيمَا جَاءُوا بِهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ

(١) سُورَةُ الشعَرَاءِ الآيتان ١٢١-١٢٢ .

وَالرحْمَةِ وَالْهدى وَالْخيرِ وَدَلَالَةِ الْخلْقِ عَلى مَا ينفعُهمْ وَمنعِ مَا يَضرُهمْ -مَا يُبين أَنه لَا يَصْدُرُ إلا عَنْ رَاحِمٍ بَر يَقْصِدُ غَايَةَ الْخيرِ وَالْمنفَعَةِ لِلْخَلْقِ.

وَلِذِكْرِ دَلَائِلِ نُبوةِ مُحَمدٍ ﷺ مِنَ الْمُعْجزَاتِ وَبَسْطِهَا مَوْضِعٌ آخَرُ، وَقَدْ أَفْرَدَهَا الناسُ بِمُصَنفاتٍ، كَالْبيهقي وَغَيْرِه.

[إِنْكَارُ رِسَالَتِهِ ﷺ طَعْنٌ فِي الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى]

بَلْ إِنْكَارُ رِسَالَتِهِ ﷺ طَعْنٌ فِي الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَنِسْبَتُه لَه إِلَى الظلْمِ وَالسفَهِ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ عُلُوا كَبِيرًا، بَلْ جَحْدٌ لِلرب بِالْكُلِّيةِ وَإِنْكَارٌ.

وَبَيَانُ ذَلِكَ: أَنهُ إِذَا كَانَ مُحَمدٌ عِنْدَهُمْ لَيْسَ بِنَبِي صَادِقٍ، بَلْ مَلِكٌ ظَالِمٌ، فَقَدْ تَهَيأَ لَهُ أَنْ يَفْتَرِيَ عَلَى اللهِ وَيَتَقَولَ عَلَيْهِ، وَيَسْتَمِر حَتى يُحَلِّلَ وَيُحَرمَ، وَيَفْرِضَ الْفَرَائِضَ، وَيُشَرعَ الشرَائِعَ، وَيَنْسَخَ الْمِلَلَ، وَيَضْرِبَ الرقَابَ، وَيَقْتُلَ أَتْبَاعَ الرسُلِ وَهُمْ أَهْلُ الْحَق، وَيَسْبِيَ نِسَاءَهُمْ وَيَغْنَمَ أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ، وَيَتِم لَهُ ذَلِكَ حَتى يَفْتَحَ الْأَرْضَ، وَيَنْسِبَ ذَلِكَ كُلهُ إِلَى أَمْرِ اللهِ لَهُ بِهِ وَمَحَبتِهِ لَهُ، وَالرب تَعَالَى يُشَاهِدُهُ وَهُوَ يَفْعَلُ بِأَهْلِ الْحَق، وَهُوَ مُسْتَمِر فِي الِافْتِرَاءِ عَلَيْهِ ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَةً، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ يُؤَيدُهُ وَيَنْصُرُهُ، وَيُعْلِي أَمْرَهُ، وَيُمَكنُ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ النصْرِ الْخَارِجَةِ عَنْ عَادَةِ الْبَشَرِ، وَأَبْلَغُ مِنْ ذَلِكَ أَنهُ يُجِيبُ دَعَوَاتِهِ، وَيُهْلِكُ أَعْدَاءَهُ، وَيَرْفَعُ لَهُ ذِكْرَهُ، هَذَا وَهُوَ عِنْدَهُمْ فِي غَايَةِ الْكَذِبِ وَالِافْتِرَاءِ وَالظلْمِ، فَإِنهُ لَا أَظْلَمَ مِمنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ وَأَبْطَلَ شَرَائِعَ أَنْبِيَائِهِ وَبَدلَهَا وَقَتَلَ أَوْلِيَاءَهُ، وَاسْتَمَرتْ نُصْرَتُهُ عَلَيْهِمْ دَائِمًا، وَاللهُ تَعَالَى يُقِرهُ عَلَى ذَلِكَ، وَلَا يَأْخُذُ مِنْهُ بِالْيَمِينِ، وَلَا يَقْطَعُ مِنْهُ الْوَتِينَ. فَيَلْزَمُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: لَا صَانِعَ لِلْعَالَمِ وَلَا مُدَبرَ، وَلَوْ كَانَ لَهُ مُدَبرٌ قَدِيرٌ حَكِيمٌ، لَأَخَذَ عَلَى يَدَيْهِ وَلَقَابَلَهُ أَعْظَمَ مُقَابَلَةٍ، وَجَعَلَهُ نَكَالًا لِلصالِحِينَ. إِذْ لَا يَلِيقُ بِالْمُلُوكِ غَيْرُ ذَلِكَ، فَكَيْفَ بِمَلِكِ الْمُلُوكِ وَأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ؟ وَلَا رَيْبَ أَن اللهَ تَعَالَى قَدْ رَفَعَ لَهُ ذِكْرَهُ، وَأَظْهَرَ دَعْوَتَهُ وَالشهَادَةَ لَهُ بِالنبُوةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ فِي سَائِرِ الْبِلَادِ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَن كَثِيرًا مِنَ الْكَذابِينَ قَامَ فِي الْوُجُودِ، وَظَهَرَتْ لَهُ شَوْكَةٌ، وَلَكِنْ لَمْ يَتِم أَمْرُهُ، وَلَمْ تَطُلْ مُدتُهُ، بَلْ سَلطَ اللهُ عَلَيْهِ رُسُلَهُ وَأَتْبَاعَهُمْ، وَقَطَعُوا دَابِرَهُ وَاسْتَأْصَلُوهُ. هَذِهِ سُنةُ اللهِ التِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ، حَتى إِن الْكُفارَ

يَعْلَمُونَ ذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ۝٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ ﴾ [1] أَفَلَا تَرَاهُ يُخْبِرُ أَن كَمَالَهُ وَحِكْمَتَهُ وَقُدْرَتَهُ تَأْبَى أَنْ يُقِرَّ مَنْ تَقَوَّلَ عَلَيْهِ بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَا بُدَّ أَنْ يَجْعَلَهُ عِبْرَةً لِعِبَادِهِ كَمَا جَرَتْ بِذَلِكَ سُنَّتُهُ فِي الْمُتَقَوِّلِينَ عَلَيْهِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ ﴾ [2] وَهُنَا انْتَهَى جَوَابُ الشَّرْطِ، ثُمَّ أَخْبَرَ خَبَرًا جَازِمًا غَيْرَ مُعَلَّقٍ: أَنَّهُ يَمْحُو الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ ﴾ [3] فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ نَفَى عَنْهُ الْإِرْسَالَ وَالْكَلَامَ لَمْ يَقْدُرْهُ حَقَّ قَدْرِهِ.

[الْفَرْقُ بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ]

وَقَدْ ذَكَرُوا فُرُوقًا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالرَّسُولِ، وَأَحْسَنُهَا. أَنَّ مَنْ نَبَّأَهُ اللَّهُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، إِنْ أَمَرَهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ رَسُولٌ، وَإِنْ لَمْ يَأْمُرْهُ أَنْ يُبَلِّغَ غَيْرَهُ، فَهُوَ نَبِيٌّ وَلَيْسَ بِرَسُولٍ. فَالرَّسُولُ أَخَصُّ مِنَ النَّبِيِّ، فَكُلُّ رَسُولٍ نَبِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ رَسُولًا، وَلَكِنَّ الرِّسَالَةَ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، فَالنُّبُوَّةُ جُزْءٌ مِنَ الرِّسَالَةِ، إِذِ الرِّسَالَةُ تَتَنَاوَلُ النُّبُوَّةَ وَغَيْرَهَا، بِخِلَافِ الرُّسُلِ، فَإِنَّهُمْ لَا يَتَنَاوَلُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَغَيْرَهُمْ، بَلِ الْأَمْرُ بِالْعَكْسِ. فَالرِّسَالَةُ أَعَمُّ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهَا، وَأَخَصُّ مِنْ جِهَةِ أَهْلِهَا.

وَإِرْسَالُ الرُّسُلِ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَخُصُوصًا مُحَمَّدًا ﷺ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ

(١) سُورَةُ الطور الآيتان ٣٠-٣١ .
(٢) سورة الشورى آية ٢٤ .
(٣) سورة الْأَنعَامِ آية ٩١ .

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾[1] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾[2]

---

(١) سورة آل عِمْرَانَ آية ١٦٤ .

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧ .

[خَتْمُ النُبوةِ]

[خَتْمُ النُبوةِ بِمُحَمدٍ ﷺ]

قَوْلُهُ: (وَأَنهُ خَاتَمُ الْأَنبِيَاءِ)

ش: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ﴾ (١) وقَالَ ﷺ ﴿ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنبِيَاءِ كَمَثَلِ قَصْرٍ أَحْسنَ بِنَاؤُه، وَتُرِكَ مِنْهُ مَوْضِعُ لَبِنَةٍ، فَطَافَ بِهِ النظارُ يَتَعَجبُونَ مِنْ حُسْنِ بِنَائِهِ، إِلا مَوْضِعَ تِلْكَ اللَبِنَةِ، لَا يَعِيبُونَ سِوَاهَا، فَكُنْتُ أَنَا سَدَدْتُ مَوْضِعَ تِلْكَ اللَبِنَةِ خُتِمَ بِي الْبُنيَانُ وَخُتِمَ بِيَ الرسُلُ ﴾ (٢) ، أَخْرَجَاهُ فِي الصحِيحَيْنِ. (٣) وَقَالَ ﷺ ﴿ إِن لِي أَسْمَاءً: أَنَا مُحَمدٌ، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا الْمَاحِي، يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ، وَأَنَا الْحَاشِرُ، الذِي يُحْشَرُ الناسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا الْعَاقِبُ، وَالْعَاقِبُ الذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِي ﴾ (٤) ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ: ﴿ وَإِنهُ سَيَكُونُ فِي أُمتِي ثَلَاثُونَ كَذابُونَ، كُلُهُمْ يَزْعُمُ أَنهُ نَبِي، وَأَنَا خَاتَمُ النبِيينَ، لَا نَبِي بَعْدِي ﴾ (٥) ، الْحَدِيثَ. وَلِمُسْلِمٍ: ﴿ أَن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: فُضلْتُ عَلَى الْأَنبِيَاءِ بِستٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرعْبِ، وَأُحِلتْ

---

(١) سُورَةُ الْأَحْزَابِ آية ٤٠ .

(٢) البخاري المناقب (٣٣٤١) ، مسلم الفضائل (٢٢٨٧) ، الترمذي الأمثال (٢٨٦٢) .

(٣) كتب مصححوا الطبعة السلفية ، استدراكًا في آخر الكتاب ، على هذا الموضع ، نصه : قد اطلعنا في الصحيحين ، كما نبه الشارح - على مظان الحديث ، فوجدنا أنه روي بعدة وجوه ، ليس فيها ما ذكره الشارح ، ومما هو في البخاري في باب خاتم النبيين؛ ما نصه : " إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا ، فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية . فجعل الناس يطوفون به ، ويعجبون له ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟ قال فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين " .

(٤) البخاري تفسير القرآن (٤٦١٤) ، مسلم الفضائل (٢٣٥٤) ، الترمذي الأدب (٢٨٤٠) ، أحمد (٨٠/٤) ، مالك الجامع (١٨٩١) ، الدارمي الرقاق (٢٧٧٥) .

(٥) الترمذي الفتن (٢٢١٩) ، أبو داود الفتن والملاحم (٤٢٥٢) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٥٢) ، أحمد (٢٧٨/٥) .

لِي الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ ﴾[1].

قَوْلُهُ: (وَإِمَامُ الْأَتْقِيَاءِ)

ش: هُوَ ﷺ الْإِمَامُ الَّذِي يُؤْتَمُّ بِهِ، أَيْ: يَقْتَدُونَ بِهِ. وَالنَّبِيُّ ﷺ إِنَّمَا بُعِثَ لِلِاقْتِدَاءِ بِهِ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾[2] وَكُلُّ مَنِ اتَّبَعَهُ وَاقْتَدَى بِهِ فَهُوَ مِنَ الْأَتْقِيَاءِ.

قَوْلُهُ: (وَسَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ)

ش: قَالَ ﷺ ﴿ أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ، وَأَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ ﴾[3]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَفِي أَوَّلِ حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: ﴿ أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[4] وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ وَاثِلَةَ بْنِ الْأَسْقَعِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ ﴾[5].

[جَوَازُ التَّفْضِيلِ بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا إِذَا كَانَ عَلَى وَجْهِ الْحَمِيَّةِ]

فَإِنْ قِيلَ: يُشْكِلُ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷺ ﴿ لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَأَجِدُ مُوسَى بَاطِشًا بِسَاقِ الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي هَلْ أَفَاقَ

---

(١) البخاري الجهاد والسير (٢٨١٥) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣) ، الترمذي السير (١٥٥٣) ، النسائي الجهاد (٣٠٨٩) ، ابن ماجه الطهارة وسننها (٥٦٧) ، أحمد (٢/٤١٢) .

(٢) سورة آل عِمْرَان آية ٣١ .

(٣) مسلم الفضائل (٢٢٧٨) ، أحمد (٢/٥٤٠) .

(٤) البخاري تفسير القرآن (٤٤٣٥) ، مسلم الإيمان (١٩٤) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٤) .

(٥) مسلم الفضائل (٢٢٧٦) ، الترمذي المناقب (٣٦٠٦) ، أحمد (٤/١٠٧) .

قبلي، أو كان ممن استثنى الله؟» [1] خرجاه في الصحيحين، فكيف يجمع بين هذا وبين قوله «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» [2].

فالجواب: أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودي: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فلطمه مسلم، وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي فاشتكى من المسلم الذي لطمه، فقال النبي ﷺ هذا، لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذموما، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذموما، فإن الله حرم الفخر، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ ﴾ [3]. وقال تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ ۚ ﴾ [4] فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول. وعلى هذا يحمل أيضا قوله ﷺ «لا تفضلوا بين الأنبياء» [5]، إن كان ثابتا، فإن هذا قد روي في نفس حديث موسى، وهو في البخاري وغيره. لكن بعض الناس يقول: إن فيه علة، بخلاف حديث موسى، فإنه صحيح لا علة فيه باتفاقهم.

---

(١) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٣٣) ، مسلم الفضائل (٢٣٧٣) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٤٥) ، أبو داود السنة (٤٦٧١) ، أحمد (٢/٢٦٤) .

(٢) الترمذي تفسير القرآن (٣١٤٨) ، ابن ماجه الزهد (٤٣٠٨) .

(٣) سورة الإسراء آية ٥٥ .

(٤) سورة البقرة آية ٢٥٣ .

(٥) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٣٣) ، مسلم الفضائل (٢٣٧٣) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٤٥) ، أبو داود السنة (٤٦٧١) ، أحمد (٢/٢٦٤) .

وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُهُمْ بِجَوَابٍ آخَرَ، وَهُوَ: أن قَوْلَهُ ﷺ ﴿ لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى مُوسَى ﴾ ، وَقَوْلَهُ: ﴿ لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ ﴾ [(١)] نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ الْخَاصِ، أَيْ: لَا يُفَضِّلُ بَعْضُ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ بِعَيْنِهِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: ﴿ أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ ﴾ [(٢)] فَإِنَّهُ تَفْضِيلٌ عَامٌ فَلَا يُمْنَعُ مِنْهُ. وَهَذَا كَمَا لَوْ قِيلَ: فُلَانٌ أَفْضَلُ أَهْلِ الْبَلَدِ، لَا يَصْعُبُ عَلَى أَفْرَادِهِمْ، بِخِلَافِ مَا لَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ: فُلَانٌ أَفْضَلُ مِنْكَ. ثُمَّ إِنِّي رَأَيْتُ الطَّحَاوِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ قَدْ أَجَابَ بِهَذَا الْجَوَابِ فِي شَرْحِ مَعَانِي الْآثَارِ.

وَأَمَّا مَا يُرْوَى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: ﴿ لَا تُفَضِّلُونِي عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى ﴾ [(٣)] ، وَأَنَّ بَعْضَ الشُّيُوخِ قَالَ: لَا يُفَسَّرُ لَهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ حَتَّى يُعْطَى مَالًا جَزِيلًا، فَلَمَّا أَعْطَوْهُ فَسَّرَهُ بِأَنَّ قُرْبَ يُونُسَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ كَقُرْبِي مِنَ اللَّهِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ وَعَدُّوا هَذَا تَفْسِيرًا عَظِيمًا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى جَهْلِهِمْ بِكَلَامِ اللَّهِ وَبِكَلَامِ رَسُولِهِ لَفْظًا وَمَعْنًى، فَإِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ بِهَذَا اللَّفْظِ لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ الَّتِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهَا، وَإِنَّمَا اللَّفْظُ الَّذِي فِي الصَّحِيحِ: ﴿ لَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى ﴾ [(٤)]. وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿ مَنْ قَالَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ ﴾ [(٥)]. وَهَذَا اللَّفْظُ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُفَضِّلَ نَفْسَهُ عَلَى يُونُسَ بْنِ مَتَّى، لَيْسَ فِيهِ نَهْيُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُفَضِّلُوا مُحَمَّدًا عَلَى

---

(١) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٣٣) ، مسلم الفضائل (٢٣٧٣) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٤٥) ، أبو داود السنة (٤٦٧١) ، أحمد (٢/٢٦٤) .

(٢) الترمذي تفسير القرآن (٣١٤٨) ، ابن ماجه الزهد (٤٣٠٨) .

(٣) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢١٥) ، مسلم الفضائل (٢٣٧٧) ، أبو داود السنة (٤٦٦٩) ، أحمد (١/٣٤٢) .

(٤) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢١٥) ، مسلم الفضائل (٢٣٧٧) ، أبو داود السنة (٤٦٦٩) ، أحمد (١/٣٤٢) .

(٥) البخاري تفسير القرآن (٤٣٢٨) ، مسلم الفضائل (٢٣٧٣) ، أحمد (٢/٤٦٨) .

يونس، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهو مليم، أي: فاعل ما يلام عليه. وقال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [1] فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام، إذ لا يفعل ما يلام عليه. ومن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس: ﴿ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [2] كما قال أول الأنبياء وآخرهم، فأولهم: آدم، قد قال: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [3] وآخرهم وأفضلهم وسيدهم: محمد ﷺ قال في الحديث الصحيح، حديث الاستفتاح، من رواية علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره، بعد قوله (وجهت وجهي) إلى آخره: ﴿ اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، لا يغفر الذنوب إلا أنت ﴾ [4]، إلى آخر الحديث، وكذا قال موسى عليه السلام: ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ ﴾ [5] وأيضًا: فيونس ﷺ لما قيل فيه: ﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [6] فنهى نبينا ﷺ عن التشبه به، وأمره بالتشبه بأولي العزم

---

(١) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٨٧ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٣ .

(٤) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١) ، الترمذي الدعوات (٣٤٢٣) ، النسائي الافتتاح (٨٩٧) ، أبو داود الصلاة (٧٦٠) ، أحمد (١٠٣/١) ، الدارمي الصلاة (١٢٣٨) .

(٥) سورة القصص آية ١٦ .

(٦) سورة القلم آية ٤٨ .

حيث قيل له: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (١) فقد يقول من يقول: أنا خير من يونس: وليس للأفضل أن يفخر على من دونه، فكيف إذا لم يكن أفضل، فإن الله لا يحب كل مختال فخور، وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: « أوحي إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد » (٢). فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين، فكيف على نبي كريم؟ فلهذا قال: « لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى » (٣). فهذا نهي عام لكل أحد أن يتفضل ويفتخر على يونس. وقوله: « من قال إني خير من يونس بن متى فقد كذب » (٤)، فإنه لو قدر أنه كان أفضل، فهذا الكلام يصير نقصا، فيكون كاذبا، وهذا لا يقوله نبي كريم، بل هو تقدير مطلق، أي: من قال هذا فهو كاذب، وإن كان لا يقوله نبي، كما قال تعالى: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ (٥) وإن كان ﷺ معصوما من الشرك، لكن الوعد والوعيد لبيان مقادير الأعمال.

وإنما أخبر ﷺ أنه سيد ولد آدم، لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره، إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله، كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله، صلى الله عليهم وسلم أجمعين. ولهذا أتبعه بقوله ولا فخر، كما جاء في رواية. وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر: أن مقام الذي أسري به إلى ربه وهو مقرب معظم مكرم - كمقام الذي ألقي في بطن الحوت وهو مليم؟! وأين المعظم المقرب من الممتحن المؤدب؟! فهذا في غاية

---

(١) سورة الأحقاف آية ٣٥ .

(٢) أبو داود الأدب (٤٨٩٥) ، ابن ماجه الزهد (٤١٧٩) .

(٣) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢١٥) ، مسلم الفضائل (٢٣٧٧) ، أبو داود السنة (٤٦٦٩) ، أحمد (٣٤٢/١) .

(٤) البخاري تفسير القرآن (٤٣٢٨) ، مسلم الفضائل (٢٣٧٣) ، أحمد (٤٦٨/٢) .

(٥) سورة الزمر آية ٦٥ .

التقْرِيبِ، وَهَذَا فِي غَايَةِ التأْدِيبِ. فَانْظُرْ إِلى هَذَا الاسْتِدْلَالِ، لِأنهُ بِهَذَا الْمَعْنى الْمُحَرفِ لِلفْظِ لَمْ يَقُلْهُ الرسُولُ، وَهَلْ يُقَاوِمُ هَذَا الدلِيلُ عَلى نَفْيِ عُلُو اللهِ تَعَالى عَنْ خَلْقِهِ الْأدِلةَ الصحِيحَةَ الصرِيحَةَ الْقَطْعِيةَ عَلى عُلُو اللهِ تَعَالى عَلى خَلْقِهِ، التِي تَزِيدُ عَلى أَلْفِ دَلِيلٍ، كَمَا يَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا عِنْدَ قَوْلِ الشيْخِ رَحِمَهُ اللهُ (مُحِيطٌ بِكُل شَيْءٍ وَفَوْقَهُ)، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى.

[ثُبوتُ الْخُلةِ لِنبينَا ﷺ]

قَوْلُهُ: (وَحَبِيبُ رَب الْعَالَمِينَ).

ش: ثَبتَ لَهُ ﷺ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْمَحبةِ، وَهِيَ الْخُلةُ، كَمَا صَح عَنْهُ ﷺ أَنهُ قَالَ: ﴿إِن اللهَ اتخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا. وَقَالَ: وَلَوْ كُنتُ مُتخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِن صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرحْمَنِ﴾ [(١)]. وَالْحَدِيثَانِ فِي الصحِيحِ وَهُمَا يُبْطِلَانِ قَوْلَ مَنْ قَالَ: الْخُلةُ لِإِبْرَاهِيمَ وَالْمَحَبةُ لِمُحَمدٍ، فَإِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ اللهِ وَمُحَمدٌ حَبِيبُهُ. وَفِي الصحِيحِ أَيْضًا: ﴿إِني أَبْرَأُ إِلَى كُل خَلِيلٍ مِنْ خُلتِهِ﴾ [(٢)]. وَالْمَحَبةُ قَدْ ثَبَتَتْ لِغَيْرِهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤ ﴾ [(٣)]. ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧٦ ﴾ [(٤)]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢ ﴾ [(٥)].

فَبَطَلَ قَوْلُ مَنْ خَص الْخُلةَ بِإِبْرَاهِيمَ وَالْمَحَبةَ بِمُحَمدٍ، بَلِ الْخُلةُ خَاصةٌ بِهِمَا، وَالْمَحَبةُ عَامةٌ. وَحَدِيثُ ابْنِ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ الذِي رَوَاهُ الترْمِذِي الذِي فِيهِ: ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ خَلِيلُ اللهِ، أَلَا وَأَنَا حَبِيبُ اللهِ وَلَا فَخْرَ﴾ [(٦)] : لَمْ يَثْبُتْ. [(٧)].

---

(١) البخاري الصلاة (٤٥٤) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٨٢) ، الترمذي المناقب (٣٦٦٠) ، أحمد (١٨/٣) .

(٢) مسلم فضائل الصحابة (٢٣٨٣) ، الترمذي المناقب (٣٦٥٥) ، ابن ماجه المقدمة (٩٣) ، أحمد (٣٨٩/١) .

(٣) سورة آل عمران آية : ١٣٤ .

(٤) سورة آل عمران آية : ٧٦ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٢٢ .

(٦) الترمذي المناقب (٣٦١٦) ، الدارمي المقدمة (٤٧) .

(٧) هذا جزء من حديث طويل ، رواه الدارمي في سننه ١ / ٢٦ ، عن عبيد الله بن عبد الـيد ، عن زمعة بن صالح ، عن سلمة بن وهرام ، عن عكرمة ، عن ابن عباس . ورواه الترمذي ٤ / ٢٩٤-٢٩٥ ، عن علي بن نصر بن علي الجهضمي ، عن عبيدالله بن عبدالـيد . بذا الإسناد ، وقال : " هذا حديث غريب " . وحق للشارح رحمه الله أن يقول هنا إنه " لم يثبت " - لأن زمعة بن صالح راويه : ضعيف .

[مَرَاتِبُ الْمَحَبةِ]

وَالْمَحَبةُ مَرَاتِبُ:

أولُها: الْعَلَاقَةُ، وَهِيَ تَعَلقُ الْقَلْبِ بِالْمَحْبُوبِ. وَالثانِيَةُ: الْإِرَادَةُ، وَهِيَ مَيْلُ الْقَلْبِ إِلَى مَحْبُوبِهِ وَطَلَبُهُ لَهُ. الثالِثَةُ: الصبَابَةُ، وَهِيَ انْصِبَابُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ بِحَيْثُ لَا يَمْلِكُهُ صَاحِبُهُ، كَانْصِبَابِ الْمَاءِ فِي الْحُدُورِ.

الرابِعَةُ: الْغَرَامُ، وَهِيَ الْحُب اللازِمُ لِلْقَلْبِ، وَمِنْهُ الْغَرِيمُ، لِمُلَازَمَتِهِ، وَمِنْهُ: ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (١) الْخَامِسَةُ: الْمَوَدةُ، وَالْوُد، وَهِيَ صَفْوُ الْمَحَبةِ وَخَالِصُهَا وَلُبهَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ (٢). السادِسَةُ: الشغَفُ، وَهِيَ وُصُولُ الْمَحَبةِ إِلَى شَغَافِ الْقَلْبِ. السابِعَةُ: الْعِشْقُ: وَهُوَ الْحُب الْمُفْرِطُ الذِي يُخَافُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنْهُ، وَلَكِنْ لَا يُوصَفُ بِهِ الرب تَعَالَى وَلَا الْعَبْدُ فِي مَحَبةِ رَبهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ أَطْلَقَهُ بَعْضُهُمْ. وَاخْتُلِفَ فِي سَبَبِ الْمَنْعِ، فَقِيلَ: عَدَمُ التوْقِيفِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. وَلَعَل امْتِنَاعَ إِطْلَاقِهِ: أَن الْعِشْقَ مَحَبةٌ مَعَ شَهْوَةٍ. الثامِنَةُ: التيْمُ، وَهُوَ بِمَعْنَى التعَبدِ (٣). التاسِعَةُ: التعَبدُ. الْعَاشِرَةُ: الْخُلةُ، وَهِيَ الْمَحَبةُ التِي تَخَللَتْ رُوحَ الْمُحِب وَقَلْبَهُ. وَقِيلَ فِي تَرْتِيبِهَا غَيْرُ ذَلِكَ. وَهَذَا الترْتِيبُ تَقْرِيبٌ حَسَنٌ، يُعْرَفُ حُسْنُهُ بِالتأَملِ فِي مَعَانِيهِ.

وَاعْلَمْ أَن وَصْفَ اللهِ تَعَالَى بِالْمَحَبةِ وَالْخُلةِ هُوَ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِ اللهِ تَعَالَى وَعَظَمَتِهِ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ تَعَالَى، وَإِنمَا يُوصَفُ اللهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ بِالْإِرَادَةِ وَالْوُد وَالْمَحَبةِ وَالْخُلةِ، حَسْبَمَا وَرَدَ النص.

---

(١) سورة الْفُرْقَان آية ٦٥ .

(٢) سورة مَرْيَم آية ٩٦ .

(٣) التيم بفتح التاء وسكون الياء . وفي المطبوعة " التقسيم " وهو خلط .

وَقَدِ اخْتُلِفَ فِي تَحْدِيدِ الْمَحَبةِ عَلَى أَقْوَالٍ، نَحْوَ ثَلَاثِينَ قَوْلًا. وَلَا تُحَد الْمَحَبةُ بِحَد أَوْضَحَ مِنْهَا، فَالْحُدُودُ لَا تَزِيدُهَا إلا خَفَاءً. وَهَذِهِ الْأَشْيَاءُ الْوَاضِحَةُ لَا تَحْتَاجُ إِلَى تَحْدِيدٍ، كَالْمَاءِ وَالْهَوَاءِ وَالترَابِ وَالْجُوعِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

[كُل مَن ادعَى النُبوةَ بَعْدَهُ ﷺ كَاذِبٌ]

قَوْلُهُ: (وَكُل دَعْوَى النُبوةِ[1] بَعْدَهُ فَغَي وَهَوًى)

ش: لما ثَبتَ أنهُ خَاتَمُ النِبيينَ، عُلِمَ أن مَن ادعَى بَعْدَهُ النُبوةَ فَهُوَ كَاذِبٌ. وَلَا يُقَالُ: فَلَوْ جَاءَ الْمُدعِي لِلنُبوةِ بِالْمُعْجِزَاتِ الْخَارِقَةِ وَالْبَرَاهِينِ الصادِقَةِ كَيْفَ يُقَالُ بِتَكْذِيبِهِ؟ لِأَنا نَقُولُ: هَذَا لَا يُتَصَورُ أَنْ يوجَدَ، وَهُوَ مِنْ بَابِ فَرْضِ الْمُحَالِ، لِأَن اللهَ تَعَالَى لما أَخْبَرَ أَنهُ خَاتَمُ النِبيينَ، فَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَأْتِيَ مُدعٍ يَدعِي النُبوةَ وَلَا يُظْهِرُ إِمَارَةَ كَذِبِهِ فِي دَعْوَاهُ. وَالْغَي: ضِد الرشَادِ. وَالْهَوَى: عِبَارَةٌ عَنْ شَهْوَةِ النفْسِ. أَيْ: أَن تِلْكَ الدعْوَى بِسَبَبِ هَوَى النفْسِ، لَا عَنْ دَلِيلٍ، فَتَكُونُ بَاطِلَةً.

(١) في المطبوعة " دعوة " وهو خطأ واضح .

[عُمُومُ بِعْثَتِهِ ﷺ]

[عُمُومُ بِعْثَتِهِ ﷺ لِلْإِنسِ وَالْجِنِ]

قَوْلُهُ: (وَهُوَ الْمَبْعُوثُ إِلَى عَامةِ الْجِن وَكَافةِ الْوَرَى، بِالْحَق وَالْهُدَى، وَبِالنورِ وَالضيَاءِ).

ش: أما كَوْنه مَبْعُوثًا إِلَى عَامةِ الْجِن، فَقَال تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ قَوْلِ الْجِن: ﴿ يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ ﴾ [1] وَكَذَا سُورَةُ الْجِن تَدُل عَلَى أنهُ أُرْسِلَ إِلَيهِمْ أيضًا. قَالَ مُقَاتِلٌ: لَمْ يَبْعَثِ اللهُ رَسُولًا إِلَى الْإِنسِ وَالْجِن قَبْلَهُ. وَهَذَا قَوْلٌ بَعِيدٌ. فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [2] وَالرسُلُ مِنَ الْإِنسِ فَقَط، وَلَيْسَ مِنَ الْجِن رَسُولٌ، كَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ مِنَ السلَفِ وَالْخَلَفِ. وَقَالَ ابْنُ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: الرسُلُ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَمِنَ الْجِن نُذُرٌ. وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةً عَنِ الْجِن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ [3] يَدُل عَلَى أن مُوسَى مُرْسَلٌ إِلَيهِمْ أيضًا. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَحَكَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الضحاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ: أنهُ زَعَمَ أن فِي الْجِن رُسُلًا، وَاحْتَج بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ. وَفِي الِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى ذَلِكَ نَظَرٌ لِأنهَا مُحْتَمَلَةٌ وَلَيْسَتْ بِصَرِيحَةٍ، وَهِيَ - وَاللهُ أَعْلَمُ - كَقَوْلِهِ: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ ﴾ [4] وَالْمُرَادُ: مِنْ أحَدِهِمَا.

وَأما كَوْنه مَبْعُوثًا إِلَى كَافةِ الْوَرَى، فَقَدْ قَالَ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [5] وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [1]

---

(١) سورة الْأَحْقَافِ آية ٣١ .

(٢) سورة الْأَنعَامِ آية ١٣٠ .

(٣) سورة الْأَحْقَافِ آية ٣٠ .

(٤) سورة الرحْمَن آية ٢٢ .

(٥) سورة سَبَإٍ آية ٢٨ .

وقال تعالى: ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ (٢) أي: وأنذر من بلغه. وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ ﴾ (٤) الآية. وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (٥) وقد قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ ﴾ (٦)

وقال ﷺ ﴿ أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ويعثت إلى الناس عامة ﴾ (٧) ، أخرجاه في الصحيحين.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٢٨ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٩ .

(٣) سورة النساء آية ٣٩ .

(٤) سورة يونس آية ٢ .

(٥) سورة الفرقان آية ١ .

(٦) سورة آل عمران آية ٢٠ .

(٧) البخاري التيمم (٣٢٨) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١) ، النسائي الغسل والتيمم (٤٣٢) ، أحمد (٣٠٤/٣) ، الدارمي الصلاة (١٣٨٩) .

وَقَالَ ﷺ ﴿لَا يَسْمَعُ بِي رَجُلٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمةِ يَهُودِي وَلَا نَصْرَانِي ثُم لَا يُؤْمِنُ بِي إلا دَخَلَ النارَ﴾ [1] ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ. وَكَوْنُهُ ﷺ مَبْعُوثًا إِلَى الناسِ كَافةً مَعْلُومٌ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضرُورَةِ.

وَأَما قَوْلُ بَعْضِ النصَارَى أَنهُ رَسُولٌ إِلَى الْعَرَبِ خَاصةً: فَظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، فَإِنهُمْ لَما صَدقُوا بِالرسَالَةِ لَزِمَهُمْ تَصْدِيقُهُ فِي كُل مَا يُخْبِرُ بِهِ، وَقَدْ قَالَ أَنهُ رَسُولُ اللهِ إِلَى الناسِ عَامةً، وَالرسُولُ لَا يَكْذِبُ، فَلَزِمَ تَصْدِيقُهُ حَتْمًا، فَقَدْ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَبَعَثَ كُتُبَهُ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ إِلَى كِسْرَى وَقَيْصَرَ وَالنجَاشِي وَالْمُقَوْقِسِ وَسَائِرِ مُلُوكِ الْأَطْرَافِ، يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ.

[اخْتِلَافُ أَهْلِ الْعَرَبِيةِ فِي إِعْرَابِ "كَافةٍ"]

وَقَوْلُهُ: (وَكَافةِ الْوَرَى) فِي جَر (كَافةِ) نَظَرٌ، فَإِنهُمْ قَالُوا: لَمْ تُسْتَعْمَلْ كَافةٌ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ إِلا حَالًا، وَاخْتَلَفُوا فِي إِعْرَابِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [2] عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنهَا حَالٌ مِنَ الْكَافِ فِي أَرْسَلْنَاكَ وَهِيَ اسْمُ فَاعِلٍ وَالتاءُ فِيهَا لِلْمُبَالَغَةِ، أَيْ: إِلا كَافا لِلناسِ عَنِ الْبَاطِلِ، وَقِيلَ: هِيَ مَصْدَرٌ كف في المطبوعة "فيه" بدل "فهي"! ولا يستقيم با سياق الكلام.، فَهِيَ بِمَعْنَى كَفا أَيْ: إِلا أَنْ تَكُف الناسَ كَفا، وَوُقُوعُ الْمَصْدَرِ حَالًا كَثِيرٌ. الثانِي: أَنهَا حَالٌ مِنَ الناسِ. وَاعْتُرِضَ بِأَن حَالَ الْمَجْرُورِ لَا يَتَقَدمُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَأُجِيبَ بِأَنهُ قَدْ جَاءَ عَنِ الْعَرَبِ كَثِيرًا فَوَجَبَ قَبُولُهُ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللهُ، أَيْ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا لِلناسِ كَافةً. الثالِثُ: أَنهَا صِفَةٌ لِمَصْدَرٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ: إِرْسَالَةً كَافةً. وَاعْتُرِضَ بِمَا تَقَدمَ أَنهَا لَمْ تُسْتَعْمَلْ إِلا حَالًا.

---

(١) مسلم الإيمان (١٥٣) ، أحمد (٣١٧/٢) .

(٢) سورة سَبإٍ آية ٢٨ .

وَقَوْلُهُ: (بِالْحَق وَالْهُدَى وَبِالنورِ وَالضيَاءِ). هَذِهِ أَوْصَافُ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الدينِ وَالشرْعِ الْمُؤيدِ بِالْبَرَاهِينِ الْباهِرَةِ مِنَ الْقُرآنِ وَسَائِرِ الْأَدِلةِ. وَالضيَاءُ: أَكْمَلُ مِنَ النورِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾[1].

(١) سورة يُونُسَ آية ٥ .

[الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ]

قَوْلُهُ: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ، مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا، وَأَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَحْيًا، وَصَدَّقَهُ الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا، وَأَيْقَنُوا أَنَّهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ، لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيَّةِ. فَمَنْ سَمِعَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ كَلَامُ الْبَشَرِ فَقَدْ كَفَرَ، وَقَدْ ذَمَّهُ اللهُ وَعَابَهُ وَأَوْعَدَهُ بِسَقَرَ حَيْثُ قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ ﴾[1] - فَلَمَّا أَوْعَدَ اللهُ بِسَقَرَ لِمَنْ قَالَ: ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾[2] عَلِمْنَا وَأَيْقَنَّا أَنَّهُ قَوْلُ خَالِقِ الْبَشَرِ، وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ).

ش: هَذِهِ قَاعِدَةٌ شَرِيفَةٌ، وَأَصْلٌ كَبِيرٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، ضَلَّ فِيهِ طَوَائِفُ كَثِيرَةٌ مِنَ النَّاسِ. وَهَذَا الَّذِي حَكَاهُ الطَّحَاوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ هُوَ الْحَقُّ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لِمَنْ تَدَبَّرَهُمَا، وَشَهِدَتْ بِهِ الْفِطْرَةُ السَّلِيمَةُ الَّتِي لَمْ تُغَيَّرْ بِالشُّبُهَاتِ وَالشُّكُوكِ وَالْآرَاءِ الْبَاطِلَةِ.

[افْتِرَاقُ النَّاسِ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ عَلَى تِسْعَةِ أَقْوَالٍ]

وَقَدِ افْتَرَقَ النَّاسُ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ عَلَى تِسْعَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَّ كَلَامَ اللهِ هُوَ مَا يَفِيضُ عَلَى النُّفُوسِ مِنْ مَعَانِي، إِمَّا مِنَ الْعَقْلِ الْفَعَّالِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، أَوْ مِنْ غَيْرِهِ، وَهَذَا قَوْلُ الصَّابِئَةِ وَالْمُتَفَلْسِفَةِ.

وَثَانِيهَا: أَنَّهُ مَخْلُوقٌ خَلَقَهُ اللهُ مُنْفَصِلًا عَنْهُ، وَهَذَا قَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ.

وَثَالِثُهَا: أَنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِذَاتِ اللهِ، هُوَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْخَبَرُ وَالِاسْتِخْبَارُ، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ قُرْآنًا، وَإِنْ عُبِّرَ عَنْهُ بِالْعِبْرِيَّةِ كَانَ تَوْرَاةً، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كِلَابٍ وَمَنْ وَافَقَهُ، كَالْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ.

---

(١) سورة الْمُدثر آية ٢٦ .

(٢) سورة الْمُدثر آية ٢٥ .

وَرَابِعُهَا: أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ أَزَلِيَّةٌ مُجْتَمِعَةٌ فِي الْأَزَلِ، وَهَذَا قَوْلُ طَائِفَةٍ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَمِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَخَامِسُهَا: أَنَّهُ حُرُوفٌ وَأَصْوَاتٌ، لَكِنْ تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهَا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلِّمًا، وَهَذَا قَوْلُ الْكَرَّامِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

وَسَادِسُهَا: أَنَّ كَلَامَهُ يَرْجِعُ إِلَى مَا يُحْدِثُهُ مِنْ عِلْمِهِ وَإِرَادَتِهِ الْقَائِمِ بِذَاتِهِ، وَهَذَا يَقُولُهُ صَاحِبُ الْمُعْتَبَرِ، وَيَمِيلُ إِلَيْهِ الرَّازِيُّ فِي الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ.

وَسَابِعُهَا: أَنَّ كَلَامَهُ يَتَضَمَّنُ مَعْنًى قَائِمًا بِذَاتِهِ هُوَ مَا خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِيِّ.

وَثَامِنُهَا: أَنَّهُ مُشْتَرَكٌ بَيْنَ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ الْقَائِمِ بِالذَّاتِ وَبَيْنَ مَا يَخْلُقُهُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَصْوَاتِ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي الْمَعَالِي وَمَنْ تَبِعَهُ.

وَتَاسِعُهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِهِ بِصَوْتٍ يُسْمَعُ، وَأَنَّ نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الصَّوْتُ الْمُعَيَّنُ قَدِيمًا، وَهَذَا الْمَأْثُورُ عَنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ.

وَقَوْلُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ). إِنَّ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ - عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: (إِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ) ثُمَّ قَالَ: (وَإِنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ الْمُصْطَفَى). وَكَسْرُ هَمْزَةِ إِنَّ فِي الْمَوَاضِعِ الثَّلَاثَةِ، لِأَنَّهَا مَعْمُولُ الْقَوْلِ، أَعْنِي قَوْلَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ: (نَقُولُ فِي تَوْحِيدِ اللَّهِ).

وَقَوْلُهُ: (كَلَامُ اللَّهِ مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيَّةٍ قَوْلًا): -رَدٌّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ. فَإِنَّ الْمُعْتَزِلَةَ تَزْعُمُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ حِكَايَةُ قَوْلِهِمْ، قَالُوا: وَإِضَافَتُهُ إِلَيْهِ إِضَافَةُ تَشْرِيفٍ، كَبَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ! وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ.

فَإِنَّ الْمُضَافَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَعَانٍ وَأَعْيَانٌ، فَإِضَافَةُ الْأَعْيَانِ إِلَى اللَّهِ لِلتَّشْرِيفِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ لَهُ، كَبَيْتِ اللَّهِ، وَنَاقَةِ اللَّهِ، بِخِلَافِ إِضَافَةِ الْمَعَانِي، كَعِلْمِ اللَّهِ، وَقُدْرَتِهِ، وَعِزَّتِهِ،

وَجَلَالِهِ، وَكِبْرِيَائِهِ، وَكَلَامِهِ، وَحَيَاتِهِ، وَعُلُوِهِ، وَقَهْرِهِ - فَإِن هَذَا كُلُّهُ مِنْ صِفَاتِهِ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ مَخْلُوقًا.

[مَذْهَبُ أَهْلِ السنةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي صِفَةِ الْكَلَامِ]

وَالْوَصْفُ بِالتكلمِ مِنْ أَوْصَافِ الْكَمَالِ، وَضِدُهُ مِنْ أَوْصَافِ النقْصِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ﴾ (١) فَكَانَ عُبادُ الْعِجْلِ - مَعَ كُفْرِهِمْ - أَعْرَفَ بِاللهِ مِنَ الْمُعْتزِلَةِ، فَإِنهُمْ لَمْ يَقُولُوا لِمُوسَى: وَربكَ لَا يَتكلمُ أَيضًا. وَقَالَ تَعَالَى عَنِ الْعِجْلِ أَيضًا: ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ﴾ (٢) فَعُلِمَ أَن نَفْيَ رُجُوعِ الْقَوْلِ وَنَفْيَ التكلمِ نَقْصٌ يُسْتَدَلُ بِهِ عَلَى عَدَمِ أُلُوهِيةِ الْعِجْلِ.

وَغَايَةُ شُبْهَتِهِمْ أَنهُمْ يَقُولُونَ: يَلْزَمُ مِنْهُ التشْبِيهُ وَالتجْسِيمُ؟ فَيُقَالُ لَهُمْ: إِذَا قُلْنا أَنهُ تَعَالَى يَتكلمُ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ انْتفَتْ شُبْهَتُهُمْ. أَلَا تَرى أَنهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ﴾ (٣) فَنَحْنُ نُؤْمِنُ أَنهَا تَتكلمُ، وَلَا نَعْلَمُ كَيْفَ تَتكلمُ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ (٤) وَكَذَلِكَ تَسْبِيحُ الْحَصَا وَالطعَامِ، وَسَلَامُ الْحَجَرِ، كُل ذَلِكَ بِلَا فَمٍ يَخْرُجُ مِنْهُ الصوْتُ الصاعِدُ مِنَ الرئَةِ، الْمُعْتَمِدُ عَلَى مَقَاطِعِ الْحُرُوفِ.

وَإِلَى هَذَا أَشَارَ الشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: (مِنْهُ بَدَا بِلَا كَيْفِيةٍ قَوْلًا)، أَيْ: ظَهَرَ مِنْهُ وَلَا نَدْرِي كَيْفِيةَ تَكلمِهِ بِهِ. وَأَكدَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ (قَوْلًا)، أَتى بِالْمَصْدَرِ الْمُعَرفِ لِلْحَقِيقَةِ،

---

(١) سورة الْأَعْرَاف آية ١٤٨ .

(٢) سورة طه آية ٨٩ .

(٣) سورة يس آية ٦٥ .

(٤) سورة فُصلَتْ آية ٢١ .

كَمَا أكدَ اللهُ تَعالى التكْلِيمَ بِالْمَصْدَرِ الْمُثْبِتِ النافي لِلْمَجَازِ في قَوْلِه: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ ﴾ (١) فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِ إلا الضلَالُ؟!

وَلَقَدْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِأبِي عَمْرِو بْنِ الْعَلَاءِ - أحَدِ الْقُرَاءِ السبْعَةِ: أُرِيدُ أَنْ تَقْرَأ: وَكلمَ اللهَ مُوسَى، بِنَصْبِ اسْمِ اللهِ، لِيَكُونَ موسَى هُوَ الْمُتَكلمَ لَا اللهُ! فَقَالَ أَبُو عَمْرٍو: هَبْ أني قَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ كَذَا، فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ (٢) ؟! فَبهتَ الْمُعْتَزِلي !

[ثُبوتُ تَكْلِيمِ اللهِ لِأَهْلِ الْجَنةِ وَغَيْرِهِمْ]

وَكَمْ فِي الْكِتَابِ وَالسنةِ مِنْ دَلِيلٍ عَلَى تَكْلِيمِ اللهِ تَعَالَى لِأهْلِ الْجَنةِ وَغَيْرِهِمْ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٣) فَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿بَيْنَا أَهْلُ الْجَنةِ فِي نَعِيمٍ إِذْ سَطَعَ لَهُمْ نُورٌ، فَرَفَعُوا أَبْصَارَهُمْ، فَإِذَا الرب جَل جَلَالُهُ قَدْ أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ فَوْقِهِمْ، فَقَالَ: السلَامُ عَلَيْكُمْ يَا أَهْلَ الْجَنةِ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٤) فَلَا يَلْتَفِتُونَ إِلَى شَيْءٍ مِما هُمْ فِيهِ مِنَ النعِيمِ، مَا دَامُوا يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، حَتى يَحْتَجِبَ عَنْهُمْ، وَتَبْقَى بَرَكَتُهُ وَنُورُهُ﴾ . رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَغَيْرُهُ. فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْكَلَامِ، وَإِثْبَاتُ الرؤْيَةِ، وَإِثْبَاتُ الْعُلُو، وَكَيْفَ يَصِح مَعَ هَذَا أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الرب كُلهُ مَعْنًى وَاحِدًا، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ

---

(١) سورة النسَاءِ آية ١٦٤ .

(٢) سورة الْأَعْرَافِ آية ١٤٣ .

(٣) سورة يس آية ٥٨ .

(٤) سورة يس آية ٥٨ .

﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ﴾ [1] فأهانهم بترك تكليمهم، والمراد أنه لا يكلمهم تكليم تكريم، وهو الصحيح، إذ قد أخبر في الآية الأخرى أنه يقول لهم في النار: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾ [2] فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين، لكانوا في ذلك هم وأعداؤه سواء، ولم يكن في تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدة أصلًا. وقال البخاري في صحيحه: باب كلام الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة، وساق فيه عدة أحاديث. فأفضل نعيم أهل الجنة رؤية وجهه تبارك وتعالى، وتكليمه لهم. فإنكار ذلك إنكار لروح الجنة. وأعلى نعيمها وأفضله الذي ما طابت لأهلها إلا به.

[كلامُ اللهِ صفةٌ له وليس بمخلوقٍ]

وأما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [3] والقرآن شيء، فيكون داخلًا في عموم كل فيكون مخلوقًا!! فمن أعجب العجب. وذلك: أن أفعال العباد كلها عندهم غير مخلوقة لله تعالى، وإنما يخلقها العباد جميعها، لا يخلقها الله فأخرجوها من عموم كل، وأدخلوا كلام الله في عمومها، مع أنه صفة من صفاته، به تكون الأشياء المخلوقة، إذ بأمره تكون المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [4] ففرق بين الخلق والأمر، فلو كان الأمر مخلوقًا لزم أن يكون مخلوقًا بأمر آخر، والآخر بآخر، إلى ما لا نهاية له، فيلزم التسلسل، وهو باطل. وطرد باطلهم: أن تكون جميع صفاته تعالى مخلوقة، كالعلم والقدرة

---

(١) سورة آل عمران آية ٧٧

(٢) سورة المؤمنون آية ١٠٨ .

(٣) سورة الرعد آية ١٦ .

(٤) سورة الأعراف آية ٥٤ .

وَغيرِهِمَا، وَذَلِكَ صَرِيحُ الْكُفْرِ، فَإِن عِلْمَهُ شَيْءٌ، وَقُدْرَتَهُ شَيْءٌ، وَحَيَاتَهُ شَيْءٌ، فَيَدْخُلُ ذَلِكَ فِي عُمُومِ كُل، فَيَكُونُ مَخْلُوقًا بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، تَعَالَى اللهُ عَما يَقُولُونَ عُلُوا كَبِيرًا.

وَكَيْفَ يَصِح أَنْ يَكُونَ مُتَكَلمًا بِكَلَامٍ يَقُومُ بِغَيْرِهِ؟ وَلَوْ صَح ذَلِكَ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مَا أَحْدَثَهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي الْجَمَادَاتِ كَلَامَهُ! وَكَذَلِكَ أَيْضًا مَا خَلَقَهُ فِي الْحَيَوَانَاتِ، لَا يُفَرقُ حِينَئِذٍ بَيْنَ نَطَقَ وَأَنْطَقَ. وَإِنمَا قَالَتِ الْجُلُودُ: ﴿ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ﴾ [1] وَلَمْ تَقُلْ: نَطَقَ اللهُ، بَلْ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ مُتَكَلمًا بِكُل كَلَامٍ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ، زُورًا كَانَ أَوْ كَذِبًا أَوْ كُفْرًا أَوْ هَذَيَانًا!! تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ. وَقَدْ طَرَدَ ذَلِكَ الِاتحَادِيةُ، فَقَالَ ابْنُ عَرَبِي:

وَكُل كَلَامٍ فِي الْوُجُودِ كَلَامُهُ ... سَوَاءٌ عَلَيْنَا نَثْرُهُ وَنِظَامُهُ!

وَلَوْ صَح أَنْ يُوصَفَ أَحَدٌ بِصِفَةٍ قَامَتْ بِغَيْرِهِ، لَصَح أَنْ يُقَالَ لِلْبَصِيرِ: أَعْمَى، وَلِلْأَعْمَى: بَصِيرٌ! لِأَن الْبَصِيرَ قَدْ قَامَ وَصْفُ الْعَمَى بِغَيْرِهِ، وَالْأَعْمَى قَدْ قَامَ وَصْفُ الْبَصَرِ بِغَيْرِهِ! وَلَصَح أَنْ يُوصَفَ اللهُ تَعَالَى بِالصفَاتِ التِي خَلَقَهَا فِي غَيْرِهِ، مِنَ الْأَلْوَانِ وَالروَائِحِ وَالطعُومِ وَالطولِ وَالْقِصَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

[دَحْضُ حُجَجِ الْمَرِيسِي فِي خَلْقِ الْقُرْآنِ]

وَبِمِثْلِ ذَلِكَ أَلْزَمَ الْإِمَامُ عَبْدُ الْعَزِيزِ الْمَكي [2] بِشْرًا الْمَرِيسِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَأْمُونِ بَعْدَ أَنْ تَكَلمَ مَعَهُ مُلْتَزِمًا أَنْ لَا يَخْرُجَ عَنْ نَص التنْزِيلِ، وَأَلْزَمَهُ الْحُجةَ، فَقَالَ بِشْرٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لِيَدَعْ مُطَالَبَتِي بِنَص التنْزِيلِ، وَيُنَاظِرْنِي بِغَيْرِهِ، فَإِنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَهُ وَيَرْجِعْ عَنْهُ، وَيُقِر بِخَلْقِ الْقُرْآنِ الساعَةَ وَإِلا فَدَمِي حَلَالٌ. قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: تَسْأَلُنِي أَمْ أَسْأَلُكَ؟ فَقَالَ

---

(١) سورة فُصلتْ آية ٢١ .

(٢) عبد العزيز المكي : هو عبد العزيز بن يحيى الكناني ، أحد الفقهاء من أصحاب الشافعي . قدم بغداد أيام المأمون ، وجرى بينه وبين بشر المريسي مناظرة في خلق القرآن بحضرة الخليفة المأمون ، وصنف كتاب " الحيدة " أثبت فيه نص مناظرته لبشر . ومات عبد العزيز الكناني سنة ٢٤٠ رحمه الله . وكتابه " الحيدة " طبع مرارًا ، آخرها بمطبعة الإمام بمصر ، بعناية الابن الفاضل الشيخ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل الشيخ ، في هذا العام ١٣٧٣هـ .

بِشْرٌ: اسْأَلْ [(١)] أَنتَ، وَطَمِعَ فِي قَتْلِهِ فَقُلْتُ لَهُ: يَلْزَمُكَ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلَاثٍ لَا بُدَّ مِنْهَا: إما أَنْ تَقُولَ: إن اللهَ خَلَقَ الْقُرْآنَ، وَهُوَ عِنْدِي أَنَا كَلَامُهُ - فِي نَفْسِهِ، أَوْ خَلَقَهُ قَائِمًا بِذَاتِهِ وَنَفْسِهِ، أَو خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ؟ قَالَ: أَقُولُ: خَلَقَهُ كَمَا خَلَقَ الْأَشْيَاءَ كُلَّهَا. وَحَادَ عَنِ الْجَوَابِ. فَقَالَ الْمَأْمُونُ: اشْرَحْ أَنتَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ، وَدَعْ بِشْرًا فَقَدِ انْقَطَعَ. فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ: إِنْ قَالَ خَلَقَ كَلَامَهُ فِي نَفْسِهِ، فَهَذَا مُحَالٌ، لِأَن اللهَ لَا يَكُونُ مَحَلًّا لِلْحَوَادِثِ الْمَخْلُوقَةِ، وَلَا يَكُونُ فِيهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ [(٢)] وَإِنْ قَالَ خَلَقَهُ فِي غَيْرِهِ فَيَلْزَمُ فِي النظَرِ وَالْقِيَاسِ أَن كُلَّ كَلَامٍ خَلَقَهُ اللهُ فِي غَيْرِهِ فَهُوَ كَلَامُهُ، فَهُوَ مُحَالٌ أَيضًا، لِأَنهُ يُلْزِمُ قَائِلَهُ أَنْ يَجْعَلَ كُلَّ كَلَامٍ خَلَقَهُ اللهُ فِي غَيْرِهِ - هُوَ كَلَامُ اللهِ! [(٣)] وَإِنْ قَالَ خَلَقَهُ قَائِمًا بِنَفْسِهِ وَذَاتِهِ، فَهَذَا مُحَالٌ: لَا يَكُونُ الْكَلَامُ إلا مِنْ مُتَكَلِّمٍ، كَمَا لَا تَكُونُ الْإِرَادَةُ إلا مِنْ مُرِيدٍ، وَلَا الْعِلْمُ إلا مِنْ عَالِمٍ، وَلَا يُعْقَلُ كَلَامٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ مُتَكَلِّمٌ [(٤)]. فَلَما اسْتَحَالَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَاتِ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقًا، عُلِمَ أَنهُ صِفَةٌ لِلهِ. هَذَا مُخْتَصَرٌ مِنْ كَلَامِ الْإِمَامِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي "الْحَيْدَةِ".

وَعُمُومُ كُلٍّ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ بِحَسَبِهِ، وَيُعْرَفُ ذَلِكَ بِالْقَرَائِنِ. أَلَا تَرى إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ﴾ [(٥)] وَمَسَاكِنُهُمْ شَيْءٌ، وَلَمْ تَدْخُلْ فِي عُمُومِ كُلِّ شَيْءٍ دَمَّرَتْهُ الرِّيحُ؟ وَذَلِكَ لِأَن الْمُرَادَ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ يَقْبَلُ التَّدْمِيرَ بِالرِّيحِ عَادَةً وَمَا يَسْتَحِقُّ التَّدْمِيرَ. وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بِلْقِيسَ: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [(٦)] الْمُرَادُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يَحْتَاجُ إِلَيهِ الْمُلُوكُ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُفْهَمُ مِنْ قَرَائِنِ

---

(١) الزيادة ضرورية لصحة المعنى، من " الحيدة "، ص : ٨٠ .

(٢) في المطبوعة : " ولا يكون منه شيء مخلوقًا " وصححناه من " الحيدة " ص : ٨٢ .

(٣) في المطبوعة : " وإن قال خلقه في غيره ، فهو كلامه " ! وهي جملة ناقصة لا معنى لها ، ولخصنا ما ذكرنا من " الحيدة " ، ص : ٨٢ .

(٤) في المطبوعة " يتكلم " ، وصححناه .

(٥) سورة الْأَحْقَافِ آية ٢٥ .

(٦) سورة النَّمْلِ آية ٢٣ .

الْكَلَامِ. إِذْ مُرَادُ الْهُدْهُدِ أَنهَا مَلِكَةٌ كَامِلَةٌ فِي أَمرِ الْمُلْكِ، غَيْرُ مُحْتَاجَةٍ إِلَى مَا يَكْمُلُ بِهِ أَمْرُ مُلْكِهَا، وَلِهَذَا نَظَائِرُ كَثِيرَةٌ.

[الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى "خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ "]

وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [1] أَيْ: كُلِّ شَيْءٍ مَخْلُوقٍ، وَكُلِّ مَوْجُودٍ سِوَى اللهِ فَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَدَخَلَ فِي هَذَا الْعُمُومِ أَفْعَالُ الْعِبَادِ حَتْمًا، وَلَمْ يَدْخُلْ فِي الْعُمُومِ الْخَالِقُ تَعَالَى، وَصِفَاتُهُ لَيْسَتْ غَيْرَهُ، لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَصِفَاتُهُ مُلَازِمَةٌ لِذَاتِهِ الْمُقَدسَةِ، لَا يُتَصَوَّرُ انْفِصَالُ صِفَاتِهِ عَنْهُ، كَمَا تَقَدَّمَ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى عِنْدَ قَوْلِهِ: (مَا زَالَ قَدِيمًا بِصِفَاتِهِ قَبْلَ خَلْقِهِ). بَلْ نَفْسُ مَا اسْتَدَلُّوا بِهِ يَدُلُّ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [2] مَخْلُوقًا، لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا.

[فَسَادُ اسْتِدْلَالِ مَنْ يَقُولُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ]

وَأَما اسْتِدْلَالُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [3] فَمَا أَفْسَدَهُ مِن اسْتِدْلَالٍ! فَإِن (جَعَلَ) إِذَا كَانَ بِمَعْنَى خَلَقَ يَتَعَدَّى إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ. كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ﴾ [4] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٠ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ ﴾ [5]. وَإِذَا تَعَدَّى إِلَى مَفْعُولَيْنِ لَمْ يَكُنْ بِمَعْنَى خَلَقَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا

---

(١) سورة الرعْد آية ١٦ .

(٢) سورة الرعد آية : ١٦ .

(٣) سورة الزخْرف آية ٣ .

(٤) سورة الْأنعامِ آية ١ .

(٥) سورة الْأنبِيَاءِ الآيات ٣٠ ، ٣١ .

تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ ﴾ (١). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ ﴾ (٢). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ﴾ (٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ (٤) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (٥). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ ﴾ (٦). وَنَظَائِرُه كَثِيرَةٌ. فَكَذَا قَوْلُه تَعَالَى ﴿ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا ﴾ (٧).

وَمَا أَفْسَدَ اسْتِدْلَالَهُمْ بِقَوْلِه تَعَالَى: ﴿ نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (٨). عَلَى أَن الْكَلَامَ خَلَقَهُ اللهُ تَعَالَى فِي الشجَرَةِ فَسَمِعَهُ مُوسَى مِنْهَا! وَعَمُوا عَما قَبْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ وَمَا بَعْدَهَا، فَإِن اللهَ تَعَالَى قَالَ: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ ﴾ (٩) ، وَالنداءُ هُوَ الْكَلَامُ مِنْ بُعْدٍ، فَسَمِعَ مُوسَى عَلَيْهِ السلَامُ النداءَ مِنْ حَافةِ الْوَادِي، ثُم قَالَ: ﴿ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (١٠). أَيْ: أَن النداءَ كَانَ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ عِنْدِ الشجَرَةِ، كَمَا يَقُولُ سَمِعْتُ كَلَامَ زَيْدٍ مِنَ الْبَيْتِ، يَكُونُ مِنَ الْبَيْتِ لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ، لَا أَن الْبَيتَ هُوَ الْمُتَكلمُ! وَلَوْ كَانَ الْكَلَامُ

---

(١) سورة النحْل آية ٩١ .

(٢) سورة الْبقَرَة آية ٢٢٤ .

(٣) سورة الْحِجْر آية ٩١ .

(٤) سورة الْإسْرَاء آية ٢٩ .

(٥) سورة الْإسْرَاء آية ٣٩ .

(٦) سورة الزخْرُف آية ١٩ .

(٧) سورة الزخْرُف آية ٣ .

(٨) سورة الْقَصَص آية٣٠ .

(٩) سورة القصص آية : ٣٠ .

(١٠) سورة القصص آية : ٣٠ .

مَخْلُوقًا فِي الشجَرَةِ، لَكَانَتِ الشجَرَةُ هِيَ الْقَائِلَةُ: ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1]. وَهَلْ قَالَ: ﴿ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[2]، غَيْرُ رَب الْعَالَمِينَ؟ وَلَوْ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ بَدَا مِنْ غَيْرِ اللهِ لَكَانَ قَوْلُ فِرْعَوْنَ: ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[3] صِدْقًا، إِذْ كُل مِنَ الْكَلَامَيْنِ عِنْدَهُمْ مَخْلُوقٌ قَدْ قَالَهُ غَيْرُ اللهِ! وَقَدْ فَرقُوا بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ عَلَى أُصُولِهِمُ الْفَاسِدَةِ: أَن ذَاكَ كَلَامٌ خَلَقَهُ اللهُ فِي الشجَرَةِ، وَهَذَا كَلَامٌ خَلَقَهُ فِرْعَوْنُ !! فَحَرفُوا وَبَدلُوا وَاعْتَقَدُوا خَالِقًا غَيْرَ اللهِ. وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى مَسْأَلَةِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾[4]. وَهَذَا يَدُل عَلَى أَن الرسُولَ أَحْدَثَهُ، إِما جِبْرَائِيلُ أَوْ مُحَمدٌ.

قِيلَ: ذِكْرُ الرسُولِ مُعَرفٌ أَنهُ مُبَلغٌ عَنْ مُرْسِلِهِ، لِأَنهُ لَمْ يَقُلْ أَنه قَوْلُ مَلَكٍ أَوْ نَبِي، فَعُلِمَ أَنهُ بَلغَهُ عَمنْ أَرْسَلَهُ بِهِ، لَا أَنهُ أَنْشَأَهُ مِنْ جِهَةِ نَفْسِهِ. وَأَيْضًا: فَالرسُولُ فِي إِحْدَى الْآيَتَيْنِ جِبْرِيلُ، وَفِي الْأُخْرَى مُحَمدٌ، فَإِضَافَتُهُ إِلَى كُل مِنْهُمَا تُبَينُ أَن الْإِضَافَةَ لِلتبْلِيغِ، إِذْ لَوْ أَحْدَثَهُ أَحَدُهُمَا امْتَنَعَ أَنْ يُحْدِثَهُ الْآخَرُ. وَأَيْضًا: فَقَوْلُهُ رَسُولٌ أَمِينٌ[5] دَلِيلٌ عَلَى أَنهُ لَا يَزِيدُ فِي الْكَلَامِ الذِي أُرسِلَ بِتَبْلِيغِهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، بَلْ هُوَ أَمِينٌ عَلَى مَا أُرْسِلَ بِهِ، يُبَلغُهُ عَنْ مُرْسِلِهِ.

---

(١) سورة القصص آية ٣٠ .

(٢) سورة القصص آية : ٣٠ .

(٣) سورة النازعات آية : ٢٤ .

(٤) سورة التكوير آية ١٩ .

(٥) الآية التي ذكرها الشارح (إنه لقول رسول كريم)- جاءت مرتين : في سورة الحاقة : ٤٠ ، وليس فيما بعدها الوصف بلفظ (آمين) والأخرى في سورة التكوير : ١٩ ، ثم بعدها : (ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين) - ٢٠ ، ٢١ . فتعبير الشارح بقوله : وأيضًا فقوله " رسول أمين " - فيه شيء من التساهل ، لم يرد به حكاية التلاوة ، وإنما أراد المعنى فقط . ولو قال : " وأيضًا فوصف الرسول بأنه (أمين) . . " كان أدق وأجود .

وَأيضًا: فَإن اللهَ قَدْ كَفرَ مَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ الْبَشرِ، وَمُحَمدٌ ﷺ بَشَرٌ ، فَمَنْ جَعَلَهُ قَوْلَ مُحَمدٍ، بِمَعْنَى أنه أنْشَأَهُ - فَقَدْ كَفرَ. وَلَا فَرْقَ بين أنْ يَقُولَ: أنهُ قَوْلُ بَشرٍ، أوْ جِني، أوْ مَلَكٍ، وَالْكَلَامُ كَلَامُ مَنْ قَالَهُ مُبتدِئًا، لَا مَنْ قَالَهُ مُبلغًا. وَمَنْ سَمِعَ قَائِلًا يَقُولُ:

قِفَـا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

- قَالَ: هَذَا شِعْرُ امْرِئِ الْقَيْسِ، وَمَنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: ﴿إنمَا الْأعْمَالُ بِالنياتِ وَإِنمَا لِكُل امْرِئٍ مَا نَوَى﴾ [1] : قَالَ: هَذَا كَلَامُ الرسُولِ، وَإِنْ سَمِعَهُ يَقُولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [2] قَالَ: هَذَا كَلَامُ اللهِ، إنْ كَانَ عِنْدَهُ خَبَرُ ذَلِكَ، وَإلا قَالَ: لَا أدْرِي كَلَامُ مَنْ هَذَا؟ وَلَوْ أنكَرَ عَلَيْهِ أحَدٌ ذَلِكَ لَكَذبَهُ. وَلِهَذَا مَنْ سَمِعَ مِنْ غَيْرِهِ نَظْمًا أوْ نَثْرًا، يَقُولُ لَهُ: هَذَا كَلَامُ مَنْ؟ هَذَا كَلَامُكَ أوْ كَلَامُ غَيْرِكَ؟

[اتفَاقُ أهْلِ السنةِ وَالْجَمَاعَةِ أن كَلَامَ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ]

وَبِالْجُمْلَةِ، فَأهْلُ السنةِ كُلهُمْ، مِنْ أهْلِ الْمَذَاهِبِ الْأرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ السلَفِ وَالْخَلَفِ، مُتفِقُونَ عَلَى أن كَلَامَ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ. وَلَكِنْ بَعْدَ ذَلِكَ تَنَازَعَ الْمُتَأخرُونَ فِي أن كَلَامَ اللهِ هَلْ هُوَ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالذاتِ، أوْ أنهُ حُرُوفٌ وَأصْوَاتٌ تَكَلمَ اللهُ بِهَا بَعْدَ أنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكَلمًا، أوْ أنهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلمًا إِذَا شَاءَ وَمَتَى شَاءَ وَكَيْفَ شَاءَ وَأن نَوْعَ الْكَلَامِ قَدِيمٌ.

وَقَدْ يُطلِقُ بَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ عَلَى الْقُرْآنِ أنهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمُرَادُهُمْ أنه غَيْرُ مُخْتَلَقٍ مُفْتَرًى مَكْذُوبٌ، بَلْ هُوَ حَق وَصِدْقٌ، وَلَا رَيْبَ أن هَذَا الْمَعْنَى مُنْتَفٍ بِاتفَاقِ الْمُسْلِمِينَ.

---

(١) البخاري بدء الوحي (١) ، مسلم الإمارة (١٩٠٧) ، الترمذي فضائل الجهاد (١٦٤٧) ، النسائي الطهارة (٧٥) ، أبو داود الطلاق (٢٢٠١) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٢٧) ، أحمد (٤٣/١) .

(٢) سورة الفاتحة الآيات ٢-٣-٤-٥ .

وَالنزَاعُ بين أَهْلِ الْقِبْلَةِ إنمَا هُوَ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا خَلَقَهُ اللهُ، أَوْ هُوَ كَلَامُهُ الذِي تَكلمَ بِهِ وَقَامَ بِذَاتِهِ؟ وَأَهْلُ السنةِ إنمَا سُئِلُوا عَنْ هذَا، وَإلا فَكَوْنُهُ مَكْذُوبًا مُفْتَرًى مِما لَا يُنازِعُ مُسْلِمٌ فِي بُطْلَانِهِ. وَلَا شَك أَن مَشَايِخَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ - مُعْتَرِفُونَ بِأَن اعْتِقَادَهُمْ فِي التوْحِيدِ وَالصفَاتِ وَالْقَدَرِ لَمْ يَتَلَقوْهُ لَا عَنْ كِتَابٍ وَلَا سُنةٍ، وَلَا عَنْ أَئِمةِ الصحَابَةِ وَالتابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنمَا يَزْعُمُونَ أَن عَقْلَهُمْ دَلهُمْ عَلَيْهِ، وَإِنمَا يَزْعُمُونَ أَنهُمْ تَلَقوْا مِنَ الْأَئِمةِ الشرَائِعَ.

وَلَوْ تُرِكَ الناسُ عَلَى فِطَرِهِمُ السلِيمَةِ وَعُقُولِهِمُ الْمُسْتَقِيمَةِ، لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ نِزَاعٌ، وَلَكِنْ أَلْقَى الشيْطَانُ إِلَى بَعْضِ الناسِ أُغْلُوطَةً مِنْ أَغَالِيطِهِ، فَرقَ بِهَا بَيْنَهُمْ. ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [(١)].

وَالذِي يَدُل عَلَيْهِ كَلَامُ الطحَاوِي رَحِمَهُ اللهُ: أَنهُ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ مُتَكلمًا إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَأَن نَوْعَ كَلَامِهِ قَدِيمٌ. وَكَذَلِكَ ظَاهِرُ كَلَامِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ﷺ فِي الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ، فَإِنهُ قَالَ: وَالْقُرْآنُ فِي الْمَصَاحِفِ مَكْتُوبٌ، وَفِي الْقُلُوبِ مَحْفُوظٌ، وَعَلَى الْأَلْسُنِ مَقْرُوءٌ، وَعَلَى النبِي ﷺ مُنَزلٌ، وَلَفْظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ [وَكِتَابَتُهُ لَنَا مَخْلُوقَةٌ، وَقِرَاءَتُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ] وَالْقُرْآنُ غَيرُ مَخْلُوقٍ، وَمَا ذَكَرَ اللهُ فِي الْقُرْآنِ [حِكَايَةً] عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السلَامُ وَغَيْرِهِ، وَعَنْ فِرْعَوْنَ وَإِبْلِيسَ - فَإِن ذَلِكَ كَلَامُ اللهِ إِخْبَارًا عَنْهُمْ، وَكَلَامُ مُوسَى وَغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ مَخْلُوقٌ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ لَا كَلَامُهُمْ، وَسَمِعَ مُوسَى عَلَيْهِ السلَامُ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى، فَلَما كَلمَ مُوسَى كَلمَهُ بِكَلَامِهِ الذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ لَمْ يَزَلْ، وَصِفَاتُهُ كُلهَا خِلَافُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ، يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، وَيَقْدِرُ لَا كَقُدْرَتِنَا، وَيَرَى لَا كَرُؤْيَتِنَا، وَيَتَكلمُ لَا كَكَلَامِنَا. انْتَهَى. فَقَوْلُهُ: وَلَما كَلمَ [(٢)] مُوسَى كَلمَهُ بِكَلَامِهِ الذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ - يُعْلَمُ مِنْهُ أَنهُ حِينَ جَاءَ كَلمَهُ، لَا أَنهُ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ أَزَلًا وَأَبَدًا يَقُولُ يَا مُوسَى، كَمَا يُفْهَمُ ذَلِكَ

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٦ .

(٢) في المطبوعة(ولما كان) ، وهو خطأ .

مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾ [1] فَفُهِمَ مِنْهُ الرد عَلَى مَنْ يَقُولُ مِنْ أَصْحَابِهِ أَنَّهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِالنفْسِ لَا يُتَصَورُ أَنْ يُسْمَعَ، وَإِنمَا يَخْلُقُ اللهُ الصوْتَ فِي الْهَوَاءِ، كَمَا قَالَ أَبو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِي وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: الذِي هُوَ مِنْ صِفَاتِهِ لَمْ يَزَلْ رد عَلَى مَنْ يَقُولُ أَنهُ حَدَثَ لَهُ وَصْفُ الْكَلَامِ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ مُتَكلمًا.

وَبِالْجُمْلَةِ: فَكُل مَا تَحْتَج بِهِ الْمُعْتَزِلَةُ مِما يَدُل عَلَى أَنهُ كَلَامٌ مُتَعَلقٌ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَأَنهُ يَتَكلمُ إِذَا شَاءَ، وَأَنهُ يَتَكلمُ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، فَهُوَ حَق يَجِبُ قُبولُهُ. وَمَا يَقُولُ بِهِ مَنْ يَقُولُ: إِن كَلَامَ اللهِ قَائِمٌ بِذَاتِهِ، وَأَنهُ صِفَةٌ لَهُ. وَالصفَةُ لَا تَقُومُ إِلا بِالْمَوْصُوفِ: فَهُوَ حَق يَجِبُ قُبولُهُ وَالْقَوْلُ بِهِ. فَيَجِبُ الْأَخْذُ بِمَا فِي قَوْلِ كُل مِنَ الطائِفَتَيْنِ مِنَ الصوَابِ، وَالْعُدُولِ عَما يَرُدُّهُ الشرْعُ وَالْعَقْلُ مِنْ قَوْلِ كُل مِنْهُمَا.

فَإِذَا قَالُوا لَنَا: فَهَذَا يَلْزَمُ أَنْ تَكُونَ الْحَوَادِثُ قَامَتْ بِهِ. قُلْنَا: هَذَا الْقَوْلُ مُجْمَلٌ، وَمَنْ أَنْكَرَ قَبْلَكُمْ قِيَامَ الْحَوَادِثِ بِهَذَا الْمَعْنَى بِهِ تَعَالَى مِنَ الْأَئِمةِ؟ وَنُصُوصُ الْقُرْآنِ وَالسنةِ تَتَضَمنُ ذَلِكَ، وَنُصُوصُ الْأَئِمةِ أَيْضًا، مَعَ صَرِيحِ الْعَقْلِ.

وَلَا شَك أَن الرسُلَ الذِينَ خَاطَبُوا الناسَ وَأَخْبَرُوهُمْ أَن اللهَ قَالَ وَنَادَى وَنَاجَى وَيَقُولُ، لَمْ يُفْهِمُوهُمْ أَن هَذِهِ مَخْلُوقَاتٌ مُنْفَصِلَةٌ عَنْهُ، بَلِ الذِي أَفْهَمُوهُمْ إِياهُ: أَن اللهَ نَفْسَهُ هُوَ الذِي تَكلمَ، وَالْكَلَامُ قَائِمٌ بِهِ لَا بِغَيْرِهِ، وَأَنهُ هُوَ الذِي تَكَلمَ بِهِ وَقَالَهُ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ: وَلَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكلمَ اللهُ فِي بِوَحْيٍ يُتْلَى. وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ مِنْ ذَلِكَ كُلهِ خِلَافَ مَفْهُومِهِ لَوَجَبَ بَيَانُهُ، إِذْ تَأْخِيرُ الْبَيَانِ عَنْ وَقْتِ الْحَاجَةِ لَا يَجُوزُ.

---

(١) سورة الْأَعْرَافِ آية ١٤٣ .

وَلَا يُعرفُ فِي لُغةٍ وَلَا عَقْلٍ قَائِلٌ مُتكلمٌ لَا يَقومُ بِهِ الْقَوْلُ وَالْكَلَامُ وَإِنْ زَعَمُوا أنهُمْ فَروا مِنْ ذَلكَ حَذرًا مِنَ التشْبِيهِ، فَلَا يُثبتوا صِفةً غَيْرَه، فَإِنهُمْ إذَا قَالُوا: يَعْلَمُ لَا كَعِلْمِنَا، قُلْنَا: وَيَتَكلمُ لَا كتكَلمِنَا، وَكَذَلكَ سَائِرُ الصفاتِ.

وَهل يُعْقَلُ قَادِرٌ لَا تَقُومُ بِهِ الْقُدْرَةُ، أَوْ حَي لَا تَقُومُ بِهِ الْحَيَاةُ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ ﴿ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التامَاتِ التِي لَا يُجَاوِزُهُن بَر وَلَا فَاجِرٌ ﴾ [1] [2] فَهَل يَقُولُ عَاقِلٌ أَنه ﷺ عَاذَ بِمَخْلُوقٍ؟ بَلْ هَذَا كَقَوْلِهِ: ﴿ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ. وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ﴾ [3] ، وَكَقَوْلِهِ: ﴿ أَعُوذُ بِعِزةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَر مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ ﴾ [4]. وَكَقَوْلِهِ: ﴿ وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ نُغْتَالَ مِنْ تَحْتِنَا ﴾ . كُل هَذِهِ مِنْ صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى.

وَهَذِهِ الْمَعَانِي مَبْسُوطَةٌ فِي مَوَاضِعِهَا، وَإِنمَا أُشِيرُ إِلَيْهَا هُنَا إِشَارَةً.

وَكَثِيرٌ مِنْ مُتَأَخرِي الْحَنَفِيةِ عَلَى أَنهُ مَعْنًى وَاحِدٌ، وَالتعَددُ وَالتكَثرُ وَالتجَزؤُ وَالتبَعضُ حَاصِلٌ فِي الدلَالَاتِ، لَا فِي الْمَدْلُولِ. وَهَذِهِ الْعِبَارَاتُ مَخْلُوقَةٌ، وَسُميَتْ كَلَامَ اللهِ لِدَلَالَتِهَا

---

(١) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٨) ، الترمذي الدعوات (٣٤٣٧) ، ابن ماجه الطب (٣٥٤٧) ، أحمد (٦/٤٠٩) ، الدارمي الاستئذان (٢٦٨٠) .

(٢) جاءت في الاستعاذة ، في حديث مرسل ، رواه مالك في الموطأ : ٩٥٠-٩٥١ ، عن يحيى بن سعيد مرسلًا . وذكر السيوطي في شرحه ٣ : ١٢٦ أنه " وصله النسائي ، من طريق محمد بن جعفر بن يحيى ابن سعيد عن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عياش السلمي عن ابن مسعود " وأنه وصله البيهقي في الأسماء والصفات . ومراده برواية النسائي أنه في عمل اليوم والليلة ، لا في السنن . ووجدته من وجه آخر في مسند الإمام أحمد : ١٥٥٢٦ ، ١٥٥٢٧ (ج ٣ص ٤١٩ من طبعة الحلبي) ، من حديث عبد الرحمن بن خنبش . ورواه من حديثه أيضًا : ابن السني في عمل اليوم والليلة ، رقم : ٦٣١ . وذكره الحافظ في الإصابة ٤ : ١٥٧ ، في ترجمة عبد الرحمن بن خنبش) .

(٣) مسلم الصلاة (٤٨٦) ، الترمذي الدعوات (٣٤٩٣) ، النسائي التطبيق (١١٣٠) ، أبو داود الصلاة (٨٧٩) ، ابن ماجه الدعاء (٣٨٤١) ، أحمد (٦/٥٨) ، مالك النداء للصلاة (٤٩٧) .

(٤) مسلم السلام (٢٢٠٢) ، الترمذي الطب (٢٠٨٠) ، أبو داود الطب (٣٨٩١) ، ابن ماجه الطب (٣٥٢٢) ، أحمد (٤/٢١٧) ، مالك الجامع (١٧٥٤) .

عَلَيْهِ وَتأديه بها، فَإِنْ عُبر بِالْعَرَبية فَهُوَ قُرْآنٌ، وَإِنْ عُبر بِالْعِبرية فَهُوَ تَوْرَاةٌ، فَاخْتَلَفَتِ الْعِبَارَاتُ لَا الْكَلَامُ. قَالُوا: وتُسَمى هَذِهِ الْعِبَارَاتُ كَلَامَ اللهِ مَجَازًا!

وَهَذَا الْكَلَامُ فَاسِدٌ، فَإِن لَازِمَهُ أن مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ﴾ (١) هُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (٢) وَمَعْنَى آيَةِ الْكُرْسِي هُوَ مَعْنَى آيَةِ الدَّيْنِ! وَمَعْنَى سُورَةِ الْإِخْلَاصِ هُوَ مَعْنَى ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ (٣). وَكُلَمَا تأمل الْإِنسَانُ هَذَا الْقَوْلَ تبين لَهُ فَسَادُهُ، وَعَلِمَ أَنهُ مُخَالِفٌ لِكَلَامِ السلفِ. وَالْحَق: أن التوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالزبُورَ وَالْقُرْآنَ مِنْ كَلَامِ اللهِ حَقِيقَةً، وَكَلَامُ اللهِ تَعَالَى لَا يَتَنَاهَى، فَإِنهُ لَمْ يَزَلْ يَتَكَلمُ بِمَا شَاءَ إِذَا شَاءَ كَيْفَ شَاءَ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَـٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَـٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ (٥).

[كَلَامُ اللهِ مَحْفُوظٌ فِي الصدُورِ مَقْرُوءٌ بِالْأَلْسِنَةِ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ]

وَلَوْ كَانَ مَا فِي الْمُصْحَفِ عِبَارَةً عَنْ كَلَامِ اللهِ، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامَ اللهِ، لَمَا حَرُم عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحْدِثِ مَسهُ، وَلَوْ كَانَ مَا يَقْرَؤُهُ الْقَارِئُ لَيْسَ كَلَامَ اللهِ لَمَا حَرُم عَلَى الْجُنُبِ وَالْمُحْدِثِ قِرَاءَتُه. (٦)

---

(١) سورة الْإِسْرَاءِ آية ٣٢ .

(٢) سورة الْبَقَرَةِ آية ٤٣ .

(٣) سورة الْمَسَدِ آية ١ .

(٤) سورة الْكَهْفِ آية ١٠٩ .

(٥) سورة لُقْمَانَ آية ٢٧ .

(٦) في المطبوعة (مسه) ، وهو خطأ واضح يأباه السياق . وقد سبق الكلام على (مسه) في الجملة قبلها .

بَلْ كَلَامُ اللهِ مَحْفُوظٌ فِي الصدُورِ، مَقْرُوءٌ بِالْأَلْسُنِ، مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، كَمَا قَالَ أَبو حَنِيفَةَ فِي الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ. وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ كُلِّهَا حَقِيقَةٌ، وَإِذَا قِيلَ: فِيهِ خَط فُلَانٍ وَكِتَابَتُهُ: فُهِمَ مِنْهُ مَعْنًى صَحِيحٌ حَقِيقِي، وَإِذَا قِيلَ: فِيهِ مِدَادٌ قَدْ كُتِبَ بِهِ: فُهِمَ مِنْهُ مَعْنًى صَحِيحٌ حَقِيقِي، وَإِذَا قِيلَ: الْمِدَادُ فِي الْمُصْحَفِ: كَانَتِ الظرْفِيةُ فِيهِ غَيْرَ الظرْفِيةِ الْمَفْهُومَةِ مِنْ قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ السمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَفِيهِ مُحَمدٌ وَعِيسَى، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَهَذَانِ الْمَعْنَيَانِ مُغَايِرَانِ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ خَط فُلَانٍ الْكَاتِبِ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي الثلَاثَةُ مُغَايِرَةٌ لِمَعْنَى قَوْلِ الْقَائِلِ: فِيهِ كَلَامُ اللهِ. وَمَنْ لَمْ يَتَنَبهْ لِلْفُرُوقِ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي ضَل وَلَمْ يَهْتَدِ لِلصوَابِ. وَكَذَلِكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ التِي هِيَ فِعْلُ الْقَارِئِ، وَالْمَقْرُوءِ الذِي هُوَ قَوْلُ الْبَارِي، مَنْ لَمْ يَهْتَدِ لَهُ فَهُوَ ضَال أَيْضًا، وَلَوْ أَن إِنْسَانًا وَجَدَ فِي وَرَقَةٍ مَكْتُوبًا:

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ

مِنْ خَط كَاتِبٍ مَعْرُوفٍ. لَقَالَ: هَذَا مِنْ كَلَامِ لَبِيدٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا خَط فُلَانٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا كُل شَيْءٍ حَقِيقَةً، وَهَذَا خَبَرٌ حَقِيقَةً، وَلَا تَشْتَبِهُ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ بِالْأُخْرَى.

وَالْقُرْآنُ فِي الْأَصْلِ: مَصْدَرٌ، فَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْقِرَاءَةُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾[1]. وَقَالَ ﷺ: «زَيِّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»[2]. وَتَارَةً يُذْكَرُ وَيُرَادُ بِهِ الْمَقْرُوءُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾[3]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[4].

---

(١) سورة الْإِسْرَاءِ آية ٧٨ .

(٢) النسائي الافتتاح (١٠١٥) ، أبو داود الصلاة (١٤٦٨) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٤٢) ، أحمد (٢٨٥/٤) ، الدارمي فضائل القرآن (٣٥٠٠) .

(٣) سورة النحْلِ آية ٩٨ .

(٤) سورة الْأَعْرَافِ آية ٢٠٤ .

وَقَالَ ﷺ ﴿إِن هَذا الْقُرْآنَ أُنزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ﴾ [1]. إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الدالةِ عَلَى كُل مِنَ الْمَعْنيين الْمَذْكُورِين. فَالْحَقَائِقُ لَهَا وُجُودٌ عَيْني وَذِهْني وَلَفْظِي وَرَسْمِي، وَلَكِن الْأَعْيَانَ تُعلَمُ، ثُم تُذْكَرُ، ثُم تُكْتَبُ. فَكِتَابَتُهَا فِي الْمُصْحَف هِيَ الْمَرْتَبَةُ الرابِعَةُ. وَأما الْكَلَامُ فَإِنَّهُ لَيس بَيْنَه وَبين الْمُصْحَفِ وَاسِطَةٌ، بَلْ هُوَ الذِي يُكْتَبُ بِلَا وَاسِطَةٍ وَلَا لِسَانٍ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ كَوْنِهِ فِي زُبُرِ الْأَولِينَ، وَبين كَوْنِهِ فِي رَق مَنْشُورٍ، أَوْ لَوْحٍ مَحْفُوظٍ، أَوْ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ: وَاضِحٌ.

فَقَوْلُهُ عَنِ الْقُرْآنِ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [2] أَيْ ذِكْرُهُ وَوَصْفُهُ وَالْإِخْبَارَ عَنْهُ، كَمَا أَن مُحَمدًا مَكْتُوبٌ عِنْدَهُمْ. إِذِ الْقُرْآنُ أَنْزَلَهُ اللهُ عَلَى مُحَمدٍ، لَمْ يُنزِلْهُ عَلَى غَيْرِهِ أَصْلًا، وَلِهَذَا قَالَ فِي الزبُرِ، وَلَمْ يَقُلْ فِي الصحُفِ، وَلَا فِي الرق، لِأَن الزبُرَ جَمْعُ زَبُورٍ وَالزبْرَ هُوَ: الْكِتَابَةُ وَالْجَمْعُ، فَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾ [3] أَيْ مَزْبُورٌ الْأَولِينَ، فَفِي نَفْسِ اللفْظِ وَاشْتِقَاقِهِ مَا يُبينُ الْمَعْنَى الْمُرَادَ، وَيُبينُ كَمَالَ بَيَانِ الْقُرْآنِ وَخُلُوصِهِ مِنَ اللبْسِ. وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾ [4] أَيْ: ذِكْرَهُ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ. ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ﴾ [5] وَ ﴿ لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾ ﴾ [6] وَ ﴿ كِتَـٰبٍ

(١) البخاري الخصومات (٢٢٨٧) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٨١٨) ، الترمذي القراءات (٢٩٤٣) ، النسائي الافتتاح (٩٣٨) ، أبو داود الصلاة (١٤٧٥) ، أحمد (٤٣/١) ، مالك النداء للصلاة (٤٧٢) .
(٢) سورة الشعَرَاءِ آية ١٩٦ .
(٣) سورة الشعَرَاءِ آية ١٩٦ .
(٤) سورة الْأَعْرَافِ آية ١٥٦ .
(٥) سورة الطورِ آية ٣ .
(٦) سورة الْبُرُوجِ آية ٢٢ .

مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ ﴾ (١) لأن العامل في الظرف إما أن يكون من الأفعال العامة، مثل الكون والاستقرار والحصول ونحو ذلك، أو يقدر: مكتوب في كتاب، أو في رق. والكتاب: تارة يذكر ويراد به محل الكتابة، وتارة يذكر ويراد به الكلام المكتوب. ويجب التفريق بين كتابة الكلام في الكتاب، وكتابة الأعيان الموجودة في الخارج فيه - فإن تلك إنما يكتب ذكرها. وكلما تدبر الإنسان هذا المعنى وضح له الفرق.

وحقيقة كلام الله تعالى الخارجية: هي ما يسمع منه أو من المبلغ عنه، فإذا سمعه السامع علمه وحفظه. فكلام الله مسموع له معلوم محفوظ، فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم. وهو حقيقة في هذه الوجوه كلها لا يصح نفيه. والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال: ليس في المصحف كلام الله، ولا: ما قرأ القارئ كلام الله، وقد قال تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (٢). وهو لا يسمع كلام الله من الله، وإنما يسمعه من مبلغه عن الله. والآية تدل على فساد قول من قال: أن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله، فإنه تعالى قال: ﴿ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾ (٣) ولم يقل حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله. والأصل الحقيقة. ومن قال: إن المكتوب في المصاحف عبارة عن كلام الله، أو حكاية كلام الله، وليس فيها كلام الله: فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفى بذلك ضلالا.

وكلام الطحاوي رحمه الله يرد قول من قال: أنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه، وأن المسموع المنزل المقروء (٤) والمكتوب ليس كلام الله، وإنما هو عبارة عنه. فإن

---

(١) سورة الواقعة آية ٧٨ .

(٢) سورة التوبة آية ٦ .

(٣) سورة التوبة آية ٦

(٤) في المطبوعة " المقدر " وليس لها معنى .

الطحاوي [1] رحمه الله يقول: كلام الله منه بدا. وكذلك قال غيره من السلف، ويقولون: منه بدا، وإليه يعود. وإنما قالوا: منه بدا، لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون إنه خلق الكلام في محل، فبدأ الكلام من ذلك المحل. فقال السلف: منه بدا أي هو المتكلم به، فمنه بدا، لا من بعض المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ ﴾ [2]. ﴿ وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى ﴾ [3]. ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [4]. ومعنى قولهم: وإليه يعود-: يرفع من الصدور والمصاحف، فلا يبقى في الصدور منه آية ولا في المصاحف. كما جاء ذلك في عدة آثار.

[عجز العقل عن إدراك كيفية تكلمه سبحانه بالقرآن]

وقوله "بلا كيفية" أي: لا تعرف كيفية تكلمه به قولا ليس بالمجاز، وأنزله على رسوله وحيا، أي: أنزله إليه على لسان الملك، فسمعه الملك جبريل من الله، وسمعه الرسول ﷺ من الملك، وقرأه [5] على الناس. قال تعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ۝١٠٦ ﴾ [6]. وقال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥ ﴾ [7]. وفي ذلك إثبات صفة العلو لله تعالى.

---

(١) في المطبوعة : " قال الطحاوي " ، وهو خطأ واضح .
(٢) سورة الزمر آية ١ .
(٣) سورة السجدة آية ١٣ .
(٤) سورة النحل آية ١٠٢ .
(٥) في الأصل : (وقرأ) ، والصواب ما أثبتناه ، كما في أكثر النسخ . ن .
(٦) سورة الإسراء آية ١٠٦ .
(٧) سورة الشعراء آية ١٩٣- ١٩٥ .

وَقدْ أُورِدَ عَلَى ذَلِكَ أن إنزَالَ الْقُرْآنِ نَظِيرُ إنْزَالِ المطرِ، وَإنْزَالِ الْحَدِيدِ، وَإنْزَالِ ثَمَانِيَةِ أزْوَاجٍ مِنَ الْأنعَامِ.

وَالْجَوابُ: أن إنزَالَ الْقُرْآنِ فِيهِ مَذْكُورٌ أنهُ إنْزَالٌ مِنَ اللهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ ﴾[1]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾[2]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ ﴾[3]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾[4]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ ﴾[5]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٤٩ ﴾[6]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ ﴾[7]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾[8]. وَإنْزَالُ المطرِ مُقيَّدٌ بِأنهُ مُنزلٌ مِنَ السمَاءِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾[9]. وَالسمَاءُ: الْعُلُو. وَقَدْ جَاءَ فِي مَكَانٍ آخَرَ أنهُ مُنزلٌ مِنَ الْمُزْنِ، وَالْمُزْنُ: السحَابُ. وَفي مَكَانٍ آخَرَ أنهُ مُنزلٌ مِنَ الْمُعْصِرَاتِ. وَإنْزَالُ الْحَدِيدِ وَالْأنعَامِ مُطلَقٌ، فَكَيْفَ يَشْتبهُ هَذَا الْإنزَالُ بِهَذَا الْإنزَالِ، وَهَذَا الْإنزَالُ بِهَذَا الْإنزَالِ؟!

---

(١) سورة غَافِر آية ١-٢ .

(٢) سورة الزمَر آية ١ .

(٣) سورة فُصلَتْ آية ٢ .

(٤) سورة فصلت آية ٤٢ .

(٥) سورة الدخَانِ الآيات ٣-٤-٥ .

(٦) سورة الْقصَص آية ٤٩ .

(٧) سورة الْأنعَامِ آية ١١٤ .

(٨) سورة النحْلِ آية ١٠٢ .

(٩) سورة الرعْدِ آية ١٧ .

فَالْحَدِيدُ إنمَا يَكُونُ مِنَ الْمَعَادِنِ التِي فِي الْجِبَالِ، وَهِيَ عَالِيَةٌ عَلَى الْأَرْضِ، وَقَدْ قِيلَ: إنهُ كُلمَا كَانَ مَعْدِنُه أَعْلَى كَانَ حَدِيدُه أَجْوَدَ. وَالْأَنعَامُ تُخْلَقُ بِالتوَالُدِ الْمُسْتَلْزِمِ إنْزَالَ الذكُورِ الْمَاءَ مِنْ أَصْلَابِهَا إلَى أَرْحَامِ الْإِنَاثِ، وَلِهَذَا يُقَالُ: أَنزَلَ وَلَمْ يقل "نزل" [(١)] ثُم الْأَجِنةُ تَنْزِلُ مِنْ بُطُونِ الْأُمهاتِ إلَى وَجْهِ الْأَرْضِ. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أن الْأَنعَامَ تَعْلُو فُحُولُهَا إنَاثَهَا عِنْدَ الْوَطْءِ، وَيَنْزِلُ مَاءُ الْفَحْلِ مِنْ عُلْوٍ إلَى رَحِمِ الْأُنثى، وَتُلْقِي وَلَدَهَا عِنْدَ الْوِلَادَةِ مِنْ عُلْوٍ إلَى سُفْلٍ. وَعَلَى هَذَا فَيُحْتَمَلُ قَوْلُه، ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ ﴾ [(٢)] وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا، أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِبَيَانِ الْجِنْسِ. الثانِي: أَنْ تَكُونَ (مِنْ) لِابْتِدَاءِ الْغَايَةِ. وَهَذَانَ الْوَجْهَانِ يُحْتَمَلَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجًا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ أَزۡوَٰجًا ﴾ [(٣)]

وَقَوْلُه: "وَصدقَه الْمُؤْمِنُونَ عَلَى ذَلِكَ حَقًّا" الْإِشَارَةُ إلَى مَا ذَكَرَه مِنَ التكلمِ بِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَذْكُورِ وَإِنْزَالِه، أَيْ: هَذَا قَوْلُ الصحَابَةِ وَالتابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَهُمُ السلَفُ الصالِحُ، وَأَن هَذَا حَق وَصِدْقٌ.

[الرد عَلَى مَنْ يَقُولُ بِالْكَلَامِ النفْسِي]

وَقَوْلُه: وَأَيْقَنُوا أَنهُ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى بِالْحَقِيقَةِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ كَكَلَامِ الْبَرِيةِ.

رَدهُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ بِهَذَا الْقَوْلِ ظَاهِرٌ. وَفِي قَوْلِهِ: "بِالْحَقِيقَةِ" رد عَلَى مَنْ قَالَ: إنهُ مَعْنًى وَاحِدٌ قَامَ بِذَاتِ اللهِ لَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ وَإِنمَا هُوَ الْكَلَامُ النفْسَانِي، لِأَنهُ لَا يُقَالُ لِمَنْ قَامَ بِهِ الْكَلَامُ النفْسَانِي وَلَمْ يَتَكلمْ بِهِ: أَن هَذَا كَلَامٌ حَقِيقَةً، وَإِلا لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ الْأَخْرَسُ مُتَكلمًا، وَلَزِمَ أَنْ لَا يَكُونَ الذِي فِي الْمُصْحَفِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ هُوَ الْقُرْآنُ وَلَا كَلَامَ اللهِ، وَلَكِنْ عِبَارَةً عَنْهُ لَيْسَتْ هِيَ كَلَامَ اللهِ، كَمَا لَوْ أَشَارَ أَخْرَسُ إلَى شَخْصٍ بِإِشَارَةٍ فَهِمَ بِهَا مَقْصُودَه، فَكَتَبَ ذَلِكَ الشخْصُ عِبَارَتَه عَنِ الْمَعْنَى الذِي أَوْحَاه إلَيْهِ ذَلِكَ الْأَخْرَسُ،

---

(١) في المطبوعة " ولم يـ ل " وهو كلام لا معنى له هنا . وما أثبتنا هو الذي يقتضيه السياق .

(٢) سورة الزمر آية ٦ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

فَالْمَكْتُوبُ هُوَ عِبَارَةُ ذَلِكَ الشخْصِ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنى. وَهَذَا الْمَثَلُ مُطَابِقٌ غَايَةَ الْمُطَابَقَةِ لِمَا يَقُولُونَه، وَإِنْ كَانَ اللهُ تَعَالَى لَا يُسَميه أحَدٌ أخْرَس، لَكِنْ عِنْدَهُمْ أن الْمَلَكَ فَهِمَ مِنْهُ مَعْنًى قَائِمًا بِنَفْسِهِ، لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ حَرْفًا وَلَا صَوْتًا، بَلْ فَهِمَ مَعْنًى مُجَرَّدًا، ثُم عَبرَ عَنْهُ، فَهُوَ الذِي أحْدَثَ نظْمَ الْقُرْآنِ وَتَأْلِيفَهُ الْعَرَبي، أوْ أن اللهَ خَلَقَ فِي بَعْضِ الْأجْسَامِ كَالْهَوَى الذِي هُوَ دُونَ الْمَلَكِ هَذِهِ الْعِبَارَةَ.

وَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ إِنَّه مَعْنًى وَاحِدٌ: هَلْ سَمِعَ مُوسَى عَلَيْهِ السلَامُ جَمِيعَ الْمَعْنى أوْ بَعْضَهُ؟ فَإِنْ قَالَ: سَمِعَهُ كُلَّهُ، فَقَدْ زَعَمَ أنهُ سَمِعَ جَمِيعَ كَلَامِ اللهِ وَفَسَادُ هَذَا ظَاهِرٌ. وَإِنْ قَالَ: بَعْضَهُ، فَقَدْ قَالَ يَتَبَعضُ. وَكَذَلِكَ كُل مَنْ كَلمَهُ اللهُ أوْ أنزَلَ إِلَيْهِ شَيْئًا مِنْ كَلَامِهِ.

وَلَما قَالَ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [1]. وَلَما قَالَ لَهُمْ: ﴿ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ﴾ [2]. وَأمْثَالُ ذَلِكَ: هَلْ هَذَا جَمِيعُ كَلَامِهِ أوْ بَعْضُهُ؟ فَإِنْ قَالَ: إِنهُ جَمِيعُهُ [3] فَهَذَا مُكَابَرَةٌ، وَإِنْ قَالَ: بَعْضُهُ، فَقَدِ اعْتَرَفَ بِتَعَدُّدِهِ.

[مَذَاهِبُ الناسِ فِي مُسَمى الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ]

وَللناسِ فِي مُسَمى الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ: أرْبَعَةُ أقْوَالٍ:

أحَدُهَا: أنهُ يَتَنَاوَلُ اللفْظَ وَالْمَعْنى جَمِيعًا، كَمَا يَتَنَاوَلُ لَفْظُ الْإِنْسَانِ الروحَ وَالْبَدَنَ مَعًا، وَهَذَا قَوْلُ السلَفِ.

الثانِي: اسْمٌ لِلفْظِ فَقَطْ، وَالْمَعْنى لَيْسَ جُزْءَ مُسَماهُ، بَلْ هُوَ مَدْلُولُ مُسَماهُ، وَهَذَا قَوْلُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ.

الثالِثُ: أنهُ اسْمٌ لِلْمَعْنى فَقَطْ، وَإِطْلَاقُهُ عَلَى اللفْظِ مَجَازٌ، لِأنهُ دَال عَلَيْهِ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ كُلَابٍ وَمَنِ اتبَعَهُ.

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٤ .

(٣) في المطبوعة(جميع) بدون الضمير . وإثباته أجود .

الرابِعُ: أنَّه مُشْتَرَكٌ بين اللفْظِ والْمعْنَى، وَهَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْمُتَأَخرينَ مِنَ الْكِلَابِيةِ، وَلَهُمْ قَوْلٌ خَامِسٌ[1] يُرْوَى عَنْ أَبِي الْحَسَنِ، أنهُ مَجَازٌ فِي كَلَامِ اللهِ، حَقِيقَةٌ فِي كَلَامِ الْآدَمِيينَ لِأَن حُرُوفَ الْآدَمِيينَ تَقُومُ بِهِمْ، فَلَا يَكُونُ الْكَلَامُ قَائِمًا بِغَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ، بِخِلَافِ كَلَامِ اللهِ، فَإِنَّهُ لَا يَقُومُ عِنْدَهُ بِاللهِ، فَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ كَلَامَهُ. وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ. وَأَما مَنْ قَالَ إِنهُ مَعْنًى وَاحِدٌ، وَاسْتَدَل عَلَيْهِ بِقَوْلِ الْأَخْطَلِ:

إن الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنمَا ... جُعِلَ اللسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلَا

: فَاسْتِدْلَالٌ فَاسِدٌ. وَلَوِ اسْتَدَل مُسْتَدِلٌ بِحَدِيثٍ فِي الصحِيحَيْنِ لَقَالُوا هَذَا خَبَرٌ وَاحِدٌ! وَيَكُونُ مِما اتفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَتَلَقيهِ بِالْقُبُولِ وَالْعَمَلِ بِهِ! فَكَيْفَ وَهَذَا الْبَيْتُ قَدْ قِيلَ إِنهُ مَوْضُوعٌ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأَخْطَلِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي دِيوَانِهِ؟! وَقِيلَ إِنمَا قَالَ: هَذَا خَبَرٌ وَاحِدٌ! وَيَكُونُ مِما اتفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَتَلَقيهِ بِالْقُبُولِ وَالْعَمَلِ بِهِ! فَكَيْفَ وَهَذَا الْبَيْتُ قَدْ قِيلَ إِنهُ مَوْضُوعٌ مَنْسُوبٌ إِلَى الْأَخْطَلِ، وَلَيْسَ هُوَ فِي دِيوَانِهِ؟! وَقِيلَ إِنمَا قَالَ:

إن الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ

وَهَذَا أَقْرَبُ إِلَى الصحةِ، وَعَلَى تَقْدِيرِ صِحتِهِ عَنْهُ فَلَا يَجُوزُ الِاسْتِدْلَالُ بِهِ، فَإِن النصَارَى قَدْ ضَلوا فِي مَعْنَى الْكَلَامِ، وَزَعَمُوا أن عِيسَى عَلَيْهِ السلَامُ نَفْسُ كَلِمَةِ اللهِ وَاتحَدَ اللاهُوتُ بِالناسُوتِ! أَيْ: شَيْءٌ مِنَ الْإِلَهِ بِشَيْءٍ مِنَ الناسِ! أَفَيُسْتَدَل بِقَوْلِ نَصْرَانِي قَدْ ضَل فِي مَعْنَى الْكَلَامِ عَلَى مَعْنَى الْكَلَامِ، وَيُتْرَكُ مَا يُعْلَمُ مِنْ مَعْنَى الْكَلَامِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ؟! وَأَيْضًا: فَمَعْنَاهُ غَيْرُ صَحِيحٍ، إِذْ لَازِمُهُ أن الْأَخْرَسَ يُسَمى مُتَكَلمًا لِقِيَامِ الْكَلَامِ بِقَلْبِهِ وَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ، وَالْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ، وَإِنمَا أُشِيرُ إِلَيْهِ إِشَارَةً.

وَهُنَا مَعْنًى عَجِيبٌ، وَهُوَ: أن هَذَا الْقَوْلَ لَهُ شَبَهٌ قَوِي بِقَوْلِ النصَارَى الْقَائِلِينَ بِاللاهُوتِ وَالناسُوتِ! فَإِنهُمْ يَقُولُونَ: كَلَامُ اللهِ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِذَاتِ اللهِ الذِي لَا يُمْكِنُ سَمَاعُهُ، وَأَما النظْمُ الْمَسْمُوعُ فَمَخْلُوقٌ، فَإِفْهَامُ الْمَعْنَى الْقَدِيمِ بِالنظْمِ الْمَخْلُوقِ يُشْبِهُ

(١) في المطبوعة (ثالث) ، وقد سبقه أربعة ، فهو خامس .

امتزاج اللاهوت بالناسوت الذي قالته النصارى في عيسى عليه السلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه!

ويرد قول من قال: بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس: قوله ﷺ إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس وقال: إن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما [1]. أحدث أن لا تكلموا في الصلاة. واتفق العلماء على أن المصلي إذا تكلم في الصلاة عامدا لغير مصلحتها بطلت صلاته. واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب من تصديق بأمور دنيوية وطلب، لا يبطل الصلاة، وإنما يبطلها التكلم بذلك. فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام.

وأيضا: ففي ((الصحيحين)) عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها، ما لم تتكلم به أو تعمل به ﴾ [2]. فقد أخبر أن الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، ففرق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنه لا يؤاخذ به حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان، باتفاق العلماء. فعلم أن هذا هو الكلام في اللغة، لأن الشارع إنما خاطبنا بلغة العرب.

وأيضا ففي السنن: ﴿ أن معاذا ؓ قال: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال: وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ﴾ [3]. فبين أن الكلام إنما هو باللسان. فلفظ القول والكلام وما تصرف منهما، من فعل ماض ومضارع وأمر واسم فاعل -: إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظا

---

(١) في الأصل (وإنما) . والتصويب من البخاري ١٣ / ٤٩٦ (فتح) ، وأحمد ١ / ٤٦٣ . ن .

(٢) البخاري الأيمان والنذور (٦٢٨٧) ، مسلم الإيمان (١٢٧) ، الترمذي الطلاق (١١٨٣) ، النسائي الطلاق (٣٤٣٣) ، أبو داود الطلاق (٢٢٠٩) ، ابن ماجه الطلاق (٢٠٤٠) ، أحمد (٣٩٣/٢) .

(٣) الترمذي الإيمان (٢٦١٦) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٧٣) ، أحمد (٢٣٧/٥) .

وَمعْنى. وَلَمْ يَكُنْ فِي مُسَمى الْكَلَامِ نِزَاعٌ بَيْنَ الصحَابَةِ وَالتابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وَإِنمَا حَصَلَ النزَاعُ بَيْنَ الْمُتَأَخرِينَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْبِدَعِ، ثُم انْتَشَرَ.

وَلَا رَيْبَ أَن مُسَمى الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ وَنَحْوِهِمَا - لَيْسَ هُوَ مِما يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى قَوْلِ شَاعِرٍ، فَإِن هَذَا مِما تَكَلمَ بِهِ الْأَولُونَ وَالْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ اللغَةِ، وَعَرَفُوا مَعْنَاهُ، كَمَا عَرَفُوا مُسَمى الرأْسِ وَالْيَدِ وَالرجْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

وَلَا شَك أَن مَنْ قَالَ: إِن كَلَامَ اللهِ مَعْنًى وَاحِدٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ تَعَالَى وَإِن الْمَتْلُو الْمَحْفُوظَ الْمَكْتُوبَ الْمَسْمُوعَ مِنَ الْقَارِئِ حِكَايَةُ كَلَامِ اللهِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، فَقَدْ قَالَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ فِي الْمَعْنَى وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، فَإِن اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [1]. أَفَتَرَاهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُشِيرُ إِلَى مَا فِي نَفْسِهِ أَوْ إِلَى الْمَتْلُو الْمَسْمُوعِ؟ وَلَا شَك أَن الْإِشَارَةَ إِنمَا هِيَ إِلَى هَذَا الْمَتْلُو الْمَسْمُوعِ، إِذْ مَا فِي ذَاتِ اللهِ غَيْرُ مُشَارٍ إِلَيْهِ، وَلَا مُنزلٍ وَلَا مَتْلُو وَلَا مَسْمُوعٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [2] أَفَتَرَاهُ سُبْحَانَهُ يَقُولُ: لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِ مَا فِي نَفْسِي مِما لَمْ يَسْمَعُوهُ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَمَا فِي نَفْسِ الْبَارِي ﷻ لَا حِيلَةَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ، وَلَا إِلَى الْوُقُوفِ عَلَيْهِ.

فَإِنْ قَالُوا: إِنمَا أَشَارَ إِلَى حِكَايَةِ مَا فِي نَفْسِهِ وَعِبَارَتِهِ وَهُوَ الْمَتْلُو الْمَكْتُوبُ الْمَسْمُوعُ، فَأَما أَنْ يُشِيرَ إِلَى ذَاتِهِ فَلَا - فَهَذَا صَرِيحُ الْقَوْلِ بِأَن الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، بَلْ هُمْ فِي ذَلِكَ أَكْفَرُ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، فَإِن حِكَايَةَ الشيْءِ بِمِثْلِهِ وَشِبْهِهِ. وَهَذَا تَصْرِيحٌ بِأَن صِفَاتِ اللهِ مَحْكِيةٌ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ التلَاوَةُ حِكَايَةً لَكَانَ الناسُ قَدْ أَتَوْا بِمِثْلِ كَلَامِ اللهِ، فَأَيْنَ عَجْزُهُمْ ؟! وَيَكُونُ التالِي - فِي زَعْمِهِمْ - قَدْ حَكَى بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ مَا لَيْسَ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ. وَلَيْسَ الْقُرْآنُ إِلا سُوَرًا مُسَورَةً، وَآيَاتٍ مُسَطرَةً، فِي صُحُفٍ مُطَهرَةٍ. قَالَ تَعَالَى:

---

(١) سورة الْإِسْرَاءِ آية ٨٨ .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٨ .

﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ ﴾[1]. ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[2]. ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ ﴾[3]. وَيُكْتَبُ لِمَنْ قَرَأَهُ بِكُلِ حَرْفٍ عَشْرُ حَسَنَاتٍ. قَالَ ﷺ ﴿ أَمَا إِنِي لَا أَقُولُ (الم) حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ ﴾[4]. وَهُوَ الْمَحْفُوظُ فِي صُدُورِ الْحَافِظِينَ الْمَسْمُوعُ مِنْ أَلْسُنِ التَالِينَ. قَالَ الشَيْخُ حَافِظُ الدِينِ النَسَفِي رَحِمَهُ اللهُ فِي ((الْمَنَارِ)): إِن الْقُرْآنَ اسْمٌ لِلنظْمِ وَالْمَعْنَى. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ أَهْلِ الْأُصُولِ. وَمَا يُنْسَبُ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ: أَن مَنْ قَرَأَ فِي الصلَاةِ بِالْفَارِسِيةِ أَجْزَأَهُ - فَقَدْ رَجَعَ عَنْهُ - وَقَالَ: لَا يَجُوزُ الْقِرَاءَةُ مَعَ الْقُدْرَةِ بِغَيْرِ الْعَرَبِيةِ. وَقَالُوا: لَوْ قَرَأَ بِغَيْرِ الْعَرَبِيةِ فَإِما أَنْ يَكُونَ مَجْنُونًا فَيُدَاوَى، أَوْ زِنْدِيقًا فَيُقْتَلَ، لِأَن اللهَ تَكَلمَ بِهِ بِهَذِهِ اللغَةِ، وَالْإِعْجَازُ حَصَلَ بِنَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ.

[كُفْرُ مَنْ أَنْكَرَ أَن الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ]

وَقَوْلُهُ: (وَمَنْ سَمِعَهُ، وَقَالَ: إِنهُ كَلَامُ الْبَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ)

لَا شَك فِي تَكْفِيرِ مَنْ أَنْكَرَ أَن الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ، بَلْ قَالَ إِنهُ كَلَامُ مُحَمدٍ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْخَلْقِ، مَلَكًا كَانَ أَوْ بَشَرًا. وَأَما إِذَا أَقَر أَنهُ كَلَامُ اللهِ، ثُم أَول وَحَرف فَقَدْ وَافَقَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ. فِي بَعْضِ مَا بِهِ كَفَرَ، وَأُولَئِكَ الذِينَ اسْتَزَلهُمُ الشيْطَانُ - وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَيْهِ عِنْدَ قَوْلِ الشيْخِ (وَلَا نُكَفِرُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِلهُ) إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(١) سورة هُودٍ آية ١٣ .

(٢) سورة الْعَنْكَبُوتِ آية ٤٩ .

(٣) سورة عَبَسَ الآيتان ١٣-١٤ .

(٤) الترمذي فضائل القرآن (٢٩١٠) .

[إعْجَازُ الْقُرْآنِ مِنْ جِهَةِ اللفْظِ وَالْمَعْنى]

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُشْبِهُ قَوْلَ الْبَشَرِ)

يَعْنِي أَنهُ أَشْرَفُ وَأَفْصَحُ وَأَصْدَقُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ (٢). الْآيَةَ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ (٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ﴾ (٤). فَلَما عَجَزُوا - وَهُمْ فُصَحَاءُ الْعَرَبِ، مَعَ شِدةِ الْعَدَاوَةِ - عَنِ الْإِتْيانِ بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، تَبين صِدْقُ الرسُولِ ﷺ أَنهُ مِنْ عِنْدِ اللهِ. وَإِعْجَازُهُ مِنْ جِهَةِ نَظْمِهِ وَمَعْنَاهُ، لَا مِنْ جِهَةِ أَحَدِهِمَا فَقَطْ. هَذَا مَعَ أَنهُ قُرْآنٌ عَرَبِي غَيْرُ ذِي عِوَجٍ بِلِسَانٍ عَرَبِي مُبِينٍ، أَيْ بِلُغَةِ الْعَرَبِيةِ. فَنَفْيُ الْمُشَابَهَةِ مِنْ حَيْثُ التكَلمُ، وَمِنْ حَيْثُ النظْمُ وَالْمَعْنَى، لَا مِنْ حَيْثُ الْكَلِمَاتُ وَالْحُرُوفُ. وَإِلَى هَذَا وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِالْحُرُوفِ الْمُقَطعَةِ فِي أَوَائِلِ السوَرِ، أَيْ: أَنهُ فِي أُسْلُوبِ كَلَامِهِمْ وَبِلُغَتِهِمُ التِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا. أَلَا تَرَى أَنهُ يَأْتِي بَعْدَ الْحُرُوفِ الْمُقَطعَةِ بِذِكْرِ الْقُرْآنِ ؟ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ ﴾ (٥) ، ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (٦) ، ﴿ الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (٧) ، ﴿ الٓر ۚ تِلْكَ

---

(١) سورة النسَاءِ آية ٨٧ .

(٢) سورة الْإِسْرَاءِ آية ٨٨ .

(٣) سورة هُودٍ آية ١٣ .

(٤) سورة يُونُسَ آية ٣٨ .

(٥) سورة البقرة ١ ، ٢ .

(٦) سورة آل عمران الآيات ١- ٣ .

(٧) سورة الأعراف آية ١-٢ .

ﵟءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ﵞ[1]. وَكَذَلِكَ الْبَاقِي يُنبهُهُمْ أن هَذَا الرسُولَ الْكَرِيمَ لَمْ يَأْتِكُمْ بِمَا لَا تَعْرِفُونَه، بَلْ خَاطَبَكُمْ بِلِسَانِكُمْ.

وَلَكِن أَهْلَ الْمَقَالَاتِ الْفَاسِدَةِ يَتذَرعُونَ بِمِثْلِ هَذَا إِلى نَفْي تَكَلمِ اللهِ بِهِ، وَسَمَاعِ جِبْرِيلَ مِنْه، كَمَا يَتذَرعُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﵟلَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖﵞ[2] إِلى نَفْي الصفَاتِ. وَفِي الْآيَةِ مَا يُرد عَلَيهِمْ قَوْلَهُمْ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﵟوَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ﵞ[3]. كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﵟفَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦﵞ[4] مَا يُرد عَلَى مَنْ يَنفِي الْحَرْفَ، فَإِنه قَالَ: ﵟفَأۡتُواْ بِسُورَةٖﵞ[5] وَلَمْ يَقُلْ فَأْتوا بِحَرْفٍ، أَوْ بِكَلِمَةٍ. وَأَقْصَرُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ ثَلَاثُ آيَاتٍ. وَلِهَذَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمدٌ رَحِمَهُمَا اللهُ: إِن أَدْنَى مَا يُجْزِئُ فِي الصلَاةِ ثَلَاثُ آيَاتٍ قِصَارٍ أَوْ آيَةٌ طَوِيلَةٌ، لِأَنه لَا يَقَعُ[6]. الْإِعْجَازُ بِدُونِ ذَلِكَ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

---

(١) سورة يُونُسَ آية ١ .

(٢) سورة الشورَى آية ١١ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

(٤) سورة يُونُسَ آية ٣٨ .

(٥) سورة يونس آية ٣٨ .

(٦) في المطبوعة : (يقطع) بدل (يقع) ، وهو خطأ .

[صِفَاتُ اللهِ لَيْسَتْ كَصِفَاتِ الْبَشَرِ]

قَوْلُهُ: (وَمَنْ وَصَفَ اللهَ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ، فَقَدْ كَفَرَ. مَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ. وَعَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ انْزَجَرَ. وَعَلِمَ أَنَّ اللهَ بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ).

ش: لَمَّا ذَكَرَ فِيمَا تَقَدَّمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، مِنْهُ بَدَا، نَبَّهَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى بِصِفَاتِهِ لَيْسَ كَالْبَشَرِ، نَفْيًا لِلتَّشْبِيهِ عَقِيبَ الْإِثْبَاتِ، يَعْنِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى وَإِنْ وُصِفَ بِأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ، لَكِنْ لَا يُوصَفُ بِمَعْنًى مِنْ مَعَانِي الْبَشَرِ الَّتِي يَكُونُ الْإِنْسَانُ بِهَا مُتَكَلِّمًا، فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. وَمَا أَحْسَنَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَ لِلْمُثْبِتِ لِلصِّفَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، بِاللَّبَنِ الْخَالِصِ السَّائِغِ لِلشَّارِبِينَ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ فَرْثِ التَّعْطِيلِ وَدَمِ التَّشْبِيهِ. وَالْمُعَطِّلُ يَعْبُدُ عَدَمًا، وَالْمُشَبِّهُ يَعْبُدُ صَنَمًا. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشَّيْخِ، (وَمَنْ لَمْ يَتَوَقَّ النَّفْيَ وَالتَّشْبِيهَ، زَلَّ وَلَمْ يُصِبِ التَّنْزِيهَ). وَكَذَا قَوْلُهُ: (وَهُوَ بَيْنَ التَّشْبِيهِ وَالتَّعْطِيلِ) أَيْ: دِينُ الْإِسْلَامِ، وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّعْطِيلَ شَرٌّ مِنَ التَّشْبِيهِ، بِمَا سَأَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى. وَلَيْسَ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا مَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ تَشْبِيهًا، بَلْ صِفَاتُ الْخَالِقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ، وَصِفَاتُ الْمَخْلُوقِ كَمَا يَلِيقُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: (فَمَنْ أَبْصَرَ هَذَا اعْتَبَرَ). أَيْ: مَنْ نَظَرَ بِعَيْنِ بَصِيرَتِهِ فِيمَا قَالَهُ مِنْ إِثْبَاتِ الْوَصْفِ وَنَفْيِ التَّشْبِيهِ وَوَعِيدِ الْمُشَبِّهِ اعْتَبَرَ وَانْزَجَرَ عَنْ مِثْلِ قَوْلِ الْكُفَّارِ.

[رُؤْيَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ رَبَّهُمْ بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ]

[ثُبُوتُ رُؤْيَةِ أَهْلِ الْجَنَّةِ رَبَّهُمْ بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ]

قَوْلُهُ: (وَالرُّؤْيَةُ حَقٌّ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ، بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيَّةٍ، كَمَا نَطَقَ بِهِ كِتَابُ رَبِّنَا: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ ﴾ [1] وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى وَعَلِمَهُ، وَكُلُّ مَا جَاءَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهُوَ كَمَا قَالَ،

(١) سورة الْقِيَامَةِ الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

وَمَعْنَاهُ عَلَى مَا أَرَادَ، لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا، فَإِنَّهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إِلَّا مَنْ سَلَّمَ لِلَّهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ. وَرَدَّ عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى عَالِمِهِ).

ش: الْمُخَالِفُ فِي الرُّؤْيَةِ: الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ الْخَوَارِجِ وَالْإِمَامِيَّةِ. وَقَوْلُهُمْ بَاطِلٌ مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَقَدْ قَالَ بِثُبُوتِ الرُّؤْيَةِ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ، وَأَئِمَّةُ الْإِسْلَامِ الْمَعْرُوفُونَ بِالْإِمَامَةِ فِي الدِّينِ، وَأَهْلُ الْحَدِيثِ، وَسَائِرُ طَوَائِفِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَنْسُوبُونَ إِلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَشْرَفِ مَسَائِلِ أُصُولِ الدِّينِ وَأَجَلِّهَا، وَهِيَ الْغَايَةُ الَّتِي شَمَّرَ إِلَيْهَا الْمُشَمِّرُونَ، وَتَنَافَسَ الْمُتَنَافِسُونَ، وَحُرِمَهَا الَّذِينَ هُمْ عَنْ رَبِّهِمْ مَحْجُوبُونَ، وَعَنْ بَابِهِ مَرْدُودُونَ.

وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنَ الْأَدِلَّةِ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [1]. وَهِيَ مِنْ أَظْهَرِ الْأَدِلَّةِ. وَأَمَّا مَنْ أَبَى إِلَّا تَحْرِيفَهَا بِمَا يُسَمِّيهِ تَأْوِيلًا، فَتَأْوِيلُ نُصُوصِ الْمَعَادِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَالْحِسَابِ، أَسْهَلُ مِنْ تَأْوِيلِهَا عَلَى أَرْبَابِ التَّأْوِيلِ. وَلَا يَشَاءُ مُبْطِلٌ أَنْ يَتَأَوَّلَ النُّصُوصَ وَيُحَرِّفَهَا عَنْ مَوَاضِعِهَا إِلَّا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ مِنَ السَّبِيلِ مَا وَجَدَهُ مُتَأَوِّلُ هَذِهِ النُّصُوصِ.

[جِنَايَةُ التَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ]

وَهَذَا الَّذِي أَفْسَدَ الدُّنْيَا وَالدِّينَ. وَهَكَذَا فَعَلَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى فِي نُصُوصِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَحَذَّرَنَا اللَّهُ أَنْ نَفْعَلَ مِثْلَهُمْ. وَأَبَى الْمُبْطِلُونَ إِلَّا سُلُوكَ سَبِيلِهِمْ، وَكَمْ جَنَى التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ عَلَى الدِّينِ وَأَهْلِهِ مِنْ جِنَايَةٍ. فَهَلْ قُتِلَ عُثْمَانُ ﷺ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ! وَكَذَا مَا جَرَى فِي يَوْمِ الْجَمَلِ، وَصِفِّينَ، وَمَقْتَلِ الْحُسَيْنِ ﷺ وَالْحَرَّةِ ؟ وَهَلْ خَرَجَتِ الْخَوَارِجُ، وَاعْتَزَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، وَرَفَضَتِ الرَّوَافِضُ، وَافْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ الْفَاسِدِ؟ ! وَإِضَافَةُ النَّظَرِ إِلَى الْوَجْهِ، الَّذِي هُوَ مَحَلُّهُ، فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَتَعْدِيَتُهُ بِأَدَاةِ

---

(١) سورة الْقِيَامَةِ الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

إلى الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على خلافه [(١)]. حقيقة موضوعة صريحة في أن الله أراد بذلك نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل جلاله.

[معاني النظر تختلف بحسب استعمالاته]

فإن النظر له عدة استعمالات، بحسب صلاته وتعديه بنفسه: فإن عدي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار، ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ﴾ [(٢)]. وإن عدي بـ " في " فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [(٣)]. وإن عدي بـ " إلى " فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ﴾ [(٤)]. فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟ وروى ابن مردويه بسنده إلى ابن عمر، قال: ﴿ قال رسول الله ﷺ - في قوله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [(٥)] قال: من البهاء والحسن ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [(٦)] قال في وجه الله ﷻ ﴾ . عن الحسن قال: نظرت إلى ربها فنضرت بنوره. وقال أبو صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [(٧)] قال: تنظر إلى وجه ربها عز وجل. وقال عكرمة: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ [(٨)] قال: من النعيم، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [(٩)] قال:

---

(١) في المطبوعة (خلاف) بدون الضمير ، وهو خطأ يختل به سياق الكلام .
(٢) سورة الحديد آية ١٣ .
(٣) سورة الأعراف آية ١٨٥ .
(٤) سورة الأنعام آية ٩٩ .
(٥) سورة القيامة الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .
(٦) سورة القيامة آية ٢٣ .
(٧) سورة القيامة آية ٢٣ .
(٨) سورة القيامة آية ٢٢ .
(٩) سورة القيامة آية ٢٣ .

تنظر إلى ربها نظرًا، ثم حكى عن ابن عباس مثله. وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والحديث.

وقال تعالى: ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾[1]. قال الطبري: قال علي بن أبي طالب وأنس بن مالك رضي الله عنهما: هو النظر إلى وجه الله عز وجل.

وقال تعالى: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[2] فالحسنى: الجنة، والزيادة: هي النظر إلى وجهه الكريم، فسرها بذلك رسول الله ﷺ والصحابة من بعده، كما روى مسلم في ((صحيحه)) عن صهيب، قال: ﴿ قرأ رسول الله ﷺ ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[3] قال: ((إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وهي الزيادة ﴾ . ورواه غيره بأسانيد متعددة وألفاظ أخر، معناها أن الزيادة: النظر إلى وجه الله عز وجل. وكذلك فسرها الصحابة رضي الله عنهم. روى ابن جرير ذلك[4]. عن جماعة، منهم: أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحذيفة، وأبو موسى الأشعري، وابن عباس، رضي الله عنهم.

وقال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾[5]. احتج الشافعي رحمه الله وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة، ذكر ذلك الطبري وغيره عن المزني عن الشافعي. وقال الحاكم: حدثنا الأصم حدثنا الربيع بن سليمان قال: حضرت

---

(١) سورة ق آية ٣٥ .

(٢) يونس آية ٢٦ .

(٣) سورة يونس آية ٢٦

(٤) الزيادة ضرورية لاتساق الكلام . وانظر الطبري ١١ : ٧٣- ٧٦ .

(٥) سورة المطففين آية ١٥ .

مُحَمدَ بْنَ إِدْرِيسَ الشافِعِي، وَقَدْ جَاءَتْه رُقْعَةٌ مِنَ الصعِيدِ فِيهَا: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللهِ ﷻ ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ﴾ [1] ؟ فَقَالَ الشافِعِي: لَما أَن حُجِبَ هَؤُلَاءِ فِي السخْطِ، كَانَ فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَن أَوْلِيَاءَه يرونَه فِي الرضَا .

[الرد عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي نَفْي الرؤْيَةِ]

وَأَما اسْتِدْلَالُ الْمُعْتَزِلَةِ بِقَوْلِه تَعَالَى: ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [2] وَبِقَوْلِه تَعَالَى: ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [3]. فَالْآيَتَانِ دَلِيلٌ عَلَيْهِمْ.

الْآيَةُ الْأُولَى: فَالِاسْتِدْلَالُ مِنْهَا عَلَى ثُبوتِ رُؤْيَتِهِ مِنْ وُجُوهٍ: أَحَدُهَا: أَنهُ لَا يُظَن بِكَلِيمِ اللهِ وَرَسُولِهِ الْكَرِيمِ وَأَعْلَمِ الناسِ بِرَبهِ فِي وَقْتِهِ - أَنْ يَسْأَلَ مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ، بَلْ هُوَ عِنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ الْمُحَالِ.

الثانِي: أَن اللهَ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ سُؤَالَه، وَلَما سَأَلَ نُوحٌ رَبهُ نَجَاةَ ابْنِهِ أَنْكَرَ سُؤَالَه، وَقَالَ: ﴿ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [4].

الثالِثُ: أَنهُ تَعَالَى قَالَ: ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [5] وَلَمْ يَقُلْ: إِني لَا أُرَى، أَوْ لَا تَجُوزُ رُؤْيَتِي، أَوْ لَسْتُ بِمَرْئِي. وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْجَوَابَيْنِ ظَاهِرٌ. أَلَا تَرى أَن مَنْ كَانَ فِي كُمهِ حَجَرٌ فَظَنهُ رَجُلٌ طَعَامًا فَقَالَ: أَطْعِمْنِيهِ، فَالْجَوَابُ الصحِيحُ: أَنهُ لَا يُؤْكَلُ، أَما إِذَا كَانَ طَعَامًا صَح أَنْ يُقَالَ: إِنكَ لَنْ تَأْكُلَهُ. وَهَذَا يَدُل عَلَى أَنهُ سُبْحَانَهُ مَرْئِي، وَلَكِن مُوسَى لَا تَحْتَمِلُ قُوَاهُ رُؤْيَتَهُ فِي هَذِهِ الدارِ، لِضَعْفِ قُوَى الْبَشَرِ فِيهَا عَنْ رُؤْيَتِهِ تَعَالَى. يُوَضحُهُ:

---

(١) سورة الْمُطَففِينَ آية ١٥ .
(٢) سورة الْأَعْرَافِ آية ١٤٣ .
(٣) سورة الْأَنعَامِ آية ١٠٣ .
(٤) سورة هُودٍ آية ٤٦ .
(٥) سورة الأعراف آية ١٤٣ .

الْوَجْهُ الرابِعُ: وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿ وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ ﴾ (١). فَأَعْلَمَهُ أن الْجَبلَ مَعَ قُوتِهِ وَصلَابَتِهِ لَا يَثْبتُ لِلتجَلي فِي هَذِهِ الدارِ، فَكَيْفَ بِالْبَشَرِ الذِي خُلِقَ مِنْ ضَعْفٍ ؟ الْخَامِسُ: أن اللهَ سُبْحَانَهُ قَادِرٌ عَلَى أنْ يَجْعَلَ الْجَبَلَ مُسْتقِرا، وَذَلِكَ مُمْكِنٌ، وَقَدْ عَلقَ بِهِ الرؤْيَةَ، وَلَوْ كَانَتْ مُحَالًا لَكَانَ نَظِير أنْ يَقُولَ: إنِ اسْتَقَرَّ الْجَبَلُ فَسَوْفَ آكُلُ وَأشْرَبُ وَأنَامُ. وَالْكُل عِنْدَهُمْ سَوَاءٌ.

السادِسُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ (٢) فَإذَا جَازَ أنْ يَتجَلى لِلْجَبلِ الذِي هُوَ جَمَادٌ لَا ثَوابَ لَهُ وَلَا عِقَابَ، فَكَيْفَ يَمْتَنِعُ أنْ يَتجَلى لِرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ؟ وَلَكِن اللهَ تَعَالَى أعْلَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السلَامُ أن الْجَبَلَ إذَا لَمْ يَثْبُتْ لِرُؤْيَتِهِ فِي هَذِهِ الدارِ، فَالْبَشَرُ أضْعَفُ.

السابِعُ: أن اللهَ كَلمَ مُوسَى وَنَادَاهُ وَنَاجَاهُ، وَمَنْ جَازَ عَلَيْهِ التكَلمُ وَالتكْلِيمُ وَأنْ يُسْمِعَ مُخَاطِبَهُ كَلَامَهُ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ - فَرُؤْيَتُهُ أوْلَى بِالْجَوَازِ. وَلِهَذَا لَا يَتم إنْكَارُ رُؤْيَتِهِ إلا بِإنْكَارِ كَلَامِهِ، وَقَدْ جَمَعُوا بَيْنَهُمَا. وَأما دَعْوَاهُمْ تَأْيِيدُ النفْيِ بِـ ((لَنْ)) وَأن ذَلِكَ يَدُل عَلَى نَفْيِ الرؤْيَةِ فِي الْآخِرَةِ، فَفَاسِدٌ، فَإنهَا لَوْ قُيدَتْ بِالتأْبِيدِ لَا يَدُل عَلَى دَوَامِ النفْيِ فِي الْآخِرَةِ، فَكَيْفَ إذَا أُطْلِقَتْ ؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ (٣) مَعَ قَوْلِهِ: ﴿ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ ﴾ (٤). وَلِأنهَا لَوْ كَانَتْ لِلتأْبِيدِ الْمُطلَقِ لَمَا جَازَ تَحْدِيدُ الْفِعْلِ بَعْدَهَا، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ ﴾ (٥). فَثَبت أن ((لَنْ)) لَا تَقْتَضِي النفْيَ الْمُؤَبدَ.

---

(١) سورة الْأَعْرَافِ آية ١٤٣ .

(٢) سورة الْأَعْرَافِ آية ١٤٣ .

(٣) سورة الْبَقَرَةِ آية ٩٥ .

(٤) سورة الزخْرُفِ آية ٧٧ .

(٥) سورة يُوسُفَ آية ٨٠ .

قَالَ الشيْخُ جَمَالُ الدينِ بنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

وَمَـنْ رَأَى الـنفْيَ بِلَـنْ مُؤَبـدًا فَقَوْلَـهُ أرْدُدْ وَسِـوَاهُ فَاعْضُـدَا

وَأما الْآيَةُ الثانِيَةُ: فَالْاسْتِدْلَالُ بِهَا عَلَى الرؤْيَةِ مِنْ وَجْهٍ حَسَنٍ لَطِيفٍ، وَهُوَ: أن اللهَ تَعَالَى إنمَا ذَكَرَهَا فِي سِيَاقِ التمَدحِ، وَمَعْلُومٌ أن الْمَدْحَ إنمَا يَكُونُ بِالصفَاتِ الثبُوتِية، وَأما الْعَدَمُ الْمَحْضُ فَلَيْسَ بِكَمَالٍ فَلَا يُمْدَحُ بِهِ، وَإِنمَا يَمْدَحُ الرب تَعَالَى بِالنفْيِ إذَا تَضَمنَ أَمْرًا وُجُودِيا، كَمَدْحِهِ بِنَفْيِ السنَةِ وَالنوْمِ، الْمُتَضَمنِ كَمَالَ الْقَيومِيةِ، وَنَفْيِ الْمَوْتِ الْمُتَضَمنِ كَمَالَ الْحَيَاةِ، وَنَفْيِ اللغُوبِ وَالْإِعْيَاءِ، الْمُتَضَمنِ كَمَالَ الْقُدْرَةِ، وَنَفْيِ الشرِيكِ وَالصاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَالظهِيرِ، الْمُتَضَمنِ كَمَالَ رُبُوبِيتِهِ وَإِلَهِيتِهِ وَقَهْرِهِ، [وَنَفْيِ الْأَكْلِ وَالشرْبِ الْمُتَضَمنِ كَمَالَ صمديته وَغِنَاهُ، وَنَفْيِ الشفَاعَةِ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ الْمُتَضَمنِ كَمَالَ تَوَحدِهِ وَغِنَاهُ عَنْ خَلْقِهِ] [(١)] وَنَفْيِ الظلْمِ، الْمُتَضَمنِ كَمَالَ عَدْلِهِ وَعِلْمِهِ وَغِنَاهُ، وَنَفْيِ النسْيَانِ وَعُزُوبِ شَيْءٍ عَنْ عِلْمِهِ، الْمُتَضَمنِ كَمَالَ عِلْمِهِ وَإِحَاطَتِهِ، وَنَفْيِ الْمِثْلِ، الْمُتَضَمنِ لِكَمَالِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ. وَلِهَذَا لَمْ يَتَمَدحْ بِعَدَمٍ مَحْضٍ لَمْ يَتَضَمنْ أَمْرًا ثُبُوتِيا، فَإِن الْمَعْدُومَ يُشَارِكُ الْمَوْصُوفَ فِي ذَلِكَ الْعَدَمِ، وَلَا يُوصَفُ الْكَامِلُ بِأَمْرٍ يَشْتَرِكُ هُوَ وَالْمَعْدُومُ فِيهِ، فَإِن الْمَعْنَى: أَنهُ يُرَى وَلَا يُدْرَكُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ، فَقَوْلُهُ: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [(٢)] يَدُل عَلَى كَمَالِ عَظَمَتِهِ، وَأَنهُ أَكْبَرُ مِنْ كُل شَيْءٍ، وَأَنهُ لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ لَا يُدْرَكُ بِحَيْثُ يُحَاطُ بِهِ، فَإِن الْإِدْرَاكَ هُوَ الْإِحَاطَةُ بِالشيْءِ، وَهُوَ قَدْرٌ زَائِدٌ عَلَى الرؤْيَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ﴾ [(٣)] فَلَمْ يَنْفِ مُوسَى الرؤْيَةَ، وَإِنمَا نَفَى الْإِدْرَاكَ، فَالرؤْيَةُ وَالْإِدْرَاكُ كُل مِنْهُمَا يُوجَدُ مَعَ الْآخَرِ وَبِدُونِهِ، فَالرب تَعَالَى يُرَى وَلَا يُدْرَكُ، كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا، وَهَذَا هُوَ الذِي فَهِمَهُ الصحَابَةُ وَالْأَئِمةُ مِنَ الْآيَةِ، كَمَا

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، وأثبتناه من النسخ الأخرى . ن .

(٢) سورة الْأنعامِ آية ١٠٣ .

(٣) سورة الشعَرَاءِ الآيتان ٦١-٦٢ .

ذُكِرَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ. بَلْ هَذِهِ الشمْسُ الْمَخْلُوقَةُ لَا يَتَمكن رَائِيهَا مِنْ إِدْرَاكِهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ.

[تَوَاتُرُ أَحَادِيثِ الرؤْيَةِ]

وَأما الْأَحَادِيثُ عَنِ النبِي ﷺ وَأَصْحَابِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، الدالةُ عَلَى الرؤْيَةِ فَمُتَوَاتِرَةٌ، رَوَاهَا أَصْحَابُ الصحَاحِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسنَنِ. فَمِنْهَا: حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ﴿: أَن نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَرَى رَبنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هَلْ تُضَارونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ؟ قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: هَلْ تُضَارونَ فِي الشمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ فَإِنكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ﴾ ، الْحَدِيثَ، أَخْرَجَاهُ فِي ((الصحِيحَيْنِ)) بِطُولِهِ.

وَحَدِيثُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي أَيْضًا فِي ((الصحِيحَيْنِ)) نَظِيرُهُ. وَحَدِيثُ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِي، قَالَ: ﴿ كُنا جُلُوسًا مَعَ النبِي ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ، فَقَالَ: إِنكُمْ سَتَرَوْنَ رَبكُمْ عِيَانًا، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا، لَا تُضَامونَ فِي رُؤْيَتِهِ ﴾ [(١)] ، الْحَدِيثَ أَخْرَجَاهُ فِي ((الصحِيحَيْنِ)). وَحَدِيثُ صُهَيْبٍ رضي الله عنه الْمُتَقَدمُ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَغَيْرُهُ. وَحَدِيثُ أَبِي مُوسَى عَنِ النبِي ﷺ قَالَ: ﴿ جَنتَانِ مِنْ فِضةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَرَوْا رَبهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنةِ عَدْنٍ ﴾ [(٢)] ، أَخْرَجَاهُ فِي ((الصحِيحَيْنِ)). وَمِنْ حَدِيثِ عَدِي بْنِ حَاتِمٍ رضي الله عنه ﴿ وَلَيَلْقَيَن اللهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ

---

(١) البخاري تفسير القرآن (٤٥٧٠) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٣) ، الترمذي صفة الجنة (٢٥٥١) ، أبو داود السنة (٤٧٢٩) ، ابن ماجه المقدمة (١٧٧) ، أحمد (٣٦٠/٤) .

(٢) البخاري تفسير القرآن (٤٥٩٧) ، مسلم الإيمان (١٨٠) ، أحمد (٤١٦/٤) ، الدارمي الرقاق (٢٨٢٢) .

لَه، فَليقُولن: أَلَمْ أَبعث إِلَيْكَ رَسُولًا فيبلغك ؟ فيقول: بَلَى يَا رَب، فيقول: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ ؟ فيقول، بَلَى يَا رَب ﴾[1]. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِي فِي ((صَحِيحِهِ)).

وَقَدْ رَوَى أَحَادِيثَ الرؤية نَحْوُ ثَلَاثِينَ صَحَابِيا. وَمَنْ أَحَاطَ بِهَا مَعْرِفَةً يَقْطَعُ بِأَن الرسُولَ قَالَهَا، وَلَوْلَا أَني الْتَزَمْتُ الاخْتِصَارَ لَسُقْتُ مَا فِي الْبَابِ مِنَ الْأَحَادِيثِ.

وَمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَيْهَا فَلْيُوَاظِبْ سَمَاعَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِية، فَإِن فِيهَا مَعَ إِثْبَاتِ الرؤية أَنَّهُ يُكَلِّمُ مَنْ شَاءَ إِذَا شَاءَ، وَأَنَّهُ يَأْتِي لِفَصْلِ الْقَضَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ، وَأَنَّهُ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، وَأَنَّهُ يَتَجَلَّى لِعِبَادِهِ، وَأَنَّهُ يَضْحَكُ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الصِّفَاتِ الَّتِي سَمَاعُهَا عَلَى الْجَهْمِيةِ بِمَنْزِلَةِ الصَّوَاعِقِ.

[أُصُولُ الدينِ لَا تُعْلَمُ إِلا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ]

وَكَيْفَ تُعْلَمُ أُصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ؟ وَكَيْفَ يُفَسرُ كِتَابُ اللهِ بِغَيْرِ مَا فَسَّرَهُ بِهِ رَسُولُهُ ﷺ وَأَصْحَابُ رَسُولِهِ، الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلُغَتِهِمْ ؟ وَقَدْ قَالَ ﷺ ﴿ مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ﴾[2]. وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿ مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ ﴾[3]. وَسُئِلَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ ﴾[4]. مَا الْأَبُّ ؟ فَقَالَ: أَيُّ سَمَاءٍ تُظِلُّنِي، وَأَيُّ أَرْضٍ تُقِلُّنِي، إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللهِ مَا لَا أَعْلَمُ ؟ وَلَيْسَ تَشْبِيهُ رُؤْيَةِ اللهِ تَعَالَى بِرُؤْيَةِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ تَشْبِيهًا لِلهِ، بَلْ هُوَ تَشْبِيهُ الرؤية بِالرؤية، لَا تَشْبِيهُ الْمَرْئِي بِالْمَرْئِي، وَلَكِنْ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ. وَإِلَّا فَهَلْ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِلَا مُقَابَلَةٍ ؟ وَمَنْ قَالَ: يُرَى لَا فِي جِهَةٍ، فَلْيُرَاجِعْ

---

(١) البخاري المناقب (٣٤٠٠) ، مسلم الزكاة (١٠١٦) ، النسائي الزكاة (٢٥٥٣) ، أحمد (٢٥٦/٤) .

(٢) الترمذي تفسير القرآن (٢٩٥١) ، أحمد (٢٣٣/١) .

(٣) الترمذي تفسير القرآن (٢٩٥٠) ، أحمد (٢٣٣/١) .

(٤) سورة عَبَسَ آية ٣١ .

عَقْلَهُ !! فَإما أَنْ يَكُونَ مُكابِرًا لِعَقْلِهِ أو فِي [1] عَقْلِهِ شَيْءٌ، وَإلا فَإذَا قَالَ يُرَى لَا أَمَامَ الرائي وَلَا خَلْفَهُ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ وَلَا عَنْ يَسَارِهِ وَلَا فَوْقَهُ وَلَا تَحْتَهُ، رَد عَلَيْهِ كُل مَنْ سَمِعَهُ بِفِطْرَتِهِ السلِيمَةِ.

[عَجْزُ الْأَبصَارِ عَنْ رُؤْيَتِهِ سُبْحَانَهُ فِي الدنْيَا]

وَلِهَذَا أَلْزَمَ الْمُعْتَزِلَةُ مَنْ نَفَى الْعُلُو بِالذاتِ بِنَفْيِ الرؤْيَةِ، وَقَالُوا: كَيْفَ تُعْقَلُ رُؤْيَةٌ بِغَيْرِ جِهَةٍ.

وَإِنمَا لَمْ نَرَهُ فِي الدنْيَا لِعَجْزِ أَبْصَارِنَا، لَا لِامْتِنَاعِ الرؤْيَةِ، فَهَذِهِ الشمْسُ إِذَا حَدقَ الرائِي الْبَصَرَ فِي شُعَاعِهَا ضَعُفَ عَنْ رُؤْيَتِهَا، لَا لِامْتِنَاعٍ فِي ذَاتِ الْمَرْئِي، بَلْ لِعَجْزِ الرائِي، فَإِذَا كَانَ فِي الدارِ الْآخِرَةِ أَكْمَلَ اللهُ قُوَى الْآدَمِيينَ حَتى أَطَاقُوا رُؤْيَتَهُ. وَلِهَذَا لما تَجَلى اللهُ لِلْجَبَلِ، خَر مُوسَى صَعِقًا فَلما أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَولُ الْمُؤْمِنِينَ سورة الْأَعْرَافِ آية ١٤٣، بِأَنهُ لَا يَرَاكَ حَي إِلا مَاتَ، وَلَا يَابِسٌ إِلا تَدَهْدَهَ، وَلِهَذَا كَانَ الْبَشَرُ يَعْجِزُونَ عَنْ رُؤْيَةِ الْمَلَكِ فِي صُورَتِهِ، إِلا مَنْ أَيدَهُ اللهُ كَمَا أَيدَ نَبِينَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [2]. قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السلَفِ: لَا يُطِيقُونَ أَنْ يَرَوُا الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ، فَلَوْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ فِي صُورَةِ بَشَرٍ، وَحِينَئِذٍ يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ: هَلْ هُوَ بَشَرٌ أَوْ مَلَكٌ ؟ وَمِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْنَا أَنْ بَعَثَ فِينَا رَسُولًا مِنا.

وَمَا أَلْزَمَهُمُ الْمُعْتَزِلَةُ هَذَا الْإِلْزَامَ إِلا لَما وَافَقُوهُمْ عَلَى أَنهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ. لَكِن قَوْلَ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا يُرَى لَا فِي جِهَةٍ، أَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ مِنْ قَوْلِ مَنْ أَثْبَتَ مَوْجُودًا قَائِمًا بِنَفْسِهِ لَا يُرَى وَلَا فِي جِهَةٍ.

وَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ بِنَفْيِ الرؤْيَةِ لِانْتِفَاءِ لَازِمِهَا وَهُوَ الْجِهَةُ: أَتُرِيدُ بِالْجِهَةِ أَمْرًا وُجُودِيا أَوْ أَمْرًا عَدَمِيا ؟ فَإِنْ أَرَادَ بِهَا أَمْرًا وُجُودِيا كَانَ التقْدِيرُ: كُل مَا لَيْسَ فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ لَا

---

(١) في الأصل : (لعقلها وفي) والصواب ما أثبتناه ، كما في بعض النسخ . ن .

(٢) سورة الْأَنْعَامِ آية ٨ .

يُرى، وَهَذِهِ الْمُقَدِمَةُ مَمْنوعَةٌ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى إِثْبَاتِهَا، بَلْ هِيَ بَاطِلَةٌ، فَإِن سَطْحَ الْعَالَمِ يُمْكِنُ أَنْ يُرَى، وَلَيْسَ الْعَالَمُ فِي عَالَمٍ آخَرَ. وَإِنْ أَرَدْتَ بِالْجِهَةِ أَمْرًا عَدَمِيا، فَالْمُقَدِمَةُ الثَانِيَةُ مَمْنُوعَةٌ، فَلَا نُسَلمُ أَنهُ لَيْسَ فِي جِهَةٍ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ.

وَكَيْفَ يَتَكَلمُ فِي أُصُولِ الدينِ مَنْ لَا يَتَلَقاهُ مِنَ الْكِتَابِ وَالسنةِ، وَإِنمَا يَتَلَقاهُ مِنْ قَوْلِ فُلَانٍ ؟! وَإِذَا زَعَمَ أَنهُ يَأْخُذُهُ مِنْ كِتَابِ اللهِ لَا يَتَلَقى تَفْسِيرَ كِتَابِ اللهِ مِنْ أَحَادِيثِ الرسُولِ، وَلَا يَنْظُرُ فِيهَا، وَلَا فِيمَا قَالَهُ الصحَابَةُ وَالتابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، الْمَنْقُولِ إِلَيْنَا عَنِ الثقَاتِ النقَلَةِ، الذِينَ تَخَيرَهُمُ النقادُ، فَإِنهُمْ لَمْ يَنْقُلُوا نَظْمَ الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، بَلْ نَقَلُوا نَظْمَهُ وَمَعْنَاهُ، وَلَا كَانُوا يَتَعَلمُونَ الْقُرْآنَ كَمَا يَتَعَلمُ الصبْيَانُ، بَلْ يَتَعَلمُونَهُ بِمَعَانِيهِ. وَمَنْ لَا يَسْلُكُ سَبِيلَهُمْ فَإِنمَا يَتَكَلمُ بِرَأْيِهِ، وَمَنْ يَتَكَلمُ بِرَأْيِهِ وَمَا يَظُنهُ دِينَ اللهِ وَلَمْ يَتَلَق ذَلِكَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسنةِ فَهُوَ مَأْثُومٌ وَإِنْ أَصَابَ، وَمَنْ أَخَذَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسنةِ فَهُوَ مَأْجُورٌ وَإِنْ أَخْطَأَ، لَكِنْ إِنْ أَصَابَ يُضَاعَفُ أَجْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: (وَالرؤْيَةُ حَق لِأَهْلِ الْجَنةِ) تَخْصِيصُ أَهْلِ الْجَنةِ بِالذكْرِ، يُفْهَمُ مِنْهُ نَفْيُ الرؤْيَةِ عَنْ غَيْرِهِمْ. وَلَا شَك فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الْجَنةِ لِرَبهِمْ فِي الْجَنةِ، وَكَذَلِكَ يَرَوْنَهُ فِي الْمَحْشَرِ قَبْلَ دُخُولِهِمُ الْجَنةَ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي ((الصحِيحَيْنِ)) عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ. وَيَدُل عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ﴾[1]. وَاخْتُلِفَ فِي رُؤْيَةِ أَهْلِ الْمَحْشَرِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنهُ لَا يَرَاهُ إِلا الْمُؤْمِنُونَ.

الثانِي: يَرَاهُ أَهْلُ الْمَوْقِفِ، مُؤْمِنُهُمْ وَكَافِرُهُمْ، ثُم يَحْتَجِبُ عَنِ الْكُفارِ وَلَا يَرَوْنَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

الثالِثُ: يَرَاهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنَافِقُونَ دُونَ بَقِيةِ الْكُفارِ. وَكَذَلِكَ الْخِلَافُ فِي تَكْلِيمِهِ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ.

---

(١) سورة الْأَحْزَابِ آية ٤٤ .

[الاتفاق على أنه لا يرى الله تعالى أحد في الدنيا بعينيه]

واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد في الدنيا بعينيه، ولم يتنازعوا في ذلك إلا في نبينا ﷺ خاصة: منهم من نفى رؤيته بالعين، ومنهم من أثبتها له ﷺ. وحكى القاضي عياض في كتابه " الشفا " اختلاف الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم في رؤيته ﷺ وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون ﷺ رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها: هل رأى محمد ربه ؟ فقالت: لقد قف شعري مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب. ثم قال: وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبي هريرة واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه ﷺ رأى ربه بعينيه، وروى عطاء عنه: أنه رآه بقلبه. ثم ذكر أقوالًا وفوائد، ثم قال:

وأما وجوبه لنبينا ﷺ والقول بأنه رآه بعينيه فليس فيه قاطع ولا نص، والمعول فيه على آية النجم، والتنازع فيها مأثور، والاحتمال لها ممكن، وهذا القول الذي قاله القاضي عياض رحمه الله هو الحق، فإن الرؤية في الدنيا ممكنة، إذ لو لم تكن ممكنة، لما سألها موسى عليه السلام، لكن لم يرد نص بأنه ﷺ رأى ربه بعين رأسه، بل ورد ما يدل على نفي الرؤية، وهو ما رواه مسلم في ((صحيحه))، عن أبي ذر ﷺ قال: سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك ؟ فقال: ﴿نور أنى أراه﴾ [1]. وفي رواية: ﴿رأيت نورًا﴾ [2].

وقد روى مسلم أيضًا عن أبي موسى الأشعري ﷺ أنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: ﴿إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، (وفي رواية:

(١) مسلم الإيمان (١٧٨) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٨٢) ، أحمد (١٧٥/٥) .

(٢) مسلم الإيمان (١٧٨) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٨٢) ، أحمد (١٧٥/٥) .

النارُ)، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ﴾ [(١)]. فَيَكُونُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - مَعْنَى قَوْلِهِ لِأَبِي ذَر ﴿ رَأَيْتُ نُورًا ﴾ [(٢)] : أَنَّهُ رَأَى الْحِجَابَ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ " ﴿ نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ ﴾ [(٣)] : النورُ الذِي هُوَ الْحِجَابُ يَمْنَعُ مِنْ رُؤْيَتِهِ، فَأَنى أَرَاهُ ؟ أَيْ فَكَيْفَ أَرَاهُ وَالنورُ حِجَابٌ بَيْنِي وَبَيْنَهُ يَمْنَعُنِي مِنْ رُؤْيَتِهِ ؟ فَهَذَا صَرِيحٌ فِي نَفْيِ الرؤْيَةِ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَحَكَى عُثْمَانُ بْنُ سَعِيدٍ الدارمي اتفاقَ الصحَابَةِ عَلَى ذَلِكَ، وَنَحَا ذكر مصحح المطبوعة أن في الأصل " ونحن" واستظهر أن تكون " ونحا".،انا أراه الصواب الذي لا محيص عن إثباته. إِلَى تَقْرِيرِ رُؤْيَتِهِ لِجِبْرِيلَ أَحْوَجُ منا إِلَى تَقْرِيرِ رُؤْيَتِهِ لِرَبهِ تَعَالَى، وَإِنْ كَانَتْ رُؤْيَةُ الرب تَعَالَى أَعْظَمَ وَأَعْلَى، فَإِن النُّبوةَ لَا يَتَوَقفُ ثُبُوتُهَا عَلَيْهَا أَلْبَتةَ.

وَقَوْلُهُ: " بِغَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا كَيْفِيةٍ " هَذَا لِكَمَالِ عَظَمَتِهِ وَبَهَائِهِ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَلَا تُحِيطُ بِهِ، كَمَا يُعْلَمُ وَلَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا. قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [(٤)]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [(٥)]

[تَأْوِيلُ الْمُعْتَزِلَةِ تَحْرِيفٌ لِكَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ]

وَقَوْلُهُ: " وَتَفْسِيرُهُ عَلَى مَا أَرَادَ اللهُ وَعَلِمَهُ " إِلَى أَنْ قَالَ: " لَا نَدْخُلُ فِي ذَلِكَ مُتَأَوِّلِينَ بِآرَائِنَا وَلَا مُتَوَهِّمِينَ بِأَهْوَائِنَا " أَيْ كَمَا فَعَلَتِ الْمُعْتَزِلَةُ بِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسنةِ فِي الرؤْيَةِ، وَذَلِكَ تَحْرِيفٌ لِكَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ. فَالتأْوِيلُ الصحِيحُ هُوَ الذِي يُوَافِقُ مَا جَاءَتْ بِهِ السنةُ، وَالْفَاسِدُ الْمُخَالِفُ لَهُ. فَكُل تَأْوِيلٍ لَمْ يَدُل عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ السيَاقِ، وَلَا مَعَهُ

---

(١) مسلم الإيمان (١٧٩) ، أحمد (٤٠٥/٤) .

(٢) مسلم الإيمان (١٧٨) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٨٢) ، أحمد (١٧٥/٥) .

(٣) مسلم الإيمان (١٧٨) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٢٨٢) ، أحمد (١٧٥/٥) .

(٤) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

(٥) سورة طه آية ١١٠ .

قرينة تقتضيه، فإن هذا لا يقصده المبين الهادي بكلامه، إذ لو قصده لحف بالكلام قرائن تدل على المعنى المخالف لظاهره، حتى لا يوقع السامع في اللبس والخطأ، فإن الله أنزل كلامه بيانا وهدى، فإذا أراد به خلاف ظاهره، ولم يحف به قرائن تدل على المعنى الذي يتبادر غيره إلى فهم كل أحد، لم يكن بيانا ولا هدى. فالتأويل إخبار بمراد المتكلم لا إنشاء.

وفي هذا الموضع يغلط كثير من الناس، فإن المقصود فهم مراد المتكلم بكلامه، فإذا قيل: معنى اللفظ كذا وكذا، كان إخبارا بالذي عناه المتكلم، فإن لم يكن الخبر مطابقا كان كذبا على المتكلم.

[الطرق التي يعرف بها مراد المتكلم]

ويعرف مراد المتكلم بطرق متعددة:

منها: أن يصرح بإرادة ذلك المعنى.

ومنها: أن يستعمل اللفظ الذي له معنى ظاهر بالوضع، ولا يبين بقرينة تصحب الكلام أنه لم يرد ذلك المعنى، فكيف إذا حف بكلامه ما يدل على أنه إنما أراد حقيقته وما وضع له، كقوله: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴿١٦٤﴾ ﴾[1]. و «إنكم ترون ربكم عيانا كما ترون الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب»[2]. فهذا مما يقطع به السامع له بمراد المتكلم، فإذا أخبر عن مراده بما دل عليه حقيقة لفظه الذي وضع له مع القرائن المؤكدة، كان صادقا في إخباره. وأما إذا تأول الكلام بما لا يدل عليه ولا اقترن به ما يدل عليه، فإخباره بأن هذا مراده كذب عليه، وهو تأويل بالرأي، وتوهم بالهوى.

---

(١) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٢) البخاري الأذان (٧٧٣) ، مسلم الإيمان (١٨٢) ، أحمد (٢/٢٧٦) ، الدارمي الرقاق (٢٨٠١) .

وَحَقِيقَةُ الْأَمرِ: أن قَوْلَ الْقَائِلِ: نَحْمِلُهُ عَلَى كَذَا، أَوْ: نَتأولُه بِكَذَا، إنمَا هُوَ مِنْ بَابِ دَفْعِ دَلَالَةِ اللفْظِ عَما وُضِعَ لَه، فَإن مُنَازِعَهُ لَما احْتج عَلَيْهِ بِهِ وَلَمْ يمكِنْه دَفْعُ وُرُودِه، دَفَعَ مَعْنَاه، وقَالَ: أَحْمِلُه عَلَى خِلَافِ ظَاهِرِه.

فَإنْ قِيلَ: بَلْ لِلْحَمْلِ مَعْنًى آخَرَ، لَمْ تَذْكُرُوه، وَهُوَ: أن اللفْظَ لَما اسْتَحَالَ أَنْ يُرَادَ بِهِ حَقِيقَتُهُ وَظَاهِرُه، وَلَا يُمْكِنُ تَعْطِيلُهُ، اسْتَدْلَلْنَا بِوُرُودِه وَعَدَمِ إرَادَةِ ظَاهِرِه عَلَى أن مَجَازَهُ هُوَ الْمُرَادُ، فَحَمَلْنَاهُ عَلَيْهِ دَلَالَةً لَا ابْتِدَاءً.

قِيلَ: فَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْإِخْبَارُ عَنِ الْمُتَكلمِ أنهُ أَرَادَهُ، وَهُوَ إما صِدْقٌ وَإما كَذِبٌ، كَمَا تَقَدمَ، وَمِنَ الْمُمْتَنِعِ أَنْ يُرِيدَ خِلَافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ وَلَا يُبَينُ لِلسامِعِ الْمَعْنَى الذِي أَرَادَهُ، بَلْ يَقْرِنُ بِكَلَامِهِ مَا يُؤَكدُ إرَادَةَ الْحَقِيقَةِ، وَنَحْنُ لَا نَمْنَعُ أن الْمُتَكلمَ قَدْ يُرِيدُ بِكَلَامِهِ خِلَافَ ظَاهِرِه، إذَا قَصَدَ التعْمِيَةَ عَلَى السامِعِ حَيْثُ يَسُوغُ ذَلِكَ، وَلَكِن الْمُنْكَرَ أَنْ يُرِيدَ بِكَلَامِهِ خِلَافَ حَقِيقَتِهِ وَظَاهِرِهِ إذَا قَصَدَ الْبَيَانَ وَالْإِيضَاحَ وَإِفْهَامَ مُرَادِه ! كَيْفَ وَالْمُتَكلمُ يُؤَكدُ كَلَامَهُ بِمَا يَنْفِي الْمَجَازَ، وَيُكَررُهُ غَيْرَ مَرةٍ، وَيَضْرِبُ لَهُ الْأَمْثَالَ.

[لَا تَعَارُضَ بَيْنَ مَنْقُولٍ صَحِيحٍ وَمَعْقُولٍ صَرِيحٍ]

وَقَوْلُهُ: " فَإنهُ مَا سَلِمَ فِي دِينِهِ إلا مَنْ سَلمَ لِلهِ ﷻ وَلِرَسُولِهِ ﷺ وَرَد عِلْمَ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إلَى عَالِمِهِ ".

أَيْ: سَلمَ لِنُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسنةِ، وَلَمْ يَعْتَرِضْ عَلَيْهَا بِالشكُوكِ وَالشبَهِ وَالتأْوِيلَاتِ الْفَاسِدَةِ، أَوْ بِقَوْلِهِ: الْعَقْلُ يَشْهَدُ بِضِد مَا دَل عَلَيْهِ النقْلُ ! وَالْعَقْلُ أَصْلُ النقْلِ ! ! فَإذَا عَارَضَهُ قَدمْنَا الْعَقْلَ ! ! وَهَذَا لَا يَكُونُ قَط. لَكِنْ إذَا جَاءَ مَا يُوهِمُ مِثْلَ ذَلِكَ: فَإنْ كَانَ النقْلُ صَحِيحًا فَذَلِكَ الذِي يُدعَى أنهُ مَعْقُولٌ إنمَا هُوَ مَجْهُولٌ، وَلَوْ حَقق النظَرَ لَظَهَرَ ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ النقْلُ غَيْرَ صَحِيحٍ فَلَا يَصْلُحُ لِلْمُعَارَضَةِ، فَلَا يُتَصَورُ أَنْ يَتَعَارَضَ عَقْلٌ صَرِيحٌ وَنَقْلٌ صَحِيحٌ أَبَدًا. وَيُعَارَضُ كَلَامُ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ بِنَظِيرِه، فَيُقَالُ: إذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنقْلُ وَجَبَ تَقْدِيمُ النقْلِ، لِأن الْجَمْعَ بَيْنَ الْمَدْلُولَيْنِ جَمْعٌ بَيْنَ النقِيضَيْنِ، وَرَفْعُهُمَا رَفْعُ النقِيضَيْنِ، وَتَقْدِيمُ الْعَقْلِ مُمْتَنِعٌ، لِأن الْعَقْلَ قَدْ دَل عَلَى صِحةِ السمْعِ وَوُجُوبِ قَبُولِ مَا

أخْبَرَ بِهِ الرسُولُ ﷺ فَلَوْ أبطَلْنا النقْلَ لَكُنا قَدْ أبطَلْنا دَلَالَةَ الْعَقْلِ، وَلَوْ أبطَلْنا دَلَالَةَ الْعَقْلِ لَمْ يَصْلُحْ أَنْ يَكُونَ مُعَارِضًا لِلنقْلِ، لِأن مَا لَيسَ بِدَلِيلٍ لَا يَصْلُحُ لِمُعَارَضَةِ شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، فَكَانَ تَقْدِيمُ الْعَقْلِ مُوجِبًا عَدَمَ تَقْدِيمِهِ، فَلَا يَجُوزُ تَقْدِيمُهُ. وَهَذَا بَينٌ وَاضِحٌ، فَإِن الْعَقْلَ هُوَ الذِي دَل عَلَى صِدْقِ السمْعِ وَصِحتِهِ، وَأن خَبَرَهُ مُطَابِقٌ لِمُخْبِرِهِ، فَإِنْ جَازَ أَنْ تَكُونَ الدلَالَةُ بَاطِلَةً لِبُطْلَانِ النقْلِ لَزِمَ أنْ لَا يَكُونَ الْعَقْلُ دَلِيلًا صَحِيحًا، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ دَلِيلًا صَحِيحًا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُتبَعَ بِحَالٍ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَدمَ، فَصَارَ تَقْدِيمُ الْعَقْلِ عَلَى النقْلِ قَدْحًا فِي الْعَقْلِ.

[وُجُوبُ كَمَالِ التسْلِيمِ لِلرسُولِ]

فَالْوَاجِبُ كَمَالُ التسْلِيمِ لِلرسُولِ ﷺ وَالْانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ، وَتَلَقي خَبَرِهِ بِالْقَبُولِ وَالتصْدِيقِ، دُونَ أَنْ يُعَارِضَهُ بِخَيَالٍ بَاطِلٍ يُسَميهِ مَعْقُولًا، أَوْ نُحَملَهُ شُبْهَةً [1] أَوْ شَكًّا، أَوْ يُقَدمَ عَلَيْهِ آرَاءَ الرجَالِ وَزُبَالَةَ أَذْهَانِهِمْ، فَيُوَحدَهُ بِالتحْكِيمِ وَالتسْلِيمِ وَالْانْقِيَادِ وَالْإِذْعَانِ، كَمَا وَحدَ الْمُرْسِلَ بِالْعِبَادَةِ وَالْخُضُوعِ وَالذلِ وَالْإِنَابَةِ وَالتوَكلِ.

[التوْحِيدَانِ اللذَانِ لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إِلا بِهِمَا]

فَهُمَا تَوْحِيدَانِ، لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللهِ إلا بِهِمَا: تَوْحِيدُ الْمُرْسِلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرسُولِ، فَلَا يُحَاكِمُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ، وَلَا يَقِفُ تَنْفِيذَ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقَ خَبَرِهِ عَلَى عَرْضِهِ عَلَى قَوْلِ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ وَذَوِي مَذْهَبِهِ وَطَائِفَتِهِ وَمَنْ يُعَظمُهُ، فَإِنْ أَذِنُوا لَهُ نَفذَهُ وَقَبِلَ خَبَرَهُ، وَإِلا فَإِنْ طَلَبَ السلَامَةَ فَوضَهُ إِلَيْهِمْ وَأَعْرَضَ عَنْ أَمْرِهِ وَخَبَرِهِ، وَإِلا حَرفَهُ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَسَمى تَحْرِيفَهُ تَأْوِيلًا وَحَمْلًا، فَقَالَ: نُؤَوِّلُهُ وَنَحْمِلُهُ. فَلَأَنْ يَلْقَى الْعَبْدُ رَبهُ بِكُل ذَنْبٍ - مَا خَلَا الْإِشْرَاكَ بِاللهِ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِهَذِهِ الْحَالِ.

بَلْ إِذَا بَلَغَهُ الْحَدِيثُ الصحِيحُ يَعُد نَفْسَهُ كَأَنهُ سَمِعَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَهَلْ يَسُوغُ أَنْ يُؤَخرَ قَبُولَهُ وَالْعَمَلَ بِهِ حَتى يَعْرِضَهُ عَلَى رَأْيِ فُلَانٍ وَكَلَامِهِ وَمَذْهَبِهِ؟ ! بَلْ كَانَ الْفَرْضُ الْمُبَادَرَةَ إِلَى امْتِثَالِهِ، مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ إِلَى سِوَاهُ، وَلَا يَسْتَشْكِلُ قَوْلَهُ لِمُخَالَفَتِهِ رَأْيَ فُلَانٍ، بَلْ

(١) في المطبوعة " بشبهة " وهو خطأ .

تُستشكلُ الْآرَاءُ لقوله، وَلَا يُعَارضُ نصه بقياس، بَلْ تُهْدَرُ الْأَقْيسَةُ، وَتُلْغَى لنُصُوصِهِ، وَلَا يُحَرفُ كَلَامُهُ عَنْ حَقيقته، لخَيَال يُسميه أَصْحَابُه مَعْقُولًا، نَعَمْ هُوَ مَجْهُولٌ، وَعَنِ الصوَابِ مَعْزُولٌ ! وَلَا يُوقَفُ قُبولُ قَوْله عَلَى مُوَافَقَة فُلَان دُونَ فُلَان، كَائنًا مَنْ كَانَ.

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدثنَا أَنسُ بْنُ عِيَاض، حَدثنَا أَبُو حَازم، عَنْ عَمْرو بن شُعْيب، عَنْ أَبِيه، عَنْ جَده، قَالَ: ﴿ لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلسًا مَا أُحب أَن لي بِهِ حُمْرَ النعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشْيَخَةٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَاب مِنْ أَبْوَابِه، فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً، إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فيهَا، حَتى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُغْضَبًا، قَدِ احْمَر وَجْهُهُ، يَرْمِيهِمْ بِالترَابِ، وَيَقُولُ: مَهْلًا يَا قَوْمِ ! بِهَذَا أُهْلكَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلكُمْ، بِاخْتلَافهِمْ عَلَى أَنْبِيَائهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْض، إِن الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدوهُ إِلَى عَالمِهِ ﴾ (١) (٢).

وَلَا شَك أَن اللهَ قَدْ حَرمَ الْقَوْلَ عَلَيْهِ بِغَيْرِ علْم، قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٣). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ (٤) فَعَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ مَا بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ هُوَ الْحَق

(١) مسلم العلم (٢٦٦٦) ، ابن ماجه المقدمة (٨٥) ، أحمد (١٨١/٢) .

(٢) هو الحديث : ٦٧٠٢ في مسند الإمام أحمد ، بتحقيقنا . وهو حديث صحيح . ومعناه ثابت في المسند أيضًا ، مختصرًا ، برقم : ٦٦٦٨ . وثابت أيضًا باختصار ، من رواية عبد الرزاق عن معمر عن عمرو بن شعيب ، رواه أحمد : ٦٧٤١ ، عن عبد الرزاق ، ورواه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد ، ص : ٧٨ ، من طريق عبدالرزاق : وروى مسلم في صحيحه ٢ : ٣٠٤ ، نحو معناه من رواية عبد الله بن رباح عن عبد الله بن عمرو بن العاص . وهو كذلك في المسند : ٦٨٠١ .

(٣) سورة الْأَعْرَاف آية ٣٣ .

(٤) سورة الْإِسْرَاء آية ٣٦ .

الذِي يَجِبُ اتباعُهُ، فُيصَدقُ بِأنهُ حَق وَصِدْقٌ، وَمَا سِوَاهُ مِنْ كلَامِ سَائِرِ الناسِ يُعْرَضُ عَلَيْهِ، فَإنْ وَافَقَهُ فَهُوَ حَق، وَإنْ خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ هَلْ خَالَفَهُ أَوْ وَافَقَهُ لِكَوْنِ ذَلِكَ الْكَلَامِ مُجْمَلًا لَا يَعْرِفُ مُرَادَ صَاحِبِهِ، أَوْ قَدْ عَرَفَ مُرَادَهُ لَكِنْ لَمْ يَعْرِفْ هَلْ جَاءَ الرسُولُ بِتَصْدِيقِهِ أَوْ بِتَكْذِيبِهِ - فَإِنهُ يُمْسِكُ عَنْهُ، وَلَا يَتَكَلمُ إِلا بِعِلْمٍ، وَالْعِلْمُ مَا قَامَ عَلَيْهِ الدلِيلُ، وَالنافِعُ مِنْهُ مَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ.

[لَا حَرَجَ فِي أَخْذِ الْأُمُورِ الْمَادِيةِ عَنْ غَيْرِ الرسُولِ]

وَقَدْ يَكُونُ عِلْمٌ عَنْ غَيْرِ الرسُولِ، لَكِنْ فِي الْأُمُورِ الدنْيَوِيةِ، مِثْلَ الطب وَالْحِسَابِ وَالْفِلَاحَةِ، وَأَما الْأُمُورُ الْإِلَهِيةُ وَالْمَعَارِفُ الدينِيةُ، فَهَذِهِ الْعِلْمُ فِيهَا مَا أُخِذَ عَنِ الرسُولِ لَا غَيْرَ.

[الْعَقْلُ مَعَ النقْل كَالْمُقَلدِ مَعَ الْمُجْتَهِدِ]

قَوْلُهُ: (وَلَا تَثْبتُ قَدَمُ الْإِسْلَامِ إلا عَلَى ظَهْرِ التسْلِيمِ وَالِاسْتِسْلَامِ).

ش: هَذَا مِنْ بَابِ الِاسْتِعَارَةِ، إِذِ الْقَدَمُ الْحِسي لَا تَثْبتُ إلا عَلَى ظَهْرِ شَيْءٍ. أَيْ لَا يَثْبتُ إِسْلَامُ مَنْ لَمْ يسلمْ لِنُصُوصِ الْوَحْيَيْنِ، وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا، وَلَا يَعْتَرِضُ عَلَيْهَا وَلَا يُعَارِضُهَا بِرَأْيِهِ وَمَعْقُولِهِ وَقِيَاسِهِ. رَوَى الْبُخَارِي عَنِ الْإِمَامِ مُحَمدِ بْنِ شِهَابٍ الزهْرِي رَحِمَهُ اللهُ أَنهُ قَالَ: مِنَ اللهِ الرسَالَةُ، وَمِنَ الرسُولِ الْبَلَاغُ، وَعَلَيْنَا التسْلِيمُ. وَهَذَا كَلَامٌ جَامِعٌ نَافِعٌ.

وَمَا أَحْسَنَ الْمَثَلَ الْمَضْرُوبَ لِلنقْلِ مَعَ الْعَقْلِ، وَهُوَ: أَن الْعَقْلَ مَعَ النقْلِ كَالْعَامي الْمُقَلدِ مَعَ الْعَالِمِ الْمُجْتَهِدِ، بَلْ هُوَ دُونَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، فَإِن الْعَامي يُمْكِنُهُ أَنْ يَصِيرَ عَالِمًا، وَلَا يُمْكِنُ لِلْعَالِمِ أَنْ يَصِيرَ نَبِيا رَسُولًا، فَإِذَا عَرَفَ الْعَامي الْمُقَلدُ عَالِمًا، فَدَل عَلَيْهِ عَامِيا آخَرَ. ثُم اخْتَلَفَ الْمُفْتِي وَالدال، فَإِن الْمُسْتَفْتِيَ يَجِبُ عَلَيْهِ قَبُولُ قَوْلِ الْمُفْتِي، دُونَ الدال، فَلَوْ قَالَ الدال: الصوَابُ مَعِي دُونَ الْمُفْتِي، لِأَني أَنَا الْأَصْلُ فِي عِلْمِكَ بِأَنهُ مُفْتٍ، فَإِذَا قَدمْتَ قَوْلَهُ عَلَى قَوْلِي قَدَحْتَ فِي الْأَصْلِ الذِي بِهِ عَرَفْتَ أَنهُ مُفْتٍ، فَلَزِمَ الْقَدْحُ فِي فَرْعِهِ ! فَيَقُولُ لَهُ الْمُسْتَفْتِي: أَنْتَ لما شَهِدْتَ لَهُ بِأَنهُ مُفْتٍ، وَدَلَلْتَ عَلَيْهِ، شَهِدْتَ لَهُ بِوُجُوبِ تَقْلِيدِهِ دُونَكَ، فَمُوَافَقَتِي لَكَ فِي هَذَا الْعِلْمِ الْمُعَينِ، لَا تَسْتَلْزِمُ مُوَافَقَتَكَ فِي كُل مَسْأَلَةٍ، وَخَطَؤُكَ فِيمَا خَالَفْتَ فِيهِ الْمُفْتِيَ الذِي هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، لَا يَسْتَلْزِمُ خَطَأَكَ فِي عِلْمِكَ بِأَنهُ مُفْتٍ، هَذَا مَعَ عِلْمِهِ أَن ذَلِكَ الْمُفْتِيَ قَدْ يُخْطِئُ.

وَالْعَاقِلُ يَعْلَمُ أَن الرسُولَ مَعْصُومٌ فِي خَبَرِهِ عَنِ اللهِ تَعَالَى، لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْخَطَأُ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ التسْلِيمُ لَهُ وَالِانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ، وَقَدْ عَلِمْنَا بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ أَن الرجُلَ لَوْ قَالَ لِلرسُولِ: هَذَا الْقُرْآنُ الذِي تُلْقِيهِ عَلَيْنَا، وَالْحِكْمَةُ التِي جِئْتَنَا بِهَا، قَدْ تَضَمنَ كُل مِنْهُمَا أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تُنَاقِضُ مَا عَلِمْنَاهُ بِعُقُولِنَا، وَنَحْنُ إِنمَا عَلِمْنَا صِدْقَكَ بِعُقُولِنَا، فَلَوْ قَبِلْنَا جَمِيعَ مَا تَقُولُهُ مَعَ أَن عُقُولَنَا تُنَاقِضُ ذَلِكَ لَكَانَ قَدْحًا فِي مَا عَلِمْنَا بِهِ صِدْقَكَ، فَنَحْنُ نَعْتَقِدُ مُوجِبَ الْأَقْوَالِ الْمُنَاقِضَةِ لِمَا ظَهَرَ مِنْ كَلَامِكَ، وَكَلَامُكَ نُعْرِضُ عَنْهُ، لَا نَتَلَقى مِنْهُ هَدْيًا وَلَا عِلْمًا، لَمْ يَكُنْ مِثْلُ هَذَا الرجُلِ مُؤْمِنًا بِمَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ، وَلَمْ يَرْضَ مِنْهُ الرسُولُ بِهَذَا،

بَلْ يَعْلَمُ أن هَذَا لَوْ سَاغَ لَأمكَنَ كُل أحَدٍ أنْ لَا يُؤْمِنَ بِشَيْءٍ مما جَاءَ بِهِ الرسُولُ، إِذِ الْعُقُولُ مُتفَاوِتَةٌ، وَالشُبهَاتُ كَثِيرَةٌ، وَالشَيَاطِينُ لَا تَزَالُ تُلْقِي الْوَسَاوِسَ فِي النفُوسِ، فَيُمكِنُ كُل أحَدٍ أنْ يَقُولَ مِثْلَ هَذَا فِي كُل مَا أخْبَرَ بِهِ الرسُولُ وَمَا أمَرَ بِهِ ! ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [1] وَقَالَ: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [2] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [3]. ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [4]. ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [5]. ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ ﴾ [6] ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [7] ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [8] وَنظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ.

فَأمْرُ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ: إما أنْ يَكُونَ الرسُولُ تَكَلمَ فِيهِ (بِمَا يَدُل) [9] عَلَى الْحَق أمْ لَا ؟ الثانِي بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَكَلمَ عَلَى الْحَق بِألْفَاظٍ مُجْمَلَةٍ مُحْتَمِلَةٍ، فَمَا بَلغَ

---

(١) سورة المائدة آية ٩٩ .

(٢) سورة النحْل آية ٣٥ .

(٣) سورة إِبْراهِيمَ آية ٤ .

(٤) سورة الْمَائِدَة آية ١٥ .

(٥) سورة الزخرف الآيتان ١ ، ٢ .

(٦) سورة الشعراء آية ٢ .

(٧) سورة يُوسُفَ آية ١١١ .

(٨) سورة النحْل آية ٨٩ .

(٩) الزيادة ضرورية لصحة الكلام . لم تذكر في المطبوعة .

البلاغ المبين، وقد شهد له خير القرون بالبلاغ، وأشهد الله عليهم في الموقف الأعظم، فمن يدعي أنه في أصول الدين لم يبلغ البلاغ المبين، فقد افترى عليه ﷺ.

[التكلمُ في أمورِ الدينِ بغيرِ علمٍ]

[النهيُ عن التكلمِ في أمورِ الدينِ بغيرِ علمٍ]

قوله: (فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان).

ش: هذا تقرير للكلام الأول، وزيادة تحذير أن يتكلم في أصول الدين - بل وفي غيرها - بغير علم. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ ﴾[5] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.

---

(١) سورة الإسراء آية ٣٦ .

(٢) سورة الحج آية ٣ ، ٤ .

(٣) سورة الحج آية ٨ ، ٩ .

(٤) سورة القصص آية ٥٠ .

(٥) سورة النجم آية ٢٣ .

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِي ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿مَا ضَل قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إلا أُوتوا الْجَدَلَ ثُم تَلَا: ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَاۢ ﴾ [(١)] ﴾. رَوَاهُ التِرمِذِي، وَقَالَ: حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿إن أَبْغَضَ الرجَالِ إلَى اللهِ الْأَلَد الْخَصِيمُ﴾. خَرجَاهُ فِي الصحِيحَيْن.

[نقْصُ تَوْحِيدِ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ]

وَلَا شَك أن مَنْ لَمْ يُسَلمْ لِلرسُولِ نَقَصَ تَوْحِيدُهُ، فَإِنهُ يَقُولُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ، أَوْ يُقَلدُ ذَا رَأْيٍ وَهَوًى بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ، فَيَنْقُصُ مِنْ تَوْحِيدِهِ بِقَدْرِ خُرُوجِهِ عَما جَاءَ بِهِ الرسُولُ، فَإِنهُ قَدِ اتخَذَهُ فِي ذَلِكَ إِلَهًا غَيْرَ اللهِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [(٢)] أَيْ: عَبَدَ مَا تَهْوَاهُ نَفْسُهُ. وَإِنمَا دَخَلَ الْفَسَادُ فِي الْعَالَمِ مِنْ ثَلَاثِ فِرَقٍ، كَمَا قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ:

رَأَيْتُ الذنُوبَ تُمِيتُ الْقُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذل إدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذنُوبِ حَيَاةُ الْقُلُوبِ ... وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا
وَهَلْ أَفْسَدَ الدينَ إلا الْمُلُوكُ ... وَأَحْبَارُ سُوءٍ وَرُهْبَانُهَا

فَالْمُلُوكُ الْجَائِرَةُ يَعْتَرِضُونَ عَلَى الشرِيعَةِ بِالسيَاسَاتِ الْجَائِرَةِ، وَيُعَارِضُونَهَا بِهَا، وَيُقَدمُونَهَا عَلَى حُكْمِ اللهِ وَرَسُولِهِ. وَأَحْبَارُ السوءِ، وَهُمُ الْعُلَمَاءُ الْخَارِجُونَ عَنِ الشرِيعَةِ بِآرَائِهِمْ وَأَقْيِسَتِهِمُ الْفَاسِدَةِ، الْمُتَضَمنَةِ تَحْلِيلَ مَا حَرمَ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَحْرِيمَ مَا أَبَاحَهُ، وَاعْتِبَارَ مَا أَلْغَاهُ، وَإِلْغَاءَ مَا اعْتَبَرَهُ، وَإِطْلَاقَ مَا قَيدَهُ، وَتَقْيِيدَ مَا أَطْلَقَهُ، وَنَحْوَ ذَلِكَ. وَالرهْبَانُ وَهُمْ جُهالُ الْمُتَصَوفَةِ، الْمُعْتَرِضُونَ عَلَى حَقَائِقِ الْإِيمَانِ وَالشرْعِ، بِالْأَذْوَاقِ وَالْمَوَاجِيدِ وَالْخَيَالَاتِ وَالْكُشُوفَاتِ الْبَاطِلَةِ الشيْطَانِيةِ، الْمُتَضَمنَةِ شَرْعَ دِينٍ لَمْ يَأْذَنْ بِهِ

(١) سورة الزخْرُف آية ٥٨ .

(٢) سورة الْجَاثِيَة آية ٢٣ .

اللهُ، وَإبطَالَ دِينِهِ الذِي شَرَعَهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيهِ ﷺ وَالتعوضَ عَنْ حَقَائِقِ الْإِيمانِ بِخُدَعِ الشيْطَانِ وَحُظُوظِ النفْسِ. فَقَالَ الْأَولُونَ: إِذَا تَعَارَضَتِ السيَاسَةُ وَالشرْعُ قَدمْنَا السيَاسَةَ ! وَقَالَ الْآخَرُونَ: إِذَا تَعَارَضَ الْعَقْلُ وَالنقْلُ قَدمْنَا الْعَقْلَ ! وَقَالَ أَصْحَابُ الذوْقِ: إِذَا تَعَارَضَ الذوْقُ وَالْكَشْفُ، وَظَاهِرُ الشرْعِ قَدمْنَا الذوْقَ وَالْكَشْفَ.

[كَلَامُ الْإِمَامِ الْغَزَالِي فِي عِلْمِ الْجَدَلِ وَالْكَلَامِ وَلِمَاذَا ذَم السلَفُ عِلْمَ الْكَلَامِ؟]

وَمِنْ كَلَامِ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ الذِي سَماهُ إِحْيَاءَ عُلُومِ الدينِ وَهُوَ مِنْ أَجَل كُتُبِهِ، أَوْ أَجَلهَا: فَإِنْ قُلْتَ: فَعِلْمُ الْجَدَلِ وَالْكَلَامِ مَذْمُومٌ كَعِلْمِ النجُومِ أَوْ هُوَ مُبَاحٌ أَوْ مَنْدُوبٌ إِلَيْهِ ؟ فَاعْلَمْ أَن لِلناسِ فِي هَذَا غُلُوا وَإِسْرَافًا فِي أَطْرَافٍ. فَمِنْ قَائِلٍ: إِنهُ بِدْعَةٌ وَحَرَامٌ، وَإِن الْعَبْدَ أَنْ يَلْقَى اللهَ بِكُل ذَنْبٍ سِوَى الشرْكِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَلْقَاهُ بِالْكَلَامِ. وَمِنْ قَائِلٍ: إِنهُ فَرْضٌ، إِما عَلَى الْكِفَايَةِ، وَإِما عَلَى الْأَعْيَانِ، وَإِنهُ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ وَأَعْلَى الْقُرُبَاتِ، فَإِنهُ تَحْقِيقٌ لِعِلْمِ التوْحِيدِ وَنِضَالٌ عَنْ دِينِ اللهِ. قَالَ: وَإِلَى التحْرِيمِ ذَهَبَ الشافِعِي وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ وَسُفْيَانُ وَجَمِيعُ أَئِمةِ الْحَدِيثِ مِنَ السلَفِ وَسَاقَ الْأَلْفَاظَ عَنْ هَؤُلَاءِ. قَالَ: وَقَدِ اتفَقَ أَهْلُ الْحَدِيثِ مِنَ السلَفِ عَلَى هَذَا. لَا يَنْحَصِرُ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ مِنَ التشْدِيدَاتِ فِيهِ، [وَقَالُوا]: (١) مَا سَكَتَ عَنْهُ الصحَابَةُ - مَعَ أَنهُمْ أَعْرَفُ بِالْحَقَائِقِ وَأَفْصَحُ بِتَرْتِيبِ الْأَلْفَاظِ مِنْ غَيْرِهِمْ - إِلا لِمَا يَتَوَلدُ مِنْهُ مِنَ الشر. [وَلِذَلِكَ] (٢) قَالَ النبِي ﷺ ﴿ هَلَكَ الْمُتَنَطعُونَ ﴾ (٣). أَيِ الْمُتَعَمقُونَ فِي الْبَحْثِ وَالِاسْتِقْصَاءِ. وَاحْتَجوا أَيْضًا بِأَن ذَلِكَ لَوْ كَانَ مِنَ الدينِ لَكَانَ أَهَم مَا يَأْمُرُ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَيُعَلمُ طَرِيقَهُ وَيُثْنِي عَلَى أَرْبَابِهِ. ثُم ذَكَرَ بَقِيةَ اسْتِدْلَالِهِمْ، ثُم ذَكَرَ اسْتِدْلَالَ الْفَرِيقِ الْآخَرِ. إِلَى أَنْ قَالَ: فَإِنْ قُلْتَ: فَمَا الْمُخْتَارُ عِنْدَكَ ؟ فَأَجَابَ بِالتفْصِيلِ، فَقَالَ: فِيهِ مَنْفَعَةٌ، وَفِيهِ مَضَرةٌ: فهو

(١) في الأصل : (قالوا) ، والتصحيح من الإحياء ١ / ٩٥ . ن .
(٢) في الأصل : (وكذلك) . والتصحيح من الإحياء ١ / ٩٥ . ن .
(٣) مسلم العلم (٢٦٧٠) ، أبو داود السنة (٤٦٠٨) ، أحمد (٣٨٦/١) .

[باعتبار منفعته] [1] فَهُوَ فِي وَقْتِ الْانْتِفَاعِ حَلَالٌ أَوْ مَنْدُوبٌ أَوْ وَاجِبٌ، كَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ. وَهُوَ بِاعْتِبَارِ مَضَرتِهِ فِي وَقْتِ الْاسْتِضْرَارِ وَمَحِلِهِ حَرَامٌ. قَالَ: فَأَما مَضَرتُهُ، فَإِثَارَةُ الشُبُهَاتِ، وَتَحْرِيفُ الْعَقَائِدِ وَإِزَالَتُهَا عَنِ الْجَزْمِ وَالتصْمِيمِ، وَذَلِكَ مِما يَحْصُلُ بِالْابْتِدَاءِ، وَرُجُوعُهَا بِالدلِيلِ مَشْكُوكٌ فِيهِ، وَيَخْتَلِفُ فِيهِ الْأَشْخَاصُ. فَهَذَا ضَرَرُهُ فِي اعْتِقَادِ الْحَق، وَلَهُ ضَرَرٌ فِي تَأْكِيدِ اعْتِقَادِ الْبِدْعَةِ، وَتَثْبِيتِهَا فِي صُدُورِهِمْ، بِحَيْثُ تَنْبَعِثُ دَوَاعِيهِمْ وَيَشْتَد حِرْصُهُمْ عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَيْهِ، وَلَكِن هَذَا الضرَرَ بِوَاسِطَةِ التعَصبِ الذِي يَثُورُ مِنَ الْجَدَلِ.

قَالَ: وَأَما مَنْفَعَتُهُ، فَقَدْ يُظَن أَن فَائِدَتَهُ كَشْفُ الْحَقَائِقِ وَمَعْرِفَتُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ [وَهَيْهَاتَ] [2] فَلَيْسَ فِي الْكَلَامِ وَفَاءٌ بِهَذَا الْمَطْلَبِ الشرِيفِ، وَلَعَل التخْبِيطَ وَالتضْلِيلَ [فِيهِ] [3] أَكْثَرُ مِنَ الْكَشْفِ وَالتعْرِيفِ. قَالَ: وَهَذَا إِذَا سَمِعْتَهُ مِنْ مُحَدثٍ أَوْ حَشْوِي رُبمَا خَطَرَ بِبَالِكَ أَن الناسَ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا، فَاسْمَعْ هَذَا مِمنْ خَبَرَ الْكَلَامَ، ثُم [قَلَاهُ] [4] بَعْدَ حَقِيقَةِ الْخِبْرَةِ وَبَعْدَ التغَلْغُلِ فِيهِ إِلَى مُنْتَهَى دَرَجَةِ الْمُتَكَلِمِينَ، وَجَاوَزَ ذَلِكَ إِلَى التعَمقِ فِي عُلُومٍ أُخَرَ [تناسب] [5] نَوْعَ الْكَلَامِ، وَتَحَققَ أَن الطرِيقَ إِلَى حَقَائِقِ الْمَعْرِفَةِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ مَسْدُودٌ. وَلَعَمْرِي لَا يَنْفَك الْكَلَامُ عَنْ كَشْفٍ وَتَعْرِيفٍ وَإِيضَاحٍ لِبَعْضِ الْأُمُورِ، وَلَكِنْ عَلَى الندُورِ. انْتَهَى مَا نَقَلْتُهُ عَنِ الْغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ.

وَكَلَامُ مِثْلِهِ فِي ذَلِكَ حُجةٌ بَالِغَةٌ، وَالسلَفُ لَمْ يَكْرَهُوهُ لِمُجَردِ كَوْنِهِ اصْطِلَاحًا جَدِيدًا عَلَى مَعَانٍ صَحِيحَةٍ، كَالْاصْطِلَاحِ عَلَى أَلْفَاظٍ لِعُلُومٍ صَحِيحَةٍ، وَلَا كَرِهُوا أَيْضًا الدلَالَةَ عَلَى الْحَق وَالْمُحَاجةِ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ، بَلْ كَرِهُوهُ لِاشْتِمَالِهِ عَلَى أُمُورٍ كَاذِبَةٍ مُخَالِفَةٍ لِلْحَق. وَمِنْ ذَلِكَ: مُخَالَفَتُهَا لِلْكِتَابِ وَالسنةِ وَمَا فِيهِ مِنْ عُلُومٍ صَحِيحَةٍ، فَقَدْ وَعرُوا الطرِيقَ إِلَى

---

(١) سقطت من الأصل ، وأثبتت من الإحياء ١ / ٩٧ . ن .

(٢) في الأصل : (وهيئتها) ، وما أثبتناه من الإحياء ١ / ٩٧ . ن .

(٣) سقطت من الأصل ، وأثبتناها من الإحياء ١ / ٩٧ . ن .

(٤) في الأصل : (قاله) وما أثبتناه من الإحياء ١ / ٩٧ . ن .

(٥) في الأصل : (سوى) وما أثبتناه من الإحياء ١ / ٩٧ . ن .

تَحْصِيلهَا، وَأطَالُوا الْكَلَامَ فِي إثْبَاتِهَا مَعَ قِلةِ نَفْعِهَا، فَهِيَ لَحْمُ جَمَلٍ غَث عَلَى رَأسِ جَبَلٍ وَعْرٍ، لَا سَهْلٌ فَيُرْتقَى، وَلَا سَمِينٌ فَيُنْتقَى [(١)] وَأحْسَنُ مَا عِنْدَهُمْ فَهُوَ فِي الْقُرْآنِ أصَح تَقْرِيرًا، وَأحْسَنُ تَفْسِيرًا، فَلَيْسَ عِنْدَهُمْ إلا التكَلفُ وَالتطْوِيلُ وَالتعْقِيدُ. كَمَا قِيلَ:

لَوْلَا التنَافُسُ فِي الدنْيَا لَمَا وُضِعَتْ ... كُتْــبُ التنَاظُرِ لَا الْمُغْنِي وَلَا الْعَمَدُ

يُحَلِّلُــونَ بِــزَعْمِهِــمْ عُقَـــدًا ... وَبِــالذِي وَضَــعُوهُ زَادَتِ الْعُقَــدُ

فَهُمْ يَزْعُمُونَ أنهُمْ يَدْفَعُونَ بِالذِي وَضَعُوهُ الشبَهَ وَالشكُوكَ، وَالْفَاضِلُ [الذكِي] [(٢)] الذِي يَعْلَمُ أن الشبَهَ وَالشكُوكَ زَادَتْ بِذَلِكَ.

[مَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ أصْلٌ لِتَحْدِيدِ الْألْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ فِي كَلَامِ الناسِ]

وَمِنَ الْمُحَالِ أنْ لَا يَحْصُلَ الشفَاءُ وَالْهُدَى وَالْعِلْمُ وَالْيَقِينُ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ، وَيَحْصُلَ مِنْ كَلَامِ هَؤُلَاءِ الْمُتَحَيرِينَ. بَلِ الْوَاجِبُ أنْ يَجْعَلَ مَا قَالَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ هُوَ الْأصْلُ، وَيَتَدَبرَ مَعْنَاهُ وَيَعْقِلُهُ، وَيَعْرِفُ بُرْهَانَهُ وَدَلِيلَهُ إما الْعَقْلِي وَإما الْخَبَرِي السمْعِي، وَيَعْرِفُ دَلَالَتَهُ عَلَى هَذَا وَهَذَا، وَيَجْعَلَ أقْوَالَ الناسِ التِي تُوَافِقُهُ وَتُخَالِفُهُ مُتَشَابِهَةً مُجْمَلَةً، فَيُقَالُ لِأصْحَابِهَا: هَذِهِ الْألْفَاظُ تَحْتَمِلُ كَذَا وَكَذَا، فَإنْ أرَادُوا بِهَا مَا يُوَافِقُ خَبَرَ الرسُولِ قُبِلَ، وَإنْ أرَادُوا بِهَا مَا يُخَالِفُهُ رُد. وَهَذَا مِثْلُ لَفْظِ الْمُرَكبِ وَالْجِسْمِ وَالْمُتَحَيزِ وَالْجَوْهَرِ وَالْجِهَةِ وَالْحَيزِ وَالْعَرَضِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَإن هَذِهِ الْألْفَاظَ لَمْ تَأتِ فِي الْكِتَابِ وَالسنةِ بِالْمَعْنَى الذِي يُرِيدُهُ أهْلُ الاصْطِلَاحِ، بَلْ وَلَا فِي اللغَةِ، بَلْ هُمْ يَخْتَصونَ بِالتعْبِيرِ بِهَا عَنْ مَعَانٍ لَمْ يُعَبرْ غَيْرُهُمْ عَنْهَا بِهَا، فَتُفَسرُ تِلْكَ الْمَعَانِي بِعِبَارَاتٍ أُخَرَ، وَيُنْظَرُ مَا دَل عَلَيْهِ الْقُرْآنُ مِنَ الْأدِلةِ الْعَقْلِيةِ وَالسمْعِيةِ، وَإذَا وَقَعَ الِاسْتِفْسَارُ وَالتفْصِيلُ تَبَينَ الْحَق مِنَ الْبَاطِلِ.

مِثَالُ ذَلِكَ، فِي الترْكِيبِ. فَقَدْ صَارَ لَهُ مَعَانٍ:

أحَدُهَا. التَرْكِيبُ مِنْ مُتَبَايِنَيْنِ فَأكْثَرَ. وَيُسَمى: تَرْكِيبَ مَزْجٍ، كَتَرْكِيبِ الْحَيَوَانِ مِنَ الطبَائِعِ الْأرْبَعِ وَالْأعْضَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَنْفِي عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَلَا يَلْزَمُ

---

(١) في المطبوعة " فَيُنْتقَلُ " . وهو خطأ مطبعي واضح .

(٢) في الأصل : (الذي) والصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .

مِنْ وَصْفِ اللهِ تَعالَى بِالْعُلُو وَنَحْوِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمالِ، أَنْ يَكُونَ مُرَكَّبًا بِهَذَا الْمَعْنَى الْمَذْكُورِ.

وَالثانِي: تَرْكِيبُ الْجِوَارِ، كَمِصْرَاعَيِ الْبَابِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَلَا يَلْزَمُ أَيْضًا مِنْ ثُبوتِ صِفَاتِهِ تَعَالَى إِثْبَاتُ هَذَا التَرْكِيبِ.

الثالِثُ: التَرْكِيبُ مِنَ الْأَجْزَاءِ الْمُتَمَاثِلَةِ، وَتُسَمى: الْجَوَاهِرَ الْمُفْرَدَةَ.

الرابِعُ: التَرْكِيبُ مِنَ الْهُيُولَى وَالصورَةِ، كَالْخَاتَمِ مَثَلًا، هُيُولَاهُ: الْفِضةُ، وَصُورَتُهُ مَعْرُوفَةٌ. وَأَهْلُ الْكَلَامِ قَالُوا: إِن الْجِسْمَ يَكُونُ مُرَكَّبًا مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ، وَلَهُمْ كَلَامٌ فِي ذَلِكَ يَطُولُ، وَلَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَهُوَ أَنهُ: هَلْ يُمْكِنُ التَرْكِيبُ مِنْ جُزْءَيْنِ، أَوْ مِنْ أَرْبَعَةٍ، أَوْ مِنْ سِتةٍ، أَوْ مِنْ ثَمَانِيَةٍ، أَوْ سِتةَ عَشَرَ؟ وَلَيْسَ هَذَا التَرْكِيبُ لَازِمًا لِثُبوتِ صِفَاتِهِ تَعَالَى وَعُلُوهِ عَلَى خَلْقِهِ. وَالْحَق أَن الْجِسْمَ غَيْرُ مُرَكبٍ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ، وَإِنمَا قَوْلُهُمْ مُجَردُ دَعْوَى، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

الْخَامِسُ: التَرْكِيبُ مِنَ الذاتِ وَالصفَاتِ، هُمْ سَموْهُ تَرْكِيبًا لِيَنْفُوا بِهِ صِفَاتِ الرب تَعَالَى، وَهَذَا اصْطِلَاحٌ مِنْهُمْ لَا يُعْرَفُ فِي اللغَةِ، وَلَا فِي اسْتِعْمَالِ الشارِعِ، فَلَسْنَا نُوَافِقُهُمْ عَلَى هَذِهِ التسْمِيَةِ وَلَا كَرَامَةَ. وَلَئِنْ سَموْا إِثْبَاتَ الصفَاتِ تَرْكِيبًا، فَنَقُولُ لَهُمْ: الْعِبْرَةُ لِلْمَعَانِي لَا لِلْأَلْفَاظِ، سَموهُ مَا شِئْتُمْ، وَلَا يَتَرَتبُ عَلَى التسْمِيَةِ بِدُونِ الْمَعْنَى حُكْمٌ ! فَلَوِ اصْطُلِحَ عَلَى تَسْمِيَةِ اللبَنِ خَمْرًا، لَمْ يَحْرُمْ بِهَذِهِ التسْمِيَةِ.

السادِسُ: التَرْكِيبُ مِنَ الْمَاهِيةِ وَوُجُودِهَا، وَهَذَا يَفْرِضُهُ الذهْنُ أَنهُمَا غَيْرَانِ، وَأَما فِي الْخَارِجِ، هَلْ يُمْكِنُ ذَاتٌ مُجَردَةٌ عَنْ وُجُودِهَا، وَوُجُودُهَا مُجَردٌ عَنْهَا ؟ هَذَا مُحَالٌ. فَتَرَى أَهْلَ الْكَلَامِ يَقُولُونَ: هَلْ ذَاتُ الرب وُجُودُهُ أَمْ غَيْرُ وُجُودِهِ؟ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ خَبْطٌ كَثِيرٌ. وَأَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً رَأْيُ الْوَقْفِ وَالشك فِي ذَلِكَ. وَكَمْ زَالَ بِالْاسْتِفْسَارِ وَالتفْصِيلِ كَثِيرٌ مِنَ الْأَضَالِيلِ وَالْأَبَاطِيلِ.

[سَبَبُ الِانْحِرَافِ هُوَ الْإِعْرَاضُ عَنْ تَدَبرِ كَلَامِ اللهِ وَرَسُولِهِ]

وَسَبَبُ الْإِضْلَالِ الْإِعْرَاضُ عَنْ تَدَبرِ كَلَامِ اللهِ وَكَلَامِ رَسُولِه، وَالِاشْتِغَالُ بِكَلَامِ الْيُونَانِ وَالْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ. وَإِنمَا سُمي هَؤُلَاءِ: أَهْلَ الْكَلَامِ، لِأَنهُمْ لَمْ يُفِيدُوا عِلْمًا لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، وَإِنمَا أَتَوْا بِزِيَادَةِ كَلَامٍ قَدْ لَا يُفِيدُ، وَهُوَ مَا يَضْرِبُونَهُ مِنَ الْقِيَاسِ لِإِيضَاحِ مَا عُلِمَ بِالْحِس، وَإِنْ كَانَ هَذَا الْقِيَاسُ وَأَمْثَالُهُ يُنْتَفَعُ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، وَمَعَ مَنْ يُنْكِرُ الْحِس. وَكُل مَنْ قَالَ بِرَأْيِهِ وَذَوْقِهِ وَسِيَاسَتِهِ - مَعَ وُجُودِ النص، أَوْ عَارَضَ النص بِالْمَعْقُولِ - فَقَدْ ضَاهَى إِبْلِيسَ، حَيْثُ لَمْ يُسَلمْ لِأَمْرِ رَبهِ، بَلْ قَالَ: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿٧٦﴾ ﴾ (١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ ﴾ (٢) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾ (٣) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾ ﴾ (٤) أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ بِنَفْسِهِ أَنهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ حَتى يُحَكمُوا نَبِيهُ وَيَرْضَوْا بِحُكْمِهِ وَيُسَلمُوا تَسْلِيمًا.

(١) سورة ص آية ٧٦ .

(٢) سورة النسَاءِ آية ٨٠ .

(٣) سورة آلِ عِمْرَانَ آية ٣١ .

(٤) سورة النسَاءِ آية ٦٥ .

[اْنتِيَابُ الْحَيْرةِ لِمَنْ عَدَلَ عَن الْكِتَابِ وَالسنةِ إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ]

قَوْلُهُ: (فَيَتَذَبْذَبُ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ، وَالتصْدِيقِ وَالتكْذِيبِ، وَالْإِقْرَارِ وَالْإِنْكَارِ، مُوَسْوِسًا تَائِهًا، شَاكًّا، لَا مُؤْمِنًا مُصدقًا، وَلَا جَاحِدًا مُكَذِّبًا).

ش: يَتَذَبْذَبُ: يَضْطَرِبُ وَيَتَرَددُ. وَهَذِهِ الْحَالَةُ التِي وَصَفَهَا الشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ حَالُ كُل مَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسنةِ إِلَى عِلْمِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ، أَوْ أَرَادَ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكِتَابِ وَالسنةِ، وَعِنْدَ التعَارُضِ يَتَأَولُ النص وَيَرُدهُ إِلَى الرأْيِ وَالْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، فَيَئُولُ أَمْرُهُ إِلَى الْحَيْرَةِ وَالضلَالِ وَالشك، كَمَا قَالَ ابْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَمِ الناسِ بِمَذَاهِبِ الْفَلَاسِفَةِ وَمَقَالَاتِهِمْ، فِي كِتَابِهِ "تَهَافُتِ التهَافُتِ": " وَمَنِ الذِي قَالَ فِي الْإِلَهِياتِ شَيْئًا يُعْتَد بِهِ ؟ ". وَكَذَلِكَ الْآمِدِي، أَفْضَلُ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَاقِفٌ فِي الْمَسَائِلِ الْكِبَارِ حَائِرٌ. وَكَذَلِكَ الْغَزَالِي رَحِمَهُ اللهُ، انْتَهَى آخِرُ أَمْرِهِ إِلَى الْوَقْفِ وَالْحَيْرَةِ فِي الْمَسَائِلِ الْكَلَامِيةِ، ثُم أَعْرَضَ عَنْ تِلْكَ الطرُقِ وَأَقْبَلَ عَلَى أَحَادِيثِ الرسُولِ ﷺ فَمَاتَ وَالْبُخَارِي عَلَى صَدْرِهِ. وَكَذَلِكَ أَبو عَبْدِ اللهِ مُحَمدُ بْنُ عُمَرَ الرازِي، قَالَ فِي كِتَابِهِ الذِي صَنفَهُ فِي [أَقْسَامِ اللذاتِ][1]

نِهَايَةُ إِقْدَامِ الْعُقُولِ عِقَالُ ... وَغَايَةُ سَعْيِ الْعَالَمِينَ ضَلَالُ
وَأَرْوَاحُنَا فِي وَحْشَةٍ مِنْ جُسُومِنَا ... وَحَاصِلُ دُنْيَانَا أَذًى وَوَبَالُ
وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طُولَ عُمْرِنَا ... سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ: قِيلَ وَقَالُوا
فَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ رِجَالٍ وَدَوْلَةٍ ... فَبَادُوا جَمِيعًا مُسْرِعِينَ وَزَالُوا
وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ قَدْ عَلَتْ شُرُفَاتِهَا ... رِجَالٌ، فَزَالُوا وَالْجِبَالُ جِبَالُ

---

(١) في المطبوعة " اللذات " فقط . ولم أجد اسم هذا الكتاب إلا في هامش كتاب " مختصر الصواعق المرسلة " لابن القيم ، طبعة السلفية بمكة المكرمة سنة ١٣٤٨ ج١ ص١٠ ، وقد ذكرت الثلاثة الأبيات الأولى هناك . والأبيات الخمسة مذكورة في ترجمة الفخر الرازي من كتاب طبقات الشافعية لابن السبكي ٥ : ٤٠ . ومنها بيتان في ترجمته عند الحافظ ابن كثير في تاريخه ١٣ : ٥٦ .

لقدْ تأملْتُ الطرُق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيْتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيتُ أقرب الطرُق طريقة القرْآن، اقرأْ في الإثبات: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ (١) ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ (٢) واقرأْ في النفْي: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌ ﴾ (٣) ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمًا ﴾ (٤) ثم قال: " ومنْ جرب مثْل تجْربتي عرف مثْل معْرفتي ".

وكذلك قال الشيْخُ أبو عبْدِ اللهِ مُحمدُ بنُ عبْدِ الكريم الشهْرسْتاني، إنهُ لمْ يجِدْ عنْد الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيْرة والندم، حيْثُ قال:

لعمْري لقدْ طفْتُ المعاهِد كُلها ... وسيرْتُ طرْفي بيْن تلْك المعالِم

فلمْ أر إلا واضعًا كف حائِرٍ ... على ذقنٍ أوْ قارعًا سن نادِمِ

وكذلك قال أبو المعالي الجُوينِي: يا أصْحابنا لا تشتغلوا بالكلامِ، فلوْ عرفْتُ أن الكلام يبلغُ بي إلى ما بلغ ما اشْتغلْتُ بِهِ. وقال عنْد موْتِهِ: لقدْ خُضْتُ البحْر الخِضم، وخليْتُ أهْل الإسْلامِ وعُلومهُمْ، ودخلْتُ في الذي نهوْني عنْهُ، والآن فإنْ لمْ يتداركْني ربي برحْمتِهِ فالويْلُ لابْن الجُوينِي، وها أنا ذا أمُوتُ على عقيدةِ أمي، أوْ قال: على عقيدةِ عجائِز نيْسابُور. وكذلك قال شمْسُ الدينِ الخُسْروْشاهي، وكان منْ أجل تلامذة فخْر الدين الرازي، لبعْضِ الفُضلاء، وقدْ دخل عليْهِ يوْمًا، فقال: ما تعْتقِدُ ؟ قال: ما يعْتقدُهُ المُسْلمون، فقال: وأنت منْشرحُ الصدْر لِذلك مُسْتيقنٌ بِهِ ؟ أوْ كما قال، فقال: نعمْ، فقال: أشْكُرُ الله على هذِهِ النعْمة، لكني واللهِ ما أدْري ما أعْتقِدُ، واللهِ ما أدْري ما

(١) سورة طه آية ٥ .

(٢) سورة فاطر آية ١٠ .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

(٤) سورة طه آية ١١٠ .

أعْتقدُ، وَاللهِ مَا أدْرِي مَا أعْتقِدُ، وَبكى حَتى أخْضَلَ لِحْيَته. وَلِابْنِ أبي الْحَدِيدِ الْفَاضِلِ الْمَشْهُورِ بِالْعِرَاقِ:

فِيكَ يَا أغْلُوطَةَ الْفِكْرِ حَارَ أمْرِي وَانْقَضَى عُمُرِي
سَافَرَتْ فِيكَ الْعُقُولُ فَمَا رَبِحَتْ إِلَّا أذَى السَّفَرِ
فَلحَى اللهُ الأُلى زَعَمُوا أنكَ الْمَعْرُوفُ بِالنظَرِ
كَذبُوا إِن الَّذِي ذكَرُوا خَارِجٌ عَنْ قُوَّةِ الْبَشَرِ

وَقَالَ الْخَوْنَجِي عِنْدَ مَوْتِهِ: مَا عَرَفْتُ مِما حَصلته شَيْئًا سِوَى أن الْمُمْكِنَ يَفْتقِرُ إِلَى الْمُرَجحِ، ثم قَالَ: الِافْتِقَارُ وَصْفٌ سَلْبِي، أمُوتُ وَمَا عَرَفْتُ شَيْئًا وَقَالَ آخَرُ: أضْطَجِعُ عَلَى فِرَاشِي وَأضَعُ الْمِلْحَفَةَ عَلَى وَجْهِي، وَأقَابِلُ بَيْنَ حُجَجِ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ حَتى يَطْلُعَ الْفَجْرُ، وَلَمْ يَتَرَجحْ عِنْدِي مِنْهَا شَيْءٌ.

وَمَنْ يَصِلْ إِلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ وَإِلا تَزَنْدَقَ، كَمَا قَالَ أبُو يُوسُفَ: مَنْ طَلَبَ الدينَ بِالْكَلَامِ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ طَلَبَ الْمَالَ بِالْكِيمْيَاءِ أفْلَسَ، وَمَنْ طَلَبَ غَرِيبَ الْحَدِيثِ كَذبَ. وَقَالَ الشافِعِي رَحِمَهُ اللهُ: حُكْمِي فِي أهْلِ الْكَلَامِ أنْ يُضْرَبُوا بِالْجَرِيدِ وَالنعَالِ، وَيُطَافَ بِهِمْ فِي الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَيُقَالُ: هَذَا جَزَاءُ مَنْ تَرَكَ الْكِتَابَ وَالسنةَ وَأقْبَلَ عَلَى الْكَلَامِ. وَقَالَ: لَقَدِ اطلَعْتُ مِنْ أهْلِ الْكَلَامِ عَلَى شَيْءٍ مَا ظَنَنْتُ مُسْلِمًا يَقُولُهُ، وَلَأنْ يُبْتلَى الْعَبْدُ بِكُل مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ -مَا خَلَا الشرْكَ بِاللهِ - خَيْرٌ لَهُ مِنْ أنْ يُبْتلَى بِالْكَلَامِ. انْتهَى.

وَتجِدُ أحَدَ هَؤُلَاءِ عِنْدَ الْمَوْتِ يَرْجِعُ إِلَى مَذْهَبِ الْعَجَائِزِ، فَيُقِر بِمَا أقَروا بِهِ وَيُعْرِضُ عَنْ تِلْكَ الدقَائِقِ الْمُخَالِفَةِ لِذَلِكَ، التِي كَانَ يَقْطَعُ بِهَا، ثم تبَينَ لَهُ فَسَادُهَا، أوْ لَمْ يَتبَينْ لَهُ صِحتُهَا، فَيَكُونُونَ فِي نِهَايَاتِهِمْ - إِذَا سَلِمُوا مِنَ الْعَذَابِ - بِمَنْزِلَةِ أتبَاعِ أهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الصبْيَانِ وَالنسَاءِ وَالْأعْرَابِ.

وَالدوَاءُ النافِعُ لِمِثْلِ هَذَا الْمَرضِ، مَا كَانَ طَبِيبُ الْقُلُوبِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَقُولُهُ - إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ -: ﴿ اللهُم رَب جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشهَادَةِ، أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَق بِإِذْنِكَ، إِنكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. ﴾ [1] خَرجَهُ مُسْلِمٌ. تَوَسلَ ﷺ إِلَى رَبهِ بِرُبُوبِيةِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَق بِإِذْنِهِ، إِذْ حَيَاةُ الْقَلْبِ بِالْهِدَايَةِ. وَقَدْ وَكلَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَؤُلَاءِ الثلَاثَةَ بِالْحَيَاةِ: فَجِبْرِيلُ مُوَكلٌ بِالْوَحْيِ الذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ، وَمِيكَائِيلُ بِالْقَطْرِ الذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْأَبْدَانِ وَسَائِرِ الْحَيَوَانِ، وَإِسْرَافِيلُ بِالنفْخِ فِي الصورِ الذِي هُوَ سَبَبُ حَيَاةِ الْعَالَمِ وَعَوْدِ الْأَرْوَاحِ إِلَى أَجْسَادِهَا. فَالتوَسلُ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ بِرُبُوبِيةِ هَذِهِ الْأَرْوَاحِ الْعَظِيمَةِ الْمُوَكلَةِ بِالْحَيَاةِ، لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

---

(١) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٧٠) ، الترمذي الدعوات (٣٤٢٠) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٢٥) ، أبو داود الصلاة (٧٦٧) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٥٧) ، أحمد (١٥٦/٦) .

[الرد عَلى مَنْ أنكَرَ أوْ تَأول رُؤْيَة اللهِ تَعَالَى]

قَوْلُهُ: (وَلَا يَصِح الْإِيمَانُ بِالرؤْيَةِ لِأَهْلِ دَارِ السلَامِ لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ، أَوْ تَأَولَهَا بِفَهْمٍ، إِذْ كَانَ تَأْوِيلُ الرؤْيَةِ، وَتَأْوِيلُ كُل مَعْنًى يُضَافُ إِلَى [الربُوبِيةِ] [1] - بِتَرْكِ التأْوِيلِ، وَلُزُومِ التسْلِيمِ، وَعَلَيْهِ دِينُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَنْ لَمْ يَتَوَق النفْيَ وَالتشْبِيهَ، زَل وَلَمْ يُصِبِ التنْزِيهَ).

ش: يُشِيرُ الشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى الرد عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ يَقُولُ بِقَوْلِهِمْ فِي نَفْيِ الرؤْيَةِ، وَعَلَى مَنْ يُشَبهُ اللهَ بِشَيْءٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ. فَإِن النبِي ﷺ قَالَ: ﴿إِنكُمْ تَرَوْنَ رَبكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ﴾ [2]، الْحَدِيثَ: أَدْخَلَ ((كَافَ)) التشْبِيهِ عَلَى ((مَا)) الْمَصْدَرِيةِ [أو] الْمَوْصُولَةِ بِـ "تَرَوْنَ" التِي تتأول مَعَ صِلَتِهَا إِلَى الْمَصْدَرِ [3] الذِي هُوَ "الرؤْيَةُ"، فَيَكُونُ التشْبِيهُ فِي الرؤْيَةِ لَا فِي الْمَرْئِي. وَهَذَا بَينٌ وَاضِحٌ فِي أَن الْمُرَادَ إِثْبَاتُ الرؤْيَةِ وَتَحْقِيقُهَا، وَدَفْعُ الْاحْتِمَالَاتِ عَنْهَا. وَمَاذَا بَعْدَ هَذَا الْبَيَانِ وَهَذَا الْإِيضَاحِ ؟ ! فَإِذَا سُلطَ التأْوِيلُ عَلَى مِثْلِ هَذَا النص، كَيْفَ يُسْتَدَل بِنَص مِنَ النصُوصِ ؟! وَهَلْ يَحْتَمِلُ هَذَا النص أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ: إِنكُمْ تَعْلَمُونَ رَبكُمْ كَمَا تَعْلَمُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟! وَيَسْتَشْهِدُ لِهَذَا التأْوِيلِ الْفَاسِدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾ [4] وَنَحْوُ ذَلِكَ مِما اسْتُعْمِلَ فِيهِ ((رَأَى)) التِي مِنْ أَفْعَالِ الْقُلُوبِ ! ! وَلَا شَك أَن رَأَى تَارَةً تَكُونُ بَصَرِيةً، وَتَارَةً تَكُونُ قَلْبِيةً، وَتَارَةً تَكُونُ مِنْ رُؤْيَا الْحُلْمِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ، وَلَكِنْ مَا يَخْلُو الْكَلَامُ مِنْ قَرِينَةٍ تُخَلصُ أَحَدَ مَعَانِيهِ مِنَ الْبَاقِي. وَإِلا لَوْ أَخْلَى الْمُتَكَلمُ كَلَامَهُ مِنَ الْقَرِينَةِ الْمُخَلصَةِ

---

(١) في الأصل : (الرؤية) . ولعل الصواب ما أثبتناه من أكثر النسخ وسائر المتون . وانظر ص ٤٧٢ . ن .

(٢) البخاري مواقيت الصلاة (٥٤٧) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٣) ، الترمذي صفة الجنة (٢٥٥١) ، أبو داود السنة (٤٧٢٩) ، ابن ماجه المقدمة (١٧٧) ، أحمد (٣٦٢/٤) .

(٣) في المطبوعة " على ما المصدرية الموصولة " وهو تخليط من الناسخ ، إذ حذف (أو) . لأن " ما " المصدرية حرف ، و " ما " الموصولة اسم . وهي في الحالين تؤول مع الفعل بعدها بمصدر .

(٤) سورة الْفِيلِ آية ١ .

لِأحَدِ الْمَعَانِي لَكَانَ مُجْمَلًا مُلْغِزًا، لَا مُبينًا مُوضحًا. وَأي بَيانٍ وَقَرِينَةٍ فَوْق قَوْلِه: ﴿تَرَوْنَ رَبكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشمْسَ فِي الظهِيرَةِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ﴾ [1] ؟ فَهَل مِثْلُ هَذَا مما يَتَعلقُ بِرُؤيَةِ الْبَصرِ، أَوْ بِرُؤيَةِ الْقَلْبِ ؟ وَهَلْ يَخْفَى مِثْلُ هَذا إلا عَلَى مَنْ أَعْمَى اللهُ قَلْبَهُ ؟ فَإنْ قَالُوا: أَلْجَأنا إلَى هَذَا التأوِيلِ، حُكْمُ الْعَقْلِ بِأن رُؤْيَتَهُ تَعَالَى مُحَالٌ لَا يُتَصورُ إمْكَانُهَا ! فَالْجَوَابُ: أن هَذِهِ دَعْوَى مِنْكُمْ، خَالَفَكُمْ فِيهَا أَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ، وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ مَا يُحِيلُهَا، بَلْ لَوْ عُرِضَ عَلَى الْعَقْلِ مَوْجُودٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ لَا يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ لَحُكِمَ بِأن هَذَا مُحَالٌ.

وَقَوْلُهُ: "لِمَنِ اعْتَبَرَهَا مِنْهُمْ بِوَهْمٍ "، أيْ تَوَهمَ أن اللهَ تَعَالَى يُرَى عَلَى صِفَةِ كَذَا، فَيَتَوهمُ تَشْبِيهًا، ثُم بَعْدَ هَذَا التوَهمِ - إنْ أَثْبتَ مَا تَوَهمَهُ مِنَ الْوَصْفِ - فَهُوَ مُشَبهٌ، وَإنْ نَفَى الرؤْيَةَ مِنْ أَصْلِهَا لِأجْلِ ذَلِكَ التوَهمِ - فَهُوَ جَاحِدٌ مُعَطلٌ. بَلِ الْوَاجِبُ دَفْعُ ذَلِكَ الْوَهْمِ وَحْدَهُ، وَلَا يَعُم بِنَفْيِهِ الْحَق وَالْبَاطِلَ، فَيَنْفِيهُمَا ردا عَلَى مَنْ أَثْبَتَ الْبَاطِلَ، بَلِ الْوَاجِبُ رَد الْبَاطِلِ وَإثْبَاتُ الْحَق.

وَإلَى هَذَا الْمَعْنَى أَشَارَ الشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: وَمَنْ لَمْ يَتَوق النفْيَ وَالتشْبِيهَ، زَل وَلَمْ يُصِبِ التنْزِيهَ فَإن هَؤُلَاءِ الْمُعْتَزِلَةَ يَزْعُمُونَ أَنهُمْ يُنَزهُونَ اللهَ بِهَذَا النفْيِ ! وَهَلْ يَكُونُ التنْزِيهُ بِنَفْيِ صِفَةِ الْكَمَالِ ؟ فَإن نَفْيَ الرؤْيَةِ لَيْسَ بِصِفَةِ كَمَالٍ، إذِ الْمَعْدُومُ لَا يُرَى، وَإنمَا الْكَمَالُ فِي إثْبَاتِ الرؤْيَةِ وَنَفْيِ إدْرَاكِ الرائِي لَهُ إدْرَاكَ إحَاطَةٍ، كَمَا فِي، فَإن نَفْيَ الْعِلْمِ بِهِ لَيْسَ بِكَمَالٍ، وَإنمَا الْكَمَالُ فِي إثْبَاتِ الْعِلْمِ وَنَفْيِ الْإحَاطَةِ بِهِ عِلْمًا. فَهُوَ سُبْحَانَهُ لَا يُحَاطُ بِهِ رُؤْيَةً، كَمَا لَا يُحَاطُ بِهِ عِلْمًا.

[اصْطِلَاحُ الْمُتَأَخرِينَ فِي مَعْنَى التأْوِيلِ]

وَقَوْلُهُ: " أَوْ تَأولَهَا بِفَهْمٍ " أَيِ ادعَى أَنهُ فَهِمَ لَهَا تَأْوِيلًا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا، وَمَا يَفْهَمُهُ كُل عَرَبِي مِنْ مَعْنَاهَا، فَإنهُ قَدْ صَارَ اصْطِلَاحُ الْمُتَأَخرِينَ فِي مَعْنَى التأْوِيلِ: أَنهُ صَرْفُ اللفْظِ عَنْ ظَاهِرِهِ، وَبِهَذَا تَسَلطَ الْمُحَرفُونَ عَلَى النصُوصِ، وَقَالُوا: نَحْنُ نَتَأولُ مَا يُخَالِفُ

(١) البخاري الأذان (٧٧٣) ، مسلم الإيمان (١٨٢) ، أحمد (٢/٢٧٦) ، الدارمي الرقاق (٢٨٠١) .

قولنا، فسموا التحريف تأويلًا، تزيينًا له وزخرفة ليقبل، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴾ [1] والعبرة للمعاني لا للألفاظ. فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق. وكلامه هنا نظير قوله فيما تقدم: " لا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا، ولا متوهمين بأهوائنا ". ثم أكد هذا المعنى بقوله: " إذ كان تأويل الرؤية - وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية: ترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين ". ومراده ترك التأويل [الذي] يسمونه تأويلًا، وهو تحريف. ولكن الشيخ رحمه الله تأدب وجادل بالتي هي أحسن، كما أمر الله تعالى بقوله: ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [2] وليس مراده ترك كل ما يسمى تأويلًا، ولا ترك شيء من الظواهر لبعض الناس لدليل راجح من الكتاب والسنة. وإنما مراده ترك التأويلات الفاسدة المبتدعة، المخالفة لمذهب السلف، التي يدل الكتاب والسنة على فسادها، وترك القول على الله بلا علم.

[معنى التأويل في الكتاب والسنة]

فمن التأويلات الفاسدة، تأويل أدلة الرؤية، وأدلة العلو، وأنه لم يكلم موسى تكليمًا، ولم يتخذ إبراهيم خليلًا ! ثم قد صار لفظ التأويل مستعملًا في غير معناه الأصلي.

فالتأويل في كتاب الله وسنة رسوله: هو الحقيقة التي يئول إليها الكلام. فتأويل الخبر: هو عين المخبر به، وتأويل الأمر نفس الفعل المأمور به. كما قالت عائشة رضي الله عنها: ﴿ كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه: ((سبحانك اللهم ربنا وبحمدك،

---

(١) سورة الأنعام آية ١١٢ .

(٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

اللهم اغفر لي)) يتأول القرآن [(١)]. وقال تعالى: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ ۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [(٢)]. ومنه تأويل الرؤيا، وتأويل العمل، كقوله: ﴿ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ ﴾ [(٣)]. وقوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ﴾ [(٤)]. وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ خَيۡرٌ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [(٥)]. وقوله: ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [(٦)] إلى قوله: ﴿ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [(٧)]. فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل، والعلم بما تعلق بالأمر والنهي منه ؟ وأما ما كان خبرًا، كالإخبار عن الله واليوم الآخر، فهذا قد لا يعلم تأويله، الذي هو حقيقته، إذ كانت لا تعلم بمجرد الإخبار، فإن المخبر إن لم يكن قد تصور المخبر به، أو ما يعرفه قبل ذلك، لم يعرف حقيقته، التي هي تأويله، بمجرد الإخبار. وهذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله. لكن لا يلزم من نفي العلم بالتأويل نفي العلم بالمعنى الذي قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه، فما في القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله. فهذا معنى التأويل في الكتاب والسنة وكلام السلف، وسواء كان هذا التأويل موافقًا للظاهر أو مخالفًا له.

---

(١) البخاري الأذان (٧٨٤) ، مسلم الصلاة (٤٨٤) ، النسائي التطبيق (١١٢٢) ، أبو داود الصلاة (٨٧٧) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (٨٨٩) ، أحمد (٤٣/٦) .

(٢) سورة الأعراف آية ٥٣ .

(٣) سورة يوسف آية ١٠٠ .

(٤) سورة يوسف آية ٦ .

(٥) سورة النساء آية ٥٩ .

(٦) سورة الكهف آية ٧٨ .

(٧) سورة الكهف آية ٨٢ .

[التأويلُ عِنْدَ المُفسرينَ هُوَ تفْسيرُ الكَلَامِ وَبَيانُ مَعْنَاهُ]

وَالتأويلُ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُفسرينَ، كَابْنِ جَرِيرٍ وَنَحْوِهِ، يُرِيدُونَ بِهِ تَفْسِيرَ الْكَلَامِ وَبَيانَ مَعْنَاهُ، سَوَاءٌ وَافَقَ ظَاهِرَهُ أَوْ خَالَفَ، وَهَذَا اصْطِلَاحٌ مَعْرُوفٌ. وَهَذَا التأويلُ كَالتفْسِيرِ، يُحْمَدُ حَقُّهُ، وَيُرَدُّ بَاطِلُهُ - وَقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ ﴾ [1] الْآيَةَ - فِيهَا قِرَاءَتَانِ. قِرَاءَةُ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ [2] ، وَقِرَاءَةُ مَنْ لَا يَقِفُ عِنْدَهَا، وَكِلْتَا الْقِرَاءَتَيْنِ حَق. وَيُرَادُ بِالْأُولَى الْمُتَشَابِهُ فِي نَفْسِهِ الذِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِ تَأْوِيلِهِ. وَيُرَادُ بِالثانِيَةِ الْمُتَشَابِهُ الْإِضَافِي الذِي يَعْرِفُ الراسِخُونَ تَفْسِيرَهُ، وَهُوَ تَأْوِيلُهُ. وَلَا يُرِيدُ مَنْ وَقَفَ عَلَى قَوْلِهِ ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ ﴾ [3] أَنْ يَكُونَ التأويلُ بِمَعْنَى التفْسِيرِ لِلْمَعْنَى، فَإِن لَازِمَ هَذَا أَنْ يَكُونَ اللهُ أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ كَلَامًا لَا يَعْلَمُ مَعْنَاهُ جَمِيعُ الْأُمةِ وَلَا الرسُولُ، وَيَكُونُ الراسِخُونَ فِي الْعِلْمِ لَا حَظ لَهُمْ فِي مَعْرِفَةِ مَعْنَاهَا سِوَى قَوْلِهِمْ: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ ﴾ [4]. وَهَذَا الْقَدْرُ يَقُولُهُ غَيْرُ الراسِخِ فِي الْعِلْمِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالراسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَجِبُ امْتِيَازُهُمْ عَنْ عَوَامِّ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ. وَقَدْ قَالَ ابْنُ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أَنَا مِنَ الراسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الذِينَ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ. وَلَقَدْ صَدَقَ ﷺ فَإِن النبِي ﷺ دَعَا لَهُ وَقَالَ: «اللهُم فَقِّهْهُ فِي الدينِ، وَعَلمْهُ التأْوِيلَ» [5]. رَوَاهُ الْبُخَارِي وَغَيْرُهُ. وَدُعَاؤُهُ ﷺ لَا يُرَد. قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَباسٍ، مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ، أَقِفُهُ عِنْدَ كُل آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا. وَقَدْ تَوَاتَرَتِ النقُولُ

(١) سورة آل عِمْرَان آية ٧ .
(٢) سورة آل عمران آية : ٧ .
(٣) سورة آل عمران آية : ٧ .
(٤) سورة آل عِمْرَان آية ٧ .
(٥) أحمد (٢٦٦/١) .

عَنْهُ أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي جَمِيعِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَلَمْ يَقُلْ عَنْ آيَةٍ: إِنَّهَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ.

وَقَوْلُ الْأَصْحَابِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي الْأُصُولِ: إِنَّ الْمُتَشَابِهَ [1] الْحُرُوفُ الْمُقَطَّعَةُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ، وَيُرْوَى هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. مَعَ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ قَدْ تَكَلَّمَ فِي مَعْنَاهَا أَكْثَرُ النَّاسِ، فَإِنْ كَانَ مَعْنَاهَا مَعْرُوفًا، فَقَدْ عُرِفَ مَعْنَى الْمُتَشَابِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْرُوفًا، وَهِيَ الْمُتَشَابِهُ، كَانَ مَا سِوَاهَا مَعْلُومَ الْمَعْنَى، وَهَذَا الْمَطْلُوبُ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: ﴿ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [2].

وَهَذِهِ الْحُرُوفُ لَيْسَتْ آيَاتٍ عِنْدَ جُمْهُورِ [3] الْعَادِّينَ.

[التَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ هُوَ الَّذِي يُوَافِقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ]

وَالتَّأْوِيلُ فِي كَلَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُتَكَلِّمِينَ: هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنِ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ لِدَلَالَةٍ تُوجِبُ ذَلِكَ. وَهَذَا هُوَ التَّأْوِيلُ الَّذِي يَتَنَازَعُ النَّاسُ فِيهِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ الْخَبَرِيَّةِ وَالطَّلَبِيَّةِ. فَالتَّأْوِيلُ الصَّحِيحُ مِنْهُ: الَّذِي يُوَافِقُ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَا خَالَفَ ذَلِكَ فَهُوَ التَّأْوِيلُ الْفَاسِدُ، وَهَذَا مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ. وَذُكِرَ فِي ((التَّبْصِرَةِ)) أَنَّ نُصَيْرَ بْنَ يَحْيَى الْبَلْخِيَّ رَوَى عَنْ عُمَرَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ حَمَّادِ بْنِ أَبِي يَحْيَى بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ: أَنَّهُ سُئِلَ عَنِ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارِ الَّتِي فِيهَا مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يُؤَدِّي ظَاهِرُهُ إِلَى التَّشْبِيهِ ؟ فَقَالَ: نُمِرُّهَا كَمَا جَاءَتْ، وَنُؤْمِنُ بِهَا، وَلَا نَقُولُ: كَيْفَ وَكَيْفَ. وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ الْمَعْنَى الْفَاسِدَ الْكُفْرِيَّ لَيْسَ هُوَ ظَاهِرَ النَّصِّ وَلَا مُقْتَضَاهُ، وَأَنَّ مَنْ فَهِمَ ذَلِكَ مِنْهُ فَهُوَ لِقُصُورِ فَهْمِهِ وَنَقْصِ عِلْمِهِ، وَإِذَا كَانَ قَدْ قِيلَ فِي قَوْلِ بَعْضِ النَّاسِ:

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا ... وَآفَتُهُ مِنَ الْفَهْمِ السَّقِيمِ

---

(١) في المطبوعة " المتشابة " . وهو خطأ .

(٢) سورة آل عِمْرَانَ آية ٧ .

(٣) في المطبوعة " الجمهور " . وهو خطأ .

وَقيل:

عَلَـي نَحْـتُ الْقَوَافِي مِنْ مَقاطِعِهَا وَمَـا عَلَـي لَهُمْ أَنْ تَفْهَمَ الْبَقَرُ [١]

فَكَيفَ يُقَالُ فِي قَوْلِ اللهِ، الذِي هُوَ أَصْدَقُ الْكَلَامِ وَأَحْسَنُ الْحَدِيث، وَهُوَ الْكِتَابُ الذِي ﴿ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [٢]. إِن حَقِيقَةَ قَوْلهِمْ إِن ظَاهِرَ الْقرْآنِ وَالْحَدِيثِ هُوَ الْكُفْرُ وَالضلَالُ، وَإِنهُ لَيسَ فِيهِ بَيانٌ لِمَا يَصْلُحُ مِنَ الْاعْتِقَادِ، وَلَا فِيهِ بَيانُ التوْحِيدِ وَالتنْزِيهِ ؟ ! هَذَا حَقِيقَةُ قَوْلِ الْمُتَأَوِلينَ.

وَالْحَق أَن مَا دَل عَلَيْهِ الْقرْآنُ فَهُوَ حَق، وَمَا كَانَ بَاطِلًا لَمْ يَدُل عَلَيْهِ. وَالْمُنَازِعُونَ يَدعُونَ دَلَالَتَهُ عَلَى الْبَاطِلِ الذِي يَتَعَين صَرْفُهُ!

فَيُقَالُ لَهُمْ: هَذَا الْبَابُ الذِي فَتَحْتُمُوهُ، وَإِنْ كُنْتُم تَزْعُمُونَ أَنكُمْ تَنْتَصِرُونَ بِهِ عَلَى إِخْوَانِكُمُ الْمُؤْمِنينَ فِي مَوَاضِعَ قَلِيلَةٍ خَفِيَّةٍ، فَقَدْ فَتَحْتُم عَلَيْكُمْ بَابًا لِأَنوَاعِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمُبْتَدِعِينَ، لَا تَقْدِرُونَ عَلَى سَدهِ، فَإِنكُمْ إِذَا سَوغْتُمْ صَرْفَ الْقرْآنِ عَنْ دَلَالَتِهِ الْمَفْهُومَةِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ شَرْعِي، فَمَا الضابِطُ فِيمَا يَسُوغُ تَأْوِيلُهُ وَمَا لَا يَسُوغُ ؟ فَإِنْ قُلْتُمْ: مَا دَل الْقَاطِعُ الْعَقْلي عَلَى اسْتِحَالَتِهِ تَأَولْنَاهُ، وَإِلا أَقْرَرْنَاهُ ! قِيلَ لَكُمْ: وَبِأَي عَقْلٍ نَزِنُ الْقَاطِعَ الْعَقْلي ؟ فَإِن الْقِرْمِطِي الْبَاطِنِي يَزْعُمُ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى بُطْلَانِ ظَوَاهِرِ الشرْعِ ! وَيَزْعُمُ الْفَيْلَسُوفُ قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى بُطْلَانِ حَشْرِ الْأَجْسَادِ ! وَيَزْعُمُ الْمُعْتَزِلي قِيَامَ الْقَوَاطِعِ عَلَى امْتِنَاعِ رُؤْيَةِ اللهِ تَعَالَى، وَعَلَى امْتِنَاعِ قِيَامِ عِلْمٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ رَحْمَةٍ بِهِ تَعَالَى ! ! وَبَابُ التأْوِيلَاتِ التِي يَدعِي أَصْحَابُهَا وُجُوبَهَا بِالْمَعْقُولَاتِ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ تَنْحَصِرَ فِي هَذَا الْمَقَامِ.

وَيَلْزَمُ حِينَئِذٍ مَحْذُورَانِ عَظِيمَانِ:

---

(١) هو من قصيدة للبحتري ، من أجود قصائده . وهي في ديوانه ٢ : ١٨٢- ١٨٤) طبعة الجوائب سنة ١٣٠٠) ، ص ٦٧٣- ٦٧٥) طبعة بيروت سنة ١٩١١) . وأثبت في المطبوعة محرفًا . وصوابه ما أثبتنا عن الديوان .

(٢) سورة هُود آية ١ .

أَحَدُهُمَا: أَنْ لَا نُقِر بِشَيْءٍ مِنْ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالسنةِ حَتى نَبْحَثَ قَبلَ ذَلِكَ بُحُوثًا طَوِيلَةً عَرِيضَةً فِي إِمْكَانِ ذَلِكَ بِالْعَقْلِ ! وَكُل طَائِفَةٍ مِنَ الْمُخْتَلِفِينَ فِي الْكِتَابِ يَدعُونَ أَن الْعَقْلَ يَدُل عَلَى مَا ذَهَبوا إِلَيهِ، فَيَؤُولُ الْأَمرُ إِلَى الْحَيْرَةِ.

الْمَحْذُورُ الثانِي [1] أَن الْقُلُوبَ تَتَخَلى عَنِ الْجَزْمِ بِشَيْءٍ تَعْتَقِدُهُ مِما أَخْبَرَ بِهِ الرسُولُ. إِذْ لَا يُوثَقُ بِأَن الظاهِرَ هُوَ الْمُرَادُ، وَالتأْوِيلَاتُ مُضْطَرِبَةٌ، فَيَلْزَمُ عَزْلُ الْكِتَابِ وَالسنةِ عَنِ الدلَالَةِ وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَا أَنبَأَ اللهُ بِهِ الْعِبَادَ، وَخَاصةُ النبِي هِيَ الْإِنْبَاءُ، وَالْقُرْآنُ هُوَ النبَأُ الْعَظِيمُ. وَلِهَذَا نَجِدُ أَهْلَ التأْوِيلِ إِنمَا يَذْكُرُونَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسنةِ لِلِاعْتِضَادِ لَا لِلِاعْتِمَادِ، إِنْ وَافَقَتْ مَا ادعَوْا أَن الْعَقْلَ دَل عَلَيْهِ قَبِلُوهُ، وَإِنْ خَالَفَتْهُ أَولُوهُ ! وَهَذَا فَتْحُ بَابِ الزنْدَقَةِ، نَسْأَلُ اللهَ الْعَافِيَةَ.

---

(١) في الأصل : (الحيرة المحذورة . الثاني) . والصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .

[النفْيُ وَالتشْبِيهُ مِنْ أَمَرَاض الْقُلوبِ]

قَوْلُهُ: (وَمَنْ لَمْ يَتَوَق النفْيَ وَالتشْبِيه، زَل وَلَمْ يُصِبِ التنْزِيه).

ش: النفْيُ وَالتشْبِيهُ مَرَضَانِ مِنْ أَمرَاضِ الْقُلوبِ، فَإِن أَمرَاضَ الْقُلُوب نَوْعَانِ: مَرَضُ شُبْهَةٍ، وَمَرَضُ شَهْوَةٍ، وَكِلَاهُمَا مَذْكُورٌ فِي الْقُرْآنِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [1]. فَهَذَا مَرَضُ الشهْوَةِ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ ﴾ [2]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ﴾ [3]. فَهَذَا مَرَضُ الشبْهَةِ، وَهُوَ أَردَأُ مِنْ مَرَضِ الشهْوَةِ، إِذْ مَرَضُ الشهْوَةِ يُرْجَى لَهُ الشفَاءُ بِقَضَاءِ الشهْوَةِ، وَمَرَضُ الشبهَةِ لَا شِفَاءَ لَهُ إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ.

وَالشبْهَةُ التِي فِي مَسْأَلَةِ الصفَاتِ نَفْيُهَا وَتَشْبِيهُهَا، وَشُبْهَةُ النفْيِ أَرْدَأُ مِنْ شُبْهَةِ التشْبِيهِ، فَإِن شُبْهَةَ النفْيِ رَد وَتَكْذِيبٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ ﷺ وَشُبْهَةَ التشْبِيهِ غُلُو وَمُجَاوَزَةٌ لِلْحَد فِيمَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ ﷺ. وَتَشْبِيهُ اللهِ بِخَلْقِهِ كُفْرٌ فَإِن اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٌۖ ﴾ [4] وَنَفْيُ الصفَاتِ كُفْرٌ، فَإِن اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ۝١١﴾ [5].

وَهَذَا أَصل نَوْعَي التشْبِيهِ، فَإِن التشْبِيهَ نَوْعَانِ: تَشْبِيهُ الْخَالِقِ بِالْمَخْلُوقِ، وَهَذَا الذِي يَتْعَبُ أَهْلُ الْكَلَامِ فِي رَدهِ وَإِبْطَالِهِ، وَأَهْلُهُ فِي الناسِ أَقل مِنَ النوْعِ الثانِي، الذِينَ هُمْ أَهْلُ تَشْبِيهِ الْمَخْلُوقِ بِالْخَالِقِ، كَعُبادِ الْمَشَايِخِ، وَعُزَيْرٍ، وَالشمْسِ وَالْقَمَرِ، وَالْأَصْنَامِ، وَالْمَلَائِكَةِ، وَالنارِ، وَالْمَاءِ، وَالْعِجْلِ، وَالْقُبورِ، وَالْجِن، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الذِينَ أُرْسِلَتْ لَهُمُ الرسُلُ يَدْعُونَهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

---

(١) سورة الْأَحْزَاب آية ٣٢ .

(٢) سورة الْبَقَرَة آية ١٠ .

(٣) سورة التوْبَة آية ١٢٥ .

(٤) سورة الشورَى آية ١١ .

(٥) سورة الشورَى آية ١١ .

[تنزيهُ الرب هُوَ وَصْفُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا]

قَوْلُهُ: (فَإِن رَبنَا جل وَعَلَا مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيةِ، مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيةِ، لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِن الْبَرِيةِ).

ش: يُشِيرُ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى تَنْزِيهِ الرب تَعَالَى بِالذِي هُوَ وَصْفُهُ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا. وَكَلَامُ الشيْخِ مَأْخُوذٌ مِنْ مَعْنَى سُورَةِ الْإِخْلَاصِ. فَقَوْلُهُ: (مَوْصُوفٌ بِصِفَاتِ الْوَحْدَانِيةِ) مَأْخُوذٌ مِن قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ﴾[(١)]. وَقَوْلُهُ: (مَنْعُوتٌ بِنُعُوتِ الْفَرْدَانِيةِ)، مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ ﴾[(٢)]. وَقَوْلُهُ: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيةِ) مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤ ﴾[(٣)]. وَهُوَ أَيْضًا مُؤَكدٌ لِمَا تَقَدمَ مِنْ إِثْبَاتِ الصفَاتِ وَنَفْيِ التشْبِيهِ. وَالْوَصْفُ وَالنعْتُ مُتَرَادِفَانِ، وَقِيلَ: مُتَقَارِبَانِ. فَالْوَصْفُ لِلذاتِ، وَالنعْتُ لِلْفِعْلِ، وَكَذَلِكَ الْوَحْدَانِيةُ وَالْفَرْدَانِيةُ. وَقِيلَ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا: إِن الْوَحْدَانِيةَ لِلذاتِ، وَالْفَرْدَانِيةَ لِلصفَاتِ، فَهُوَ تَعَالَى مُتَوَحدٌ فِي ذَاتِهِ، مُتَفَرِدٌ بِصِفَاتِهِ. وَهَذَا الْمَعْنَى حَق وَلَمْ يُنَازِعْ فِيهِ أَحَدٌ، وَلَكِنْ فِي اللفْظِ نَوْعُ تَكْرِيرٍ. وَلِلشيْخِ نَظِيرُ هَذَا التكْرِيرِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْعَقِيدَةِ، وَهُوَ بِالْخُطَبِ وَالْأَدْعِيَةِ أَشْبَهُ مِنْهُ بِالْعَقَائِدِ، وَالتسْجِيعُ[(٤)] بِالْخُطَبِ أَلْيَقُ. وَ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾[(٥)]. أَكْمَلُ فِي التنْزِيهِ مِنْ قَوْلِهِ: (لَيْسَ فِي مَعْنَاهُ أَحَدٌ مِنَ الْبَرِيةِ).

---

(١) سورة الإخلاص آية : ١ .

(٢) سورة الإخلاص آية : ٢ ، ٣ .

(٣) سورة الإخلاص آية : ٤ .

(٤) التسجيع ، بالسين المهملة ، يعني السجع . وفي المطبوعة (التشجيع) بالشين معجمة! وهو تصحيف سخيف .

(٥) سورة الشورى آية ١١ .

[تَعَالَى رَبنَا عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ]

[مَا لَمْ يَرِدْ نَفْيُهُ وَلَا إِثْبَاتُهُ مِنَ الصفَاتِ لَا تُطلَقُ حَتى يُنْظَرَ فِي مَقْصُودِ قَائِلِهَا]

قَوْلُهُ: (وَتَعَالَى عَنِ الْحُدُودِ وَالْغَايَاتِ، وَالْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ، لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ الست كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ).

ش: أَذْكُرُ بَيْنَ يَدَيِ الْكَلَامِ عَلَى عِبَارَةِ الشيْخِ رَحِمَهُ اللهُ مُقَدمَةً، وَهِيَ: أَن الناسَ فِي إِطْلَاقِ مِثْلِ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ: فَطَائِفَةٌ تَنْفِيهَا، وَطَائِفَةٌ تُثْبِتُهَا، وَطَائِفَةٌ تُفَصلُ، وَهُمُ الْمُتبِعُونَ لِلسلَفِ، فَلَا يُطْلِقُونَ نَفْيَهَا وَلَا إِثْبَاتَهَا إِلا إِذَا بُينَ مَا أُثْبِتَ بِهَا فَهُوَ ثَابِتٌ، وَمَا نُفِيَ بِهَا فَهُوَ مَنْفِي. لِأَن الْمُتَأَخرِينَ قَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْأَلْفَاظُ فِي اصْطِلَاحِهِمْ فِيهَا إِجْمَالٌ وَإِبْهَامٌ، كَغَيْرِهَا مِنَ الْأَلْفَاظِ الِاصْطِلَاحِيةِ، فَلَيْسَ كُلهُمْ يَسْتَعْمِلُهَا فِي نَفْسِ مَعْنَاهَا اللغَوِي. وَلِهَذَا كَانَ النفَاةُ يَنْفُونَ بِهَا حَقا وَبَاطِلًا، وَيَذْكُرُونَ عَنْ مُثْبِتِيهَا مَا لَا يَقُولُونَ بِهِ، وَبَعْضُ الْمُثْبِتِينَ لَهَا يُدْخِلُ فِيهَا مَعْنًى بَاطِلًا، مُخَالِفًا لِقَوْلِ السلَفِ، وَلِمَا دَل عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالْمِيزَانُ. وَلَمْ يَرِدْ نَص مِنَ الْكِتَابِ وَلَا مِنَ السنةِ بِنَفْيِهَا وَلَا إِثْبَاتِهَا، وَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَصِفَ اللهَ تَعَالَى بِمَا لَمْ يَصِفْ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا، وَإِنمَا نَحْنُ مُتبِعُونَ لَا مُبْتَدِعُونَ.

فَالْوَاجِبُ أَنْ يُنْظَرَ فِي هَذَا الْبَابِ، أَعْنِي بَابَ الصفَاتِ، فَمَا أَثْبَتَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَثْبَتْنَاهُ، وَمَا نَفَاهُ اللهُ وَرَسُولُهُ نَفَيْنَاهُ. وَالْأَلْفَاظُ التِي وَرَدَ بِهَا النص يُعْتَصَمُ بِهَا فِي الْإِثْبَاتِ وَالنفْيِ، فَنُثْبِتُ مَا أَثْبَتَهُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنَ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي. وَأَما الْأَلْفَاظُ التِي لَمْ يَرِدْ نَفْيُهَا وَلَا إِثْبَاتُهَا فَلَا تُطْلَقُ حَتى يُنْظَرَ فِي مَقْصُودِ قَائِلِهَا: فَإِنْ كَانَ مَعْنًى صَحِيحًا قُبِلَ، لَكِنْ يَنْبَغِي التعْبِيرُ عَنْهُ بِأَلْفَاظِ النصُوصِ، دُونَ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ، إِلا عِنْدَ الْحَاجَةِ، مَعَ قَرَائِنَ تُبَينُ الْمُرَادَ وَالْحَاجَةَ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ الْخِطَابُ مَعَ مَنْ لَا يَتِم الْمَقْصُودُ مَعَهُ إِنْ لَمْ يُخَاطَبْ بِهَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ.

وَالشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ أَرَادَ الرد بِهَذَا الْكَلَامِ عَلَى الْمُشَبهَةِ، كَدَاوُدَ الْجَوَارِبِي وَأَمْثَالِهِ الْقَائِلِينَ: إِن اللهَ جِسْمٌ، وَإِنهُ جُثةٌ وَأَعْضَاءٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ، تَعَالَى اللهُ عَما يَقُولُونَ عُلُوا كَبِيرًا. فَالْمَعْنَى الذِي أَرَادَهُ الشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ مِنَ النفْيِ الذِي ذَكَرَهُ هُنَا حَق، لَكِنْ حَدَثَ بَعْدَهُ مَنْ

أدْخَلَ فِي عُمُومِ نَفْيِهِ حَقًا وَبَاطِلًا، فَيَحْتَاجُ إِلَى بَيَانِ ذَلِكَ. وَهُوَ: أن السلفَ مُتفِقُونَ عَلَى أن الْبَشَرَ لَا يَعْلَمُونَ لِلهِ حَدا، وَأَنهُمْ لَا يَحُدونَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِهِ.

[اتفَاقُ السلَفِ أَنهُمْ لَا يَحُدونَ وَلَا يُشَبهُونَ]

قَالَ أَبُو دَاوُدَ الطيَالِسِي: كَانَ سُفْيَانُ وَشُعْبَةُ وَحَمادُ بْنُ زَيْدٍ وَحَمادُ بْنُ سَلَمَةَ وَشَرِيكٌ وَأَبُو عَوَانَةَ - لَا يَحُدونَ وَلَا يُشَبهُونَ وَلَا يُمَثلُونَ، يَرْوُونَ الْحَدِيثَ وَلَا يَقُولُونَ: كَيْفَ ؟ وَإِذَا سُئِلُوا قَالُوا بِالْأَثَرِ. وَسَيَأْتِي فِي كَلَامِ الشيْخِ: وَقَدْ أَعْجَزَ خَلْقَهُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهِ. فَعُلِمَ أَن مُرَادَهُ أَن اللهَ يَتَعَالَى عَنْ أَنْ يُحِيطَ أَحَدٌ بِحَدهِ، لِأَن الْمَعْنَى أَنهُ مُتَمَيزٌ عَنْ خَلْقِهِ مُنْفَصِلٌ عَنْهُمْ مُبَايِنٌ لَهُمْ. سُئِلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: بِمَ نَعْرِفُ رَبنَا ؟ قَالَ: بِأَنهُ عَلَى الْعَرْشِ، بَائِنٌ مِنْ خَلْقِهِ، قِيلَ: بِحَد ؟ قَالَ: بِحَد، انْتَهَى.

[تَحْقِيقُ مَعْنَى الْحَد]

وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَن الْحَد يُقَالُ عَلَى مَا يَنْفَصِلُ بِهِ الشيْءُ وَيَتَمَيزُ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، وَاللهُ تَعَالَى غَيْرُ حَال فِي خَلْقِهِ، وَلَا قَائِمٍ بِهِمْ، بَلْ هُوَ الْقَيومُ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، الْمُقِيمُ لِمَا سِوَاهُ. فَالْحَد بِهَذَا الْمَعْنَى لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُنَازَعَةٌ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ أَصْلًا، فَإِنهُ لَيْسَ وَرَاءَ نَفْيِهِ إِلا نَفْيُ وُجُودِ الرب وَنَفْيُ حَقِيقَتِهِ. وَأَما الْحَد بِمَعْنَى الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ، وَهُوَ أَنْ يَحُدهُ الْعِبَادُ، فَهَذَا مُنْتَفٍ بِلَا مُنَازَعَةٍ بَيْنَ أَهْلِ السنةِ. قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِي فِي رِسَالَتِهِ: سَمِعْتُ الشيْخَ أَبَا عَبْدِ الرحْمَنِ السلَمِي، سَمِعْتُ أَبَا مَنْصُورَ بْنَ عَبْدِ اللهِ، سَمِعْتُ أَبَا الْحَسَنِ الْعَنْبَرِي، سَمِعْتُ سَهْلَ بْنَ عَبْدِ اللهِ التسْتَرِي يَقُولُ، وَقَدْ سُئِلَ عَنْ ذَاتِ اللهِ فَقَالَ: ذَاتُ اللهِ مَوْصُوفَةٌ بِالْعِلْمِ، غَيْرُ مُدْرَكَةٍ بِالْإِحَاطَةِ، وَلَا مَرْئِيةٍ بِالْأَبْصَارِ فِي دَارِ الدنْيَا، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، مِنْ غَيْرِ حَد وَلَا إِحَاطَةٍ وَلَا حُلُولٍ، وَتَرَاهُ الْعُيُونُ فِي الْعُقْبَى، ظَاهِرًا فِي مُلْكِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقَدْ حَجَبَ الْخَلْقَ عَنْ مَعْرِفَةِ كُنْهِ ذَاتِهِ، وَدَلهُمْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ، فَالْقُلُوبُ تَعْرِفُهُ، وَالْعُيُونُ لَا تُدْرِكُهُ، يَنْظُرُ إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُ بِالْأَبْصَارِ، مِنْ غَيْرِ إِحَاطَةٍ وَلَا إِدْرَاكِ نِهَايَةٍ.

[كَلَامُ أَبِي حَنِيفَةَ فِي إِثْبَاتِ الْيَدِ وَالْوَجْهِ وَالنفْسِ لَهُ تَعَالَى بِلَا كَيْفٍ]

وَأما لَفْظُ الْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ وَالْأَدَوَاتِ - فَيَسْتَدِلّ بِهَا النفَاةُ عَلَى نَفْيِ بَعْضِ الصفَاتِ الثابِتَةِ بِالْأَدِلَةِ الْقَطْعِيةِ، كَالْيَدِ وَالْوَجْهِ. قَالَ أَبو حَنِيفَةَ ﷺ فِي ((الْفِقْهِ الْأَكْبَرِ)): لَهُ يَدٌ وَوَجْهٌ وَنَفْسٌ، كَمَا ذَكَرَ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذِكْرِ الْيَدِ وَالْوَجْهِ وَالنفْسِ، فَهُوَ لَهُ صِفَةٌ بِلَا كَيْفٍ، وَلَا يُقَالُ: إِن يَدَهُ قُدْرَتُه وَنِعْمَتُه، لِأَن فِيهِ إِبْطَالَ الصفَةِ، انْتَهَى. وَهَذَا الذِي قَالَهُ الْإِمَامُ ﷺ ثَابِتٌ بِالْأَدِلَةِ الْقَاطِعَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [1]. ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ [2]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [3]. ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [4]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ﴾ [5]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [6]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ [7]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [8]. وَقَالَ ﷺ فِي حَدِيثِ الشفَاعَةِ ﴿ لما يأتي الناسُ آدَمَ فَيقُولُونَ لَهُ: خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلمَكَ أَسْمَاءَ كُل شَيْءٍ ﴾ [9]،

---

(١) سورة ص آية ٧٥ .

(٢) سورة الزمر آية ٦٧ .

(٣) سورة الْقَصَص آية ٨٨ .

(٤) سورة الرحْمَن آية ٢٧ .

(٥) سورة الْمَائدَة آية ١١٦ .

(٦) سورة الْأَنعَام آية ٥٤ .

(٧) سورة طه آية ٤١ .

(٨) سورة آل عِمْرَان آية ٢٨ .

(٩) البخاري تفسير القرآن (٤٢٠٦) ، مسلم الإيمان (١٩٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٣١٢) ، أحمد (٢٤٥/٣) .

الْحَدِيث. وَلَا يَصِح تَأْوِيلُ مَنْ قَالَ: إِن الْمُرَادَ بِالْيَدِ الْقُدْرَةُ [١] فَإِن قَوْلَهُ: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [٢]. لَا يَصِح أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ بِقُدْرَتِي مَعَ تَثْنِيَةِ الْيَدِ، وَلَوْ صَح ذَلِكَ لَقَالَ إِبْلِيسُ: وَأَنَا أَيْضًا خَلَقْتَنِي بِقُدْرَتِكَ، فَلَا فَضْلَ لَهُ عَلَيَّ بِذَلِكَ. فَإِبْلِيسُ -مَعَ كُفْرِهِ- كَانَ أَعْرَفَ بِرَبِّهِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ. وَلَا دَلِيلَ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾ [٣]. لِأَنَّهُ تَعَالَى جَمَعَ الْأَيْدِي لَمَّا أَضَافَهَا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ، لِيَتَنَاسَبَ الْجَمْعَانِ، فَاللَّفْظَانِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْمُلْكِ وَالْعَظَمَةِ. وَلَمْ يَقُلْ: ((أَيْدِي)) مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْمُفْرَدِ، وَلَا ((يَدَيْنَا)) بِتَثْنِيَةِ الْيَدِ مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الْجَمْعِ. فَلَمْ يَكُنْ قَوْلُهُ: ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ ﴾ [٤] نَظِيرَ قَوْلِهِ: ﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ [٥]. وَقَالَ النَّبِي ﷺ عَنْ رَبِّهِ ﷻ: ﴿ حِجَابُهُ النُّورُ، وَلَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ ﴾ [٦].

وَلَكِنْ لَا يُقَالُ لِهَذِهِ الصِّفَاتِ إِنَّهَا أَعْضَاءٌ، أَوْ جَوَارِحُ، أَوْ أَدَوَاتٌ، أَوْ أَرْكَانٌ، لِأَن الرُّكْنَ جُزْءُ الْمَاهِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، لَا يَتَجَزَّأُ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَالْأَعْضَاءُ فِيهَا مَعْنَى التَّفْرِيقِ وَالتَّعْضِيَةِ [٧] تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ، وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [٨]. وَالْجَوَارِحُ فِيهَا مَعْنَى الِاكْتِسَابِ

---

(١) في الأصل : (بالقدرة) والصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .

(٢) سورة ص آية ٧٥ .

(٣) سورة يس آية ٧١ .

(٤) سورة يس آية٧١ .

(٥) سورة ص آية ٧٥ .

(٦) مسلم الإيمان (١٧٩) ، أحمد (٤/٤٠٥) .

(٧) التعضية " : التقطيع ، وجعل الشيء أعضاء .

(٨) سورة الْحِجْرِ آية ٩١ .

وَالِانْتِفَاعِ. وَكَذَلِكَ الْأَدَوَاتُ هِيَ الْآلَاتُ الَّتِي يُنْتَفَعُ بِهَا فِي جَلْبِ الْمَنْفَعَةِ وَدَفْعِ الْمَضَرَّةِ. وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي مُنْتَفِيَةٌ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلِهَذَا لَمْ يَرِدْ ذِكْرُهَا فِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. فَالْأَلْفَاظُ الشَّرْعِيَّةُ صَحِيحَةُ الْمَعَانِي، سَالِمَةٌ مِنَ الِاحْتِمَالَاتِ الْفَاسِدَةِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ لَا يُعْدَلَ عَنِ الْأَلْفَاظِ الشَّرْعِيَّةِ نَفْيًا وَلَا إِثْبَاتًا، لِئَلَّا يُثْبَتَ مَعْنًى فَاسِدٌ، أَوْ يُنْفَى مَعْنًى صَحِيحٌ. وَكُلُّ هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الْمُجْمَلَةِ عُرْضَةٌ لِلْمُحِقِّ وَالْمُبْطِلِ.

[يُرَادُ بِلَفْظِ الْجِهَةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ وَمَا هُوَ مَعْدُومٌ]

وَأَمَّا لَفْظُ الْجِهَةِ، فَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ مَا هُوَ مَعْدُومٌ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ لَا مَوْجُودَ إِلَّا الْخَالِقُ وَالْمَخْلُوقُ، فَإِذَا أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ مَوْجُودٌ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى كَانَ مَخْلُوقًا، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَحْصُرُهُ شَيْءٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ. وَإِنْ أُرِيدَ بِالْجِهَةِ أَمْرٌ عَدَمِيٌّ، وَهُوَ مَا فَوْقَ الْعَالَمِ، فَلَيْسَ هُنَاكَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ. فَإِذَا قِيلَ: "إِنَّهُ فِي جِهَةٍ" بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَهُوَ صَحِيحٌ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَالَمِ حَيْثُ انْتَهَتِ الْمَخْلُوقَاتُ فَهُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ، عَالٍ عَلَيْهِ.

وَنُفَاةُ لَفْظِ الْجِهَةِ الَّذِينَ يُرِيدُونَ بِذَلِكَ نَفْيَ الْعُلُوِّ، يَذْكُرُونَ مِنْ أَدِلَّتِهِمْ: أَنَّ الْجِهَاتِ كُلَّهَا مَخْلُوقَةٌ، وَأَنَّهُ كَانَ قَبْلَ الْجِهَاتِ، وَأَنَّ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ فِي جِهَةٍ يَلْزَمُهُ الْقَوْلُ بِقِدَمِ شَيْءٍ مِنَ الْعَالَمِ، أَوْ أَنَّهُ كَانَ مُسْتَغْنِيًا عَنِ الْجِهَةِ ثُمَّ صَارَ فِيهَا. وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ وَنَحْوُهَا إِنَّمَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، سَوَاءٌ سُمِّيَ جِهَةً أَوْ لَمْ يُسَمَّ، وَهَذَا حَقٌّ. وَلَكِنِ الْجِهَةُ لَيْسَتْ أَمْرًا وُجُودِيًّا، بَلْ أَمْرٌ اعْتِبَارِيٌّ [1] وَلَا شَكَّ أَنَّ الْجِهَاتِ لَا نِهَايَةَ لَهَا، وَمَا لَا يُوجَدُ [2] فِيمَا لَا نِهَايَةَ لَهُ فَلَيْسَ بِمَوْجُودٍ.

[بَيَانُ الْمُرَادِ مِنْ قَوْلِ الطَّحَاوِيِّ لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ]

وَقَوْلُ الشَّيْخِ رَحِمَهُ اللَّهُ: ((لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ السِّتُّ كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ)) هُوَ حَقٌّ، بِاعْتِبَارِ أَنَّهُ لَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، بَلْ هُوَ مُحِيطٌ بِكُلِّ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ. وَهَذَا الْمَعْنَى

---

(١) في المطبوعة " بل أمرًا اعتباريا " ، وهو لحن .

(٢) في المطبوعة " فيها " بدل " فيما " وهو خطأ ، يفسد به المعنى ويضطرب .

هُوَ الذِي أَرَادَهُ الشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ، لِمَا يَأْتِي فِي كَلَامِهِ: أَنهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِكُل شَيْءٍ وَفَوْقَهُ. فَإِذَا جُمِعَ بَيْنَ كَلَامِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: (لَا تَحْوِيهِ الْجِهَاتُ الست كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ) وَقَوْلُهُ [1] (مُحِيطٌ بِكُل شَيْءٍ وَفَوْقَهُ) عُلِمَ أَن مُرَادَهُ أَن اللهَ تَعَالَى لَا يَحْوِيهِ شَيْءٌ، وَلَا يُحِيطُ بِهِ شَيْءٌ، كَمَا يَكُونُ لِغَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَأَنهُ تَعَالَى هُوَ الْمُحِيطُ بِكُل شَيْءٍ، الْعَالِي عَنْ كُل شَيْءٍ.

لَكِنْ بَقِيَ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئَانِ:

أَحَدُهُمَا أَن إِطْلَاقَ مِثْلَ هَذَا اللفْظِ - مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْإِجْمَالِ وَالِاحْتِمَالِ - كَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى، وَإِلا تَسَلطَ عَلَيْهِ، وَأُلْزِمَ بِالتنَاقُضِ فِي إِثْبَاتِ الْإِحَاطَةِ وَالْفَوْقِيةِ وَنَفْيِ جِهَةِ الْعُلُو، وَإِنْ أُجِيبَ عَنْهُ بِمَا تَقَدمَ، مِنْ أَنهُ نَفَى أَنْ يَحْوِيَهُ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَالِاعْتِصَامُ بِالْأَلْفَاظِ الشرْعِيةِ أَوْلَى.

الثانِي: أَن قَوْلَهُ: (كَسَائِرِ الْمُبْتَدَعَاتِ) يُفْهَمُ مِنْهُ أَنهُ مَا مِنْ مُبْتَدَعٍ إِلا وَهُوَ مَحْوِي وَفِي هَذَا نَظَرٌ. فَإِنهُ إِنْ أَرَادَ أَنهُ مَحْوِي بِأَمْرٍ وُجُودِي، فَمَمْنُوعٌ، فَإِن الْعَالَمَ لَيْسَ فِي عَالَمٍ آخَرَ، وَإِلا لَزِمَ التسَلْسُلُ، وَإِنْ أَرَادَ أَمْرًا عَدَمِيا، فَلَيْسَ كُل مُبْتَدَعٍ فِي الْعَدَمِ، بَلْ مِنْهَا مَا هُوَ دَاخِلٌ فِي غَيْرِهِ، كَالسمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي الْكُرْسِي، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُنْتَهَى الْمَخْلُوقَاتِ، كَالْعَرْشِ. فَسَطْحُ الْعَالَمِ لَيْسَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، قَطْعًا لِلتسَلْسُلِ، كَمَا تَقَدمَ. وَيُمْكِنُ أَنْ يُجَابَ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ: بِأَن ((سَائِرَ)) بِمَعْنَى الْبَقِيةِ، لَا بِمَعْنَى الْجَمِيعِ، وَهَذَا أَصْلُ مَعْنَاهَا، وَمِنْهُ ((السؤْرُ))، وَهُوَ مَا يُبْقِيهِ الشارِبُ فِي الْإِنَاءِ. فَيَكُونُ مُرَادُهُ غَالِبَ الْمَخْلُوقَاتِ، لَا جَمِيعَهَا، إِذِ السائِرُ عَلَى الْغَالِبِ أَدَل مِنْهُ عَلَى الْجَمِيعِ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى: أَن اللهَ تَعَالَى غَيْرُ مَحْوِي - كَمَا يَكُونُ أَكْثَرُ الْمَخْلُوقَاتِ مَحْوِيا، بَلْ هُوَ غَيْرُ مَحْوِي - بِشَيْءٍ، تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ. وَلَا يُظَن بِالشيْخِ رَحِمَهُ اللهُ أَنهُ مِمنْ يَقُولُ إِن اللهَ

---

(١) في المطبوعة " وبين قوله " . وزيادة بين لا معنى لها هنا .

تَعالى لَيس دَاخِلَ الْعَالِمِ وَلا خَارِجَهُ بِنَفْيِ النِقيضَيْنِ[1] كَمَا ظَنّهُ بَعْضُ الشارِحِين، بَلْ مُرَادُهُ: أن اللهَ تَعالَى مُنزهٌ عَنْ أنْ يُحِيطَ بِهِ شَيْءٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِه، وَأنْ يَكُونَ مُفْتقِرًا إلَى شَيْءٍ مِنْهَا، الْعَرْشِ أوْ غَيْرِه.

وَفي ثُبوتِ هَذَا الْكَلَامِ عَنِ الْإمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ ﷺ نَظَرٌ، فَإن أضْدَادَهُ قَدْ شَنعُوا عَلْيهِ بِأشْياءَ أهْوَنَ مِنْهُ، فَلَوْ سَمِعُوا مِثْلَ هَذَا الْكَلَامِ لَشَاعَ عَنْهُمْ تَشْنِيعُهُمْ عَلْيِه بِه، وَقَدْ نَقَلَ أبو مُطِيعٍ الْبَلْخِي عَنْهُ إِثْبَاتَ الْعُلُو، كَمَا سَيأتِي ذِكْرُه إنْ شَاءَ اللهُ تَعالَى. وَظَاهِرُ هَذَا الْكَلَامِ يَقْتَضِي نَفْيَهُ، وَلَمْ يَرِدْ بِمِثْلِهِ كِتَابٌ وَلَا سُنةٌ، فَلِذَلِكَ قُلْتُ: إن فِي ثُبوتِه عَنِ الْإمَامِ نَظَرًا، وَإن الْأوْلَى التوَقفُ فِي إطْلَاقِهِ، فَإن الْكَلَامَ بِمِثْلِهِ خَطَرٌ، بِخِلَافِ الْكَلَامِ بِمَا وَرَدَ عَنِ الشارِعِ، كَالاسْتِوَاءِ وَالنزُولِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَمَنْ ظَن مِنَ الْجُهالِ أنهُ إذَا "نَزَلَ إلَى سَمَاءِ الدُنْيا" كَمَا أخْبَرَ الصادِقُ ﷺ - يَكُونُ الْعَرْشُ فَوْقَهُ، وَيَكُونُ مَحْصُورًا بَيْنَ طَبَقَتَيْنِ مِنَ الْعَالَمِ. فَقَوْلُهُ مُخَالِفٌ لِإجْمَاعِ السلَفِ، مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ وَالسنةِ. وَقَالَ شَيْخُ الْإسْلَامِ أَبو عُثْمَانَ إسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرحْمَنِ الصابُونِي: سَمِعْتُ الْأسْتَاذَ أبَا مَنْصُورِ بْنَ حماد - بَعْدَ رِوَايَتِهِ حَدِيثَ النزُولِ - يَقُولُ: سُئِلَ أبو حَنِيفَةَ ﷺ ؟ فَقَالَ: يَنزِلُ بِلَا كَيْفٍ. انْتَهَى.

وَإِنمَا تَوَقفَ مَنْ تَوَقفَ فِي نَفْيِ ذَلِكَ، لِضَعْفِ عِلْمِهِ بِمَعَانِي الْكِتَابِ وَالسنةِ وَأقْوَالِ السلَفِ، وَلِذَلِكَ يُنكِرُ بَعْضُهُمْ أنْ يَكُونَ فَوْقَ الْعَرْشِ، بَلْ يَقُولُ: لَا مُبَايِنَ، وَلَا مُحَايِث، لَا دَاخِلَ الْعَالِمِ وَلَا خَارِجَهُ، فَيَصِفُونَهُ بِصِفَةِ الْعَدَمِ وَالْمُمْتَنِعِ، وَلَا يَصِفُونَهُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْعُلُو وَالاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ بِحُلُولِهِ فِي كُل مَوْجُودٍ، وَيَقُولُ: هُوَ وُجُودُ كُل مَوْجُودٍ وَنَحْوُ ذَلِكَ، تَعَالَى اللهُ عَما يَقُولُ الظالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوا كَبِيرًا.

وَسَيَأْتِي لِإثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُو لِلهِ تَعالَى زِيَادَةُ بَيَانٍ، عِنْدَ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِ الشيْخِ رَحِمَهُ اللهُ: (مُحِيطٌ بِكُل شَيْءٍ وَفَوْقَهُ) إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

(١) في الأصل : (التعيينين) والصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .

[ثُبوتُ الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ لَهُ ﷺ بِالْيقَظِةِ]

قَوْلُهُ: (وَالْمِعْرَاجُ حَق، وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنبِي ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيقَظَةِ، إِلَى السمَاءِ. ثُم إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللهُ مِنَ الْعُلَا وَأَكْرَمَهُ اللهُ بِمَا شَاءَ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ مَا أَوْحَى، مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. فَصَلى اللهُ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى).

ش: ((الْمِعْرَاجُ)): مِفْعَالٌ، مِنَ الْعُرُوجِ، أَيِ الْآلَةِ التِي يُعْرَجُ فِيهَا، أَيْ يُصْعَدُ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ السلمِ، لَكِنْ لَا يُعْلَمُ كَيفَ هُوَ، وَحُكْمُهُ كَحُكْمِ غَيْرِهِ مِنَ الْمُغَيبَاتِ، نُؤْمِنُ بِهِ وَلَا نَشْتَغِلُ بِكَيْفِيتِهِ.

وَقَوْلُهُ: وَقَدْ أُسْرِيَ بِالنبِي ﷺ وَعُرِجَ بِشَخْصِهِ فِي الْيقَظَةِ - اخْتَلَفَ الناسُ فِي الْإِسْرَاءِ.

فَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ، نَقَلَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ عَنْ عَائِشَةَ وَمُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَنَقَلَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِي نَحْوَهُ. لَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْفَرْقُ بَيْنَ أَنْ يُقَالَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مَنَامًا، وَبَيْنَ أَنْ يُقَالَ: كَانَ بِرُوحِهِ دُونَ جَسَدِهِ، وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ عَظِيمٌ. فَعَائِشَةُ وَمُعَاوِيَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا لَمْ يَقُولَا: كَانَ مَنَامًا، وَإِنمَا قَالَا: أُسْرِيَ بِرُوحِهِ وَلَمْ يُفْقَدْ جَسَدُهُ، وَفَرْقٌ مَا بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ إِذْ مَا يَرَاهُ النائِمُ قَدْ يَكُونُ أَمْثَالًا مَضْرُوبَةً لِلْمَعْلُومِ فِي الصورَةِ الْمَحْسُوسَةِ، فَيَرَى كَأَنهُ قَدْ عُرِجَ بِهِ إِلَى السمَاءِ، وَذُهِبَ بِهِ إِلَى مَكةَ، وَرُوحُهُ لَمْ تَصْعَدْ وَلَمْ تَذْهَبْ، وَإِنمَا مَلَكُ الرؤْيَا ضَرَبَ لَهُ الْمِثَالَ. فَمَا أَرَادَا [(١)] أَن الْإِسْرَاءَ مَنَامًا، وَإِنمَا أَرَادَ أَن الروحَ ذَاتَهَا أُسْرِيَ بِهَا، فَفَارَقَتِ الْجَسَدَ ثُم عَادَتْ إِلَيْهِ، وَيَجْعَلَانِ هَذَا مِنْ خَصَائِصِهِ، فَإِن غَيْرَهُ لَا تَنَالُ ذَاتُ رُوحِهِ الصعُودَ الْكَامِلَ إِلَى السمَاءِ إِلا بَعْدَ الْمَوْتِ.

وَقِيلَ: كَانَ الْإِسْرَاءُ مَرتَيْنِ، مَرةً يَقَظَةً، وَمَرةً مَنَامًا. وَأَصْحَابُ هَذَا الْقَوْلِ كَأَنهُمْ أَرَادُوا الْجَمْعَ بَيْنَ حَدِيثِ شَرِيكٍ وَقَوْلِهِ: ((ثُم اسْتَيْقَظْتُ)) وَبَيْنَ سَائِرِ الروَايَاتِ. وَكَذَلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ كَانَ مَرتَيْنِ، مَرةً قَبْلَ الْوَحْيِ، وَمَرةً بَعْدَهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: بَلْ ثَلَاثَ مَراتٍ، مَرةً قَبْلَ الْوَحْيِ، وَمَرتَيْنِ بَعْدَهُ. وَكُلمَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ لَفْظٌ زَادُوا مَرةً، لِلتوْفِيقِ ! وَهَذَا يَفْعَلُهُ

---

(١) قوله : " فما أرادا " - يعني عائشة ومعاوية . وفي المطبوعة " فيما أرادا " ! وهو كلام فاسد ، ولا معنى له .

ضُعَفَاءُ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَإِلا فَالذِي عَلَيْهِ أَئِمةُ النقْلِ: أَن الْإِسْرَاءَ كَانَ مَرةً وَاحِدَةً بِمَكةَ، بَعْدَ الْبِعْثَةِ، قَبلَ الْهِجْرَةِ بِسَنَةٍ، وَقِيلَ: بِسَنَةٍ وَشَهْرَيْنِ، ذَكَرَهُ ابْنُ عَبْدِ الْبر.

قَالَ شَمْسُ الدينِ ابْنُ الْقَيمِ: يَا عَجَبًا لِهَؤُلَاءِ الذِينَ زَعَمُوا أَنهُ كَانَ مِرَارًا ! كَيْفَ سَاغَ لَهُمْ أَنْ يَظُنوا أَنهُ فِي كُل مَرةٍ تُفْرَضُ عَلَيْهِمُ الصلَوَاتُ خَمْسِينَ، ثُم يَتَرَددُ بَيْنَ رَبهِ وَبَيْنَ مُوسَى حَتى تَصِيرَ خَمْسًا، فَيَقُولُ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَففْتُ عَنْ عِبَادِي، ثُم يُعِيدُهَا فِي الْمَرةِ الثانِيَةِ إِلَى خَمْسِينَ، ثُم يَحُطهَا إِلَى خَمْسٍ ؟ ! وَقَدْ غَلطَ الْحُفاظُ شَرِيكًا فِي أَلْفَاظٍ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، وَمُسْلِمٌ أَوْرَدَ الْمُسْنَدَ مِنْهُ، ثُم قَالَ: فَقَدمَ وَأَخرَ وَزَادَ وَنَقَصَ. وَلَمْ يَسْرُدِ الْحَدِيثَ. وَأَجَادَ رَحِمَهُ اللهُ. انْتَهَى كَلَامُ الشيْخِ شَمْسُ الدينِ رَحِمَهُ اللهُ.

[نص حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ]

وَكَانَ مِنْ حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ: أَنهُ ﷺ أُسْرِيَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ، عَلَى الصحِيحِ، مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى، رَاكِبًا عَلَى الْبُرَاقِ، صُحْبَةَ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السلَامُ، فَنَزَلَ هُنَاكَ، صَلى بِالْأَنْبِيَاءِ إِمَامًا، وَرَبَطَ الْبُرَاقَ بِحَلْقَةِ بَابِ الْمَسْجِدِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنهُ نَزَلَ بَيْتَ لَحْمٍ وَصَلى فِيهِ، وَلَا يَصِح عَنْهُ ذَلِكَ أَلْبَتةَ. ثُم عُرِجَ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ إِلَى السمَاءِ الدنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ لَهُ جِبْرِيلُ، فَفُتِحَ لَهُمَا، فَرَأَى هُنَاكَ آدَمَ أَبَا الْبَشَرِ، فَسَلمَ عَلَيْهِ، فَرَحبَ بِهِ وَرَد عَلَيْهِ السلَامَ، وَأَقَر بِنُبُوتِهِ، ثُم عُرِجَ بِهِ إِلَى السمَاءِ الثانِيَةِ. فَاسْتَفْتَحَ لَهُ، فَرَأَى فِيهَا يَحْيَى بْنَ زَكَرِيا وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَلَقِيَهُمَا، فَسَلمَ عَلَيْهِمَا، فَرَدا عَلَيْهِ السلَامَ، وَرَحبَا بِهِ، وَأَقَرا بِنُبُوتِهِ ثُم عُرِجَ بِهِ إِلَى السمَاءِ الثالِثَةِ، فَرَأَى فِيهَا يُوسُفَ، فَسَلمَ عَلَيْهِ فَرَد عَلَيْهِ السلَامَ وَرَحبَ بِهِ وَأَقَر بِنُبُوتِهِ، ثُم عُرِجَ بِهِ إِلَى السمَاءِ الرابِعَةِ، فَرَأَى فِيهَا إِدْرِيسَ، فَسَلمَ عَلَيْهِ وَرَحبَ بِهِ وَأَقَر بِنُبُوتِهِ، ثُم عُرِجَ بِهِ إِلَى السمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَرَأَى فِيهَا هَارُونَ بْنَ عِمْرَانَ، فَسَلمَ عَلَيْهِ وَرَحبَ بِهِ وَأَقَر بِنُبُوتِهِ، ثُم عُرِجَ بِهِ إِلَى السمَاءِ السادِسَةِ، فَلَقِيَ فِيهَا مُوسَى فَسَلمَ عَلَيْهِ وَرَحبَ بِهِ وَأَقَر بِنُبُوتِهِ، فَلَما جَاوَزَهُ بَكَى مُوسَى، فَقِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَن غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنةَ مِنْ أُمتِهِ أَكْثَرُ مِما يَدْخُلُهَا مِنْ أُمتِي، ثُم عُرِجَ بِهِ إِلَى السمَاءِ السابِعَةِ، فَلَقِيَ فِيهَا إِبْرَاهِيمَ، فَسَلمَ عَلَيْهِ وَرَحبَ بِهِ وَأَقَر بِنُبُوتِهِ، ثُم رُفِعَ

إلى سِدْرَةِ الْمُنْتَهى، ثم رُفِعَ له الْبيتُ الْمَعْمُورُ، ثم عُرِجَ بِهِ إلى الْجبارِ، جل جَلَالُهُ وَتقدستْ أسْمَاؤُه، فَدَنَا مِنْهُ حتى كَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أوْ أدْنى، فَأوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أوْحَى، وَفَرض عَلَيْهِ خَمْسِين صَلَاةً، فَرَجَعَ حتى مَر عَلى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ ؟ قَالَ ؟ بِخَمْسِين صَلَاةً، فَقَالَ: إن أُمتَكَ لَا تُطِيقُ ذَلِكَ، ارْجِعْ إلى رَبكَ فَاسْألْهُ التخْفِيفَ لِأُمتِكَ، فَالْتَفَتَ إلى جِبْرَائِيلَ كَأنهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأشَارَ أنْ نَعَمْ إنْ شِئْتَ، فَعَلَا بِهِ جِبْرِيلُ حَتى أتى بِهِ إلى الْجَبارِ تَبَارَكَ وَتَعَالى وَهُوَ فِي مَكَانِهِ - هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِي فِي ((صَحِيحِهِ)) وَفِي بَعْضِ الطرُقِ - فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرًا، ثُم نَزَلَ حَتى مَر بِمُوسَى، فَأخْبَرَهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إلى رَبكَ فَاسْألْهُ التخْفِيفَ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَرَددُ بين مُوسَى وَبيْنَ اللهِ تَبارَكَ وَتَعَالى، حَتى جَعَلَهَا خَمْسًا، فَأمَرَهُ مُوسَى بِالرجُوعِ وَسُؤَالِ التخْفِيفِ، فَقَالَ: قَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبي، وَلَكِنْ أرْضَى وَأسَلمُ، فَلَما نَفَذَ، نَادَى مُنَادٍ: قَدْ أمْضَيْتُ فَرِيضَتِي وَخَففْتُ عَنْ عِبَادِي.

وَقَدْ تَقَدمَ ذِكْرُ اخْتِلَافِ الصحَابَةِ فِي رُؤْيَتِهِ ﷺ رَبهُ ﷻ بِعَيْنِ رَأسِهِ، وَأن الصحِيحَ أنهُ رَآهُ بِقَلْبِهِ، وَلَمْ يَرَهُ بِعَيْنِ رَأسِهِ، وَقَوْلُهُ: ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ ﴾ [(١)] صَح عَنِ النبِي ﷺ أن هَذَا الْمَرْئي جِبْرِيلُ، رَآهُ مَرتَيْنِ عَلى صُورَتِهِ التِي خُلِقَ عَلَيْهَا.

[بَيْنَ الْمَعْنَى الْمُرَادِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالى "ثُم دَنَا فَتَدَلى"]

وَأما قَوْلُهُ تَعَالى فِي سُورَةِ النجْمِ: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ ﴾ [(٢)] فَهُوَ غَيْرُ الدنُو وَالتدَلي الْمَذْكُورَيْنِ فِي قِصةِ الْإِسْرَاءِ، فَإن الذِي فِي سُورَةِ النجْمِ هُوَ دُنُو جِبْرِيلَ وَتَدَلِّيهِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ وَابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، فَإنهُ قَالَ: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ

---

(١) سورة النجْم الآيتان ١١ ، ١٣ .

(٢) سورة النجم آية ٨ .

﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝﴾ [1]. فَالضمَائِرُ كُلهَا رَاجِعَةٌ إِلَى هَذَا الْمُعَلمِ الشدِيدِ الْقُوى، وَأما الدنو وَالتدَلي الذِي فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ، فَذَلِكَ صَرِيحٌ فِي أَنهُ دُنو الرب تَعَالَى وَتَدَليه. وَأما الذِي فِي سُورَةِ النجْمِ: أَنهُ رَآه نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، فَهَذَا هُوَ جِبْرِيلُ، رَآه مَرتَينِ، مَرةً فِي الْأَرْضِ، وَمَرةً عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى.

وَمِما يَدُل عَلَى أَن الْإِسْرَاءَ بِجَسَدِهِ فِي الْيَقَظَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [2]. وَالْعَبْدُ عِبَارَةٌ عَنْ مَجْمُوعِ الْجَسَدِ وَالروحِ، كَمَا أَن الْإِنْسَانَ اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الْجَسَدِ وَالروحِ، هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ الصحِيحُ. فَيَكُونُ الْإِسْرَاءُ بِهَذَا الْمَجْمُوعِ، وَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ عَقْلًا، وَلَوْ جَازَ اسْتِبْعَادُ صُعُودِ الْبَشَرِ لَجَازَ اسْتِبْعَادُ نُزُولِ الْمَلَائِكَةِ، وَذَلِكَ يُؤَدي إِلَى إِنْكَارِ النبُوةِ وَهُوَ كُفْرٌ.

فَإِنْ قِيلَ: فَمَا الْحِكْمَةُ فِي الْإِسْرَاءِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ أَولًا ؟ فَالْجَوَابُ - وَاللهُ أَعْلَمُ -: أَنهُ كَانَ ذَلِكَ إِظْهَارًا لِصِدْقِ دَعْوَى الرسُولِ ﷺ الْمِعْرَاجَ حِينَ سَأَلَتْهُ قُرَيْشٌ عَنْ نَعْتِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فَنَعَتَهُ لَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ عَنْ عِيرِهِمُ التِي مَر عَلَيْهَا فِي طَرِيقِهِ، وَلَوْ كَانَ عُرُوجُهُ إِلَى السمَاءِ مِنْ مَكةَ لَمَا حَصَلَ ذَلِكَ، إِذْ لَا يُمْكِنُ اطلَاعُهُمْ عَلَى مَا فِي السمَاءِ لَوْ أَخْبَرَهُمْ عَنْهُ، وَقَدِ اطلَعُوا عَلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَأَخْبَرَهُمْ بِنَعْتِهِ.

وَفِي حَدِيثِ الْمِعْرَاجِ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ صِفَةِ الْعُلُو لِلهِ تَعَالَى مِنْ وُجُوهٍ، لِمَنْ تَدَبرَهُ، وَبِاللهِ التوْفِيقُ.

---

(1) سورة النجْمِ الآيات ٥-٨ .

(2) سورة الْإِسْرَاءِ آية ١١ .

[ذِكْرُ الحَوْض]

[ذِكْرُ الحَوْض وَصفته]

قَوْلُهُ: (وَالْحَوْضُ - الذِي أكْرَمَهُ اللهُ تَعَالى بِهِ غِيَاثًا لِأمتِهِ - حَق).

ش: الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِي ذِكْرِ الْحَوْضِ تَبْلُغُ حَد التوَاتُرِ، رَوَاهَا مِنَ الصحَابَةِ بِضْعٌ وَثَلَاثُونَ صَحَابِيا، وَلَقَدِ اسْتَقْصَى طُرُقَهَا شَيْخُنَا الشيْخُ عِمَادُ الدينِ بْنُ كَثِيرٍ، تَغَمدَهُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ، فِي آخِرِ تَارِيخِهِ الْكَبِيرِ، الْمُسَمى بِ " الْبِدَايَةِ وَالنهَايَةِ ".

فَمِنْهَا: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، عَنْ أنسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ﴿إن قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أيْلَةَ إلَى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإن فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السمَاءِ﴾ [(١)]. وَعَنْهُ أيضًا عَنِ النبِي ﷺ قَالَ: ﴿لَيَرِدَن عَلَي نَاسٌ مِنْ أصْحَابِي، حَتى إذَا عَرَفْتُهُمُ اخْتَلَجُوا دُونِي، فَأقُولُ: أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أحْدَثُوا بَعْدَكَ﴾ [(٢)]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أحْمَدُ عَنْ أنسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: ﴿أغْفَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إغْفَاءَةً، فَرَفَعَ رَأسَهُ مُبْتَسِمًا، إما قَالَ لَهُمْ، وَإما قَالُوا لَهُ: لِمَ ضَحِكْتَ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إنهُ أُنْزِلَتْ عَلَي آنِفًا سُورَةٌ، فَقَرَأ: بِسْمِ اللهِ الرحْمَنِ الرحِيمِ ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝﴾ [(٣)] حَتى خَتَمَهَا، ثُم قَالَ لَهُمْ: هَلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟ قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، قَالَ: هُوَ نَهْرٌ أعْطَانِيهِ رَبي ﷻ فِي الْجَنةِ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، تَرِدُ عَلَيْهِ أُمتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدَ الْكَوَاكِبِ، يَخْتَلِجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ، فَأقُولُ: يَا رَب إنهُ مِنْ أُمتِي، فَيُقَالُ لِي: إنكَ لَا تَدْرِي مَا

---

(١) البخاري الرقاق (٦٢٠٩) ، مسلم الفضائل (٢٣٠٣) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٤٢) ، ابن ماجه الزهد (٤٣٠٤) ، أحمد (٣/٢٣٠) .

(٢) مسلم الفضائل (٢٣٠٤) ، النسائي الافتتاح (٩٠٤) .

(٣) سورة الكوثر آية ١ .

أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ». وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَلَفْظُهُ: « هُوَ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِي، عَلَيْهِ خَيرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمتِي يَومَ الْقِيَامَةِ » (1)، وَالْبَاقِي مِثْلُهُ.

وَمَعْنى ذَلِكَ أنهُ يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنْ ذَلِكَ الْكَوْثَرِ إِلَى الْحَوْضِ، وَالْحَوْضُ فِي الْعَرَصَاتِ قَبلَ الصرَاطِ، لِأنهُ يُخْتَلَجُ عَنْهُ، وَيُمْنَعُ مِنْهُ أَقْوَامٌ قَدِ ارْتَدوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَمِثْلُ هَؤُلَاءِ لَا يُجَاوِزُونَ الصرَاطَ. وَرَوَى الْبُخَارِي وَمُسْلِمٌ عَنْ جُنْدَبِ بنِ عَبْدِ اللهِ الْبَجَلِي ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « أنا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ » (2). وَالْفَرَطُ: الذِي يَسْبِقُ إِلَى الْمَاءِ.

وَرَوَى الْبُخَارِي عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ الْأَنْصَارِي ﷺ قَالَ: « قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِني فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، مَنْ مر عَلَي شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَن عَلَي أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَنِي، ثُم يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ. قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النعْمَانُ بنُ أَبِي عَياشٍ [وَأنا أُحَدثُهُمْ هَذَا] فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ مِنْ سَهْلٍ ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي لَسَمِعْتُهُ وَهُوَ يَزِيدُ: فَأَقُولُ: إِنهُمْ مِنْ أُمتِي فَقَالَ: إِنكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَقَالَ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيرَ بَعْدِي » (3). سُحْقًا: أَيْ بُعْدًا.

[صِفَةُ الْحَوْضِ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِيهِ]

وَالذِي يَتَلَخصُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي صِفَةِ الْحَوْضِ: أَنهُ حَوْضٌ عَظِيمٌ، وَمَوْرِدٌ كَرِيمٌ، يُمَد مِنْ شَرَابِ الْجَنةِ، مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، الذِي هُوَ أَشَد بَيَاضًا مِنَ اللبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الِاتسَاعِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ سَوَاءٌ، كُل زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ. وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: أَنهُ كُلمَا شُرِبَ مِنْهُ وَهُوَ

(1) مسلم الصلاة (٤٠٠) ، النسائي الافتتاح (٩٠٤) ، أبو داود السنة (٤٧٤٧) ، أحمد (١٠٢/٣) .

(2) البخاري الرقاق (٦٢٠٥) ، مسلم الفضائل (٢٢٩٧) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٥٧) ، أحمد (٣٩٣/٥) .

(3) البخاري الرقاق (٦٢١٣) ، مسلم الفضائل (٢٢٩١) ، أحمد (٣٣٩/٥) .

في زيادة واتساع، وأنه ينبت في حال من المسك والرضراض من اللؤلؤ قضبان الذهب، ويثمر ألوان الجواهر، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء. وقد ورد في أحاديث: «إن لكل نبي حوضًا، وإن حوض نبينا ﷺ أعظمها وأحلاها وأكثرها واردًا». جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

قال العلامة أبو عبد الله القرطبي رحمه الله تعالى في ((التذكرة)): واختلف في الميزان والحوض: أيهما يكون قبل الآخر ؟ فقيل: الميزان، وقيل: الحوض. قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل. قال القرطبي: والمعنى يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم، كما تقدم فيقدم قبل الميزان والصراط. قال أبو حامد الغزالي رحمه الله، في كتاب ((كشف علم الآخرة)): حكى بعض السلف من أهل التصنيف، أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله. قال القرطبي: هو كما قال، ثم قال القرطبي: ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض، بل في الأرض المبدلة، أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يظلم على ظهرها أحد قط، تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء. انتهى.

فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض، وأخلق بهم أن يحال بينهم وبين وروده يوم العطش الأكبر.

[الشفَاعَةُ]

[أنْوَاعُ الشفَاعَةِ]

قَوْلُهُ: (وَالشفَاعَةُ التِي ادخَرَهَا لَهُمْ حَق، كَمَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ).

ش: الشفَاعَةُ أَنْوَاعٌ: مِنْهَا مَا هُوَ مُتفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَ الْأُمةِ، وَمِنْهَا مَا خَالَفَ فِيهِ الْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ.

النوْعُ الْأَولُ: الشفَاعَةُ الْأُولَى، وَهِيَ الْعُظْمَى، الْخَاصةُ بِنَبِينَا ﷺ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ. فِي ((الصحِيحَيْنِ)) وَغَيْرِهِمَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصحَابَةِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، أَحَادِيثُ الشفَاعَةِ.

مِنْهَا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: ﴿ أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِلَحْمٍ، فَدُفِعَ إِلَيْهِ مِنْهَا الذرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً، ثُم قَالَ: أَنَا سَيدُ الناسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ لِمَ ذَلِكَ ؟ يَجْمَعُ اللهُ الْأَولِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ [وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الداعِي وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ وَتَدْنُو الشمْسُ فَيَبْلُغُ الناسَ مِنَ الْغَم وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ]، فَيَقُولُ بَعْضُ الناسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبكُمْ ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ الناسِ لِبَعْضٍ: أَبُوكُمْ آدَمُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِن رَبي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنهُ نَهَانِي عَنِ الشجَرَةِ فَعَصَيْتُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَولُ الرسُلِ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَسَماكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا ؟ فَيَقُولُ نُوحٌ: إِن رَبي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنهُ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِي اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ

بَلَغنا ؟ فيَقولُ: إن ربي قَدْ غَضِبَ اليْومَ غضبًا لَمْ يَغضبْ قبلَه مِثْلَه، وَلَنْ يَغْضبَ بَعْدَهُ مِثْلَه، وَذَكَرَ كَذَبَاتِه، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهُبوا إِلى مُوسَى، فيأْتُونَ مُوسَى: فيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أنتَ رَسُولُ اللهِ، اصْطَفَاكَ اللهُ بِرسَالَاتِه وَبتكْلِيمِه عَلَى الناسِ، اشْفَعْ لنا إلى رَبكَ، ألَا تَرى مَا نَحْنُ فِيه ؟ ألا ترى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فيَقولُ لَهُمْ مُوسَى: إن رَبي قَدْ غَضِبَ اليْومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَه مِثْلَه، ولَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَه، وَإِني قَتلتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بقتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهُبوا إلى غَيْري، اذْهُبوا إلى عِيسَى، فيَأْتُونَ عِيسَى، فيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أنتَ رَسُولُ اللهِ وَكلِمَتُه أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، قَالَ: هَكَذَا هُوَ، وَكَلَّمْتَ الناسَ فِي المَهْدِ، فَاشْفَعْ لنا إلى رَبكَ، ألَا تَرى إلَى مَا نَحْنُ فِيه ؟ ألَا ترى مَا قَدْ بَلَغنَا ؟ فيَقولُ لَهُمْ عِيسَى: إن رَبي قَدْ غَضِبَ اليْومَ غَضبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَه مِثْلَه، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَه، وَلَمْ يَذْكُرْ لَه ذَنْبًا، اذْهُبوا إلى غَيْري، اذْهُبوا إلى مُحَمدٍ ﷺ فيَأتوني، فيَقولُونَ: يَا مُحَمدُ، أنتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الأَنبِياءِ، غَفَرَ اللهُ لَكَ ذَنْبَكَ، مَا تَقَدمَ مِنْهُ وَمَا تَأَخرَ، فَاشْفَعْ لنا إلى رَبكَ، ألَا ترى إلى مَا نَحْنُ فِيه ؟ ألا ترى مَا قَدْ بَلَغنا ؟ فَأَقُومُ، فَآتي تَحْتَ العَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِربي ﷻ ثم يَفْتَحُ اللهُ عَلَي وَيُلْهِمُني مِنْ مَحَامِدِه وَحُسْنِ الثناءِ عَلَيْه شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْه عَلَى أحَدٍ قبْلي، فيُقالُ: يَا مُحَمدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَه، اشْفَعْ تُشَفعْ، فَأَقُولُ: يَا رَب أُمتي أُمتي، يَا رَب أُمتي أُمتي، يَا رَب أُمتي أُمتي، فيَقُولُ: أَدْخِلْ مِنْ أُمتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْه مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوابِ الجَنةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ الناسِ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ الأَبْوابِ، ثم قَالَ: وَالذِي نَفْسِي بِيَدِه، لَمَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنةِ كَمَا بَيْنَ مَكةَ وَهَجَرَ، أوْ كَمَا بَيْنَ مَكةَ وَبُصْرَى ﴾ [(١)].

أَخْرَجَاهُ فِي ((الصحِيحَيْنِ)) بِمَعْنَاه، وَاللفْظُ لِلإِمَامِ أحْمَدَ. [(٢)]

---

(١) البخاري أحاديث الأنبياء (٣١٦٢) ، مسلم الإيمان (١٩٤) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٤) ، أحمد (٢/٤٣٦) .

(٢) المسند (٩٦٢١) .

وَالْعَجَبُ كل الْعَجَبِ، مِنْ إيرَادِ الْأَئمةِ لِهَذَا الْحَدِيثِ مِنْ أَكْثَرِ طُرُقِهِ، لَا يَذْكُرُون أَمْرَ الشفَاعَةِ الْأُولَى، فِي مَأْتى الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، كَمَا وَرَدَ هَذَا فِي حَدِيثِ الصورِ، فَإِنَّهُ الْمَقْصُودُ فِي هَذَا الْمُقَامِ، وَمُقْتَضَى سِيَاقِ أَولِ الْحَدِيثِ، فَإِن الناسَ إِنمَا يَسْتَشْفِعُونَ إِلَى آدمَ فَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنبِيَاءِ فِي أَنْ يَفْصِلَ بَيْنَ الناسِ وَيَسْتَرِيحُوا مِنْ مُقَامِهِمْ، كَمَا دلتْ عَلَيْهِ سِيَاقَاتُهُ مِنْ سَائِرِ طُرُقِهِ، فَإِذَا وَصَلُوا إِلَى الْجَزَاءِ إِنمَا يَذْكُرُونَ الشفَاعَةَ فِي عُصَاةِ الْأُمةِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ النارِ. وَكَانَ مَقْصُودُ السلفِ - فِي الِاقْتِصَارِ عَلَى هَذَا الْمِقْدَارِ مِنَ الْحَدِيثِ - هُوَ الرد عَلَى الْخَوَارِجِ وَمَنْ تَابَعَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ، الذِينَ أَنْكَرُوا خُرُوجَ أَحَدٍ مِنَ النارِ بَعْدَ دُخُولِهَا، فَيَذْكُرُونَ هَذَا الْقَدْرَ مِنَ الْحَدِيثِ الذِي فِيهِ النص الصرِيحُ فِي الرد عَلَيْهِمْ، فِيمَا ذَهَبُوا إِلَيْهِ مِنَ الْبِدْعَةِ الْمُخَالِفَةِ لِلْأَحَادِيثِ.

وَقَدْ جَاءَ التصْرِيحُ بِذَلِكَ فِي حَدِيثِ الصورِ، وَلَوْلَا خَوْفُ الْإِطَالَةِ لَسُقْتُهُ بِطُولِهِ، لَكِنْ مِنْ مَضْمُونِهِ: ﴿ أَنهُمْ يَأْتُونَ آدمَ ثم نُوحًا، ثم إِبْرَاهِيمَ، ثم مُوسَى، ثم عِيسَى، ثم يَأْتُونَ رَسُولَ اللهِ مُحَمدًا ﷺ فَيَذْهَبُ فَيَسْجُدُ تَحْتَ الْعَرْشِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ: الْفَحْصُ، فَيَقُولُ اللهُ: مَا شَأْنُكَ ؟ وَهُوَ أَعْلَمُ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَقُولُ: يَا رَب، وَعَدْتَنِي الشفَاعَةَ، فَشَفعْنِي، فِي خَلْقِكَ، فَاقْضِ بَيْنَهُمْ، فَيَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: شَفعْتُكَ، أَنَا آتِيكُمْ فَأَقْضِي بَيْنَهُمْ، قَالَ: فَأَرْجِعُ فَأَقِفُ مَعَ الناسِ، ثم ذَكَرَ انْشِقَاقَ السمَاوَاتِ، وَتَنزلَ الْمَلَائِكَةِ فِي الْغَمَامِ، ثم يَجِيءُ الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَالْكَرُوبِيونَ وَالْمَلَائِكَةُ الْمُقَربُونَ يُسَبحُونَ بِأَنْوَاعِ التسْبِيحِ، قَالَ: فَيَضَعُ اللهُ كُرْسِيهُ حَيْثُ شَاءَ مِنْ أَرْضِهِ، ثم يَقُولُ: إِني أَنصِتُ لَكُمْ مُنْذُ خَلَقْتُكُمْ إِلَى يَوْمِكُمْ هَذَا أَسْمَعُ أَقْوَالَكُمْ، وَأَرَى أَعْمَالَكُمْ، فَأَنصِتُوا إِلَي، فَإِنمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ وَصُحُفُكُمْ تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إِلا نَفْسَهُ، إِلَى أَنْ قَالَ: فَإِذَا أَفْضَى أَهْلُ الْجَنةِ إِلَى الْجَنةِ، قَالُوا: مَنْ يَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبنَا فَنَدْخُلَ الْجَنةَ ؟ فَيَقُولُونَ: مَنْ أَحَق بِذَلِكَ مِنْ أَبِيكُمْ، إِنهُ خَلَقَهُ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيهِ رُوحَهُ، وَكَلمَهُ قُبُلًا، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَطْلُبُونَ ذَلِكَ إِلَيْهِ، وَذَكَرَ نُوحًا، ثم إِبْرَاهِيمَ، ثم مُوسَى، ثم عِيسَى، ثم مُحَمدًا ﷺ... إِلَى أَنْ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَآتِي الْجَنةَ، فَآخُذُ

بِحلْقَةِ الْبَابِ، ثم أَسْتَفْتِحُ، فُيفْتَحُ لِي، فَأُحيي وُيرحبُ بِي، فَإِذَا دَخَلْتُ الْجَنةَ فَنظَرْتُ إِلَى رَبي ﷻ خَررْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَيأْذَنُ لِي مِنْ حَمْدِهِ وَتَمْجِيدِهِ بِشَيْءٍ مَا أَذِنَ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، ثم يَقُولُ اللهُ لِي: ارْفَعْ يَا مُحَمدُ، وَاشْفَعْ تُشَفعْ، وَسَلْ تُعْطَه، فَإِذَا رَفَعْتُ رَأْسِي، قَالَ اللهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ -: مَا شَأْنُكَ؟ فَأَقُولُ: يَا رَب، وَعَدْتَنِي الشفَاعَةَ، فَشَفعْنِي فِي أَهْلِ الْجَنةِ يَدْخُلُونَ الْجَنةَ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ قَدْ شَفعْتُكَ، وَأَذِنْتُ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنةِ. ﴾[1]..

الْحَدِيث. رَوَاهُ الْأَئِمةُ: ابْنُ جَرِيرٍ فِي تَفْسِيرِهِ، وَالطبَرَانِي، وَأَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِي، وَالْبيهقي وَغَيرُهُمْ.

النوْعُ الثانِي وَالثالِثُ مِنَ الشفَاعَةِ: شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي أَقْوَامٍ قَدْ تَسَاوَتْ حَسَنَاتُهُمْ وَسيئَاتُهُمْ، فَيشْفَعُ فِيهِمْ لِيَدْخُلُوا الْجَنةَ، وَفِي أَقْوَامٍ آخَرِينَ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النارِ أَنْ لَا يَدْخُلُونَهَا.

النوْعُ الرابِعُ: شَفَاعَتُهُ ﷺ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنةَ فِيهَا فَوْقَ مَا كَانَ يَقْتَضِيهِ ثَوَابُ أَعْمَالِهِمْ. وَقَدْ وَافَقَتِ الْمُعْتَزِلَةُ هَذِهِ الشفَاعَةَ خَاصةً، وَخَالَفُوا فِيمَا عَدَاهَا مِنَ الْمَقَامَاتِ، مع تَوَاتُرِ الْأَحَادِيثِ فِيهَا.

النوْعُ الْخَامِسُ: الشفَاعَةُ فِي أَقْوَامٍ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَيَحْسُنُ أَنْ يُسْتَشْهَدَ لِهَذَا النوعِ بِحَدِيثِ عُكَاشَةَ بْنِ مِحْصَنٍ، حِينَ دَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنْ يَجْعَلَهُ مِنَ السبعِينَ أَلْفًا الذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَالْحَدِيثُ مُخَرجٌ فِي ((الصحِيحَيْنِ)).

النوْعُ السادِسُ: الشفَاعَةُ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَمنْ يَسْتَحِقهُ، كَشَفَاعَتِهِ فِي عَمهِ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُخَفف عَنْهُ عَذَابُهُ. ثُم قَالَ الْقُرْطبِي فِي التذْكِرَةِ بَعْدَ ذِكْرِ هَذَا النوْعِ: فَإِنْ قِيلَ: فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[2]. قِيلَ لَهُ: لَا تَنفَعُهُ فِي الْخُرُوجِ مِنَ النارِ، كَمَا تَنفَعُ عُصَاةَ الْمُوحدِينَ، الذِينَ يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَيَدْخُلُونَ الْجَنةَ.

---

(١) أحمد (١/٢٨٢) .

(٢) سورة المُدثر آية ٤٨ .

النَوْعُ السابِعُ: شَفَاعَتُه أنْ يُؤذَنَ لِجَمِيعِ الْمُؤمِنينَ فِي دُخُولِ الْجَنةِ، كَمَا تَقدمَ. وَفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أنسٍ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ﴿ أنا أولُ شَفِيعٍ فِي الْجَنةِ ﴾ [1].

[ثُبوتُ شَفَاعَةِ الرسُولِ لِأهْلِ الْكبَائِرِ مِنْ أمتِهِ]

النَوْعُ الثامِنُ: شَفَاعَتُه فِي أهْلِ الْكبَائِرِ مِنْ أمتِهِ، مِمنْ دَخَلَ النارَ، فَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، وَقَدْ تَوَاتَرتْ بِهذَا النوْعِ الْأحَادِيثُ. وَقَدْ خَفِيَ عِلْمُ ذَلِكَ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، فَخَالَفُوا فِي ذَلِكَ، جَهْلًا مِنْهُمْ بِصِحةِ الْأحَادِيثِ، وَعِنَادًا مِمنْ عَلِمَ ذَلِكَ وَاسْتَمَر عَلَى بِدْعَتِهِ. وَهَذِهِ الشفَاعَةُ تُشَارِكُهُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ وَالنبِيونَ وَالْمُؤْمِنُونَ أيْضًا. وَهَذِهِ الشفَاعَةُ تَتَكرَرُ مِنْهُ ﷺ أرْبعَ مَراتٍ. وَمِنْ أحَادِيثِ هَذَا النوْعِ، حَدِيثُ أنسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ شَفَاعَتِي لِأهْلِ الْكبَائِرِ مِنْ أمتِي ﴾ [2]. رَوَاهُ الْإمَامُ أحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ.

وَرَوَى الْبُخَارِي رَحِمَهُ اللهُ فِي كِتَابِ التوْحِيدِ [3] حَدثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ حَرْبٍ، حَدثَنَا حَمادُ بْنُ زَيْدٍ، حَدثَنَا مَعْبَدُ بْنُ هِلَالٍ الْعَنَزِي [4] قَالَ: اجْتَمَعْنَا وَنَاسٌ مِنْ أهْلِ الْبَصْرَةِ، فَذَهَبْنَا إلَى أنسِ بْنِ مَالِكٍ، وَذَهَبْنَا مَعَنَا بِثَابِتٍ الْبُنَانِي إلَيْهِ [5] يَسْألُهُ لَنَا عَنْ حَدِيثِ الشفَاعَةِ، فَإِذَا هُوَ فِي قَصْرِهِ، فَوَافَقْنَاهُ [6] يُصَلي الضحَى [7] فَاسْتَأذَنا، فَأذِنَ لَنَا وَهُوَ قَاعِدٌ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقُلْنَا لِثَابِتٍ: لَا تَسْألْهُ عَنْ شَيْءٍ أولَ مِنْ حَدِيثِ الشفَاعَةِ [8] فَقَالَ: يَا أبَا حَمْزَةَ، هَؤُلَاءِ إخْوَانُكَ مِنْ أهْلِ الْبَصْرَةِ، جَاؤُوكَ يَسْألُونَكَ عَنْ حَدِيثِ الشفَاعَةِ، فَقَالَ:

---

(١) مسلم الإيمان (١٩٦) ، أحمد (٣/١٤٠) ، الدارمي المقدمة (٥١) .

(٢) الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٥) ، أحمد (٣/٢١٣) .

(٣) في (باب كلام الرب تعالى يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) ج٩ ص١٥٦- ١٥٧ من البخاري الطبعة السلطانية ، وجـ ١٣ ص ٣٩٥- ٣٩٦ من فتح الباري .

(٤) في المطبوعة (سعد) بدل (معبد) ، وهو خطأ .

(٥) الزيادة من صحيح البخاري .

(٦) في المطبوعة (فوافيناه) والتصحيح من البخاري .

(٧) في المطبوعة(الصبح) ، وهو خطأ صححناه من البخاري .

(٨) الزيادة من صحيح البخاري ، وهي ضرورية ، يختل سياق الكلام بدونا .

حدثنا محمدٌ ﷺ قال: إذا كان يومُ القيامةِ، ماجَ الناسُ بعضُهم في بعضٍ، فيأتون آدمَ، فيقولون: اشفعْ لنا إلى ربك، فيقولُ: لستُ لها ولكن عليكم بإبراهيمَ، فإنه خليلُ الرحمنِ، فيأتون إبراهيمَ، فيقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكمْ بموسى، فإنه كليمُ اللهِ، فيأتون موسى، فيقولُ: لستُ لها، لكنْ عليكمْ بعيسى، فإنهُ روحُ اللهِ وكلمتُهُ، فيأتون عيسى، فيقولُ: لستُ لها، ولكنْ عليكمْ بمحمدٍ ﷺ فيأتوني، فأقولُ: أنا لها، فأستأذنُ على ربي فيؤذَنُ (١) لي، ويلهمني محامدَ أحمدُهُ بها، لا تحضُرني الآنَ، فأحمدُهُ بتلكَ المحامدِ، وأخِرُ لهُ ساجدًا، فيقالُ: يا محمدُ، ارفعْ رأسكَ، وقلْ يسمعْ لكَ، واشفعْ تشفعْ (٢) وسلْ تُعطَ، فأقولُ: يا ربِ أمتي أمتي، فيقالُ: انطلقْ فأخرجْ منها (٣) منْ كانَ في قلبِهِ مثقالَ شعيرةٍ منْ إيمانٍ، فأنطلقُ فأفعلُ، ثم أعودُ فأحمدُهُ بتلكَ المحامدِ (٤) ثم أخِرُ لهُ ساجدًا، فيقالُ: يا محمدُ، ارفعْ رأسكَ، وقلْ يسمعْ لكَ، واشفعْ تشفعْ، وسلْ تعطَ (٥) فأقولُ: يا ربِ أمتي أمتي، فيقالُ: انطلقْ فأخرجْ منها (٦) منْ كانَ في قلبِهِ مثقالُ ذرةٍ أوْ خردلةٍ منْ إيمانٍ، فأنطلقُ فأفعلُ، ثم أعودُ بتلكَ المحامدِ، ثم أخِرُ لهُ ساجدًا، فيقالُ: يا محمدُ، ارفعْ رأسكَ، وقلْ يسمعْ لكَ، وسلْ تعطْ، واشفعْ تشفعْ، فأقولُ: يا ربِ، أمتي أمتي، فيقولُ: انطلقْ فأخرجْ منْ كانَ في قلبِهِ أدنى أدنى مثقالِ حبةٍ منْ خردلٍ منْ إيمانٍ، فأخرجْهُ منَ النارِ، فأنطلقُ فأفعلُ (٧). قالَ: فلما خرجْنا منْ عندِ أنسٍ، قلتُ لبعضِ أصحابِنا (٨) لوْ

---

(١) في المطبوعة (فيأذن) ، والتصحيح من البخاري .

(٢) في المطبوعة تأخير (وسل تعط) بعد و(اشفع تشفع) . وأثبتنا ما في البخاري .

(٣) زيادة (منها) في الموضعين ، من البخاري .

(٤) في المطبوعة (فأحمد) بدون الضمير .

(٥) في المطبوعة (واسأل) مع تأخير الجملة ، كسابقتها .

(٦) زيادة (منها) في الموضعين من البخاري .

(٧) هنا في المطبوعة زيادة (قال) وليست للبخاري ، فحذفناها .

(٨) الزيادة من البخاري .

مَرَرْنا بِالْحَسَنِ، وَهُوَ مُتَوارٍ فِي مَنْزِلِ أَبِي خَلِيفَةَ، فَحَدَّثْنَاهُ بِمَا حَدَّثَنا بِهِ أَنسُ بْنُ مَالِكٍ، فَأَتَيْناهُ، فَسَلَّمْنا عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَنا، فَقُلْنا لَهُ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ أَخِيكَ أَنسِ بْنِ مَالِكٍ، فَلَمْ نَرَ مِثْلَ مَا حَدَّثَنا فِي الشَّفَاعَةِ، فَقَالَ: هِيهْ ؟ فَحَدَّثْنَاهُ بِالْحَدِيثِ [1] فَانْتَهَى [2] إِلَى هَذَا الْمَوْضِعِ، فَقَالَ: هِيهْ ؟ فَقُلْنَا لَمْ يَزِدْ [3] لَنَا عَلَى هَذَا، فَقَالَ: لَقَدْ حَدَّثَنِي وَهُوَ جَمِيعٌ مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً، فَلَا أَدْرِي [4] أَنَسِيَ أَمْ كَرِهَ أَنْ تَتَّكِلُوا؟ [5] فَقُلْنَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، فَحَدِّثْنَا، فَضَحِكَ وَقَالَ: خُلِقَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ! مَا ذَكَرْتُهُ إِلَّا وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُحَدِّثَكُمْ، حَدِّثْنِي كَمَا حَدَّثَكُمْ بِهِ [6] قَالَ: ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ [7] وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي، لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [8]. وَهَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَرَوَى الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﴿ يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةٌ: الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ ﴾ [9] [10] وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي

---

(١) في المطبوعة (فحدثنا بالحديث) بحذف الضمير .

(٢) في المطبوعة (فأتينا) بدل (فانتهى) وهو خطأ .

(٣) في المطبوعة " لم نردد " وهو كلام باطل ، صوابه ما في البخاري .

(٤) في المطبوعة (فما أدري) . وأثبتنا ما في البخاري .

(٥) في المطبوعة(أن تتكلموا) ، وهو خلط .

(٦) في المطبوعة (حديثي) بدل (حدثني) ، وهو تصحيف . وزيادة (به) من البخاري .

(٧) في المطبوعة (يسمع لك) ، وكلمة (لك) ليست في هذا الموضع في البخاري .

(٨) صحيح مسلم جـ ١ ص٧٢- ٧٣ طبعة بولاق .

(٩) ابن ماجه الزهد (٤٣١٣) .

(١٠) رواه ابن ماجه في السنن ، رقم : ٤٣١٣ ، وهو حديث ضعيف جدا ، في إسناده " عنبسة بن عبد الرحمن الأموي " ، وهو واهي الحديث ، رمي بالكذب والوضع .

سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا، قَالَ: ﴿فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النبِيونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إلا أَرْحَمُ الراحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَط﴾ (١) ، الْحَدِيثَ.

ثُم إن الناسَ فِي الشفَاعَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ:

فَالْمُشْرِكُونَ وَالنصَارَى وَالْمُبْتَدِعُونَ مِنَ الْغُلَاةِ فِي الْمَشَايِخِ وَغَيْرِهِمْ: يَجْعَلُونَ شَفَاعَةَ مَنْ يُعَظمُونَهُ عِنْدَ اللهِ كَالشفَاعَةِ الْمَعْرُوفَةِ فِي الدنْيَا. وَالْمُعْتَزِلَةُ وَالْخَوَارِجُ أَنْكَرُوا شَفَاعَةَ نَبِينَا ﷺ وَغَيْرَهُ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ. وَأَما أَهْلُ السنةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَيُقِرونَ بِشَفَاعَةِ نَبِينَا ﷺ فِي أَهْلِ الْكَبَائِرِ، وَشَفَاعَةِ غَيْرِهِ، لَكِنْ لَا يَشْفَعُ أَحَدٌ حَتى يَأْذَنَ اللهُ لَهُ وَيَحُد لَهُ حَدا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ الصحِيحِ، حَدِيثِ الشفَاعَةِ: ﴿إِنهُمْ يَأْتُونَ آدَمَ، ثُم نُوحًا، ثُم إِبْرَاهِيمَ، ثُم مُوسَى، ثُم عِيسَى، فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى عَلَيْهِ السلَامُ: اذْهَبُوا إِلَى مُحَمدٍ، فَإِنهُ عَبْدٌ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَذْهَبُ، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبي خَرَرْتُ لَهُ سَاجِدًا، فَأَحْمَدُ رَبي بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَي، لَا أُحْسِنُهَا الْآنَ، فَيَقُولُ: أَيْ مُحَمدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاشْفَعْ تُشَفعْ، فَأَقُولُ: رَبي أُمتِي، فَيَحُد لِي حَدا، فَأُدْخِلُهُمُ الْجَنةَ، ثُم أَنْطَلِقُ فَأَسْجُدُ، فَيَحُد لِي حَدا ذَكَرَهَا ثَلَاثَ مَراتٍ﴾ (٢).

[حُكْمُ الِاسْتِشْفَاعِ بِالرسُولِ وَغَيْرِهِ فِي الدنْيَا]

وَأَما الِاسْتِشْفَاعُ بِالنبِي ﷺ وَغَيْرِهِ فِي الدنْيَا إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي الدعَاءِ، فَفِيهِ تَفْصِيلٌ: فَإِن الداعِيَ تَارَةً يَقُولُ: بِحَق نَبِيكَ أَوْ بِحَق فُلَانٍ، يُقْسِمُ عَلَى اللهِ بِأَحَدٍ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ، فَهَذَا مَحْذُورٌ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنهُ أَقْسَمَ بِغَيْرِ اللهِ. وَالثانِي: اعْتِقَادُهُ أَن لِأَحَدٍ عَلَى اللهِ حَقا. وَلَا يَجُوزُ الْحَلِفُ بِغَيْرِ اللهِ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ عَلَى اللهِ حَق إِلا مَا أَحَقهُ عَلَى نَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ

(١) مسلم الإيمان (١٨٣) ، أحمد (٢٧٦/٢) .

(٢) البخاري التوحيد (٦٩٧٥) ، مسلم الإيمان (١٩٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٣١٢) ، أحمد (١١٦/٣) ، الدارمي المقدمة (٥٢) .

تَعالَى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1]. وَكَذَلِكَ مَا ثبتَ فِي ((الصحِيحَيْنِ)) مِنْ قَوْلِهِ ﷺ لِمُعَاذٍ ﵁ وَهُوَ رَدِيفُهُ: يَا مُعَاذُ، ﴿ أَتَدرِي مَا حَق اللهِ عَلَى عِبَادِهِ ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَق الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: حَقهُمْ عَلَيْهِ أَنْ لَا يُعَذبهُمْ ﴾[2]. فَهَذَا حَق وَجَبَ بِكَلِمَاتِهِ التامةِ وَوَعْدِهِ الصادِقِ، لَا أَن الْعَبدَ نَفْسَهُ مُسْتَحِق عَلَى اللهِ شَيْئًا كَمَا يَكُونُ لِلْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ، فَإِن اللهَ هُوَ الْمُنعِمُ عَلَى الْعِبَادِ بِكُل خَيْرٍ، وَحَقهُمُ الْوَاجِبُ بِوَعْدِهِ هُوَ أَنْ لَا يُعَذبَهُمْ، وَتَرْكُ تَعْذِيبِهِمْ مَعْنًى لَا يَصْلُحُ أَنْ يُقْسَمَ بِهِ، وَلَا أَنْ يُسْأَلَ بِسَبَبِهِ وَيُتَوسلَ بِهِ، لِأَن السبَبَ هُوَ مَا نَصَبَهُ اللهُ سَبَبًا. وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الذِي فِي الْمُسْنَدِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ عَنِ النبِي ﷺ فِي قَوْلِ الْمَاشِي إِلَى الصلَاةِ: ﴿ أَسْأَلُكَ بِحَق مَمْشَايَ هَذَا، وَبِحَق السائِلِينَ عَلَيْكَ ﴾[3]، فَهَذَا حَق السائِلِينَ، هُوَ أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ الذِي أَحَق لِلسائِلِينَ أَنْ يُجِيبَهُمْ، وَلِلْعَابِدِينَ أَنْ يُثِيبَهُمْ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَق وَاجِبٌ ... كَلَّا وَلَا سَعْيٌ لَدَيْهِ ضَائِعُ
إِنْ عُذبُوا فَبِعَدْلِهِ، أَوْ نُعمُوا ... فَبِفَضْلِهِ وَهُوَ الْكَرِيمُ الْوَاسِعُ

فَإِنْ قِيلَ: فَأَي فَرْقٍ بَيْنَ قَوْلِ الداعِي: ((بِحَق السائِلِينَ عَلَيْكَ)) وَبَيْنَ قَوْلِهِ: ((بِحَق نَبِيكَ)) أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ؟ فَالْجَوَابُ: أَن مَعْنَى قَوْلِهِ: بِحَق السائِلِينَ عَلَيْكَ أَنكَ وَعَدْتَ السائِلِينَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَنَا مِنْ جُمْلَةِ السائِلِينَ، فَأَجِبْ دُعَائِي، بِخِلَافِ قَوْلِهِ: بِحَق فُلَانٍ - فَإِن فُلَانًا وَإِنْ كَانَ لَهُ حَق عَلَى اللهِ بِوَعْدِهِ الصادِقِ - فَلَا مُنَاسَبَةَ بَيْنَ ذَلِكَ وَبَيْنَ إِجَابَةِ دُعَاءِ

---

(١) سورة الروم أية ٤٧ .

(٢) البخاري الجهاد والسير (٢٧٠١) ، مسلم الإيمان (٣٠) ، الترمذي الإيمان (٢٦٤٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٩٦) ، أحمد (٢٤٢/٥) .

(٣) ابن ماجه المساجد والجماعات (٧٧٨) ، أحمد (٢١/٣) .

هَذَا السائِل. فَكأنَه يَقُولَ: لِكوْن فُلَانٍ مِنْ عِبادِكَ الصالِحِينَ أجِبْ دُعَائِي ! وَأي مُناسَبَةٍ فِي هَذَا وَأي مُلَازَمَةٍ ؟ وَإنما هَذَا مِنَ الاعْتِدَاءِ فِي الدعَاءِ ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (١). وَهَذَا وَنَحْوُه مِنَ الْأَدْعِيَةِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَلَمْ يُنقَلْ عَنِ النبِي ﷺ وَلَا عَنِ الصحَابَةِ، وَلَا عَنِ التابِعِينَ، وَلَا عَنْ أحَدٍ مِنَ الْأَئمةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَإنمَا يُوجَدُ مِثْلُ هَذا فِي الْحُرُوزِ وَالْهَياكِلِ التِي يَكْتُبُ بِهَا الْجُهالُ وَالطرُقِيةُ. وَالدعَاءُ مِنْ أفْضَلِ الْعِبَادَاتِ، وَالْعِبَادَاتُ مَبْنَاهَا عَلَى السنةِ وَالاتبَاعِ، لَا عَلَى الْهَوَى وَالْابْتِدَاعِ.

[عَدَمُ جَوَازِ الْحَلِفِ بِغَيْرِ اللهِ]

وَإنْ كَانَ مُرَادُهُ الْإِقْسَامَ عَلَى اللهِ بِحَق فُلَانٍ، فَذَلِكَ مَحْذُورٌ أيضًا، لِأن الْإِقْسَامَ بِالْمَخْلُوقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ لَا يَجُوزُ، فَكَيْفَ عَلَى الْخَالِقِ ؟! وَقَدْ قَالَ ﷺ ﴿ مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أشْرَكَ ﴾ (٢). وَلِهَذَا قَالَ أبو حَنِيفَةَ وَصَاحِبَاهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: يُكْرَهُ أنْ يَقُولَ الداعِي: أسْألُكَ بِحَق فُلَانٍ، أوْ بِحَق أنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَبِحَق الْبَيْتِ الْحَرَامِ، وَالْمَشْعَرِ الْحَرَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ حتى كَرِهَ أبو حَنِيفَةَ وَمُحَمدٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنْ يَقُولَ الرجُلُ: اللهُم إني أسْألُكَ بِمَعْقِدِ الْعِز مِنْ عَرْشِكَ، وَلَمْ يَكْرَهْهُ أبو يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ لما بَلَغَهُ الْأَثَرُ فِيهِ.

وَتَارَةً يَقُولُ: بِجَاهِ فُلَانٍ عِنْدَكَ، يَقُولُ: نَتَوَسلُ إلَيْكَ بِأنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَأوْلِيَائِكَ. وَمُرَادُهُ أن فُلَانًا عِنْدَكَ ذُو وَجَاهَةٍ وَشَرَفٍ وَمَنْزِلَةٍ فَأجِبْ دُعَاءَنَا. وَهَذَا أيضًا مَحْذُورٌ، فَإنهُ لَوْ كَانَ هَذَا هُوَ التوَسلُ الذِي كَانَ الصحَابَةُ يَفْعَلُونَه (٣) فِي حَيَاةِ النبِي ﷺ لَفَعَلُوه بَعْدَ مَوْتِه، وَإنمَا كَانُوا يَتَوَسلُونَ فِي حَيَاتِهِ بِدُعَائِهِ، يَطْلُبُونَ مِنْهُ أنْ يَدْعُوَ لَهُمْ، وَهُمْ يُؤَمنُونَ عَلَى دُعَائِهِ، كَمَا فِي الاسْتِسْقَاءِ وَغَيْرِه. فَلَما مَاتَ ﷺ قَالَ عُمَرُ ﷺ - لما خَرَجُوا

(١) سورة الْأَعْرَاف آية ٥٥ .

(٢) الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٤) ، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٥١) ، أحمد (٦٩/٢) .

(٣) في الأصل : (يفعلون) والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

يَسْتَسْقُونَ -: ﴿ اللهم إنا كُنا إذَا أَجْدَبْنا نَتَوسل إِلَيْكَ بِنَبِينَا فَتَسْقِينَا، وَإِنا نَتَوسلُ إِلَيْكَ بِعَم نَبِيِّنَا ﴾ [1]. مَعْنَاهُ بِدُعَائِهِ هُوَ رَبهُ وَشَفَاعَتِهِ وَسُؤَالِهِ، لَيسَ الْمُرَادُ أَنا نُقْسِمُ عَلَيْكَ بِهِ، أَوْ نَسْأَلُكَ بِجَاهِهِ عِنْدَكَ، إِذْ لَوْ كَانَ ذَلِكَ مُرَادًا لَكَانَ جَاهُ النبِي ﷺ أَعْظَمَ وَأَعْظَمَ مِنْ جَاهِ الْعَباسِ.

وَتَارَةً يَقُولُ: بِاتبَاعِي لِرَسُولِكَ وَمَحَبتِي لَهُ وَإِيمَانِي بِهِ وَسَائِرِ أَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ وَتَصْدِيقِي لَهُمْ، وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ مَا يَكُونُ فِي الدعَاءِ وَالتوَسلِ وَالِاسْتِشْفَاعِ.

فَلَفْظُ التوَسلِ بِالشخْصِ وَالتوَجهِ بِهِ فِيهِ إِجْمَالٌ، غَلِطَ بِسَبَبِهِ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَعْنَاهُ: فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ التسَببُ بِهِ لِكَوْنِهِ دَاعِيًا وَشَافِعًا، وَهَذَا فِي حَيَاتِهِ يَكُونُ، أَوْ لِكَوْنِ الداعِي مُحِبا لَهُ، مُطِيعًا لِأَمْرِهِ، مُقْتَدِيًا بِهِ، وَذَلِكَ أَهْلٌ لِلْمَحَبةِ وَالطاعَةِ وَالِاقْتِدَاءِ، فَيَكُونُ التوَسلُ إِما بِدُعَاءِ الْوَسِيلَةِ وَشَفَاعَتِهِ، وَإِما بِمَحَبةِ السائِلِ وَاتبَاعِهِ، أَوْ يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ وَالتوَسلُ بِذَاتِهِ، فَهَذَا الثانِي هُوَ الذِي كَرِهُوهُ وَنَهَوْا عَنْهُ.

وَكَذَلِكَ السؤَالُ بِالشيْءِ، قَدْ يُرَادُ بِهِ التسَببُ بِهِ، لِكَوْنِهِ سَبَبًا فِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ، وَقَدْ يُرَادُ بِهِ الْإِقْسَامُ بِهِ.

وَمِنَ الْأَولِ: حَدِيثُ الثلَاثَةِ الذِينَ أَوَوْا إِلَى الْغَارِ، وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ فِي الصحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، فَإِن الصخْرَةَ انْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَتَوَسلُوا إِلَى اللهِ بِذِكْرِ أَعْمَالِهِمُ الصالِحَةِ الْخَالِصَةِ، وَكُل وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ. فَهَؤُلَاءِ: دَعَوُا اللهَ بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، لِأَن الْأَعْمَالَ الصالِحَةَ هِيَ أَعْظَمُ مَا يَتَوَسلُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى اللهِ، وَيَتَوَجهُ بِهِ إِلَيْهِ، وَيَسْأَلُهُ بِهِ، لِأَنهُ وَعَدَ أَنْ يَسْتَجِيبَ لِلذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصالِحَاتِ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ.

---

(١) البخاري الجمعة (٩٦٤) .

[الشفَاعَةُ عِنْدَ اللهِ لَيسَتْ كَالشفَاعَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ]

فَالْحَاصِلُ أن الشفَاعَةَ عِنْدَ اللهِ لَيستْ كَالشفَاعَةِ عِنْدَ الْبَشَرِ، فَإن الشفِيعَ عِنْدَ الْبَشَرِ كَمَا أنه شَافِعٌ لِلطَالِبِ شَفَعَهُ فِي الطلَبِ، بِمَعْنَى أنهُ صَارَ شَفْعًا فِيهِ بَعْدَ أنْ كَانَ وِتْرًا، فَهُوَ أيْضًا قَدْ شَفَعَ الْمَشْفُوعَ إلَيْهِ، وَبِشَفَاعَتِهِ صَارَ فَاعِلًا لِلْمَطْلُوبِ، فَقَدْ شَفَعَ الطَالِبَ وَالْمَطْلُوبَ مِنْهُ، وَاللهُ تَعَالَى وِتْرٌ، لَا يَشْفَعُهُ أحَدٌ، فَلَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أحَدٌ إلا بِإذْنِهِ، فَالْأمْرُ كُلهُ إلَيْهِ، فَلَا شَرِيكَ لَهُ بِوَجْهٍ. فَسَيدُ الشفَعَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إذَا سَجَدَ وَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى فَقَالَ لَهُ اللهُ: « ارْفَعْ رَأسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَاسألْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفعْ، فَيَحُد لَهُ حَدا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنةَ » [1] ، فَالْأمْرُ كُلهُ لِلهِ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [2]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ [3]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [4] فَإذَا كَانَ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أحَدٌ إلا بِإذْنِهِ لِمَنْ يَشَاءُ، وَلَكِنْ يُكْرِمُ الشفِيعَ بِقُبُولِ شَفَاعَتِهِ، كَمَا قَالَ ﷺ « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيهِ مَا يَشَاءُ » [5]. وَفِي الصحِيحِ أن النبِي ﷺ قَالَ: « يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، لَا أمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيةُ يَا عَمةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَا أمْلِكُ لَكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَباسُ عَم رَسُولِ اللهِ، لَا أمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا » [6]. وَفِي الصحِيحِ أيْضًا عَنِ النبِي ﷺ « لَا أُلْفِيَن أحَدَكُمْ يَأتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى

---

(١) البخاري تفسير القرآن (٤٢٠٦) ، مسلم الإيمان (١٩٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٣١٢) ، أحمد (١١٦/٣) ، الدارمي المقدمة (٥٢) .

(٢) سورة آل عِمْرَان آية ١٥٤ .

(٣) سورة آل عِمْرَان آية ١٢٨ .

(٤) سورة الْأَعْرَاف آية ٥٤ .

(٥) البخاري الزكاة (١٣٦٥) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٢٧) ، أبو داود الأدب (٥١٣١) ، أحمد (٤٠٠/٤) .

(٦) البخاري الوصايا (٢٦٠٢) ، مسلم الإيمان (٢٠٦) ، الترمذي تفسير القرآن (٣١٨٥) ، النسائي الوصايا (٣٦٤٦) ، أحمد (٤٤٩/٢) ، الدارمي الرقاق (٢٧٣٢) .

رَقَبَتِهِ بَعِيرٌ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ شَاةٌ لَهَا يُعَارٌ، أَوْ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فَيَقُولُ: أَغِثْنِي أَغِثْنِي، فَأَقُولُ: قَدْ أَبْلَغْتُكَ، لَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾(١). (٢) فَإِذَا كَانَ سَيِّدُ الْخَلْقِ وَأَفْضَلُ الشُّفَعَاءِ يَقُولُ لِأَخَصِّ النَّاسِ بِهِ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ فَمَا الظَّنُّ بِغَيْرِهِ؟ وَإِذَا دَعَاهُ الدَّاعِي، وَشَفَعَ عِنْدَهُ الشَّفِيعُ، فَسَمِعَ الدُّعَاءَ، وَقَبِلَ الشَّفَاعَةَ، لَمْ يَكُنْ هَذَا هُوَ الْمُؤَثِّرُ فِيهِ كَمَا يُؤَثِّرُ الْمَخْلُوقُ فِي الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي جَعَلَ هَذَا يَدْعُو وَيَشْفَعُ، وَهُوَ الْخَالِقُ لِأَفْعَالِ الْعِبَادِ، فَهُوَ الَّذِي وَفَّقَ الْعَبْدَ لِلتَّوْبَةِ ثُمَّ قَبِلَهَا، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلْعَمَلِ ثُمَّ أَثَابَهُ، وَهُوَ الَّذِي وَفَّقَهُ لِلدُّعَاءِ ثُمَّ أَجَابَهُ. وَهَذَا مُسْتَقِيمٌ عَلَى أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَدَرِ، وَأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ.

---

(١) البخاري الجهاد والسير (٢٩٠٨) ، مسلم الإمارة (١٨٣١) ، أحمد (٤٢٦/٢) .

(٢) هو مختصر معنى حديث صحيح ، رواه أحمد في المسند : ٩٤٩٩ ، ورواه مسلم في صحيحه ٢ : ٨٣ . ورواه أيضًا البخاري وغيره ، وقوله " ثغاء " ، وهو صياح الغنم . وبدله في المطبوعة " يعار " . وهو بمعناه ، ولكن أثبتنا ما في المسند وصحيح مسلم . وقوله (أو رقاع تخفق) بدله في المطبوعة (أو قاع يخفق) ، وهو خطأ لا معنى له .

[الميثاق الذي أخذه الله من آدم وذريته حق]

قوله: (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق).

ش: قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [1]. أخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو. وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام، وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم:

فمنها: ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم عليه السلام بنعمان - يوم عرفة [2] فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرها بين يديه، ثم كلمهم قبلا، قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ [3]. إلى قوله: ﴿ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [4].»

ورواه النسائي أيضا، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والحاكم في المستدرك، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وروى الإمام أحمد أيضا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سئل عن هذه الآية، فقال: سمعت رسول الله ﷺ سئل عنها، فقال: «إن الله خلق آدم عليه السلام، ثم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية، قال: خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٢) الذي في المسند بطبعتيه وتفسير ابن جرير والحاكم : (يعني) بدل (يوم) . ن .

(٣) سورة الأعراف آية : ١٧٢ .

(٤) سورة الأعراف آية : ١٧٣ .

ظَهْرِه، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ ذُرِّيةً قَالَ: خَلَقْتُ هَؤُلَاءِ لِلنارِ وَبِعَمَلِ أَهْلِ النارِ يَعْمَلُونَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَفِيمَ الْعَمَلُ ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [إِن اللهَ ﷻ] إِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلْجَنةِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنةِ، حَتى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ الْجَنةِ، فَيُدْخِلَهُ بِهِ الْجَنةَ، وَإِذَا خَلَقَ الْعَبْدَ لِلنارِ اسْتَعْمَلَهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النارِ، حَتى يَمُوتَ عَلَى عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ أَهْلِ النارِ فَيُدْخِلَهُ بِهِ النارَ ﴾(1). وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالترْمِذِي، وَالنسَائِي، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَابْنُ جَرِيرٍ، وَابْنُ حِبانَ فِي صَحِيحِهِ. (2) وَرَوَى الترْمِذِي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: ﴿ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لَما خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُل نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُل إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُم عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ، فَقَالَ: أَيْ رَب، مَنْ هَؤُلَاءِ ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ ذُرِّيتُكَ، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ، فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: أَيْ رَب، مَنْ هَذَا ؟ قَالَ: هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الْأُمَمِ مِنْ ذُرِّيتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ، قَالَ: رَب، كَمْ عُمُرُهُ ؟ قَالَ: سِتونَ سَنَةً، قَالَ: أَيْ رَب، زِدْهُ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً، فَلَما انْقَضَى عُمُرُ آدَمَ، جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ، قَالَ: أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمُرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ: أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ ؟ قَالَ: فَجَحَدَ فَجَحَدَتْ ذُرِّيتُهُ، وَنَسِيَ آدَمُ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ، فَخَطِئَتْ (3). ﴾ ثُم قَالَ الترْمِذِي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ وَقَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه عَنِ النبِي ﷺ قَالَ: ﴿ يُقَالُ لِلرجُلِ مِنْ أَهْلِ النارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ ؟

(1) الترمذي تفسير القرآن (٣٠٧٥) ، أبو داود السنة (٤٧٠٣) ، أحمد (٤٥/١) ، مالك الجامع (١٦٦١) .

(2) هو في المسند برقم : ٣١١ ونقله ابن كثير ٣ : ٥٨٦- ٥٨٧ ، وفي التاريخ ١ : ٨٩-٩٠ . وقد صححناه هنا من المسند ، والزيادتان هنا أثبتناهما من المسند .

(3) في الأصل (وخطئ آدم فخطيت) والتصحيح من سنن الترمذي ٥ / ٢٦٧ رقم (٣٠٧٦) ، والحاكم (٢ / ٥ و٥٨٦) . ن . ذُرِّيتُهُ .

قَالَ: فَيقُولُ: نَعَمْ، قَالَ: فَيقُولُ: قَدْ أَردْتُ مِنكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبيتَ إِلا أَنْ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا ﴾ [1]. وَأَخْرَجَاهُ فِي الصحِيحَيْنِ أَيضًا.

وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثُ أُخَرُ أَيضًا كُلهَا دَالةٌ عَلَى أَن اللهَ اسْتَخْرَجَ ذُرِيةَ آدَمَ مِنْ صُلْبِه، وَمَيزَ بينَ أَهْلِ النارِ وَأَهْلِ الْجَنةِ.

وَمِنْ هُنَا قَالَ مَنْ قَالَ: إِن الْأَرْوَاحَ مَخْلُوقَةٌ قَبلَ الْأَجْسَادِ. وَهَذِهِ الْآثَارُ لَا تَدُلُ عَلَى سَبقِ الْأَرْوَاحِ الْأَجْسَادَ سَبْقًا مُستقِرا ثَابِتا، وَغَايَتُهَا أَنْ تَدُل عَلَى أَن بَارِئَهَا وَفَاطِرَهَا سُبحَانَه صَورَ النسَمَةَ وَقَدرَ خَلْقَهَا وَأَجَلَهَا وَعَمَلَهَا، وَاستَخْرَجَ تِلْكَ الصوَرَ مِنْ مَادتِهَا، ثُم أَعَادَهَا إِليهَا، وَقَدرَ خُرُوجَ كُل فَردٍ مِنْ أَفْرَادِهَا فِي وَقْتِهِ الْمُقَدرِ لَه، وَلَا يَدُل عَلَى أَنهَا خُلقَتْ خَلْقًا مُستقِرا وَاستَمَرتْ مَوْجُودَةً نَاطِقَةً كُلهَا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ثُم يُرسِلُ مِنْهَا إِلَى الْأَبدَانِ جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ، كَمَا قَالَهُ ابْنُ حَزْمٍ. فَهَذَا لَا تَدُل الْآثَارُ عَلَيْه، نَعَم، الرب سُبحَانَه يَخْلُقُ مِنهَا جُمْلَةً بَعْدَ جُمْلَةٍ، كَمَا قَالَهُ عَلَى الْوَجْهِ الذِي سَبَقَ بِهِ التقْدِيرُ أَولًا، فَيَجِيءُ الْخَلْقُ الْخَارِجِي مُطَابِقًا لِلتقْدِيرِ السابِقِ، كَشَأْنِه سُبحَانَهُ فِي جَمِيعِ مَخْلُوقَاتِه، فَإِنهُ قَدرَ لَهَا أَقْدَارًا وَآجَالًا، وَصِفَاتٍ وَهَيْئَاتٍ، ثُم أَبرَزَهَا إِلَى الْوُجُودِ مُطَابِقَةً لِذَلِكَ التقْدِيرِ السابِقِ.

فَالْآثَارُ الْمَروِيةُ فِي ذَلِكَ إِنمَا تَدُل عَلَى الْقَدَرِ السابِقِ، وَبَعْضُهَا يَدُل عَلَى أَنهُ سُبحَانَهُ استَخْرَجَ أَمْثَالَهُمْ وَصُوَرَهُمْ وَمَيزَ أَهْلَ السعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الشقَاوَةِ.

[بَيانُ الْمُرَادِ مِنَ الْإِشْهَادِ عَلَى بَنِي آدَمَ]

وَأَما الْإِشْهَادُ عَلَيهِمْ هُنَاكَ، فَإِنمَا هُوَ فِي حَدِيثَيْنِ مَوْقُوفَيْنِ عَلَى ابْنِ عَباسٍ وَابنِ عُمَرَ [2] رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. وَمِنْ ثَم قَالَ قَائِلُونَ مِنَ السلَفِ وَالْخَلَفِ: إِن الْمُرَادَ بِهَذَا الْإِشْهَادِ إِنمَا هُوَ فِطْرَتُهُمْ عَلَى التوْحِيدِ، كَمَا تَقَدمَ كَلَامُ الْمُفَسرِينَ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ

(١) البخاري الرقاق (٦١٨٩) ، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٥) ، أحمد (١٢٧/٣) .

(٢) في الأصل : " عمر " . وبعد الرجوع إلى المصادر اتضح أنه تحريف ، حيث لم نجد لعمرحديثًا في الإشهاد . ومثل ذلك ورد في بعض النسخ . ن .

فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وَمَعْنَى قَوْلِهِ شَهِدْنَا: أَيْ قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا أَنكَ رَبنَا. وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَباسٍ وَأُبَي بْنِ كَعْبٍ. وَقَالَ ابْنُ عَباسٍ أَيْضًا: أَشْهَدَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ. وَقِيلَ: شَهِدْنَا مِنْ قَوْلِ الْمَلَائِكَةِ، وَالْوَقْفُ عَلَى قَوْلِهِ بَلَى. وَهَذَا قَوْلُ مُجَاهِدٍ وَالضحاكِ وَقَالَ السدي أَيْضًا: هُوَ خَبَرٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى عَنْ نَفْسِهِ وَمَلَائِكَتِهِ أَنهُمْ شَهِدُوا عَلَى إِقْرَارِ بَنِي آدَمَ. وَالْأَولُ أَظْهَرُ، وَمَا عَدَاهُ احْتِمَالٌ لَا دَلِيلَ عَلَيْهِ، وَإِنمَا يَشْهَدُ ظَاهِرُ الْآيَةِ لِلْأَولِ.

وَاعْلَمْ أَن مِنَ الْمُفَسرِينَ مَنْ لَمْ يَذْكُرْ سِوَى الْقَوْلِ بِأَن اللهَ اسْتَخْرَجَ ذُرية آدَمَ مِنْ ظَهْرِهِ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ثُم أَعَادَهُمْ، كَالثعْلَبِي وَالْبَغَوِي وَغَيْرِهِمَا. وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَذْكُرْهُ، بَلْ ذَكَرَ أَنهُ نَصَبَ لَهُمُ الْأَدِلةَ عَلَى رُبُوبِيتِهِ وَوَحْدَانِيتِهِ وَشَهِدَتْ بِهَا عُقُولُهُمْ وَبَصَائِرُهُمُ التِي رَكبَهَا اللهُ فِيهِمْ، كَالزمَخْشَرِي وَغَيْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ ذَكَرَ الْقَوْلَيْنِ، كَالْوَاحِدِي وَالرازِي وَالْقُرْطُبِي وَغَيْرِهِمْ، لَكِنْ نَسَبَ الرازِي الْقَوْلَ الْأَولَ إِلَى أَهْلِ السنةِ، وَالثانِيَ إِلَى الْمُعْتَزِلَةِ.

وَلَا رَيْبَ أَن الْآيَةَ لَا تَدُل عَلَى الْقَوْلِ الْأَولِ، أَعْنِي أَن الْأَخْذَ كَانَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ، وَإِنمَا فِيهَا أَن الْأَخْذَ مِنْ ظُهُورِ بَنِي آدَمَ، وَإِنمَا ذَكَرَ الْأَخْذَ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ وَالْإِشْهَادَ عَلَيْهِمْ هُنَاكَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ، وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَالْقَضَاءُ بِأَن بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النارِ، كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ ﷺ وَفِي بَعْضِهَا الْأَخْذُ وَإِرَاءَةُ آدَمَ إِياهُمْ مِنْ غَيْرِ قَضَاءٍ وَلَا إِشْهَادٍ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ. وَالذِي فِيهِ الْإِشْهَادُ - عَلَى الصفَةِ التِي قَالَهَا أَهْلُ الْقَوْلِ الْأَولِ - مَوْقُوفٌ عَلَى ابْنِ عَباسٍ وَعُمَرَ، وَتَكَلمَ فِيهِ أَهْلُ الْحَدِيثِ، وَلَمْ يُخَرجْهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصحِيحِ غَيْرَ الْحَاكِمِ فِي الْمُسْتَدْرَكِ عَلَى الصحِيحَيْنِ وَالْحَاكِمُ مَعْرُوفٌ تَسَاهُلُهُ رَحِمَهُ اللهُ.

وَالذِي فِيهِ الْقَضَاءُ بِأَن بَعْضَهُمْ إِلَى الْجَنةِ وَبَعْضَهُمْ إِلَى النارِ دَلِيلٌ عَلَى مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ. وَذَلِكَ شَوَاهِدُهُ كَثِيرَةٌ، وَلَا نِزَاعَ فِيهِ بَيْنَ أَهْلِ السنةِ، وَإِنمَا يُخَالِفُ فِيهِ الْقَدَرِيةُ الْمُبْطِلُونَ الْمُبْتَدِعُونَ.

وَأما الْأولُ: فَالنزَاعُ فِيهِ بينَ أَهْلِ السنةِ مِنَ السلفِ وَالْخَلفِ، وَلَوْلَا مَا الْتَزَمْتُهُ مِنَ الِاخْتِصَارِ لَبسطْتُ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، وَمَا قِيلَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَيْهَا، وَمَا ذُكِرَ فِيهَا مِنَ الْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ وَدَلَالَةِ أَلْفَاظِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ.

قَالَ الْقُرْطُبِي: وَهَذِهِ الْآيَةُ مُشْكِلَةٌ، وَقَدْ تَكلمَ الْعُلَمَاءُ فِي تَأْوِيلِهَا، فَنَذْكُرُ مَا ذَكَرُوهُ مِنْ ذَلِكَ، حَسَبَ مَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ. فَقَالَ قَوْمٌ: مَعْنَى الْآيَةِ: أَن اللهَ أَخْرَجَ مِنْ ظَهْرِ بَنِي آدَمَ بَعْضَهُمْ مِنْ بَعْضٍ، [قَالُوا] وَمَعْنَى ﴿ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [1] دَلهُمْ عَلَى تَوْحِيدِهِ، لِأَن كُل بَالِغٍ يَعْلَمُ ضَرُورَةً أَن لَهُ رَبا وَاحِدًا. ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [2] أَيْ: قَالَ، فَقَامَ ذَلِكَ مَقَامَ الْإِشْهَادِ عَلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ: ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [3] ذَهَبَ إِلَى هَذَا الْقَفالُ وَأَطْنَبَ. وَقِيلَ: إِنهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْرَجَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ خَلْقِ الْأَجْسَادِ، وَإِنهُ جَعَلَ فِيهَا مِنَ الْمَعْرِفَةِ مَا عَلِمَتْ بِهِ مَا خَاطَبَهَا. ثُم ذَكَرَ الْقُرْطُبِي بَعْدَ ذَلِكَ الْأَحَادِيثَ الْوَارِدَةَ فِي ذَلِكَ، إِلَى آخِرِ كَلَامِهِ.

وَأَقْوَى مَا يَشْهَدُ لِصِحةِ الْقَوْلِ الْأَولِ: حَدِيثُ أَنسٍ الْمُخَرجُ فِي الصحِيحَيْنِ الذِي فِيهِ: « قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ مَا هُوَ أَهْوَنُ مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ فِي ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا فَأَبَيْتَ إِلا أَنْ تُشْرِكَ بِي » [4]. وَلَكِنْ قَدْ رُوِيَ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى: « قَدْ سَأَلْتُكَ أَقَل مِنْ ذَلِكَ وَأَيْسَرَ فَلَمْ تَفْعَلْ، فَيُرَد إِلَى النارِ » [5]. وَلَيْسَ فِيهِ "فِي ظَهْرِ آدَمَ ". وَلَيْسَ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى إِخْرَاجُهُمْ مِنْ ظَهْرِ آدَمَ عَلَى الصفَةِ التِي ذَكَرَهَا أَصْحَابُ الْقَوْلِ الْأَولِ.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٢) سورة الأعراف آية : ١٧٢ .

(٣) سورة فُصلَتْ آية ١١ .

(٤) البخاري الرقاق (٦١٨٩) ، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨٠٥) ، أحمد (١٢٧/٣) .

(٥) أحمد (٢٠٨/٣) .

بل الْقَوْلُ الْأول مُتضمنٌ لأمْرين عَجِيبين:

أَحدُهُمَا: كَوْنُ الناسِ تكلمُوا حِينَئِذٍ وَأقروا بِالْإِيمانِ وَأنهُ بِهذَا تَقوْمُ الْحُجة عَلَيْهم يوْمَ الْقِيامَةِ.

وَالثانِي: أن الْآيةَ دَلتْ عَلى ذَلِكَ، وَالْآيةُ لَا تَدُل عَليْهِ لِوُجُوهٍ:

أَحدُهَا: أنهُ قَال: مِنْ بَنِي آدَم، وَلمْ يَقُلْ: مِنْ آدَمَ.

الثانِي: أنهُ قَال: مِنْ ظُهُورِهِمْ، وَلمْ يَقُلْ: مِنْ ظَهْرِهِ، وَهَذَا بَدَلُ بَعْضٍ، أوْ بَدَلُ اشْتِمَالٍ، وَهُوَ أَحْسَنُ.

الثالِثُ: أنهُ قَال: ذُرياتِهِمْ وَلمْ يَقُلْ: ذُريتَهُ.

الرابِعُ: أنهُ قَال: وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أنفُسِهِمْ، وَلَا بد أنْ يَكُونَ الشاهِدُ ذَاكِرًا لِمَا شَهِدَ بِهِ، وَهُوَ إِنمَا يَذْكُرُ شَهَادَتَهُ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلى هَذِهِ الدارِ- كَمَا تَأْتِي الْإِشَارَةُ إِلى ذَلِكَ - لَا يَذْكُرُ شَهادَةً قَبْلَهُ.

الْخَامِسُ: أنهُ سُبحانَهُ أَخْبَرَ أن حِكْمَةَ هَذا الْإِشْهَادِ إِقامَةٌ لِلْحُجةِ عَلَيْهِمْ، لِئَلا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [1] وَالْحُجةُ إِنمَا قَامَتْ عَلَيْهِمْ بِالرسُلِ وَالْفِطْرَةِ التِي فُطِرُوا عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [2].

السادِسُ: تَذْكِيرُهُمْ بِذَلِكَ، لِئَلا يَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [3] وَمَعْلُومٌ أنهُمْ غَافِلُونَ عَنِ الْإِخْرَاجِ لَهُمْ مِنْ صُلْبِ آدَمَ كُلهُمْ وَإِشْهَادِهِمْ جَمِيعًا ذَلِكَ الْوَقْتَ، فَهَذَا لَا يَذْكُرُهُ أحَدٌ مِنْهُمْ.

---

(١) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٢) سورة النساء آية ١٦٥ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

السابع: قوله تعالى: ﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ ﴾ (١)

فذكر حكمتين في هذا الإشهاد؛ لئلا يدعوا الغفلة، أو يدعوا التقليد، فالغافل لا شعور له، والمقلد متبع في تقليده لغيره. ولا تترتب هاتان الحكمتان إلا على ما قامت به الحجة من الرسل والفطرة.

الثامن: قوله: ﴿ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٢) أي لو عذبهم بجحودهم وشركهم لقالوا ذلك، وهو سبحانه إنما يهلكهم بمخالفة رسله وتكذيبهم، وقد أخبر سبحانه أنه لم يكن ليهلك القرى بظلم وأهلها غافلون، وإنما يهلكهم بعد الإعذار والإنذار بإرسال الرسل.

التاسع: أنه سبحانه أشهد كل واحد على نفسه أنه ربه وخالقه، واحتج عليه بهذا في غير موضع من كتابه، كقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ ﴾ (٣) فهذه هي الحجة التي أشهدهم على أنفسهم بمضمونها، وذكرتهم بها رسله، بقولهم: ﴿ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ (٤).

العاشر: أنه جعل هذا آية، وهي الدلالة الواضحة البينة المستلزمة لمدلولها [بحيث لا يتخلف عنها المدلول] وهذا شأن آيات الرب تعالى، [فإنها أدلة معينة على مطلوب معين مستلزمة للعلم به] فقال تعالى: وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون (٥) وإنما ذلك بالفطرة التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله، فما من مولود إلا يولد على

(١) سورة الأعراف آية ١٧٣ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٣ .

(٣) سورة لقمان آية ٢٥ .

(٤) سورة إبراهيم آية ١٠ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٧٤ .

الْفِطْرَةِ، لَا يُولَدُ مَوْلُودٌ عَلَى غَيْرِ هَذِهِ الْفِطْرَةِ، هَذَا أَمْرٌ مَفْرُوغٌ مِنْهُ، لَا يَتَبَدلُ وَلَا يَتَغيرُ. وَقَدْ تَقَدَمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى هَذَا. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَقَدْ تَفطنَ لِهَذَا ابْنُ عَطِيةَ وَغَيْرُهُ، وَلَكِنْ هَابُوا مُخَالَفَةَ ظَاهِرِ تِلْكَ الْأَحَادِيثِ التِي فِيهَا التَصْرِيحُ بِأَن اللهَ أَخْرَجَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ ثُم أَعَادَهُمْ. وَكَذَلِكَ حَكَى الْقَوْلَيْنِ الشَيْخُ أَبُو مَنْصُورٍ الْمَاتُرِيدِي فِي شَرْحِ التَأْوِيلَاتِ وَرَجحَ الْقَوْلَ الثانِيَ، وَتَكَلمَ عَلَيْهِ وَمَالَ إِلَيْهِ.

[الْإِقْرَارُ بِالرُبُوبِيةِ أَمْرٌ فِطْرِي وَالشرْكُ أَمْرٌ طَارِئٌ]

وَلَا شَك أَن الْإِقْرَارَ بِالرُبُوبِيةِ أَمْرٌ فِطْرِي، وَالشرْكَ حَادِثٌ طَارِئٌ، وَالْأَبْنَاءَ تَقَلدُوهُ عَنِ الْآبَاءِ، فَإِذَا احْتَجوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَن الْآبَاءَ أَشْرَكُوا وَنَحْنُ جَرَيْنَا عَلَى عَادَتِهِمْ كَمَا يَجْرِي الناسُ عَلَى عَادَةِ آبَائِهِمْ فِي الْمَطَاعِمِ وَالْمَلَابِسِ وَالْمَسَاكِنِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَنْتُمْ كُنْتُمْ مُعْتَرِفِينَ بِالصانِعِ، مُقِرينَ بِأَن اللهَ رَبكُمْ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَقَدْ شَهِدْتُمْ بِذَلِكَ عَلَى أَنفُسِكُمْ، فَإِن شَهَادَةَ الْمَرْءِ عَلَى نَفْسِهِ هِيَ إِقْرَارُهُ بِالشيْءِ لَيْسَ إِلا، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١). وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنْ يَقُولَ: أَشْهَدُ عَلَى نَفْسِي بِكَذَا، بَلْ مَنْ أَقَر بِشَيْءٍ فَقَدْ شَهِدَ عَلَى نَفْسِهِ بِهِ، فَلِمَ عَدَلْتُمْ عَنْ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَالْإِقْرَارِ الذِي شَهِدْتُمْ بِهِ عَلَى أَنفُسِكُمْ إِلَى الشرْكِ ؟ بَلْ عَدَلْتُمْ عَنِ الْمَعْلُومِ الْمُتَيَقنِ إِلَى مَا لَا يُعْلَمُ لَهُ حَقِيقَةٌ، تَقْلِيدًا لِمَنْ لَا حُجةَ مَعَهُ، بِخِلَافِ اتبَاعِهِمْ فِي الْعَادَاتِ الدنْيَوِيةِ، فَإِن تِلْكَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَكُمْ مَا يُعْلَمُ بِهِ فَسَادُهَا، وَفِيهِ مَصْلَحَةٌ لَكُمْ، بِخِلَافِ الشرْكِ، فَإِنهُ كَانَ عِنْدَكُمْ مِنَ الْمَعْرِفَةِ وَالشهَادَةِ عَلَى أَنفُسِكُمْ مَا يُبَينُ فَسَادَهُ وَعُدُولَكُمْ فِيهِ عَنِ الصوَابِ.

فَإِن الدينَ الذِي يَأْخُذُهُ الصبِي عَنْ أَبَوَيْهِ هُوَ: دِينُ التَرْبِيَةِ وَالْعَادَةِ، وَهُوَ لِأَجْلِ مَصْلَحَةِ الدنْيَا، فَإِن الطفْلَ لَا بُد لَهُ مِنْ كَافِلٍ، وَأَحَق الناسِ بِهِ أَبَوَاهُ، وَلِهَذَا جَاءَتِ الشرِيعَةُ بِأَن الطفْلَ مَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى دِينِهِمَا فِي أَحْكَامِ الدنْيَا الظاهِرَةِ، وَهَذَا الدينُ لَا يُعَاقِبُهُ اللهُ عَلَيْهِ -

(١) سورة النسَاءِ آية ١٣٥ .

عَلى الصحيح -حتى يَبْلُغ وَيعْقل وَتقُوم عَلْيه الْحُجة، وَحِينئذٍ فَعلْيه أنْ يَتبع دِين الْعِلْم وَالْعقْل، وَهُو الذي يَعْلم بِعقْلِه هُو أنه دِينٌ صَحِيحٌ، فَإنْ كَان آباؤُه مُهْتدِين، كَيوسُف الصديق مَع آبائِه، قَالَ: ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ (١) وَقَال لِيَعْقوب بَنُوهُ: ﴿ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ﴾ (٢) وَإنْ كَان الْآبَاءُ مُخَالِفين الرسُلَ، كَانَ عَلْيه أنْ يَتبِعَ الرسُلَ، كَمَا قَال تَعالَى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ ﴾ (٣) الْآيَةَ.

فَمن اتبعَ دِينَ آبائِه بِغيْر بَصِيرَةٍ وَعِلْمٍ، بَلْ يَعْدِلُ عَن الْحَق الْمَعْلُومِ إلْيه، فَهَذا اتبعَ هَوَاهُ، كَمَا قَال تَعالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ (٤).

مُسْلِمَة الدارِ وَمُسْلِمَة الِاخْتِيَار

وَهَذِه حَالُ كَثِيرٍ مِن الناسِ مِنَ الذِينَ وُلِدُوا عَلى الْإسْلَامِ، يَتبعُ أحَدُهُمْ أبَاهُ فِيمَا كَانَ عَلْيه مِن اعْتِقَادٍ وَمَذْهَبٍ، وَإنْ كَانَ خَطأً لَيس هُوَ فِيه عَلى بَصِيرَةٍ، بَلْ هُو مِنْ مُسْلِمَة الدارِ، لَا مُسْلِمَة الِاخْتِيَارِ، وَهَذا إذَا قِيلَ لَه فِي قَبْرِه: مَنْ رَبكَ ؟ قَالَ ؟ هَاهْ هَاهْ، لَا أدْرِي، سَمِعْتُ الناسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه.

فَلْيتأمل اللبِيبُ هَذَا الْمَحِل، وَلْيَنْصَحْ نَفْسَهُ، وَلْيقُمْ مَعَهُ، وَلْيَنْظرْ مِنْ أي الْفَرِيقيْن هُو ؟ وَاللهُ الْمُوفقُ، فَإن تَوْحِيدَ الربُوبِيةِ لَا يَحْتَاجُ إلَى دَلِيلٍ، فَإنهُ مَرْكُوزٌ فِي الْفِطَرِ. وَأقْرَبُ مَا يَنْظُرُ فِيهِ الْمَرْءُ أمْرُ نَفْسِهِ لَما كَانَ نُطْفَةً، وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْنِ الصلْبِ وَالترائِبِ،

(١) سورة يُوسُفَ آية ٣٨ .

(٢) سورة الْبَقَرَة آية ١٣٣ .

(٣) سورة الْعَنْكَبُوتِ آية ٨ .

(٤) سورة الْبَقَرَة آية ١٧٠ .

وَالتَرَائِبُ [1] عِظَامُ الصدْرِ، ثُم صَارَتْ تِلْكَ النطْفَةُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، وَانْقَطَعَ عَنْهَا تَدْبِيرُ الْأَبَوَيْنِ وَسَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَلَوْ كَانَتْ مَوْضُوعَةً عَلَى لَوْحٍ أَوْ طَبَقٍ، وَاجْتَمَعَ حُكَمَاءُ الْعَالَمِ عَلَى أَنْ يُصَوِرُوا مِنْهَا شَيْئًا لَمْ يَقْدِرُوا. وَمُحَالٌ تَوَهمُ عَمَلِ الطَبَائِعِ فِيهَا، لِأَنهَا مَوَاتٌ عَاجِزَةٌ، وَلَا تُوصَفُ بِحَيَاةٍ، وَلَنْ يَتَأَتى مِنَ الْمَوَاتِ فِعْلٌ وَتَدْبِيرٌ، فَإِذَا تَفَكرَ فِي ذَلِكَ وانتقال هذه النطفة من حال إلى حال، علم بذلك توحيد الربوبية، فانتقل منه إلى توحيد الإلهية. فإنه إذا علم بالعقل أن له ربا أوجده، كيف يليق به أن يعبد غيره ؟ وكلما تفكر وتدبر ازداد يقينا وتوحيدا، والله الموفق، لا رب غيره، ولا إله سواه.

(١) الزيادة لم تذكر في المطبوعة . وهي ضرورية لصحة الكلام .

عِلْمُ اللهِ أزَلًا بِأهْلِ الجَنةِ وَأهْلِ النارِ

قوله: (وقد علم الله تعالى فيما لم يزل [1] عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزاد في ذلك العدد ولا ينقص منه. وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه).

ش: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ [2]. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴾ [3]. فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم، أزلا وأبدا، لم يتقدم علمه بالأشياء جهالة. وَمَا كَانَ رَبكَ نَسِيا. وعن علي بن أبي طالب ﷺ قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله ﷺ فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه ينكت بمخصرته ثم قال: « ما من نفس منفوسة إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة » [4]، قال: فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل ؟ فقال: « من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة » [5]. ثم قال: « اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝

---

(١) لعله : الأزل .
(٢) سورة العنكبوت آية ٦٢ .
(٣) سورة الأحزاب آية ٤٠ .
(٤) البخاري الجنائز (١٢٩٦) ، مسلم القدر (٢٦٤٧) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٣٤٤) ، أبو داود السنة (٤٦٩٤) ، أحمد (١/١٥٧) .
(٥) البخاري تفسير القرآن (٤٦٦٦) ، مسلم القدر (٢٦٤٧) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٣٤٤) ، أبو داود السنة (٤٦٩٤) ، أحمد (١/١٢٩) .

فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾ [1] . خرجاه في الصحيحين.

قوله: (وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله).

ش: تقدم من حديث علي ﷺ وقوله ﷺ ﴿ اعملوا فكل ميسر لما خلق له ﴾ [2] ، وعن زهير عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله، قال: جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: ﴿ يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، فيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما يستقبل ؟ " قال: لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، [قال: ففيم العمل ؟] قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال ؟ فقال: " اعملوا فكل ميسر ﴾ [3]. رواه مسلم [4].

وعن سهل بن سعد الساعدي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة ﴾ [5] ، خرجاه في الصحيحين، وزاد البخاري: ﴿ وإنما الأعمال بالخواتيم ﴾ [6].

---

(١) سورة الليل الآيات ٥-١٠ .

(٢) البخاري تفسير القرآن (٤٦٦٦) ، مسلم القدر (٢٦٤٧) ، الترمذي القدر (٢١٣٦) ، أبو داود السنة (٤٦٩٤) ، ابن ماجه المقدمة (٧٨) ، أحمد (١٥٧/١) .

(٣) مسلم القدر (٢٦٤٨) ، أحمد (٢٩٣/٣) .

(٤) صحيح مسلم ٢ : ٢٩٩ طبعة بولاق . وكان النص محرفا في المطبوعة فصححناه من لفظ مسلم .

(٥) البخاري الجهاد والسير (٢٧٤٢) ، مسلم الإيمان (١١٢) ، أحمد (٣٣٢/٥) .

(٦) البخاري القدر (٦٢٣٣) ، أحمد (٣٣٥/٥) .

وفي الصحيحين أيضا عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق -: ﴿ إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله وشقيا أم سعيدا، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها ﴾ (1). والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكذلك الآثار عن السلف.

قال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد: قد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بذه الآثار واعتقادهم وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق.

---

(1) البخاري بدء الخلق (٣٠٣٦) ، مسلم القدر (٢٦٤٣) ، الترمذي القدر (٢١٣٧) ، أبو داود السنة (٤٧٠٨) ، ابن ماجه المقدمة (٧٦) ، أحمد (٤١٤/١) .

مَسْألةُ القَدَر

أَصْلُ الْقَدَرِ سِر اللهِ ِفي خَلْقِهِ

وقوله: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسُلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، وناهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [1] فمن سأل: لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب، كان من الكافرين).

ش: أصل القدر سر الله في خلقه، وهو كونه أوجد وأفنى، وأفقر وأغنى، وأمات وأحيا، وأضل وهدى. قال علي ﷺ القدر سر الله فلا نكشفه.

رَأيُ أَهْلِ السنةِ وَالْجَمَاعَةِ ِفي مَسْأَلَةِ الْقَدَرِ

وال اع بين الناس في مسألة القدر مشهور، والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن الله تعالى خالق أفعال العباد. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ [2] وقال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [3]. وأن الله تعالى يريد الكفر من الكافر ويشاؤه، ولا يرضاه ولا يحبه، فيشاؤه كونا، ولا يرضاه دينا.

وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا: أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، [فروا إلى هذا، لئلا يقولوا] [4] شاء الكفر من الكافر وعذبه عليه !

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٣ .

(٢) سورة القمر آية ٤٩ .

(٣) سورة الفرقان آية ٢ .

(٤) في الأصل : (وإلى هذا الآن لا يقولون) . والصواب ما أثبتناه ، كما في أكثر النسخ . ن .

ولكن صاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار!. فإنم هربوا من شيء فوقعوا فيما هو شر منه ! فإنه يلزم أن مشيئة الكافر غلبت مشيئة الله تعالى، فإن الله قد شاء الإيمان منه - على قولهم - والكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى! ! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل.

روى اللالكائي، من حديث بقية عن الأوزاعي، حدثنا العلاء بن الحجاج، عن محمد بن عبيد المكي، عن ابن عباس [قال: قيل لابن عباس]: إن رجلا قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه، وهو يومئذ أعمى، فقالوا له: ما تصنع به ؟ فقال: والذي نفسي بيده، لئن استمكنت منه لأعضن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته بيدي لأدقنها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج، تصطفق إلياتن مشركات﴾ [1] ، وهذا أول شرك في الإسلام، والذي نفسي بيده لينتهين بم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يقدر الخير، كما أخرجوه من أن يقدر الشر [2].

---

(١) أحمد (١/٣٣٠) .

(٢) هذا الحديث نقله المؤلف من كتاب اللالكائي ، من رواية بقية بن الوليد عن الأوزاعي . ولعل زاعما يزعم تعليله؛ بأن بقية مدلس ، وليس أمامنا إسناد اللالكائي ، حتى نعرف : أصرح بقية بن الوليد بالتحديث أم لم يصرح ؟ ولكنها علة ذاهبة؛ فلم ينفرد بقية بروايته عن الأوزاعي ، فقد رواه الإمام أحمد مرتين في المسند : ٣٠٥٥ ، ٣٠٥٦ - فقال في أولاهما : " حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا الأوزاعي ، عن بعض إخوانه ، عن محمد بن عبيد المكي عن عبد الله بن عباس " ، إلخ . وقال في الأخرى : " حدثنا أبو المغيرة ، حدثنا الأوزاعي ، حدثني العلاء بن الحجاج ، عن محمد بن عبيد المكي ، عن ابن عباس ، بذا الحديث " فالإسناد الأول أبم فيه شيخ الأوزاعي ، ثم بين في الثاني أنه " العلاء بن الحجاج " وقد فصلنا القول فيه في شرحنا للمسند ، وقلنا إن إسناده حسن على الأقل . ووقع في إسناده - هنا - ومتنه غلط كثير ، صححنا ما استطعنا من رواية المسند . فكان هنا " محمد بن عبد الملك " بدل " محمد بن عبيد المكي " . وكان " وهو يومئذ أعمى " . وكتب " لئن " في الموضعين (لأن) ! وكان أيضا (كأني بنساء بني فهم يطفن بالخروج تصطل إلياتن)! وهو كلام لا معنى له . وكان " لتنتهي " بدل (لينتهين) . ثم وجدت الإسناد الذي فيه بقية : فرواه أبو بكر الآجري في كتاب (الشريعة) ص : ٢٣٨ ، عن الفريابي ، عن أبي حفص عمر بن عثمان الحمصي ، (قال : حدثنا بقية بن الوليد ، قال حدثنا أبو عمرو ، يعني الأوزاعي) - إلى آخره ، بذا الإسناد . ولكن مع شيء من الاختصار .

قوله: " وهذا أول شرك في الإسلام "، إلى آخره، من كلام ابن عباس. وهذا يوافق قوله: القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده.

وروى عمر بن الهيثم قال: خرجنا في سفينة، وصحبنا فيها قدري ومجوسي، فقال القدري: إن الله يريد، ولكن الشيطان لا يريد ! قال المجوسي: أراد الله وأراد الشيطان، فكان ما أراد الشيطان ! هذا شيطان قوي ! ! [(١)] وفي رواية أنه قال: فأنا مع أقواهما ! !.

ووقف أعرابي على حلقة فيها عمرو بن عبيد، فقال: يا هؤلاء إن ناقتي سرقت فادعوا الله أن يردها علي، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه ! فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك ! قال: ولم ؟ قال: أخاف - كما أراد أن لا تسرق فسرقت - أن يريد ردها فلا ترد ! !.

وقال رجل لأبي عصام القسطلاني [(٢)] أرأيت إن منعني الهدى وأوردني الضلال ثم عذبني، أيكون منصفا ؟ فقال له أبو عصام: إن يكن الهدى شيئا هو له فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء.

وأما الأدلة من الكتاب والسنة: فقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [(٣)] وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [(٤)] وقال تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [(٥)] وقال تعالى: ﴿ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ

---

(١) هذا الأثر رواه الآجري في كتاب الشريعة : ٢٤٤ ، بإسناده إلى عمرو بن هيثم ، بنحوه .

(٢) أنا من صحة هذه النسبة في شك . ولم أعرف الرجل حتى أحققها .

(٣) سورة السجدة آية ١٣ .

(٤) سورة يونس آية ٩٩ .

(٥) سورة الإنسان آية ٣٠ .

مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾[2].

مَنْشَأُ الضلَالِ التسْوِيَةُ بَيْنَ الْمَشِيئَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْمَحَبةِ وَالرضَا

ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوبا مرضيا، وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه، وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة - الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة.

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب، فقد تقدم ذكر بعضها. وأما نصوص المحبة والرضا، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[3]. ﴿ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ ﴾[4]. وقال تعالى عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر: ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ﴾[5].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ ﴿ إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال ﴾[6].

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٩ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٥ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٠٥ .

(٤) سورة الزمر آية ٧ .

(٥) سورة الإسراء آية ٣٨ .

(٦) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٦٢) ، أحمد (٢٤٦/٤) .

وفي المسند: ﴿ إن الله يحب أن يؤخذ برخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته ﴾ [(١)] ، وكان من دعائه ﷺ ﴿ اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك ﴾ [(٢)] فتأمل ذكر استعاذته بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول الصفة، والثاني لأثرها المرتب عليها، ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كله راجع إليه وحده، لا إلى غيره، فما أعوذ منه واقع بمشيئتك وإرادتك، وما أعوذ به من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه، وإن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه، فإعاذتي مما أكره ومنعه أن يحل بي، هي بمشيئتك أيضا، فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك، فعياذي بك منك، وعياذي بحولك وقوتك ورحمتك مما يكون بحولك وقوتك وعدلك وحكمتك، فلا [أستعيذ] بغيرك من غيرك [(٣)]. ولا أستعيذ بك من شيء صادر عن غير مشيئتك، بل هو منك. فلا يعلم ما في هذه الكلمات من التوحيد والمعارف والعبودية، إلا الراسخون في العلم بالله ومعرفته ومعرفة عبوديته.

الْمُرَادُ نَوْعَانِ مُرَادٌ لِنَفْسِهِ وَمُرَادٌ لِغَيْرِهِ

فإن قيل: كيف يريد الله أمرا ولا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكونه ؟ وكيف تجتمع إرادته له وبغضه وكراهته ؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقا، وتباينت طرقهم وأقوالهم. فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره. فالمراد لنفسه، مطلوب محبوب لذاته وما فيه من

(١) أحمد (١٠٨/٢) .

(٢) الترمذي الدعوات (٣٥٦٦) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٧٤٧) ، أبو داود الصلاة (١٤٢٧) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١١٧٩) .

(٣) الزيادة ليست في المطبوعة . وهي ضرورية لصحة الكلام .

الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد. والمراد لغيره، قد لا يكون مقصودا لما يريد [١] ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما. وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسده، وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنا توصل إلى مراده ومحبوبه. بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب، وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف [بمن] [٢] لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سببا إلى أمر هو أحب إليه من [فوته] [٣].

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات، وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه، تبارك وتعالى، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه. ومع هذا فهو وسيلة إلى محاب كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أنه تظهر للعباد قدرة الرب تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات، التي هي أخبث الذوات وشرها، وهي سبب كل شر، في مقابلة ذات جبرائيل، التي هي من أشرف الذوات وأطهرها وأزكاها، وهي مادة كل خير، فتبارك خالق هذا وهذا. كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار، والدواء والداء، والحياة والموت، والحسن والقبيح، والخير والشر. وذلك من أدل دليل على كمال قدرته وعزته وملكه وسلطانه، فإنه خلق هذه المتضادات، وقابل بعضها ببعض، وجعلها مجال تصرفه وتدبيره، فخلو الوجود عن بعضها بالكلية تعطيل لحكمته وكمال تصرفه وتدبير مملكته.

---

(١) في المطبوعة " مقصودا لما لا يريد " ، وزيادة " لا " خطأ ، تبطل المعنى وتفسده .

(٢) في الأصل : (ممن) والصواب ما أثبتناه ، كما في " مدارج السالكين " ٢ / ١٩٤ . ن .

(٣) في الأصل : (فوقه) والصواب ما أثبتناه ، كما في " مدارج السالكين " ٢ / ١٩٤ . ن .

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، والعدل، والضار، والشديد العقاب، والسريع العقاب، وذي البطش الشديد، والخافض، والمذل، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لا بد من وجود متعلقها، ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة [لحلمه] (1) وعفوه ومغفرته وستره وتجاوزه عن حقه وعتقه لمن شاء من عبيده، فلولا خلق ما يكرهه من الأسباب المفضية إلى ظهور آثار هذه الأسماء لتعطلت هذه الحكم والفوائد، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا بقوله: ﴿ لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون فيغفر لهم ﴾ (2).

ومنها: ظهور آثار أسماء الحكمة والخبرة، فإنه الحكيم الخبير، الذي يضع الأشياء مواضعها، ويـ لها منازلها اللائقة بـا، فلا يضع الشيء في غير موضعه، ولا يـ له في غير مـ لته التي يقتضيها كمال علمه وحكمته وخبرته، فهو أعلم حيث يجعل رسالاته، وأعلم بمن يصلح لقبولها ويشكره على انتهائها إليه، وأعلم بمن لا يصلح لذلك. فلو قدر عدم الأسباب المكروهة له لتعطلت حكم كثيرة، ولفاتت مصالح عديدة.

ولو عطلت تلك الأسباب لما فيها من الشر، لتعطل الخير الذي هو أعظم من الشر الذي في تلك الأسباب، وهذا كالشمس والمطر والرياح، التي فيها من المصالح ما هو أضعاف أضعاف ما يحصل بـا من الشر.

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه. ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر ومخالفة الهوى، وإيثار محاب الله تعالى، وعبودية التوبة والاستغفار،

---

(1) في الأصل : (كلؤه) . والصواب ما أثبتناه ، كما في " مدارج السالكين " ٢ / ١٩٥ . ن .

(2) مسلم التوبة (٢٧٤٩) ، أحمد (٣٠٩/٢) .

وعبودية الاستعاذة بالله أن يجيره من عدوه ويعصمه من كيده وأذاه. إلى غير ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن إدراكها.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب ؟ فهذا سؤال فاسد ! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الابن بدون الأب، والحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: فإذا كانت هذه الأسباب مرادة لما تفضي إليه من الحكم، فهل تكون مرضية محبوبة من هذا الوجه، أم هي مسخوطة من جميع الوجوه ؟ قيل: هذا السؤال يرد على وجهين: أحدهما: من جهة الرب تعالى، وهل يكون محبا لها من جهة إفضائها إلى محبوبه، وإن كان يبغضها لذاتها ؟.

والثاني: من جهة العبد، وهو أنه هل يسوغ له الرضا بها من تلك الجهة أيضا ؟ فهذا سؤال له شأن.

فاعلم أن الشر كله يرجع إلى العدم، أعني عدم الخير وأسبابه المفضية إليه، وهو من هذه الجهة شر، وأما من جهة وجوده المحض فلا شر فيه. مثاله: أن النفوس الشريرة وجودها خير من حيث هي موجودة، وإنما حصل لها الشر بقطع مادة الخير عنها، فإنها خلقت في الأصل متحركة، فإن أعينت بالعلم وإلهام الخير تحركت به، وإن تركت تحركت بطبعها إلى خلافه. وحركتها من حيث هي حركة - خير، وإنما تكون شرا بالإضافة، لا من حيث هي حركة، والشر كله ظلم، وهو وضع الشيء في غير محله، فلو وضع في موضعه لم يكن شرا، فعلم أن جهة الشر فيه نسبية إضافية. ولهذا كانت العقوبات الموضوعة في محلها خيرا في نفسها، وإن كانت شرا بالنسبة إلى المحل الذي حلت به، لما أحدثت فيه من الألم الذي كانت الطبيعة قابلة لضده من اللذة مستعدة له، فصار ذلك الألم شرا بالنسبة إليها، وهو خير بالنسبة إلى الفاعل، حيث وضعه في موضعه، فإنه سبحانه لم يخلق شرا محضا من جميع الوجوه والاعتبارات، فإن حكمته تأبى ذلك. فلا يمكن في جناب الحق تعالى أن يريد شيئا يكون فسادا من كل وجه، لا مصلحة في خلقه

بوجه ما، هذا من أبين المحال، فإنه سبحانه بيده الخير كله، والشر ليس إليه، بل كل ما إليه فخير، والشر إنما حصل لعدم هذه الإضافة والنسبة إليه، فلو كان إليه لم يكن شرا، فتأمله. فانقطاع نسبته إليه هو الذي صيره شرا.

فإن قيل: لم تنقطع نسبته إليه خلقا ومشيئة ؟ قيل: هو من هذه الجهة ليس بشر، فإن وجوده هو المنسوب إليه، وهو من هذه الجهة ليس بشر، والشر الذي فيه من عدم إمداده بالخير وأسبابه، والعدم ليس بشيء حتى ينسب إلى من بيده الخير.

أَسْبَابُ الْخَيرِ ثَلَاثَةٌ الْإِيجَادُ وَالْإِعْدَادُ وَالْإِمْدَادُ

فإن أردت مزيد إيضاح لذلك، فاعلم أن أسباب الخير ثلاثة: الإيجاد، والإعداد، والإمداد. فإيجاد هذا خير، وهو إلى الله، وكذلك إعداده وإمداده، فإن لم يحدث فيه إعداد ولا إمداد حصل فيه الشر بسبب هذا العدم الذي ليس إلى الفاعل، وإنما إليه ضده.

فإن قيل: هلا أمده إذا أوجده ؟ قيل: ما اقتضت الحكمة إيجاده وإمداده، وإنما اقتضت إيجاده وترك إمداده، فإيجاده خير، والشر من عدم إمداده.

فإن قيل: فهلا أمد الموجودات كلها ؟ فهذا سؤال فاسد، يظن مورده أن التسوية بين الموجودات أبلغ في الحكمة ! وهذا عين الجهل ! بل الحكمة في هذا التفاوت العظيم الذي بين الأشياء، وليس في خلق كل نوع منها تفاوت، فكل نوع منها ليس في خلقه تفاوت، والتفاوت إنما وقع لأمور عدمية لم يتعلق بها الخلق، وإلا فليس في الخلق من تفاوت. فإن اعتاص عليك هذا، ولم تفهمه حق الفهم، فراجع قول القائل:

إذا لم تستطع شيئا فدعه   وجاوزه إلى ما تستطيع

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئا ولا يعينه عليه ؟ قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة. وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ

﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ [1] - الآيتين. فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله، وهو طاعته، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله، فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾ [2] أي فسادا وشرا، ﴿ وَلَأَوْضَعُواْ خِلَالَكُمْ ﴾ [3] أي سعوا بينكم بالفساد والشر، ﴿ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ [4] قابلون منهم مستجيبون لهم، فيتولد من سعي هؤلاء وقبول هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه. فاجعل هذا المثال أصلا، وقس عليه.

وأما الوجه الثاني، وهو الذي من جهة العبد: فهو أيضا ممكن، بل واقع. فإن العبد يسخط الفسوق والمعاصي ويكرهها، من حيث هي فعل العبد واقعة بكسبه وإرادته واختياره، ويرضى بعلم الله وكتابه ومشيئته وإرادته وأمره الكوني، فيرضى بما من الله ويسخط ما هو منه، فهذا مسلك طائفة من أهل العرفان. وطائفة أخرى كرهتها مطلقا، وقولهم يرجع إلى هذا القول، لأن إطلاقهم الكراهة لا يريدون به شموله لعلم الرب وكتابته ومشيئته. وسر المسألة: أن الذي إلى الرب منها غير مكروه، والذي إلى العبد مكروه.

فإن قيل: ليس إلى العبد شيء منها. قيل: هذا هو الجبر الباطل الذي لا يمكن صاحبه التخلص من هذا المقام الضيق، والقدري المنكر أقرب إلى التخلص منه من الجبري، وأهل السنة المتوسطون بين القدرية والجبرية - أسعد بالتخلص من الفريقين.

فإن قيل: كيف يتأتى الندم والتوبة مع شهود الحكمة في التقدير، ومع شهود القيومية والمشيئة النافذة ؟ قيل: هذا هو الذي أوقع من عميت بصيرته في شهود الأمر على غير ما

---

(١) سورة التوبة الآيتين ٤٦- ٤٧ .

(٢) سورة التوبة الآية ٤٧ .

(٣) سورة التوبة الآية ٤٧ .

(٤) سورة التوبة الآية ٤٧ .

هو عليه، فرأى تلك الأفعال طاعات، لموافقته فيها المشيئة والقدر، وقال: إن عصيت أمره فقد أطعت إرادته ! [و] في ذلك قيل:

أصبحت منفعلا لما يختاره ... مني، ففعلي كله طاعات !

وهؤلاء أعمى الخلق بصائر، وأجهلهم بالله وأحكامه الدينية والكونية، فإن الطاعة هي موافقة الأمر الديني الشرعي، لا موافقة القدر والمشيئة، ولو كان موافقة القدر طاعة لكان إبليس من أعظم المطيعين له، ولكان قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وقوم فرعون - كلهم مطيعين ! وهذا غاية الجهل.

لكن إذا شهد العبد عجز نفسه، ونفوذ الأقدار فيه، وكمال فقره إلى ربه وعدم استغنائه عن عصمته وحفظه طرفة عين - كان بالله في هذه الحال لا بنفسه، فوقوع الذنب منه لا يتأتى في هذه الحال ألبتة، فإن عليه حصنا حصينا " فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي " فلا يتصور منه الذنب في هذه الحالة، فإذا حجب عن هذا المشهد وبقي بنفسه، استولى عليه حكم النفس، فهنالك نصبت عليه الشباك والأشراك، وأرسلت عليه الصيادون، فإذا انتفى عنه ضباب ذلك الوجود الطبعي، فهنالك يحضره الندم والتوبة والإنابة، فإنه كان في المعصية محجوبا بنفسه عن ربه، فلما فارق ذلك الوجود صار في وجود آخر، فبقي بربه لا بنفسه.

مَا يُرْضَى مِنَ الْمَقْضِيِ وَمَا يُسْخَطُ

فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره، ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه ؟ !.

فالجواب: أن يقال:

أولا: نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويمقت، كما لا يرضى به القاضي لأقضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

ويقال ثانيا: هنا أمران: قضاء الله؛ وهو فعل قائم بذات الله تعالى، ومقضي: وهو المفعول المنفصل عنه. فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، نرضى به كله، والمقضي قسمان: منه ما يرضى به، ومنه ما لا يرضى به.

ويقال ثالثا: القضاء له وجهان:

أحدهما: تعلقه بالرب تعالى، فمن هذا الوجه ونسبته إليه يرضى به.

والوجه الثاني: تعلقه بالعبد ونسبته إليه، فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يرضى به وإلى ما لا يرضى به. مثال ذلك: قتل النفس، له اعتباران: فمن حيث قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلا للمقتول ونهاية لعمره - يرضى به، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وكسبه وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله - نسخطه ولا نرضى به.

الْمُبَالَغَةُ فِي الْكَلَامِ فِي الْقَدَرِ ذَرِيعَةُ الْخُذْلَانِ

وقوله: " والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان " إلى آخره - التعمق: هو المبالغة في طلب الشيء. والمعنى: أن المبالغة في طلب القدر والغوص في الكلام فيه ذريعة الخذلان. الذريعة: الوسيلة، والذريعة والدرجة والسلم - متقاربة المعنى وكذلك الخذلان والحرمان والطغيان - متقارب المعنى أيضا، لكن الخذلان في مقابلة النصر، والحرمان في مقابلة الظفر: والطغيان في مقابلة الاستقامة.

وقوله: " فالحذر كل الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة " - عن أبي هريرة ﵁ قال: " جاء ناس من أصحاب النبي ﷺ إلى رسول الله ﷺ فسألوه: ﴿إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به ؟ قال: " [وقد] وجدتموه " ؟ [قالوا: نعم]، قال: " ذلك صريح الإيمان﴾ [1]. رواه مسلم [2]. الإشارة بقوله: ذلك ﴿صريح الإيمان﴾ [3] إلى

(١) مسلم الإيمان (١٣٢) ، أبو داود الأدب (٥١١١) ، أحمد (٢/٤٥٦) .

(٢) صحيح مسلم ١ : ٤٨ . وكان الحديث محرفا في المطبوعة ، فأكملناه وصححناه من كتاب الصحيح .

(٣) مسلم الإيمان (١٣٢) ، أبو داود الأدب (٥١١١) ، أحمد (٢/٣٩٧) .

تعاظم أن يتكلموا به. ولمسلم أيضا عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة ؟ فقال: ﴿ تلك محض الإيمان ﴾ [(١)] ، وهو بمعنى حديث أبي هريرة، فإن وسوسة النفس أو مدافعة وسواسها بمـ لة المحادثة الكائنة بين اثنين، فمدافعة الوسوسة الشيطانية واستعظامها صريح الإيمان ومحض الإيمان. هذه طريقة الصحابة رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان. ثم خلف من بعدهم خلف، سودوا الأوراق بتلك الوساوس، التي هي شكوك وشبه، بل وسودوا القلوب، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، ولذلك أطنب الشيخ رحمه الله في ذم الخوض في الكلام في القدر والفحص عنه.

وعن عائشة رضي الله عنها أنا قالت: قال رسول الله ﷺ ﴿ أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم ﴾ [(٢)] [(٣)]. وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية حدثنا داود بن أبي هند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: ﴿ خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال [لهم]: ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض ؟ بذا هلك من كان قبلكم ﴾ [(٤)]. قال: فما غبطت نفسي بمجلس فيه رسول الله لم أشهده، بما غبطت نفسي بذلك المـ لس، أني لم أشهده. ورواه ابن ماجه أيضا [(٥)].

---

(١) مسلم الإيمان (١٣٣) .

(٢) البخاري المظالم والغصب (٢٣٢٥) ، مسلم العلم (٢٦٦٨) ، الترمذي تفسير القرآن (٢٩٧٦) ، النسائي آداب القضاة (٥٤٢٣) ، أحمد (٦/٦٣) .

(٣) رواه أحمد والشيخان وغيرهم . وفي المطبوعة (إن أبغض) . وزيادة (إن) ليست من لفظه .

(٤) مسلم العلم (٢٦٦٦) ، ابن ماجه المقدمة (٨٥) ، أحمد (٢/١٧٨) .

(٥) هو في المسند بتحقيقنا : ٦٦٦٨ . وصححنا لفظه هنا عن المسند ورواه ابن ماجه ٢ : ٣٣ .

وقال تعالى: ﴿ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ ﴾ (١) أي: كالخوض الذي خاضوه، أو كالفوج أو الصنف أو الجيل الذي خاضوا.

فساد الدين يأتي من الشبهات والشهوات

وجمع سبحانه بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض؛ لأن فساد الدين إما في العمل وإما في الاعتقاد، فالأول من جهة الشهوات، والثاني من جهة الشبهات.

وروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: ﴿ لتأخذن أمتي مآخذ القرون قبلها شبرا بشبر، وذراعا بذراع، قالوا: فارس والروم ؟ قال: فمن الناس إلا أولئك ﴾ (٢).

وعن عبد الله بن عمرو ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية كان من أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقوا على اثنين وسبعين ملة، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله ؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي ﴾ (٣). رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ﴾ (٤).

رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

---

(١) سورة التوبة آية ٦٩ .

(٢) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٨٨) ، أحمد (٣٦٧/٢) .

(٣) الترمذي الإيمان (٢٦٤١) .

(٤) الترمذي الإيمان (٢٦٤٠) ، أبو داود السنة (٤٥٩٦) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٩١) ، أحمد (٣٣٢/٢) .

وعن معاوية بن أبي سفيان ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ﴾ [1] - يعني الأهواء - كلها في النار إلا واحدة، وهي الجماعة.

وأكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأئمة مسألة القدر. وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع.

وقوله: " فمن سأل: لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين ".

مَبنى العُبودِيةِ وَالإِيمَانِ عَلَى التسْلِيمِ

اعلم أن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله - على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة في الأوامر والنواهي والشرائع. ولهذا لم يحك الله سبحانه عن أمة نبي صدقت بنبيها وآمنت بما جاء به أنا سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه وبلغها عن ربها، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها، بل انقادت وسلمت وأذعنت، وما عرفت من الحكمة عرفته، وما خفي عنها لم تتوقف في انقيادها وتسليمها على معرفته، ولا جعلت ذلك من شأنها، وكان رسولها أعظم عندها من أن تسأله عن ذلك، كما في الإنجيل: " يا بني إسرائيل لا تقولوا: لم أمر ربنا ؟ ولكن قولوا: بم أمر ربنا "؛ ولهذا كان سلف هذه الأمة. التي هي أكمل الأمم عقولا ومعارف وعلوما - لا تسأل نبيها: لم أمر الله بكذا ؟ ولم نهى عن كذا ؟ ولم قدر كذا ؟ ولم فعل كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام، وأن قدم الإسلام لا تثبت إلا على درجة التسليم.

فأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثم العزم الجازم على امتثاله، ثم المسارعة إليه والمبادرة به، والحذر عن القواطع والموانع، ثم بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل

---

(١) أبو داود السنة (٤٥٩٧) ، أحمد (١٠٢/٤) ، الدارمي السير (٢٥١٨) .

الوجوه، ثم فعله لكونه مأمورا، بحيث لا يتوقف فشفاء العي السؤال. ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره.

قال القرطبي ناقلا عن ابن عبد البر: فمن سأل مستفهما راغبا في العلم ونفي الجهل عن نفسه، باحثا عن معنى يجب الوقوف في الديانة عليه - فلا بأس به، فشفاء العي السؤال. ومن سأل متعنتا غير متفقه ولا متعلم، فهو الذي لا يحل قليل سؤاله ولا كثيره.

قال [ابن العربي] [1] الذي ينبغي للعالم أن يشتغل به هو بسط الأدلة، وإيضاح سبل النظر، وتحصيل مقدمات الاجتهاد، وإعداد الآلة المعينة على الاستمداد. قال: فإن عرضت لك مسألة: أتيت من بابها، ونشدت من مظانها، والله يفتح وجه الصواب فيها. انتهى.

وقال ﷺ ﴿ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ﴾ [2]. رواه الترمذي وغيره.

عَدَمُ تَكْفِيرِ مَنْ تَأَولَ حُكْمَ الْكِتَابِ لِشُبْهَةٍ عَرَضَتْ لَهُ

ولا شك في تكفير من رد حكم الكتاب، ولكن من تأول حكم الكتاب لشبهة عرضت له، بين له الصواب ليرجع إليه، وهو سبحانه وتعالى لا يسأل عما يفعل، لكمال حكمته ورحمته وعدله، لا بمجرد قهره وقدرته، كما يقول جهم وأتباعه. وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قول الشيخ: " ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ".

(١) في الأصل : (ابن عربي) والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٢) الترمذي الزهد (٢٣١٧) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٧٦) .

حُكْمُ مَنْ أنكَرَ شَيْئًا مِما جَاءَ بِهِ الرسُولُ

قوله: (فهذا جملة ما يحتاج إليه من هو منور قلبه من أولياء الله تعالى، وهي درجة الراسخين في العلم؛ لأن العلم علمان: علم في الخلق موجود، وعلم في الخلق مفقود، فإنكار العلم الموجود كفر، وادعاء العلم المفقود كفر، ولا يثبت الإيمان إلا بقبول العلم الموجود، وترك طلب العلم المفقود).

ش: الإشارة بقوله: " فهذا " إلى ما تقدم ذكره، مما يجب اعتقاده والعمل به، مما جاءت به الشريعة، وقوله " وهي درجة الراسخين في العلم " أي علم ما جاء به الرسول جملة وتفصيلا، نفيا وإثباتا. ويعني بالعلم المفقود: علم القدر الذي طواه الله عن أنامه، وناهم عن مرامه. ويعني بالعلم الموجود، علم الشريعة، أصولها وفروعها، فمن أنكر شيئا مما جاء به الرسول كان من الكافرين، ومن ادعى علم الغيب كان من الكافرين. قال تعالى: ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾ [1] الآية. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ۝٣٤ ﴾ [2]. ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمها، ولا من جهلنا انتفاء حكمته. ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا في خلق الحيات والعقارب والفأر والحشرات، التي لا يعلم منها إلا المضرة - لم ينف أن يكون الله تعالى خالقا لها، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا، لأن عدم العلم لا يكون علما بالمعدوم.

---

(١) سورة الجن الآيتان ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة لقمان آية ٣٤ .

اللوْحُ المَحْفُوظُ وَالقَلَمُ

الإِيمانُ باللوْحِ المَحْفُوظِ وَالقَلَمِ

قوله: (ونؤمن باللوح والقلم، وبجميع ما فيه قد رقم).

ش: قال تعالى: ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ۝٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ۝٢٢ ﴾[1]. وروى الحافظ أبو القاسم الطبراني بسنده إلى النبي ﷺ أنه قال: " ﴿ إن الله خلق لوحا محفوظا، من درة بيضاء، دفتاه ياقوتة حمراء، قلمه نور، [وعرضه ما بين السماء والأرض. ينظر] فيه كل يوم ستين وثلاثمائة نظرة، يخلق [بكل نظرة]، ويحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء ﴾[2].

اللوح المذكور هو الذي كتب الله مقادير الخلائق فيه، والقلم المذكور هو الذي خلقه الله وكتب به في اللوح المذكور المقادير، كما في سنن أبي داود، عن عبادة بن الصامت، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ [إن] أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما[ذا] أكتب ؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة ﴾[3] [4].

اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي الْقَلَمِ وَالْعَرْشِ أَيهُمَا خُلِقَ أَولًا

واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات، أو العرش ؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمذاني، أصحهما: أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد

---

(١) سورة البروج الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٢) هذا الحديث محرف جدا في المطبوعة ، وفيها زيادة ونقص . وقد ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٧ : ١٩٠ - ١٩١ ، وصححناه منه . ولكنه فيه موقوف من كلام ابن عباس . وقال الهيثمي : " رواه الطبراني من طريقين ، ورجال هذه ثقات " . فلعل الشارح نقله من الرواية الأخرى التي أعرض عنها الهيثمي .

(٣) الترمذي القدر (٢١٥٥) .

(٤) أبو داود : ٤٧٠٠ . والتصحيح والزيادة من هناك .

الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، [قال]: وعرشه على الماء ﴾ (١) (٢).

فهذا صريح أن التقدير وقع بعد خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، بحديث عبادة هذا. ولا يخلو قوله ﴿ أول ما خلق الله القلم ﴾ (٣) ، إلخ - إما أن يكون جملة أو جملتين. فإن كان جملة، وهو الصحيح، كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: " اكتب ". كما في اللفظ: ﴿ أول ما خلق الله القلم قال له: اكتب ﴾ (٤) بنصب " أول " و " القلم ". وإن كان جملتين، وهو مروي برفع " أول " و " القلم "، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، فيتفق الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم. وفي اللفظ الآخر: ﴿ لما خلق الله القلم قال له: اكتب ﴾ (٥).

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها. وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به في قوله تعالى: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ ﴾ (٦).

والقلم الثاني: قلم الوحي: وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم. والأقلام كلها خدم لأقلامهم. وقد رفع النبي ﷺ لله ليلة أسري به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبرها، أمر العالم العلوي والسفلي.

---

(١) مسلم القدر (٢٦٥٣) ، الترمذي القدر (٢١٥٦) ، أحمد (١٦٩/٢) .

(٢) صحيح مسلم ٢ / ٣٠٠ وصححناه من هناك .

(٣) الترمذي القدر (٢١٥٥) .

(٤) الترمذي القدر (٢١٥٥) .

(٥) الترمذي القدر (٢١٥٥) .

(٦) سورة القلم آية ١ .

جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

قوله: (فلو اجتمع الخلق كلهم على شيء كتبه الله تعالى أنه كائن، ليجعلوه غير كائن - لم يقدروا عليه. ولو اجتمعوا كلهم على شيء لم يكتبه الله تعالى فيه، ليجعلوه كائنا - لم يقدروا عليه. جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة).

ش: تقدم حديث جابر عن رسول الله ﷺ قال: ﴿ جاء سراقة بن مالك بن جعشم، فقال: يا رسول الله، بين لنا ديننا كأنا خلقنا الآن، ففيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما استقبل ؟ قال: لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ﴾ [(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿ كنت خلف النبي ﷺ يوما، فقال: يا غلام ألا أعلمك كلمات ؟ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف ﴾ [(٢)]. رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي رواية غير الترمذي: ﴿ احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا ﴾ [(٣)].

---

(١) مسلم القدر (٢٦٤٨) ، أحمد (٢٩٣/٣) .

(٢) الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٦) ، أحمد (٣٠٨/١) .

(٣) الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٦) ، أحمد (٣٠٨/١) .

الْأَقْلَامُ أَرْبَعَةٌ

وقد جاءت الأقلام في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة، فدل ذلك على أن للمقادير أقلاما غير القلم الأول، الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ.

والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة - وهذا التقسيم غير التقسيم المقدم ذكره -:

القلم الأول: العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي تقدم ذكره مع اللوح.

القلم الثاني: خبر خلق آدم، وهو قلم عام أيضا، لكن لبني آدم، ورد في هذا آيات تدل على أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم، عقيب خلق أبيهم.

القلم الثالث: حين يرسل الملك إلى الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: ﴿ رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد ﴾ [1] كما ورد ذلك في الأحاديث الصحيحة.

القلم الرابع: الموضوع على العبد عند بلوغه، الذي بأيدي الكرام الكاتبين، الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة.

الْوَاجِبُ إِفْرَادُ اللهِ بِالْخَشْيَةِ وَالتقْوَى

وإذا علم العبد أن كلا من عند الله، فالواجب إفراده سبحانه بالخشية والتقوى. قال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [2] ، ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ۝٤٠ ﴾ [3] ، ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١ ﴾ [4] ، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢ ﴾ [5] ، ﴿ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦ ﴾ [1]. ونظائر هذا

---

(١) البخاري التوحيد (٧٠١٦) ، مسلم القدر (٢٦٤٣) ، الترمذي القدر (٢١٣٧) ، أبو داود السنة (٤٧٠٨) ، ابن ماجه المقدمة (٧٦) ، أحمد (٤١٤/١) .

(٢) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٣) سورة البقرة آية ٤٠ .

(٤) سورة البقرة آية ٤١ .

(٥) سورة النور آية ٥٢ .

المعنى في القرآن كثيرة. ولا بد لكل عبد أن يتقي أشياء، فإنه لا يعيش وحده، ولو كان ملكا مطاعا فلا بد أن يتقي أشياء يراعي بها رعيته. فحينئذ فلا بد لكل إنسان أن يتقي، فإن لم يتق الله اتقى المخلوق، والخلق لا يتفق حبهم كلهم وبغضهم، بل الذي يريده هذا يبغضه هذا، فلا يمكن إرضاؤهم كلهم، كما قال الشافعي ﷺ رضا الناس غاية لا تدرك، فعليك بالأمر الذي يصلحك فالزمه، ودع ما سواه فلا تعانه. فإرضاء الخلق لا مقدور ولا مأمور، وإرضاء الخالق مقدور ومأمور.

وأيضا فالمخلوق لا يغني عنه من الله شيئا، فإذا اتقى العبد ربه، كفاه مؤنة الناس. كما كتبت عائشة إلى معاوية، روي مرفوعا، وروي موقوفا عليها: ﴿من أرضى الله بسخط الناس، ﷺ وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله، عاد حامده من الناس له ذاما﴾. فمن أرضى الله كفاه مؤنة الناس ورضي عنه، ثم فيما بعد يرضون، إذ العاقبة للتقوى، ويحبه الله فيحبه الناس، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿إذا أحب الله العبد نادى: يا جبرائيل، إني أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبرائيل، ثم ينادي جبرائيل في السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض﴾ (٢) ، وقال في البغض مثل ذلك.

فقد بين أنه لا بد لكل مخلوق من أن يتقي: إما المخلوق، وإما الخالق. وتقوى المخلوق ضررها راجح على نفعها من وجوه كثيرة، وتقوى الله هي التي يحصل بها سعادة الدنيا والآخرة، فهو سبحانه أهل للتقوى، وهو أيضا أهل المغفرة، فإنه هو الذي يغفر الذنوب، لا يقدر مخلوق على أن يغفر الذنوب ويجير من عذابها غيره، وهو الذي يجير ولا يجار عليه.

---

(١) سورة المدثر آية ٥٦ .

(٢) البخاري بدء الخلق (٣٠٣٧) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٦٣٧) ، الترمذي تفسير القرآن (٣١٦١) ، أحمد (٤١٣/٢) ، مالك الجامع (١٧٧٨) .

قال بعض السلف: ما احتاج تقي قط، لقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [1] فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن في التقوى خللا، فليستغفر الله وليتب إليه، ثم قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [2] أي فهو كافيه، لا محوجه إلى غيره.

تَعَاطِي الْأَسْبَابِ لَا يُنَافِي التوَكلَ

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافي الاكتساب وتعاطي الأسباب، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب! وهذا فاسد، فإن الاكتساب: منه فرض، ومنه مستحب، ومنه مباح، ومنه مكروه، ومنه حرام، كما قد عرف في موضعه. وقد كان النبي ﷺ أفضل المتوكلين، يلبس لامة الحرب، ويمشي في الأسواق للاكتساب، حتى قال الكافرون: ﴿ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ﴾ [3]. ولهذا تجد كثيرا ممن يرى الاكتساب ينافي التوكل يرزقون على يد من يعطيهم، إما صدقة، وإما هدية، وقد يكون ذلك من مكاس، أو والي شرطة، أو نحو ذلك، وهذا مبسوط في موضعه، لا يسعه هذا المختصر. وقد تقدمت الإشارة إلى بعض الأقوال التي في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ ۝٣٩ ﴾ [4].

وأما قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ۝٢٩ ﴾ [5] فقال البغوي. قال مقاتل: نزلت في اليهود حين قالوا: إن الله لا يعطي يوم السبت ! قال المفسرون: من شأنه أنه يحيي

(١) سورة الطلاق الآيتان ٢ ، ٣ .
(٢) سورة الطلاق الآية ٣ .
(٣) سورة الفرقان آية ٧ .
(٤) سورة الرعد آية ٣٩ .
(٥) سورة الرحمن آية ٢٩ .

ويميت، ويرزق، ويعز قوما ويذل آخرين، ويشفي مريضا، ويفك عانيا، ويفرج مكروبا، ويجيب داعيا، ويعطي سائلا، ويغفر ذنبا، إلى ما لا يحصى من أفعاله وإحداثه في خلقه ما يشاء.

قوله: (وما أخطأ العبد لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطئه).

ش: هذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا محالة، ولقد أحسن القائل حيث يقول:

مـا قضـى الله كـائن لا محالـه … والشـقي الجهـول مـن لام حاله

والقائل الآخر:

اقـنع بمـا تـرزق يـا ذا الفـتى … فلـيس ينسـى ربـنا نملـه
إن أقـبل الدهـر فقـم قائمـا … وإن تـولى مدبـرا نم لـه

سَبْقُ عِلْمِ اللهِ بِالكَائِنَاتِ

قوله: (وعلى العبد أن يعلم أن الله قد سبق علمه في كل كائن من خلقه، فقدر ذلك تقديرا محكما مبرما، ليس فيه ناقض، ولا معقب ولا مزيل ولا مغير، ولا ناقص ولا زائد من خلقه في سماواته وأرضه).

ش: هذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات، وأنه قدر مقاديرها قبل خلقها، كما قال ﷺ ﴿قدر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء﴾ (١). فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتا، على ما اقتضته حكمته البالغة فكانت كما علم. فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور إيجادها إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها. قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ (٢). وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالما في الأزل، وقالوا: إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا! تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا. قال الإمام الشافعي رحمه الله: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروا كفروا. فالله تعالى يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه، فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة، وقد علم الله ذلك منه ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعذبه على ما لم يستطعه.

وإذا قيل: فيلزم أن يكون العبد قادرا على تغيير علم الله؛ لأن الله علم أنه لا يفعل، فإذا قدر على الفعل قدر على تغيير علم الله ؟ قيل: هذه معضلة، وذلك أن مجرد قدرته على الفعل لا تستلزم تغيير العلم، وإنما يظن من يظن تغيير العلم إذا وقع الفعل، ولو وقع الفعل لكان المعلوم وقوعه لا عدم وقوعه، فيمتنع أن يحصل وقوع الفعل مع علم الله بعدم وقوعه، بل إن وقع كان الله قد علم أنه يقع، وإن لم يقع كان الله قد علم أنه لا يقع.

---

(١) مسلم القدر (٢٦٥٣) ، الترمذي القدر (٢١٥٦) ، أحمد (١٦٩/٢) .

(٢) سورة الملك آية ١٤ .

ونحن لا نعلم علم الله إلا بما يظهر، وعلم الله مطابق للواقع، فيمتنع أن يقع شيء يستلزم تغيير العلم، بل أي شيء وقع كان هو المعلوم، والعبد الذي لم يفعل لم يأت بما يغير العلم، بل هو قادر على فعل لم يقع، ولو وقع لكان الله قد علم أنه يقع، لا أنه لا يقع.

وإذا قيل: فمع عدم وقوعه يعلم الله أنه لا يقع، فلو قدر العبد على وقوعه قدر على تغيير العلم ؟ قيل: ليس الأمر كذلك، بل العبد يقدر على وقوعه وهو لم يوقعه، ولو أوقعه لم يكن المعلوم إلا وقوعه، فمقدور العبد إذا وقع لم يكن المعلوم إلا وقوعه، وهؤلاء فرضوا وقوعه مع العلم بعدم وقوعه! وهو فرض محال، وذلك بم لة من يقول: افرض وقوعه مع عدم وقوعه! وهو جمع بين النقيضين.

فإن قيل: فإذا كان وقوعه مع علم الرب [عدم] وقوعه محالا لم يكن مقدورا ؟ قيل: لفظ "المحال" مجمل، وهذا ليس محالا لعدم استطاعته له ولا لعجزه عنه ولا لامتناعه في نفسه، بل هو ممكن مقدور مستطاع، ولكن إذا وقع كان الله عالما بأنه سيقع، وإذا لم يقع كان عالما بأنه لا يقع، فإذا فرض وقوعه مع انتفاء لازم الوقوع صار محالا من جهة إثبات الملزوم بدون لازمه. وكل الأشياء بهذا الاعتبار هي محال! ومما يلزم هؤلاء أن لا يبقى أحد قادرا على شيء، لا الرب، ولا الخلق، فإن الرب إذا علم من نفسه أنه سيفعل كذا لا يلزم من علمه ذلك انتفاء قدرته على تركه. وكذلك إذا علم من نفسه أنه لا يفعله لا يلزم منه انتفاء قدرته على فعله، فكذلك ما قدره من أفعال عباده. والله تعالى أعلم.

مِنْ عَقْدِ الْإِيمَانِ وَأُصُولِ الْمَعْرِفَةِ وَالِاعْتِرَافِ بِتَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَرُبُوبِيتِهِ

لَا يَتِمُّ التَوْحِيدُ وَالِاعْتِرَافُ بِالرُبُوبِيةِ إِلَا بِالْإِيمَانِ بِصِفَاتِهِ تَعَالَى

قوله: (وذلك من عقد الإيمان وأصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيته، كما قال تعالى في كتابه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ ﴾ [1]. وقال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝٣٨ ﴾ [1]).

(١) سورة الفرقان آية ٢ .

ش: الإشارة إلى ما تقدم من الإيمان بالقدر وسبق علمه بالكائنات قبل خلقها. قال ﷺ في جواب السائل عن الإيمان: ﴿أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره﴾ [(٢)]. وقال ﷺ في آخر الحديث: ﴿يا عمر أتدري من السائل ؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبرائيل، أتاكم يعلمكم دينكم﴾ [(٣)]. رواه مسلم.

وقوله: " والاعتراف بتوحيد الله وربوبيته "، أي لا يتم التوحيد والاعتراف بالربوبية إلا بالإيمان بصفاته تعالى، فإن من زعم خالقا غير الله فقد أشرك، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله ؟ ! ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة، وأحاديثهم في السنن.

روى أبو داود عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: ﴿القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم﴾ [(٤)] [(٥)].

أَحَادِيثُ فِي ذَمِّ الْقَدَرِيةِ

وروى أبو داود أيضا عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ﴿لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٨ .

(٢) مسلم الإيمان (٨) ، الترمذي الإيمان (٢٦١٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠) ، أبو داود السنة (٤٦٩٥) ، ابن ماجه المقدمة (٦٣) ، أحمد (٢٧/١) .

(٣) مسلم الإيمان (٨) ، الترمذي الإيمان (٢٦١٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠) ، أبو داود السنة (٤٦٩٥) ، ابن ماجه المقدمة (٦٣) ، أحمد (٥٢/١) .

(٤) أبو داود السنة (٤٦٩١) ، أحمد (٨٦/٢) .

(٥) أبو داود : ٤٦٩١ .

مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال ﴾ [(١)] [(٢)].

وروى أبو داود أيضا عن عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ قال: ﴿ لا تجالسوا أهل القدر ولا تفاتحوهم ﴾ [(٣)] [(٤)].

وروى الترمذي عن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ صنفان من بني آدم ليس لهم في الإسلام نصيب: المرجئة والقدرية ﴾ [(٥)].

لكن كل أحاديث القدرية المرفوعة ضعيفة. وإنما يصح الموقوف منها: فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: " القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ". وهذا لأن الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم وما أظهر من علمه الذي لا يحاط به وكتابه مقادير الخلائق. وقد ضل في هذا الموضع خلائق من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم، ممن ينكر علمه بالجزئيات أو بغير ذلك، فإن ذلك كله مما يدخل في التكذيب بالقدر. وأما قدرة الله على كل شيء فهو الذي يكذب به القدرية جملة، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد، فأخرجوها عن قدرته وخلقه.

والقدر الذي لا ريب في دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه، وأن الذي جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع - هو ما قدره الله من مقادير العباد. وعامة ما يوجد من كلام

---

(١) أبو داود السنة (٤٦٩٢) .

(٢) أبو داود : ٤٦٩٢ .

(٣) أبو داود السنة (٤٧١٠) ، أحمد (٣٠/١) .

(٤) أبو داود : ٤٧١٠ . وهو في المسند : ٢٠٦ . ورواه ابن حبان بتحقيقنا : ٧٩ . ورواه الحاكم في المستدرك ١ : ٨٥

(٥) الترمذي القدر (٢١٤٩) ، ابن ماجه المقدمة (٦٢) .

الصحابة والأئمة في ذم القدرية يعني به هؤلاء، كقول ابن عمر، لما قيل له: يزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف - أخبرهم أني منهم بريء، وأنهم مني برآء.

تضمنُ القَدَرِ لأصولٍ عظيمةٍ

والقدر، الذي هو التقدير المطابق للعلم - يتضمن أصولا عظيمة: أحدها: أنه عالم بالأمور المقدرة قبل كونها، فيثبت علمه القديم، وفي ذلك الرد على من ينكر علمه القديم.

الثاني: أن التقدير يتضمن مقادير المخلوقات، ومقاديرها هي صفاتها المعينة المختصة بها، فإن الله قد جعل لكل شيء قدرا، قال تعالى: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [1]. فالخلق يتضمن التقدير، تقدير الشيء في نفسه، بأن يجعل له قدرا، وتقديره قبل وجوده. فإذا كان قد كتب لكل مخلوق قدره الذي يخصه في كميته وكيفيته، كان ذلك أبلغ في العلم بالأمور الجزئية المعينة، خلافا لمن أنكر ذلك وقال: إنه يعلم الكليات دون الجزئيات! فالقدر يتضمن العلم القديم والعلم بالجزئيات.

الثالث: أنه يتضمن أنه أخبر بذلك وأظهره قبل وجود المخلوقات إخبارا مفصلا، فيقتضي أنه يمكن أن يعلم العباد الأمور قبل وجودها علما مفصلا، فيدل ذلك بطريق التنبيه على أن الخالق أولى بهذا العلم، فإنه كان يعلم عباده بذلك فكيف لا يعلمه هو ؟ !!

الرابع: أنه يتضمن أنه مختار لما يفعله، محدث له بمشيئته وإرادته، ليس لازما لذاته.

الخامس: أنه يدل على حدوث هذا المقدور، وأنه كان بعد أن لم يكن، فإنه يقدره ثم يخلقه.

---

(١) سورة الفرقان آية ٢ .

حَيَاةُ القَلْبِ

حَيَاةُ القَلْبِ وَمَرَضُهُ وَشِفَاؤُهُ

قوله: (فويل لمن صار قلبه في القدر قلبا سقيما [١] لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرا كتيما، وعاد بما قال فيه أفاكا أثيما).

ش: اعلم أن القلب له حياة وموت، ومرض وشفاء، وذلك أعظم مما للبدن.

قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ ﴾ [٢] أي كان ميتا بالكفر فأحييناه بالإيمان. فالقلب الصحيح الحي إذا عرض عليه الباطل والقبائح نفر منه بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها، بخلاف القلب الميت، فإنه لا يفرق بين الحسن والقبيح، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ " هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر ". وكذلك القلب المريض بالشهوة، فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك، بحسب قوة المرض وضعفه.

ومرض القلب نوعان، كما تقدم: مرض شهوة، ومرض شبهة، وأردؤها مرض الشبهة، وأردأ الشبه ما كان من أمر القدر. وقد يمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة. فإن القلب إذا كان فيه حياة تألم بورود القبيح عليه، وتألم بجهله بالحق بحسب حياته، و:

مـــا لجـــرح بميـــت إيـــلام

---

(١) في المطبوعة : " فويل لمن ضاع له في القدر قلبا سقيما " !! وهو كلام لا معنى له . ثم جاء عقب ذلك : " وفي نسخة " . ثم ذكر اللفظ الذي هنا . والظاهر عندي أن هذا تصرف من أحد الناسخين ، وجد اللفظ غلطا في النسخة التي ينقل عنها ، ثم وجد نسخة أخرى من المتن على الصواب ، فأساء التصرف ، وأثبته في صلب الكتاب أثناء الكلام ، على أنه نسخة .

(٢) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

وقد يشعر بمرضه، ولكن يشتد عليه تحمل مرارة الدواء والصبر عليها، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء، فإن دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب في النفس، وليس له أنفع منه، وتارة يوطن نفسه على الصبر، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه، لضعف علمه وبصيرته وصبره، كمن دخل في طريق مخوف مفض إلى غاية الأمن، وهو يعلم أنه إن صبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمن، فهو محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه، ومتى ضعف صبره ويقينه رجع من الطريق ولم يتحمل مشقتها، ولا سيما إن عدم الرفيق واستوحش من الوحدة وجعل يقول: أين ذهب الناس فلي أسوة بهم! وهذه حال أكثر الخلق، وهي التي أهلكتهم. فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فقده، إذا استشعر قلبه مرافقة الرعيل الأول، ﴿ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [(١)].

وما أحسن ما قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة - في كتاب الحوادث والبدع -: حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فالمراد لزوم الحق واتباعه، وإن كان المتمسك به قليلا والمخالف له كثيرا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبي ﷺ وأصحابه، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم. وعن الحسن البصري رحمه الله أنه قال: السنة - والذي لا إله إلا هو- بين الغالي والجافي. فاصبروا عليها رحمكم الله، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف في إترافهم، ولا مع أهل البدع في بدعتهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك فكونوا.

وعلامة مرض القلب عدوله عن الأغذية النافعة الموافقة، إلى الأغذية الضارة، وعدوله عن دوائه النافع، إلى دوائه الضار.

فها هنا أربعة أشياء: غذاء نافع، ودواء شاف، وغذاء ضار، ودواء مهلك.

---

(١) سورة النساء آية ٦٩ .

فالقلب الصحيح يؤثر النافع الشافي، على الضار المؤذي، والقلب المريض بضد ذلك.

أنفعُ الأغذِيَةِ الإيمانُ وَأنفعُ الأدوِيَةِ القرآنُ

وأنفع الأغذية غذاء الإيمان، وأنفع الأدوية دواء القرآن، وكل منهما فيه الغذاء والدواء، فمن طلب الشفاء في غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضل الضالين، فإن الله تعالى يقول: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[2] و " من " في قوله: " من القرآن " لبيان الجنس، لا للتبعيض. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾[3].

فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهل للاستشفاء به. وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان وقبول تام واعتقاد جازم واستيفاء شروطه - لم يقاوم الداء أبدا. وكيف تقاوم الأدواء كلام رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدعها، أو على الأرض لقطعها ؟ ! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه، لمن رزقه الله فهما في كتابه.

وقوله: " لقد التمس بوهمه في فحص الغيب سرا كتيما " - أي طلب بوهمه في البحث عن الغيب سرا مكتوما، إذ القدر سر الله في خلقه، فهو يروم ببحثه الاطلاع على

---

(١) سورة فصلت آية ٤٤ .

(٢) سورة الإسراء آية ٨٢ .

(٣) سورة يونس آية ٥٧ .

الغيب، وقد قال تعالى: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾ [1] إلى آخر السورة. وقوله: " وعاد بما قال فيه "، أي في القدر: " أفاكا ": كذابا، " أثيما ": أي مأثوما.

(١) سورة الجن آية ٢٦ ، ٢٧ .

العَرْشُ وَالكُرْسِي

وقوله: (والعرش والكرسي حق).

ش: كما بين تعالى في كتابه، قال تعالى: ﴿ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ﴾ [1] ، ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ [2] ، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ [3] في غير ما آية من القرآن، ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ [4] ، ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝ ﴾ [5] ، ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝ ﴾ [6] ، ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [7] ، ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝ ﴾ [8] ، ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [9] وفي دعاء الكرب المروي في الصحيح: « لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا هو رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب الأرض رب العرش الكريم » [10] ، وروى الإمام أحمد في حديث الأوعال عن العباس بن

---

(١) سورة البروج آية ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة غافر آية ١٥ .

(٣) سورة الرعد آية ٢ .

(٤) سورة طه آية ٥ .

(٥) سورة المؤمنون آية ١١٦ .

(٦) سورة النمل آية ٢٦ .

(٧) سورة غافر آية ٧ .

(٨) سورة الحاقة آية ١٧ .

(٩) سورة الزمر آية ٧٥ .

(١٠) البخاري الدعوات (٥٩٨٦) ، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٣٠) ، الترمذي الدعوات (٣٤٣٥) ، ابن ماجه الدعاء (٣٨٨٣) ، أحمد (٢٨٠/١) .

عبد المطلب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ هل تدرون كم بين السماء والأرض ؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض. [ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين ركبهن وأظلافهن كما بين السماء والأرض]، ثم فوق ذلك العرش بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله فوق ذلك، ليس يخفى عليه من أعمال بني آدم شيء ﴾ (١) (٢).

ورواه أبو داود والترمذي وابن ماجه. وروى أبو داود وغيره، بسنده إلى رسول الله ﷺ من حديث الأطيط، أنه ﷺ قال: ﴿ إن عرشه على سماواته لهكذا " وقال بأصابعه، مثل القبة ﴾ (٣) الحديث (٤) وفي صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: ﴿ إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ﴾ (٥).

يروى " وفوقه " بالنصب على الظرفية، وبالرفع على الابتداء، أي: وسقفه. (٦).

---

(١) الترمذي تفسير القرآن (٣٣٢٠) ، أبو داود السنة (٤٧٢٣) ، ابن ماجه المقدمة (١٩٣) ، أحمد (٢٠٧/١) .

(٢) حديث الأوعال هذا ، رواه الإمام أحمد في المسند ، بإسنادين ضعيفين : ١٧٧٠ ، ١٧٧١ . ولكن رواه أبو داود والترمذي والحاكم في المستدرك ، بأسانيد صحاح ، كما بينا ذلك في شرح المسند . والزيادة التي زدناها في متن الحديث ، هي من نصه في المسند ، ولم تذكر في المطبوعة ، وحذفها خطأ .

(٣) أبو داود السنة (٤٧٢٦) .

(٤) هذا جزء من حديث طويل ، رواه أبو داود في كتاب السنة ، من سننه ، برقم : ٤٧٢٦ (٤ : ٣٦٩ - ٣٧٠ من عون المعبود) . وفي المطبوعة هنا " كهكذا " وصوابه " لهكذا " باللام ، كما في أبي داود .

(٥) البخاري الجهاد والسير (٢٦٣٧) ، أحمد (٣٣٥/٢) .

(٦) هو جزء من حديث رواه البخاري (١٣ : ٣٤٩ - ٣٥٠ من فتح الباري) . وكان في المطبوعة هنا : " أعلى . . وأوسط " بالتقديم والتأخير . وأثبتنا ما في البخاري . ورواية ضبط " فوقه " بالرفع ، نقلها الحافظ في الفتح عن المشارق للقاضي عياض : أنا ضبط الأصيلي . ثم نقل عن القاضي أيضا أنه أنكرها في المطالع ، وأنه قال : " إنما قيده الأصيلي بالنصب ، كغيره " .

وذهب طائفة من أهل الكلام إلى أن العرش فلك مستدير من جميع جوانبه محيط بالعالم من كل جهة، وربما سموه: الفلك الأطلس، والفلك التاسع ! وهذا ليس بصحيح؛ لأنه قد ثبت في الشرع أن له قوائم تحمله الملائكة، كما قال ﷺ ﴿فإن الناس يصعقون، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور﴾ (١) (٢).

والعرش في اللغة: عبارة عن السرير الذي للملك، كما قال تعالى عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ (٣) وليس هو فلكا، ولا تفهم منه العرب ذلك، والقرآن إنما نزل بلغة العرب، فهو: سرير ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقبة على العالم، وهو سقف المخلوقات. فمن شعر أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ... ربنا في السماء أمسى كبيرا
بالبناء العالي الذي بهر النا ... س وسوى فوق السماء سريرا
شرجعا لا يناله بصر العـ ... ـين ترى حوله الملائك صورا

الصور هنا: جمع " أصور "، وهو: المائل العنق لنظره إلى العلو. والشرجع: هو العالي المنيف. والسرير: هو العرش في اللغة. ومن شعر عبد الله بن رواحة ﷺ الذي عرض به عن القراءة لامرأته حين اتهمته بجاريته:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا

(١) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢١٧) ، أحمد (٣/٣٣) .
(٢) من حديث صحيح رواه الشيخان وغيرهما . انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٢٦ - ٢٢٧ .
(٣) سورة النمل آية ٢٣ .

ذكره ابن عبد البر وغيره من الأئمة. وروى أبو داود عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله ﷻ من حملة العرش، إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام ﴾ [1] [2]. ورواه ابن أبي حاتم ولفظه: ﴿ تخفق الطير سبعمائة عام ﴾ .

وأما من حرف كلام الله، وجعل العرش عبارة عن الملك، كيف يصنع بقوله تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝١٧ ﴾ [3] ؟ وقوله: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [4]. أيقول: ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ؟ وكان ملكه على الماء ؟ ويكون موسى عليه السلام آخذا من قوائم الملك ؟ ! هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول ؟ !

وأما الكرسي فقال تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ ﴾ [5]. وقد قيل: هو العرش، والصحيح أنه غيره، نقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. روى ابن أبي شيبة في كتاب صفة العرش، والحاكم في مستدركه، وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ ﴾ [6] أنه قال: الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى [7].

وقد روي مرفوعا، والصواب أنه موقوف على ابن عباس.

---

(١) أبو داود السنة (٤٧٢٧) .

(٢) رواه أبو داود في سننه ، برقم : ٤٧٢٧ .

(٣) سورة الحاقة آية ١٧ .

(٤) سورة هود آية ٧ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(٦) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(٧) المستدرك للحاكم ٢ : ٢٨٢ ، موقوفا ، وصححه على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي .

وقال السدي: (السماوات والأرض في جوف الكرسي بين يدي العرش). وقال ابن جرير: قال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿ ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض ﴾ (١).

وقيل: كرسيه علمه، وينسب إلى ابن عباس. والمحفوظ عنه ما رواه ابن أبي شيبة، كما تقدم، ومن قال غير ذلك فليس له دليل إلا مجرد الظن، والظاهر أنه من جراب الكلام المذموم، كما قيل في العرش. وإنما هو- كما قال غير واحد من السلف -: بين يدي العرش كالمرقاة إليه.

اللهُ سُبحَانَهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْش

اللهُ سُبحَانَهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْعَرْشِ مُحِيطٌ بِكُلِ شَيْءٍ وَفَوْقَهُ

قوله: (وهو مستغن عن العرش وما دونه (٢) محيط بكل شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه).

ش: أما قوله: " وهو مستغن عن العرش وما دونه ". فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤). وإنما قال الشيخ رحمه الله هذا الكلام هنا، لأنه لما ذكر العرش والكرسي، ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش، ليبين أن خلقه للعرش [واستواءه] (٥) عليه، ليس لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوقا للسافل، لا يلزم أن يكون السافل حاويا

---

(١) تفسير الطبري ج ٣ ص ٨ طبعة بولاق .

(٢) في المطبوعة " وما دونه منه " وزيادة " منه " لا موضع لها ولا معنى هنا . والظاهر أنا من تخليط الناسخين ، ولم يذكرها الشارح حين شرح هذه الجملة .

(٣) سورة العنكبوت آية ٦ .

(٤) سورة فاطر آية ١٥ .

(٥) في الأصل : (لاستوائه) ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .

للعالي، محيطا به، [حاملا] [1] له، [و] لا أن يكون الأعلى مفتقرا إليه. فانظر إلى السماء، كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها ؟ فالرب تعالى أعظم شأنا وأجل من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه، وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته ﷻ به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش، وعدم إحاطة العرش به، وحصره للعرش، وعدم حصر العرش له. وهذه اللوازم منتفية عن المخلوق.

ونفاة العلو، أهل التعطيل، لو فصلوا بذا التفصيل، لهدوا إلى سواء السبيل، وعلموا مطابقة العقل للت يل، ولسلكوا خلف الدليل، ولكن فارقوا الدليل، فضلوا عن سواء السبيل. والأمر في ذلك كما قال الإمام مالك رحمه الله، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ ﴾ [2] كيف استوى ؟ فقال: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

ويروى هذا الجواب عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا ومرفوعا إلى النبي ﷺ.

وأما قوله: " محيط بكل شيء وفوقه "، وفي بعض النسخ " محيط بكل شيء فوقه " [بحذف الواو] [3] من قوله " فوقه "، والنسخة الأولى هي الصحيحة. ومعناها أنه تعالى محيط بكل شيء وفوق كل شيء. ومعنى الثانية: أنه محيط بكل شيء فوق العرش. وهذه - والله أعلم - إما أن يكون أسقطها بعض النساخ سهوا، ثم استنسخ بعض الناس من تلك النسخة، أو أن بعض المحرفين الضالين أسقطها قصدا للفساد، وإنكارا لصفة الفوقية ! وإلا فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات وليس فوقه شيء من المخلوقات، فلا يبقى لقوله " محيط " - بمعنى: محيط بكل شيء فوق العرش [4] - والحالة

---

(١) في الأصل : (حائلا) . والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٢) سورة الرعد آية ٢ .

(٣) زيادة ضرورية ، لا يستقيم بدونها الكلام .

(٤) في المطبوعة : " فلا يبقى لقوله محيط - إلا أنه بكل شيء محيط - بكل شيء فوق العرش " !! وهو كلام مختلط ، ليس وراءه شيء يفهم . فصححناه ما استطعنا .

هذه -: معنى ! إذ ليس فوق العرش من المخلوقات ما يحاط به، فتعين ثبوت الواو، ويكون المعنى: أنه سبحانه محيط بكل شيء، وفوق كل شيء.

أما كونه محيطا بكل شيء، فقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾ [1] ، ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾ [2] ، ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ ﴾ [3]. وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما المراد: إحاطة عظمته، وسعة علمه وقدرته، وأنا بالنسبة إلى عظمته كالخردلة. كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما السماوات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن - إلا كخردلة في يد أحدكم.

ومن المعلوم - ولله المثل الأعلى - أن الواحد منا إذا كان عنده خردلة، إن شاء قبضها وأحاط قبضته با، وإن شاء جعلها تحته، وهو في الحالين مباين لها، عال عليها فوقها من جميع الوجوه، فكيف بالعظيم الذي لا يحيط بعظمته وصف واصف. فلو شاء لقبض السماوات والأرض اليوم، وفعل با كما يفعل با يوم القيامة، فإنه لا يتجدد به [4] إذ ذاك قدرة ليس عليها الآن، فكيف يستبعد العقل مع ذلك أنه يدنو سبحانه من بعض أجزاء العالم وهو على عرشه فوق سماواته ؟ أو يدني إليه من يشاء من خلقه ؟ فمن نفى ذلك لم يقدره حق قدره. وفي حديث أبي رزين المشهور، الذي رواه عن النبي ﷺ في رؤية الرب تعالى: ﴿ فقال له أبو رزين: كيف يسعنا -يا رسول الله - وهو واحد ونحن جميع ؟ فقال: سأنبئك بمثل ذلك في آلاء الله: هذا القمر، آية من آيات الله، كلكم يراه مخليا به،

---

(١) سورة البروج آية ٢٠ .

(٢) سورة فصلت آية ٥٤ .

(٣) سورة النساء آية ١٢٦ .

(٤) لعل صوابا : (له) ، كما في إحدى النسخ . ن .

والله أكبر من ذلك ﴾ (١) (٢) [وإذ قد] (٣) تبين أنه أعظم وأكبر من كل شيء. فهذا يزيل كل إشكال، ويبطل كل خيال.

بَحْثُ الْفَوْقِيةِ

وأما كونه فوق المخلوقات، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ (٤) ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ (٥) وقال ﷺ في حديث الأوعال المتقدم ذكره: ﴿ والعرش فوق ذلك، والله فوق ذلك كله ﴾ (٦). وقد أنشد عبد الله بن رواحة ﷺ شعره المذكور بين يدي النبي ﷺ وأقره على ما قال: وضحك منه. ﴿ وكذا أنشده حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه قوله:

شـــهدت بـــإذن الله أن محمـــدا	رسـول الذي فوق السماوات من عـــــــــــــــــــــــــــــل
وأن أبـــا يحـــيى ويحـــيى كلاهمـــا	لـــه عمـــل مـــن ربـــه متقـــبل
وأن الـذي عـادى الـيهود ابن مريم	رسـول أتى من عند ذى العرش مرسل
وأن أخـا الأحقـاف إذ قـام فـيهم	

فقال النبي ﷺ وأنا أشهد ﴾ . وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ لما قضى الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: أن رحمتي سبقت غضبي وفي رواية: تغلب

---

(١) أبو داود السنة (٤٧٣١) ، ابن ماجه المقدمة (١٨٠) ، أحمد (١١/٤) .

(٢) هذا معنى جزء من حديث طويل ، رواه عبد الله بن أحمد في مسند الإمام أحمد ، رقم : ١٦٢٧٥ (ج ٤ ص ١٣ - ١٤ من طبعة الحلبي) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ : ٣٣٨ - ٣٤٠ ، ونسبة إليه وإلى الطبراني ، وقال : " وأحد طريقي عبد الله إسنادها متصل ، ورجالها ثقات " .

(٣) في الأصل : (وإذا أفل) . والصواب ما أثبتناه كما في إحدى النسخ ، وكما في " مختصر الصواعق المرسلة " ٢ / ٢٧٥ ، وكما في سائر المصادر التي خرجت الحديث . ن .

(٤) سورة الأنعام آية ١٨ .

(٥) سورة النحل آية ٥٠ .

(٦) أحمد (١٩٧/٢) .

غضبي ﴾ [1] رواه البخاري وغيره. وروى ابن ماجه عن جابر يرفعه، قال: ﴿ بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور، فرفعوا إليه رءوسهم، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [2] فينظر إليهم، وينظرون إليه، فلا يلتفتون إلى شيء من النعيم ما داموا ينظرون ﴾ [3]. وروى مسلم عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ ﴾ [4] بقوله: أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء [5]. والمراد بالظهور هنا: العلو. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ ﴾ [6] أي يعلوه.

فهذه الأسماء الأربعة متقابلة: اسمان منها لأزلية الرب سبحانه وتعالى وأبديته، واسمان لعلوه وقربه. وروى أبو داود عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده، قال: ﴿ أتى رسول الله ﷺ أعرابي، فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، [وضاعت العيال] ونكت الأموال، [وهلكت الأنعام]، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال رسول الله ﷺ ويحك! أتدري ما تقول ؟ وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: ويحك! إنه لا يستشفع بالله

(١) البخاري بدء الخلق (٣٠٢٢) ، مسلم التوبة (٢٧٥١) ، الترمذي الدعوات (٣٥٤٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٩٥) ، أحمد (٣٥٨/٢) .

(٢) سورة يس آية ٥٨ .

(٣) ابن ماجه ، رقم : ١٨٤ ، وإسناده جيد .

(٤) سورة الحديد آية ٣ .

(٥) هو جزء من دعاء عند النوم ، رواه مسلم ٢ : ٣١٥ . وليس في صحيح مسلم ما يشير إلى أنه تفسير للآية . ولم يروه في باب التفسير . ولكن المفهوم أنه معنى هذه الأسماء الحسنى المذكورة في الآية .

(٦) سورة الكهف آية ٩٧ .

على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله ؟ إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته، وقال بأصابعه! مثل القبة [عليه]، وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب ﴾ [١]. [٢]

﴿ وفي قصة سعد بن معاذ يوم بني قريظة، لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم، فقال النبي ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سماوات. ﴾ [٣] وهو حديث صحيح، أخرجه الأموي في مغازيه، وأصله في الصحيحين.

وروى البخاري عن زينب رضي الله عنها: أنا كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: (زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات). وعن عمر رضي الله عنه أنه مر بعجوز فاستوقفته، فوقف معها يحدثها، فقال رجل: يا أمير المؤمنين، حبست الناس بسبب هذه العجوز ؟ فقال: ويلك! أتدري من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سماوات، هذه خولة التي أنزل الله فيها: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [٤] أخرجه الدارمي. وروى عكرمة عن ابن عباس، في قوله: ﴿ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ ﴾ [٥] قال: ولم يستطع أن يقول من فوقهم؛ لأنه قد علم أن الله سبحانه من فوقهم.

ومن سمع أحاديث الرسول ﷺ وكلام السلف، وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر، ولا ريب أن الله سبحانه لما خلق الخلق، لم يخلقهم في ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك، فإنه الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، فتعين أنه خلقهم خارجا عن ذاته، ولو لم

---

(١) أبو داود السنة (٤٧٢٦) .

(٢) أبو داود : ٤٧٢٦ . وكان في المطبوعة هنا محرفا وناقصا ، فصححناه من أبي داود .

(٣) البخاري المناقب (٣٥٩٣) ، مسلم الجهاد والسير (١٧٦٨) ، أبو داود الأدب (٥٢١٥) ، أحمد (٢٢/٣) .

(٤) سورة المجادلة آية ١ .

(٥) سورة الأعراف آية ١٧ .

يتصف سبحانه بفوقية الذات، مع أنه قائم بنفسه غير مخالط للعالم، لكان متصفا بضد ذلك؛ لأن القابل للشيء لا يخلو منه أو من ضده، وضد الفوقية: السفول، وهو مذموم على الإطلاق، لأنه مستقر إبليس وأتباعه وجنوده.

فإن قيل: لا نسلم أنه قابل للفوقية حتى يلزم من نفيها ثبوت ضدها. قيل: لو لم يكن قابلا للعلو والفوقية لم يكن له حقيقة قائمة بنفسها، فمتى أقررتم بأنه ذات قائم بنفسه، غير مخالط للعالم، وأنه موجود في الخارج، ليس وجوده ذهنيا فقط، بل وجوده خارج الأذهان قطعا، وقد علم العقلاء كلهم بالضرورة أن ما كان وجوده كذلك فهو: إما داخل العالم وإما خارج عنه، وإنكار ذلك إنكار ما هو أجل وأظهر من الأمور البديهيات الضرورية بلا ريب، فلا يستدل على ذلك بدليل إلا كان العلم بالمباينة أظهر منه، وأوضح وأبين. وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال، لا نقص فيه، ولا يستلزم نقصا، ولا يوجب محذورا، ولا يخالف كتابا ولا سنة ولا إجماعا، فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلا. فكيف إذا كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله، والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله -: إلا بذلك ؟ فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة، والفطر المستقيمة.

النُّصُوصُ الْوَارِدَةُ الْمُتَنَوِّعَةُ فِي إِثْبَاتِ الْعُلُو

والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده، التي تقرب من عشرين نوعا:

أحدها: التصريح بالفوقية مقرونا بأداة " من " المعينة للفوقية بالذات، كقوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [(١)].

الثاني: ذكرها مجردة عن الأداة، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ ﴾ [(٢)].

(١) سورة النحل آية ٥٠ .

(٢) سورة الأنعام آية ١٨ .

الثالث: التصريح بالعروج [إليه] [١] نحو: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [٢] وقوله ﷺ ﴿ يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ﴾ [٣].

الرابع: التصريح بالصعود إليه. كقوله تعالى: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [٤].

الخامس: التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه، كقوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [٥]. وقوله: ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ ﴾ [٦].

السادس: التصريح بالعلو المطلق، الدال على جميع مراتب العلو، ذاتا وقدرا وشرفا، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [٧] ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [٨] ﴿ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [٩].

السابع: التصريح بتنزيل الكتاب منه، كقوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [١٠] ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [١١] ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ

---

(١) سقطت من الأصل والصواب إثباتا ، كما في سائر النسخ . ن .

(٢) سورة المعارج آية ٤ .

(٣) البخاري مواقيت الصلاة (٥٣٠) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٢) ، النسائي الصلاة (٤٨٥) ، أحمد (٤٨٦/٢) ، مالك النداء للصلاة (٤١٣) .

(٤) سورة فاطر آية ١٠ .

(٥) سورة النساء آية ١٥٨ .

(٦) سورة آل عمران آية ٥٥ .

(٧) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(٨) سورة سبأ آية ٢٣ .

(٩) سورة الشورى آية ٥١ .

(١٠) سورة غافر آية ٢ .

(١١) سورة الزمر آية ١ .

ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ ﴾ [1] ﴿ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [2]، ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [3] ﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَـٰهُ فِي لَيۡلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرًا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [4].

الثامن: التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنا عنده، وأن بعضها أقرب إليه من بعض، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ [5]. ﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ ﴾ [6]. ففرق بين " من له " عموما وبين " من عنده " من ملائكته وعبيده خصوصا، وقول النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه الرب تعالى على نفسه: « أنه عنده فوق العرش » [7].

التاسع: التصريح بأنه تعالى في السماء، وهذا عند المفسرين من أهل السنة على أحد وجهين: إما أن تكون " في " بمعنى " على "، وإما أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز الحمل على غيره.

العاشر: التصريح بالاستواء مقرونا بأداة " على " مختص بالعرش، الذي هو أعلى المخلوقات، مصاحبا في الأكثر لأداة " ثم " الدالة على الترتيب والمهلة.

---

(١) سورة فصلت آية ٢ .

(٢) سورة فصلت آية : ٤٢ .

(٣) سورة النحل آية ١٠٢ .

(٤) سورة الدخان الآيات ١ - ٥ .

(٥) سورة الأعراف آية ٢٠٦ .

(٦) سورة الأنبياء آية ١٩ .

(٧) البخاري التوحيد (٧١١٥) ، مسلم التوبة (٢٧٥١) ، الترمذي الدعوات (٣٥٤٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٩٥) ، أحمد (٢/٣٥٨) .

الحادي عشر: التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى، كقوله ﷺ ﴿إن الله يستحي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرا.﴾ [(١)] والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط - باطل بالضرورة والفطرة، وهذا يجده من نفسه كل داع. كما يأتي إن شاء الله تعالى.

الثاني عشر: التصريح بـ وله كل ليلة إلى سماء الدنيا، والـ ول المعقول عند جميع الأمم إنما يكون من علو إلى سفل.

الثالث عشر: الإشارة إليه حسا إلى العلو، كما أشار إليه من هو أعلم بربه وما يجب له ويمتنع عليه من جميع البشر، لما كان بالمجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله، في اليوم الأعظم، في المكان الأعظم، قال لهم: ﴿أنتم مسئولون عني، فماذا أنتم قائلون ؟﴾ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فرفع أصبعه الكريمة إلى السماء رافعا لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء، قائلا: ﴿اللهم اشهد﴾ [(٢)]. فكأنا نشاهد تلك الأصبع الكريمة وهي مرفوعة إلى الله، وذلك اللسان الكريم وهو يقول لمن رفع أصبعه إليه: اللهم اشهد، ونشهد أنه بلغ البلاغ المبين، وأدى رسالة ربه كما أمر، ونصح أمته غاية النصيحة، فلا يحتاج مع بيانه وتبليغه وكشفه وإيضاحه إلى تنطع المتنطعين، وحذلقة المتحذلقين! والحمد لله رب العالمين.

الرابع عشر: التصريح بلفظ " الأين " كقول أعلم الخلق به، وأنصحهم لأمته، وأفصحهم بيانا عن المعنى الصحيح، بلفظ لا يوهم باطلا بوجه: " أين الله "، في غير موضع.

الخامس عشر: شهادته ﷺ لمن قال إن ربه في السماء - بالإيمان.

السادس عشر: إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء، ليطلع إلى إله

---

(١) الترمذي الدعوات (٣٥٥٦) ، أبو داود الصلاة (١٤٨٨) ، ابن ماجه الدعاء (٣٨٦٥) ، أحمد (٤٣٨/٥) .

(٢) مسلم الحج (١٢١٨) ، أبو داود المناسك (١٩٠٥) ، ابن ماجه المناسك (٣٠٧٤) ، أحمد (٣٢١/٣) ، الدارمي المناسك (١٨٥٠) .

موسى فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السماوات، فقال: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ ﴾ (١). فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني، ومن أثبته فهو موسوي محمدي.

السابع عشر: إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة، فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدة مرار.

الثامن عشر: النصوص الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى، من الكتاب والسنة، وإخبار النبي ﷺ أنم يرونه كرؤية الشمس والقمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، فلا يرونه إلا من فوقهم، ﴿ كما قال ﷺ بينا أهل الجنة في نعيمهم، إذ سطع لهم نور، فرفعوا رءوسهم، فإذا الجبار جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة، سلام عليكم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ (٢) ثم يتوارى عنهم، وتبقى رحمته وبركته عليهم في ديارهم ﴾ . رواه الإمام أحمد في المسند وغيره، من حديث جابر رضي الله عنه (٣). ولا يتم إنكار الفوقية إلا بإنكار الرؤية. ولهذا طرد الجهمية الشقين، وصدق أهل السنة بالأمرين معا، وأقروا بهما، وصار من أثبت الرؤية ونفى العلو مذبذبا بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء! وهذه الأنواع من الأدلة لو بسطت أفرادها لبلغت نحو ألف دليل، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله! وهيهات له بجواب صحيح عن بعض ذلك!

كَلَامُ السلَفِ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْعُلُو

وكلام السلف في إثبات صفة العلو كثير جدا: فمنه: ما روى شيخ الإسلام أبو

---

(١) سورة غافر الآيتان ٣٦ - ٣٧ .

(٢) سورة يس آية ٥٨ .

(٣) سبق ذكره في ص : ٢٦١ من رواية ابن ماجه .

إسماعيل الأنصاري في كتابه: الفاروق، بسنده إلى مطيع البلخي: أنه سأل أبا حنيفة عمن قال: لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض ؟ فقال: قد كفر؛ لأن الله يقول: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝ ﴾ [(1)] وعرشه فوق سبع سماوات، قلت: فإن قال: إنه على العرش، ولكن يقول: لا أدري العرش في السماء أم في الأرض ؟ قال: هو كافر، لأنه أنكر أنه في السماء، فمن أنكر أنه في السماء فقد كفر. وزاد غيره: لأن الله في أعلى عليين، وهو يدعى من أعلى، لا من أسفل. انتهى.

ولا يلتفت إلى من أنكر ذلك ممن ينتسب إلى مذهب أبي حنيفة، فقد انتسب إليه طوائف معتزلة وغيرهم، مخالفون له في كثير من اعتقاداته. وقد ينتسب إلى مالك والشافعي وأحمد من يخالفهم في بعض اعتقاداتم. وقصة أبي يوسف في استتابة بشر المريسي، لما أنكر أن يكون الله ﷻ فوق العرش - مشهورة، رواها عبد الرحمن بن أبي حاتم وغيره.

ومن تأول " فوق "، بأنه خير من عباده وأفضل منهم، وأنه خير من العرش وأفضل منه، كما يقال: الأمير فوق الوزير، والدينار فوق الدرهم -: فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة، وتشمئز منه القلوب الصحيحة! فإن قول القائل ابتداء: الله خير من عباده، وخير من عرشه - من جنس قوله: الثلج بارد، والنار حارة، والشمس أضوأ من السراج، والسماء أعلى من سقف الدار، والجبل أثقل من الحصى، ورسول الله أفضل من اليهود، والسماء فوق الأرض!! وليس في ذلك تمجيد ولا تعظيم ولا مدح، بل هو من أرذل الكلام وأسمجه وأهجنه! فكيف يليق بكلام الله، الذي لو اجتمع الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لما أتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ؟ ! بل في ذلك تنقص، كما قيل في المثل السائر:

ألم تـر أن السـيف يـنقص قدره ... إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

ولو قال قائل: الجوهر فوق قشر البصل وقشر السمك! لضحك منه العقلاء، للتفاوت

(1) سورة طه آية ٥ .

الذي بينهما، فإن التفاوت الذي بين الخالق والمخلوق أعظم وأعظم. بخلاف ما إذا كان المقام يقتضي ذلك، بأن كان احتجاجا على مبطل، كما في قول يوسف الصديق عليه السلام: ﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١) وقوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ (٢) ، ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٣).

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية في ضمن ثبوت " الفوقية " المطلقة من كل وجه، فله سبحانه وتعالى فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات. ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقص. وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه.

فإن قالوا: بل علو المكانة لا المكان ؟ فالمكانة: تأنيث المكان، واله لة: تأنيث اله ل، فلفظ " المكانة واله لة " تستعمل في المكانات النفسانية والروحانية، كما يستعمل لفظ " المكان واله ل " في الأمكنة الجسمانية، فإذا قيل: لك في قلوبنا م لة، وم لة فلان في قلوبنا وفي نفوسنا أعظم من م لة فلان، كما جاء في الأثر: " إذا أحب أحدكم أن يعرف كيف م لته عند الله، فلينظر كيف م لة الله في قلبه، فإن الله ي ل العبد من نفسه حيث أنزله العبد من قلبه ". فقوله: " م لة الله في قلبه ": هو ما يكون في قلبه من معرفة الله ومحبته وتعظيمه وغير ذلك، فإذا عرف أن "المكانة واله لة": تأنيث المكان واله ل، والمؤنث فرع على المذكر في اللفظ والمعنى، وتابع له، فعلو المثل الذي يكون في الذهن يتبع علو الحقيقة، إذا كان مطابقا كان حقا، وإلا كان باطلا.

فإن قيل: المراد علوه في القلوب، وأنه أعلى في القلوب من كل شيء - قيل: وكذلك هو، وهذا العلو مطابق لعلوه في نفسه على كل شيء، فإن لم يكن عاليا بنفسه على كل شيء، كان علوه في القلوب غير مطابق، كمن جعل ما ليس بأعلى أعلى.

---

(١) سورة يوسف : ٣٩ .

(٢) سورة النمل آية : ٥٩ .

(٣) سورة طه آية ٧٣ .

ثُبوتُ عُلُو اللهِ سُبْحَانَهُ بِالعَقْلِ مِنْ وُجُوهٍ

وعلوه سبحانه وتعالى كما هو ثابت بالسمع، ثابت بالعقل والفطرة. أما ثبوته بالعقل، فمن وجوه:

أحدها: العلم البديهي القاطع بأن كل موجودين، إما أن يكون أحدهما ساريا في الآخر قائما به كالصفات، وإما أن يكون قائما بنفسه بائنا من الآخر.

الثاني: أنه لما خلق العالم، فإما أن يكون خلقه في ذاته أو خارجا عن ذاته، والأول باطل: أما أولا: فبالاتفاق، وأما ثانيا: فلأنه يلزم أن يكون محلا للخسائس والقاذورات تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. والثاني: يقتضي كون العالم واقعا خارج ذاته، فيكون منفصلا، فتعينت المباينة؛ لأن القول بأنه غير متصل بالعالم وغير منفصل عنه - غير معقول.

الثالث: أن كونه تعالى لا داخل العالم ولا خارجه -: يقتضي نفي وجوده بالكلية؛ لأنه غير معقول، فيكون موجودا إما داخله وإما خارجه. والأول باطل، فتعين الثاني، فلزمت المباينة.

وأما ثبوته بالفطرة، فإن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله تعالى. وذكر محمد بن طاهر المقدسي أن الشيخ أبا جعفر الهمذاني حضر مجلس الأستاذ أبي المعالي الجويني المعروف بإمام الحرمين، وهو يتكلم في نفي صفة العلو، ويقول: كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان! فقال الشيخ أبو جعفر: أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا ؟ فإنه ما قال عارف قط: يا الله، إلا وجد في قلبه ضرورة تطلب العلو، لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع [هذه] (١) الضرورة عن أنفسنا ؟ قال: فلطم أبو المعالي على رأسه ونزل، وأظنه قال: وبكى! وقال: حيرني الهمذاني حيرني! أراد الشيخ: أن هذا أمر فطر الله عليه

(١) في الأصل : (بذه) والصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ ، وكما في الفتاوى ٤ / ٦١ . ن .

عباده، من غير أن يتلقوه من المرسلين، يجدون في قلوبهم طلبا ضروريا يتوجه إلى الله ويطلبه في العلو.

وقد اعترض على الدليل العقلي بإنكار بداهته؛ لأنه أنكره جمهور العقلاء، فلو كان بديهيا لما كان مختلفا فيه بين العقلاء، بل هو قضية وهمية خيالية ؟

والجواب عن هذا الاعتراض مبسوط في موضعه، ولكن أشير إليه هنا إشارة مختصرة، وهو أن يقال: إن العقل إن قبل قولكم فهو لقولنا أقبل، وإن رد العقل قولنا فهو لقولكم أعظم ردا، فإن كان قولنا باطلا في العقل، فقولكم أبطل، وإن كان قولكم حقا مقبولا في العقل، فقولنا أولى أن يكون مقبولا في العقل. فإن دعوى الضرورة مشتركة، فإنا نقول: نعلم بالضرورة بطلان قولكم، وأنتم تقولون كذلك، فإذا قلتم: تلك الضرورة التي تحكم ببطلان قولنا هي من حكم الوهم لا من حكم العقل، قابلناكم بنظير قولكم، وعامة فطر الناس - ليسوا منكم ولا منا - موافقون لنا على هذا، فإن كان حكم فطر بني آدم مقبولا ترجحنا عليكم، وإن كان مردودا غير مقبول بطل قولكم بالكلية، فإنكم إنما بنيتم قولكم على ما تدعون أنه مقدمات معلومة بالفطرة الآدمية، وبطلت عقلياتنا أيضا، وكان السمع الذي جاءت به الأنبياء معنا لا معكم، فنحن مختصون بالسمع دونكم، والعقل مشترك بيننا وبينكم.

فإن قلتم: أكثر العقلاء يقولون بقولنا ؟ قيل: ليس الأمر كذلك، فإن الذين يصرحون بأن صانع العالم ليس هو فوق العالم [وليس فوق العالم شيء موجود] (١) وأنه لا مباين للعالم ولا حال في العالم -: طائفة من النظار، وأول من عرف عنه ذلك في الإسلام جهم بن صفوان وأتباعه.

خَطأُ مَنْ ظَن أن السمَاءَ قِبْلَةُ الدعَاءِ

واعترض على الدليل الفطري: أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلة للدعاء، كما أن

---

(١) سقطت من الأصل ، وأثبتناها من بعض النسخ . ن .

الكعبة قبلة للصلاة، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس في جهة الأرض؟.

وأجيب على هذا الاعتراض من وجوه:

أحدها: أن قولكم: إن السماء قبلة للدعاء - لم يقله أحد من سلف الأمة، ولا أنزل الله به من سلطان، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها.

الثاني: أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة، وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة، فمن قال إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة، أو إن له قبلتين: إحداهما الكعبة والأخرى السماء - فقد ابتدع في الدين، وخالف جماعة المسلمين.

الثالث: أن القبلة: هي ما يستقبله العابد بوجهه، كما تستقبل الكعبة في الصلاة والدعاء، والذكر والذبح، وكما يوجه المحتضر والمدفون، ولذلك سميت " وجهة "، والاستقبال خلاف الاستدبار، فالاستقبال بالوجه، والاستدبار بالدبر، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فهذا لا يسمى " قبلة "، لا حقيقة ولا مجازا، فلو كانت السماء قبلة الدعاء لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها، وهذا لم يشرع، والموضع الذي ترفع اليد إليه لا يسمى " قبلة "، لا حقيقة ولا مجازا، ولأن القبلة في الدعاء أمر شرعي تتبع فيه الشرائع، ولم تأمر الرسل أن الداعي يستقبل السماء بوجهه، بل نهوا عن ذلك.

ومعلوم أن [التوجه] (١) بالقلب، واللجأ والطلب الذي يجده الداعي من نفسه أمر فطري، يفعله المسلم والكافر والعالم والجاهل، وأكثر ما يفعله المضطر والمستغيث بالله، كما فطر على أنه إذا مسه الضر يدعو الله، مع أن أمر القبلة مما يقبل النسخ والتحويل،

---

(١) في الأصل : (التوحيد) . ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

كما تحولت القبلة من الصخرة إلى الكعبة، وأمر [التوجه] [١] في الدعاء إلى الجهة العلوية مركوز في الفطر، والمستقبل للكعبة يعلم أن الله تعالى ليس هناك، بخلاف الداعي، فإنه يتوجه إلى ربه وخالقه، ويرجو الرحمة أن تـ ل من عنده.

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له، لا بأن يميل إليه إذ هو تحته! هذا لا يخطر في قلب ساجد. ولكن يحكى عن بشر المريسي أنه سمع وهو يقول في سجوده: سبحان ربي الأسفل!! تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا. وإن من أفضى به النفي إلى هذه الحال حري أن يتزندق، إن لم يتداركه الله برحمته، وبعيد من مثله الصلاح، قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [٢] وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ ﴾ [٣]. فمن لم يطلب الاهتداء من مظانه يعاقب بالحرمان. نسأل الله العفو والعافية.

وقوله: " وقد أعجز عن الإحاطة خلقه " - أي لا يحيطون به علما ولا رؤية، ولا غير ذلك من وجوه الإحاطة، بل هو سبحانه محيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء.

اتخذ الله إبراهيم خليلا

اتخذ الله إبراهيم خليلا وكلم موسى تكليما

قوله: (ونقول: إن الله اتخذ إبراهيم خليلا، وكلم موسى تكليما، إيمانا وتصديقا وتسليما).

ش: قال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ ﴾ [٤] وقال تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ

(١) في الأصل : (التوحيد) . ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٢) سورة الأنعام آية ١١٠ .

(٣) سورة الصف آية ٥ .

(٤) سورة النساء آية ١٢٥ .

مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴿١٦٤﴾ ﴾ [1]. الخلة: كمال المحبة. وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين، زعما منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة! وكذلك أنكروا حقيقة التكليم، كما تقدم، وكان أول من ابتدع هذا في الإسلام هو الجعد بن درهم، في أوائل المائة الثانية فضحى به خالد بن عبد الله القسري أمير العراق والمشرق بواسط، خطب الناس يوم الأضحى فقال: أيها الناس ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليما، ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من علماء التابعين رضي الله عنهم، فجزاه الله عن الدين وأهله خيرا.

وأخذ هذا المذهب عن الجعد - الجهم بن صفوان، فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قول " الجهمية ". فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان بها، ثم انتقل ذلك إلى المعتزلة أتباع عمرو بن عبيد، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون، حتى امتحن أئمة الإسلام، ودعوهم إلى الموافقة لهم على ذلك. وأصل هذا مأخوذ عن المشركين والصابئة، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلا، وموسى كليما؛ لأن الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ... ولذا سمي الخليل خليلا

مَحَبةُ اللهِ وَخلتُهُ كَمَا يَليقُ بِهِ سُبْحَانَهُ

ولكن محبته وخلته كما يليق به تعالى، كسائر صفاته. ويشهد لما دلت عليه الآية الكريمة ما ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: ﴿ لو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن صاحبكم خليل الله ﴾ [2] ، يعني نفسه.

---

(١) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٢) البخاري المناقب (٣٤٥٦) ، أحمد (١/٢٧٠) .

وفي رواية: ﴿ إني أبرأ إلى كل خليل من خلته، ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ﴾ [(١)].

وفي رواية: ﴿ إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا ﴾ [(٢)].

فبين ﷺ أنه لا يصلح له أن يتخذ من المخلوقين خليلا. وأنه لو أمكن ذلك لكان أحق الناس به أبو بكر الصديق. مع أنه ﷺ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصا، ﴿ كقوله لمعاذ: والله إني لأحبك ﴾ [(٣)]. وكذلك قوله للأنصار. وكان زيد بن حارثة حب رسول الله ﷺ وابنه أسامة حبه. وأمثال ذلك. ﴿ وقال له عمرو بن العاص: أي الناس أحب إليك ؟ قال: عائشة، قال: فمن الرجال ؟ قال: أبوها ﴾ [(٤)].

الْخِلةُ أَخَص مِنَ الْمَحَبةِ

فعلم أن الخلة أخص من مطلق المحبة، والمحبوب بها لكمالها يكون محبوبا لذاته، لا لشيء آخر، إذ المحبوب لغيره هو مؤخر في الحب عن ذلك الغير، ومن كمالها لا تقبل الشركة [ولا] المزاحمة، لتخللها المحب، ففيها كمال التوحيد وكمال الحب. ولذلك لما اتخذ الله إبراهيم خليلا، وكان إبراهيم قد سأل ربه أن يهب له ولدا صالحا، فوهب له إسماعيل، فأخذ هذا الولد شعبة من قلبه، فغار الخليل على قلب خليله أن يكون فيه مكان لغيره، فامتحنه به بذبحه، ليظهر سر الخلة في تقديمه محبة خليله على محبة ولده، فلما استسلم لأمر ربه، وعزم على فعله، وظهر سلطان الخلة في الإقدام على ذبح الولد إيثارا

---

(١) مسلم فضائل الصحابة (٢٣٨٣) ، الترمذي المناقب (٣٦٥٥) ، ابن ماجه المقدمة (٩٣) ، أحمد (٣٨٩/١) .

(٢) مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٢) .

(٣) الترمذي الزهد (٢٣٥٠) .

(٤) البخاري المغازي (٤١٠٠) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٨٤) ، الترمذي المناقب (٣٨٨٥) ، أحمد (٢٠٣/٤) .

لمحبة خليله على محبته، نسخ الله ذلك عنه، وفداه بالذبح العظيم؛ لأن المصلحة في الذبح كانت ناشئة من العزم وتوطين النفس على ما أمر، فلما حصلت هذه المصلحة عاد الذبح مفسدة، فنسخ في حقه، وصارت الذبائح والقرابين من الهدايا والضحايا سنة في أتباعه إلى يوم القيامة. وكما أن م لة الخلة الثابتة لإبراهيم صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما تقدم، كذلك م لة التكليم الثابتة لموسى صلوات الله عليه قد شاركه فيها نبينا ﷺ كما ثبت ذلك في حديث الإسراء.

الْجَوَابُ عَما فِي الصلَاةِ الْإِبْرَاهِيمِية مِنْ إِشْكَالٍ مُتَوَهمٍ

وهنا سؤال مشهور، وهو: أن النبي ﷺ أفضل من إبراهيم ﷺ فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم، مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه ؟ وكيف الجمع بين هذين الأمرين المتنافيين ؟ وقد أجاب عنه العلماء بأجوبة عديدة، يضيق هذا المكان عن بسطها، وأحسنها: أن آل إبراهيم فيهم الأنبياء الذين ليس في آل محمد مثلهم، فإذا طلب للنبي ﷺ ولآله من الصلاة مثل ما لإبراهيم وآله - وفيهم الأنبياء - حصل لآل محمد ما يليق بم، فإنم لا يبلغون مراتب الأنبياء، وتبقى الزيادة التي للأنبياء وفيهم إبراهيم لمحمد ﷺ فيحصل له من المزية ما لم يحصل لغيره.

وأحسن من هذا: أن النبي ﷺ من آل إبراهيم، بل هو أفضل آل إبراهيم، فيكون قولنا: " كما صليت على آل إبراهيم " - متناولا الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم.

مَا خَص اللهُ بِهِ بَيْتَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ الْخَصَائِصِ

ولما كان بيت إبراهيم عليه السلام أشرف بيوت العالم على الإطلاق، خصهم الله بخصائص:

منها: أنه جعل فيه النبوة والكتاب، فلم يأت بعد إبراهيم نبي إلا من أهل بيته.

ومنها: أنه سبحانه جعلهم أئمة يهدون بأمره إلى يوم القيامة، فكل من دخل الجنة من أولياء الله بعدهم فإنما دخل من طريقهم وبدعوتم.

ومنها: أنه سبحانه اتخذ منهم الخليلين، كما تقدم ذكره.

ومنها: أنه جعل صاحب هذا البيت إماما للناس. قال تعالى: ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ (١).

ومنها: أنه أجرى على يديه بناء بيته الذي جعله قياما للناس ومثابة للناس وأمنا، وجعله قبلة لهم وحجا، فكان ظهور هذا البيت في الأكرمين.

ومنها: أنه أمر عباده أن يصلوا على أهل البيت. إلى غير ذلك من الخصائص.

الْإِيمَانُ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْكُتُبِ الْمُنزلَةِ وَالْمُرْسَلِينَ

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْمَلَائِكَةِ وَالْكُتُبِ الْمُنزلَةِ وَالْمُرْسَلِينَ

قوله: (ونؤمن بالملائكة والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين).

ش: هذه الأمور من أركان الإيمان، قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٢) - الآيات، وقال تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ (٣) - الآية.

فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة، بقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (٤). وقال ﷺ في الحديث المتفق

---

(١) سورة البقرة آية ١٢٤ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

(٣) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٤) سورة النساء آية ١٣٦ .

على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله للنبي ﷺ عن الإيمان، فقال: ﴿أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره﴾ [1]. فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل.

إِنْكَارُ الْفَلَاسِفَةِ لِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع -: فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكارا الفلاسفة المسمون عند من يعظمهم بالحكماء، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر، فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود مجرد لا ماهية له ولا حقيقة، فلا يعلم الجزئيات بأعيانها، وكل موجود في الخارج فهو جزئي، ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته، وإنما العالم عندهم لازم له أزلا وأبدا، وإن سموه مفعولا له فمصانعة ومصالحة للمسلمين في اللفظ، وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق ولا مقدور عليه، وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته! فهذا إيمانهم بالله، وأما كتبه عندهم، فإنهم لا يصفونه بالكلام، فلا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكي النفس طاهر، متميز عن النوع الإنساني بثلاث خصائص: قوة الإدراك وسرعته، لينال [من] العلم أعظم مما يناله غيره! وقوة النفس، ليؤثر بها في هيولى العالم بقلب صورة إلى صورة ! وقوة التخييل، ليخيل بها القوى العقلية في أشكال محسوسة، وهي الملائكة عندهم! وليس في الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجيء وترى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها في الأعيان.

وأما اليوم الآخر، فهم أشد الناس تكذيبا به وإنكارا له في الأعيان. وعندهم أن هذا

---

(1) مسلم الإيمان (٨) ، الترمذي الإيمان (٢٦١٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠) ، أبو داود السنة (٤٦٩٥) ، ابن ماجه المقدمة (٦٣) ، أحمد (٢٧/١) .

العالم لا يخرب، ولا تنشق السماوات ولا تنفطر، ولا تنكدر النجوم، ولا تكور الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار! كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها في الخارج، كما يفهم منها أتباع الرسل. فهذا إيمان هذه الطائفة - الذليلة الحقيرة - بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وهذه هي أصول الدين الخمسة.

أُصُولُ الْمُعْتَزِلَةِ الْخَمْسَةِ

وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التي هدموا با كثيرا من الدين: فإنم بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض، الذي هو الموصوف والصفة عندهم، واحتجوا بالصفات التي هي الأعراض، على حدوث الموصوف الذي هو الجسم، وتكلموا في التوحيد على هذا الأصل، فنفوا عن الله كل صفة، تشبيها بالصفات الموجودة في الموصوفات التي هي الأجسام، ثم تكلموا بعد ذلك في أفعاله التي هي القدر، وسموا ذلك "العدل"، ثم تكلموا في النبوة والشرائع والأمر والنهي والوعد والوعيد، وهي مسائل الأسماء والأحكام، التي هي الم لة بين الم لتين، ومسألة إنفاذ الوعيد، ثم تكلموا في إلزام الغير بذلك، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتال. فهذه أصولهم الخمسة، التي وضعوها بإزاء أصول الدين الخمسة التي بعث با الرسول.

والرافضة المتأخرون، جعلوا الأصول أربعة: التوحيد، والعدل، والنبوة، والإمامة.

أُصُولُ أَهْلِ السنةِ تَابِعَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرسُولُ

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول. وأصل الدين: الإيمان بما جاء به الرسول، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة - لما تضمنتا هذا الأصل -: لهما شأن عظيم ليس لغيرهما، ففي الصحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عمرو،

عن النبي ﷺ قال: « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه »[١]. وفي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: « بينا جبرائيل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، ف ل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ي ل قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشر بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته »[٢] [٣].

وقال أبو طالب المكي: أركان الإيمان سبعة، يعني هذه الخمسة، والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار. وهذا حق، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية. وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة.

أَصْنَافُ الْمَلَائِكَةِ وَتَنَوعُ أَعْمَالِهِمُ الَتِي كُلِفُوا بِهَا

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسماوات والأرض، فكل حركة في العالم فهي ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝ ﴾[٤] ﴿ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝ ﴾[٥]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هي النجوم. وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة، وأنا موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما

---

(١) البخاري فضائل القرآن (٤٧٢٣) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٧) ، الترمذي فضائل القرآن (٢٨٨١) ، أبو داود الصلاة (١٣٩٧) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٦٩) ، أحمد (١٢١/٤) ، الدارمي الصلاة (١٤٨٧) .

(٢) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٦) ، النسائي الافتتاح (٩١٢) .

(٣) صحيح مسلم ١ : ٢٢٢ .

(٤) سورة النازعات آية ٥ .

(٥) سورة الذاريات آية ٤ .

يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال في القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونا، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتا ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتا وغرسها وعمل آلاتا ملائكة، فالملائكة أعظم جنود الله، ومنهم: المرسلات عرفا والناشرات نشرا والفارقات فرقا والملقيات ذكرا. ومنهم: النازعات غرقا، والناشطات نشطا، والسابحات سبحا، فالسابقات سبقا. ومنهم: الصافات صفا، فالزاجرات زجرا، فالتاليات ذكرا.

ومعنى جمع التأنيث في ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات، التي مفردها: "فرقة" و "طائفة" و "جماعة"، ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وكلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التي لا يحصيها إلا الله.

المَلَكُ رَسُولٌ مُنفذٌ لِأمْرِ مُرْسِلِهِ

ولفظ " الملك " يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء، بل الأمر كله لله الواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [1] ، ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [2] ، ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [3] ، ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [4] فهم عباد مكرمون، منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم، ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به. لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده: ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٧ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٥٥ .

(٣) سورة الأنبياء آية ٢٨ .

(٤) سورة النحل آية ٥٠ .

﴿وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ٢٠﴾ [1] ومنهم الأملاك الثلاثة: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، الموكلون بالحياة، فجبريل موكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله في خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ي لون الأمر من عنده في أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السماوات بهم، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم.

آياتٌ كثيرَةٌ وَرَدَتْ في ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ وَأَصْنَافِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه في مواضع التشريف، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له، وبراءتهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص. قال تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [2]، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [3]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [4]، ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [5]، ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ

(١) سورة الأنبياء الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٨٥ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٨ .

(٤) سورة الأحزاب آية ٤٣ .

(٥) سورة غافر آية ٧ .

مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [1] ، ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [2] ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴾ [3] ، ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [4] ، ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ [5] ، ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [6] ، ﴿ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [7] ، ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [8].

وكذلك الأحاديث طافحة بذكرهم. فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التي هي أركان الإيمان.

مَذَاهِبُ الناسِ فِي الْمُفَاضَلَةِ بيْنَ الْمَلَائِكَةِ وَصَالِحِي الْبَشَرِ

وقد تكلم الناس في المفاضلة بين الملائكة وصالحي البشر، وينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحي البشر والأنبياء فقط على الملائكة، وإلى المعتزلة تفضيل الملائكة، وأتباع الأشعري على قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم من يقف ولا يقطع في ذلك قولا. وحكي عن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة. وحكي ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية.

وقالت الشيعة: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة. ومن الناس من فصل تفصيلا

---

(١) سورة الزمر آية ٧٥ .

(٢) سورة الأنبياء آية ٢٦ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٦ .

(٤) سورة فصلت آية ٣٨ .

(٥) سورة الانفطار آية ١١ .

(٦) سورة عبس آية ١٦ .

(٧) سورة المطففين آية ٢١ .

(٨) سورة الصافات آية : ٨ .

آخر. ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض. وكنت ترددت في الكلام على هذه المسألة، لقلة ثمرتها، وأنا قريب مما لا يعني، و ﴿ من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه ﴾ [(١)].

والشيخ رحمه الله لم يتعرض إلى هذه المسألة بنفي ولا إثبات، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصدا، فإن الإمام أبا حنيفة رحمه الله وقف في الجواب عنها [على] ما ذكره في " مآل الفتاوى " [(٢)] فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب، وعد منها: التفضيل بين الملائكة والأنبياء.

وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أي الفريقين أفضل، فإن هذا لو كان من الواجبات لبين لنا نصا، وقد قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [(٣)] ، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ ﴾ [(٤)].

وفي الصحيح: ﴿ إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء - رحمة بكم غير نسيان - فلا تسألوا عنها ﴾ .

فالسكوت عن الكلام في هذه المسألة نفيا وإثباتا والحالة هذه أولى.

ولا يقال: إن هذه المسألة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة؛ لأن الأدلة هنا متكافئة، على ما أشير إليه، إن شاء الله تعالى. وحملني على بسط الكلام هنا: أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: كان الملك خادما للنبي ﷺ ! أو: أن بعض الملائكة خدام بني آدم !! يعنون الملائكة الموكلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع،

---

(١) الترمذي الزهد (٢٣١٧) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٧٦) .

(٢) مآل الفتاوى - في كشف الظنون أنه " للإمام ناصر الدين السمرقندي الحنفي أتمه في شعبان سنة ٥٤٩ " .

(٣) سورة المائدة آية ٣ .

(٤) سورة مريم آية ٦٤ .

الجانبة للأدب، والتفضيل إذا كان على وجه التنقص أو الحمية والعصبية للجنس -: لا شك في رده، وليس هذه المسألة نظير المفاضلة بين الأنبياء، فإن تلك قد وجد فيها نص، وهو قوله تعالى: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (١) الآية، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (٢). وقد تقدم الكلام في ذلك عند قول الشيخ: " وسيد المرسلين "، يعني النبي ﷺ.

والمعتبر رجحان الدليل، ولا يهجر القول لأن بعض أهل الأهواء وافق عليه، بعد أن تكون المسألة مختلفا فيها بين أهل السنة. وقد كان أبو حنيفة رضي الله عنه يقول أولا بتفضيل الملائكة على البشر، ثم قال بعكسه، والظاهر أن القول بالتوقف أحد أقواله. والأدلة في هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل، لا على الأفضلية، ولا نزاع في ذلك.

وللشيخ تاج الدين الفزاري رحمه الله مصنف سماه " الإشارة في البشارة " في تفضيل البشر على الملك، قال في آخره: اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام، التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد. ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن، وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه، لم يخل كلامه عن ضعف واضطراب. انتهى، والله الموفق للصواب.

فمما استدل به على تفضيل الأنبياء على الملائكة: أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، وذلك دليل على تفضيله عليهم، ولذلك امتنع إبليس واستكبر وقال، ﴿ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ (٣). قال الآخرون: إن سجود الملائكة كان امتثالا لأمر ربهم، وعبادة وانقيادا وطاعة له، وتكريما لآدم وتعظيما، ولا يلزم من ذلك الأفضلية، كما لم

---

(١) سورة البقرة آية ٢٥٣ .

(٢) سورة الإسراء آية ٥٥ .

(٣) سورة الإسراء آية ٦٢ .

يلزم من سجود يعقوب لابنه عليهما السلام تفضيل ابنه عليه، ولا تفضيل الكعبة على بني آدم بسجودهم إليها امتثالا لأمر ربهم. وأما امتناع إبليس، فإنه عارض النص برأيه وقياسه الفاسد بأنه خير منه، وهذه المقدمة الصغرى، والكبرى محذوفة، تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول! وكلتا المقدمتين فاسدة: أما الأولى: فإن التراب يفوق النار في أكثر صفاته، ولهذا خان إبليس عنصره، فأبى واستكبر، فإن من صفات النار طلب العلو والخفة والطيش والرعونة، وإفساد ما تصل إليه ومحقه وإهلاكه وإحراقه، ونفع آدم عنصره، في التوبة والاستكانة، والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب المغفرة، فإن من صفات التراب الثبات والسكون والرصانة، والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل، وما دنا منه ينبت ويزكو، وينمي ويبارك فيه، ضد النار.

وأما المقدمة الثانية، وهي: أن الفاضل لا يسجد للمفضول - فباطلة، فإن السجود طاعة لله وامتثال لأمره، ولو أمر الله عباده أن يسجدوا لحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة، ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد، وإن كان فيه تكريمه وتعظيمه، وإنما يدل على فضله. قالوا: وقد يكون قوله: ﴿ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ (1) بعد طرده لامتناعه عن السجود له، لا قبله، فينتفي الاستدلال به.

ومنه: أن الملائكة لهم عقول وليست لهم شهوات، والأنبياء لهم عقول وشهوات، فلما نهوا أنفسهم عن الهوى، ومنعوها عما تميل إليه الطباع، كانوا بذلك أفضل. وقال الآخرون: يجوز أن يقع من الملائكة [من] مداومة الطاعة وتحمل العبادة وترك الونى والفتور فيها - ما يفي بتجنب الأنبياء شهواتهم، مع طول مدة عبادة الملائكة.

ومنه: أن الله تعالى جعل [الملائكة] رسلا إلى الأنبياء، وسفراء بينه وبينهم. وهذا الكلام قد اعتل به من قال: إن الملائكة أفضل، واستدلالهم به أقوى، فإن الأنبياء المرسلين،

---

(1) سورة الإسراء آية ٦٢ .

إن ثبت تفضيلهم على المرسل إليهم بالرسالة، ثبت تفضيل الرسل من الملائكة إليهم عليهم، فإن الرسول الملكي يكون رسولا إلى الرسول البشري.

ومنه: قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [1] الآيات. قال الآخرون: وهذا دليل على الفضل لا على التفضيل، وآدم والملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم الله، وليس الخضر أفضل من موسى، بكونه علم ما لم يعلمه موسى، وقد سافر موسى وفتاه في طلب العلم إلى الخضر، وتزود لذلك، وطلب موسى منه العلم صريحا، وقال له الخضر: إنك على علم من علم الله، إلى آخر كلامه. ولا الهدهد أفضل من سليمان عليه السلام، بكونه أحاط بما لم يحط به سليمان علما.

ومنه: قوله تعالى: ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [2]. قال الآخرون: هذا دليل الفضل لا الأفضلية، وإلا لزم تفضيله على محمد ﷺ. فإن قلتم: هو من ذريته ؟ فمن ذريته البر والفاجر، بل يوم القيامة إذا قيل لآدم: ﴿ ابعث من ذريتك بعثا إلى النار، يبعث من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحدا إلى الجنة ﴾ [3]. فما بال هذا التفضيل سرى إلى هذا الواحد من الألف فقط.

ومنه: قول عبد الله بن سلام رضي الله عنه " ما خلق الله خلقا أكرم عليه من محمد ﷺ "، الحديث. فالشأن في ثبوته، وإن صح عنه فالشأن في ثبوته في نفسه، فإنه يحتمل أن يكون من الإسرائيليات.

ومنه: حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون، ونحن نسبح بحمدك، ولا

---

(١) سورة البقرة آية ٣١ .

(٢) سورة ص آية : ٧٥ .

(٣) الترمذي تفسير القرآن (٣١٦٩) ، أحمد (٤/٤٣٥) .

نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة ؟ قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي كمن قلت له: كن فكان ﴾ . أخرجه الطبراني. وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل عن عروة بن رويم، أنه قال: أخبرني الأنصاري، عن النبي ﷺ ﴿ أن الملائكة قالوا ﴾ ، الحديث، وفيه: ﴿ وينامون ويستريحون، فقال الله تعالى: لا، فأعادوا القول ثلاث مرات، كل ذلك يقول: لا ﴾ .

والشأن في ثبوتهما، فإن في سنديهما مقالا، وفي متنهما شيئا، فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة ؟ وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم، متشوقون إلى ما سواها من شهوات بني آدم ؟ والنوم أخو الموت، فكيف يغبطونهم به ؟ وكيف يظن بهم أنهم يغبطونهم باللهو، وهو من الباطل [1] ؟ قالوا: بل الأمر بالعكس، فإن إبليس إنما وسوس إلى آدم ودلاه

(١) هكذا أعل الشارح الحديث إسنادا ومتنا ، وما أصاب في ذلك السداد ، إذ قصر في تخريجه . أما رواية الطبراني ، فإنها ضعيفة حقا ، بل غاية في الضعف ، فقد نقلها ابن كثير " في تفسير " ٥ : ٢٠٦ بإسنادها من المعجم الكبير . ونقلها الهيثمي في مجمع الزوائد ١ : ٨٢ وقال : " رواه الطبراني في الكبير والأوسط . وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي ، وهو كذاب متروك . وفي إسناد الأوسط طلحة بن زيد ، وهو كذاب أيضا " . فهذان إسنادان لا نعبأ بهما . ولكن الحديث رواه الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب : الرد على المريسي (ص ٣٤) ، بإسناد صحيح ، مطولا : رواه عن عبد الله بن صالح ، عن الليث بن سعد ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص . وهذا إسناد لا مغمز فيه ، وقد أشار إليه الحافظ ابن كثير في التاريخ ١ : ٥٥ ، مختصرا ، من رواية عثمان بن سعيد ، وأشار إلى صحته . وأما رواية عبد الله بن أحمد بن حنبل : فإنها من زياداته في (كتاب السنة) الذي رواه عن أبيه (ص : ١٤٨ من طبعة السلفية بمكة) ، فقال عبد الله : حدثني الهيثم بن خارجة ، حدثنا عثمان بن علاق ، وهو عثمان بن حصن بن علاق (وكتب في المطبوعة : محصن ! خطأ) سمعت عروة بن رويم يقول : أخبرني الأنصاري ، عن النبي . " فهذا إسناده ظاهر الصحة أيضا ، وإن لم أستطع أن أجزم بذلك؛ لأن عروة بن رويم لم يصرح فيه بأن " الأنصاري " الذي حدثه به صحابي ، فجهالة الصحابي لا تضر ، وهو يروي عن أنس بن مالك الأنصاري ، فإن يكنه يكن الإسناد صحيحا . وهذا محتمل جدا ، وإن كنت لا أقطع به . فإن الحديث ذكره ابن كثير في التفسير ٥ / ٢٠٦- ٢٠٧ ، نقلا عن ابن عساكر ، بإسناده إلى عثمان بن علاق : " سمعت عروة بن رويم اللخمي ، حدثني أنس بن مالك ، عن النبي . . " فهذا قد يرجح أن " الأنصاري " في رواية عبد

بغرور، إذ أطمعه في أن يكون ملكا بقوله: ﴿ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ (١). فدل أن أفضلية الملك أمر معلوم مستقر في الفطرة، يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن عند رؤية يوسف: ﴿ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ (٢). وقال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ (٣). قال الأولون: إن هذا إنما كان لما هو مركوز في النفس: أن الملائكة خلق جميل عظيم، مقتدر على الأفعال الهائلة، خصوصا العرب، فإن الملائكة كانوا في نفوسهم من العظمة بحيث قالوا إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٤). قال الآخرون: قد يذكر " العالمون "، ولا يقصد به العموم المطلق، بل في كل مكان بحسبه، كما في قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ (٥). ﴿ أَتَأْتُونَ

الله بن أحمد - هو " أنس بن مالك الأنصاري " ، ولكن إسناد ابن عساكر لم يتبين لي صحته من ضعفه . وأيا ما كان ، فرواية عبد الله بن أحمد ، ورواية ابن عساكر - تصلحان للاستشهاد ، وتؤيدان صحة حديث عبد الله بن عمرو ، بإسناد الدارمي . أما إعلاله من جهة المتن والمعنى ، فإنه غير جيد ، ولا مقبول . فإن الملائكة لم يعترضوا بذا على ربهم ، ولم يتبرموا بأحوالهم ، وإنما سألوا ربهم ، وهم عباد مطيعون ، يرضون بما أمرهم الرب تبارك وتعالى ، إذا لم يستجب دعاءهم . ومثال ذلك الآيات في خلق آدم في أول سورة البقرة : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) - الآيات ٣٠ - ٣٣ .

(١) سورة الأعراف آية ٢٠ .

(٢) سورة يوسف آية ٣١ .

(٣) سورة الأنعام آية ٥٠ .

(٤) سورة آل عمران آية ٣٣ .

(٥) سورة الفرقان آية ١ .

ﭐلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1]. ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [2].

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴾ [3]. والبرية: مشتقة من البرء، بمعنى الخلق، فثبت أن صالحي البشر خير الخلق. قال الآخرون: إنما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة في هذا الوصف أكمل، فإنهم لا يسأمون ولا يفترون، فلا يلزم أن يكونوا خيرا من الملائكة. هذا على قراءة من قرأ " البريئة " بالهمز وعلى قراءة من قرأ بالياء، إن قلنا: إنها مخففة من الهمزة، وإن قلنا: إنها نسبة إلى [البرى] [4] وهو التراب، كما قاله الفراء فيما نقله عنه الجوهري في الصحاح -: يكون المعنى: أنهم خير من خلق من التراب، فلا عموم فيها إذا لغير من خلق من التراب.

قال الأولون: إنما تكلمنا في تفضيل صالحي البشر إذا كملوا، ووصلوا إلى غايتهم وأقصى نهايتهم، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة. ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلا، وحباهم الرحمن بمزيد قربه، وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم. وقال الآخرون: الشأن في أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها ؟ فإن كان قد ثبت أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سلم المدعى، وإلا فلا.

ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر: قوله تعالى: ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ ﴾ [5]. وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه؛ لأنه لا يجوز أن يقال: لن

---

(١) سورة الشعراء آية ١٦٥ .

(٢) سورة الدخان آية ٣٢ .

(٣) سورة البينة آية ٧ .

(٤) في الأصل : (البر) والتصويب من الصحاح ١ / ٣٦ . ن .

(٥) سورة النساء آية ١٧٢ .

يستنكف الوزير أن يكون خادما للملك، ولا الشرطي أو الحارس! وإنما يقال: لن يستنكف الشرطي أن يكون خادما للملك ولا الوزير. ففي مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإذا ثبت تفضيلهم على عيسى عليه السلام ثبت في حق غيره، إذ لم يقل أحد إنم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض. أجاب الآخرون بأجوبة، أحسنها، أو من أحسنها: أنه لا نزاع في فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعظم خلقه، وفي العبودية خضوع وذل وانقياد، وعيسى عليه السلام [لا يستنكف] (١) عنها ولا من هو أقدر منه وأقوى وأعظم خلقا، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ ﴾ (٢). ومثل هذا يقال بمعنى: إني لو قلت ذلك لادعيت فوق م لتي، ولست ممن يدعي ذلك. أجاب الآخرون: بأن الكفار كانوا قد قالوا: ﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ ﴾ (٣). فأمر أن يقول لهم: إني بشر مثلكم أحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر من الاكتساب والأكل والشرب، لست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة إلى الطعام والشراب، فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة.

ومنه ما روى مسلم بإسناده، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير ﴾ (٤). ومعلوم أن قوة البشر لا تداني قوة الملك ولا تقاربا. قال الآخرون. الظاهر أن المراد المؤمن من البشر- والله أعلم - فلا تدخل الملائكة في هذا العموم.

(١) في الأصل : (لا استنكف) والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٢) سورة الأنعام آية ٥٠ .

(٣) سورة الفرقان آية ٧ .

(٤) مسلم القدر (٢٦٦٤) ، ابن ماجه المقدمة (٧٩) ، أحمد (٢/٣٧٠) .

ومنه ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال فيما يروي عن ربه ﷻ قال: ﴿ يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم ﴾ [(١)]. الحديث.

وهذا نص في الأفضلية. قال الآخرون: يحتمل أن يكون المراد خيرا منه للمذكور، [لا الخيرية] [(٢)] المطلقة.

ومنه ما رواه إمام الأئمة محمد بن خزيمة، بسنده في كتاب التوحيد، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ بينا أنا جالس إذ جاء جبرائيل، فوكز بين كتفي، فقمت إلى شجرة مثل وكري الطير، فقعد في إحداهما، وقعدت في الأخرى، فسمت وارتفعت حتى سدت الخافقين، وأنا أقلب بصري، ولو شئت أن أمس السماء مسيت، فنظرت إلى جبرائيل كأنه حلس لاطئ، فعرفت فضل علمه بالله علي ﴾

قال الآخرون: في سنده مقال، فلا نسلم الاحتجاج به إلا بعد ثبوته [(٣)].

وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل، ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة رحمه الله في الجواب عنها، كما تقدم. والله أعلم بالصواب.

وُجُوبُ الْإِيمَانِ بِمَنْ سَمى اللهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى في كتابه من رسله، والإيمان

---

(١) البخاري التوحيد (٦٩٧٠) ، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٦٧٥) ، الترمذي الدعوات (٣٦٠٣) ، ابن ماجه الأدب (٣٨٢٢) ، أحمد (٢/٢٥١) .

(٢) في الأصل : (لا الخيرة) ، والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٣) هو في كتاب التوحيد لإمام الأئمة ابن خزيمة . ص : ١٣٧ . وإسناده صحيح : رواه من طريق سعيد بن منصور ، عن الحارث بن عبيد الإيادي ، عن أبي عمران الجوني ، عن أنس . وكلهم ثقات . تكلم بعضهم في " الحارث بن عبيد الإيادي " وهو " أبو قدامة الإيادي " - بغير حجة ، والراجح توثيقه ، كما بينا في شرح المسند في حديث آخر : ٥٧٥٠ . والحديث ذكره أيضا الهيثمي في مجمع الزوائد ١ : ٧٥ ، وقال : " رواه البزار ، والطبراني في الأوسط ، ورجاله رجال الصحيح " .

بأن الله تعالى أرسل رسلا سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذي أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة؛ لأنه لم يأت في عددهم نص. وقد قال تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ [(1)]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾ [(2)].

وعلينا الإيمان بأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، على ما أمرهم الله به، وأنهم بينوه بيانا لا يسع أحدا ممن أرسلوا إليه جهله، ولا يحل خلافه. قال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ ﴾ [(3)]. ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ ﴾ [(4)]. ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ ﴾ [(5)]. ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ۝ ﴾ [(6)].

أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال أحسنها: ما نقله البغوي وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى ومحمد، صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ [(7)]. وفي قوله تعالى: ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا

(١) سورة النساء آية ١٦٤ .

(٢) سورة غافر آية ٧٨ .

(٣) سورة النحل آية ٣٥ .

(٤) سورة النحل آية ٨٢ .

(٥) سورة النور آية ٥٤ .

(٦) سورة التغابن آية : ١٢ .

(٧) سورة الأحزاب آية ٧ .

وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ ﴾ [(١)].

وأما الإيمان بمحمد ﷺ فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالا وتفصيلا.

الْإِيمَانُ بِمَا سَمى اللهُ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنزلَةِ

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين، فنؤمن بما سمى الله تعالى منها في كتابه، من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتبا أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى.

وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به، واتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب. فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء. قال تعالى: ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [(٢)] إلى قوله: ﴿ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [(٣)] ، ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ ﴾ [(٤)] إلى قوله: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ ﴾ [(٥)]. ، ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ ﴾ [(٦)] ، ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾ [(٧)]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها، وأنها نزلت من عنده. وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو.

---

(١) سورة الشورى آية ١٣ .

(٢) سورة البقرة آية : ١٣٦ .

(٣) سورة البقرة آية ١٣٦ .

(٤) سورة آل عمران الآيتان : ١ ، ٢ .

(٥) سورة آل عمران آية ١ ، ٤ .

(٦) سورة البقرة ٢٨٥ .

(٧) سورة النساء آية ٨٢ .

وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ (1) ، ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢ ﴾ (2) ، ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ ﴾ (3) ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧ ﴾ (4). ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ ﴾ (5). ﴿ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ ﴾ (6). وأمثال ذلك كثيرة في القرآن.

---

(1) سورة البقرة آية ٢١٣ .

(2) سورة فصلت الآيتان ٤١ ، ٤٢ .

(3) سورة سبأ آية ٦ .

(4) سورة يونس آية ٥٧ .

(5) سورة فصلت آية ٤٤ .

(6) سورة التغابن آية ٨ .

أَهْلُ الْقِبْلَةِ مُسْلِمُونَ مُؤْمِنُونَ

قوله: (ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين).

ش: قال رسول الله ﷺ ﴿من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا.﴾ (١) ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله.

والمراد بقوله: " أهل قبلتنا "، من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة، وإن كان من أهل الأهواء، أو من أهل المعاصي، ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول ﷺ. وسيأتي الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ: " ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله ". وعند قوله: " والإسلام والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء ".

---

(١) البخاري الصلاة (٣٨٥) ، الترمذي الإيمان (٢٦٠٨) ، النسائي تحريم الدم (٣٩٦٨) ، أبو داود الجهاد (٢٦٤١) ، أحمد (٢٢٥/٣) .

الكف عن كلام المتكلمين الباطل وذم علمهم لأنهم يتكلمون في الإله بغير علم

قوله: (ولا نخوض في الله، ولا نماري في دين الله).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الكف عن كلام المتكلمين الباطل، وذم علمهم، فإنهم يتكلمون في الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم. ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [1].

وعن أبي حنيفة رحمه الله، أنه قال: لا ينبغي لأحد أن ينطق في ذات الله بشيء، بل يصفه بما وصف به نفسه. وقال بعضهم: الحق سبحانه يقول: من ألزمته القيام مع أسمائي وصفاتي ألزمته الأدب، ومن كشفت له حقيقة ذاتي ألزمته العطب، فاختر الأدب أو العطب. ويشهد لهذا: أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك ولم يثبت على عظمة الذات. قال [الشبلي] [2] الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب.

وقوله: " ولا نماري في دين الله ". معناه: لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم، التماسا لامترائهم وميلهم؛ لأنه في معنى الدعاء إلى الباطل، وتلبيس الحق، وإفساد دين الإسلام.

---

(١) سورة النجم الآية ٢٣ .

(٢) في الأصل : (السبكي) . والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

النَهْيُ عَن الجِدَال ِفي القُرْآن

قوله: (ولا نجادل في القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين محمدا ﷺ. وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شيء من كلام المخلوقين، ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين).

ش: فقوله: " ولا نجادل في القرآن "، يحتمل أنه أراد: أنا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول: إنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، إلى آخر كلامه. ويحتمل أنه أراد: أنا لا نجادل في القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح. وكل من المعنيين حق. ويشهد بصحة المعنى الثاني، ما روي ﴿ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: سمعت رجلا قرأ آية سمعت رسول الله ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى رسول الله ﷺ [فذكرت] [1] ذلك له، فعرفت في وجهه الكراهة، وقال: كلاكما محسن، لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا ﴾ رواه مسلم [2].

نهى ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كل واحد من المختلفين ما مع صاحبه من الحق؛ لأن كلا القارئين كان محسنا فيما قرأه، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا، ولهذا قال حذيفة رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم. فجمع الناس على حرف واحد اجتماعا سائغا وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلال، ولم يكن في ذلك ترك لواجب، ولا فعل لمحظور، إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة، رخصة من الله تعالى، وقد جعل الاختيار إليهم في أي حرف

---

(١) في الأصل (فذكر) والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٢) نسبة إلى الحديث لمسلم خطأ ، إما من الشارح ، وإما من الناسخ ، بل هو لفظ البخاري ٥١ - ٥٢ من فتح الباري . وقد نص الحافظ في الفتح - في خاتمة كتاب الاستقراض ٥ / ٥٥ - ٥٦ على أنه لم يروه مسلم . وقد رواه أحمد في المسند بنحوه ، مطولا ومختصرا : ٣٧٢٤ ، ٣٩٠٧ ، ٣٩٠٨ ، ٣٩٩٢ ، ٣٩٩٣ ، ٤٣٢٢ ، ٤٣٦٤ .

اختاروه، كما أن ترتيب السور لم يكن واجبا عليهم منصوصا. ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب المصحف العثماني، وكذلك مصحف غيره. وأما ترتيب آيات السور فهو ترتيب منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية، بخلاف السور، فلما رأى الصحابة أن الأمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد، جمعهم الصحابة عليه. هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء، قاله ابن جرير وغيره.

منهم من يقول: إن الترخص في الأحرف السبعة كان في أول الإسلام، لما في المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولا، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيرا عليهم، وهو أوفق لهم -: أجمعوا على الحرف الذي كان في العرضة الأخيرة.

وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف مشتمل على الأحرف السبعة. وقد اتفقوا على نقل المصحف العثماني. وترك ما سواه. وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب، وهو: أن ذلك كان جائزا لا واجبا، أو أنه صار منسوخا. وأما من قال عن ابن مسعود: إنه كان يجوز القراءة بالمعنى! فقد كذب عليه، وإنما قال: (قد نظرت إلى القراء فرأيت قراءتم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم: هلم، وأقبل، وتعال، فاقرءوا كما علمتم)، أو كما قال.

والله تعالى قد أمرنا أن لا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم، فكيف بمناظرة أهل القبلة ؟ فإن أهل القبلة من حيث الجملة خير من أهل الكتاب، فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتي هي أحسن، وليس إذا أخطأ يقال إنه كافر، قبل أن تقام عليه الحجة التي حكم الرسول بكفر من تركها. والله تعالى قد عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان. ولهذا ذم السلف أهل الأهواء، وذكروا أن آخر أمرهم السيف.

وسيأتي لهذا المعنى زيادة بيان، إن شاء الله تعالى، عند قول الشيخ: (ونرى الجماعة حقا وصوابا، والفرقة زيغا وعذابا).

وقوله: " ونشهد أنه كلام رب العالمين " - قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله: (وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولا).

وقوله: (نزل به الروح الأمين)، هو جبرائيل عليه السلام، سمي روحا لأنه حامل الوحي الذي به حياة القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين، وهو أمين حق أمين، صلوات الله عليه. قال تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾[(1)]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾[(2)]. وهذا وصف جبرائيل. بخلاف قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ ﴾[(3)]. الآيات - فإن الرسول هنا هو محمد ﷺ.

وقوله: " فعلمه سيد المرسلين " - تصريح بتعليم جبرائيل إياه، إبطالا لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره في نفسه إلهاما.

وقوله: (ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين) - تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، بل قوله: " ولا نخالف جماعة المسلمين "، مجرى على إطلاقه: أنا لا نخالف جماعة المسلمين في جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة.

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٩٣ - ١٩٥ .

(٢) سورة التكوير الآيات ١٩ - ٢١ .

(٣) سورة الحاقة الآيتان ٤٠ ، ٤١ .

الرد عَلى الْخَوَارج الْقَائِلينَ بِالتكْفِير بِكُل ذَنْبٍ

لَا يَجُوزُ تَكْفِيرُ الْمُسْلِم بِذَنْبٍ لَمْ يَسْتَحِلهُ

قوله: (ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله).

ش: أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم في قوله: " ونسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين "، يشير الشيخ رحمه الله بذا الكلام إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب.

واعلم - رحمك الله وإيانا - أن باب التكفير وعدم التكفير، باب عظمت الفتنة والمحنة فيه، وكثر فيه الافتراق، وتشتتت فيه الأهواء والآراء، وتعارضت فيه دلائلهم. فالناس فيه، في جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة، المخالفة للحق الذي بعث الله به رسوله في نفس الأمر، والمخالفة لذلك في اعتقادهم، على طرفين ووسط، من جنس الاختلاف في تكفير أهل الكبائر العملية:

فطائفة تقول: لا نكفر من أهل القبلة أحدا، فتنفي التكفير نفيا عاما، مع العلم بأن في أهل القبلة المنافقين، الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم، وهم يتظاهرون بالشهادتين.

وأيضا: فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة، والمحرمات الظاهرة المتواترة، ونحو ذلك فإنه يستتاب، فإن تاب، وإلا قتل كافرا مرتدا. والنفاق والردة مظنتهما البدع والفجور، كما ذكره الخلال في كتاب السنة، بسنده إلى محمد بن سيرين، أنه قال: إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء. وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ ﴾ (١).

(١) سورة الأنعام آية ٦٨ .

ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنا لا نكفر أحدا بذنب، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب. كما تفعله الخوارج. وفرق بين النفي العام ونفي العموم، والواجب إنما هو نفي العموم، مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب. ولهذا - والله أعلم - قيده الشيخ رحمه الله بقوله: " ما لم يستحله ".

وفي قوله: " ما لم يستحله " إشارة إلى أن مراده من هذا النفي العام لكل ذنب، الذنوب العملية لا العلمية. وفيه إشكال فإن الشارع لم يكتف من المكلف في العمليات بمجرد العمل دون العلم، ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل، وليس العمل مقصورا على عمل الجوارح، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبع. إلا أن يضمن قوله: " يستحله " بمعنى: يعتقده، أو نحو ذلك.

وقوله: " ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله " إلى آخر كلامه، رد على المرجئة، فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

فهؤلاء في طرف، والخوارج في طرف، فإنهم يقولون يكفر المسلم بكل ذنب، أو بكل ذنب كبير، وكذلك المعتزلة الذين يقولون يحبط إيمانه كله بالكبيرة، فلا يبقى معه شيء من الإيمان. لكن الخوارج يقولون: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر! والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر ! وهذه المنزلة بين المنزلتين!! وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار! وطوائف من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك في الأعمال، لكن في الاعتقادات البدعية، وإن كان صاحبها متأولا، فيقولون: يكفر كل من قال هذا القول، لا يفرقون بين المجتهد المخطئ وغيره، أو يقولون: يكفر كل مبتدع، وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الإثبات العام أمور عظيمة، فإن النصوص المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها أولئك، والكلام في الوعيد مبسوط في موضعه. وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ: " وأهل الكبائر في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون ".

والمقصود هنا: أن البدع هي من هذا الجنس، فإن الرجل يكون مؤمنا باطنا وظاهرا، لكن تأول تأويلا أخطأ فيه، إما مجتهدا وإما مفرطا مذنبا، فلا يقال: إن إيمانه حبط لمجرد ذلك، إلا أن يدل على ذلك دليل شرعي، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة، ولا نقول: لا يكفر، بل العدل هو الوسط، وهو: أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول ﷺ أو إثبات ما نفاه، أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي عما أمر به -: يقال فيها الحق، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص، ويبين أنها كفر، ويقال: من قالها فهو كافر، ونحو ذلك، كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفس والأموال، وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن، وأن الله لا يرى في الآخرة، ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها، وعن أبي يوسف رحمه الله، أنه قال: ناظرت أبا حنيفة رحمه الله مدة، حتى اتفق رأيي ورأيه: أن من قال بخلق القرآن فهو كافر.

مِنْ أَعْظَمِ الْبَغْيِ أَنْ يَشْهَدَ عَلَى مُعَيِنٍ أَن اللهَ لَا يَغْفِرُ لَهُ

وأما الشخص المعين، إذا قيل: هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر ؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت. ولهذا ذكر أبو داود في سننه في كتاب الأدب: " باب النهي عن البغي ". وذكر فيه عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يوما على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبا ؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك [الله] الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المتهد: أكنت بي عالما ؟ أو كنت على ما في يدي قادرا ؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار. وقال أبو

هريرة: (والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته) [(١)] وهو حديث حسن [(٢)].

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهدا مخطئا مغفورا له، أو يمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله، كما غفر للذي قال: إذا مت فاسحقوني ثم ذروني، ثم غفر الله له لخشيته، وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته، أو شك في ذلك. لكن هذا التوقف في أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه في الدنيا، لمنع بدعته، وأن نستتيبه، فإن تاب وإلا قتلناه.

ثم إذا كان القول في نفسه كفرا قيل: إنه كفر، والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع، ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقا زنديقا. فلا يتصور أن يكفر أحد من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلا من يكون منافقا زنديقا. وكتاب الله يبين ذلك، فإن الله صنف الخلق فيه ثلاثة أصناف: كفار من المشركين ومن أهل الكتاب، وهم الذين لا يقرون بالشهادة، وصنف المؤمنون باطنا وظاهرا، وصنف أقروا به ظاهرا لا باطنا. وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة في أول سورة البقرة. وكل من ثبت أنه كافر في نفس الأمر وكان مقرا بالشهادتين. فإنه لا يكون إلا زنديقا، والزنديق هو المنافق.

وهنا يظهر غلط الطرفين، فإنه من كفر كل من قال القول المبتدع في الباطن، يلزمه أن يكفر أقواما ليسوا في الباطن منافقين، بل هم في الباطن يحبون الله ورسوله ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين، كما ثبت في صحيح البخاري، عن أسلم مولى عمر ﷺ عن عمر: (أن رجلا كان على عهد النبي ﷺ كان اسمه: عبد الله، وكان يلقب: حمارا، وكان يضحك رسول الله ﷺ وكان رسول الله ﷺ قد جلده من الشراب، فأتي به يوما، فأمر به

(١) أبو داود الأدب (٤٩٠١) ، أحمد (٣٢٣/٢) .

(٢) هو الحديث : ٤٩٠١ ، في سنن أبي داود ، وأعله المنذري بعلي بن ثابت الجزري ، زعم أنه ضعيف ! تقليدا للأزدي ، والحق أنه ثقة ، وثقه ابن معين وابن سعد وأبو داود وغيرهم .

فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه! ما أكثر ما يؤتى به! فقال رسول الله ﷺ لا تلعنوه، فوالله ما علمت، إنه يحب الله ورسوله » [1] [2]. وهذا أمر متيقن به في طوائف كثيرة وأئمة في العلم والدين، وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج. ولكن الأئمة في العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة، بل بفرع منها. ولهذا انتحل أهل هذه الأهواء لطوائف من السلف المشاهير.

أَهْلُ الْبِدَعِ يُكَفِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَأَهْلُ السنةِ وَالْجَمَاعَةِ يُخَطِّئُونَ وَلَا يُكَفِّرُونَ

فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضا، ومن ممادح أهل العلم أنم يخطئون ولا يكفرون.

ولكن بقي هنا إشكال يرد على كلام الشيخ رحمه الله، وهو: أن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفرا، قال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [3]. وقال ﷺ « سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر » [4]. متفق عليه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. وقال ﷺ « لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » [5]، و « إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر - فقد باء بها أحدهما » [6]. متفق عليهما من حديث ابن عمر رضي الله عنه [1].

---

(١) البخاري الحدود (٦٣٩٨) .

(٢) هو في البخاري ١٢ : ٦٦ - ٦٨ من الفتح . وكان في المطبوعة محرفا ، فصححناه من البخاري .

(٣) سورة المائدة آية ٤٤ .

(٤) البخاري الإيمان (٤٨) ، مسلم الإيمان (٦٤) ، الترمذي البر والصلة (١٩٨٣) ، النسائي تحريم الدم (٤١٠٨) ، ابن ماجه المقدمة (٦٩) ، أحمد (٤٣٩/١) .

(٥) البخاري العلم (١٢١) ، مسلم الإيمان (٦٥) ، النسائي تحريم الدم (٤١٣١) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٤٢) ، أحمد (٣٥٨/٤) ، الدارمي المناسك (١٩٢١) .

(٦) البخاري الأدب (٥٧٥٣) ، مسلم الإيمان (٦٠) ، الترمذي الإيمان (٢٦٣٧) ، أبو داود السنة (٤٦٨٧) ، أحمد (٤٧/٢) ، مالك الجامع (١٨٤٤) .

وقال ﷺ ﴿ أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف. وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر ﴾ [٢]. متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

وقال ﷺ ﴿ لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتوبة معروضة بعد ﴾ [٣]. وقال ﷺ ﴿ بين المسلم وبين الكفر ترك الصلاة ﴾ [٤]. رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه.

وقال ﷺ ﴿ من أتى كاهنا فصدقه، أو أتى امرأة في دبرها، فقد كفر بما أنزل على محمد ﴾ [٥]. وقال ﷺ ﴿ من حلف بغير الله فقد كفر ﴾ [٦]. رواه الحاكم بهذا اللفظ. وقال ﷺ ﴿ ثنتان في أمتي هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، والنياحة على الميت ﴾ [٧]. ونظائر ذلك كثيرة.

---

(١) في المطبوعة " ابن عمرو " وهو خطأ . والحديثان من رواية عبد الله بن عمر بن الخطاب . انظر للأول البخاري ١٢ : ١٧٠ ، و١٣ : ٢١ ، ومسلم ١ : ٣٣ . وللثاني : البخاري ١٠ : ٤٢٨ . ومسلم ١ : ٣٣ - ٣٤ .

(٢) البخاري الجزية (٣٠٠٧) ، مسلم الإيمان (٥٨) ، الترمذي الإيمان (٢٦٣٢) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢٠) ، أبو داود السنة (٤٦٨٨) ، أحمد (١٨٩/٢) .

(٣) البخاري الحدود (٦٤٢٥) ، مسلم الإيمان (٥٧) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٥) ، النسائي الأشربة (٥٦٥٩) ، أبو داود السنة (٤٦٨٩) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٣٦) ، أحمد (٣٨٦/٢) ، الدارمي الأشربة (٢١٠٦) .

(٤) مسلم الإيمان (٨٢) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٠) ، أبو داود السنة (٤٦٧٨) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٧٨) ، أحمد (٣٧٠/٣) ، الدارمي الصلاة (١٢٣٣) .

(٥) الترمذي الطهارة (١٣٥) ، أبو داود الطب (٣٩٠٤) ، ابن ماجه الطهارة وسننها (٦٣٩) ، أحمد (٤٧٦/٢) ، الدارمي الطهارة (١١٣٦) .

(٦) البخاري الأدب (٥٧٥٧) ، مسلم الأيمان (١٦٤٦) ، الترمذي النذور والأيمان (١٥٣٥) ، النسائي الأيمان والنذور (٣٧٦٦) ، أبو داود الأيمان والنذور (٣٢٥١) ، ابن ماجه الكفارات (٢٠٩٤) ، أحمد (١٢٥/٢) ، مالك النذور والأيمان (١٠٣٧) ، الدارمي النذور والأيمان (٢٣٤١) .

(٧) البخاري المناقب (٣٦٣٧) .

والجواب: أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرا ينقل عن الملة بالكلية، كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرا ينقل عن الملة لكان مرتدا [يقتل] (١) على كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر! وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام.

ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضا؛ إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ (٢) إلى أن قال: ﴿ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ (٣). فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا، وجعله أخا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ ﴾ (٤) إلى أن قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ (٥).

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزاني والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد.

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت

(١) سقطت من الأصل . ولعل الصواب إثباتا ، كما في سائر النسخ . ن .
(٢) سورة البقرة آية : ١٧٨ .
(٣) سورة البقرة آية ١٧٨ .
(٤) سورة الحجرات آية : ٩ .
(٥) سورة الحجرات الآيتان ٩ ، ١٠ .

عليه، ثم ألقي في النار ﴾[1]. أخرجاه في الصحيحين.

فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفي المظلوم منها حقه. وكذلك ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ما تعدون المفلس فيكم ؟ قالوا: المفلس فينا من لا له درهم ولا دينار، قال: " المفلس من يأتي يوم القيامة وله حسنات أمثال الجبال، فيأتي وقد شتم هذا، وأخذ مال هذا، وسفك دم هذا، وقذف هذا، وضرب هذا، فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار ﴾[2]. رواه مسلم.

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[3]. فدل ذلك على أنه في حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته. وهذا مبسوط في موضعه.

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا في حكم الآخرة، فإنهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد في النار، قالت الخوارج: نسميه كافرا، وقالت المعتزلة: نسميه فاسقا، فالخلاف بينهم لفظي فقط.

وأهل السنة أيضا متفقون على أنه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب، كما وردت به النصوص. لا كما يقوله المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ولا ينفع مع الكفر طاعة! وإذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلت بها المرجئة، ونصوص الوعيد التي استدلت بها الخوارج والمعتزلة -: تبين لك فساد القولين! ولا فائدة في كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى.

الْكُفْرُ نَوْعَانِ اعْتِقَادِي وَعَمَلِي

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهل السنة اختلفوا خلافا لفظيا، لا يترتب عليه فساد،

---

(١) البخاري المظالم والغصب (٢٣١٧) ، أحمد (٢/٥٠٦) .

(٢) مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٨١) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤١٨) ، أحمد (٢/٣٠٣) .

(٣) سورة هود آية ١١٤ .

وهو: أنه هل يكون الكفر على مراتب، كفرا دون كفر ؟ كما اختلفوا: هل يكون الإيمان على مراتب، إيمانا دون إيمان ؟ وهذا اختلاف نشأ من اختلافهم في مسمى "الإيمان": هل هو قول وعمل يزيد وينقص، أم لا ؟ بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافرا نسميه كافرا، إذ من الممتنع أن يسمي الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا، ويسمي رسوله من تقدم ذكره كافرا - ولا نطلق عليهما اسم "الكفر". ولكن من قال: إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص- قال: هو كفر عملي لا اعتقادي، والكفر عنده على مراتب، كفر دون كفر، كالإيمان عنده.

ومن قال: إن الإيمان هو التصديق، ولا يدخل العمل في مسمى الإيمان، والكفر هو الجحود، ولا يزيدان ولا ينقصان - قال: هو كفر مجازي غير حقيقي، إذ الكفر الحقيقي هو الذي ينقل عن الملة. وكذلك يقول في تسمية بعض الأعمال بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ ﴾ (١) أي صلاتكم إلى بيت المقدس، إنا سميت إيمانا مجازا، لتوقف صحتها على الإيمان، أو لدلالتها على الإيمان، إذ هي دالة على كون مؤديها مؤمنا. ولهذا يحكم بإسلام الكافر إذا صلى كصلاتنا. فليس بين فقهاء الملة نزاع في أصحاب الذنوب، إذا كانوا مقرين باطنا وظاهرا بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنم من أهل الوعيد. ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم في النار، كالخوارج والمعتزلة. ولكن أردأ ما في ذلك التعصب على من يضادهم، وإلزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه، والتشنيع عليه! وإذا كنا مأمورين بالعدل في مجادلة الكافرين، وأن يجادلوا بالتي هي أحسن، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض في مثل هذا الخلاف ؟ ! قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ ﴾ (٢) الآية.

(١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢) سورة المائدة آية ٨ .

وهنا أمر يجب أن يتفطن له، وهو: أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا ينقل عن الملة، وقد يكون معصية: كبيرة أو صغيرة، ويكون كفرا: إما مجازيا، وإما كفرا أصغر، على القولين المذكورين. وذلك بحسب حال الحاكم: فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخير فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم [الله] (1). - فهذا كفر أكبر (2). وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، وعلمه في هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة، فهذا عاص، ويسمى كافرا كفرا مجازيا، أو كفرا أصغر. وإن جهل حكم الله فيها، مع بذل جهده واستفراغ وسعه في معرفة الحكم وأخطأ، فهذا مخطئ، له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور.

وأراد الشيخ رحمه الله بقوله: (ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله) - مخالفة المرجئة. وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين، فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك. فإن قدامة بن عبد الله (3) شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة، وتأولوا قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ (4) الآية. فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب ﷺ اتفق هو وعلي بن أبي طالب وسائر الصحابة على أنم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا. وقال عمر لقدامة: أخطأت استك الحفرة، أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر.

---

(1) سقطت من الأصل . والصواب إثباتا ، كما في سائر النسخ . ن .

(2) وهذا مثل ما ابتلي به الذين درسوا القوانين الأوربية ، من رجال الأمم الإسلامية ، ونسائها أيضا !! الذين أشربوا في قلوبم حبها ، والشغف با ، والذب عنها ، وحكموا با ، وأذاعوها ، بما ربوا من تربية أساسها صنع المبشرين الهدامين أعداء الإسلام . ومنهم من يصرح ، ومنهم من يتوارى . ويكادون يكونون سواء . فإنا لله وإنا إليه راجعون .

(3) هكذا ورد في الأصل . والصواب : (قدامة بن مظعون) ، كما في سير أعلام النبلاء ١ / ١٦١ ، والإصابة ٣ / ٢٢٨ . ن .

(4) سورة المائدة آية ٩٣ .

وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر، وكان تحريمها بعد وقعة أحد، قال بعض الصحابة: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية، بين فيها أن من طعم الشيء في الحال التي لم يحرم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين، كما كان من أمر استقبال بيت المقدس. ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك [ندموا وعلموا] (1). أنم أخطأوا وأيسوا من التوبة. فكتب عمر إلى قدامة يقول له: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ (2). ما أدري أي ذنبك أعظم ؟ استحلالك المحرم أولا ؟ أم يأسك من رحمة الله ثانيا ؟. وهذا الذي اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام.

---

(1) في الأصل : (يذقون على) . ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .

(2) سورة غافر آية ١- ٣ .

مَا يَنبغِي عَلى المُؤْمِن أنْ يَعْتَقِدَهُ

مَا يَنبغِي عَلى المُؤْمِن أنْ يَعْتَقِدَهُ فِي حَق نَفْسِهِ وَفِي حَق غَيْرِهِ

قوله: (ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم).

ش: وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذي قاله الشيخ رحمه الله في حق نفسه وفي حق غيره. قال تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ ﴾[3]. ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾[4]. ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾[5]. ومدح أهل الخوف، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[6]، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾[7] إلى قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾[8]. وفي المسند والترمذي ﴿ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾[9] هو الذي يزني ويشرب الخمر

---

(١) سورة الإسراء ، آية ٥٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٧٥ .

(٣) سورة البقرة ، آية ٤١ .

(٤) سورة البقرة ، آية ٤٠ .

(٥) سورة المائدة آية ٣ .

(٦) سورة المؤمنون آية : ٥٧ .

(٧) سورة المؤمنون آية : ٥٨ .

(٨) سورة المؤمنون آية ٥٧ - ٦١ .

(٩) سورة المؤمنون آية ٦٠ .

ويسرق ؟ قال: لا، يا ابنة الصديق، ولكنه الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه ﴾ [1]. قال الحسن ﷺ عملوا - والله - بالطاعات، واجتهدوا فيها، وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا. انتهى.

وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [2]. فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات ؟ فالرجاء إنما يكون مع الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى، شرعه وقدرته وثوابه وكرامته. ولو أن رجلا له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه، فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها، ورجا أنه يأتي من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض -: لعده الناس من أسفه السفهاء! وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع! أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم وحرص تام! وأمثال ذلك. فكذلك من حسن ظنه وقوي رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم، من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

مَنْ رَجَا شَيْئًا اسْتَلْزَمَ رَجَاؤُهُ أُمورًا

وما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئا - استلزم رجاؤه أمورا:

أحدها: محبة ما يرجوه.

الثاني: خوفه من فواته.

الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك، فهو من باب الأماني، والرجاء شيء والأماني شيء آخر فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير، مخافة الفوات.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٦ : ٢٥ .

(٢) سورة البقرة آية ٢١٨ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [(١)].

فالمشرك لا ترجى له المغفرة، لأن الله نفى عنه المغفرة، وما سواه من الذنوب في مشيئة الله، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه.

وفي معجم الطبراني: " الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان لا يغفر الله منه شيئا، وهو الشرك بالله، ثم قرأ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾ [(٢)] وديوان لا يترك الله منه شيئا، وهو مظالم العباد بعضهم بعضا. وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه [(٣)].

وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر، وستأتي الإشارة إلى ذلك عند قول الشيخ رحمه الله: " وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون ".

ولكن ثم أمر ينبغي التفطن له، وهو: أن الكبيرة قد يقترن با من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة با ما يلحقها بالكبائر. وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب، وهو قدر زائد على مجرد الفعل، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره.

سُقُوطُ الْعُقُوبَةِ عَنِ الْمُسِيءِ بِأَحَدَ عَشَرَ سَبَبًا

وأيضا: فإنه قد يعفى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، فإن فاعل السيئات يسقط [(٤)] عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة:

---

(١) سورة النساء الآيتان ٤٨ - ١١٦ .

(٢) سورة النساء الآيتان ٤٨ - ١١٦ .

(٣) لم أجد رواية الطبراني هذه . ولكن في مجمع الزوائد ١٠ : ٣٤٨ حديث بذا المعنى ، رواه أحمد من حديث عائشة مرفوعا . قال : " وفيه صدقة بن موسى ، وقد ضعفه الجمهور . وقال مسلم بن إبراهيم : حدثنا صدقة بن موسى وكان صدوقا . وبقية رجاله ثقات " .

(٤) كذا بالأصل ، ولعلها : (تسقط) . ن .

السبب الأول: التوبة، قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾[1]. ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾[2].

والتوبة النصوح، وهي الخالصة، لا يختص بها ذنب دون ذنب، لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة ؟ حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لا تقبل ؟ والصحيح أنها تقبل. وهل يجب الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يتب منها ؟ أم لا بد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك ؟ حتى لو أسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر مثلا، هل يؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنا وشرب الخمر ؟ أم لا بد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه ؟ أو يتوب توبة عامة من كل ذنب ؟ وهذا هو الأصح: أنه لا بد من التوبة مع الإسلام، وكون التوبة سببا لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها - مما لا خلاف فيه بين الأمة، وليس شيء يكون سببا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة، قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[3] وهذا لمن تاب، ولهذا قال: ﴿ لَا تَقْنَطُواْ ﴾[4] وقال بعدها: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾[5] الآية.

السبب الثاني: الاستغفار، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾[6].

لكن الاستغفار تارة يذكر وحده، وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذكر وحده دخل معه التوبة، كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت الاستغفار. فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة، وكل واحد منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين

---

(١) سورة مريم آية ٦٠ .

(٢) سورة البقرة آية ١٦٠ .

(٣) سورة الزمر : ٥٣ .

(٤) سورة الزمر آية : ٥٣ .

(٥) سورة الزمر آية ٥٤ .

(٦) سورة الأنفال آية ٣٣ .

بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

ونظير هذا: الفقير والمسكين، إذا ذكر أحد اللفظين شمل الآخر، وإذا ذكرا معا كان لكل منهما معنى. قال تعالى: ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾[1]. ﴿ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾[2]. ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[3]. لا خلاف أن كل واحد من الاسمين في هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم، ولما قرن أحدهما بالآخر في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾[4] الآية - كان المراد بأحدهما المقل، والآخر المعدم، على خلاف فيه.

وكذلك: الإثم والعدوان، والبر والتقوى، والفسوق والعصيان.

ويقرب من هذا المعنى: الكفر والنفاق، فإن الكفر أعم، فإذا ذكر الكفر شمل النفاق، وإن ذكرا معا كان لكل منهما معنى. وكذلك الإيمان والإسلام، على ما يأتي الكلام فيه، إن شاء الله تعالى.

السبب الثالث: الحسنات. فإن الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، فالويل لمن غلبت آحاده عشراته. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[5]. وقال ﷺ ﴿ وأتبع السيئة الحسنة تمحها ﴾ [6].

السبب الرابع: المصائب الدنيوية، قال ﷺ ﴿ ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب،

---

(١) سورة المائدة آية ٨٩ .

(٢) سورة المجادلة آية ٤ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٧١ .

(٤) سورة التوبة آية ٦٠ .

(٥) سورة هود آية ١١٤ .

(٦) الترمذي البر والصلة (١٩٨٧) ، أحمد (١٥٣/٥) ، الدارمي الرقاق (٢٧٩١) .

ولا غم ولا هم ولا حزن، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر بها من خطاياه ﴾ [(١)]. وفي المسند: ﴿ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ ﴾ [(٢)] قال أبو بكر: يا رسول الله، نزلت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءا ؟ فقال: يا أبا بكر، ألست تنصب ؟ ألست تحزن ؟ ألست يصيبك اللأواء ؟ فذلك ما تجزون به ﴾ [(٣)].

فالمصائب نفسها، مكفرة، وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالتسخط يأثم والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد، وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه، ويكفر ذنبه بها، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله، والصبر والسخط من فعله، وإن كان الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد، بل هدية من الغير، أو فضل من الله من غير سبب، قال تعالى: ﴿ وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ ﴾ [(٤)]. فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم.

وكثيرا ما يفهم من الأجر غفران الذنوب. وليس ذلك مدلوله، وإنما يكون من لازمه.

السبب الخامس: عذاب القبر. وسيأتي الكلام عليه، إن شاء الله تعالى.

---

(١) البخاري المرضى (٥٣١٨) ، مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٧٣) ، الترمذي الجنائز (٩٦٦) ، أحمد (١٩/٣) .

(٢) سورة النساء آية ١٢٣ .

(٣) حديث أبي بكر هذا في المسند ، برقم : ٦٨ بشرحنا . ولكن أوله هناك أن أبا بكر قال : " يا رسول الله ، كيف الصلاح بعد هذه الآية ؟ . . فكل سوء عملناه جزينا به ؟ " . ليس فيه قوله هنا " نزلت قاصمة الظهر . . " . وهو حديث ضعيف ، إسناده منقطع . وكان الأجدر بالشارح أن يذكر حديث أبي هريرة في المسند : ٧٣٨٠ أنه لما نزلت هذه الآية " شقت على المسلمين ، وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ ، فشكوا ذلك إلى رسول الله فقال لهم : " قاربوا وسددوا ، فكل ما يصاب به المسلم كفارة ، حتى النكبة ينكبها " . وهو حديث صحيح ، رواه مسلم في صحيحه ٢ : ٢٨٢ ، وزاد في آخره : " والشوكة يشاكها " . ولو رجع الشارح رحمه الله إلى تفسير شيخه ابن كثير في هذه الآية ٢ : ٥٨٦ - ٥٩٠ لوجد حديث أبي هريرة ، وأحاديث أخر في معناه ، بعضها أصح إسنادا من حديث أبي بكر .

(٤) سورة النساء آية ٤٠ .

السبب السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

السبب السابع: ما يهدى إليه بعد الموت، من ثواب صدقة أو قراءة أو حج، ونحو ذلك، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

السبب التاسع: ما ثبت في الصحيحين: أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة..

السبب العاشر: شفاعة الشافعين، كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها.

السبب الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة.

كما قال تعالى: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [(١)]. فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جرمه، فلا بد من دخوله إلى الكير، ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى في النار من في قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، بل من قال: لا إله إلا الله، كما تقدم من حديث أنس رضي الله عنه.

وإذا كان الأمر كذلك، امتنع القطع لأحد معين من الأمة، غير من شهد له الرسول ﷺ بالجنة، ولكن نرجو للمحسنين، ونخاف عليهم.

الْجَمْعُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرجَاءِ

قوله: (والأمن [والإياس ينقلان] [(٢)] عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة).

ش: يجب أن يكون العبد خائفا راجيا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء

---

(١) سورة النساء آية ٤٨ .

(٢) في الأصل : (واليأس سبيلان) والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ والمتون ، بل صححها المحقق أحمد شاكر رحمه الله ولكن في الفهرس . انظر الفهرس ص ٥٥١ . ن .

رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبا ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته. قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ ﴾ [(١)].

أما إذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب.

قال: أبو علي الروذباري رحمه الله: الخوف والرجاء كجناحي الطائر، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر في حد الموت.

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ ﴾ [(٢)] الآية. وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ [(٣)] الآية. فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا. وكل أحد إذا خفته هربت منه، إلا الله تعالى، فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه.

وقال صاحب منازل السائرين رحمه الله: الرجاء أضعف منازل المريد، وفي كلامه نظر، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد. وفي الصحيح عن النبي ﷺ ﴿ يقول الله ﷻ أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء ﴾ [(٤)]. وفي صحيح مسلم عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: ﴿ لا يموتن أحدكم

---

(١) سورة البقرة آية ٢١٨ .

(٢) سورة الزمر آية ٩ .

(٣) سورة السجدة آية ١٦ .

(٤) أحمد (٤٩١/٣) ، الدارمي الرقاق (٢٧٣١) .

إلا وهو يحسن الظن بربه ﷻ [1] ، ولهذا قيل: إن العبد ينبغي أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه، بخلاف زمن الصحة، فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه.

وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو [حروري] [2] وروي: ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد، ولقد أحسن محمود الوراق في قوله:

لـو قد رأيت الصغير من عمل الـ خـير ثوابـا عجبـت مـن كبره

أو قـد رأيـت الحقـير من عمل الشـ ر جـزاء أشـفقت مـن حـذره

قوله: (ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه).

ش: يشير الشيخ إلى الرد على الخوارج والمعتزلة في قوله بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرة. وفيه تقرير لما قال أولا: " لا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب، ما لم يستحله ". وتقدم الكلام على هذا المعنى.

ما يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمَان

الِاخْتِلَافُ فِيمَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمَان

قوله: (والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان. وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق. والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى، ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى).

ش: اختلف الناس فيما يقع عليه اسم "الإيمان"، اختلافا كثيرا: فذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وإسحاق بن راهويه وسائر أهل الحديث، وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين -: إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

---

(١) مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٧) ، أبو داود الجنائز (٣١١٣) ، ابن ماجه الزهد (٤١٦٧) ، أحمد (٣/٣٢٥) .

(٢) في الأصل : (مرجئ) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكره الطحاوي: أنه الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان.

ومنهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصلي، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدي رحمه الله، ويروى عن أبي حنيفة رضي الله عنه.

وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط! فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذي أوعدهم الله به! وقولهم ظاهر الفساد.

وذهب الجهم بن صفوان وأبو الحسين الصالحي أحد رؤساء القدرية - إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب! وهذا القول أظهر فسادا مما قبله! فإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين: فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون، ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ (1). وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (2).

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، ولم يكونوا مؤمنين به، بل كافرين به. معادين له، وكذلك أبو طالب عنده يكون مؤمنا، فإنه قال:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحا بذاك مبينا

بل إبليس يكون عند الجهم مؤمنا كامل الإيمان! فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف به، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ } (3). ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى ﴾ (4). ﴿ قَالَ

(1) سورة الإسراء آية ١٠٢ .

(2) سورة النمل آية ١٤ .

(3) سورة الحجر آية ٣٦ .

(4) سورة الحجر آية ٣٩ .

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [1]. والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى، ولا أحد أجهل منه بربه! فإنه جعله الوجود المطلق، وسلب عنه جميع صفاته، ولا جهل أكبر من هذا، فيكون كافرا بشهادته على نفسه !.

وبين هذه المذاهب مذاهب أخر. بتفاصيل وقيود، أعرضت عن ذكرها اختصارا، ذكر هذه المذاهب أبو المعين النسفي في تبصرة الأدلة، وغيره.

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان: إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم، كما تقدم، أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله. أو باللسان وحده، كما تقدم ذكره عن الكرامية. أو بالقلب وحده، وهو إما المعرفة، كما قاله الجهم. أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي. وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

الِاخْتِلَافُ بَيْنَ أَبِي حَنِيفَةَ وَسَائِرِ الْأَئِمةِ فِيمَا يَقَعُ عَلَيْهِ اسْمُ الْإِيمانِ اخْتِلَافٌ صُورِي

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة - اختلاف صوري. فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب، أو جزءا من الإيمان، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو في مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء عفا عنه - نزاع لفظي، لا يترتب عليه فساد اعتقاد. والقائلون بتكفير تارك الصلاة، ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى، وإلا فقد نفى النبي ﷺ الإيمان عن الزاني والسارق وشارب الخمر والمنتهب، ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية، اتفاقا.

ولا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل، وأعني بالقول: التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهذا الذي يعنى به عند إطلاق قولهم: " الإيمان قول وعمل "، لكن هذا المطلوب من العباد: هل يشمله اسم " الإيمان " ؟ أم الإيمان أحدهما،

---

(١) سورة ص آية ٨٢ .

وهو القول وحده والعمل مغاير له لا يشمله اسم " الإيمان " عند إفراده بالذكر، وإن أطلق عليهما كان مجازا ؟ هذا محل الـ اع.

وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه، وامتنع عن العمل بجوارحه: أنه عاص لله ورسوله، مستحق الوعيد، لكن فيمن يقول: إن الأعمال غير داخلة في مسمى " الإيمان " من قال: لما كان " الإيمان " شيئا واحدا فإيماني [1] كإيمان أبي بكر الصديق وعمر ! بل قال: كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل وميكائيل!! وهذا غلو منه. فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولا شك أن البصراء يختلفون في قوة البصر وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى، و[من] يرى الخط الثخين، دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها، ولا يرى عن قرب زائد على العادة، وآخر بضده.

ولهذا - والله أعلم - قال الشيخ رحمه الله: " وأهله في أصله سواء "، يشير إلى أن التساوي إنما هو في أصله، ولا يلزم منه التساوي من كل وجه، بل تفاوت [درجات] نور " لا إله إلا الله " في قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى؛ فمن الناس من نور " لا إله إلا الله " في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضيء، وآخر كالسراج الضعيف. ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علما وعملا، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته، بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبا إلا أحرقه. وهذه حال الصادق في توحيده، فسماء إيمانه قد حرس بالرجوم من كل سارق، ومن عرف هذا عرف معنى قول النبي ﷺ ﴿ إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله ﴾ [2] ، وقوله: ﴿ لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله ﴾ . وما جاء من هذا

(١) في المطبوعة " فإيمان " . وما أثبتنا هو الصواب ، الذي يقتضيه السياق .

(٢) البخاري الصلاة (٤١٥) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٣٣) .

النوع من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهي، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود، ونحو ذلك.

والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونا بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب.

وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها [1].

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار. وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان، التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت [2].

وتأمل ما قام بقلب البغي من الإيمان، حين نزعت موقها وسقت الكلب من الركية، فغفر لها [3].

وهكذا العقل أيضا، فإنه يقبل التفاضل، وأهله في أصله سواء، مستوون في أنم عقلاء غير مجانين، وبعضهم أعقل من بعض.

وكذلك الإيجاب والتحريم، فيكون إيجاب دون إيجاب، وتحريم دون تحريم. هذا هو الصحيح، وإن كان بعضهم قد طرد ذلك في العقل والوجوب.

---

(١) يشير الشارح -رحمه الله- إلى حديث عبد الله بن عمرو ، في المسند : ٦٩٩٤ . وهو حديث صحيح ، خرجناه وشرحناه في شرح المسند .

(٢) إشارة إلى حديث صحيح ، رواه الشيخان وغيرهما ، من حديث أبي سعيد الخدري . وهو في الترغيب والترهيب ٤ : ٧٧ .

(٣) إشارة أيضا إلى حديث صحيح . رواه البخاري وغيره . انظر فتح الباري ٦ : ٢٥٦ ، ٣٧١ - ٣٧٣ .

الْكَلَامُ فِي زِيَادَةِ الْإِيمَانِ إِجْمَالًا وَتَفْصِيلًا

وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل - فمعلوم أنه لا يجب في أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره، كما في حق النجاشي وأمثاله.

وأما الزيادة بالعمل والتصديق، المستلزم لعمل القلب والجوارح -: فهو أكمل من التصديق الذي لا يستلزمه، فالعلم الذي يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذي لا يعمل به، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم. ولهذا قال النبي ﷺ ﴿ليس المخبر كالمعاين﴾ ، وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى في خبر الله، لكن المخبر وإن جزم بصدق المخبر، فقد لا يتصور المخبر به في نفسه، كما يتصوره إذ عاينه، كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ ﴾ [1].

وأيضا: فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلا، يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به، ويؤمن بأن الله أوجب عليه مَا لَا يَجِبُ على غيره [الإيمان به] [2] إِلا مُجْمَلًا، وَهَذَا يَجِبُ عليه فيه الْإِيمَانُ الْمُفَصلُ.

وَكَذَلِكَ الرجُلُ أولَ مَا يُسْلِمُ، إِنمَا يَجِبُ عليه الْإِقْرَارُ الْمُجْمَلُ، ثُم إِذَا جَاءَ وَقْتُ الصلاة كَانَ عليه أَنْ يُؤْمِنَ بِوُجُوبِهَا وَيُؤَدِيهَا، فَلَمْ يَتَسَاوَ الناسُ فِيمَا أُمِرُوا به مِنَ الْإِيمَانِ.

وَلَا شَك أن مَنْ قَامَ بِقَلْبِه التصْدِيقُ الْجَازِمُ، الذي لَا يَقْوَى على مُعَارَضَتِه شَهْوَة وَلَا شُبْهَة - لَا تَقَعُ معه مَعْصِيَة، وَلَوْلَا مَا حَصَلَ له مِنَ الشهْوَة وَالشبْهَة أَوْ إِحْدَاهُمَا لَمَا عَصَى، بَلْ يَشْتَغِلُ قَلْبه ذَلِكَ الْوَقْتَ بِمَا يُوَاقِعُه مِنَ الْمَعْصِيَة، فَيَغِيبُ عنه التصْدِيقُ وَالْوَعِيدُ

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

(٢) زيادة ضرورية ، لا يستقيم الكلام إلا بها ، أو بما في معناها .

فَيَعْصِي. وَلِهَذَا - والله أَعْلَمُ - قَالَ ﷺ ﴿لَا يَزْنِي الزانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾[1] الْحَدِيث. فَهُوَ حِينَ يَزْنِي يَغِيبُ عنه تَصْدِيقُه بِحُرْمَة الزنَا. وَإِنْ بَقِي أَصْلُ التصْدِيق في قَلْبه، ثُم يُعَاوِدُه. فَإِن الْمُتقِين كَمَا وَصَفَهُمُ الله تعالى بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١ ﴾[2]. قَالَ لَيْثٌ عَنْ مُجَاهِدٍ: هُوَ الرجُلُ يَهم بِالذنْبِ فَيَذْكُرُ الله فَيَدَعُه. وَالشهْوَة وَالْغَضَبُ مَبْدَأُ السيئَاتِ، فَإِذَا أَبْصَرَ رَجَعَ. ثُم قَالَ تعالى: ﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ٢٠٢ ﴾[3] أي: وَإِخْوَانُ الشيَاطِين تَمُدهُمُ الشيَاطِينُ في الْغي ثم لَا يُقْصِرُونَ. قَالَ ابْنُ عَباسٍ: لَا الْإِنْسُ تُقْصِرُ عَنِ السيئَاتِ، وَلَا الشيَاطِينُ تُمْسِكُ عَنْهُمْ. فَإِذَا لَمْ يُبْصِرْ يَبْقَى قَلْبه في عَمًى، وَالشيْطَانُ يَمُده في غَيه وَإِنْ كَانَ التصْدِيقُ في قَلْبه لَمْ يَكْذِبْ، فَذَلِكَ النورُ وَالْإِبْصَارُ، وَتِلْكَ الْخَشْيَة وَالْخَوْفُ تَخْرُجُ مِنْ قَلْبه. وَهَذَا كَمَا أن الْإِنْسَانَ يُغْمِضُ عَيْنَيه فَلَا يَرى، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْمَى، فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ، بِمَا يَغْشَاه مِنْ رَيْنِ الذنُوبِ، لَا يُبْصِرُ الْحَق وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْمَى كَعَمَى الْكَافِرِ. وَجَاءَ هَذَا المعنى مَرْفُوعًا إلى النبي ﷺ أنه قَالَ: ﴿إِذَا زَنَا الْعَبْدُ نُزِعَ منه الْإِيمَانُ، فَإِنْ تَابَ أُعِيدَ إليه﴾[4].

النزَاعُ في زِيَادَة الْإِيمَانِ وَنُقْصَانِه لَفْظِي

وَإِذَا كَانَ النزَاعُ في هذه المسألة بَيْنَ أَهْلِ السنة نِزَاعًا لَفْظِيا، فَلَا مَحْذُورَ فيه، سِوَى مَا يَحْصُلُ مِنْ عُدْوَانِ إحدى الطائِفَتَيْنِ على الأخرى وَالِافْتِرَاقِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَأَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ

(١) البخاري المظالم والغصب (٢٣٤٣) ، مسلم الإيمان (٥٧) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٥) ، النسائي الأشربة (٥٦٥٩) ، أبو داود السنة (٤٦٨٩) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٣٦) ، أحمد (٣٨٦/٢) ، الدارمي الأشربة (٢١٠٦) .

(٢) سورة الْأَعْرَاف آية : ٢٠١ .

(٣) سورة الْأَعْرَاف آية : ٢٠٢ .

(٤) البخاري الحدود (٦٤٢٤) .

ذَرِيعَة إلى بِدَع أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ مِنْ أَهْلِ الْإِرْجَاءِ وَنَحْوِهِمْ، وإلى ظُهُورِ الْفِسْقِ وَالْمَعَاصِي، بِأَنْ يَقُولَ: أنا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ حَقّا كَامِلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَلِي مِنْ أَوْلِيَاءِ الله ! فَلَا يُبَالِي بِمَا يَكُونُ منه مِنَ الْمَعَاصِي. وَبِهَذَا المعنى قَالَتِ الْمُرْجِئَة: لَا يَضُر مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَه ! وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا.

فَالْإِمَامُ أَبو حنيفة ﷺ نَظَرَ إلى حَقِيقَة الْإِيمَانِ لُغَة مَع أَدِلة مِنْ كَلَامِ الشارِع. وَبَقِية الْأَئمة رَحِمَهُمُ الله نَظَرُوا إلى حَقِيقَته في عُرْفِ الشارِع، فَإِن الشارِعَ ضَم إلى التصْدِيقِ أَوْصَافًا وَشَرَائط، كَمَا في الصلاة وَالصوْمِ وَالْحَج وَنَحْوِ ذَلِكَ.

أَدِلةُ أَصْحَابِ أَبِي حَنِيفَةَ

فَمِنْ أَدِلة الْأَصْحَابِ لأبي حنيفة رحمه الله: أَن " الْإِيمَانَ " في اللغَة عِبَارَة عَن التصْدِيق، قَالَ تعالى خَبَرًا عَنْ إِخْوَة يُوسُفَ: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [1] أي بِمُصَدقٍ لَنا، وَمِنْهُمْ مَن ادعَى إِجْمَاعَ أَهْلِ اللغَة على ذَلِكَ. ثُم هَذَا المعنى اللغَوِي، وَهُوَ التصْدِيقُ بِالْقَلْبِ، هُوَ الْوَاجِبُ على الْعَبْدِ حَقّا لله، وَهُوَ أَنْ يُصَدقَ الرسُولَ ﷺ فِيمَا جَاءَ به مِنْ عِنْدِ الله، فَمَنْ صَدقَ الرسُولَ فِيمَا جَاءَ به مِنْ عِنْدِ الله فَهُوَ مُؤْمِنٌ فِيمَا بَيْنَه وَبَيْنَ الله تعالى، وَالْإِقْرَارُ شَرْط إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ في الدنْيا. هَذَا على أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ، كَمَا تَقَدمَ، ولأنه ضِد الْكُفْرِ، وَهُوَ التكْذِيبُ وَالْجُحُودُ، وَهُمَا يَكُونَانِ بِالْقَلْبِ، فَكَذَا مَا يُضَادهُمَا. وقوله: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ ﴾ [2] يَدُل على أن الْقَلْبَ هُوَ مَوْضِعُ الْإِيمَانِ، لَا اللسَانَ، ولأنه لَوْ كَانَ مُرَكبًا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ لَزَالَ كله بِزَوَالِ جُزْئه، وَلأن الْعَمَلَ قَدْ عُطِفَ على الْإِيمَانِ، وَالْعَطْفُ يَقْتَضِي الْمُغَايَرة، قَالَ تعالى: ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ﴾ [3] في مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرآنِ.

---

(١) سورة يُوسُفَ آية ١٧ .

(٢) سورة النحْلِ آية ١٠٦ .

(٣) سورة البقرة آية ٢٥ .

وَقَدِ اعْتُرِضَ على اسْتِدْلَالِهِمْ بِأن الْإِيمَانَ في اللغة عِبَارَة عَنِ التصْدِيق - بِمَنْعِ التَرَادُفِ بَيْنَ التصْدِيق وَالْإِيمان، فَهبْ أن الْأمرَ يَصِح في مَوْضِع، فَلِمَ قُلْتُمْ أنه يُوجِبُ التَرادُفَ مُطْلَقًا؟ وَكَذَلِكَ اعْتُرِضَ على دَعْوى التَرادُفِ بَيْنَ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمان. وَمما يَدُل على عَدَمِ التَرادُفِ: أنه يُقَالُ لِلْمُخْبِرِ إذَا صَدق: صَدقَه، وَلَا يُقَالُ [1] آمنه، وَلَا آمنَ به، بَلْ يُقَالُ: آمنَ له، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [2]. ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ [3]. وَقَالَ تعالى: ﴿ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [4] فَفرق بَيْنَ الْمُعدى بِالْبَاءِ وَالْمعدى بِاللامِ، فَالْأول يُقَالُ لِلْمُخْبَرِ به. والثاني لِلْمُخْبِرِ. وَلَا يَرِدُ كَوْنه يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: مَا أَنْتَ بِمُصَدقٍ لَنا، لِأن دُخُولَ اللامِ لِتَقْوِيَة الْعَامِلِ، كَمَا إِذَا تَقَدمَ الْمَعْمُولُ، أَوْ كَانَ الْعَامِلُ اسْمَ فَاعِلٍ، أَوْ مَصْدَرًا، على مَا عُرِفَ في مَوْضِعِه.

فَالْحَاصِلُ أنه لَا يُقَالُ: قَدْ آمَنْته، وَلَا صَدقْتُ له، إنما يُقَالُ. آمنْتُ له، كَمَا يُقَالُ: أَقْرَرْتُ له. فَكَانَ تَفْسِيرُه بِـ " أَقْرَرْتُ " أَقْرب مِنْ تَفْسِيرِه بِـ " صَدقْتُ " مَعَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا؛ لِأن الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا ثَابِتٌ في المعنى، فَإن كُل مُخْبِرٍ عَنْ شَاهَد أَوْ غَيْبٍ، يُقَالُ له في اللغَة: صَدَقْتَ، كَمَا يُقَالُ له: كَذَبْتَ. فَمَنْ قَالَ: السمَاءُ فَوْقنا، قِيلَ له صَدَقْتَ.

وَأما لَفْظُ " الْإِيمانِ " فَلَا يُسْتَعْمَلُ إلا في الْخَبَرِ عَنِ الْغائِبِ، فَيُقَالُ لِمَنْ قَالَ: طَلَعَتِ الشمْسُ -: صَدقْنَاه، وَلَا يُقَالُ: آمنا له، فَإن فيه أَصْلَ معنى الأَمْنِ، وَالإيمانُ إنمَا يَكُونُ في الْخَبَرِ عَنِ الْغَائِبِ، فَالْأَمرُ الْغَائِبُ هُوَ الذي يُؤْتَمَنُ عليه الْمُخْبِرُ. وَلِهَذَا لَمْ يَأْتِ في الْقُرْآنِ وغيره " لَفْظُ " " آمنَ له " - إلا في هَذَا النوْعِ. ولأنه لَمْ يُقَابَلْ لَفْظ " الْإِيمانِ " قَط بِالتكْذِيبِ، كَمَا يُقَابَلُ لَفْظُ " التصْدِيق "، وَإِنمَا يُقَابَلُ بِالْكُفْرِ، وَالْكُفْرُ لَا يَخْتَص

---

(١) في المطبوعة " ومنه لا يقال " ! وزيادة " منه " لا معنى لها ، بل تفسد الكلام .

(٢) سورة الْعَنْكَبُوتِ آية ٢٦ .

(٣) سورة يُونُسَ آية ٨٣ .

(٤) سورة التَوْبَة آية ٦١ .

بِالتكْذِيبِ، بَلْ لَوْ قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ أَنكَ صَادِقٌ وَلَكِنْ لَا أَتبِعُكَ، بَلْ أُعَادِيكَ وَأُبْغِضُكَ وَأُخَالِفُكَ - لَكَانَ كُفْرًا أَعْظَمَ، فَعُلِمَ أَن الْإِيمَانَ لَيْسَ التصْدِيقَ فَقَطْ، وَلَا الْكُفْرُ هُوَ التكْذِيبَ فَقَطْ. بَلْ إِذَا كَانَ الْكُفْرُ يَكُونُ تَكْذِيبًا، وَيَكُونُ مُخَالَفَةً وَمُعَادَاةً بِلَا تَكْذِيبٍ - فَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ، يَكُونُ تَصْدِيقًا وَمُوَافَقَةً وَانْقِيَادًا، وَلَا يَكْفِي مُجَردُ التصْدِيقِ، فَيَكُونُ الْإِسْلَامُ جُزْءَ مسمى الْإِيمَانِ.

وَلَوْ سُلمَ الترَادُفُ، فَالتصْدِيقُ يَكُونُ بِالْأَفْعَالِ أَيْضًا، كَمَا ثَبَتَ فِي الصحِيحِ عَنِ النبِي ﷺ أَنه قَالَ: ﴿ الْعَيْنَانِ تَزْنِيَانِ، وَزِنَاهُمَا النظَرُ، وَالْأُذُنُ تَزْنِي، وَزِنَاهَا السمْعُ ﴾ [1] ، إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ وَالْفَرْجُ يُصَدقُ ذَلِكَ وَيُكَذبُه ﴾ [2] ، وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِي رحمه الله: (لَيْسَ الْإِيمَانُ بِالتحَلي وَلَا بِالتمَني، وَلَكِنه مَا وَقَرَ فِي الصدُورِ وَصَدقَتْه الْأَعْمَالُ). وَلَوْ كَانَ تَصْدِيقًا فَهُوَ تَصْدِيقٌ مَخْصُوصٌ، كَمَا فِي الصلاة وَنَحْوِهَا كَمَا تَقدمَ، وَلَيْسَ هَذَا نَقْلًا لِلفْظِ وَلَا تَغْيِيرًا له، فَإِن الله لَمْ يَأْمر بِإِيمَانٍ مُطْلَقٍ، بَلْ بِإِيمَانٍ خَاص، وَصَفَه وَبَينَه. فَالتصْدِيقُ الذي هُوَ الْإِيمَانُ، أَدْنَى أَحْوَالِه أَنْ يَكُونَ نَوْعًا مِنَ التصْدِيقِ الْعَام، فَلَا يَكُونُ مُطَابِقًا له فِي الْعُمُومِ وَالْخُصُوصِ، مِنْ غَيْرِ تَغيِير اللسانِ وَلَا قَلْبِه، بَلْ يَكُونُ " الْإِيمَانُ " فِي كَلَامِ الشارِعِ مُؤَلفًا مِنَ الْعَام وَالْخَاص، كَالْإِنْسَانِ الْمَوْصُوفِ بِأَنه حَيَوَانٌ نَاطِقٌ، وِلأَن التصْدِيقَ التام الْقَائِمَ بِالْقَلْبِ مُسْتَلْزِمٌ لِمَا وَجَبَ مِنْ أَعْمَالِ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ، فَإِن هذه لَوَازِمُ الْإِيمَانِ التام، وَانْتِفَاءُ اللازِمِ دَلِيلٌ على انْتِفَاءِ الْمَلْزُومِ.

وَنَقُولُ: إِن هذه لَوَازِمُ تَدْخُلُ في مسمى اللفْظِ تَارَةً، وَتَخْرُجُ عنه أخرى، أَوْ إِن اللفْظَ بَاقٍ على معناه في اللغَة، وَلَكِن الشارِعَ زَادَ فيه أَحْكَامًا، أَوْ أَنْ يَكُونَ الشارِعُ اسْتَعْمَلَه في معناه الْمَجَازِي، فَهُوَ حَقِيقَة شَرْعِية، مَجَازٌ لُغَوِي، أَوْ أَنْ يَكُونَ قَدْ نَقَلَه الشارِعُ. وهذه الْأَقْوَالُ لِمَنْ سَلَكَ هَذِا الطرِيقَ.

---

(١) البخاري الاستئذان (٥٨٨٩) ، مسلم القدر (٢٦٥٧) ، أبو داود النكاح (٢١٥٢) ، أحمد (٣٤٣/٢) .

(٢) البخاري الاستئذان (٥٨٨٩) ، مسلم القدر (٢٦٥٧) ، أبو داود النكاح (٢١٥٢) ، أحمد (٣٤٣/٢) .

وَقالُوا: إن الرسُولَ قَدْ [وَقفنَا] [١] على معاني الْإِيمَانِ، وَعَلِمْنَا مِنْ مُرَادِه عِلْمًا ضَرُورِيا أن مَنْ قالَ أنه صَدقَ وَلَمْ يَتكلمْ بِلِسَانِه بِالْإِيمَانِ، مَعَ قُدْرَته على ذَلِكَ، وَلَا صلى، وَلَا صَامَ. وَلَا أَحب الله ورسوله، وَلَا خَافَ الله، بَلْ كَانَ مُبغِضًا لِلرسُول، مُعَادِيًا له يُقَاتِلُه - أن هَذَا لَيس بِمُؤْمِنٍ.

الْأَحَادِيثُ الدالةُ عَلَى دُخُولِ الْأعْمَالِ فِي مُسَمى الْإِيمَانِ

كَمَا عَلِمْنَا أنه رَتبَ الْفَوْزَ وَالْفَلَاحَ على التكلمِ بِالشهَادَتَيْنِ مَعَ الْإِخْلَاصِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُمَا. فَقَدْ قَالَ ﷺ ﴿ الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَة، أعلاها قَوْلُ لَا إِلَه إلا الله وَأَدْنَاهَا إِمَاطَة الْأذَى عَنِ الطرِيقِ ﴾ [٢]. وَقَالَ أيضًا ﷺ ﴿ الْحَيَاءُ شُعْبَة مِنَ الْإِيمَانِ ﴾ [٣]. وَقَالَ أيضا ﷺ ﴿ أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ﴾ [٤]. وَقَالَ أيضًا ﷺ ﴿ الْبَذَاذَة مِنَ الْإِيمَانِ ﴾ [٥].

فَإِذَا كَانَ الْإِيمَانُ أَصْلًا له شُعَبٌ مُتَعددَة، وَكُل شُعْبَة مِنْهَا تُسَمى: إِيمَانًا، فَالصلَاة مِنَ الْإِيمَانِ، وَكَذَلِكَ الزكَاة وَالصوْمُ وَالْحَج وَالْأَعْمَالُ الْبَاطِنَة، كَالْحَيَاءِ وَالتوَكلِ وَالْخَشْيَة مِنَ الله وَالْإِنَابَة إليه، حتى تَنْتَهِي هذه الشعَبُ إلى إِمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطرِيقِ، فإنه مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ. وهذه الشعَبُ، مِنْهَا مَا يَزُولُ الْإِيمَانُ بِزَوَالِهَا إِجْمَاعًا، كَشُعْبَة الشهَادَتين، وَمِنْهَا مَا لَا يَزُولُ بِزَوَالِهَا إجماعا، كَتَرْكِ إِمَاطَة الْأَذَى عَنِ الطرِيقِ، وَبَيْنَهُمَا شُعَبٌ مُتَفَاوِتَة تَفَاوُتًا عَظِيمًا، مِنْهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ شُعْبَة الشهَادَة، وَمِنْهَا مَا يَقْرُبُ مِنْ شُعْبَة إِمَاطَة الْأَذَى، وَكَمَا

---

(١) في الأصل : (وافقنا) . ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .

(٢) البخاري الإيمان (٩) ، مسلم الإيمان (٣٥) ، الترمذي الإيمان (٢٦١٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٥) ، أبو داود السنة (٤٦٧٦) ، ابن ماجه المقدمة (٥٧) ، أحمد (٤١٤/٢) .

(٣) البخاري الإيمان (٩) ، مسلم الإيمان (٣٥) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٦) ، أبو داود السنة (٤٦٧٦) ، ابن ماجه المقدمة (٥٧) ، أحمد (٤١٤/٢) .

(٤) الترمذي الرضاع (١١٦٢) ، أحمد (٢٥٠/٢) ، الدارمي الرقاق (٢٧٩٢) .

(٥) أبو داود الترجل (٤١٦١) ، ابن ماجه الزهد (٤١١٨) .

أن شُعَبَ الْإِيمَانِ إِيمانٌ، فَكَذَا شُعَبُ الْكُفْرِ كُفْرٌ، فَالْحُكْمُ بِمَا أَنزَلَ الله - مَثَلًا - مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَالْحُكْمُ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ الله كُفْرٌ. وَقَدْ قَالَ ﷺ ﴿مَنْ رأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغيره بِيدِه فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانه، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِه، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ﴾ [(١)]. رواه مُسْلِمٌ. وفي لَفْظٍ: ﴿لَيس وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حبة خَرْدَلٍ﴾ [(٢)] وروى الترمذي عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أنه قَالَ: ﴿مَنْ أحب لله، وَأَبْغَضَ لله، وَأَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله -: فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ﴾ [(٣)]. ومعناه - والله أَعْلَمُ - أن الْحُب وَالْبُغْضَ أَصْلُ حَرَكَةِ الْقَلْبِ، وَبَذْلُ الْمَالِ وَمَنْعُه هُوَ كَمَالُ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمَالَ آخِرُ الْمُتَعَلقَاتِ بِالنفْسِ، وَالْبَدَنُ مُتَوَسطٌ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْمَالِ، فَمَنْ كَانَ أَولُ أَمْرِه وَآخِرُه كله لله، كَانَ الله إِلَهَه في كُل شَيْءٍ، فَلَمْ يَكُنْ فيه شَيْءٌ مِنَ الشرْكِ، وَهُوَ إِرَادَةُ غَيْرِ الله وَقَصْدُه وَرَجَاؤُه، فَيَكُونُ مُسْتَكْمِلَ الْإِيمَانِ، إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحَادِيثِ الدالة على قُوة الْإِيمَانِ وَضَعْفِه بِحَسَبِ الْعَمَلِ.

وَسَيَأْتي في كَلَامِ الشيْخِ رحمه الله في شَأْنِ الصحَابَة: " وَحُبهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ، وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ ". فَسَمى حُب الصحَابَة إِيمَانًا، وَبُغْضَهُمْ كُفْرًا.

وَمَا أَعْجَبَ مَا أَجَابَ به أَبو الْمُعِينِ النسَفِي وغيره، عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِحَدِيثِ شُعَبِ الْإِيمَانِ الْمَذْكُورِ، وَهُوَ: أن الراوي قَالَ: "بِضْعٌ وَسِتون أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ"، فَقَدْ شَهِدَ الراوي [بِغَفْلَة] [(٤)] نَفْسِه حَيْثُ شَك فَقَالَ "بِضْعٌ وَسِتونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ" وَلَا يُظَن بِرَسُولِ الله ﷺ الشك في ذَلِكَ ! وَأَن هَذَا الْحَدِيثَ مُخَالِفٌ لِلْكِتَابِ !!.

فَطَعَنَ فيه بِغَفْلَة الراوي وَمُخَالَفَته الْكِتَابَ. فَانْظُرْ إلى هَذَا الطعْنِ مَا أَعْجَبَه ! فَإِن تَرَددَ

---

(١) مسلم الإيمان (٤٩) ، الترمذي الفتن (٢١٧٢) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨) ، أبو داود الصلاة (١١٤٠) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٧٥) ، أحمد (١٠/٣) .

(٢) مسلم الإيمان (٥٠) ، أحمد (٤٥٨/١) .

(٣) الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥٢١) ، أحمد (٤٣٨/٣) .

(٤) في الأصل : (بفعله) . والصواب ما أثبتناه ، كما في أكثر النسخ . ن .

الراوي بين الستين والسبعين لا يلزم منه عدم ضبطه، مع أن البخاري رحمه الله إنما رواه ﴿بضع وستون﴾ [1] من غير شك.

وأما الطعن بمخالفة الكتاب، فأين في الكتاب ما يدل على خلافه ؟ ! وإنما فيه ما يدل على وفاقه، وإنما هذا الطعن من ثمرة شؤم التقليد والتعصب.

وقالوا أيضا: وهنا أصل آخر، وهو: أن القول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان: عمل القلب، وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح. فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم ينفع بقية الآخر، فإن تصديق القلب شرط في اعتبارها وكونها نافعة، وإذا بقي تصديق القلب وزال الباقي فهذا موضع المعركة ! !

ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب، إذ لو أطاع القلب وانقاد، لأطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة. قال ﷺ ﴿إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب﴾ [2]. فمن صلح قلبه صلح جسده قطعا، بخلاف العكس. وأما كونه يلزم من زوال جزئه زوال كله، فإن أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت، فمسلم، ولكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء، فيزول عنه الكمال فقط.

أدلة الكتاب والسنة على زيادة الإيمان ونقصانه

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جدا:

(١) البخاري الإيمان (٩) ، مسلم الإيمان (٣٥) ، ابن ماجه المقدمة (٥٧) .

(٢) البخاري الإيمان (٥٢) ، مسلم المساقاة (١٥٩٩) ، الترمذي البيوع (١٢٠٥) ، النسائي البيوع (٤٤٥٣) ، أبو داود البيوع (٣٣٢٩) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٨٤) ، أحمد (٤/٢٧٠) ، الدارمي البيوع (٢٥٣١) .

مِنْهَا: قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾[1]. ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ ﴾[2]. ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ ﴾[3]. ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ ﴾[4]. ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾[5].

وَكَيْفَ يُقَالُ في هذه الآية والتي قَبْلَهَا إن الزِيَادة بِاعْتِبَارِ زِيَادَة الْمُؤْمِن به ؟ فَهَلْ في قَوْلِ الناسِ " قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ " زِيَادَة مَشْرُوعٍ ؟ وَهَلْ في إِنْزَالِ السكِينَة على قُلُوبِ الْمُؤْمِنينَ زِيَادَة مَشْرُوعٍ ؟ وَإِنمَا أَنزَلَ الله السكِينَة في قُلُوبِ الْمُؤْمِنينَ مَرْجِعَهُمْ مِنَ الْحُدَيْبِيَة لِيَزْدَادُوا طُمَأْنِينَة وَيقِينًا، وَيُؤَيدُ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ ﴾[6]. وَقَالَ تعالى: ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾[7]. وَأما مَا رواه الْفَقِيه أَبو اللَّيْثِ السمَرْقَنْدِي، في تَفْسِيره عِنْدَ هذه الآية، فَقَالَ: حَدثنَا مُحَمدُ بْنُ الْفَضْلِ وَأَبو الْقَاسِمِ السابَاذِي، قَالَا: حَدثنَا فَارِسُ بْنُ مَرْدَوَيْه، قَالَ: حَدثنَا مُحَمدُ بْنُ الْفَضْلِ بن الْعَابِدُ، قَالَ: حَدثنَا يحيى بْنُ عيسى، قَالَ: حَدثنَا أَبو مُطِيعٍ، عَنْ حَمادِ بْنِ سلمة،

---

(١) سورة الْأنفَال آية ٢ .
(٢) سورة مَرْيَم آية ٧٦ .
(٣) سورة الْمدثرِ آية ٣١ .
(٤) سورة الْفَتْح آية ٤ .
(٥) سورة آل عِمْرَان آية ١٧٣ .
(٦) سورة آل عِمْرَان آية ١٦٧ .
(٧) سورة التوْبَة الآيتان ١٢٤ ، ١٢٥ .

عَن أبي الْمُهَزِم، عَنْ أبي هريرة، قَالَ: ﴿ جَاءَ وَفْدُ ثَقِيفٍ إلى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ الله، الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ؟ فَقَالَ: لَا، الْإِيمَانُ مُكمَلٌ في الْقَلْبِ، زِيَادَته كفر وَنُقْصَانه شرك ﴾ فَقَدْ سُئِلَ شَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدينِ ابْنُ كَثِيرٍ رحمه الله تعالى عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ ؟ فَأَجَابَ: بِأَن الْإِسْنَادَ مِنْ أبي اللَّيْثِ إلى أبي مُطِيعٍ مَجْهُولُونَ لَا يُعْرَفُونَ في شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ التَّوارِيخِ الْمَشْهُورَة. وَأما أَبو مُطِيعٍ، فَهُوَ: الْحَكَمُ بْنُ عَبْدِ الله بنِ مَسْلَمَة الْبَلْخِي، ضَعفَه أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، وَيَحْيَى بْنُ مَعِينٍ، وَعَمْرو بْنُ عَلِي الْفَلاسُ، والبخاري، وَأَبو دَاوُدَ، والنسائي، وَأَبو حَاتِمٍ الرازي، وَأَبو حَاتِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حِبان الْبُسْتِي، وَالْعُقَيْلي، وَابْنُ عَدِي، وَالدارَقُطْنِي، وَغَيْرُهُمْ. وَأما أَبو الْمُهَزِم، الراوي عَنْ أبي هريرة: فَقَدْ تَصَحفَ على الْكَاتِبِ، وَاسْمُه: يَزِيدُ بْنُ سُفْيان، فَقَدْ ضَعفَه أَيضًا غَيْرُ وَاحِدٍ، وَتَرَكه شُعْبَة بْنُ الْحَجاجِ، وَقَالَ النسائي: مَتْرُوكٌ، وَقَدِ اتهمَه شُعْبَة بِالْوَضْعِ، حَيْثُ قَالَ: لَوْ أَعْطَوْه فَلْسَيْنِ لَحَدثَهُمْ سَبْعِين حَدِيثًا [1]!!!

وَقَدْ وَصَفَ النبي ﷺ النسَاءَ بِنُقْصَانِ الْعَقْلِ وَالدينِ. وَقَالَ ﷺ ﴿ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى أَكُونَ أَحب إليه مِنْ وَلَدِه وَوَالِدِه وَالناسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [2]. وَالْمُرَادُ نَفْيُ الْكَمَالِ، وَنَظَائِرُه كثيرة، وَحَدِيثُ شُعَبِ الْإِيمانِ، وَحَدِيثُ الشفَاعَة، وأنه يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ في قَلْبِه أَدْنى أَدْنى مِثْقَالِ ذَرة مِنْ إِيمانٍ. فَكَيْفَ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا: إِن إِيمَانَ أَهْلِ السمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ سَوَاءٌ ؟

(١) أبو مطيع البلخي هذا : مترجم في الميزان ولسان الميزان ، وذكره ابن حبان في كتاب المروحين (الورقة : ٨٥ من المخطوطة) . وذكروا هذا الكلام الذي رواه أو افتعله . وقال ابن حبان : " كان من رؤساء المرجئة ، ممن يبغض السنن ومنتحليها " . ثم نقل روايته هذه ، ثم قال : " فيما يشبه هذا الذي ينكره من جالس أهل العلم ، فكيف الممعن في الصناعة ؟ ! " . وكان لفظ هذه الرواية في المطبوعة محرفا ، فصححناه من هذه المراجع . وأبو المهزم : له ترجمة في الكنى من التهذيب ، وذكره ابن حبان في كتاب المروحين (الورقة : ٢٤٣) ، وروى جرح شعبة إياه . وأنا أميل إلى أن العهدة في هذه الفرية على أبي مطيع البلخي كما يفهم من صنيع ابن حبان . فما أظن حماد بن سلمة يروي مثل هذا عن أبي المهزم ، ولا عن عشرة من أمثال أبي المهزم .

(٢) البخاري الإيمان (١٥) ، مسلم الإيمان (٤٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠١٣) ، ابن ماجه المقدمة (٦٧) ، أحمد (٢٠٧/٣) ، الدارمي الرقاق (٢٧٤١) .

وَإنما التفاضُلُ بينَهمْ بِمَعانٍ أُخَرَ غَيْرِ الْإيمانِ ؟ !

قَولُ الصحابةِ في زِيَادةِ الْإيمانِ وَنُقْصانِه

وَكَلَامُ الصحابة رضي الله عَنْهُمْ في هَذَا المعنى كَثِيرٌ أيضًا. منه: قَوْلُ أبي الدرْدَاءِ ﷺ مِنْ فِقْه الْعَبدِ أن يَتَعَاهَدَ إيمانَه وما نَقَصَ منه، وَمِنْ فِقْه الْعَبدِ أنْ يَعْلَمَ أيَزدادُ هُوَ أمْ يَنْقص.

وَكَانَ عُمَرُ ﷺ يَقُولُ لِأصْحَابِه: (هَلُموا نَزْدَدْ إيمانًا)، فَيَذْكُرُونَ الله عَز وَجَل.

وَكَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ [1] يَقُولُ في دُعَائِه: (اللهُم زِدْنا إيمانًا وَيَقِينًا وَفِقْهًا).

وَكَانَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ يَقُولُ لِرَجُلٍ: (اجْلِسْ بِنَا نُؤْمِنْ سَاعَة). وَمِثْلُه عَنْ عَبدِ الله بْنِ رَوَاحَة.

وَصَح عَنْ عَمارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ أنه قَالَ: (ثَلَاثٌ مَنْ كُن فيه فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الْإيمَانَ: إنْصَافٌ مِنْ نَفْسِه، وَالْإنفَاقُ مِنْ إقْتَارٍ، وَبَذْلُ السلَامِ لِلْعَالَمِ). ذكره البخاري رحمه الله في صَحِيحِه [2]. وفي هَذَا الْقدرِ كِفَايَة، وَبالله التوْفِيقُ.

وَأما كَوْنُ عَطْفِ الْعَمَلِ على الْإيمانِ يَقْتَضِي الْمُغَايَرَة، فَلَا يَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا في مسمى الْإيمانِ - فَلَا شَك أن الْإيمانَ تَارَة يُذْكَرُ مُطْلَقًا عَنِ الْعَمَلِ وَعَنِ الْإسْلَامِ، وَتَارَة يُقْرَنُ بِالْعَمَلِ الصالِحِ، وَتَارَة يُقْرَنُ بِالْإسْلَامِ. فَالْمُطْلَقُ مُسْتَلْزِمٌ لِلْأعْمَالِ، قَالَ تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [3] الآية. ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [4] الآية. ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ

---

(١) في المطبوعة " أبو مسعود " . وصححناه من فتح الباري ١ : ٤٥ ، وذكر أنه رواه الإمام أحمد في كتاب الإيمان ، قال : " وإسناده صحيح " .

(٢) البخاري ١ : ٧٧ ، بنحوه .

(٣) سورة الْأنفَالِ آية ٢ .

(٤) سورة الْحُجُرَاتِ آية ١٥ .

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ [1].

وَقَالَ ﷺ ﴿ لَا يَزْنِي الزانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [2] الْحَدِيث. ﴿ لَا تُؤْمِنُوا حتى تَحَابوا ﴾ [3]. ﴿ مَنْ غَشنَا فَلَيْسَ مِنا ﴾ [4]... ﴿ مَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السلَاحَ فَلَيْسَ مِنا ﴾ [5]. وَمَا أَبْعَدَ قَوْلَ مَنْ قَالَ: إِن معنى قوله: فَلَيْسَ مِنا - أي فَلَيْسَ مِثْلَنَا ! فَلَيْتَ شِعْرِي: فَمَنْ لَمْ يَغُش يَكُونُ مِثْلَ النبي ﷺ وَأَصْحَابِه [6]. ؟

وأما إِذَا عُطِفَ عليه الْعَمَلُ الصالِحُ، فَاعْلَمْ أن عَطْفَ الشيْءِ على الشيْءِ يَقْتَضِي الْمُغَايَرة بَيْنَ الْمَعْطُوفِ وَالْمَعْطُوفِ عليه مَعَ الِاشْتِرَاكِ في الْحُكْمِ الذي ذُكِرَ لَهُمَا، وَالْمُغَايَرة على مَرَاتِب:

أَعْلَاهَا: أَنْ يَكُونَا مُتَبَايِنَيْنِ، لَيس أَحَدُهُمَا هُوَ الْآخَرَ، وَلَا جُزْءًا منه، وَلَا بَيْنهمَا تَلَازُمٌ، [كَقَوْله] [7] تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [8]. ﴿ وَأَنزَلَ

---

(١) سورة الْمَائِدَة آية ٨١ .

(٢) البخاري المظالم والغصب (٢٣٤٣) ، مسلم الإيمان (٥٧) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٥) ، النسائي الأشربة (٥٦٥٩) ، أبو داود السنة (٤٦٨٩) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٣٦) ، أحمد (٣٨٦/٢) ، الدارمي الأشربة (٢١٠٦) .

(٣) مسلم الإيمان (٥٤) ، الترمذي الاستئذان والآداب (٢٦٨٨) ، أبو داود الأدب (٥١٩٣) ، ابن ماجه المقدمة (٦٨) ، أحمد (٤٧٧/٢) .

(٤) مسلم الإيمان (١٠١) ، أحمد (٤١٧/٢) .

(٥) البخاري الديات (٦٤٨٠) ، مسلم الإيمان (٩٨) ، النسائي تحريم الدم (٤١٠٠) ، ابن ماجه الحدود (٢٥٧٦) ، أحمد (١٤٢/٢) .

(٦) وكان سفيان الثوري ينكر هذا التفسير أيضا ، كما نقلنا في شرحنا للمسند ، في الحديثين : ٢٣٢٩ ، ٧٢٩٠ .

(٧) في الأصل : (لقوله) . والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ ، وكما في الفتاوى ٧ / ١٧٢ . ن .

(٨) سورة الْأَنْعَامِ آية ١ .

ﭐﻟﺘَّﻮۡﺭَﺓَ ﻭَﭐﻟۡﺈِﻧﺠِﻴﻞَ ﴿٣﴾ ﴾ [(١)]. وَهذَا هُوَ الْغَالِبُ.

وَيلِيه: أَنْ يَكُونَ بينهُمَا تَلَازُمٌ، كَقَوْله تعالى: ﴿ وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [(٢)]. ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [(٣)].

الثالِثُ: عَطْفُ بَعْضِ الشيْءِ عليه، كَقَوْله تعالى: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ ﴾ [(٤)]. ﴿ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ ﴾ [(٥)]. ﴿ وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ ﴾ [(٦)].

وفي مِثْل هَذَا وَجْهَانِ:

أَحَدُهُمَا: أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا في الْأَول، فَيكُونُ مَذْكُورًا مَرتَيْن.

والثاني: أَن عَطْفَه عليه يَقْتَضِي أنه لَيسَ دَاخِلًا فيه هُنَا، وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فيه مُنْفَرِدًا، كَمَا قِيلَ مِثْلُ ذَلِكَ في لَفْظِ " الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ " [وَنَحْوِه، مما] [(٧)] تَتَنوعُ دِلَالَتُه بِالْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرانِ.

الرابِعُ: عَطْفُ الشيْءِ على الشيْءِ لِاخْتِلَافِ الصفَتيْن، كَقَوْله تعالى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ ﴾ [(٨)]. وَقَدْ جَاءَ في الشعْرِ الْعَطْفُ لِاخْتِلَافِ اللفْظِ فَقَطْ، كَقَوْله:

فَأَلْفَـى قَـوْلَها كَـذِبًا وَمَيْنًا

---

(١) سورة آل عِمْرَان آية ٣ .

(٢) سورة الْبقَرَة آية ٤٢ .

(٣) سورة الْمَائِدَة آية ٩٢ .

(٤) سورة الْبقَرَة آية ٢٣٨ .

(٥) سورة الْبقَرَة آية ٩٨ .

(٦) سورة الْأَحْزَاب آية ٧ .

(٧) في الأصل : (ونحوهما) ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .

(٨) سورة غَافِر آية ٣ .

وَمِنَ الناسِ مَنْ زَعَمَ أن في الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ ﴾ (١). وَالْكَلَامُ على ذَلِكَ مَعْرُوفٌ في مَوْضِعِه.

فَإِذَا كَانَ الْعطفُ في الْكَلَامِ يَكُونُ على هذه الْوُجُوه، نَظَرْنَا في كَلَامِ الشارِع: كَيْفَ وَرَدَ فيه " الْإِيمانُ " ؟ فَوَجَدْنَاه إِذَا أُطْلِقَ يُرَادُ به مَا يُرَادُ بِلَفْظِ الْبِر، وَالتقوى، وَالدين، وَدِين الْإِسْلَامِ.

ذُكِرَ في أَسْبَابِ النزولِ أنهُمْ سَأَلُوا عَنِ الْإِيمَانِ ؟ فَأَنْزَلَ الله هذه الآية: ﴿ ۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ ﴾ (٢) الْآيَاتِ.

قَالَ مُحَمدُ بْنُ نَصْرٍ: حَدثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ، حَدثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يَزِيدَ الْمُقْرِئُ، وَالْمُلَائِي، قَالَا: حَدثَنَا الْمَسْعُودِي، عَنِ الْقَاسِمِ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى أبي ذَر، فَسَأَلَه عَنِ الْإِيمَانِ ؟ فَقَرَأَ: ﴿ ۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ (٣) إلى آخِرِ الآية، فَقَالَ الرجُلُ: لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلْتُكَ، فَقَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إلى النبي ﷺ فَسَأَلَه عَنِ الذي سَأَلْتنِي عنه، فَقَرَأَ عليه الذي قَرَأْتُ عَلَيْكَ، فَقَالَ له الذي قُلْتَ لي، فَلَما أبى أَنْ يَرْضَى، قَالَ: إِن الْمُؤْمِنَ الذي إِذَا عَمِلَ الْحَسَنة سَرته وَرَجَا ثَوَابَها، وَإِذَا عَمِلَ السيئة سَاءَته وَخَافَ عِقَابَها (٤). وَكَذَلِكَ أَجَابَ جَمَاعَة مِنَ السلَفِ بِهَذَا الْجَوَابِ.

وفي الصحِيحِ قوله لِوَفْدِ عَبدِ الْقَيْسِ: ﴿ آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله ؟ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلا الله وَحْدَه لَا شَرِيكَ له، وَإِقَامُ الصلاة، وَإِيتَاءُ الزكَاة، وَأَنْ تُؤَدوا

---

(١) سورة الْمَائدَة آية ٤٨ .

(٢) سورة الْبقَرَة آية ١٧٧ .

(٣) سورة الْبقَرَة آية ١٧٧ .

(٤) ذكره ابن كثير في التفسير ١ : ٣٨٦ - ٣٨٧ ، من رواية ابن أبي حاتم ، من طريق مجاهد عن أبي ذر ، ومن كتاب ابن مردويه ، من طريق المسعودي عن القاسم عن أبي ذر . وأعلهما كليهما بالانقطاع ، لأن أبا ذر مات قديما .

﴿الْخُمسَ مِنَ الْمَغْنَمِ﴾ [1].

وَمَعْلُومٌ أنه لَمْ يَرِدْ أن هذه الْأَعْمَالَ تكُونُ إيمَانًا بالله بِدُون إيمَانِ الْقَلْبِ، لِمَا قَدْ أَخْبَرَ في مَوَاضِعَ أنه لَا بُد مِنْ إيمَانِ الْقَلْبِ، فَعُلِمَ أن هذه مَعَ إيمَانِ الْقَلْبِ وهُوَ الْإِيمَانُ.

وَأي دَلِيلٍ على أن الْأَعْمَالَ دَاخِلَة في مسمى " الْإِيمَانِ " فَوْقَ هَذَا الدليل ؟ فإنه فَسرَ الْإِيمَانَ بِالْأَعْمَالِ، وَلَمْ يَذْكُرِ التصْدِيقَ، لِلْعِلْمِ بِأن هذه الْأَعْمَالَ لَا تُفِيدُ مَعَ الْجُحُودِ.

الدينُ يَنْتظِمُ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ وَالْإِحْسَانَ

وفي الْمُسْنَدِ عَنْ أَنسٍ، عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: الْإِسْلَامُ عَلَانِيَة، وَالْإِيمَانُ في الْقَلْبِ [2].

وفي هَذَا الْحَدِيثِ دَلِيلٌ على الْمُغَايرَة بين الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ. ويُؤَيدُه قوله [في حَدِيثِ سُؤَالَاتِ جِبْرِيلَ، في معنى الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ] [3] وَقَدْ قَالَ فيه النبي ﷺ ﴿هَذَا جِبرِيلُ أتاكُمْ يُعَلمُكُمْ دِينكُمْ﴾ [4]. فَجَعَلَ الدين هُوَ الْإِسْلَامَ وَالْإِيمَانَ وَالْإِحْسَانَ، فَتبين أن دِينَنَا يَجْمَعُ الثلَاثَة. لَكِنْ هُوَ دَرَجَاتٌ ثَلَاثَة: مُسْلِمٌ، ثم مُؤْمِنٌ، ثم مُحْسِنٌ. وَالْمُرَادُ بِالْإِيمَانِ مَا ذُكِرَ مَعَ الْإِسْلَامِ قَطْعًا، كَمَا أنه أُرِيدَ بِالْإِحْسَانِ مَا ذُكِرَ مَعَ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ. لَا أن الْإِحْسَانَ يَكُونُ مُجَردًا عَنِ الْإِيمَانِ، هَذَا مُحَالٌ. وَهَذَا كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [5]. وَالْمُقْتَصِدُ وَالسابِقُ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنة بِلَا عُقُوبَة، بِخِلَافِ الظالِمِ لِنَفْسِه، فإنه مُعَرضٌ لِلْوَعِيدِ.

---

(1) البخاري الإيمان (53) ، مسلم الإيمان (17) ، النسائي الأشربة (5692) ، أبو داود السنة (4677) .

(2) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد 1 : 52 ، ونسبه لأحمد ، وأبي يعلى ، والبزار ، وإسناده ثقات .

(3) زيادة زدناها بالمعنى ، لا ضرورية لا يستقيم بدونا الكلام .

(4) مسلم الإيمان (8) ، الترمذي الإيمان (2610) ، النسائي الإيمان وشرائعه (4990) ، أبو داود السنة (4695) ، ابن ماجه المقدمة (63) ، أحمد (27/1) .

(5) سورة فَاطِرٍ آية 32 .

وَهكَذَا مَنْ أتى بِالْإِسْلَامِ الظاهِرِ مَعَ التصْدِيقِ بِالْقَلْبِ، لَكِنْ لَمْ يَقُمْ بِمَا يَجِبُ عليه مِنَ الْإيمانِ الْباطِنِ فإنه مُعَرضٌ لِلْوَعِيدِ.

فَأما الْإِحْسَانُ فَهُوَ أعم مِنْ جِهَة نَفْسِه وَأخَص مِنْ جِهَة أَهْلِه، وَالْإيمانُ أعم مِنْ جِهَة نَفْسِه وَأخَص مِنَ جِهَة أَهْلِه مِنَ الْإِسْلَامِ. فَالْإِحْسَانُ يَدْخُلُ فيه الْإيمانُ، وَالْإِيمانُ يَدْخُلُ فيه الْإِسْلَامُ. وَالْمُحْسِنُونَ أخَص مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمُؤْمِنُونَ أخَص مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَهَذَا كَالرسَالَة وَالنُبوة، فَالنُبوة دَاخِلَة في الرسَالَة، وَالرسَالَة أعَم مِنْ جِهَة نَفْسِهَا وَأخَص مِنْ جِهَة أَهْلِهَا، فَكُل رَسُولٍ نَبي، وَلَا يَنْعَكِسُ.

أَقْوَالُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي مُسَمى الْإِسْلَامِ

وَقَدْ صَارَ الناسُ في مسمى " الْإِسْلَامِ " على ثَلَاثَة أَقْوَالٍ:

فَطَائِفَةَ جَعَلَتِ الْإِسْلَامَ هُوَ الْكَلِمَةَ.

وَطَائِفَة أَجَابُوا بِمَا أَجَابَ به النبي ﷺ حِينَ سُئِلَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْإيمانِ حَيْثُ فَسرَ الْإِسْلَامَ بِالْأَعْمَالِ الظاهِرَة، وَالْإيمانَ بِالْإيمانِ بِالْأُصُولِ الْخَمْسَة.

وَطَائِفَة جَعَلُوا الْإِسْلَامَ مُرَادِفًا لِلْإيمانِ، وَجَعَلُوا معنى قَوْلِ الرسُولِ ﷺ الْإِسْلَامُ شَهَادَة أنْ لَا إِلَه إِلا الله وَإِقَامُ الصلاة، الْحَدِيثَ - شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ. وَالْأَصْلُ عَدَمُ التقْدِيرِ، مَعَ أَنهُمْ قَالُوا: إِن الْإيمانَ هُوَ التصْدِيقُ بِالْقَلْبِ، ثُم قَالُوا: الْإِسْلَامُ وَالْإيمانُ شَيْءٌ وَاحِدٌ، فَيَكُونُ الْإِسْلَامُ هُوَ التصْدِيقَ ! وَهَذَا لَمْ يَقُلْه أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ اللغَة وَإِنمَا هُوَ الِانْقِيَادُ وَالطاعَة، وَقَدْ قَالَ النبي ﷺ اللهُم لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ. وَفَسرَ الْإِسْلَامَ بِالْأَعْمَالِ الظاهِرَة، وَالْإيمانَ بِالْإيمانِ بِالْأُصُولِ الْخَمْسَة. فَلَيْسَ لَنَا إِذَا جَمَعْنَا بَيْنَهُمَا أَنْ نُجِيبَ بِغَيْرِ مَا أَجَابَ به النبي ﷺ.

وَأما إِذَا أُفْرِدَ اسْمُ الْإيمانِ فإنه يَتَضَمنُ الْإِسْلَامَ، وَإِذَا أُفْرِدَ الْإِسْلَامُ فَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْإِسْلَامِ مُؤْمِنًا بِلَا نِزَاعٍ، وَهَذَا هُوَ الْوَاجِبُ، وَهَلْ يَكُونُ مُسْلِمًا وَلَا يُقَالُ له مُؤْمِنٌ ؟ وَقَدْ تَقَدمَ الْكَلَامُ فيه.

وَكَذَلِكَ هَلْ [يَسْتَلْزِمُ] [١] الْإِسْلَامُ الْإِيمَانَ ؟ فيه النِّزَاعُ الْمَذْكُورُ، وَإِنما وَعَدَ الله بِالْجَنة في الْقُرْآنِ وَبالنجَاة مِنَ النارِ بِاسْمِ " الْإِيمَانِ "، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ ﴾ [٢].

وَقَالَ تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾ [٣].

وَأما اسْمُ " الْإِسْلَامِ " مُجَرَّدًا فَمَا عُلقَ به في الْقُرْآنِ دُخُولُ الْجَنة، لَكِنه فَرَضَه وَأَخْبَرَ أنه دِينُه الذي لَا يُقْبَلُ مِنْ أَحَدٍ سِوَاه، وبه بَعَثَ النبيينَ، ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ [٤].

حَالَةُ اقْتِرَانِ الْإِسْلَامِ بِالْإِيمانِ غَيْرُ حَالَةِ إِفْرَادِ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ

فَالْحَاصِلُ أن حَالَةَ اقْتِرَانِ الْإِسْلَامِ بِالْإِيمَانِ غَيْرُ حَالَةِ إِفْرَادِ أَحَدِهِمَا عَنِ الْآخَرِ، فَمَثَلُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْإِيمانِ، كَمَثَلِ الشهَادَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا مِنَ الأخرى، فَشَهَادَةُ الرسالة غَيْرُ شَهَادَةِ الْوَحْدَانِية، فَهُمَا شَيْئَانِ في الْأَعْيَانِ، وَإِحْدَاهُمَا مُرْتَبِطَةٌ بِالْأُخْرَى في المعنى وَالْحُكْمِ، كَشَيْءٍ وَاحِدٍ. كَذَلِكَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمانُ، لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا إِسْلَامَ له، وَلَا إِسْلَامَ لِمَنْ لَا إِيمانَ [له]، إِذْ لَا يَخْلُو الْمُؤْمِنُ مِنْ إِسْلَامٍ به يَتحققُ إِيمانُه، وَلَا يَخْلُو الْمُسْلِمُ مِنْ إِيمَانٍ به يَصِح إِسْلَامُه.

وَنَظَائِرُ ذَلِكَ في كَلَامِ الله ورسوله وفي كَلَامِ الناسِ كثيرة، أَعْنِي في الْإِفْرَادِ وَالِاقْتِرَانِ.

مِنْهَا: لَفْظُ الْكُفْرِ وَالنفاقِ، فَالْكُفْرُ إِذَا ذُكِرَ مُفْرَدًا في وَعِيدِ الْآخِرَةِ دَخَلَ فيه الْمُنَافِقُونَ،

(١) في الأصل : (يلتزم) . ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٢) سورة يُونُسَ الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) سورة الْحَدِيدِ آية ٢١ .

(٤) سورة آلِ عِمْرَانَ آية ٨٥ .

كقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [(١)]. وَنظَائِرُه كثيرة. وَإِذَا قُرِنَ بينهما كان الْكافِرُ من أظهر كُفْره، وَالْمنافِقُ من آمن بِلِسَانه وَلَمْ يُؤْمِنْ بِقلْبِه.

وكذلك لفظُ البِر والتقوى، ولفظُ الإثم والعدوان، ولفظُ التوبة والاستغفار، ولفظُ الفقير والمسكين، وأمثالُ ذلك.

ويشهدُ للفرق بين الإسلام والإيمان، قوله تعالى: ﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا ﴾ [(٢)] إلى آخر السورة. وقد اعترض على هذا بأن معنى الآية؛ (قُولُوا أسْلَمْنا) - انْقدْنا بِظواهِرنا، فهم منافقون في الحقيقة، وهذا أحدُ قولي المفسرين في هذه الآية الكريمة. وأُجيبَ بالقولِ الآخر، ورُجحَ، وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملي الإيمان، لا أنهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل، والزاني، والسارق، ومن لا أمانة له [(٣)]. ويؤيدُ هذا سياقُ الآية، فإن السورة من أولها إلى هُنا في النهي عن المعاصي، وأحكامِ بعض [العُصَاة] [(٤)] ونحوِ ذلك، وليس فيها ذكرُ المنافقين. ثم قال بعد ذلك: ﴿ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ ﴾ [(٥)] ولو كانوا منافقين ما نفعتهم الطاعة، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ

---

(١) سورة المائدة آية ٥ .

(٢) سورة الحجرات آية ١٤ .

(٣) هذا إشارة إلى حديث أنس مرفوعا : " لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له " رواه أحمد في المسند : ١٢٤١٠ . ونسبه السيوطي في الجامع الصغير : ٩٧٠٤ أيضا لصحيح ابن حبان . وكان في المطبوعة " إيمان " بدل " أمانة " ! وهو باطل لا معنى له .

(٤) في الأصل : (العصيان) . ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٥) سورة الحجرات آية ١٤ .

﴿ يَرْتَابُواْ ﴾ (١) الآية، يعني - والله أعْلَمُ - أن الْمُؤْمِنينَ الْكَامِلِي الْإيمان، هُمْ هَؤُلَاءِ، لَا أنتم، بَلْ أنتم مُنْتفٍ عَنْكمُ الْإيمانُ الْكَامِلُ. يُؤيدُ هَذَا: أنه أَمَرَهُمْ، أوْ أَذِنَ لَهُمْ، أنْ يَقُولُوا: أسْلَمْنا، وَالْمُنَافِقُ لَا يُقالُ له ذَلِك، وَلَوْ كَانُوا مُنَافِقِينَ لَنفَى عَنْهمُ الْإسْلَامَ، كَمَا نَفَى عَنْهُمُ الْإيمانَ، وَنَهَاهُمْ أنْ يَمُنوا بِإسْلَامِهِمْ، فَأثْبت لَهُمْ إسْلَامًا، وَنَهَاهُمْ أنْ يَمُنوا به على رسوله، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إسْلَامًا صَحِيحًا لَقَالَ: لَمْ تُسْلِمُوا، بَلْ أَنْتُمْ كَاذِبُونَ، كَمَا كَذَّبَهُمْ في قَوْلِهِمْ (٢) ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (٣). والله أعْلَمُ بِالصوَابِ.

وَيَنْتَفِي بَعْدَ هَذَا التقْدِيرِ وَالتفْصِيلِ دَعْوَى التَرَادُفِ، وَتَشْنِيعُ مَنْ أَلْزَمَ بِأنَّ الْإسْلَامَ لَوْ كَانَ هُوَ الْأُمُورَ الظاهِرَةَ لَكَانَ يَنْبَغِي أنْ [لَا يُقبَلَ ذَلِكَ] (٤) وَلَا يُقبَلَ إيمَانُ الْمُخْلِصِ! وَهَذَا ظَاهِرُ الْفَسَادِ، فإنه قَدْ تَقدَمَ [تَنْظِيرُ] (٥) الْإيمَانِ وَالْإسْلَامِ بِالشهَادَتَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، وَأن حَالَةَ الِاقْتِرَانِ غَيْرُ حَالَةِ الِانْفِرَادِ. فَانْظُرْ إلى كَلِمَةِ الشهَادَةِ، فَإن النبي ﷺ قَالَ: « أُمِرْتُ أنْ أُقَاتِلَ الناسَ حتى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلا الله » (٦) ، الْحَدِيثَ، فَلَوْ قَالُوا: " لَا إلَهَ إلا الله "، وَأنْكَرُوا الرسَالَةَ - مَا كَانُوا يَسْتَحِقونَ الْعِصْمَةَ، بَلْ لَا بُد أنْ يَقُولُوا " لَا إلَهَ إلا الله " قَائِمِينَ بِحَقهَا، وَلَا يَكُونُ قَائِمًا بِـ " لَا إلَهَ إلا الله " حَق الْقِيَامِ، إلا مَنْ صَدقَ بِالرسَالَةِ، وَكَذَا مَنْ شَهِدَ أن مُحَمدًا رَسُولُ الله، لَا يَكُونُ قَائِمًا بِهَذِهِ الشهَادَةِ حَق الْقِيَامِ، إلا مَنْ صَدقَ هَذَا الرسُولَ في كُل مَا جَاءَ به. فَتضمَنتِ التَوْحِيدَ، وَإذَا ضُممتْ شَهَادَةُ " أنْ لَا إلَهَ إلا الله " إلى شَهَادَةِ " أن مُحَمدًا رَسُولُ الله " - كَانَ الْمُرَادُ مِنْ شَهادة

(١) سورة الْحُجُرَاتِ آية ١٥ .
(٢) في المطبوعة " في قوله " . وهو خطأ .
(٣) سورة الْمُنَافِقُونَ آية ١ .
(٤) في الأصل : (لا يقابل بذلك) . ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ . ن .
(٥) في الأصل : (تفسير) . ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .
(٦) البخاري الصلاة (٣٨٥) ، الترمذي الإيمان (٢٦٠٨) ، النسائي تحريم الدم (٣٩٦٧) ، أبو داود الجهاد (٢٦٤١) ، أحمد (٣/٢٢٥) .

أنْ لا إله إلا الله إثبات التوْحِيد، وَمِنْ شَهَادَة أن مُحمدًا رَسُولُ الله إثْبات الرسَالَة. كَذَلِكَ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمانُ: إذَا قُرِنَ أَحَدُهُمَا بِالْآخرِ، كَمَا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [1]. وقوله ﷺ اللهم لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنتُ -: كَانَ الْمُرَادُ مِنْ أَحَدِهِمَا غَيْرَ الْمُرَادِ مِنَ الْآخرِ. وَكَمَا قَالَ ﷺ ﴿ الْإِسْلَامُ عَلَانِيَة، وَالْإِيمانُ في الْقَلْبِ ﴾ [2]. وَإِذَا انْفَرَدَ أَحَدُهُمَا شَمِلَ معنى الْآخرِ وَحُكْمَه، وَكَمَا في الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ وَنظَائِره، فَإِن لَفْظَي الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ إِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا، وإذا افترقا اجتمعا، فَهَلْ يُقَالُ في قوله تعالى: ﴿ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾ [3] - أنه يُعْطَى الْمُقِل دُونَ الْمُعْدِمِ، أَوْ بِالْعَكْسِ ؟ وَكَذَا في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [4].

وَيَنْدَفِعُ أيضًا تَشْنِيعُ مَنْ قَالَ: مَا حُكْمُ مَنْ آمَنَ وَلَمْ يُسْلِمْ ؟ أَوْ أَسْلَمَ وَلَمْ يُؤْمِنْ ؟ في الدُّنْيَا وَالْآخرَة ؟ فَمَنْ أَثْبَتَ لِأَحَدِهِمَا حُكْمًا لَيْسَ بِثَابِتٍ لِلْآخرِ ظَهَرَ بُطْلَانُ قوله !.

وَيُقَالُ له في مُقَابَلَة تَشْنِيعِه: أَنت تَقُولُ: الْمُسْلِمُ هُوَ الْمُؤْمِنُ، والله تعالى يَقُولُ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [5] فَجَعَلَهُمَا غَيْرَيْنِ، وَقَدْ قِيلَ لِرَسُولِ الله ﷺ مَا لَكَ عَنْ فُلَانٍ والله إني لَأَرَاه مُؤْمِنًا ؟ قَالَ: ﴿ أَوْ مُسْلِمًا ﴾ [6] ، قَالَهَا ثَلَاثًا، فَأَثْبَتَ له [اسم] [7] الْإِسْلَامَ وَتَوقف في اسْمِ الْإِيمَانِ، فَمَنْ قَالَ: هُمَا سَوَاءٌ - كَانَ

---

(١) سورة الْأَحْزَابِ آية ٣٥ .

(٢) أحمد (١٣٥/٣) .

(٣) سورة الْمَائِدَة آية ٨٩ .

(٤) سورة الْبَقَرَة آية ٢٧١ .

(٥) سورة الْأَحْزَابِ آية ٣٥ .

(٦) البخاري الإيمان (٢٧) ، مسلم الإيمان (١٥٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٢) ، أبو داود السنة (٤٦٨٣) ، أحمد (١٨٢/١) .

(٧) ليست في الأصل . وأثبتناها ، من النسخ الأخرى . ن .

مُخَالِفًا، وَالْوَاجِبُ رَد مَوَارِدِ النزَاعِ إلى الله ورسوله. وَقَدْ يَتَراءَى في بَعْضِ النصُوصِ مُعَارَضَة، وَلَا مُعَارَضَة بِحَمْدِ الله تعالى، وَلَكِن الشأْنَ في التوْفِيقِ، وَبالله التوْفِيقُ.

وَأما الِاحْتِجَاجُ بقوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١) - على تَرَادُفِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، فَلَا حُجة فيه؛ لِأَن الْبَيْتَ الْمُخْرَجَ كَانُوا مَتصِفِينَ (٢) بِالْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ الِاتصَافِ بِهِمَا تَرَادُفُهُمَا.

وَالظاهِرُ أن هذه الْمُعَارَضَاتِ لَمْ تَثْبُتْ عَنْ أبي حنيفة رحمه الله، وَإِنمَا هي مِنَ الْأَصْحَابِ، فَإِن غَالِبَهَا سَاقِطٌ لَا يَرْتَضِيه أبو حنيفة! وَقَدْ حَكَى الطحَاوِي حِكَايَةَ أبي حنيفة مَعَ حَمادِ بْنِ زَيْدٍ، وَأَن حَمادَ بْنَ زَيْدٍ لَما روى له حَدِيثَ: " أي الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ " إلى آخِرِه، قَالَ له: أَلَا تَرَاه يَقُولُ: (أي الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، قَالَ: " الْإِيمَانُ ")، ثُم جَعَلَ الْهِجْرَةَ وَالْجِهَادَ مِنَ الْإِيمَانِ ؟ فَسَكَتَ أَبو حنيفة، فَقَالَ بَعْضُ أَصْحَابِه: أَلَا تُجِيبه يَا أَبَا حنيفة ؟ قَالَ: بِمَا أُجِيبُه ؟ وَهُوَ يُحَدثُنِي بِهذَا عَنْ رَسُولِ الله ﷺ.

أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي مَسْأَلَةِ الِاسْتِثْنَاءِ فِي الْإِيمَانِ

وَمِنْ ثَمَرَاتِ هَذَا الِاخْتِلَافِ: مسألة الِاسْتِثْنَاءِ في الْإِيمانِ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ، أي الرجُلَ: أَنَا مُؤْمِنٌ إِنْ شَاءَ الله. وَالناسُ فيه على ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ: طَرَفَانِ وَوَسَطٌ، مِنْهُمْ مَنْ يُوجِبُه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُحَرمُه، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيزُه بِاعْتِبَارٍ وَيَمْنَعُه بِاعْتِبَارٍ، وَهَذَا أَصَح الْأَقْوَالِ.

أما مَنْ يُوجِبُه فَلَهُمْ مَأْخَذَانِ:

أَحَدُهُمَا: أن الْإِيمَانَ هُوَ مَا مَاتَ الْإِنْسَانُ عليه، وَالْإِنْسَانُ إِنمَا يَكُونُ عِنْدَ الله مُؤْمِنًا أَوْ كَافِرًا بِاعْتِبَارِ الْمُوَافَاةِ وَمَا سَبَقَ في عِلْمِه أنه يَكُونُ عليه، وَمَا قَبلَ ذَلِكَ لَا عِبْرَة به، قَالُوا: وَالْإِيمَانُ الذي يَتَعَقبُه الْكُفْرُ فَيَمُوتُ صَاحِبُه كَافِرًا -: لَيْسَ بِإِيمَانٍ (٣) كَالصلَاةِ التي أَفْسَدَهَا

---

(١) سورة الذارِيَاتِ الآيتان ٣٥ ، ٣٦ .

(٢) في المطبوعة " كانوا مؤمنين " . وهو تحريف واضح ، يأباه سياق الكلام .

(٣) في المطبوعة " أي ليس بإيمان " . وزيادة " أي " - خطأ واضح ، يضطرب بها المعنى .

صَاحِبُهَا قَبْلَ الْكَمَالِ، وَالصيامِ الذي يُفْطِرُ صَاحِبُه قَبْلَ الْغُرُوبِ، وَهَذَا مَأْخَذُ كَثِيرٍ مِنَ الْكُلَّابِية وَغَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ هَؤُلَاءِ أن الله يُحِب في الْأَزَلِ مَنْ كَانَ كَافِرًا إِذَا عَلِمَ منه أنه يَمُوتُ مُؤْمِنًا، فَالصحَابَة مَا زَالُوا مَحْبُوبِينَ قَبْلَ إِسْلَامِهِمْ، وَإِبْلِيسُ وَمَن ارْتَد عَنْ دِينِه مَا زَالَ الله يُبْغِضُه وَإِنْ كَانَ لَمْ يَكْفُرْ بَعْدُ ! وَلَيْسَ هَذَا قَوْلَ السلَفِ، وَلَا كَانَ يُعَلِلُ بِهَذَا مَنْ يَسْتَثْنِي مِنَ السلَفِ في إِيمَانِه، وَهُوَ فَاسِدٌ، فَإِن الله تعالى قَالَ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (١) فَأَخْبَرَ أَنهُمْ يُحِبهُمْ إِنِ اتبَعُوا الرسُولَ، فَاتبَاعُ الرسُولِ شَرْطُ الْمَحَبة، وَالْمَشْرُوطُ يَتَأَخرُ عَنِ الشرْطِ، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْأَدِلة. ثُم صَارَ إلى هَذَا الْقَوْلِ طَائِفَةٌ غَلَوْا فيه، حتى صَارَ الرجُلُ مِنْهُمْ يَسْتَثْنِي في الْأَعْمَالِ الصالِحَة، يَقُولُ: صَلَّيْتُ إِنْ شَاءَ الله ! وَنَحْوَ ذَلِكَ، يعني الْقَبُولَ. ثُم صَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَسْتَثْنُونَ في كُل شَيْءٍ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ: هَذَا ثَوْبٌ إِنْ شَاءَ الله ! هَذَا حَبْلٌ إِنْ شَاءَ الله ! فَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: هَذَا لَا شَك فيه ؟ يَقُولُونَ: نَعَمْ، لَكِنْ إِذَا شَاءَ الله أَنْ يُغَيرَه غيره ! !.

الْمَأْخَذُ الثاني: أن الْإِيمَانَ الْمُطْلَقَ يَتَضَمنُ فِعْلَ مَا أَمَرَ الله به عَبْدَه كله، وَتَرْكَ مَا نَهَاه عنه كله، فَإِذَا قَالَ الرجُلُ: أَنَا مُؤْمِنٌ، بِهَذَا الِاعْتِبَارِ -: فَقَدْ شَهِدَ لِنَفْسِه أنه مِنَ الْأَبْرَارِ الْمُتقِينَ، الْقَائِمِينَ بِجَمِيعِ مَا أُمِرُوا به، وَتَرْكِ كُل مَا نُهُوا عنه، فَيَكُونُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الله الْمُقَربِينَ ! وَهَذَا مَعَ تَزْكِيَة الْإِنْسَانِ لِنَفْسِه، وَلَوْ كَانَتْ هذه الشهَادَة صَحِيحَة، لَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَشْهَدَ لِنَفْسِه بِالْجَنة إِنْ مَاتَ على هذه الْحَالِ.

وَهَذَا مَأْخَذُ عَامة السلَفِ الذِينَ كَانُوا يَسْتَثْنُونَ، وَإِنْ جَوزُوا تَرْكَ الِاسْتِثْنَاءِ، بمعنى آخَرَ، كَمَا سَنَذْكُرُه إِنْ شَاءَ الله تعالى.

وَيَحْتَجونَ أَيْضًا بِجَوَازِ الِاسْتِثْنَاءِ فِيمَا لَا شَك فيه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ

---

(١) سورة آلِ عِمْرَانَ آية ٣١ .

ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [1]. وَقَالَ ﷺ حِينَ وَقَفَ على الْمَقَابِرِ: ﴿ وَإِنا إِنْ شَاءَ الله بِكُمْ لَاحِقُونَ ﴾ [2]. وَقَالَ أَيضًا: ﴿ إِني لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ لله ﴾ [3]. وَنظَائِرُ هَذَا.

وَأما مَنْ يُحَرمُه، فَكُل مَنْ جَعَلَ الْإِيمَانَ شَيْئًا وَاحِدًا، فَيَقُولُ: أَنا أَعْلَمُ أني مُؤْمِنٌ، كَمَا أَعْلَمُ أني تَكَلَّمْتُ بِالشَّهَادَتَيْنِ، فقولي: أَنا مُؤْمِنٌ، كَقَوْلِي: أَنا مُسْلِمٌ، فَمَنِ اسْتَثْنَى في إِيمَانِه فَهُوَ شَاكٌ فيه، وَسَمَّوُا الذِينَ يَسْتَثْنُونَ في إِيمَانِهِمُ الشكاكَةَ. وَأَجَابُوا عَنْ الِاسْتِثْنَاءِ الذي في قوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [4] - بِأنه يَعُودُ إلى الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ، فَأَما الدخُولُ فَلَا شَكَ فيه ! وَقِيلَ: لَتَدْخُلُن جَمِيعُكُمْ أَوْ بَعْضُكُمْ، لأنه عَلِمَ أن بَعْضَهُمْ يَمُوتُ !.

وفي كِلَا الْجَوَابَيْنِ نَظَرٌ: فَإِنهُمْ وَقَعُوا فِيمَا فروا منه، فَأَما الْأَمْنُ وَالْخَوْفُ فَقَدْ أَخْبَرَ أَنهُمْ يَدْخُلُونَ آمِنِينَ، مَعَ عِلْمِه بِذَلِكَ، فَلَا شَك في الدخُولِ، وَلَا في الْأَمْنِ، وَلَا في دُخُولِ الْجَمِيعِ أَوِ الْبَعْضِ، فَإِن الله قَدْ عَلِمَ مَنْ يَدْخُلُ، فَلَا شَك فيه أَيضًا، فَكَانَ قَوْلُ: "إِنْ شَاءَ الله" هُنَا تَحْقِيقًا لِلدخُولِ، كَمَا يَقُولُ الرجُلُ فِيمَا عَزَمَ على أَنْ يَفْعَلَه لَا مَحَالَةَ: والله لَأَفْعَلَن كَذَا إِنْ شَاءَ الله، لَا يَقُولُهَا لِشَك في إِرَادَتِه وَعَزْمِه، وَلَكِنْ إنمَا لَا يَحْنَثُ الْحَالِفُ في مِثْلِ هذه الْيَمِينِ؛ لأنه لَا يَجْزِمُ بِحُصُولِ مُرَادِه.

وَأُجِيبَ بِجَوَابٍ آخَرَ لَا بَأْسَ به، وَهُوَ: أنه قَالَ ذَلِكَ تَعْلِيمًا لَنا كَيْفَ نَسْتَثْنِي إِذَا أَخْبَرْنَا عَنْ مُسْتَقْبَلٍ. وفي كَوْنِ هَذَا المعنى مُرَادًا مِنَ النص - نَظَرٌ [5] فإنه مَا سِيقَ الْكَلَامُ له،

(١) سورة الْفَتْح آية ٢٧ .

(٢) مسلم الطهارة (٢٤٩) ، النسائي الطهارة (١٥٠) ، أبو داود الجنائز (٣٢٣٧) ، ابن ماجه الزهد (٤٣٠٦) ، أحمد (٢/٣٠٠) ، مالك الطهارة (٦٠) .

(٣) مسلم الصيام (١١١٠) ، أبو داود الصوم (٢٣٨٩) ، أحمد (٦/٦٧) ، مالك الصيام (٦٤١) .

(٤) سورة الْفَتْح آية ٢٧ .

(٥) في المطبوعة " ففيه نظر " . وإقحام " ففيه " غير مستقيم في سياق الجملة .

إلا أن يكون مرادًا من إشارة النص.

وأجاب الزمخشري بجوابين آخرين باطلين، وهما: أن يكون الملك قد قاله، فأثبت قرآنا ! أو أن الرسول قاله ! ! فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله ! فيدخل في وعيد من قال: ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ (١). نسأل الله العافية.

وأما من يجوز الاستثناء وتركه، فهم أسعد بالدليل من الفريقين، وخير الأمور أوسطها: فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه منع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه. وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢) وفي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ (٣) فالاستثناء حينئذ جائز. وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة، وكذلك من استثنى تعليقا للأمر بمشيئة الله، لا شكا في إيمانه. وهذا القول في القوة كما ترى.

قوله: " وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق ".

يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة، القائلين بأن الأخبار قسمان: متواتر وآحاد، فالمتواتر - وإن كان قطعي السند - لكنه غير قطعي الدلالة، فإن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين ! ! ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات ! قالوا: والآحاد لا تفيد العلم، ولا يحتج بها من جهة طريقها، ولا من جهة

(١) سورة المدثر آية ٢٥ .

(٢) سورة الأنفال آية ٢ - ٤ .

(٣) سورة الحجرات آية ١٥ .

مَتْنِهَا ! فَسَدوا على الْقُلُوبِ مَعْرِفَة الرب تعالى وَأَسْمَائِه وَصِفَاتِه وَأَفْعَاله مِنْ جِهَة الرسُول، وَأَحَالُوا الناسَ على قَضَايَا وَهْمِية، وَمُقدمَاتٍ خَيَالِية، سَموْهَا قَوَاطِعَ عَقْلِية، وَبَرَاهِينَ يَقِينية!! وهي في التحْقِيق ﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (١).

وَمِنَ الْعَجَبِ أَنهُمْ قَدمُوهَا على نُصُوصِ الْوَحْي، وَعَزَلُوا لِأَجْلِهَا النصُوص، فَأَقْفَرَتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ الِاهْتِدَاءِ بِالنصُوص، وَلَمْ يَظْفَرُوا بِالْعُقُولِ الصحِيحَة الْمُؤَيدَة بِالْفِطْرَة السلِيمَة وَالنصُوصِ النبَوِية. وَلَوْ حَكمُوا نُصُوصَ الْوَحْي لَفَازُوا بِالْمَعْقُول الصحِيح، الْمُوَافِق لِلْفِطْرَة السلِيمَة.

بَلْ كُل فَرِيقٍ مِنْ أَرْبَابِ الْبِدَعِ يَعْرِضُ النصُوصَ على بِدْعَتِه، وَمَا ظَنه مَعْقُولًا: فَمَا وَافَقَه قَالَ: أنه مُحْكَمٌ، وقبله وَاحْتَج به !! وَمَا خَالَفَه قَالَ: أنه مُتَشَابِه، ثُم رَده، وَسَمى رَده تَفْوِيضًا !! (٢) أَوْ حَرفَه، وَسَمى تَحْرِيفَه تَأْوِيلًا !! فَلِذَلِكَ اشْتَد إِنْكَارُ أَهْلِ السنة عَلَيْهِمْ.

أَهْلُ السنةِ لَا يَعْدِلُونَ عَنِ النص الصحِيح

وَطَرِيقُ أَهْلِ السنة: أَنْ لَا يَعْدِلُوا عَنِ النص الصحِيح، وَلَا يُعَارِضُوه بِمَعْقُولٍ، وَلَا قَوْلِ فُلَانٍ، كَمَا أَشَارَ إليه الشيْخُ رحمه الله. وَكَمَا قَالَ البخاري رحمه الله: سَمِعْتُ الْحُمَيْدِي يَقُولُ: كُنا عِنْدَ الشافِعِي رحمه الله، فَأَتَاه رَجُلٌ فَسَأَلَه عَنْ مسألة، فَقَالَ: قَضَى فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ رَجُلٌ لِلشافِعِي: مَا تَقُولُ أَنتَ ؟ ! فَقَالَ: سُبْحَانَ الله ! تَرَانِي في كَنِيسَة ! تَرَانِي في بِيعَة ! تَرَى على وَسَطِي زُنار ؟ ! أَقُولُ لَكَ: قَضَى رَسُولُ الله ﷺ وَأَنت

---

(١) سورة النور الآيتان ٣٩ - ٤٠ .

(٢) في المطبوعة " تعويضا " ! وهو تحريف .

تَقُولُ: مَا تَقُولُ أَنتَ ؟ !

وَنظَائِرُ ذَلكَ في كَلَامِ السلَفِ كَثِيرٌ.

وَقَالَ تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ ﴾ (١).

(١) سورة الأَحْزَابِ آية ٣٦ .

خَبرُ الوَاحِدِ إذا تلَقتْهُ الأمةُ بِالقُبولِ يُفيدُ العِلمَ اليَقِيني

وَخَبَرُ الْوَاحِدِ إِذَا تَلَقتْه الْأمة بِالْقُبول، عَمَلًا به وَتَصْدِيقًا له - يُفِيدُ الْعِلْمَ الْيقيني عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْأمة، وَهُوَ أَحَدُ قِسْمَي الْمُتَوَاتِرِ. وَلَمْ يَكُنْ بين سَلَفِ الْأمة في ذَلِكَ نِزَاعٌ، كَخَبَرِ عُمَرَ بن الْخَطابِ ﷺ: ﴿إِنمَا الْأَعْمَالُ بِالنياتِ﴾ [(١)]، وَخَبِرِ ابن عُمَرَ: ﴿نَهَى عَنْ بيع الْوَلَاءِ وَهِبَتِه﴾ [(٢)] وَخَبَرِ أبي هريرة: ﴿لَا تُنْكَحُ الْمَرْأَة على عَمتِهَا وَلَا على خَالَتِهَا﴾ [(٣)]، وَكَقَوْلِه: ﴿يَحْرُمُ مِنَ الرضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ النسَبِ﴾ [(٤)]، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ. وَهُوَ نَظِيرُ خَبَرِ الذي أتى مَسْجِدَ قُبَاءَ وَأَخْبَرَ أن الْقِبْلَة تحَولَتْ إلى الْكَعْبَة. فَاسْتَدَارُوا إِلَيْهَا.

وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُرْسِلُ رُسُلَه آحَادًا، وَيُرْسِلُ كُتُبَه مَعَ الْآحَادِ، وَلَمْ يَكُنِ الْمُرْسَلُ إِلَيهِمْ يَقُولُونَ لَا نَقْبَلُه لأنه خَبَرٌ وَاحِدٌ! وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [(٥)] فَلَا بُد أَنْ يَحْفَظَ الله حُجَجَه وَبيناتِه على خَلْقِه، لِئَلَا [تَبْطُلَ] [(٦)] حُجَجَه وَبَينَاتِه.

وَلِهَذَا فَضَحَ الله مَنْ كَذَبَ على رسوله في حَيَاتِه وَبَعْدَ وَفَاتِه، وَبَينَ حَالَه لِلناسِ. قَالَ

---

(١) البخاري بدء الوحي (١) ، مسلم الإمارة (١٩٠٧) ، الترمذي فضائل الجهاد (١٦٤٧) ، النسائي الطهارة (٧٥) ، أبو داود الطلاق (٢٢٠١) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٢٧) ، أحمد (٤٣/١) .

(٢) البخاري العتق (٢٣٩٨) ، مسلم العتق (١٥٠٦) ، الترمذي البيوع (١٢٣٦) ، النسائي البيوع (٤٦٥٧) ، أبو داود الفرائض (٢٩١٩) ، ابن ماجه الفرائض (٢٧٤٧) ، أحمد (١٠٧/٢) ، مالك العتق والولاء (١٥٢٢) .

(٣) البخاري النكاح (٤٨٢٠) ، مسلم النكاح (١٤٠٨) ، الترمذي النكاح (١١٢٦) ، النسائي النكاح (٣٢٩٢) ، أبو داود النكاح (٢٠٦٥) ، ابن ماجه النكاح (١٩٢٩) ، أحمد (٤٨٩/٢) ، مالك النكاح (١١٢٩) ، الدارمي النكاح (٢١٧٨) .

(٤) البخاري الشهادات (٢٥٠٢) ، مسلم الرضاع (١٤٤٧) ، النسائي النكاح (٣٣٠٦) ، ابن ماجه النكاح (١٩٣٨) ، أحمد (٣٣٩/١) .

(٥) سورة التوبة آية ٣٣ .

(٦) في الأصل : (يبطل) . والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ ، وكما في مختصر الصواعق المرسلة ٢ / ٣٧٨ . ن .

سُفْيانُ بن عُيينة: مَا سَتَرَ الله أحَدًا يَكْذِبُ في الْحَدِيثِ. وَقَالَ عَبْدُ الله بنُ الْمُبَارَكِ: لَوْ هَمَّ رَجُلٌ في [السِّحْرِ] [١] أنْ يَكْذِبَ في الْحَدِيثِ، لَأصْبَحَ وَالناسُ يَقُولُونَ: فُلَانٌ كَذابٌ.

وَخَبَرُ الْوَاحِدِ وَإِنْ كَانَ يَحْتَمِلُ الصدْقَ وَالْكَذِبَ، وَلَكِن التفْرِيقَ بَيْنَ صَحِيحِ الْأَخْبَارِ وَسَقِيمِهَا لَا يَنَالُه أحَدٌ إلا بَعْدَ أنْ يَكُونَ مُعْظَمَ أوْقَاتِه مُشْتَغِلًا بِالْحَدِيثِ، وَالْبَحْث عَنْ سِيرَة الرواة، لِيَقِفَ على أحْوَالِهِمْ وَأقْوَالِهِمْ، وَشِدة حَذَرِهِمْ مِنَ الطغْيَانِ وَالزلَلِ، وَكَانُوا بِحَيْثُ لَوْ قُتِلُوا لَمْ يُسَامِحُوا أحَدًا في كَلِمَة يَتَقَوَّلُهَا على رَسُولِ الله ﷺ وَلَا فَعَلُوا هُمْ بِأنْفُسِهِمْ ذَلِكَ. وَقَدْ نَقَلُوا هَذَا الدينَ إلَيْنَا كَمَا نُقِلَ إلَيْهِمْ، فَهُمْ ترك الْإِسْلَامِ [٢] وَعِصَابَة الْإِيمَانِ، وَهُمْ نُقادُ الْأَخْبَارِ، وَصَيَارِفَة الْأَحَادِيثِ. فَإِذَا وَقَفَ الْمَرْءُ على هَذَا مِنْ شَأْنِهِمْ، وَعَرَفَ حَالَهُمْ، وَخَبَرَ صِدْقَهُمْ وَوَرَعَهُمْ وَأمَانَتَهُمْ - ظَهَرَ له الْعِلْمُ فِيمَا نَقَلُوه وَرَوَوْه.

وَمَنْ له عَقْلٌ وَمَعْرِفَة يَعْلَمُ أن أهْلَ الْحَدِيثِ لَهُمْ [مِنَ] الْعِلْمِ بِأحْوَالِ نَبِيِّهِمْ وَسِيرَته وَأخْبَاره، مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ به شُعُورٌ، فَضْلًا أنْ يَكُونَ مَعْلُومًا لَهُمْ أوْ مَظْنُونًا. كَمَا أن النحَاة عِنْدَهُمْ مِنْ أخْبَارِ سِيبَوَيْه وَالْخَلِيلِ وَأقْوَالِهِمَا مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَعِنْدَ الْأطِبَاءِ مِنْ كَلَامِ بُقْرَاط وَجَالِينُوسَ مَا لَيْسَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ، وَكُل ذِي صَنْعَة هُوَ أخْبَرُ بِهَا مِنْ غيره، فَلَوْ سَألْتَ الْبَقالَ عَنْ أمْرِ الْعِطْرِ، أوِ الْعَطارَ عَنِ الْبُرِّ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ! ! لَعُد ذَلِكَ جَهْلًا كَثِيرًا.

وَلَكِن النفَاة قَدْ جَعَلُوا قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [٣] -مُسْتَنَدًا لَهُمْ في رَد الْأَحَادِيثِ الصحِيحَة، فَكُلمَا جَاءَهُمْ حَدِيثٌ يُخَالِفُ قَوَاعِدَهُمْ وَآرَاءَهُمْ، وَمَا وَضَعَتْه

---

(١) في الأصل : (البحر) . ولعل الصواب ما أثبتناه من بعض النسخ . ن .

(٢) " ترك " بضم التاء المثناة والراء : جمع " تريكة " بفتح التاء وكسر الراء ، وهي بيضة الحديد للرأس . يريد أنهم دروع الإسلام وحفظته . وفي المطبوعة " بزك " ! وهو تحريف لا معنى له . ويمكن أن تقرأ " بزل " بضم الباء الموحدة والزاي وآخرها لام . وهو جمع " بازل " ، وأصله وصف للبعير إذا بزل نابه ، أي طلع ، وهو أقصى أسنان البعير . قال في اللسان : " وقد قالوا : رجل بازل ، على التشبيه بالبعير . وربما قالوا ذلك يعنون به كماله في عقله وتجربته . وفي حديث علي * بازل عامين حديث سني * يقول : أنا مستجمع الشباب ، مستكمل القوة " . وليس بيدنا أصل مخطوط للشرح ، حتى نستطيع أن نجزم أي اللفظين أرجح .

(٣) سورة الشورى آية ١١ .

خَوَاطِرُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ- رَدوه بـ ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [1] [تلْبيسًا مِنْهُمْ وَتَدْلِيسًا][2] على مَنْ هُوَ أعْمَى قلْبًا مِنْهُمْ، وَتَحْرِيفًا لمعنى الْآي عَنْ مَوَاضِعِه.

فَفَهِمُوا مِنْ أَخْبَارِ الصفَاتِ مَا لَمْ يُرِدْه الله وَلَا رسوله، وَلَا فَهِمَه أَحَدٌ مِنْ أئمة الْإِسْلَامِ، أنه يَقْتَضِي إِثْبَاتُهَا التمْثِيلَ بِمَا لِلْمَخْلُوقِينَ ! ثم اسْتَدَلوا على بُطْلَانِ ذَلِكَ بـ ﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ ﴾ [3] تَحْرِيفًا لِلنصيْنِ ! ! وَيُصَنفُونَ الْكُتُبَ، وَيَقُولُونَ: هَذَا أُصُولُ دِينِ الْإِسْلَامِ الذي أَمَرَ الله به وَجَاءَ مِنْ عِنْدِه، وَيقْرَءُونَ كَثِيرًا مِنَ الْقُرْآنِ وَيُفَوضُونَ معناه إلى الله تعالى، مِنْ غَيْرِ تَدَبرٍ لِمَعْنَاه الذي بَينَه الرسُولُ، وَأَخْبَرَ أنه معناه الذي أَرَادَه الله.

وَقَدْ ذَم الله تعالى أَهْلَ الْكِتَابِ الْأَولِ على هذه الصفَاتِ الثلَاثِ، وَقَص علينا ذَلِكَ مِنْ خَبَرِهِمْ، لِنَعْتَبِرَ وَنَنْزَجِرَ عَنْ مِثْلِ طَرِيقَتِهِمْ. فَقَالَ تعالى: ﴿ ۞ أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ ﴾ [4] إلى أنْ قَالَ: ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٧٨ ﴾ [5]. وَالْأَمَانِي: التلَاوَة الْمُجَرَدَة، ثُم قَالَ تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩ ﴾ [6]. فَذَمهُمْ على نِسْبَة مَا كَتَبُوه إلى الله، وعلى اكْتِسَابِهِمْ بِذَلِكَ، فَكِلَا الْوَصْفَيْنِ ذَمِيمٌ: أَنْ يَنْسِبَ إلى الله مَا لَيْسَ مِنْ عِنْدِه،

(١) سورة الشورى آية ١١ .
(٢) في الأصل : (تلبسا منهم وتلبيسا) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .
(٣) سورة الشورى آية ١١ .
(٤) سورة البقرة آية ٧٥ .
(٥) سورة البقرة آية ٧٨ .
(٦) سورة البقرة آية ٧٩ .

وَأن يأخُذَ بِذَلِكَ عِوَضًا مِنَ الدنْيا مَالًا أوْ رِيَاسَة. نَسْألُ الله تعالى أنْ يَعْصِمَنا مِنَ الزلَلِ، في الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، بِمنه وكرَمِه.

السنةُ نَوْعَانِ شَرْعٌ ٱبتدَائِي وَبَيانٌ لِمَا شَرَعَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ

وَيشِيرُ الشيْخُ رحمه الله بقوله: " مِنَ الشرْعِ وَالْبيانِ " إلى أن مَا صَح عَنِ النبي ﷺ نَوْعَانِ: شَرْعٌ ٱبتدَائي، وَبَيانٌ لِمَا شَرَعَه الله في كِتَابِه الْعَزِيزِ، وَجَمِيعُ ذَلِكَ حَق وَاجِبُ الِاتبَاعِ.

وقوله: " وَأهْلُه في أصْلِه سَوَاءٌ، وَالتفاضُلُ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِيقَةِ وَمُخَالَفَةِ الْهَوَى، وَمُلَازَمَة الأولى ". وفي بَعْضِ النسَخِ: " بِالْخَشْيَة وَالتقَى " بَدَلَ قوله: " بِالْحَقِيقَة ". ففي الْعَبَارَة الأولى يُشِيرُ إلى أن الْكل مُشْتَرِكُونَ في أصْلِ التصْدِيقِ، وَلَكِن التصْدِيقَ يَكُونُ بَعْضُه أقْوَى مِنْ بَعْضٍ وَأثْبتَ، كَمَا تقَدمَ نَظِيرُه بِقُوة الْبَصَرِ وَضَعْفِه. وفي الْعِبَارَة الأخرى يُشِيرُ إلى أن التفَاوُتَ بين الْمُؤْمِنينَ بِأعْمَالِ الْقُلُوبِ، وَأما التصْدِيقُ فَلَا تفَاوُتَ فيه. والمعنى الْأولُ أظْهَرُ قُوة، والله أعْلَمُ بِالصوَابِ.

أوْلِيَاءُ الرحْمَن

الْمُؤْمِنونَ كُلهُمْ أوْلِيَاءُ الرحْمَن

قوله: (وَالْمُؤْمِنونَ كُلهُمْ أوْلِيَاءُ الرحْمَن).

ش: قَالَ تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ (١) الآية. الْوَلِي: مِنَ " الْوَلَايَة " بِفَتْحِ الْوَاوِ، التي هي ضِد الْعَدَاوَة. وَقَدْ قرَأ حَمْزَة: ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ (٢) بِكَسْرِ الْوَاوِ، وَالْباقُونَ بِفَتْحِهَا. وَقِيلَ: هُمَا لُغَتانِ. وَقِيلَ: بِالْفَتْحِ النصْرَة، وَبِالْكَسْرِ: الْإِمَارَة. قَالَ الزجاجُ: وَجَازَ الْكَسْرُ؛ لِأن في تَوَلي بَعْضِ الْقَوْمِ بَعْضًا جِنْسًا مِنَ الصنَاعَة وَالْعَمَلِ، وَكُل

---

(١) سورة يُونُسَ الآيتان ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) سورة الْأنفَالِ آية ٧٢ .

مَا كَانَ كَذَلِكَ مَكْسُورٌ، مِثْلُ: " الْخِيَاطَة " وَنَحْوِهَا.

فَالْمُؤْمِنونَ أَوْلِيَاءُ الله، والله تعالى وَليهُمْ، قَالَ الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّـٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَـٰتِ ۗ ﴾ [1] الآية. وَقَالَ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾[2]. وَالْمُؤْمِنونَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ [قَالَ تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾] [3] الآية [4] وَقَالَ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَـٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَـٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ ﴾ [5] إلى آخِرِ السورة. وَقَالَ تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾[6].

فهذه النُصوصُ كُلهَا ثَبتَ فِيهَا مُوَالاة الْمُؤمِنينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ، وَأَنهُمْ أَوْلِيَاءُ الله، وَأَن الله وَليهُمْ وَمَوْلاهُمْ. فالله يَتولى عِبَاده الْمُؤْمِنينَ، فَيُحِبهُمْ وَيحِبونَه، وَيرْضَى عَنْهُمْ وَيرْضَوْنَ عنه، وَمَنْ عَادَى له وَليا فَقَدْ بَارَزَه بِالْمُحَارَبَة. وهذه الْوِلاَيَة مِنْ رَحْمَته وَإِحْسَانه، لَيْسَتْ كَوِلاَيَة الْمَخْلُوقِ لِلْمَخْلُوقِ لِحَاجَته إليه. قَالَ تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ

---

(١) سورة الْبَقَرة آية ٢٥٧ .

(٢) سورة مُحَمدٍ آية ١١ .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، وأثبتناه من النسخ الأخرى ، حيث لا يستقيم الكلام إلا به . ن .

(٤) سورة التوْبَة آية ٧١ .

(٥) سورة الْأنفَالِ آية ٧٢ .

(٦) سورة الْمَائِدَة الآيتان ٥٥ ، ٥٦ .

وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾ ﴾[1]. فالله تعالى لَيْسَ له وَلي مِنَ الذل، بَلْ لله الْعِزة جَمِيعًا، خِلَافَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ مِمنْ يَتَوَلاه لِذُله وَحَاجَته إلى وَلي يَنْصُرُه.

تَفْسِيرُ مَعْنى الْوَلَايَةِ

وَالْوَلَايَة مَعْنَاهَا أيضًا نَظِيرُ الْإيمَانِ، فَيكُونُ مُرَادُ الشيْخ: أن أَهْلَهَا في أَصْلِهَا سَوَاءٌ، وَتكُونُ كَامِلَة وَنَاقِصَة: فَالْكَامِلَة تَكُونُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمتقِينَ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ﴾[2] فَـ " الذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتقُونَ " - مَنْصُوبٌ على أنه صِفَة " أَوْلِيَاءِ الله "، أَوْ بَدَلٌ منه، أَوْ بِإضْمَارِ [أَمْدَحُ][3] أَوْ مَرْفُوعٌ بِإضْمَارِ " هُمْ "، أَوْ خَبَرٌ ثَانٍ لِـ " إن "، وَأُجِيزَ فيه الْجَر، بَدَلًا مِنْ ضَمِيرِ " عَلَيْهِمْ ". وعلى هذه الْوُجُوه كُلهَا فَالْوَلَايَة لِمَنْ كَانَ مِنَ الذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتقُونَ، وَهُمْ أَهْلُ الْوَعْدِ الْمَذْكُورِ في الْآيَاتِ الثلَاثِ. وهي عِبَارَة عَنْ مُوَافَقَة الْوَلي الْحَمِيدِ في مَحَابه وَمَسَاخِطِه، لَيْسَتْ بِكَثْرَة صَوْمٍ وَلَا صلاة، وَلَا تَملقٍ وَلَا رِيَاضَة. وَقِيلَ: " الذِينَ آمَنُوا " مُبْتَدَأٌ، وَالْخَبَرُ " لَهُمُ الْبُشْرَى "، وَهُوَ بَعِيدٌ، لِقَطْعِ الْجُمْلَة [عَما][4] قَبْلَهَا، وَانْتِثَارِ نَظْمِ الآية.

وَتَجْتَمِعُ في الْمُؤْمِنِ وِلَايَة مِنْ وَجْه، وَعَدَاوَة مِنْ وَجْه، كَمَا قَدْ يَكُونُ فيه كُفْرٌ وَإيمَانٌ، وَشِرْكٌ وَتَوْحِيدٌ، وَتَقْوَى وَفُجُورٌ، وَنِفَاقٌ وَإيمَانٌ. وَإِنْ كَانَ في هَذَا الْأَصْلِ نِزَاعٌ لَفْظِي بَيْنَ أَهْلِ السنة، وَنِزَاعٌ مَعْنَوِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْبِدَعِ، كَمَا تَقَدمَ في الْإيمَانِ. وَلَكِن مُوَافَقَة الشارِعِ في اللفْظِ والمعنى - أولى مِنْ مُوَافَقَتِه في المعنى وَحْدَه، قَالَ تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ

---

(١) سورة الْإسْرَاءِ آية ١١١ .

(٢) سورة يُونُسَ الآيات ٦٢ - ٦٤ .

(٣) في الأصل : (مدح) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٤) في الأصل : (مما) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [1]. وَقَالَ تعالى: ﴿ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا ﴾ [2] الآية. وَقَدْ تَقدمَ الْكَلَامُ على هذه الآية، وَأَنهُمْ لَيْسُوا مُنَافِقِينَ على أَصَح الْقَوْلَيْنِ. وَقَالَ ﷺ: ﴿ أَرْبَعٌ مَنْ كُن فيه كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصلة مِنْهُن كَانَتْ فيه خَصلة مِنَ النفَاقِ حتى يَدَعَهَا: إِذَا حَدث كَذَبَ، [وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ] [3] وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ﴾ ، وفي رِوَايَة: ﴿ وَإِذَا أُتْمِنَ خَانَ ﴾ [4] ، بَدَلَ: ﴿ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ﴾ [5]. أَخْرَجَاه في الصحِيحَيْنِ. وَحَدِيثُ " شُعَبِ الْإِيمَانِ " تَقَدمَ. وقوله ﷺ ﴿ يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ كَانَ في قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرة مِنْ إِيمَانٍ ﴾ [6].

فَعُلِمَ أن مَنْ كَانَ معه مِنَ الْإِيمَانِ أَقَل الْقَلِيل لَمْ يُخَلدْ في النارِ، وَإِنْ كَانَ معه كَثِيرٌ مِنَ النفَاقِ، فَهُوَ يُعَذبُ في النارِ على قَدْرِ مَا معه مِنْ ذَلِكَ، ثُم يَخْرُجُ مِنَ النارِ.

فَالطاعَاتُ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ، وَالْمَعَاصِي مِنْ شُعَبِ الْكُفْرِ، وَإِنْ كَانَ رَأْسُ شُعَبِ الْكُفْرِ الْجحودَ، وَرَأْسُ شُعَبِ الْإِيمَانِ التصْدِيقَ.

وَأما مَا يُرْوَى مَرْفُوعًا إلى النبي ﷺ أنه قَالَ: ﴿ مَا مِنْ جَمَاعَة اجْتَمَعَتْ إِلا وَفِيهِمْ وَلِي لله، لَا هُمْ يَدْرُونَ به، وَلَا هُوَ يَدْرِي بِنَفْسِه ﴾ -: فَلَا أَصْلَ له، وَهُوَ كَلَامٌ بَاطِلٌ، فَإِن

---

(١) سورة يُوسُفَ آية ١٠٦ .

(٢) سورة الْحُجُرَاتِ آية ١٤ .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . واستدركناه من صحيح مسلم (١ / ٧٨) .

(٤) البخاري الشهادات (٢٥٣٦) ، مسلم الإيمان (٥٩) ، الترمذي الإيمان (٢٦٣١) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢١) ، أحمد (٣٩٧/٢) .

(٥) البخاري الإيمان (٣٣) ، مسلم الإيمان (٥٩) ، الترمذي الإيمان (٢٦٣١) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٥٠٢١) ، أحمد (٥٣٦/٢) .

(٦) الترمذي البر والصلة (١٩٩٩) ، أبو داود اللباس (٤٠٩١) ، ابن ماجه المقدمة (٥٩) ، أحمد (٣٩٩/١) .

الْجَمَاعَة قَدْ يَكُونُونَ كُفارًا، وَقَدْ يَكُونُونَ فُساقًا يَمُوتُونَ على الْفِسْقِ [(١)].

أَوْلِيَاءُ اللهِ الْكَامِلُونَ

وَأما أَوْلِيَاءُ الله الْكَامِلُونَ فَهُمُ الْمَوْصُوفُونَ في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [(٢)] الآية.

وَالتقْوى هي الْمَذْكُورَة في قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [(٣)] إلى قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝ ﴾ [(٤)].

وَهُمْ قِسْمَانِ: مُقْتَصِدُونَ، وَمُقَرَّبُونَ. فَالْمُقْتَصِدُونَ: الذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلى الله بِالْفَرَائِضِ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ وَالْجَوَارِحِ. وَالسابِقُونَ: الذِينَ يَتقَرَّبُونَ إلى الله بِالنوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ. كَمَا في صَحِيحِ البخاري عَنْ أبي هريرة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿يَقُولُ الله تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَليا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَة، وَمَا تقرب إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَداءِ مَا افْتَرَضْتُ عليه، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتقربُ إِلَيَّ بِالنوَافِلِ، حتى أُحِبه، فَإِذَا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَه الذي يُبْصِرُ به، وَيَدَه التي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَه التي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنه، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنه، وَمَا تَرَددْتُ عَنْ شَيْءٍ أنا فَاعِلُه تَرَددِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي

---

(١) كلام الشارح هذا نقله ملا علي القاري في (الموضوعات ص ٦٢ طبعة الهند) ، بشيء من الاختصار ، ونسبه لبعضهم دون تعيين القائل . ونقله العجلوني في كشف الخفا (٢ : ١٩٤) عن القاري .

(٢) سورة يُونُسَ الآيات ٦٢ - ٦٤ .

(٣) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٤) سورة الْبَقَرَة آية ١٧٧ .

الْمُؤمِن، يَكْرَه الْمَوتَ وَأكْرَه مَسَاءَته ﴾[1] [2].

وَالْوَلي: خِلَافُ الْعَدُو، وَهُوَ مُشتق مِنَ الْوَلَاءِ، وَهُوَ الدُنو وَالتقرب، فَوَلي الله: هُوَ مَنْ وَالَى الله بِمُوَافَقَتِه مَحْبُوبَاته، وَالتقرب إليه بِمَرْضَاتِه، وَهَؤُلَاءِ كَمَا قَالَ الله تعالى فِيهِمْ: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[3]. قَالَ أَبو ذَر ﷺ لَما نَزَلَتِ الآية، قَالَ النبي ﷺ ﴿ يَا أَبَا ذَر، لَوْ عَمِلَ الناسُ بِهَذِه الآية لَكَفَتْهِمْ ﴾[4] [5].

فَالْمتقُون يَجْعَلُ الله لَهُمْ مَخْرَجًا مِما ضَاقَ على الناسِ، وَيَرْزُقُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُونَ، فَيَدْفَعُ الله عَنْهُمْ الْمضَار، وَيَجْلِبُ لَهُمْ الْمَنَافِعَ، وَيُعْطِيهِمُ الله أَشْيَاءَ يَطُولُ شَرْحُهَا، مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتأْثِيرَاتِ.

أَكْرَمُ الْمُؤْمِنينَ عِنْدَ اللهِ

قوله: (وَأَكْرَمُهُمْ عِنْدَ الله أَطْوَعُهُمْ وَأَتْبَعُهُمْ لِلْقُرْآنِ).

ش: أَراد أَكْرَمُ الْمُؤمِنِينَ هُوَ الْأَطْوَعُ لله، وَالْأَتبعُ لِلْقُرْآنِ، وَهُوَ الْأَتقَى، وَالْأَتقَى هُوَ الْأَكْرَمُ، قَالَ تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[6]. وفي السنَنِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: ﴿ لَا فَضْلَ لِعَرَبِي على عَجَمِي، وَلَا لِعَجَمِي على عَرَبِي، وَلَا لِأَبيَض على أَسْوَدَ، وَلَا لِأَسْوَدَ على أَبيَض، إلا بِالتقْوَى، الناسُ مِنْ آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ ﴾[7]. وَبِهَذَا الدلِيلِ يَظْهَرُ

---

(١) البخاري الرقاق (٦١٣٧) .

(٢) هذا الحديث في صحيح البخاري ١١ : ٢٩٢- ٢٩٧ (من الفتح) . وقد أفاض الحافظ في شرحه وتخريج ما ورد في معناه . وصرح الحافظ بأنه ليس في مسند أحمد . وبين اللفظ الذي هنا ولفظ البخاري - اختلاف في أحرف يسيرة ، لا تغير المعنى . فلم أغيرها ، لعل الشارح يروي الصحيح من رواية أخرى غير ما بين أيدينا .

(٣) سورة الطلَاقِ الآيتان ٢ ، ٣ .

(٤) ابن ماجه الزهد (٤٢٢٠) ، أحمد (١٧٩/٥) ، الدارمي الرقاق (٢٧٢٥) .

(٥) رواه بنحوه الإمام أحمد ، مطولا ، كما في تفسير ابن كثير ٨ : ٣٨٨ .

(٦) سورة الْحُجُرَاتِ آية ١٣ .

(٧) أحمد (٤١١/٥) .

ضَعْفُ تَنَازُعِهِمْ في مسألة الْفَقِيرِ الصابِرِ وَالْغَنِي الشاكِرِ، وَتَرْجِيحِ أَحَدِهِمَا على الْآخَرِ، وَأَن التحْقِيقَ أن التفْضِيلَ لَا يَرْجِعُ إلى ذَاتِ الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَإِنمَا يَرْجِعُ إلى الْأَعْمَالِ وَالْأَحْوَالِ وَالْحَقَائِقِ، فَالْمَسْأَلَة فَاسِدَة في نَفْسِهَا. فَإِن التفْضِيلَ عِنْدَ الله بِالتقْوَى وَحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، لَا بِفَقْرٍ وَلَا غِنًى. وَلِهَذَا - والله أَعْلَمُ - قَالَ عُمَرُ ﷺ الْغِنَى وَالْفَقْرُ مَطِيتَانِ، لَا أُبَالِي أَيهُمَا رَكِبْتُ. وَالْفَقْرُ وَالْغِنَى ابْتِلَاءٌ مِنَ الله تعالى لِعَبْدِه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ ﴾[1]. الآية فَإِن اسْتَوَيَا - الْفَقِيرُ الصابِرُ وَالْغَنِي الشاكِرُ - في التقْوَى، اسْتَوَيَا في الدرَجَة، وَإِنْ فَضَلَ أَحَدُهُمَا فِيهَا فَهُوَ الْأَفْضَلُ عِنْدَ الله، فَإِن الْفَقْرَ وَالْغِنَى لَا يُوزَنَانِ، وَإِنمَا يُوزَنُ الصبْرُ وَالشكْرُ.

وَمِنْهُمْ مَنْ أَحَالَ المسألة مِنْ وَجْه آخَرَ: وَهُوَ أن الْإِيمَانَ نِصْفٌ صَبْرٌ وَنِصْفٌ شُكْرٌ، فَكُل مِنْهُمَا لَا بُد له مِنْ صَبْرٍ وَشُكْرٍ. وَإِنمَا أَخَذَ الناسُ فَرْعًا مِنَ الصبْرِ وَفَرْعًا مِنَ الشكْرِ، وَأَخَذُوا في الترْجِيحِ، فَجَردُوا غَنِيا مُنفِقًا مُتَصَدقًا بَاذِلًا مَالَه في وُجُوبِ الْقُرْبِ شَاكِرًا لله عليه، وَفَقِيرًا مُتَفَرغًا لِطَاعَة الله وَلِأَدَاءِ الْعِبَادَاتِ صَابِرًا على فَقْرِه. وَحِينَئِذٍ يُقَالُ: إِن أَكْمَلَهُمَا أَطْوَعُهُمَا وَأَتْبَعُهُمَا، فَإِنْ تَسَاوَيَا تَسَاوَتْ دَرَجَتُهُمَا. والله أَعْلَمُ. وَلَوْ صَح التجْرِيدُ، لَصَح أَنْ يُقَالَ: أَيمَا أَفْضَلُ، مُعَافًى شَاكِرٌ أَوْ مَرِيضٌ صَابِرٌ. أَوَ مُطَاعٌ شَاكِرٌ أَوْ مُهَانٌ صَابِرٌ. أَوْ آمِنٌ شَاكِرٌ أَوْ خَائِفٌ صَابِرٌ ؟ وَنَحْوُ ذَلِكَ.

الْإِيمَانُ

أَرْكَانُ الْإِيمَانِ

قوله: (وَالْإِيمَانُ: هُوَ الْإِيمَانُ بالله، وَمَلَائِكَته، وَكُتُبِه، وَرُسُلِه، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ، خَيْرِه وَشَرِّه، وَحُلْوِه وَمُرِّه، مِنَ الله تعالى).

ش: تَقَدمَ أن هذه الْخِصَالَ هي أُصُولُ الدينِ، وَبِهَا أَجَابَ النبِي ﷺ في حَدِيثِ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورِ الْمُتفَقِ على صِحتِه، حِينَ جَاءَ إلى النبِي ﷺ على صُورَة رَجُلٍ أَعْرَابِي، وَسَأَلَه عَنِ

(١) سورة الْفَجْرِ آية ١٥ .

الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: ﴿أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَا الله، وَأَن مُحَمدًا رَسُولُ الله، وَتُقِيمَ الصلاة، وَتُؤْتِي الزكَاة، وَتَصُومَ رَمضَانَ، وَتحُج الْبَيتَ إِن اسْتَطَعْتَ إليه سَبِيلًا.﴾ [1] وَسَأله عَنِ الْإِيمان ؟ فَقَالَ: ﴿أَنْ تُؤمِنَ بالله، وَمَلَائِكَته، وَكُتبه، وَرُسُله، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَر، خَيْره وَشَره.﴾ [2] وَسَأله عَنِ الْإِحْسَانِ ؟ فَقَالَ: ﴿أَنْ تَعْبُدَ الله كَأنكَ تَرَاه، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاه فإنه يَرَاكَ.﴾ [3] وَقَدْ ثبتَ كَذَلِكَ [4] في الصحِيحِ عنه صلى الله عليه وَسَلمَ: أنه كَانَ يَقْرَأُ في رَكْعَتي الْفَجْرِ تَارَة بِسُورَتي الْإِخْلَاصِ: قُلْ يَا أيها الْكَافِرُونَ، وَقُلْ هُوَ الله أَحَدٌ. وَتَارَة بِآيَتي الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ: التي في سورة الْبقَرَة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ [5] الآية، والتي في آلِ عِمْرَانَ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ [6] الآية. [وَ] فَسرَ ﷺ الْإِيمَانَ في حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ، الْمُتفَقِ على صِحته، حَيْثُ قَالَ لَهُمْ: ﴿آمُرُكُمْ بِالْإِيمَانِ بالله وَحْدَه، أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بالله وَحْدَه ؟ شَهَادَة أَنْ لَا إِلَه إِلا الله وَحْدَه لَا شَرِيكَ له، وَإِقَامُ الصلاة، وَإِيتَاءُ الزكَاة، وَأَنْ

(١) مسلم الإيمان (٨) ، الترمذي الإيمان (٢٦١٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠) ، أبو داود السنة (٤٦٩٥) ، ابن ماجه المقدمة (٦٣) ، أحمد (٥٢/١) .

(٢) مسلم الإيمان (٨) ، الترمذي الإيمان (٢٦١٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩٠) ، أبو داود السنة (٤٦٩٥) ، ابن ماجه المقدمة (٦٣) ، أحمد (٢٧/١) .

(٣) البخاري الإيمان (٥٠) ، مسلم الإيمان (١٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩١) ، ابن ماجه المقدمة (٦٤) ، أحمد (٤٢٦/٢) .

(٤) في المطبوعة " ذلك " ، وهو خطأ .

(٥) سورة الْبقَرَة آية ١٣٦ .

(٦) سورة آلِ عِمْرَانَ آية ٦٤ .

تُؤَدوا خُمسَ مَا غَنِمْتُم ﴾ [1].

وَمَعْلُومٌ أنه لَمْ يَرِدْ أن هذه الْأَعْمَالَ تَكُونُ إِيمَانًا بالله بِدُون إِيمَانِ الْقَلْبِ، لِمَا قَدْ أَخْبَرَ في غَيْرِ مَوْضِعٍ أنه لَا بُد مِنْ إِيمَانِ الْقَلْبِ. فَعُلِمَ أن هذه مَعَ إِيمَانِ الْقَلْبِ هُوَ الْإِيمَانُ، وَقَدْ تَقَدمَ الْكَلَامُ على هَذَا.

لَا يَثْبُتُ حُكْمُ الْإِيمَانِ إلا بِالْعَمَلِ مَعَ التصْدِيق

وَالْكِتَابُ والسنة مَمْلُوءَانِ بِمَا يَدُل على أن الرجُلَ لَا يَثْبُتُ له حُكْمُ الْإِيمَانِ إلا بِالْعَمَلِ مَعَ التصْدِيقِ، وَهَذَا أَكْثَرُ مِنْ معنى الصلاة وَالزكَاة، فَإِن تِلْكَ إنمَا فَسرَتْهَا السنة، وَالْإِيمَانُ بَينَ معناه الْكِتَابُ والسنة. فَمِنَ الْكِتَابِ قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [2] الآية. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [3] الآية. وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [4] فَنفْي الْإِيمَانِ حتى تُوجَدَ هذه الْغَايَة - دَل على أن هذه الْغَايَة فَرْضٌ على الناس، فَمَنْ تَركَهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْوَعِيدِ [و] لَمْ يَكُنْ قَدْ أَتى بِالْإِيمَانِ الْوَاجِبِ، الذي وُعِدَ أَهْلُه بِدُخُولِ الْجَنة بِلَا عَذَابٍ. وَلَا يُقَالُ إِن بَين تَفْسِيرِ النبي ﷺ الْإِيمَانَ في حَدِيثِ جِبْرائيلَ وَتَفْسِيرِه إياه في حَدِيثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ مُعَارَضَة؛ لأنه فَسرَ الْإِيمَانَ في حَدِيثِ جِبْرائيلَ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ، فَكَانَ المعنى أنه الْإِيمَانُ بالله وَمَلَائِكَتِه وَكُتُبِه وَرُسُلِه وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مَعَ الْأَعْمَالِ التي ذَكَرَهَا في تَفْسِيرِ الْإِسْلَامِ، كَمَا أن الْإِحْسَانَ مُتَضَمنٌ لِلْإِيمَانِ

---

(١) البخاري الزكاة (١٣٣٤) ، مسلم الإيمان (١٧) ، الترمذي الإيمان (٢٦١١) ، النسائي الأشربة (٥٦٩٢) ، أبو داود الأشربة (٣٦٩٢) ، أحمد (٣٦١/١) .

(٢) سورة الْأَنفَال آية ٢ .

(٣) سورة الْحُجُرَاتِ آية ١٥ .

(٤) سورة النسَاءِ آية ٦٥ .

الذي قدمَ تفْسيره قبْلَ ذكره. بخلَافِ حَديثِ وَفْدِ عَبْدِ الْقيسِ، لأنه فسرَه ٱبتداءً، لمْ يَتقدمْ قبله تفْسيرُ الْإسْلَامِ. وَلَكِن هَذَا الْجَوَابَ لَا يَتأتى على مَا ذكره الشيْخُ رحمه الله مِنْ تفْسِيرِ الْإيمانِ، فَحَدِيثُ وَفْدِ عَبْدِ الْقيسِ مُشْكِلٌ عليه.

وَمما يُسْأَلُ عنه: أنه إذَا كَانَ مَا أوْجَبَه الله مِنَ الْأعْمَالِ الظاهِرَة أكْثَرَ مِنَ الْخِصَالِ الْخَمْسِ التي أجَابَ بِهَا النبي ﷺ في حَدِيثِ جِبْرائيلَ الْمَذْكُورِ، فَلِمَ قَالَ إن الْإسْلَامَ هذه الْخِصَالُ الْخَمْسُ ؟ وَقَدْ أجَابَ بَعْضُ الناسِ بِأن هذه أظْهَرُ شَعَائِرِ الْإسْلَامِ وَأعْظَمُهَا، وَبِقيامِه بِهَا يَتِم اسْتِسْلَامُه، وَتَرْكُه لَهَا يُشْعِرُ بِانْحِلَالِ [قَيدِ] [(١)] انْقِيَادِه.

وَالتحْقِيقُ: أن النبي ﷺ ذَكَرَ الدينَ الذي هُوَ اسْتِسْلَامُ الْعَبْدِ لِرَبه مُطْلَقًا، الذي يَجِبُ لله [عِبَادَة مَحْضَة] [(٢)] على الْأعْيَانِ، فَيَجِبُ على كُل مَنْ كَانَ قَادِرًا عليه، لِيَعْبُدَ الله بِهَا مُخْلِصًا له الدينَ، وهذه هي الْخَمْسُ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَإنمَا يَجِبُ بِأسْبَابٍ وَمَصَالِحَ، فَلَا يَعُمُّ وُجُوبُهَا جَمِيعُ الناسِ، بَلْ إما أنْ يَكُونَ فَرْضًا على الْكِفَايَة، كَالْجِهَادِ، وَالْأمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنهْي عَنِ الْمُنْكَرِ، وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ مِنْ إمَارَة، وَحُكْمٍ، وَفُتْيَا، وَإقْرَاءٍ، وَتَحْدِيثٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. [وَإما أنْ يَجِبَ] [(٣)] بِسَبَبِ حَق الْآدَميينَ، فَيَخْتَص به مَنْ وَجَبَ له وعليه، وَقَدْ يَسْقُطُ بِإسْقَاطِه، مِنْ قَضَاءِ الديُونِ، وَرَد الْأمَانَاتِ وَالْغُصُوبِ، وَالْإنْصَافِ مِنَ الْمَظَالِمِ، مِنَ الدمَاءِ وَالْأموَالِ وَالْأعْرَاضِ، وَحُقُوقِ الزوْجَة وَالْأوْلَادِ، وَصِلَة الْأرْحَامِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإن الْوَاجِبَ مِنْ ذَلِكَ على زَيْدٍ غَيْرُ الْوَاجِبِ على عَمْرٍو. بِخلَافِ صَوْمِ رَمَضَانَ وَحج الْبَيْتِ وَالصلَوَاتِ الْخَمْسِ وَالزكَاة، فَإن الزكَاة وَإنْ كَانَتْ [حَقًّا] [(٤)] مَاليا فَإنهَا وَاجِبَة لله، وَالْأصْنَافُ الثمَانِيَة مَصَارِفُهَا، وَلِهَذَا وَجَبَتْ فِيهَا النية، وَلَمْ يَجُزْ أنْ يَفْعَلَهَا الْغَيْرُ عنه بِلَا إذْنِه، وَلَمْ تُطْلَبْ مِنَ الْكُفارِ، وَحُقُوقُ الْعِبَادِ لَا يُشْتَرَطُ لَهَا النية، وَلَوْ أداهَا

(١) سقطت من الأصل ، وأثبتت من سائر النسخ . ن .

(٢) في الأصل : (على عباده محضه) . والتصويب من الفتاوى ٧ / ٣١٤ . ن .

(٣) في الأصل : (وأما ما يجب) ، والتصويب من الفتاوى ٧ / ٣١٤ . ن .

(٤) سقطت من الأصل . وأثبتناها من الفتاوى ٧ / ٣١٥ . ن .

غيره عنه بِغَيْرِ إِذْنِه بَرِئَتْ ذِمَّتُه، وَيُطَالَبُ بِهَا الْكُفارُ. وَمَا يَجِبُ حَقًّا لله تعالى، كَالْكَفارَاتِ، هُوَ بِسَبَبٍ مِنَ الْعَبْدِ، وَفِيهَا معنى الْعُقُوبَة، وَلِهَذَا كَانَ التكْلِيفُ شَرْطًا في الزكَاة، فَلَا تَجِبُ على الصغِيرِ وَالْمَجْنُونِ عِنْدَ أبي حنيفة وَأَصْحَابِه رَحِمَهُمُ الله تعالى، لما عُرِفَ في مَوْضِعِه.

الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِه

وقوله " وَالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِه، وَحُلْوِه وَمُرِه، مِنَ الله تعالى " - تَقَدمَ قوله ﷺ في حَدِيثِ جِبْرائيلَ: " وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِه "، وَقَالَ تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا ﴾ (١). وَقَالَ تعالى: ﴿ وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ۝٧٨ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ (٢) الآية.

فَإِنْ قِيلَ: كَيْفَ وجه الْجَمْعِ بَيْنَ قوله: " كُل مِنْ عِنْدِ الله " وَبَيْنَ قوله: "فَمِنْ نَفْسِكَ"؟ قِيلَ: قوله " كُل مِنْ عِنْدِ الله ": الْخِصْبُ وَالْجَدْبُ، وَالنصْرُ وَالْهَزِيمَة، كُلهَا مِنْ عِنْدِ الله، وقوله " فَمِنْ نَفْسِكَ ": أي: مَا أَصَابَكَ مِنْ سَيئَة مِنَ الله فَبِذَنْبِ نَفْسِكَ عُقُوبَة لَكَ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾ (٣). يَدُل على ذَلِكَ مَا رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَباسٍ رضي الله عنه أنه قَرَأَ: ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ (٤) وَأنَا كَتَبْتهَا عَلَيْكَ.

وَالْمُرَادُ بِالْحَسَنة هُنَا النعْمَة، وَبالسيئَة الْبَلية، في أَصَح الْأَقْوَالِ. وَقَدْ قِيلَ: الْحَسَنة الطاعَة، وَالسيئَة الْمَعْصِيَة. [و] قِيلَ: الْحَسَنة مَا أَصَابَه يَوْمَ بَدْرٍ، وَالسيئَة مَا أصابَه يَوْمَ أُحُدٍ. وَالْقَوْلُ الْأَولُ شَامِلٌ لمعنى الْقَوْلِ الثالِثِ. والمعنى الثاني لَيْسَ مُرَادًا دُونَ الْأَولِ قَطْعًا، وَلَكِنْ لَا مُنَافَاةَ بين أَنْ تَكُونَ سَيئَة الْعَمَلِ وَسَيئَة الْجَزَاءِ مِنْ نَفْسِه، مَعَ أن الْجَمِيعَ مُقَدرٌ، فَإِن الْمَعْصِيَة الثانِيَة قَدْ تَكُونُ عُقُوبَة الأولى، فَتَكُونُ مِنْ سَيئَاتِ الْجَزَاءِ، مَعَ أنها مِنْ سَيئَاتِ

---

(١) سورة التوبة آية ٥١ .

(٢) سورة النساء الآيتان ٧٨ - ٧٩ .

(٣) سورة الشورى آية ٣٠ .

(٤) سورة النساء آية : ٧٩ .

الْعَمَلِ، وَالْحَسَنة الثانِيَة قَدْ تَكُونُ مِنْ ثَوَابِ الأولى، كَمَا دَل على ذَلِكَ الْكِتَابُ والسنة.

وَلَيْسَ لِلْقَدَرِية أَنْ يَحْتَجوا بقوله تعالى: ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [1] ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنْ فَعَلَ الْعَبْدُ - حَسَنَة كَانَ أَوْ سَيئَة - فَهُوَ منه لَا مِنَ الله ! وَالْقُرْآنُ قَدْ فَرق بَيْنَهُمَا، وَهُمْ لَا يُفَرقُونَ، ولأنه قَالَ تعالى: ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ [2] ، فَجَعَلَ الْحَسَنَاتِ مِنْ عِنْدِ الله، كَمَا جَعَلَ السيئاتِ مِنْ عِنْدِ الله، وَهُمْ لَا يَقُولُونَ بِذَلِكَ في الْأَعْمَالِ، بَلْ في الْجَزَاءِ. وقوله بَعْدَ هَذَا: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ ﴾ [3] و ﴿ مِن سَيِّئَةٍ ﴾ [4] ، مِثْلُ قوله: ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ ﴾ [5] و ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ [6].

وَفَرق سبحانه وتعالى بَيْنَ الْحَسَنَاتِ التي هي النعَمُ، وَبَيْنَ السيئاتِ التي هي الْمَصَائِبُ، فَجَعَلَ هذه مِنَ الله، وهذه مِنْ نَفْسِ الْإِنسَانِ؛ لِأَن الْحَسَنة مُضَافَة إلى الله، إِذْ هُوَ أَحْسَنَ بِهَا مِنْ كُل وَجْه، فَمَا مِنْ وَجْه مِنْ أَوْجُهِهَا إلا وَهُوَ يَقْتَضِي الْإِضَافَة إليه، وَأَما السيئَة، فَهُوَ إِنمَا يَخْلُقُهَا لِحِكْمَة، وهي بِاعْتِبَارِ تِلْكَ الْحِكْمَة مِنْ إِحْسَانِه، فَإِن الرب لَا يَفْعَلُ سَيئَة قَط، بَلْ فِعْلُه كله حَسَنٌ وَخَيْرٌ.

---

(١) سورة النساء آية : ٧٩ .
(٢) سورة النساء آية : ٧٨ .
(٣) سورة النساء آية : ٧٩ .
(٤) سورة النساء آية : ٧٩ .
(٥) سورة النساء آية : ٧٨ .
(٦) سورة النساء آية : ٧٨ .

لا يخلق الله شرا محضا

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح: ﴿ والخير كله بيديك، والشر ليس إليك ﴾ (١). أي: فإنك لا تخلق شرا محضا، بل كل ما تخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس، فهذا شر جزئي إضافي، فأما شر كلي، أو شر مطلق - فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه. وهذا هو الشر الذي ليس إليه.

ولهذا لا يضاف الشر إليه مفردا قط، بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات، كقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ (٢) ، ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ (٣) وإما أن يضاف إلى السبب، كقوله: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ ﴾ (٤) وإما أن يحذف فاعله، كقول الجن: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ ﴾ (٥).

وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل لله من الرحمة والحكمة ما لا يقدر قدره إلا الله تعالى، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة - يكون شرا كليا عاما، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيرا أو مصلحة للعباد، كالمطر العام، وكإرساله رسولا عاما.

وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد كذابا عليه بالمعجزات التي أيد بها الصادقين، فإن هذا شر عام للناس، يضلهم، فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم.

وليس هذا كالملك الظالم والعدو، فإن الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر

---

(١) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١) ، الترمذي الدعوات (٣٤٢٢) ، النسائي الافتتاح (٨٩٧) ، أبو داود الصلاة (٧٦٠) ، أحمد (١٠٣/١) ، الدارمي الصلاة (١٢٣٨) .

(٢) سورة الزمر آية ٦٢ .

(٣) سورة النساء آية ٧٨ .

(٤) سورة الفلق آية ٢ .

(٥) سورة الجن آية ١٠ .

أكْثَر مِنْ ظُلْمه، وَقَدْ قِيلَ: سِتون سنة بِإِمَامٍ ظَالِمٍ خَيْرٌ مِنْ لَيْلَة وَاحِدَة بِلَا إِمَامٍ، وَإِذَا قُدر كَثْرَة ظُلْمِه، فَذَاكَ خَيْرٌ في الدين، كَالْمَصَائِب، تَكُونُ كَفَارَة لِذُنوبِهِمْ، وَيُثَابُونَ على الصَّبْرِ عليه، وَيرْجِعُونَ فيه إلى الله، وَيَسْتَغْفِرُونَه وَيَتوبُونَ إليه، وَكَذَلِكَ مَا يُسَلط عَلَيْهِمْ مِنَ الْعُدْوان. وَلِهَذَا قَدْ يُمكنُ الله كَثِيرًا مِنَ الْمُلُوكِ الظالِمِينَ مُدة، وَأما الْمُتَنَبئُونَ الْكَذابُونَ فَلَا يُطِيلُ تَمْكِينَهُمْ، بَلْ لَا بُد أنْ يُهْلِكَهُمْ؛ لِأن فَسَادَهُمْ عَام في الدين وَالدنْيا وَالْآخِرَة، قَالَ تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [1].

وفي قوله: ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ ﴾ [2] - مِنَ الْفَوَائِدِ: أن الْعَبْدَ لَا يَطْمَئِن إلى نَفْسِه وَلَا يَسْكُنُ إلَيْهَا، فَإِن الشر كَامِنٌ فِيهَا، لَا يَجِيءُ إلا مِنْهَا، وَلَا يَشْتَغِلُ بِمَلَامِ الناس وَلَا ذَمهِمْ إذَا أَسَاءُوا إليه، فَإِن ذَلِكَ مِنَ السيئَاتِ التي أَصَابَتْه، وهي إنمَا أَصَابَتْه بِذُنوبه، فَيَرْجِعُ إلى الذنُوبِ، وَيَسْتَعِيذُ بالله مِنْ شَر نَفْسِه وَسَيئَاتِ عَمَلِه، وَيَسْأَلُ الله أَنْ يُعِينَه على طَاعَتِه. فَبِذَلِكَ يَحْصُلُ له كُل خَيْرٍ، وَيَنْدَفِعُ عنه كُل شَر.

أَنفَعُ الدعَاءِ دُعَاءُ الْفَاتِحَة

وَلِهَذَا كَانَ أَنْفَعُ الدعَاءِ وَأَعْظَمُه وَأَحْكَمُه دُعَاءَ الْفَاتِحَة: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ [3]. فإنه إذَا هَدَاه هَذَا الصرَاط أَعَانَه على طَاعَتِه وَتَرْكِ مَعْصِيَتِه، فَلَمْ يُصِبْه شَر، لَا في الدنْيا وَلَا في الْآخِرَة.

لَكِن الذنُوب هي لَوَازِمُ نَفْسِ الْإِنسَانِ، وَهُوَ مُحْتَاجٌ إلى الْهُدَى كُل لَحْظَة، وَهُوَ إلى الْهُدَى أَحْوَجُ منه إلى الطعَامِ وَالشرَابِ. لَيْسَ كَمَا يَقُولُه بَعْضُ الْمُفَسرِينَ: أنه قَدْ هَدَاه !

(١) سورة الْحَاقة الآيات ٤٤ - ٤٦ .

(٢) سورة النساء آية : ٧٩ .

(٣) سورة الفاتحة الآيتان ٦ - ٧ .

فَلِمَاذَا يَسْأَلُ الْهُدَى؟! وَأن الْمُرَادَ التثْبِيتُ، أَوْ مَزِيدُ الْهِدَايَة ! بَلِ الْعَبْدُ مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يُعَلمَه الله مَا يَفْعَلُه مِنْ تَفَاصِيلِ أَحْوَالِه، وإلى مَا يَتْرُكُه مِنْ تَفَاصِيلِ الْأُمورِ، في كُل يَوْمٍ، وإلى أَنْ يُلْهِمَه أَنْ يَعْمَلَ ذَلِكَ. فإنه لَا يَكْفِي مُجَردُ عِلْمِهِ إِنْ لَمْ يَجْعَلْه مُرِيدًا لِلْعَمَلِ بِمَا يَعْلَمُه، وَإِلا كَانَ الْعِلْمُ حُجة عليه، وَلَمْ يَكُنْ مُهْتَدِيًا. وَ [الْعَبْدُ] [1] مُحْتَاجٌ إلى أَنْ يَجْعَلَه [الله] [2] قَادِرًا على الْعَمَلِ بِتِلْكَ الْإِرَادَة الصالِحَة، فَإِن الْمَجْهُولَ لَنا مِنَ الْحَق أَضْعَافُ الْمَعْلُومِ، وَمَا لَا نُرِيدُ فِعْلَه تَهَاوُنًا وَكَسَلًا مِثْلُ مَا نُرِيدُه أَوْ أَكْثَرُ منه أَوْ دُونَه، وَمَا لَا نَقْدِرُ عليه مِما نُرِيدُه كَذَلِكَ، وَمَا نَعْرِفُ جُمْلَته وَلَا نَهْتَدِي لِتَفَاصِيلِه فَأَمْرٌ يَفُوتُ الْحَصْرَ. وَنَحْنُ مُحْتَاجُونَ إلى الْهِدَايَة التامة، فَمَنْ كَمُلَتْ له هذه الْأُمورُ كَانَ سُؤَالُه سُؤَالَ تَثْبِيتٍ، وهي آخِرُ الرتَبِ.

وَبَعْدَ ذَلِكَ كله هِدَايَة أخرى، وهي الْهِدَايَة إلى طَرِيقِ الْجَنة في الْآخِرَة. وَلِهَذَا كَانَ الناسُ مَأْمورِينَ بِهَذَا الدعَاءِ في كُل صلاة، لِفَرْطِ حَاجَتِهِمْ إليه، فَلَيْسُوا إلى شَيْءٍ أَحْوَجَ مِنْهُمْ إلى هَذَا الدعَاءِ. فَيَجِبُ أَنْ يَعْلَمَ أن الله بِفَضْلِ رَحْمَتِه جَعَلَ هَذَا الدعَاءَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ الْمُقْتَضِيَة لِلْخَيْرِ، الْمَانِعَة مِنَ الشر، فَقَدْ بَينَ الْقُرْآنُ أن السيئَاتِ مِنَ النفْسِ، وَإِنْ كَانَتْ بِقَدَرِ الله، وَأن الْحَسَنَاتِ كُلهَا مِنَ الله تعالى.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُشْكَرَ سبحانه، وَأَنْ يَسْتَغْفِرَه الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِه، وَأَن لا يَتَوَكلَ إلا عليه وَحْدَه، فَلَا يأتي بِالْحَسَنَاتِ إلا هُوَ. فَأَوْجَبَ ذَلِكَ تَوْحِيدَه، وَالتَوَكلَ عليه وَحْدَه، وَالشكْرَ له وَحْدَه، وَالِاسْتِغْفَارَ مِنَ الذنُوبِ.

وهذه الْأُمورُ كَانَ النبي ﷺ يَجْمَعُهَا في الصلاة، كَمَا ثَبَتَ عنه في الصحِيحِ: أنه كَانَ إِذَا رَفَعَ رَأْسَه مِنَ الركُوعِ يَقُولُ: « رَبنا لَكَ الْحَمْدُ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيبًا مُبَارَكًا فيه، مِلْءُ السمَاوَاتِ، وَمِلْءُ الْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ، أَهْلَ الثنَاءِ وَالْمَجْدِ، أَحَق مَا قَالَ

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من : " الحسنة والسيئة " ص ٨٤ . ن .

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من : " الحسنة والسيئة " ص ٨٤ . ن .

الْعَبْدُ، وَكُلُّنَا لَكَ عَبْدٌ ﴾ [(١)]. فَهذَا حَمْدٌ، وَهُوَ شُكْرٌ لله تعالى، وَبَيَانُ أن حَمْدَه أحَق مَا قاله الْعَبْدُ، ثُم يَقُولُ بَعْدَ ذَلِكَ: ﴿ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيْت، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعْت، وَلَا يَنفَعُ ذَا الْجَد مِنْكَ الْجَد ﴾ [(٢)].

تَحْقِيقُ تَوْحِيدِ الرُبُوبية وَالْإِلَهية

وَهَذَا تَحْقِيقٌ لِوَحْدَانِيته، لِتَوْحِيدِ الرُبوبية، خَلْقًا وَقَدرًا، وَبِدَايَة وَنِهَايَة، هُوَ الْمُعْطِي الْمَانِعُ، لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَى، وَلَا مُعْطِي لِمَا مَنَعَ، [وَلِتَوْحِيدِ] [(٣)] الْإِلَهية، شَرْعًا وَأَمْرًا وَنَهْيًا، [وَهو أن] [(٤)] الْعِبَادَ وَإِنْ كَانُوا يُعْطَوْنَ جَدا: مُلْكًا وَعَظَمَة وَبَخْتًا وَرِيَاسَة، في الظاهِرِ، أَوْ في الْبَاطِنِ، كَأَصْحَابِ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتصَرفَاتِ الْخَارِقَة - فَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَد مِنْكَ الْجَد، أي لَا يُنَجِيه وَلَا يُخَلصُه، وَلِهَذَا قَالَ: لَا يَنْفَعُه مِنْكَ، وَلَمْ يَقُلْ وَلَا يَنْفَعُه عِنْدَكَ؛ لأنه لَوْ قِيلَ ذَلِكَ أَوْهَمَ أنه لَا يَتَقَربُ به إِلَيْكَ، لَكِنْ قَدْ لَا يَضُره.

فَتَضَمن هَذَا الْكَلَامُ تَحْقِيقَ التوْحِيدِ، أو تَحْقِيقَ قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [(٥)]، فإنه لَوْ قُدرَ أن شَيْئًا مِنَ الْأَسْبَابِ يَكُونُ مُسْتَقِلًا بِالْمَطْلُوبِ، وَإِنمَا يَكُونُ بِمَشِيئَة الله وَتَيْسِيرِه - لَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ لَا يُرْجَى إِلا الله، وَلَا يُتَوَكلُ إِلا عليه، وَلَا يُسْأَلُ إِلا هُوَ، وَلَا يُسْتَغَاثُ إِلا به، وَلَا يُسْتَعَانُ إِلا هُوَ، فله الْحَمْدُ، وإليه الْمُشْتَكَى، وَهُوَ الْمُسْتَعَانُ، وبه الْمُسْتَغَاثُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوة إِلا بالله. فَكَيْفَ وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَسْبَابِ

---

(١) مسلم الصلاة (٤٧٧) ، النسائي التطبيق (١٠٦٨) ، أبو داود الصلاة (٨٤٧) ، أحمد (٨٧/٣) ، الدارمي الصلاة (١٣١٣) .

(٢) البخاري الأذان (٨٠٨) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٥٩٣) ، النسائي السهو (١٣٤١) ، أبو داود الصلاة (١٥٠٥) ، أحمد (٢٤٥/٤) ، الدارمي الصلاة (١٣٤٩) .

(٣) في الأصل : (وتوحيده) . والصواب ما أثبتناه ، كما في سائر النسخ . ن .

(٤) في الأصل : (وإن . .) ولعل الصواب ما أثبتناه ، كما في أكثر النسخ . ن .

(٥) سورة الفاتحة آية : ٥ .

مُسْتقِلّا بِمطْلُوبٍ، بَلْ لَا بد مِنَ انْضِمَامِ أَسْبابٍ أُخَرَ إليه، وَلَا بُد أَيْضًا مِنْ صَرْفِ الْمَوَانِعِ وَالْمُعَارِضَاتِ عنه، حتى يَحْصُلَ الْمَقْصُودُ، فَكُلُّ سَبَبٍ فله شَرِيكٌ، وله ضِد، فَإِنْ لَمْ يُعَاوِنْه شَرِيكُه، وَلَمْ يَنْصرِفْ عنه ضِده - لَمْ تَحْصُلْ مشِيئَة.

وَالْمطَرُ وَحْده لَا يُنبِتُ النبَاتَ إلا بِمَا يَنضَم إليه مِنَ الْهوَاءِ وَالتراب وَغَيْرِ ذَلِكَ، ثُم الزرْعُ لَا يَتم حتى تُصْرَفَ عنه الْآفَاتُ الْمُفْسِدَة له، وَالطعَامُ وَالشرَابُ لَا يُغَذي إلا بِمَا جُعِلَ في الْبدَنِ مِنَ الْأَعْضَاءِ وَالْقُوَى، وَمجْمُوعُ ذَلِكَ لَا يُفِيدُ إِنْ لَمْ تُصْرَفْ عنه الْمُفسِدَاتُ.

وَالْمَخْلُوقُ الذي يُعْطِيكَ أَوْ يَنْصُرُكَ، فَهُوَ - مَعَ أن الله يَجْعَلُ فيه الْإِرَادَة وَالْقُوة وَالْفِعْلَ -: فَلَا يَتم مَا يَفْعَلُه إلا بِأَسْبابٍ كثيرة، خَارِجَة عَنْ قُدْرَته، تُعَاوِنُه على مَطْلُوبِه، وَلَوْ كَانَ مَلِكًا مُطَاعًا، وَلَا بُد أَنْ يُصْرَفَ عَنِ الْأَسْبابِ الْمُتَعَاوِنَة مَا يُعَارِضُهَا وَيُمَانِعُهَا، فَلَا يَتم الْمطْلُوبُ إلا بِوُجُودِ الْمُقْتَضِي وَعَدَمِ الْمَانِعِ.

وَكُلُّ سَبَبٍ مُعَينٍ فَإِنمَا هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْمُقْتَضِي، فَلَيْسَ في الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ هُوَ مُقْتَضٍ تَام، وَإِنْ سُمي مُقْتَضِيًا، وَسُمي سَائِرُ مَا يُعِينُه شُرُوطًا - فَهَذَا نِزَاعٌ لَفْظِي. وَأَما أَنْ يَكُونَ في الْمَخْلُوقَاتِ عِلة تَامة تَسْتَلْزِمُ مَعْلُولَهَا فَهَذَا بَاطِلٌ.

وَمَنْ عَرَفَ هَذَا حَق الْمَعْرِفَة انْفَتَحَ له بَابُ تَوْحِيدِ الله، وَعَلِمَ أنه لَا يَسْتَحِق أَنْ يُسْأَلَ غيره، فَضْلًا عَنْ أَنْ يُعْبَدَ غيره، وَلَا يُتَوَكلَ على غيره، وَلَا يُرْجَى غيره.

وُجُوبُ الْإِيمانِ بِجَمِيعِ الرسُلِ

قوله: (وَنَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ كله، لَا نُفَرقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه، وَنُصَدقُهُمْ كُلهُمْ على مَا جَاءُوا به).

ش: الْإِشَارَة بِذَلِكَ إلى مَا تقدمَ، مِما يَجِبُ الْإِيمانُ به تَفْصِيلًا، وقوله: لَا نُفَرقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِه، إلى آخِرِ كَلَامِه - أي: لَا نُفَرقُ بَيْنَهُمْ بِأَنْ نُؤْمِنَ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرَ بِبَعْضٍ، بَلْ نُؤْمِنُ بِهِمْ وَنُصَدقُهم كُلهمْ، فَإِن مَنْ آمنَ بِبعضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ، كَافِرٌ بِالْكُل. قَالَ تعالى:

﴿ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ ﴾ [1]. فَإِن المعنى الذي لِأَجْلِه آمن بِمَنْ آمن [به] مِنْهُمْ - مَوْجُودٌ في الذي لَمْ يُؤْمِنُوا به، وَذَلِكَ الرسُولُ الذي آمن به قَدْ جَاءَ بِتَصْدِيقِ بقية الْمُرْسَلِينَ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ بِبَعْضِ الْمُرْسَلِينَ كَانَ كَافِرًا بِمَنْ في زَعْمِه أنه يُؤْمِنُ به؛ لِأَن ذَلِكَ الرسُول قَدْ جَاءَ بِتَصْدِيقِ الْمُرْسَلِينَ كُلهِمْ، فَكَانَ كَافِرًا حَقًّا، وَهُوَ يظن أنه مُؤْمِنٌ، فَكَانَ مِنَ الْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا، الذِينَ ضَل سَعْيُهُمْ في الْحَيَاة الدنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

أَهْلُ الْكَبَائِرِ

الْعُصَاةُ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ لَا يُخَلدُونَ فِي النارِ إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحدُونَ

قوله: (وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أمة مُحَمدٍ ﷺ في النارِ لَا يُخَلدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحدُونَ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله عَارِفِينَ. وَهُمْ في مَشِيئَتِه وَحُكْمِه، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِه، كَمَا ذَكَرَ ﷻ في كِتَابِه: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ ﴾ [2] وَإِنْ شَاءَ عَذَبَهُمْ في النارِ بِعَدْلِه، ثُم يُخْرِجُهُمْ مِنْهَا بِرَحْمَتِه وَشَفَاعَة الشافِعِينَ مِنْ أَهْلِ طَاعَتِه، ثُم يَبْعَثُهُمْ إلى جَنتِه. وَذَلِكَ بِأَن الله تعالى مَولى أَهْلَ مَعْرِفَتِه، وَلَمْ يَجْعَلْهُمْ في الدارَيْنِ كَأَهْلِ نَكِرَتِه، الذِينَ خَابُوا مِنْ هِدَايَتِه، وَلَمْ يَنَالُوا مِنْ وِلَايَتِه. اللهُم يَا وَلِي الْإِسْلَامِ وَأَهْلِه، ثَبتنَا على الْإِسْلَامِ حتى نَلْقَاكَ به).

ش: فقوله وَأَهْلُ الْكَبَائِرِ مِنْ أمة مُحَمدٍ ﷺ في النارِ لَا يُخَلدُونَ، إِذَا مَاتُوا وَهُمْ مُوَحدُونَ - رَد لِقَوْلِ الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَة، الْقَائِلِينَ بِتَخْلِيدِ أَهْلِ الْكَبَائِرِ في النارِ. لَكِن الْخَوَارِجَ تَقُولُ بِتَكْفِيرِهِمْ، وَالْمُعْتَزِلَة بِخُرُوجِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ، لَا بِدُخُولِهِمْ في الْكُفْرِ، بَلْ لَهُمْ مَنْزِلَة بين مَنْزِلَتَيْنِ، كَمَا تَقَدمَ عِنْدَ الْكَلَامِ على قَوْلِ الشيْخِ رحمه الله: " وَلَا نُكَفرُ أَحَدًا مِنْ

---

(١) سورة النسَاءِ الآيتان ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) سورة النسَاءِ آية ٤٨ .

أَهْلِ الْقِبْلَة بِذَنْبٍ مَا لَمْ يَسْتَحِله ".

وقوله " وَأَهْلُ الْكَبائِرِ مِنْ أمة مُحَمدٍ " - تَخْصِيصُه أُمة مُحَمدٍ، يُفْهَمُ منه أن أَهْلَ الْكَبَائِرِ مِنْ أمة غَيْرِ مُحَمدٍ ﷺ قَبلَ نَسْخ تِلْكَ الشرَائِع به، حُكْمُهمْ مُخَالِفٌ لِأَهْلِ الْكَبائِرِ مِنْ أمة مُحَمدٍ. وفي ذَاكَ نَظَرٌ، فَإِن النبي ﷺ أَخْبَرَ أنه: ﴿يَخْرُجُ مِنَ النارِ مَنْ كَانَ في قَلْبِه مِثْقَالُ ذَرة مِنْ إِيمانٍ﴾ [(1)]. وَلَمْ يَخُص أُمَته بِذَلِكَ. بَلْ ذَكَرَ الْإِيمَانَ مُطْلَقًا. فَتأَمله. وَلَيْسَ في بَعْضِ النسَخ ذِكْرُ الْأُمة. وقوله: " في النارِ " - مَعْمُولٌ لقوله: " لَا يُخَلدُونَ ". وَإِنمَا قَدمَه لِأَجْلِ السجْعَة، لَا أَنْ يَكُونَ " في النارِ " خَبر لقوله " وَأَهْلُ الْكَبائِرِ "، كَمَا ظَنه بَعْضُ الشارِحِينَ.

اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْدِيدِ الْكَبِيرَةِ

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ في الْكَبائِرِ على أَقْوَالٍ:

فَقِيلَ: سَبْعة.

وَقِيلَ: سَبْعَة عَشَرَ.

وَقِيلَ: مَا اتفَقَتِ الشرَائِعُ على تَحْرِيمِه.

وَقِيلَ: ما يَسُد بَابَ الْمَعْرِفَة بالله.

وَقِيلَ: ذَهَابُ الْأَموَالِ وَالْأَبدَانِ.

وَقِيلَ: سُميَتْ " كَبائِرَ " بِالنسْبَة وَالْإِضَافَة إلى مَا دُونَهَا.

وَقِيلَ: لَا تُعْلَمُ أَصْلًا.

أَوْ: أَنهَا أُخْفِيَتْ كَلَيْلَة الْقَدْرِ.

وَقِيلَ: إِنهَا إلى السبْعِينَ أَقْرَبُ.

وَقِيلَ: كُل مَا نَهى الله عنه فَهُوَ كَبِيرَة.

وَقِيلَ: إِنهَا مَا يَتَرتبُ عَلَيْهَا حَد أَوْ تُوعِدَ عَلَيْهَا بِالنارِ، أَوِ اللعْنَة، أَوِ الْغَضَبِ، وَهَذَا

---

(1) الترمذي البر والصلة (1999) ، أبو داود اللباس (4091) ، ابن ماجه المقدمة (59) ، أحمد (1/399) .

أَمْثَلُ الْأَقْوَالِ.

وَاخْتَلَفَتْ عِبَارَات السلف في تعريف الصغائر:

مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الصغِيرَة مَا دُونَ الْحَدَّيْنِ: حَد الدنْيَا وَحَد الْآخِرَة. وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: كُل ذَنبٍ لَمْ يُخْتَمْ [1] بِلَعْنَة أَوْ غَضَبٍ أَوْ نَارٍ.

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: الصغِيرَة مَا لَيْسَ فِيهَا حَد في الدنْيَا وَلَا وَعِيدٌ في الْآخِرَة، وَالْمُرَادُ بِالْوَعِيدِ: الْوَعِيدُ الْخَاص بِالنارِ أَوِ اللعْنَة أَوِ الْغَضَبُ، فَإِن الْوَعِيدَ الْخَاص في الْآخِرَة كَالْعُقُوبَة الْخَاصة في الدنْيَا، أَعْنِي الْمُقَدرَة، فَالتعْزِيرُ في الدنْيَا نَظِيرُ الْوَعِيدِ بِغَيْرِ النارِ أَوِ اللعْنَة أَوِ الْغَضَبِ. وَهَذَا الضابِطُ يَسْلَمُ مِنَ الْقَوَادِحِ الْوَارِدَة على غيره، فإنه يَدْخُلُ فيه كُل مَا ثَبتَ بِالنص أنه كَبِيرَة، كَالشرْكِ، وَالْقَتْلِ، وَالزنَا، وَالسحْرِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَالْفِرَارِ مِنَ الزحْفِ، وَأَكْلِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلِ الربَا، وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ، وَالْيَمِينِ الْغَمُوسِ، وَشَهَادَة الزورِ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ.

وَتَرْجِيحُ هَذَا الْقَوْلِ مِنْ وُجُوه:

أَحَدُهَا: أنه هُوَ الْمَأْثُورُ عَنِ السلَفِ، كَابْنِ عَباسٍ، وَابْنِ عُيَيْنَة، وَابْنِ حَنْبَلٍ، وَغَيْرِهِمْ.

الثاني: أَن الله تعالى قَالَ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [2]. فَلَا يَسْتَحِق هَذَا الْوَعْدَ الْكَرِيمَ مَنْ أُوعِدَ بِغَضَبِ الله وَلَعْنَتِه وَنَارِه، وَكَذَلِكَ مَن اسْتَحَق أَنْ يُقَامَ عليه الْحَد لَمْ تَكُنْ سَيئَاتُه مُكَفرَة عنه بِاجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ.

الثالِثُ: أَن هَذَا الضابِطَ مَرْجِعُه إِلى مَا ذكره الله ورسوله مِنَ الذنُوبِ، فَهُوَ حَد مُتَلَقى مِنْ خِطَابِ الشارِعِ.

(١) في المطبوعة " ختم " ! وهو مناقض للمعنى المراد ، إذ هو يعرف الصغيرة ، وما ختم بذلك هو أحد تعريفات الكبيرة ، كما تقدم ، وكما هو بديهي .

(٢) سورة النسَاءِ آية ٣١ .

الرابِعُ: أن هَذَا الضابِط يُمْكِنُ الْفَرْقُ به بَيْنَ الْكَبائِرِ وَالصغَائِرِ، بِخِلَافِ تِلْكَ الْأَقْوَالِ.
فَإِن مَنْ قَالَ: سَبْعٌ، أَوْ سَبْعَ عَشْرَ، أَوْ إلى السبْعِينَ أَقْرَبُ - مُجَرَّدُ دَعْوَى. وَمَنْ قَالَ: مَا اتفقَتِ الشرَائِعُ على تَحْرِيمه دُونَ مَا اخْتلَفَتْ فيه - يَقْتَضِي أن شُرْبَ الْخَمْرِ، وَالْفِرَارَ مِنَ الزحْفِ، وَالتزوجَ بِبَعْضِ الْمَحَارِمِ، وَالْمُحَرمَ بِالرضَاعَة وَالصهْرِية، وَنَحْوَ ذَلِكَ - لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ ! وَأن الْحَبة مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالسرقة لَهَا، وَالْكِذْبَة الْوَاحِدَة الْخَفِيفَة، وَنَحْوَ ذَلِكَ - مِنَ الْكَبَائِرِ ! وَهَذَا فَاسِدٌ. وَمَنْ قَالَ: مَا سد بَابَ الْمَعْرِفَة بالله، أَوْ ذَهَابَ الْأَمْوَالِ وَالْأَبْدَانِ - يَقْتَضِي أن شُرْبَ الْخَمْرِ، وَأَكْلَ الْخِنْزِيرِ وَالْمَيْتَة وَالدمِ، وَقَذْفَ الْمُحْصَنَاتِ - لَيْسَ مِنَ الْكَبَائِرِ ! وَهَذَا فَاسِدٌ. وَمَنْ قَالَ: إِنهَا سُميَتْ كَبَائِرَ بِالنسْبَة إلى مَا دُونَهَا، أَوْ كُل مَا نَهَى الله عنه فَهُوَ كَبِيرَة - يَقْتَضِي أن الذُنوبَ في نَفْسِهَا لَا تَنْقَسِمُ إلى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ ! وَهَذَا فَاسِدٌ، لأنه خِلَافُ النصُوصِ الدالة على تَقْسِيمِ الذُنوبِ إلى صَغَائِرَ وَكَبَائِرَ. وَمَنْ قَالَ: إِنهَا لَا تُعْلَمُ أَصْلًا، أَوْ إِنهَا مُبْهَمَة - فَإِنمَا أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِه أنه لَا يَعْلَمُهَا، فَلَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَلِمَهَا غيره. والله أَعْلَمُ.

وقوله " وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا تَائِبِينَ " - لِأَن التوْبَة لَا خِلَافَ أَنهَا تَمْحُو الذُنوبَ، وَإِنمَا الْخِلَافُ في غَيْرِ التائِبِ.

وقوله: " بَعْدَ أَنْ لَقُوا الله تعالى عَارِفِينَ " - لَوْ قَالَ: " مُؤْمِنِينَ " بَدَلَ قوله " عَارِفِينَ "، كَانَ أولى، لِأَن مَنْ عَرَفَ الله وَلَمْ يُؤْمِنْ به فَهُوَ كَافِرٌ. وَإِنمَا اكْتفَى بِالْمَعْرِفَة وَحْدَهَا الْجَهْمُ، وقوله مَرْدُودٌ بَاطِلٌ، كَمَا تَقدمَ. فَإِنّ إِبْلِيسَ عَارِفٌ بِربه، ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[1]. ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[2]. وَكَذَلِكَ فِرْعَوْنُ وَأَكْثَرُ الْكَافِرِينَ. قَالَ تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم

---

(١) سورة الْحِجْرِ آية ٣٦ .

(٢) سورة ص الآيتان ٨٢ - ٨٣ .

مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾[1]. ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾[2]. إلى غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ الدالة على هَذَا المعنى. وَكَأَن الشيْخَ رحمه الله أَرَادَ الْمَعْرِفَة الْكَامِلَة الْمُسْتَلْزِمَة لِلِاهْتِدَاء، التي يُشِيرُ إِلَيْهَا أَهْلُ الطرِيقَة، وَحَاشَا أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ، بَلْ هُمْ سَادَة الناسِ وَخَاصتُهُمْ.

وقوله " وَهُمْ في مَشِيئَة الله وَحُكْمِه، إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ وَعَفَا عَنْهُمْ بِفَضْلِه "، إلى آخِرِ كَلَامِه - فَصَلَ الله تعالى بَيْنَ الشرْكِ وغيره؛ لِأَن الشرْكَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ، كَمَا قَالَ ﷺ وَأَخْبَرَ الله تعالى أَن الشرْكَ غَيرُ مَغْفُورٍ، وَعَلقَ غُفْرَانَ مَا دُونَه بِالْمَشِيئَة، وَالْجَائِزُ يُعَلقُ بِالْمَشِيئَة دُونَ الْمُمْتَنِعِ، وَلَوْ كَانَ الْكُل سَوَاءً لَمَا كَانَ لِلتفْصِيلِ معنى. ولأنه عَلقَ هَذَا الْغُفْرَانَ بِالْمَشِيئَة، وَغُفْرَانُ الْكَبَائِرِ وَالصغَائِرِ بَعْدَ التوْبَة مَقْطُوعٌ به، غَيرُ مُعَلقٍ بِالْمَشِيئَة، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾[3]. فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْغُفْرَانُ الْمُعَلقُ بِالْمَشِيئَة هُوَ غُفْرَانَ الذنُوبِ سِوَى الشرْكِ بالله قَبلَ التوْبَة.

وقوله " ذَلِكَ أن الله مَوْلَى أَهلِ مَعْرِفَتِه " - فيه مُؤَاخَذَة لَطِيفَة، كَمَا تقدمَ.

وقوله: " اللهُم يَا وَلِي الْإِسْلَامِ وَأَهْلِه مَسكْنَا بِالْإِسْلَامِ " وفي نُسْخَة " ثَبتْنَا على الْإِسْلَامِ حتى نَلْقَاكَ به " - روى شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَبو إِسْمَاعِيلَ الْأَنْصَارِي في كِتَابِه الْفَارُوقِ، بِسَنَدِه عَنْ أَنسٍ ﷺ قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ الله ﷺ يَقُولُ: ﴿ يَا وَلِي الْإِسْلَامِ وَأَهْلِه، مَسكْنِي بِالْإِسْلَامِ حتى أَلْقَاكَ عليه ﴾ . وَمُنَاسَبَة خَتْمِ الْكَلَامِ الْمُتَقَدمِ بِهَذَا الدعَاءِ ظَاهِرَة. وَبِمِثْلِ هَذَا الدعَاءِ دَعَا يُوسُفُ الصديقُ صَلَوَاتُ الله عليه، حَيْثُ قَالَ: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ

---

(١) سورة لُقْمَانَ آية ٢٥ .

(٢) سورة الْمُؤْمِنُونَ الآيتان ٨٤ - ٨٥ .

(٣) سورة الزمَرِ آية ٥٣ .

وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (١). وبه دَعَا السحَرَة الذِينَ كَانُوا أَول مؤمن بِموسَى صَلَوَاتُ الله على نَبِينَا وعليه، حَيْثُ قَالُوا: ﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ (٢).

وَمَن اسْتَدَل بِهَاتَيْن الْآيَتَيْن على جَوَاز تَمَني الْمَوْتِ فَلَا دَلِيلَ له فيه، فَإن الدعَاءَ إنمَا هُوَ بِالْمَوْتِ على الْإِسْلَامِ، لَا بِمُطْلَقِ الْمَوْتِ، وَلَا بِالْمَوْتِ الْآنَ، وَالْفَرْقُ ظَاهِرٌ.

الصلَاةُ خَلْفَ كُل بَر وَفَاجِرٍ

جَوَازُ الصلَاةِ خَلْفَ كُل بَر وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ

قوله: (وَنَرَى الصلاة خَلْفَ كُل بَر وَفَاجِرٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَة، وعلى مَنْ مَات مِنْهُمْ).

ش: قَالَ ﷺ ﴿ صَلوا خَلْفَ كُل بَر وَفَاجِرٍ ﴾ ". رواه مَكْحُولٌ عَنْ أبي هريرة رضي الله عنه وَأَخْرَجه الدارَقُطْني، قَالَ: مَكْحُولٌ لَمْ يَلْقَ أبَا هريرة. وفي إِسْنَاده مُعَاوِيَة بْنُ صَالِحٍ، مُتَكَلمٌ فيه، وَقَدِ احْتَج به مُسْلِمٌ في صَحِيحِه (٣). وَخَرجَ له الدارَقُطْني أَيْضًا وَأَبو دَاوُد، عَنْ مَكْحُولٍ، عَنْ أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ الصلاة وَاجِبَة عَلَيْكُمْ مَعَ كُل مُسْلِمٍ، بَرا كان أَوْ فَاجِرا، وَإِنْ عَمِلَ بِالْكَبَائِر، وَالْجِهَادُ وَاجِبٌ عَلَيْكُمْ مَعَ كُل أَمِيرٍ، بَرا

---

(١) سورة يُوسُفَ آية ١٠١ .

(٢) سورة الْأَعْرَافِ آية ١٢٦ .

(٣) الحديث رواه الدارقطني ، ص : ١٨٥ ، مطولا . ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٤ : ١٩ ، من طريق الدارقطني - من رواية ابن وهب : " حدثني معاوية بن صالح ، عن العلاء بن الحارث ، عن مكحول ، عن أبي هريرة " . قال الدارقطني : " مكحول : لم يسمع من أبي هريرة . ومن دونه ثقات " . وقال البيهقي - بعد كلام الدارقطني : " قد روي في الصلاة على كل بر وفاجر ، والصلاة على من قال لا إله إلا الله - أحاديث ، كلها ضعيفة غاية الضعف . وأصح ما روي في هذا الباب حديث مكحول عن أبي هريرة . وقد أخرجه أبو داود في كتاب السنن ، [يشير إلى الحديث الذي سيذكره الشارح عقب هذا] ، إلا أن فيه إرسالا ، كما ذكره الدارقطني " . وقول الشارح هنا : " معاوية بن صالح متكلم فيه . . " - قد حققنا في شرح المسند ، في الحديث : ٥٧٢٤ أن الكلام فيه تعسف من غير حجة . وعلة هذا الحديث ، والذي بعده ، هي الانقطاع بين مكحول وأبي هريرة ، كما قال الدارقطني والبيهقي .

كان أَوْ فَاجِرا، وَإِنْ عَمِلَ الْكَبَائِرَ » [(١)] . [(٢)].

وفي صَحِيحِ البخاري: أن عَبْدَ الله بن عُمَرَ ﷺ كَانَ يُصَلي خَلْفَ الْحَجاجِ بْنِ يُوسُفَ الثقفِي، وَكَذَا أَنسُ بْنُ مَالِكٍ، وَكَانَ الْحَجاجُ فَاسِقًا ظَالِمًا.

وفي صَحِيحِهِ أيضًا، أن النبي ﷺ قَالَ: « يُصَلونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيهِمْ » [(٣)].

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ عُمَرَ ﷺ أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: « صَلوا خَلْفَ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلا الله، وَصَلوا على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ لَا إِلَهَ إِلا الله » . أَخْرَجَه الدارَقُطْنِي مِنْ طُرُقٍ، وَضَعفَهَا [(٤)].

الصلَاةُ خَلْفَ مَسْتُورِ الْحَالِ

اعْلَمْ، رَحِمَكَ الله وَإِيانَا: أنه يَجُوزُ لِلرجُلِ أَنْ يُصَلي خَلْفَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ منه بِدْعَة وَلَا فِسْقًا، بِاتفَاقِ الْأَئِمة، وَلَيسَ مِنْ شَرْطِ الِائْتِمَامِ أَنْ يَعْلَمَ الْمَأْمُومُ اعْتِقَادَ إِمَامِه، وَلَا أَنْ يَمْتَحِنَه، فَيَقُولُ: مَاذَا تَعْتَقِدُ ؟ ! بَلْ يُصَلي خَلْفَ الْمَسْتُورِ الْحَالِ.

الصلَاةُ خَلْفَ الْمُبْتَدِعِ وَالْفَاسِقِ

وَلَوْ صلى خَلْفَ مُبْتَدِعٍ يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذي لا يمكنه الصلاة إلا خَلْفَه، كَإِمَامِ الْجُمْعَة وَالْعِيدَيْنِ، وَالْإِمَامِ في صلاة الْحَج بِعَرَفَة، وَنَحْوِ ذَلِكَ -: فَإِن الْمَأْمُومَ يُصَلي خَلْفَه، عِنْدَ عَامة السلَفِ وَالْخَلَفِ.

---

(١) أبو داود الجهاد (٢٥٣٣) .

(٢) الحديث رواه الدارقطني ، ص ١٨٤ ، من طريق يزيد بن يزيد بن جابر ، عن مكحول ، عن أبي هريرة ، مطولا . وكان لفظه في المطبوعة ناقصا ومحرفا ، وصححناه من الدارقطني . ورواه أبو داود : ٢٥٣٣ ، من رواية ابن وهب : " حدثني معاوية بن صالح ، عن العلاء بن الحارث ، عن مكحول ، عن أبي هريرة " ، فذكره بنحوه . ورواه البيهقي ٣ : ١٢١ ، من طريق أبي داود ، بإسناده . ورواه أيضا ٨ : ١٨٥ ، بإسناد آخر ، من طريق ابن وهب . وعلته الانقطاع ، مثل الحديث السابق .

(٣) البخاري الأذان (٦٦٢) ، أحمد (٢/٣٥٥) .

(٤) أشرنا إلى ذلك فيما نقلناه من كلام البيهقي آنفا .

وَمَنْ تَرَكَ الْجُمْعَة وَالْجَمَاعَة خَلْفَ الْإِمَامِ الْفَاجِرِ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ عِنْدَ أَكْثَرِ الْعُلَمَاءِ. وَالصحِيحُ أنه يُصَليهَا وَلَا يُعِيدُهَا، فَإِن الصحَابَة رضي الله عَنْهُمْ كَانُوا يُصَلون الْجُمْعَة وَالْجَمَاعَة خَلْفَ الْأَئِمة الْفُجارِ وَلَا يُعِيدُونَ، كَمَا كَانَ عَبْدُ الله بْنُ عُمَرَ يُصَلي خَلْفَ الْحَجاجِ بْنِ يُوسُفَ، وَكَذَلِكَ أَنسٌ ﷺ كَمَا تَقدمَ، وَكَذَلِكَ عَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ وغيره يُصَلون خَلْفَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَة بْنِ أَبي مُعَيْطٍ، وَكَانَ يَشْرَبُ الْخَمْرَ، حتى إنه صلى بِهِمُ الصبْحَ مَرة أَرْبَعًا، ثم قَالَ: أَزِيدُكُمْ ؟ ! فَقَالَ له ابْنُ مَسْعُودٍ: مَا زِلْنا مَعَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ في زِيَادَة ! ! وفي الصحِيحِ: أن عُثْمَانَ بْنَ عَفانَ ﷺ لما حُصِرَ صلى بِالناسِ شَخْصٌ، فَسَأَلَ سَائِلٌ عُثْمَانَ: إِنكَ إِمَامُ عَامة، وَهَذَا الذي صلى بِالناسِ إِمَامُ فِتْنة ؟ فَقَالَ: (يَا ابْنَ أَخِي، إِن الصلاة مِنْ أَحْسَنِ مَا يَعْمَلُ الناسُ، فَإِذَا أَحْسَنُوا فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ).

وَالْفَاسِقُ وَالْمُبْتَدِعُ صَلَاتُه في نَفْسِهَا صَحِيحَة، فَإِذَا صلى الْمَأْمُومُ خَلْفَه لَمْ تَبْطُلْ صَلَاتُه، لَكِنْ إِنمَا كَرِه مَنْ كَرِه الصلاة خَلْفَه؛ لِأَن الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاجِبٌ.

وَمِنْ ذَلِكَ: أن مَنْ أَظْهَرَ بِدْعَة وَفُجُورًا لَا يُرَتبُ إِمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ، فإنه يَسْتَحِق التعْزِيرَ حتى يَتُوبَ، فَإِذَا أَمْكَنَ هَجْرُه حتى يَتُوبَ كَانَ حَسَنًا، وَإِذَا كَانَ بَعْضُ الناسِ إِذَا تَرَكَ الصلاة خَلْفَه وصلى خَلْفَ غيره أَثرَ ذَلِكَ في إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ حتى يَتُوبَ أَوْ يُعْزَلَ أَوْ يَنْتَهِي الناسُ عَنْ مِثْلِ ذَنْبِه - فَمِثْلُ هَذَا إِذَا تَرَكَ الصلاة خَلْفَه كَانَ في ذَلِكَ مَصْلَحَة شَرْعِية، وَلَمْ تَفُتِ الْمَأْمُومَ الجُمْعَة وَلَا الجَمَاعَة.

وَأَما إِذَا كَانَ تَرْكُ الصلاة خَلْفَه يُفَوتُ الْمَأْمُومَ الْجُمْعَة وَالْجَمَاعَة، فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصلاة خَلْفَه إِلا مُبْتَدِعٌ مُخَالِفٌ لِلصحَابَة رضي الله عَنْهُمْ.

وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْإِمَامُ قَدْ رَتبَه وُلَاة الْأُمُورِ، لَيسَ في تَرْكِ الصلاة خَلْفَه مَصْلَحَة شَرْعِية، فَهُنَا لَا يَتْرُكُ الصلاة خَلْفَه، بَلِ الصلاة خَلْفَ الأفضل أَفْضَلُ، فَإِذَا أَمْكَنَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَا يُقَدمَ مظْهِرًا لِلْمُنْكَرِ في الْإِمَامَة، وَجَبَ عليه ذَلِكَ، لَكِنْ إِذَا وَلاه غيره، وَلَمْ يُمَكنه

صَرْفُه عَنِ الْإِمَامَة، أَوْ كَانَ لَا يَتَمَكنُ مِنْ صَرْفه عَنِ الْإِمَامَة إلا بِشَر أَعْظَمَ ضَررًا مِنْ ضَررِ مَا أظْهَرَ مِنَ الْمُنْكرِ - فَلَا يَجُوزُ دَفْعُ الْفَسَادِ الْقَلِيل بِالْفَسَادِ الْكَثِيرِ، وَلَا دَفْعُ أَخَف الضررَيْنِ بِحُصُولِ أَعْظَمِهِمَا، فَإِن الشرَائِعَ جَاءَتْ بِتَحْصِيلِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا، وَتَعْطِيلِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْلِيلِهَا، بِحَسَبِ الْإِمْكَانِ. فَتَفْوِيتُ الْجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ أَعْظَمُ فَسَادًا مِنْ الِاقْتِدَاءِ فِيهِمَا بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ، لَا سِيمَا إِذَا كَانَ التخَلفُ عَنْهَا لَا يَدْفَعُ فُجُورًا، فَيَبْقَى تَعْطِيلُ الْمَصْلَحَة الشرْعِية بِدُونِ دَفْعِ تِلْكَ الْمَفْسَدَة.

وَأما إِذَا أَمْكنَ فِعْلُ الْجُمُعَة وَالْجَمَاعَة خَلْفَ الْبر، فَهَذَا أولى مِنْ فِعْلِهَا خَلْفَ الْفَاجِرِ. وَحِينَئِذٍ، فَإِذَا صلى خَلْفَ الْفَاجِرِ مِنْ غَيرِ عُذْرٍ، فَهُوَ مَوْضِعُ اجْتِهَادِ الْعُلَمَاءِ: مِنْهُمْ مَنْ قَالَ: يُعِيدُ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: لَا يُعِيدُ. وَمَوْضِعُ بَسْطِ ذَلِكَ في كُتُبِ الْفُرُوعِ.

وَأما الْإِمَامُ إِذَا نَسِيَ أَوْ أَخْطَأَ، وَلَمْ يَعْلَمِ الْمَأْمُومُ بِحَاله، فَلَا إِعَادَة على الْمَأْمُومِ، لِلْحَدِيثِ الْمُتَقَدمِ. وَقَدْ صلى عُمَرُ ﷺ وغيره وَهُوَ جُنُبٌ نَاسِيًا لِلْجَنَابَة. فَأَعَادَ الصلاة، وَلَمْ يَأْمُرِ الْمَأْمُومِينَ بِالْإِعَادَة. وَلَوْ عَلِمَ أن إِمَامه بَعْدَ فَرَاغِه كَانَ على غَيْرِ طَهَارَة، أَعَادَ عِنْدَ أبي حنيفة، خِلَافًا لِمَالِكٍ وَالشافِعِي وَأَحْمَدَ في الْمَشْهُورِ عنه. وَكَذَلِكَ لَوْ فَعَلَ الْإِمَامُ مَا لَا يَسُوغُ عِنْدَ الْمَأْمُومِ. وفيه تَفَاصِيلُ مَوْضِعُهَا كُتُبُ الْفُرُوعِ. وَلَوْ عَلِمَ أن إِمَامَه يُصَلي على غَيْرِ وُضُوءٍ ! ! فَلَيْسَ له أَنْ يُصَلي خَلْفَه، لأنه لَاعِبٌ، وَلَيْسَ بِمُصَل.

الْمُطَاعُونَ فِي مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ

وَقَدْ دَلت نُصُوصُ الْكِتَابِ والسنة وَإِجْمَاعُ سَلَفِ الْأُمة أن وَلِي الْأَمْرِ، وَإِمَامَ الصلاة، وَالْحَاكِمَ، وَأَمِيرَ الْحَرْبِ، وَعَامِلَ الصدَقَة - يُطَاعُ في مَوَاضِعِ الِاجْتِهَادِ، وَلَيْسَ عليه أَنْ يُطِيعَ أَتْبَاعَه في مَوَارِدِ الِاجْتِهَادِ، بَلْ عَلَيْهِمْ طَاعَتُه في ذَلِكَ، وَتَرْكُ رَأْيِهِمْ لِرَأْيِه، فَإِن مَصْلَحَة الْجَمَاعَة وَالِائْتِلَافَ، وَمَفْسَدَة الْفُرْقَة وَالِاخْتِلَافِ، أَعْظَمُ مِنْ أَمْرِ الْمَسَائِلِ الْجُزْئِية. وَلِهَذَا لَمْ يَجُزْ لِلْحُكامِ أَنْ يَنْقُضَ بَعْضُهُمْ حُكْمَ بَعْضٍ. وَالصوَابُ الْمَقْطُوعُ به صِحة صلاة بَعْضِ هَؤُلَاءِ خَلْفَ بَعْضٍ. وَيُرْوَى عَنْ أبي يُوسُفَ: أنه لَما حَج مَعَ هَارُونَ الرشِيدِ، فَاحْتَجَمَ الْخَلِيفَة، وَأَفْتَاه مَالِكٌ بِأنه لَا يَتَوَضأُ، وصلى بِالناسِ، فَقِيلَ لِأَبي يُوسُفَ: أَصَلَّيْتَ خَلْفَه ؟

قَالَ: سُبْحَانَ الله ! أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. يُرِيدُ بِذَلِكَ أن تَرْكَ الصلاة خَلْفَ وُلَاة الْأُمورِ مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدَعِ. وَحَدِيثُ أبي هريرة، الذي رواه البخاري، أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: ﴿ يُصَلُّونَ لَكُمْ، فَإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ وَلَهُمْ، وَإِنْ أَخْطَئُوا فَلَكُمْ وَعَلَيْهِمْ ﴾ [(١)] - نص صَحِيحٌ صَرِيحٌ في أن الْإِمَامَ إِذَا أَخْطَأَ فَخَطَؤُه عليه، لَا على الْمَأْمومِ. وَالْمُجْتَهِدُ غَايَتُه أنه أَخْطَأَ بِتَرْكِ وَاجِبٍ اعْتَقَدَ أنه لَيْسَ وَاجِبًا، أَوْ فَعَلَ مَحْظُورًا اعْتَقَدَ أنه لَيْسَ مَحْظُورًا. وَلَا يَحِلّ لمن يُؤْمِنُ بالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُخَالِفَ هَذَا الْحَدِيثَ الصريحَ الصحيحَ بَعْدَ أَنْ يَبْلُغَه، وَهُوَ حُجة على مَنْ يُطْلِقُ مِنَ الْحَنَفِية وَالشافِعِية وَالْحَنْبَلِية أن الْإِمَامَ إِذَا تَرَكَ مَا يَعْتَقِدُ الْمَأْمُومُ وُجُوبَه لَمْ يَصِح اقْتِدَاؤُه به ! ! فَإِن الِاجْتِمَاعَ وَالِائْتِلَافَ مِما يَجِبُ رِعَايَتُه وَتَرْكُ الْخِلَافِ الْمُفْضِي إلى الْفَسَادِ.

وقوله: " وعلى مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ " - أي وَنَرَى الصلاة على مَنْ مَاتَ مِنَ الْأَبْرَارِ وَالْفُجارِ، وَإِنْ كَانَ يُسْتَثْنَى مِنْ هَذَا الْعُمُومِ الْبُغَاة وَقُطاعُ الطرِيقِ، وَكَذَا قَاتِلُ نَفْسِه، خِلَافًا لأبي يُوسُفَ، لَا الشهيدُ، خِلَافًا لِمَالِكٍ وَالشافِعِي رَحِمَهُمَا الله، على مَا عُرِفَ في مَوْضِعِه. لَكِن الشيْخَ إنمَا سَاقَ هَذَا لِبَيَانِ أنا لَا نَتْرُكُ الصلاة على مَنْ مَاتَ مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ وَالْفُجُورِ، لَا لِلْعُمُومِ الْكُلي.

وَلَكِن [الْمُظْهِرُونَ لِلْإِسْلَامِ] [(٢)] قِسْمَانِ: إما مُؤْمِنٌ، وَإما مُنَافِقٌ، فَمَنْ عُلِمَ نِفَاقُه لَمْ تَجُزِ الصلاة عليه وَالِاسْتِغْفَارُ له، وَمَنْ لَمْ يُعْلَمْ ذَلِكَ منه صُلي عليه. فَإِذَا عَلِمَ شَخْصٌ نِفَاقَ شَخْصٍ لَمْ يُصَل هُوَ عليه، وصلى عليه مَنْ لَمْ يَعْلَمْ نِفَاقَه، وَكَانَ عُمَرُ ﷺ لَا يُصَلي على مَنْ لَمْ يُصَل عليه حُذَيْفَة، لأنه كَانَ في غَزْوَة تَبُوكَ قَدْ عَرَفَ الْمُنَافِقِينَ، وَقَدْ نَهَى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عَنِ الصلاة على الْمُنَافِقِينَ، وَأَخْبَرَ أنه لَا يَغْفِرُ لَهُمْ بِاسْتِغْفَارِه، وَعَلَلَ ذَلِكَ بِكُفْرِهِمْ بالله ورسوله، فَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا بالله ورسوله لَمْ يَنْهَ عَنِ الصلاة عليه،

---

(١) البخاري الأذان (٦٦٢) ، أحمد (٣٥٥/٢) .

(٢) في الأصل : (الكلام لأهل الإسلام) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

وَلَوْ كَانَ له مِنَ الذُنوبِ الِاعْتِقَادِية الْبِدْعِية أو الْعَمَلية الْفُجُورِية مَا له، بَلْ قَدْ أَمرَه الله تعالى بِالاسْتِغفَارِ لِلْمُؤمنينَ، فَقَالَ تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ ﴾ (١). [فَأَمَرَه سبحانه بِالتَوْحيدِ وَالِاسْتِغفَارِ لِنفْسِه وَلِلْمُؤمنينَ وَالْمُؤْمنَاتِ] (٢) فَالتَوْحِيدُ أَصْلُ الدينِ، وَالِاسْتِغفَارُ له وَلِلْمُؤمِنينَ كَمَالُه. فَالدعَاءُ لَهُمْ بِالْمَغْفِرَة وَالرحْمَة وَسَائِرِ الْخَيْرَاتِ، إما وَاجِبٌ وَإما مُسْتَحَب، وَهُوَ على نَوْعَيْنِ: عَام وَخَاص، أما الْعَام فَظَاهِرٌ، كَمَا في هذه الآية، وَأما الدعَاءُ الْخَاص، فَالصلَاة على الْمَيتِ، فَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَمُوتُ إلا وَقَدْ أُمِرَ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يُصَلوا عليه صلاة الْجِنَازَة، وَهُمْ مَأْمُورُونَ في صَلَاتِهِمْ عليه أَنْ يَدْعُوا له، كَمَا روى أبو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجه عَنْ أبي هريرة ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِذَا صَلَّيْتُمْ على الْمَيتِ فَأَخْلِصُوا له الدعَاءَ» (٣).

لَا يُقْطَعُ لِأَحَدٍ مُعَينٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِجَنةٍ وَلَا نَارٍ إلا بِنَص

قوله: (وَلَا نُنزِلُ أَحَدًا مِنْهُمْ جَنة وَلَا نَارًا).

ش: يُرِيدُ: أَنَا لَا نَقُولُ عَنْ أَحَدٍ مُعَينٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَة إنه مِنْ أَهْلِ الْجَنة أَوْ مِنْ أَهْلِ النارِ، إلا مَنْ أَخْبَرَ الصادِقُ ﷺ أنه مِنْ أَهْلِ الْجَنة، كَالْعَشَرَة رضي الله عَنْهُمْ. وَإِنْ كُنا نَقُولُ: إنه لَا بُد أَنْ يَدْخُلَ النارَ مِنْ أَهْلِ الْكَبَائِرِ مَنْ يَشَاءُ الله إِدْخَالَه النارَ، ثُم يَخْرُجُ مِنْهَا بِشَفَاعَة الشافِعِينَ، وَلَكِنا نَقِفُ في الشخْصِ الْمُعَينِ، فَلَا نَشْهَدُ له بِجَنة وَلَا نَارٍ إلا عَنْ عِلْمٍ؛ لِأَن الْحَقِيقة بَاطِنَة، وَمَا مَاتَ عليه لَا نُحِيطُ به، لَكِنْ نَرْجُو لِلْمُحْسِنِينَ، وَنَخَافُ على الْمُسِيءِ.

وَلِلسلَفِ في الشهَادَة بِالْجَنة ثَلَاثَة أَقْوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنْ لَا يُشْهَدَ لِأَحَدٍ إلا لِلْأَنبِيَاءِ، وَهَذَا يُنقَلُ عَنْ مُحَمدِ ابْنِ الْحَنَفِية، وَالْأَوْزَاعِي.

---

(١) سورة مُحَمدٍ آية ١٩ .

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، وأثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٣) أبو داود الجنائز (٣١٩٩) ، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٤٩٧) .

والثاني: أنه يُشْهَدُ بِالْجَنة لِكُل مُؤْمِنٍ جَاءَ فيه النص، وَهَذَا قَوْلُ كَثِيرٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ.

وَالثالِثُ: أنه يُشْهَدُ بِالْجَنة لِهَؤُلَاءِ وَلِمَنْ شَهِدَ له الْمُؤْمِنُونَ، كَمَا في الصحِيحَيْنِ: أنه ﴿ مُر بِجِنَازَة، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا بِخَيْرٍ، فَقَالَ النبي ﷺ " وَجَبَتْ "، وَمُر بِأُخْرَى، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا بِشَر، فَقَالَ: " وَجَبَتْ ﴾ [(١)]. وفي رِوَايَة: كَرَّرَ: ﴿ وَجَبَتْ " ثَلَاثَ مَراتٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ الله، مَا وَجَبَتْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ " هَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه خَيْرًا وَجَبَتْ له الْجَنة، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عليه شَرا وَجَبَتْ له النارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ الله في الْأَرْضِ ﴾ [(٢)]. وَقَالَ ﷺ ﴿ تُوشِكُونَ أَنْ تَعْلَمُوا أَهْلَ الْجَنة مِنْ أَهْلِ النارِ "، قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: " بِالثنَاءِ الْحَسَنِ وَالثنَاءِ السيئِ ﴾ [(٣)]. فَأَخْبَرَ أن ذَلِكَ مِما يُعْلَمُ به أَهْلُ الْجَنة وَأَهْلُ النارِ.

لَا نَشْهَدُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِالْكُفْرِ مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُ ذَلِكَ

قوله: (وَلَا نَشْهَدُ عَلَيهِمْ بِكُفْرٍ وَلَا بِشِرْكٍ وَلَا بِنِفَاقٍ، مَا لَمْ يَظْهَرْ مِنْهُمْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَنَذَرُ سَرَائِرَهُمْ إلى الله تعالى).

ش: لِأَنا قَدْ أُمِرْنَا بِالْحُكْمِ بِالظاهِرِ، وَنُهِينَا عَنِ الظن وَاتبَاعِ مَا لَيْسَ لَنَا به عِلْمٌ. قَالَ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ [(٤)]. الآية. وَقَالَ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ ﴾ [(٥)]. وَقَالَ تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡفُ

---

(١) البخاري الشهادات (٢٤٩٩) ، مسلم الجنائز (٩٤٩) ، الترمذي الجنائز (١٠٥٨) ، النسائي الجنائز (١٩٣٢) ، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٤٩١) ، أحمد (٢٨١/٣) .

(٢) البخاري الجنائز (١٣٠١) ، مسلم الجنائز (٩٤٩) ، الترمذي الجنائز (١٠٥٨) ، النسائي الجنائز (١٩٣٢) ، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٤٩١) ، أحمد (١٨٦/٣) .

(٣) ابن ماجه الزهد (٤٢٢١) .

(٤) سورة الْحُجُرَاتِ الآية ١١ .

(٥) سورة الْحُجُرَاتِ الآية ١٢ .

مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [1].

قوله: (وَلَا نَرى [القتل] [2] على أحَدٍ مِنْ أمة مُحَمدٍ ﷺ إلا مَنْ وَجَبَ عليه السَّيْفُ).

ش: في الصحِيح عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: ﴿ لَا يَحِل دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَه إلا الله وَأني رَسُولُ الله، إلا بإحدى ثَلَاثٍ: الثيبُ الزاني، وَالنفْسُ بِالنفْسِ، وَالتارِكُ لِدِينه الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَة ﴾ [3].

وُجُوبُ طَاعَةِ وَلي الْأمر إلا فِي مَعْصِيَةٍ

قوله: (وَلَا نَرى الْخُرُوجَ على أَئِمتَنا وَوُلَاة أُمورِنَا، وَإِنْ جَارُوا، وَلَا نَدْعُو عَلَيْهِمْ، وَلَا نَنزِعُ يَدًا مِنْ طَاعَتِهِمْ، وَنَرَى طَاعَتَهُمْ مِنْ طَاعَة الله ﷻ فَرِيضَة، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَة، وَنَدْعُوا لَهُمْ بِالصلَاحِ وَالْمُعَافَاة).

ش: قَالَ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ ﴾ [4].

وفي الصحِيح عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: ﴿ مَنْ أطَاعَنِي فَقَدْ أطَاعَ الله، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى الله، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أطَاعَنِي، وَمَنْ عصى الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي ﴾ [5].

وَعَنْ أبي ذر رضي الله عنه. قَالَ: ﴿ إن خَلِيلِي أَوْصَانِي أَنْ أَسْمَعَ وَأُطِيعَ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبشِيا مُجدعَ الْأَطْرَاف ﴾ [6]. وَعِنْدَ البخاري: ﴿ وَلَوْ لِحَبَشِي كَأَن رَأْسَه

---

(١) سورة الْإِسْرَاءِ آية ٣٦ .

(٢) كلمة " القتل " زدناها لتصحيح الكلام ، لم تذكر بالأصل . ويجب أن تزاد هي أو ما في معناها .

(٣) البخاري الديات (٦٤٨٤) ، مسلم القسامة والمحاربين والقصاص والديات (١٦٧٦) ، الترمذي الديات (١٤٠٢) ، النسائي تحريم الدم (٤٠١٦) ، أبو داود الحدود (٤٣٥٢) ، ابن ماجه الحدود (٢٥٣٤) ، أحمد (١/ ٤٤٤) ، الدارمي الحدود (٢٢٩٨) .

(٤) سورة النسَاءِ آية ٥٩ .

(٥) البخاري الجهاد والسير (٢٧٩٧) ، أحمد (٢/٢٥٣) .

(٦) مسلم الإمارة (١٨٣٧) ، ابن ماجه الجهاد (٢٨٦٢) ، أحمد (٥/١٧١) .

زَبِيبَة ﴾ [1].

وَفي الصحِيحَين أيضًا: ﴿ على الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السمْعُ وَالطاعَة فِيمَا أحَب وَكَرِه، إلا أنْ يُؤمَرَ بِمَعْصِيَة، فَإنْ أمِرَ بِمَعْصِيَة فَلَا سَمْعَ وَلَا طَاعَة ﴾ [2].

وَعَنْ حُذَيفَة بن الْيَمان، قَالَ: ﴿ كَانَ الناسُ يَسْألُونَ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الْخَيْر، وَكُنتُ أسْألُه عَنِ الشر، مَخَافَة أنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، إنا كُنا في جَاهِلِية وَشَر، فَجَاءَنَا الله بِهَذَا الْخَيْر، فَهَل بَعْدَ هَذا الْخَيرِ شَرّ ؟ قَالَ: " نَعَمْ "، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشر مِنْ خَيْر ؟ قَالَ: " نَعَمْ، وفيه دَخَنٌ "، قُلْتُ: وَمَا دَخَنُه ؟ قَالَ: " قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ "، فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيرِ مِنْ شَر ؟ قَالَ: " نَعَمْ، دُعَاة على أبْوابِ جَهَنمَ، مَنْ أجَابَهُمْ إلَيْهَا قَذَفُوه فِيهَا "، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، صِفْهُمْ لَنَا ؟ قَالَ: " نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا، يَتَكَلمُونَ بِألْسِنَتِنَا "، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، فَمَا تَرَى إذَا أدْرَكَنِي ذَلِكَ ؟ قَالَ: " تَلْزَمُ جَمَاعَة الْمُسْلِمِينَ وَإمَامَهُمْ "، فَقُلْتُ: فَإنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَة وَلَا إمَامٌ ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلهَا، وَلَوْ أنْ تَعَض على أصْلِ شَجَرَة، حتى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأنتَ على ذَلِكَ ﴾ [3] [4].

وَعَن ابْنِ عَباسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ مَنْ رأى مِنْ أمِيرِه شَيْئًا يَكْرَهُه فَلْيَصْبِرْ،

(١) البخاري الأذان (٦٦٤) ، ابن ماجه الجهاد (٢٨٦٠) ، أحمد (١٧١/٣) .

(٢) البخاري الجهاد والسير (٢٧٩٦) ، مسلم الإمارة (١٨٣٩) ، الترمذي الجهاد (١٧٠٧) ، أبو داود الجهاد (٢٦٢٦) ، ابن ماجه الجهاد (٢٨٦٤) ، أحمد (١٤٢/٢) ، مالك الجامع (١٨٤١) .

(٣) البخاري المناقب (٣٤١١) ، مسلم الإمارة (١٨٤٧) ، أبو داود الفتن والملاحم (٤٢٤٤) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٧٩) ، أحمد (٣٨٧/٥) .

(٤) رواه مسلم ٢ : ٨٨ ، وهذا لفظه . وكان في المطبوعة تحريف ونقص ، صححناه من صحيح مسلم . ورواه أيضا البخاري وأبو داود وابن ماجه ، كما في ذخائر المواريث : ١٧٣٨ .

فإنه مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَة شِبْرًا فَمَات، فَمِيتته جَاهِلية ﴾ [1]. وفي رِوَاية: ﴿ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَة الْإِسْلَامِ مِن عُنقه ﴾ [2].

وَعَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِي ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الْآخَرَ مِنْهُمَا ﴾ [3].

وَعَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: ﴿ خِيَارُ أَئِمتكُمُ الذِينَ تُحِبونَهُمْ وَيُحِبونكُمْ، وَتُصَلونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمتكُمُ الذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونكُمْ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ بِالسيْفِ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ: " لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة، أَلَا مَنْ وَلي عليه وَالٍ، فَرَآه يأتي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَة الله، فَلْيَكْرَه مَا يأتي مِنْ مَعْصِيَة الله، وَلَا يَنْزِعَن يَدًا مِنْ طَاعَة ﴾ [4].

فَقَدْ دَل الْكِتَابُ والسنة على وُجُوبِ طَاعَة أُولي الْأَمر، مَا لَمْ يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَة، فَتَأَملْ قوله تعالى: ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [5] - كَيْفَ قَالَ: " وَأَطِيعُوا الرسُولَ "، وَلَمْ يَقُلْ: وَأَطِيعُوا أُولي الْأَمرِ مِنْكُمْ ؟ لِأَن أُولي الْأَمرِ لَا يُفْرَدُونَ بِالطاعَة، بَلْ يُطَاعُونَ فِيمَا هُوَ طَاعَة لله ورسوله. وَأَعَادَ الْفِعْلَ مَعَ الرسُولِ [للدلالة على أن مَنْ أَطَاعَ الرسُولَ] [6] فَقَدْ أَطَاعَ الله، فَإِن الرسُولَ ﷺ لَا يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَة الله، بَلْ هُوَ مَعْصُومٌ في ذَلِكَ، وَأَما وَلي الْأَمرِ [7] فَقَدْ يَأْمُرُ بِغَيْرِ طَاعَة الله، فَلَا يُطَاعُ إلا فِيمَا هُوَ طَاعَة

(١) البخاري الفتن (٦٦٤٦) ، مسلم الإمارة (١٨٤٩) ، أحمد (١/٢٧٥) ، الدارمي السير (٢٥١٩) .
(٢) الترمذي الأمثال (٢٨٦٣) ، أحمد (٤/١٣٠) .
(٣) مسلم الإمارة (١٨٥٣) .
(٤) مسلم الإمارة (١٨٥٥) ، أحمد (٦/٢٤) ، الدارمي الرقاق (٢٧٩٧) .
(٥) سورة النسَاءِ آية ٥٩ .
(٦) الزيادة ضرورية لإتمام الكلام وتصحيح سياقه .
(٧) في المطبوعة " أولي الأمر " ، وهو خطأ واضح .

لله ورسوله.

وَأما لُزومُ طَاعَتِهِمْ وَإِنْ جَارُوا، فلأنه يَتَرَتبُ على الْخُرُوجِ مِنْ طَاعَتِهِمْ مِن الْمَفَاسِدِ أَضْعَافُ مَا يَحْصُلُ مِنْ جَوْرِهِمْ، بَلْ في الصبْرِ على جَوْرِهِمْ تَكْفِيرُ السيئَاتِ وَمُضَاعَفَةَ الْأُجُورِ، فَإن الله تعالى مَا سَلطَهُمْ عَلَيْنا إلا لِفَسَادِ أَعْمَالِنا، وَالْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، فَعَلَيْنا الِاجْتِهَادُ بالِاسْتِغْفَارِ وَالتوبة وَإِصْلَاحِ الْعَمَلِ. قَالَ تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ (١) وَقَالَ تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ (٢) وَقَالَ تعالى: ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ ﴾ (٣). ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ (٤). فَإذَا أَرَادَ الرعِية أَنْ يَتَخَلصُوا مِنْ ظُلْمِ الْأَمِيرِ الظالِمِ. فَلْيَتْرُكُوا الظلْمَ.

وَعَنْ مَالِكِ بن دِينَارٍ: أنه جَاءَ في بَعْضِ كُتُبِ الله: " أَنا الله مَالِكُ الْمُلْكِ، قُلُوبُ الْمُلُوكِ بِيَدِي، فَمَنْ أَطَاعَنِي جَعَلْتُهُمْ عليه رحمة، وَمَنْ عَصَانِي جَعَلْتُهمْ عليه نِقْمَة، فَلَا تَشْغَلُوا أَنْفُسَكُمْ بِسَب الْمُلُوكِ، لَكِنْ تُوبُوا أعطفهُمْ عَلَيْكُمْ ".

الْأَمْرُ بِاتبَاعِ السنة وَالْجَمَاعَةِ

قوله: (وَنَتبِعُ السنة وَالْجَمَاعَة، وَنَجْتَنِبُ الشذُوذَ وَالْخِلَافَ وَالْفُرْقَة).

ش: السنة: طَرِيقَة الرسُولِ ﷺ وَالْجَمَاعَة: [جَمَاعَة] (٥) الْمُسْلِمِينَ، وَهُمُ الصحَابَة وَالتابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إلى يَوْمِ الدين. فَاتبَاعُهُمْ هُدًى. وَخِلَافُهُمْ ضَلَالٌ. قَالَ الله تعالى

(١) سورة الشورى آية ٣٠ .

(٢) سورة آل عِمْرَان آية ١٦٥ .

(٣) سورة النسَاءِ آية ٧٩ .

(٤) سورة الْأَنعَامِ آية ١٢٩ .

(٥) سقطت من الأصل ، وأثبتناها من سائر النسخ . ن .

لنبيه ﷺ ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾[1]. وقال: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾[4]. وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾[6].

وَثَبت في السنَنِ الْحَدِيثُ الذي صَححَه الترمذي، عَنِ الْعِرْبَاضِ بن سَارِيَة، قَالَ: «وَعَظَنَا رَسُولُ الله ﷺ مَوْعِظَة بَلِيغَة، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله، كَأَن هذه مَوْعِظَة مُوَدعٍ ؟ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ فَقَالَ: " أُوصِيكُمْ بِالسمْعِ وَالطاعَة، فإنه مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنتِي وسنة

(١) سورة آل عِمْرَان آية ٣١ .
(٢) سورة النسَاءِ آية ١١٥ .
(٣) سورة النورِ آية ٥٤ .
(٤) سورة الْأَنعَامِ آية ١٥٣ .
(٥) سورة آل عِمْرَان آية ١٠٥ .
(٦) سورة الْأَنعَامِ آية ١٥٩ .

الْخُلَفَاءِ الراشِدِينَ الْمَهْدِيينَ مِنْ بَعْدِي، تَمسكُوا بِهَا، وَعَضوا عَلَيْهَا بِالنوَاجِذِ، وَإِياكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمورِ، فَإِن كُل بِدْعَة ضَلَالَة ﴾ [1]. وَقَالَ ﷺ ﴿ إِن أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا في دِينِهِمْ على ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلة، وَإِن هذه الْأُمة سَتَفْتَرِقُ على [ثَلَاثٍ] [2] وَسَبْعِينَ مِلة، يعني الْأَهْوَاء، كُلهَا في النارِ إلا وَاحِدَة، وهي الْجَمَاعَة ﴾ . وفي رِوَايَة: ﴿ قَالُوا: مَنْ هي يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: " مَا أنا عليه وَأَصْحَابِي ﴾ [3]. فَبينَ ﷺ أن عَامة الْمُخْتَلِفِينَ هَالِكُون مِنَ الْجَانِبَيْنِ، إلا أَهْلَ السنة وَالْجَمَاعَة.

وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ عَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ ﷺ حَيْثُ قَالَ: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنا فَلْيَسْتَن بِمَنْ قَدْ مَاتَ فَإِن الْحَي لَا تُؤْمَنُ عليه الْفِتْنَة، أُولَئِكَ أَصْحَابُ مُحَمدٍ ﷺ كَانُوا أَفْضَلَ هذه الْأُمة، أَبرهَا قُلُوبًا، وَأَعْمَقَهَا عِلْمًا، وَأَقَلهَا تَكَلفًا، قَوْمٌ اخْتَارَهُمُ الله لِصُحْبَة نَبِيه وَإِقَامَة دِينه، فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتبِعُوهُمْ في آثَارِهِمْ، وَتَمسكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَإِنهُمْ كَانُوا على الْهُدَى الْمُسْتَقِيم). وَسَيَأْتي لِهَذَا المعنى بَيَانٍ إِنْ شَاءَ الله تعالى، عِنْدَ قَوْلِ الشيْخِ: " وَنَرَى الْجَمَاعَة حَقا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَة زَيْغًا وَعَذَابًا ".

حُب أَهْلِ الْعَدْلِ مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ

قوله: (وَنُحِب أَهْلَ الْعَدْلِ وَالْأَمَانَة، وَنُبْغِضُ أَهْلَ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَة).

ش: وَهَذَا مِنْ كَمَالِ الْإِيمَانِ وَتَمَامِ الْعُبُودِية، فَإِن الْعِبَادَة تَتَضَمنُ كَمَالَ الْمَحَبة وَنِهَايَتهَا، وَكَمَالَ الذل وَنِهَايَته. فَمَحَبة رُسُلِ الله وَأَنْبِيَائِه وَعِبَادِه الْمُؤْمِنينَ مِنْ مَحَبة الله، وَإِنْ كَانَتِ الْمَحَبة لَا يَسْتَحِقهَا غيره [4] فَغَيْرُ الله يُحَب في الله، لَا مَعَ الله، فَإِن الْمُحِب

---

(١) الترمذي العلم (٢٦٧٦) ، أبو داود السنة (٤٦٠٧) ، ابن ماجه المقدمة (٤٤) ، أحمد (١٢٦/٤) ، الدارمي المقدمة (٩٥) .

(٢) في الأصل : (ثلاثة) . والتصويب من سنن أبي داود ٥ / ٤ - ٥ ، وابن ماجه ٢ / ١٣٢٢ ، وأحمد ٤ / ١٠٢ . ن .

(٣) الترمذي الإيمان (٢٦٤١) .

(٤) في المطبوعة " التي لا يستحقها غيره " . وكلمة " التي " يضطرب بها المعنى ، فرأينا أنا خطأ ، فحذفناها .

يُحِب، مَحْبُوبه، وَيبْغِضُ مَا يبْغِضُ، وَيُوالِي مَنْ يُوَالِيه، وَيُعَادِي مَنْ يُعَادِيه، وَيَرْضَى لِرِضَائِه، وَيَغْضَبُ لِغَضَبِه، وَيَأْمُرُ بِمَا يَأْمُرُ بِه، وَيَنْهَى عَمَا يَنْهَى عنه، فَهُوَ مُوَافِقٌ لِمَحْبُوبِه في كُل حَالٍ.

والله تعالى يُحِب الْمُحْسِنِينَ، وَيُحِب الْمُتقِينَ، وَيُحِب التوابِينَ، وَيُحِب الْمُتطَهِرِينَ، وَنَحْنُ نُحِب مَنْ يحبه الله. والله لَا يُحِب الْخَائِنِينَ، وَلَا يُحِب الْمُفْسِدِينَ، وَلَا يُحِب الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَنَحْنُ لَا نُحِبهُمْ أيضًا، وَنُبْغِضُهُمْ، مُوَافَقَةً له سبحانه وتعالى.

وفي الصحِيحَيْنِ عَنِ النبي ﷺ ﴿ثَلَاثٌ مَنْ كُن فيه وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ الله ورسوله أَحَب إليه مِما سِوَاهُمَا، وَمَنْ كَانَ يُحِب الْمَرْءَ لَا يُحِبه إلا لله، وَمَنْ كَانَ يَكْرَه أَنْ يَرْجِعَ في الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَه الله منه، كَمَا يَكْرَه أَنْ يُلْقَى في النارِ﴾ [1].

فَالْمَحَبة التامة مُسْتَلْزِمَة لِمُوَافَقَةِ الْمَحْبُوبِ في مَحْبُوبِه وَمَكْرُوهِه، وَوِلَايَته وَعَدَاوَته. وَمِنَ الْمَعْلُومِ أن مَنْ أَحَب الله الْمَحَبة الْوَاجِبَة فَلَا بُد أَنْ يبْغِضَ أَعْدَاءه، وَلَا بُد أَنْ يُحِب مَا يُحِبه مِنْ جِهَادِهِمْ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [2]. وَالْحُب وَالْبُغْضُ بِحَسَبِ مَا فِيهِمْ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ وَالشر، فَإِن الْعَبْدَ يَجْتَمِعُ فيه سَبَبُ الْوِلَايَة وَسَبَبُ الْعَدَاوَة، وَالْحُب وَالْبُغْضُ، فَيَكُونُ مَحْبُوبًا مِنْ وَجْه مَبْغُوضًا مِنْ وَجْه، وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ. وَكَذَلِكَ حُكْمُ الْعَبْدِ عِنْدَ الله، فَإِن الله قَدْ يُحِب الشيْءَ مِنْ وَجْه وَيَكْرَهُه مِنْ وَجْه آخَرَ، كَمَا قَالَ ﷺ فِيمَا يروي عَنْ رَبه ﷻ ﴿وَمَا تَرَددْتُ في شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُه تَرَددِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَه الْمَوْتَ،

(١) البخاري الإيمان (٢١) ، مسلم الإيمان (٤٣) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٤) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٨٨) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٣٣) ، أحمد (٣/١١٤) .

(٢) سورة الصف آية ٤ .

وَأنا أكْرَه مَسَاءَته، وَلَا بُد له منه ﴾ [1]. فَبين أنه يَتَردد؛ لِأَن التَرددَ تَعارُضُ إِرادَتْين، وَهُوَ سبحانه يُحِب مَا يُحِب عَبْدُه الْمُؤْمِنُ، وَيكْرَه مَا يَكْرَهُه، وَهُوَ يَكْرَه الْمَوْتَ فَهُوَ يَكْرَهُه، كَمَا قَالَ: " وَأنا أكْرَه مَسَاءَته "، وَهُوَ سبحانه قَضَى بِالْمَوْتِ، فَهُوَ يُرِيدُ كَوْنَه، فَسَمى ذَلِكَ تَرددًا، ثُم بَينَ أنه لَا بُد مِنْ وُقُوعِ ذَلِكَ، إِذْ هُوَ مُفْضٍ إلى مَا هُوَ أَحَب منه.

مَا اشْتَبَهَ عَلَيْنا عِلْمُهُ نَكِلُهُ إِلى اللهِ

قوله: (وَنَقُولُ: الله أَعْلَمُ، فِيمَا اشْتَبه عَلَيْنَا عِلْمُه).

ش: تَقَدمَ في كَلَامِ الشْيخِ رحمه الله أنه مَا سَلِمَ في دِينه إلا مَنْ سَلمَ لله ﷻ وَلِرَسُوله ﷺ وَرد عِلْمَ مَا اشْتَبه عليه إلى عَالِمه. وَمَنْ تَكلمَ بِغْير عِلْمٍ فَإنما يَتبِعُ هَوَاه، وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [2]. وَقَالَ تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾ ﴾ [3]. وَقَالَ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [4]. وَقَالَ تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [5].

وَقَدْ أَمرَ الله نَبيه ﷺ أَنْ يَرُد عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ إليه، فَقَالَ تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا

(١) البخاري الرقاق (٦١٣٧) .
(٢) سورة الْقَصَص آية ٥٠ .
(٣) سورة الْحَج الآيتان ٣ - ٤ .
(٤) سورة غَافِر آية ٣٥ .
(٥) سورة الْأَعْرَاف آية ٣٣ .

لَبِثُواْ ۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ﴾ [1]. ﴿ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم ﴾ [2] وَقَدْ ﴿ قَالَ ﷺ لما سُئِلَ عَنْ أطْفَالِ الْمُشْرِكِينَ: " الله أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا عَامِلِينَ ﴾ [3].

وَقَالَ عُمَرُ ﷺ ﴿ اتهِمُوا الرأي في الدين، فَلَوْ رَأَيتِني يَوْمَ أبي جَنْدَلٍ، فَلَقَدْ رَأَيتِني وَإِني لَأَرُد أمرَ رَسُولِ الله ﷺ بِرأيي، فَأَجْتَهِدُ وَلَا آلو، وَذَلِكَ يَوْمَ أبي جَنْدَلٍ، وَالْكِتَابُ يَكْتُبُ، وَقَالَ: " اكْتُبْ (بِسْمِ الله الرحْمَنِ الرحِيمِ) "، قَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللهُم، فرضي رَسُولُ الله ﷺ وَكَتَبَ وَأبيتُ، فَقَالَ: " يَا عُمَرُ تَرَانِي قَدْ رَضِيتُ وَتَأبى ﴾ [4] [5]. وقَالَ أيضًا ﷺ " السنة مَا سَنه الله ورسوله ﷺ لَا تَجْعَلُوا خَطَأَ الرأي سنة لِلْأُمة ".

وَقَالَ أبو بَكْرٍ الصديقُ ﷺ " أي أرْضٍ تُقِلنِي، وَأي سَمَاءٍ تُظِلنِي، إِنْ قُلْتُ في آية مِنْ كِتَابِ الله بِرَأيِي، أو بِمَا لَا أعْلَمُ ".

---

(١) سورة الْكَهْفِ آية ٢٦ .

(٢) سورة الْكَهْفِ آية ٢٢ .

(٣) مسلم القدر (٢٦٥٩) ، النسائي الجنائز (١٩٥٠) ، أبو داود السنة (٤٧١٤) ، أحمد (٤٧١/٢) ، مالك الجنائز (٥٦٩) .

(٤) البخاري المغازي (٣٩٥٣) ، مسلم الجهاد والسير (١٧٨٥) ، أحمد (٤٨٥/٣) .

(٥) كتب مصحح المطبوعة ، عند قوله " فأجتهد ولا آلو " - : " كذا بالأصل ، ولعله : رأيتني ولو أستطيع أن أرد ، إلخ " . وهذا انتقال نظر . فإن الذي قال " ولو أستطيع " - هو سهل بن حنيف . وحديثه في البخاري ١٣ : ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ومسلم ٢ : ٦٦ ، فإنه قال : " يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم ، لقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله لرددته " . وباقي الحديث سياق غير المروي هنا عن عمر . وقال الحافظ في الفتح : " وقد جاء عمر نحو قول سهل ، ولفظه : اتقوا الرأي في دينكم . أخرجه البيهقي في المدخل ، هكذا مختصرا . وأخرجه هو والطبري والطبراني مطولا ، بلفظ " . فذكر نحو ما هنا عن عمر . وقد رواه ابن حزم في الإحكام ، بتصحيحنا ، ٦ : ٤٦ بإسناده إلى مبارك بن فضالة ، عن عبيد الله بن عمر ، عن نافع ، عن ابن عمر ، عن عمر ، أنه قال : " يا أيها الناس ، اتموا آراءكم على الدين ، فلقد رأيتني وإني لأرد أمر رسول الله برأيي ، أجتهد والله لا آلو " - إلى آخره ، بنحو ما هنا . وذكر الهيثمي في مجمع الزوائد ١ : ١٧٩ ، بنحوه . وقال : " رواه أبو يعلى ، ورجاله موثقون ، وإن كان فيهم مبارك بن فضالة " . أقول : ومبارك بن فضالة : ثقة ، كما حققنا ذلك في شرح المسند ، في الحديثين : ١٤٢٦ ، ٥٩٨٩ .

وَذَكَرَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِي الْحُلْوَانِي، حَدثَنَا عَارِمٌ، حَدثَنَا حَمادُ بْنُ زَيدٍ، عَنْ سَعِيدِ بنِ أبي صَدَقَة، عَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: (لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَهْيَبَ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ أبي بَكْرٍ، وَلَمْ يَكُنْ بَعْدَ أبي بَكْرٍ أَهْيَبُ لِمَا لَا يَعْلَمُ مِنْ عُمَرَ ﷺ وَإِن أَبَا بَكْرٍ نَزَلَتْ به قَضِية، فَلَمْ يَجِدْ في كِتَابِ الله مِنْهَا أَصْلًا، وَلَا في السنة أَثَرًا، فَاجْتَهَدَ بِرَأْيِه، ثُم قَالَ: هَذَا رَأْيِي، فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنَ الله، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِني، وَأَسْتَغْفِرُ الله).

الْمَسْحِ عَلَى الْخُفيْنِ فِي السفَرِ وَالْحَضَرِ

قوله: (وَنَرَى الْمَسْحَ على الْخُفيْنِ، في السفَرِ وَالْحَضَرِ، كَمَا جَاءَ في الْأَثَرِ).

ش: تَوَاتَرَتِ السنة عَنْ رَسُولِ الله ﷺ بِالْمَسْحِ على الْخُفيْنِ وَبِغَسْلِ الرجْلَيْنِ، وَالرافِضَةُ تُخَالِفُ هذه السنة الْمُتَوَاتِرَة، فَيُقَالُ لَهُمْ: الذِينَ نَقَلُوا عَنِ النبي ﷺ الْوُضُوءَ قَوْلًا وَفِعْلًا، وَالذِينَ تَعَلموا الْوُضُوءَ منه وَتَوَضؤوا وَهُوَ يَرَاهُمْ وَيُقِرهُمْ، وَنَقَلُوه إلى مَنْ بَعْدَهُمْ -: أَكْثَرُ عَدَدًا مِنَ الذِينَ نَقَلُوا لَفْظَ هذه الآية. فَإِن جَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا يَتَوَضؤُونَ على عَهْدِه، وَلَمْ يَتَعَلموا الْوُضُوءَ إلا منه، فَإِن هَذَا الْعَمَلَ لَمْ يَكُنْ مَعْهُودًا عِنْدَهُمْ في الْجَاهِلِية، وَهُمْ قَدْ رَأَوْه يَتَوضأُ مَا لَا يُحْصِي عَدَدَه إلا الله تعالى: وَنَقَلُوا عنه غَسْلَ الرجْلَيْنِ في مَا شَاءَ الله مِنَ الْحَدِيثِ، حتى نَقَلُوا عنه مِنْ غَيْرِ وَجْه في كُتُبِ الصحِيحِ وَغَيْرِهَا أنه قَالَ: ﴿ وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ وَبُطُونِ الْأَقْدَامِ مِنَ النارِ ﴾ [1].

مَعَ أن الْفَرْضَ إِذَا كَانَ مَسْحَ ظَاهِرِ الْقَدَمِ كَانَ غَسْلُ الْجَمِيعِ كُلْفَة لَا تَدْعُو إِلَيْهَا الطبَاعُ، كَمَا تَدْعُو الطبَاعُ إلى طَلَبِ الرِّيَاسَة وَالْمَالِ، فَلَوْ جَازَ الطعْنُ في تَوَاتُرِ صِفَة الْوُضُوءِ، لَكَانَ في نَقْلِ لَفْظِ آية [الْوُضُوءِ] أَقْرَبَ إلى الْجَوَازِ، وَإِذَا قَالُوا: لَفْظُ الآية ثَبَتَ بِالتوَاتُرِ الذي لَا يُمْكِنُ فيه الْكَذِبُ وَلَا الْخَطَأُ، فَثُبُوتُ التوَاتُرِ في نَقْلِ الْوُضُوءِ عنه أولى وَأَكْمَلُ، وَلَفْظُ الآية لَا يُخَالِفُ مَا تَوَاتَرَ مِنَ السنة، فَإِن الْمَسْحَ كَمَا يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الْإِصَابَة

(١) البخاري الوضوء (١٦٣) ، مسلم الطهارة (٢٤٢) ، الترمذي الطهارة (٤١) ، النسائي الطهارة (١١٠) ، ابن ماجه الطهارة وسننها (٤٥٣) ، أحمد (٢/٤٣٠) ، الدارمي الطهارة (٧٠٧) .

- كَذَلِكَ يُطْلَقُ وَيُرَادُ به الْإِسَالَة، كَمَا تقُولُ الْعَرَبُ: تَمَسحْتُ لِلصلَاة، وفي الآية مَا يَدُلُ على أنه لَمْ يُرِدْ بِمَسْحِ الرجْلَيْنِ الْمَسْحَ الذي هُوَ قَسِيمُ الْغَسْلِ، بَلِ الْمَسْحُ الذي الْغَسْلُ قِسْمٌ منه، فإنه قَالَ: (إلى الْكَعْبَيْنِ)، وَلَمْ يَقُلْ: إلى الْكِعَابِ، كَمَا قَالَ: (إلى الْمَرَافِقِ)، فَدَل على أنه لَيْسَ في كُل رِجْلٍ كَعْبٌ وَاحِدٌ، كَمَا في كُل يَدٍ مِرْفَقٌ وَاحِدٌ، بَلْ في كُل رِجْلٍ كَعْبَانِ، فَيَكُونُ تعالى قَدْ أَمَرَ بِالْمَسْحِ إلى الْعَظْمَيْنِ النَاتِئَيْنِ، وَهَذَا هُوَ الْغَسْلُ، فَإِن مَنْ يَمْسَحُ الْمَسْحَ الْخَاص يَجْعَلُ الْمَسْحَ لِظُهُورِ الْقَدَمَيْنِ، وَجَعْلُ الْكَعْبَيْنِ في الآية غَايَة يَرُدُ قَوْلَهُمْ. فَدَعْوَاهُمْ أن الْفَرْضَ مَسْحُ الرجْلَيْنِ إلى الْكَعْبَيْنِ، اللذَيْنِ هما مُجْتَمَعُ الساقِ وَالْقَدَمِ عِنْدَ مَعْقِدِ الشرَاكِ - مَرْدُودٌ بِالْكِتَابِ والسنة.

وفي الآية قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ: النصْبُ وَالْخَفْضُ، وَتَوْجِيه إِعْرَابِهِمَا مَبْسُوطٌ في مَوْضِعِه. وَقِرَاءَة النصْبِ نَص في وُجُوبِ الْغَسْلِ؛ لِأَن الْعَطْفَ على الْمَحَل إنمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ المعنى وَاحِدًا، كَقَوْله:

فَلَسْنَــا بِالْجِبَــالِ وَلَا الْحَـــدِيدَا

وَلَيْسَ معنى: مَسَحْتُ بِرَأْسِي وَرِجْلِي - هُوَ معنى: مَسَحْتُ رَأْسِي وَرِجْلِي، بَلْ ذِكْرُ الْبَاءِ يُفِيدُ معنى زَائِدًا على مُجَردِ الْمَسْحِ، وَهُوَ إِلْصَاقُ شَيْءٍ مِنَ الْمَاءِ بِالرأْسِ، فَتَعَينَ الْعَطْفُ على قوله (وَأَيْدِيَكُمْ). فَالسنة الْمُتَوَاتِرَة تَقْضِي على مَا يَفْهَمُه بَعْضُ الناسِ مِنْ ظَاهِرِ الْقُرْآنِ. فَإِن الرسُولَ بَينَ لِلناسِ لَفْظَ الْقُرْآنِ ومعناه. كَمَا قَالَ أَبو عَبْدِ الرحْمَنِ السلَمِي: حَدثَنَا الذِينَ كَانُوا يُقْرِئُونَنَا الْقُرْآنَ: عُثْمَانُ بْنُ عَفانَ، وَعَبْدُ الله بْنُ مَسْعُودٍ، وَغَيْرُهُمْ: أَنهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلمُوا مِنَ النبي ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ لَمْ يَتَجَاوَزُوهَا حتى يَتَعَلمُوا مَعْنَاهَا.

وفي ذِكْرِ الْمَسْحِ في الرجْلَيْنِ تَنْبِيه على قِلة الصب في الرجْلَيْنِ، فَإِن السرَفَ يُعْتَادُ فِيهِمَا كَثِيرًا. وَالْمَسْأَلَة مَعْرُوفَة، وَالْكَلَامُ عَلَيْهَا في كُتُبِ الْفُرُوعِ.

الحَج وَالجِهَادُ مَاضِيَانِ إلى قِيَامِ الساعَةِ

قوله: (وَالْحَج وَالْجِهَادُ مَاضِيَانِ مَعَ أُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، بَرهِمْ وَفَاجِرِهِمْ، إلى قِيَامِ الساعَة، لَا يُبْطِلُهُمَا شَيْءٌ وَلَا يَنْقُضُهُمَا).

ش: يُشِيرُ الشيْخُ رحمه الله إلى الرد على الرافِضَة، حَيْثُ قَالُوا: لَا جِهَادَ في سَبِيلِ الله حتى يَخْرُجَ الرضَا مِنْ آلِ مُحَمدٍ، وَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السمَاءِ: اتبِعُوهُ!! وَبُطْلَانُ هَذَا الْقَوْلِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُسْتَدَل عليه بِدَلِيلٍ. وَهُمْ شَرَطُوا في الْإِمَامِ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا، اشْتِرَاطًا بِغَيْرِ دَلِيلٍ! بَلْ في صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِي، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: « خِيَارُ أَئِمتِكُمُ الذِينَ تُحِبونَهُمْ وَيُحِبونَكُمْ، وَتُصَلونَ عَلَيْهِمْ وَيُصَلونَ عَلَيْكُمْ، وَشِرَارُ أَئِمتِكُمُ الذِينَ تُبْغِضُونَهُمْ وَيُبْغِضُونَكُمْ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ "، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، أَفَلَا نُنَابِذُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ ؟ قَالَ: " لَا، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصلاة، أَلَا مَنْ وَلِي عليه وَالٍ فَرَآه يأتي شَيْئًا مِنْ مَعْصِيَة الله فَلْيَكْرَهْ مَا يأتي مِنْ مَعْصِيَة الله وَلَا يَنْزِعَن يَدًا مِنْ طَاعَتِه » [1].

وَقَدْ تَقَدمَ بَعْضُ نَظَائِرِ هَذَا الْحَدِيثِ في الْإِمَامَة. وَلَمْ يَقُلْ: إن الْإِمَامَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا. وَالرافِضَة أَخْسَرُ الناسِ صَفْقَة في هذه المسألة؛ لِأَنهُمْ جَعَلُوا الْإِمَامَ الْمَعْصُومَ هُوَ الْإِمَامَ الْمَعْدُومَ، الذي لَمْ يَنْفَعْهُمْ في دِينٍ وَلَا دُنْيَا!! فَإِنهُمْ يدعُونَ أن الْإِمَامَ الْمُنْتَظَرَ، مُحَمدُ بْنُ الْحَسَنِ الْعَسْكَرِي، الذي دَخَلَ السرْدَابَ في زَعْمِهِمْ، سنة سِتينَ وَمِائَتَيْنِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ بِسَامَرا ! وَقَدْ يُقِيمُونَ هُنَاكَ دَابة، إما بَغْلَة، وَإما فَرَسًا، لِيَرْكَبَهَا إذَا خَرَجَ ! وَيُقِيمُونَ هُنَاكَ في أَوْقَاتٍ عَيَّنُوا فِيهَا مَنْ يُنَادِي عليه بِالْخُرُوجِ: يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ ! يَا مَوْلَانَا، اخْرُجْ ! وَيُشْهِرُونَ السلَاحَ؛ وَلَا أَحَدَ هُنَاكَ يُقَاتِلُهُمْ ! إلى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ التي يَضْحَكُ عَلَيْهِمْ مِنهَا الْعُقَلَاءُ !!

وقوله " مَعَ أُولِي الْأَمْرِ بَرهِمْ وَفَاجِرِهِمْ " - لِأَن الْحَج وَالْجِهَادَ فَرْضَانِ يَتَعَلقَانِ بِالسفَرِ، فَلَا بُد مِنْ سَائِسٍ يَسُوسُ الناسَ فِيهِمَا، وَيُقَاوِمُ فيها الْعَدُو، وَهَذَا المعنى كَمَا يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْبَر يَحْصُلُ بِالْإِمَامِ الْفَاجِرِ.

---

(١) مسلم الإمارة (١٨٥٥) ، أحمد (٦/٢٤) ، الدارمي الرقاق (٢٧٩٧) .

الإيمانُ بالملائكة الكِرَامِ الكاتِبين

قوله: (وَنُؤمِنُ بِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ، فَإِن الله قَدْ جَعَلَهُمْ عَلَيْنا حَافِظِين).

ش: قَالَ تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢ ﴾[1]. وَقَالَ تعالى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨ ﴾[2]. وَقَالَ تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾[3]. وَقَالَ تعالى: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠ ﴾[4]. وَقَالَ تعالى: ﴿ هَـٰذَا كِتَـٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٩ ﴾[5]. وَقَالَ تعالى: ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ۝٢١ ﴾[6]. وفي الصحيح عَن النبي ﷺ أنه قَالَ: " ﴿ يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَة بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَة بِالنَهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ في صلاة الصُبح وَصَلَاة الْعَصْرِ، فَيَصْعَدُ إليه الذِينَ كَانُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ، والله أَعْلَمُ بِهِمْ: كَيفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ: أَتَيناهُمْ وَهُمْ يُصَلُون، وَفَارَقْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلون ﴾[7]. وفي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: ﴿ إِن مَعَكُمْ مَنْ لَا يُفَارِقُكُمْ إِلا عِنْدَ الْخَلَاءِ وَعِنْدَ الْجِمَاعِ، فَاسْتَحْيُوهُمْ، وَأَكْرِمُوهُمْ ﴾[8].

---

(١) سورة الِانْفِطَارِ الآيات ١٠ - ١٢ .

(٢) سورة ق الآيتان ١٧ - ١٨ .

(٣) سورة الرَّعْدِ آية ١١ .

(٤) سورة الزخْرُف آية ٨٠ .

(٥) سورة الْجَاثِيَة آية ٢٩ .

(٦) سورة يُونُسَ آية ٢١ .

(٧) البخاري مواقيت الصلاة (٥٣٠) ، مسلم المساجد ومواضع الصلاة (٦٣٢) ، النسائي الصلاة (٤٨٥) ، أحمد (٣٩٦/٢) ، مالك النداء للصلاة (٤١٣) .

(٨) الترمذي الأدب (٢٨٠٠) .

جَاءَ في التفْسِير: اثْنَانِ عَنِ الْيمِينِ وَعَنِ الشمَالِ، يَكْتُبَانِ الْأَعْمَالَ، صَاحِبُ الْيمِينِ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ، وَصَاحِبُ الشمَالِ يَكْتُبُ السيئَاتِ، وَمَلَكَانِ آخَرَانِ يَحْفَظَانِه وَيَحْرُسَانِه، وَاحِدٌ مِنْ وَرَائِه، وَوَاحِدٌ أَمَامَه، فَهُوَ بَيْنَ أَرْبَعَة أَمْلَاكٍ بِالنهَارِ، وَأَرْبَعَة آخَرِينَ بِاللَّيْلِ، بَدَلًا، حَافِظَانِ وَكَاتِبَانِ. وَقَالَ عِكْرِمَة عَنِ ابْنِ عَباسٍ: ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ (1). قَالَ: مَلَائِكَة يَحْفَظُونَه مِنْ بَيْنِ يَدَيْه وَمِنْ خَلْفِه، فَإِذَا جَاءَ قَدَرُ الله خَلَوْا عنه.

وروى مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا وَقَدْ وُكلَ به قَرِينُه مِنَ الْجِن، وَقَرِينُه مِنَ الْمَلَائِكَة " قَالُوا: وَإِياكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ: " وَإِيايَ، لَكِن الله أَعَانَنِي عليه فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلا بِخَيْرٍ ﴾ (2). الرِّوَايَة بِفَتْحِ الْمِيمِ مِنْ " فَأَسْلَمَ " وَمَنْ رواه " فَأَسْلَمُ " بِرَفْعِ الْمِيمِ - فَقَدْ حَرف لَفْظَه. ومعنى " فَأَسْلَمَ "، أي: فَاسْتَسْلَمَ وَانْقَادَ لِي، في أَصَح الْقَوْلَيْنِ، وَلِهَذَا قَالَ: " فَلَا يَأْمُرُنِي إِلا بِخَيْرٍ "، وَمَنْ قَالَ: إِن الشيْطَانَ صَارَ مُؤْمِنًا - فَقَدْ حَرف معناه، فَإِن الشيْطَانَ لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا (3).

---

(1) سورة الرعْدِ آية ١١ .

(2) مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٤) ، أحمد (٤٠١/١) ، الدارمي الرقاق (٢٧٣٤) .

(3) رواه مسلم ٢ : ٣٤٦ (١٧ : ١٥٧ من شرح النووي) . ورواه أحمد في المسند : ٣٦٤٨ ، ٣٧٧٩ ، ٣٨٠٢ ، ٤٣٩٢ . بألفاظ متقاربة . واللفظ الذي هنا يوافق رواية المسند : ٣٨٠٢ ، وكان في المطبوعة هنا " ولكن أعانني الله عليه " . فصححناه من لفظ المسند . والخلاف في ضبط الميم من " فأسلم " - خلاف قديم . والراجح فيها الفتح ، كما قال الشارح ، ولكن المعنى الذي رجحه غير راجح . فقال القاضي عياض ، في مشارق الأنوار ٢ : ٢١٨ " رويناه بالضم والفتح . فمن ضم رد ذلك إلى النبي أي : فأنا أسلم منه . ومن فتح رده إلى القرين ، أي : أسلم من الإسلام . وقد روي في غير هذه الأمهات : فاستسلم " . يريد بالأمهات : الموطأ والصحيحين ، التي بنى عليها كتابه ، وإن كان هذا الحديث لم يروه مالك ولا البخاري . وقال النووي في شرح مسلم : " هما روايتان مشهورتان . . واختلفوا في الأرجح منهما ، فقال الخطابي : الصحيح المختار الرفع ، ورجح القاضي عياض الفتح " . وأما الحافظ ابن حبان ، فإنه روى الحديث في صحيحه (٢ : ٢٨٣ ، من المخطوطة المصورة) ، وجزم برواية فتح الميم ، وقال : " في هذا الخبر دليل على أن شيطان المصطفى أسلم حتى لم يكن يأمره إلا بخير ، لا أنه كان يسلم منه إن كان كافرا " . وهذا هو الصحيح الذي ترجحه الدلائل . وادعاء الشارح أن هذا تحريف للمعنى . " فإن الشيطان لا يكون مؤمنا " - انتقال نظر . فأولا : أن اللفظ في

ومعنى: ﴿ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ [1] - قِيلَ: حِفْظُهُمْ له مِنْ أمرِ الله، أي الله أَمَرَهُمْ بِذَلِك، يَشْهَدُ لِذَلكَ قِرَاءَة مَنْ قَرَأَ: "يَحْفَظُونَه بِأمرِ الله ".

ثُم قَدْ ثَبتَ بِالنصُوصِ الْمَذْكُورَة أن الْمَلَائكَة تَكْتُبُ الْقَوْل وَالْفِعْلَ. وَكَذَلِكَ النية؛ لِأنهَا فِعْلُ الْقَلْبِ، فَدَخَلَتْ في عُمُومِ ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [2]. وَيَشْهَدُ لِذَلِكَ قوله ﷺ ﴿ قَالَ الله ﷻ إِذَا هَم عَبْدِي بِسَيئة فَلَا تَكْتُبوهَا عليه، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبوهَا عليه سَيئة، وَإِذَا هَم عَبْدِي بِحَسَنة فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبوهَا له حَسَنة، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبوهَا عَشْرًا ﴾ [3]. وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ قَالَتِ الْمَلَائِكَة: ذَاكَ عَبْدُ يُرِيدُ أنْ يَعْمَلَ سَيئة، وَهُوَ أَبْصَرُ به، فَقَالَ: ارْقُبوه، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبوهَا بِمِثْلِهَا، وَإنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبوهَا له حَسَنَة، إِنمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرائي ﴾ ، خَرجَاهُمَا في الصحِيحَيْن، وَاللفْظُ لِمُسْلِمٍ.

مَلَكُ الْمَوْتِ

الْإِيمَانُ بِمَلَكِ الْمَوْتِ

قوله: (وَنُؤْمِنُ بِمَلَكِ الْمَوْتِ، الْمُوَكل بِقَبْضِ أَرْوَاحِ الْعَالِمِينَ).

ش: قَالَ تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [4]. وَلَا تُعَارِضُ هذه الآية قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [5] وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا

الحديث " قرينه من الجن " ، لم يقل " شيطانه " . وثانيا : أن الجن فيهم المؤمن والكافر . والشياطين هم كفارهم ، فمن آمن منهم لم يسم شيطانا .

(١) سورة الرعْدِ آية ١١ .

(٢) سورة الِانْفِطَارِ آية ١٢ .

(٣) البخاري التوحيد (٧٠٦٢) ، مسلم الإيمان (١٢٩) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٠٧٣) ، أحمد (٢/٢٣٤) .

(٤) سورة السجْدَة آية ١١ .

(٥) سورة الْأَنْعَامِ آية ٦١ .

وَٱلَّتِى لَمۡ تَمُتۡ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ﴾ (١) - لأن مَلَكَ الْمَوْتِ يَتولى قبْضَهَا واستِخْرَاجَها، ثُم يَأْخُذُهَا منه مَلَائِكَة الرحْمَة أوْ مَلَائِكة الْعَذَابِ، وَيَتولوْنَهَا بعده، كُل ذَلِكَ بِإذْن الله وَقضَائِه وَقدَرِه، وَحُكْمِه وَأمرِه، فَصحتْ إضَافَة التوفي إلى كُل بِحَسَبِه.

حَقِيقَةُ النفْسِ وَالروح

وَقدِ اخْتلِفَ في حَقِيقَة النفْسِ مَا هي ؟ وَهَلْ هي جُزْءٌ مِنْ أجْزَاءِ الْبدَنِ ؟ أوْ عَرَضٌ مِنْ أعْرَاضِه ؟ أوْ جِسْمٌ مُسَاكِنٌ له مُودَعٌ فيه ؟ أوْ جَوْهَرٌ مُجردٌ ؟ وَهَلْ هي الروحُ أوْ غيرُهَا ؟ وَهل الْأمارَة، وَاللوامَة، وَالْمُطْمَئنة - نَفْسٌ وَاحِدَة، أمْ هي ثَلَاثَة أنفُسٍ ؟ وَهَلْ تَمُوتُ الروحُ، أوِ الْمَوْتُ لِلبَدَنِ وَحْدَه ؟ وهذه المسألة تَحْتمِلُ مُجَلدًا، وَلَكِنْ أشِيرُ إلى الْكَلَامِ عَلَيْهَا مُخْتَصَرًا، إنْ شَاءَ الله تعالى:

فَقِيلَ: الروحُ قدِيمَة، وَقدْ أجْمَعَتِ الرسُلُ على أنهَا مُحْدَثَة مَخْلُوقَة مَصْنُوعَة مَرْبُوبَة مُدَبرَة. وَهَذَا مَعْلُومٌ بِالضرُورَة مِنْ دِينِهِمْ، أن الْعَالَمَ مُحْدَثٌ، وَمَضَى على هَذَا الصحَابَة وَالتابِعُونَ، حتى نَبَغَتْ نَابِغَة مِمنْ قصُرَ فَهْمُه في الْكِتَابِ والسنة، فَزَعَمَ أنهَا قدِيمَة، وَاحْتج بِأنهَا مِنْ أمرِ الله، وَأمْرُه غيْرُ مَخْلُوقٍ ! وَبِأن الله أضَافَهَا إليه بقوله: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّى ﴾ (٢) وَبِقوْله: ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ (٣) كَمَا أضَافَ إليه عِلْمَه وَقُدْرَتَه وَسَمْعَه وَبَصَرَه وَيَدَه. وَتَوَقفَ آخَرُونَ.

وَاتفَقَ أهْلُ السنة وَالْجَمَاعَة أنهَا مَخْلُوقة. وَمِمنْ نَقلَ الْإجْمَاعَ على ذَلِكَ: مُحَمدُ بْنُ نَصْرٍ الْمَرْوَزِي، وَابْنُ قُتَيبة وَغَيْرُهُمَا.

---

(١) سورة الزمر آية : ٤٢ .
(٢) سورة الْإسْرَاءِ آية ٨٥ .
(٣) سورة الْحِجْرِ آية ٢٩ .

وَمِنَ الْأَدِلة على أن الروحَ مَخْلُوقة، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ ﴾ [1] فَهَذَا عَام لَا تَخْصِيصَ فيه بِوَجْه مَا، وَلَا يَدْخُلُ في ذَلِكَ صِفَاتُ الله تعالى، فَإنها دَاخِلَة في مسمى اسْمِه. فالله تعالى هُوَ الْإِله الْمَوْصُوفُ بِصِفَاتِ الْكَمَال، فَعِلْمُه وَقُدْرَتُه وَحَيَاته وَسَمْعُه وَبَصَرُه وَجَمِيعُ صِفَاته - دَاخِلٌ في مسمى اسْمِه فَهُوَ سبحانه بِذَاته وَصِفَاته الْخَالِقُ، وَمَا سِوَاه مَخْلُوقٌ، وَمَعْلُومٌ قَطْعًا أن الروحَ لَيْسَت هي الله، وَلَا صِفَة مِنْ صِفَاته، وَإنمَا هي مِنْ مَصْنُوعَاته. وَمِنْهَا قوله تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ۝١ ﴾ [2] وقوله تعالى لِزَكَريا: ﴿ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ۝٩ ﴾ [3]. وَالْإِنسَانُ اسْمٌ لِرُوحِه وَجَسَدِه، وَالْخِطَابُ لِزَكَريا، لِرُوحِه وَبَدَنه، وَالروحُ تُوصَفُ بِالْوَفَاة وَالْقَبْضِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، وَهَذا شَأنُ الْمَخْلُوقِ الْمُحْدَثِ.

وَأما احْتِجَاجُهُمْ بقوله: ﴿ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [4] - فَلَيسَ الْمُرَادُ هُنَا بِالْأَمرِ الطلَبَ، بَلِ الْمرَادُ به الْمَأمُور، وَالْمَصْدَرُ يُذْكَرُ وَيرَادُ به اسْمُ الْمَفْعُول، وَهَذا مَعْلُومٌ مَشْهُورٌ.

الْمُضَافُ إلَى اللهِ تَعَالَى نَوْعَانِ

وَأما اسْتِدْلَالُهُمْ بِإضَافَتِهَا إليه بقوله: ﴿ مِن رُّوحِي ﴾ [5] - فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْلَمَ أن الْمُضَافَ إلى الله تعالى مِنَ نَوْعَانِ:

صِفَاتٌ لَا تَقُومُ بِأَنفُسِهَا، كَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَة وَالْكَلَامِ وَالسمْعِ وَالْبَصَرِ، فهذه إضَافَة صِفَة إلى الْمَوْصُوفِ بِهَا، فَعِلْمُه وَكَلَامُه وَقُدْرَتُه وَحَيَاته صِفَاتٌ له، وَكَذَا وَجْهُه وَيَدُه سبحانه.

والثاني: إضَافَة أَعْيَانٍ مُنفَصِلَة عنه، كَالْبَيْتِ وَالنَاقَة وَالْعَبْدِ وَالرسُولِ وَالروحِ، فهذه

(١) سورة الزمَر آية ٦٢ .

(٢) سورة الدهْر آية ١ .

(٣) سورة مَرْيَم آية ٩ .

(٤) سورة الْإسْرَاءِ آية ٨٥ .

(٥) سورة الْحِجْرِ آية ٢٩ .

إِضَافَة مَخْلُوقٍ إلى خَالِقِه، لَكِنَهَا إِضَافَة تَقْتَضِي تَخْصِيصًا وَتَشْرِيفًا، يَتَمَيزُ بِهَا الْمُضَافُ عَنْ غيره.

مَاهِيةُ الروح

وَاخْتِلفَ في الروح: هَلْ هي مَخْلُوقة قَبْلَ الْجَسَدِ أم بعده ؟ وَقَدْ تقدمَ عِنْدَ ذِكْرِ الْمِيثَاقِ الْإِشَارَة إلى ذَلِكَ.

وَاخْتِلفَ في الروح: مَا هي ؟ قِيلَ: هي جِسْمٌ، وَقِيلَ: عَرَضٌ، وَقِيلَ: لَا نَدْرِي مَا الروحُ، أجَوْهَرٌ أمْ عَرَضٌ ؟ وَقِيلَ: لَيْسَ الروحُ شَيْئًا أكْثَرَ مِنَ اعْتِدَالِ الطَبَائِعِ الْأَرْبعِ، وَقِيلَ: هي الدمُ الصافِي الْخَالِصُ مِنَ الْكَدَرِ وَالْعُفُونَاتِ، وَقِيلَ: هي الْحَرَارَة الْغَرِيزِية، وهي الْحَيَاة، وَقِيلَ: هُوَ جَوْهَرٌ بَسِيطٌ مُنْبَعث في الْعَالَمِ كله مِنَ الْحَيَوانِ، على جِهَةِ الْإِعْمَالِ له وَالتدْبِيرِ، وهي على مَا وُصِفَتْ مِنْ الْانْبِسَاطِ في الْعَالَمِ غَيْرُ مُنْقَسِمَة الذاتِ وَالْبِنْيَة، وَأنهَا في كُل حَيَوانِ الْعَالَمِ بمعنى وَاحِدٍ لَا غَيْر، وَقِيلَ: النفْسُ هي النسِيمُ الداخِلُ وَالْخَارِجُ بالتنفسِ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ.

وَللناسِ في مسمى " الْإِنسَانِ ": هَلْ هُوَ الروحُ فَقَطْ، أو الْبَدَنُ فَقَطْ، أوْ مَجْمُوعُهُمَا، أوْ كُل مِنْهُمَا ؟ وهذه الْأَقْوَالُ الْأَرْبَعَة لَهُمْ في كَلَامِه: هَلْ هُوَ اللفْظُ، أو المعنى فَقَطْ، أوْ هُمَا، أوْ كُل مِنْهُمَا ؟ فَالْخِلَافُ بَيْنَهُمْ في الناطِقِ وَنُطْقِه. وَالْحَق: أن الْإِنْسَانَ اسْمٌ لَهُمَا، وَقَدْ يُطْلَقُ على أحَدِهِمَا بِقَرِينة، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ.

الْأَدِلةُ عَلَى أن النفْسَ جِسْمٌ مُخَالِفٌ بِالْمَاهِيةِ لِلْجِسْمِ الْمَحْسُوسِ

والذي يَدُل عليه الْكِتَابُ والسنة وَإِجْمَاعُ الصحَابَة وَأدِلة الْعَقْلِ: أن النفْسَ جِسْمٌ مُخَالِفٌ بِالْمَاهِية لِهَذَا الْجِسْمِ الْمَحْسُوسِ، وَهُوَ جِسْمٌ نُورَانِي عُلْوِي، خَفِيفٌ حَي مُتحَرك، [يَنْفُذُ] [1] في جَوْهَرِ الْأَعْضَاءِ، وَيَسْرِي فِيهَا سَرَيَانَ الْمَاءِ في الْوَرْدِ، وَسَرَيَانَ الدهْنِ في الزيْتون، وَالنارِ في الْفَحْمِ. فَمَا دَامَتْ هذه الْأَعْضَاءُ صَالِحَة لِقَبُولِ الْآثَارِ الْفَائِضَة عَلَيْهَا مِنْ هَذَا الْجِسْمِ اللطِيفِ، بَقِي ذَلِكَ الْجِسْمُ اللطِيفُ سَارِيًا في هذه الْأَعْضَاءِ، وَإِفَادَتَهَا هذه الْآثَارَ، مِنَ الْحِس وَالْحَرَكَة الْإِرَادِية، وَإِذَا فَسَدَتْ هذه، بِسَبَبِ اسْتِيلَاءِ الْأَخْلَاطِ

(١) في الأصل : (ينتقل) ، ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

الْغَلِيظة عَلَيْها، وَخَرَجت عَنْ قُبول تِلْكَ الْآثار، فَارَقَ الروحُ الْبَدَنَ، وَانْفصَلَ إلى عَالَمِ الْأَرْوَاحِ.

وَالدَلِيلُ على ذَلِكَ قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ [1] الآية. فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوفيها وَإمْساكِهَا وَإرْسَالِهَا. وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ﴾ [2] فَفِيهَا بَسْطُ الْمَلَائكة أيْدِيَهُمْ لِتَنَاوُلِهَا، وَوَصْفُهَا بِالْإخْرَاجِ وَالْخُرُوجِ، وَالْإخْبَارُ بِعذَابِهَا ذلِكَ الْيَوْم، وَالْإِخْبَارُ عَنْ مَجِيئِهَا إلى رَبهَا. وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [3] الآية. فَفِيهَا الْإِخْبَارُ بِتَوَفي النفْسِ بِالليْل، وَبَعْثِهَا إلى أجْسَادِهَا بِالنهار، وَتَوَفي الْمَلَائِكَة لَها عِنْدَ الْمَوْتِ. وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [4]. فَفِيهَا وَصْفُهَا بِالرجُوعِ وَالدخُولِ وَالرضَا. وَقالَ ﷺ: «إن الروحَ إذَا قُبِضَ تَبِعَه الْبَصَرُ» [5]. ففيه وَصْفُه بِالْقَبْضِ، وَأن الْبَصرَ يَرَاه. وَقالَ ﷺ في حَدِيث بِلَالٍ: «قَبضَ أرْوَاحَكُمْ [حِينَ شَاءَ] [6] وَردهَا عَلَيْكُمْ حِينَ شَاءَ» [7]. وَقالَ ﷺ: «نَسَمَة الْمُؤمِنِ طَائِرٌ تَعْلَقُ في شَجَرِ

(١) سورة الزمر آية ٤٢ .
(٢) سورة الأنعام آية ٩٣ .
(٣) سورة الأنعام آية ٦٠ .
(٤) سورة الفجر الآيات ٢٧ - ٣٠ .
(٥) ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٤٥٤) ، أحمد (٦/٢٩٧) .
(٦) سقطت من الأصل . والتصويب من البخاري (٢ / ٦٦ فتح الباري) وأبو داود ١ / ٣٠٧ والنسائي ٢ / ١٠٦ وأحمد ٥ / ٣٠٧ . ن .
(٧) سقطت من الأصل . والتصويب من البخاري (٢ / ٦٦ فتح الباري) وأبو داود ١ / ٣٠٧ والنسائي ٢ / ١٠٦ وأحمد ٥ / ٣٠٧ . ن .

الْجنة ﴾ (١). وَسَيأْتي في الْكَلَامِ على عَذَابِ الْقَبِرِ أَدِلة كثيرة مِنْ خِطَابِ مَلَكِ الْمَوْتِ لَهَا، وَأَنها تَخْرُجُ تَسِيلُ كمَا تَسِيلُ الْقَطْرَة مِنْ في السقَاءِ، وَأَنها تَصْعَدُ وَيوجَدُ مِنْهَا [مِنَ الْمُؤْمنِ] كَأَطْيبِ رِيحٍ، وَمِنَ الْكَافِرِ كأَنْتنِ رِيحٍ، إلى غَيْرِ ذَلكَ مِنَ الصفَاتِ. وعلى ذَلكَ أَجْمَعَ السلَفُ وَدَل الْعَقْلُ، وَلَيْسَ مَع مَنْ خَالَفَ سِوَى الظُّنونِ الْكَاذِبَة، وَالشبَه الْفَاسِدَة، التي لَا يُعَارَضُ بِهَا مَا دَل عليه نُصُوصُ الْوَحْيِ وَالْأَدِلة الْعَقْلِية.

الِاخْتِلَافُ فِي مُسَمى النفْسِ وَالروحِ

وَأَما اخْتِلَافُ الناسِ في مسمى النفْسِ وَالروحِ: هَلْ هما مُتَغَايِرَانِ، أَوْ مُسَماهُمَا وَاحِدٌ؟ فَالتحْقِيقُ: أَن النفْسَ تُطْلَقُ على أُمورٍ، وَكَذَلِكَ الروحُ، فَيتحِدُ مَدْلُولُهمَا تَارَة، وَيَخْتَلِفُ تَارَة. فَالنفْسُ تُطْلَقُ على الروحِ، وَلَكِنْ غَالِبُ مَا تُسمى نَفْسًا إِذَا كَانَتْ مُتصِلَة بِالْبَدَنِ، وَأَما إِذَا أُخِذَتْ مُجَردَة فَتَسْمِيَة الروحِ أَغْلَبُ عَلَيْهَا. وَتُطْلَقُ على الدمِ، ففي الْحَدِيثِ: ﴿ مَا لَا نَفْسَ له سَائِلَة لَا يُنجسُ الْمَاءَ إِذَا مَاتَ فيه ﴾ . وَالنفْسُ: الْعَيْنُ، يُقَالُ: أَصَابَتْ فُلَانًا نَفْسٌ، أي عَيْنٌ.

وَالنفْسُ: الذاتُ، ﴿ فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ (٢). ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ ﴾ (٣) وَنَحْوِ ذَلكَ. وَأَما الروحُ فَلَا تُطْلَقُ على الْبَدَنِ، لَا بِانْفِرَادِه، وَلَا مَعَ النفْسِ. وَتُطْلَقُ الروحُ على الْقُرْآنِ. وعلى جِبْرائيلَ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ (٤). ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ (٥). وَتُطْلَقُ الروحُ على الْهَوَاءِ الْمُتَرددِ في بَدَنِ الْإِنْسَانِ أَيْضًا.

وَأَما مَا يُؤَيدُ الله به أَوْلِيَاءَه، فهي رُوحٌ أخرى، كمَا قَالَ تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى

---

(١) النسائي الجنائز (٢٠٧٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٧١) ، أحمد (٣/٤٥٦) ، مالك الجنائز (٥٦٦) .

(٢) سورة النور آية ٦١ .

(٣) سورة النساء آية ٢٩ .

(٤) سورة الشورى آية ٥٢ .

(٥) سورة الشعراء آية : ١٩٣ .

قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [1]. وَكَذَلِكَ الْقُوَى التي في الْبَدَنِ، فَإنها أيْضًا تُسَمى أَرْوَاحًا، فَيُقَالُ: الروحُ الْبَاصِرُ، وَالروحُ السامِعُ، وَالروحُ الشام. وَتُطْلَقُ الروحُ على أَخَص مِنْ هَذَا كله، وَهُوَ: قُوة الْمَعْرِفَة بالله وَالْإنَابَة إليه وَمَحَبته وَانْبعَاثُ الْهمة إلى طَلَبِه وَإرَادَته. وَنِسْبَة هذه الروحِ إلى الروحِ، كَنِسْبَة الروحِ إلى الْبَدَنِ، [فَلِلْعِلْمِ] [2] رُوحٌ، [وَلِلْإحْسَانِ] [3] رُوحٌ، [وَلِلْمَحَبة] [4] رُوحٌ، [وَللتوَكلِ] [5] رُوحٌ، [وَللصدْق] [6] رُوحٌ، وَالناسُ مُتَفَاوِتُونَ في هذه [الْأَرْوَاحِ] [7]. فَمِنَ الناسِ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه الْأَرْوَاحُ فَيَصِيرُ [رُوحَانِيا] [8] وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْقِدُهَا أَوْ أَكْثَرَهَا فَيَصِيرُ أَرْضِيا بَهِيمِيا.

وَقَدْ وَقَعَ في كَلَامِ كَثِيرٍ مِنَ الناسِ أن لِابْنِ آدَمَ ثَلَاثَة أَنْفُسٍ: مُطْمَئِنة، وَلَوامَة، وَأَمارَة، قَالُوا: وَإن مِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه، وَمِنْهُمْ مَنْ تَغْلِبُ عليه هذه، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [9]. ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ ﴾ [1]. ﴿ إِنَّ

---

(1) سورة الْمُجَادَلَة آية ٢٢ .

(2) في الأصل : (فالعلم) (والإحسان) (والمحبة) (والتوكل) (والصدق) (الروح) (روحيا) . والتصويب من كتاب " الروح " ص ٢٢٠ . ن .

(3) في الأصل : (فالعلم) (والإحسان) (والمحبة) (والتوكل) (والصدق) (الروح) (روحيا) . والتصويب من كتاب " الروح " ص ٢٢٠ . ن .

(4) في الأصل : (فالعلم) (والإحسان) (والمحبة) (والتوكل) (والصدق) (الروح) (روحيا) . والتصويب من كتاب " الروح " ص ٢٢٠ . ن .

(5) في الأصل : (فالعلم) (والإحسان) (والمحبة) (والتوكل) (والصدق) (الروح) (روحيا) . والتصويب من كتاب " الروح " ص ٢٢٠ . ن .

(6) في الأصل : (فالعلم) (والإحسان) (والمحبة) (والتوكل) (والصدق) (الروح) (روحيا) . والتصويب من كتاب " الروح " ص ٢٢٠ . ن .

(7) في الأصل : (فالعلم) (والإحسان) (والمحبة) (والتوكل) (والصدق) (الروح) (روحيا) . والتصويب من كتاب " الروح " ص ٢٢٠ . ن .

(8) في الأصل : (فالعلم) (والإحسان) (والمحبة) (والتوكل) (والصدق) (الروح) (روحيا) . والتصويب من كتاب " الروح " ص ٢٢٠ . ن .

(9) سورة الْفَجْرِ آية ٢٧ .

ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [2].

النفْسُ وَاحِدَةٌ وَلَهَا صِفَاتٌ

وَالتحْقِيقُ: أنهَا نفْسٌ وَاحِدَة، لَهَا صِفَاتٌ، فهي أمارَة بِالسوءِ، فَإِذَا عَارَضَهَا الْإِيمانُ صَارَتْ لوامَة، تفعَلُ الذنْبَ ثم تَلُومُ صَاحِبَهَا، وَتلُومُ بيْنَ الْفِعْلِ وَالترْكِ، فَإِذَا قوِيَ الْإِيمانُ صَارَتْ مطْمَئِنة. وَلِهَذَا قَالَ ﷺ ﴿ مَنْ سَرتْه حَسَنَتُه وَسَاءَتْه سَيئَتُه فَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [3]. وقوله: ﴿ لَا يَزْنِي الزانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [4] ، الْحَدِيثَ.

الِاخْتِلَافُ فِي مَوْتِ الروحِ

وَاخْتَلَفَ الناسُ: هَلْ تَمُوتُ الروحُ أَمْ لَا ؟ فَقَالَتْ طَائِفَة: تَمُوتُ؛ لِأنهَا نَفْسٌ، وَكُل نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَقَدْ قَالَ تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧ ﴾ [5]. وَقَالَ تعالى: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ [6]. قَالُوا: وَإِذَا كَانَتِ الْمَلَائِكَة تَمُوتُ، فَالنفُوسُ الْبَشَرِية أولى بِالْمَوْتِ. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا تَمُوتُ الْأَرْوَاحُ، فَإِنهَا خُلِقَتْ لِلْبَقَاءِ، وَإِنمَا تَمُوتُ الْأَبْدَانُ. قَالُوا: وَقَدْ دَل على ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الدالة على نَعِيمِ الْأَرْوَاحِ وَعَذَابِهَا بَعْدَ الْمُفَارَقَة إلى أَنْ يُرْجِعَهَا الله في أَجْسَادِهَا.

وَالصوَابُ أَنْ يُقَالَ: مَوْتُ النفُوسِ هُوَ مُفَارَقَتُهَا لِأَجْسَادِهَا وَخُرُوجُهَا مِنْهَا، فَإِنْ أُرِيدَ بِمَوْتِهَا هَذَا الْقَدْرُ، فهي ذَائِقَة الْمَوْتِ، وَإِنْ أُرِيدَ أَنهَا تُعْدَمُ وَتفنى بِالْكُلية، فهي لَا

---

(١) سورة الْقِيَامَة آية ٢ .

(٢) سورة يُوسُفَ آية ٥٣ .

(٣) الترمذي الفتن (٢١٦٥) ، أحمد (١/١٨) .

(٤) البخاري المظالم والغصب (٢٣٤٣) ، مسلم الإيمان (٥٧) ، الترمذي الإيمان (٢٦٢٥) ، النسائي الأشربة (٥٦٥٩) ، أبو داود السنة (٤٦٨٩) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٣٦) ، أحمد (٢/٣٨٦) ، الدارمي الأشربة (٢١٠٦) .

(٥) سورة الرحْمَنِ الآيتان ٢٦ - ٢٧ .

(٦) سورة الْقَصَصِ آية ٨٨ .

تَموتُ بِهذَا الِاعْتِبَارِ، بَلْ هي بَاقِية بَعْدَ خَلْقِهَا في نَعِيمٍ أَوْ في عَذَابٍ، كَمَا سَيأْتي إنْ شَاءَ الله تعالى. وَقَدْ أَخْبَرَ سبحانه أن أَهْلَ الْجَنة ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ (١) وَتِلْكَ الْمَوْتة هي مُفَارَقَة الأرواحِ لِلْأجْسَادِ. وَأما قَوْلُ أَهْلِ النارِ: ﴿ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ (٢) وقوله تعالى: ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ (٣) - فَالْمُرَادُ: أَنهُمْ كَانُوا أَموَاتًا وَهُمْ نُطَفٌ في أَصْلَابِ آبَائِهِمْ وفي أَرْحَامِ أُمهَاتِهِمْ، ثم أحْيَاهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ، ثم أَمَاتَهُمْ، ثم يُحْيِيهِمْ يَوْمَ النشُورِ، وَلَيْس في ذَلِك إِمَاتَة أَرْوَاحِهِمْ قَبلَ يَومِ الْقِيَامَة، وَإلا كَانَتْ ثَلَاثَ مَوْتَاتٍ.

وَصَعْقُ الْأَرْوَاحِ عِنْدَ النفْخِ في الصوَرِ لَا يَلْزَمُ منه مَوْتَهَا، فَإن الناس يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة إِذَا جَاءَ الله لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَأشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِه، وَلَيس ذَلِكَ بِمَوْتٍ. وَسَيَأْتي ذِكْرُ ذَلِكَ، إنْ شَاءَ الله تعالى. وَكَذَلِكَ صَعْقُ موسى عليه السلَامُ لَمْ يَكُنْ مَوْتًا، والذي يَدُل عليه أن نَفْخَة الصعْقِ - والله أَعْلَمُ - مَوْتُ كُل مَنْ لَمْ يَذُقِ الْمَوْتَ قَبْلَهَا مِنَ الْخَلَائِقِ، وَأما مَنْ ذَاقَ الْمَوْتَ، أَوْ لَمْ يُكْتَبْ عليه الْمَوْتُ مِنَ الْحُورِ وَالْوِلْدَانِ وَغَيْرِهِمْ، فَلَا تَدُل الآية على أنه يَمُوتُ مَوْتَة ثَانِيَة. والله أَعْلَمُ.

عَذَابُ الْقَبرِ وَنَعِيمُهُ

الْإِيمَانُ بِعَذابِ الْقَبرِ وَنَعِيمِهِ

قوله: (وَبِعَذَابِ الْقَبرِ لِمَنْ كَانَ له أَهْلًا، وَسُؤَالِ مُنكرٍ وَنَكِيرٍ في قَبْرِه عَنْ رَبه وَدِينِه وَنَبِيه، على مَا جَاءَتْ به الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ وَعَنِ الصحَابَة رِضْوَانُ الله عَلَيهِمْ. وَالْقَبرُ رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنة، أَوْ حُفْرَة مِنْ حُفَرِ النيرَانِ).

---

(١) سورة الدخَانِ آية ٥٦ .

(٢) سورة غَافِرٍ آية ١١ .

(٣) سورة الْبَقَرَة آية ٢٨ .

ش: قَالَ تعالى: ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦ ﴾ [1]. وَقَالَ تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٧ ﴾ [2].

وَهَذَا يُحْتَمَلُ أَنْ يُرَادَ به عَذَابُهُمْ بِالْقَتْلِ وغيره في الدنْيَا، وَأَنْ يُرَادَ به عَذَابُهُمْ في الْبَرْزَخِ، وَهُوَ أظْهَرُ، لِأَن كَثِيرًا مِنْهُمْ مَاتَ وَلَمْ يُعَذبْ في الدنْيَا، أَوِ الْمُرَادُ أَعَم مِنْ ذَلِكَ.

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قَالَ: ﴿ كُنا في جِنَازَةٍ في بَقِيعِ الْغَرْقَدِ، فَأَتَانَا النبي ﷺ فَقَعَدَ وَقَعَدْنَا حَوْلَه، كَأَن على رُؤُوسِنَا الطيْرَ، وَهُوَ يُلْحَدُ له، فَقَالَ: "أَعُوذُ بالله مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ"، ثَلَاثَ مَراتٍ، ثُم قَالَ: "إِن الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ في إِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ وَانْقِطَاعٍ مِنَ الدنْيَا، نَزَلَتْ إليه الْمَلَائِكَة، كَأَن على وُجُوهِهِمُ الشمْسَ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنة، وَحُنوطٌ مِنْ حُنوطِ الْجَنة، فَجَلَسُوا منه مَد الْبَصَرِ، ثُم يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حتى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِه، فيقُولُ: يَا أَيتُهَا النفْسُ الطيبَة، اخْرُجِي إلى مَغْفِرَةٍ مِنَ الله وَرِضْوَانٍ"، قَالَ: "فتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَة مِنْ في السقَاءِ، فيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِه طَرْفَة عَيْنٍ، حتى يَأْخُذُوهَا فيَجْعَلُوهَا في ذَلِكَ الْكَفَنِ وَذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَتَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَة مِسْكٍ وُجِدَتْ على وَجْه الْأَرْضِ"، قَالَ: "فيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرونَ بِهَا، - يعني على مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَة -، إلا قَالُوا: مَا هذه الروحُ الطيبَة؟ فيقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِه التي كَانُوا يُسَمونَه بِهَا في الدنْيَا، حتى يَنْتَهُوا بِهَا إلى السمَاءِ، فيَسْتَفْتِحُونَ له، فيُفْتَحُ له، فيُشَيعُه مِنْ كُل سَمَاءٍ مُقَربُوهَا، إلى السمَاءِ التي تَلِيهَا، حتى يَنْتَهَى بِهَا إلى السمَاءِ التي فيها الله، فيقُولُ الله ﷻ اكْتُبوا كِتَابَ عَبْدِي في عِليينَ، وَأَعِيدُوه إلى الْأَرْضِ،

(1) سورة غَافِرٍ الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

(2) سورة الطور الآيات ٤٥ - ٤٧ .

فَإني مِنْهَا خَلَقْتُهمْ، وَفيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَة أخرى. قَالَ: فَتُعَادُ رُوحُه في جَسَدِه، فَيأْتيه مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِه، فَيَقُولَانِ له: مَنْ رَبكَ ؟ فَيَقُولُ: رَبي الله، فَيَقُولَانِ له: مَا دِيُنكَ ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ له: مَا هَذَا الرجُلُ الذي بُعِث فِيكُمْ ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ الله، فَيَقُولَانِ له: مَا عِلْمُكَ ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ الله فَآمَنْتُ به وَصَدقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوه مِنَ الْجَنة، وَافْتَحُوا له بَابًا إلى الْجَنة، قَالَ: فَيَأْتيه مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ له في قَبْرِه مَد بَصَرِه، قَالَ: وَيَأْتيه رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْه، حَسَنُ الثيَابِ، طَيبُ الريحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالذِي يَسُرُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الذي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ له: مَنْ أَنتَ ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْه الذي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنا عَمَلُكَ الصالِحُ، فَيَقُولُ: يَا رَب، أَقِمِ الساعَةَ حتى أَرْجِعَ إلى أَهْلِي وَمَالِي ". قَالَ: " وَإِن الْعَبْدَ الْكَافِرَ إذَا كَانَ في انْقِطَاعٍ مِنَ الدنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَة، نَزَلَ إليه مِنَ السمَاءِ مَلَائِكَة سُودُ الْوُجُوه، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ منه مَد الْبَصَرِ، ثُم يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حتى يَجْلِس عِنْدَ رَأْسِه، فَيَقُولُ: أَيتُهَا النفْسُ الْخَبِيثَة، اخْرُجِي إلى سَخَطٍ مِنَ الله وَغَضَبٍ، قَالَ: فَتَتَفرقُ في جَسَدِه، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السفودُ مِنَ الصوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا في يَدِه طَرْفَة عَيْنٍ، حتى يَجْعَلُوهَا في تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ خَبِيثَة وُجِدَتْ على وَجْه الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرونَ بِهَا على مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَة إلا قَالُوا: مَا هَذَا [الروحُ الْخَبِيثُ] (١) ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ ابْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِه التي كَانَ يُسَمى بِهَا في الدنْيَا، حتى يُنْتَهَى بِهَا إلى السمَاءِ الدنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ له، فَلَا يُفْتَحُ له، ثُم قَرَأَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ (٢) فَيَقُولُ الله ﷻ اكْتُبوا كِتَابَه في [سِجين] (٣) في الْأَرْضِ السفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُه طَرْحًا "، ثُم قَرَأَ:

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من المسند ٤ / ٢٨٧ . ن .

(٢) سورة الْأَعْرَاف آية ٤٠ .

(٣) في الأصل : (سجيل) . والتصويب من المسند . ن .

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١ ﴾ [1] فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان [فيجلسانه] [2] فيقولان له: من ربك ؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي منادٍ من السماء: أن كذب، فافرشوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف [فيه] [3] أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول رب لا تقم الساعة ». رواه الإمام أحمد وأبو داود، وروى النسائي وابن ماجه أوله، ورواه الحاكم وأبو عوانة الإسفرائيني في صحيحيهما، وابن حبان [4].

وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث، وله شواهد من الصحيح.

فذكر البخاري رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: « إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، أنه ليسمع قرع نعالهم، فيأتيه ملكان،

---

(١) سورة الحج آية ٣١ .

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل وأثبتناه من المسند . ن .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من المسند . ن .

(٤) رواه أحمد في المسند (ج ٤ ص ٢٨٧ - ٢٨٨ ، ٢٩٥ - ٢٩٦ طبعة الحلبي) مطولا . ونقله ابن كثير في التفسير ٣ : ٤٧٤ - ٤٧٥ عن المسند . ورواه أبو داود : ٤٧٥٣ ، ٤٧٥٤ . والحاكم في المستدرك ١ : ٣٧ - ٣٩ ، بأسانيد ، كلها من رواية الأعمش ، عن المنهال بن عمرو ، عن زاذان . عن البراء بن عازب . قال الحاكم : " هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، فقد احتجا جميعا بالمنهال بن عمرو ، وزاذان أبي عمر الكندي " . ووافقه الذهبي . وقد أطال الإمام الحافظ ابن القيم القول في تصحيحه ، والرد على من أعله - في تذيب السنن : ٤٥٨٦ ، (ج ٧ ص ١٣٩ - ١٤٦) .

فَيُقْعِدَانِه، فَيقُولَانِ له: مَا كُنتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرجُلِ، مُحَمدٍ ﷺ ؟ فَأَما الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أنه عَبْدُ الله ورسوله، فَيَقُولُ له: أنظُرْ إلى مَقْعَدِكَ مِنَ النارِ أبْدَلَكَ الله به مَقْعَدًا مِنَ الْجَنة، فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا ﴾ (١). قَالَ قَتَادَة: وَرُوِي لَنَا: أنه يُفْسَحُ له في قَبْرِه، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وفي الصحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عَباسٍ رضي الله عَنْهُمَا: ﴿ أن النبي ﷺ مر بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: " إِنهُمَا لَيُعَذبَانِ، وَمَا يُعَذبَانِ فِي كَبِيرٍ، أما أَحَدُهُمَا فَكَانَ لَا يَسْتَبْرِئُ مِنَ الْبَوْلِ، وَأَما الْآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنمِيمَةِ "، فَدَعَا بِجَرِيدَة رَطْبَة، فَشَقهَا نِصْفَيْنِ، وَقَالَ: " لَعَله يُخَفِفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبسَا ﴾ (٢). وفي صَحِيحِ أبي حَاتِمٍ عَنْ أبي هريرة، قَالَ: قَالَ النبي ﷺ ﴿ إِذَا قُبِرَ أحدكم، أَوِ الْإِنسَانُ، أتاه مَلَكَانِ أسْوَدَانِ أزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النكِيرُ ﴾ (٣) ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ إِلَخْ.

وَقَدْ تَوَاتَرَتِ الْأَخْبَارُ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ في ثُبُوتِ عَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِه لِمَنْ كَانَ لِذَلِكَ أهْلًا، وَسُؤَالِ الْمَلَكَيْنِ، فَيَجِبُ اعْتِقَادُ ثُبوتِ ذَلِكَ وَالْإِيمَانُ به، وَلَا يَتَكَلمُ في كَيْفِيته، إِذْ لَيْسَ لِلْعَقْلِ وُقُوفٌ على كَيْفِيته، لِكَوْنِه لَا عَهْدَ له به في هذه الدارِ، وَالشرْعُ لَا يأتي بِمَا تُحِيلُه الْعُقُولُ، وَلَكِنه قَدْ يأتي بِمَا تَحَارُ فيه الْعُقُولُ. فَإِن عَوْدَ الروحِ إلى الْجَسَدِ لَيْسَ على الْوَجْه الْمَعْهُودِ في الدنْيَا، بَلْ تُعَادُ الروحُ إليه إِعَادَة غَيْرَ الْإِعَادَة الْمَألُوفَة في الدنيَا.

تَعَلقَاتُ الروحِ بِالْبَدَنِ

فَالروحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَة أنْوَاعٍ مِنَ التعَلقِ، مُتَغَايِرَة الْأَحْكَامِ:

---

(١) البخاري الجنائز (١٣٠٨) ، مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٠) ، النسائي الجنائز (٢٠٥١) ، أبو داود السنة (٤٧٥١) ، أحمد (٣/١٢٦) .

(٢) البخاري الوضوء (٢١٥) ، مسلم الطهارة (٢٩٢) ، الترمذي الطهارة (٧٠) ، النسائي الجنائز (٢٠٦٨) ، أبو داود الطهارة (٢٠) ، ابن ماجه الطهارة وسننها (٣٤٧) ، أحمد (١/٢٢٥) ، الدارمي الطهارة (٧٣٩) .

(٣) الترمذي الجنائز (١٠٧١) .

أَحَدُهَا: تَعَلقُهَا به في بَطْنِ الْأُم جَنِينًا.

الثاني: تَعَلقُهَا به بَعْدَ خُرُوجِهِ إلى وَجْه الْأَرْضِ.

الثالِثُ: تَعَلقُهَا به في حَالِ النوْمِ، فَلَهَا به تَعَلقٌ مِنْ وَجْه، وَمُفَارَقَة مِنْ وَجْه.

الرابِعُ: تَعَلقُهَا به في الْبَرْزَخِ، فَإِنهَا وَإِنْ فَارَقَتْه وَتَجَردَتْ عنه فَإِنهَا لَمْ تُفَارِقْه فِرَاقًا كُليا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا إليه الْتِفَاتٌ أَلْبَتة، فإنه وَرَدَ رَدهَا إليه وَقْتَ سَلَامِ الْمُسَلمِ، وَوَرَدَ أنه يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِهِمْ حِينَ يُوَلونَ عنه، وَهَذَا الرد إِعَادَة خَاصة، لَا يُوجِبُ حَيَاة الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَة.

الْخَامِسُ: تَعَلقُهَا به يَوْمَ بَعْثِ الْأَجْسَادِ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلقِهَا بِالْبَدَنِ، وَلَا نِسْبَة لِمَا قبله مِنْ أَنْوَاعِ التعَلقِ إليه، إِذْ هُوَ تَعَلقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ معه مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالنوْمُ أَخُو الْمَوْتِ. فَتَأَملْ هَذَا يُزِحْ عَنْكَ إِشْكَالَاتٍ كثيرة.

السؤَالُ فِي الْقَبْرِ لِلروحِ وَالْجَسَدِ

وَلَيْسَ السؤَالُ في الْقَبْرِ لِلروحِ وَحْدَهَا، كَمَا قَالَ ابْنُ حَزْمٍ وغيره، وَأَفْسَدُ منه قَوْلُ مَنْ قَالَ: أنه لِلْبَدَنِ بِلَا رُوحٍ ! وَالْأَحَادِيثُ الصحِيحَة تَرُد الْقَوْلَيْنِ.

وَكَذَلِكَ عَذَابُ الْقَبْرِ يَكُونُ لِلنفْسِ وَالْبَدَنِ جَمِيعًا بِاتفَاقِ أَهْلِ السنة وَالْجَمَاعَة، تَنْعَمُ النفْسُ وَتُعَذبُ مُفْرَدَة عَنِ الْبَدَنِ وَمُتصِلَة به.

وَاعْلَمْ أن عَذَابَ الْقَبْرِ هُوَ عَذَابُ الْبَرْزَخِ، فَكُل مَنْ مَاتَ وَهُوَ مُسْتَحِق لِلْعَذَابِ نَالَه نَصِيبُه منه، قُبِرَ أَوْ لَمْ يُقْبَرْ، أَكَلَتْه السبَاعُ أَوِ احْتَرَقَ حتى صَارَ رَمَادًا وَنُسِفَ في الْهَوَاءِ، أَوْ صُلِبَ أَوْ غَرِقَ في الْبَحْرِ - وَصَلَ إلى رُوحِهِ وَبَدَنِه مِنَ الْعَذَابِ مَا يَصِلُ إلى الْمَقْبُورِ.

وَمَا وَرَدَ مِنْ إِجْلَاسِه وَاخْتِلَافِ أَضْلَاعِه وَنَحْوِ ذَلِكَ - فَيَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ عَنِ الرسُول ﷺ مُرَادُه مِنْ غَيْرِ غُلُو وَلَا تَقْصِيرٍ، فَلَا يُحَملُ كَلَامُه مَا لَا يَحْتَمِلُه، وَلَا يُقَصرُ به عَنْ مُرَادِ مَا قَصَدَه مِنَ الْهُدَى وَالْبَيَانِ، فَكَمْ حَصَلَ بِإِهْمَالِ ذَلِكَ وَالْعُدُولِ عنه مِنَ الضلَالِ وَالْعُدُولِ عَنِ الصوَابِ - مَا لَا يَعْلَمُه إِلا الله. بَلْ سُوءُ الْفَهْمِ عَنِ الله ورسوله أَصْلُ كُل بِدْعَة وَضَلَالَة نَشَأَتْ في الْإِسْلَامِ، وَهُوَ أَصْلُ كُل خَطَإٍ في الْفُرُوعِ وَالْأُصُولِ، وَلَا سِيمَا إِنْ أُضِيفَ إليه

سُوءُ الْقَصْدِ. والله الْمُسْتَعَانُ.

الدورُ ثلاثةٌ ولكُل دَارٍ أحْكَامٌ

فَالْحَاصِلُ أن الدور ثَلَاثَة: دَارُ الدُّنيا، وَدَارُ الْبَرْزَخِ، وَدَارُ الْقَرَارِ. وَقَدْ جَعَلَ الله لِكُل دَارٍ أَحْكَامًا تَخُصهَا، وركب هَذَا الْإِنسَانَ مِنْ بَدَنٍ وَنفْسٍ، وَجَعَلَ أَحْكَامَ الدُّنْيَا على الْأَبدَانِ، وَالْأَرْوَاحُ تَبعا لَهَا، وجَعَلَ أَحْكَامَ الْبَرْزَخِ على الْأَرْوَاحِ، وَالْأَبْدَانُ تَبَعا لَهَا، فَإِذَا جَاءَ يَوْمُ حَشْرِ الْأَجْسَادِ وَقِيَامِ الناسِ مِنْ قُبورِهِمْ - صَارَ الْحُكْمُ وَالنعِيمُ وَالْعَذَابُ على الْأَرْوَاحِ وَالْأجْسَادِ جَمِيعًا. فَإِذَا تَأَملْتَ هَذَا المعنى حَق التأمل، ظَهَرَ لَكَ أن كَوْنَ الْقَبْرِ رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنة أَوْ حُفْرَة مِنْ حُفَرِ النارِ - مُطَابِقٌ لِلْعَقْلِ، وأنه حَق لَا مِرْيَة فيه، وَبِذَلِكَ يَتَمَيزُ الْمُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ غَيْرِهِمْ.

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أن النارَ التي في الْقَبْرِ وَالنعِيمَ، لَيْسَت مِنْ جِنْسِ نَارِ الدُّنْيَا وَلَا نَعِيمِهَا، وَإِنْ كَانَ الله تعالى يَحْمِي عليه التُرَابَ وَالْحِجَارَة التي فَوْقَه وَتَحْتَه حتى تكُون أَعْظَمَ حَرا مِنْ جَمْرِ الدُّنْيَا، وَلَوْ مَسهَا أَهْلُ الدُّنْيَا لَمْ يُحِسوا بِهَا. بَلْ أَعْجَبُ مِنْ هَذَا أن الرجُلَيْنِ يُدْفَنُ أَحَدُهُمَا إلى جَنْبِ صَاحِبِه، وَهَذَا في حُفْرَة مِنَ النارِ، وَهَذَا في رَوْضَة مِنْ رِيَاضِ الْجَنة، لَا يَصِلُ مِنْ هَذَا إلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ حَر نَارِه، وَلَا مِنْ هَذَا إلى جَارِه شَيْءٌ مِنْ نَعِيمِه. وَقُدْرَة الله أَوْسَعُ مِنْ ذَلِكَ وَأَعْجَبُ، وَلَكِن النفُوسَ مُولَعَة بِالتكْذِيبِ بِمَا لَمْ تُحِطْ به عِلْمًا. وَقَدْ أَرَانَا الله في هذه الدارِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِه مَا هُوَ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا بِكَثِيرٍ. وَإِذَا شَاءَ الله أَنْ يُطْلِعَ على ذَلِكَ بَعْضَ عِبَادِه أطْلَعَه وَغَيبَه عَنْ غيره، وَلَوْ أطْلَعَ الله على ذَلِكَ الْعِبَادَ كُلهُمْ لَزَالَتْ حِكْمَة التكْلِيفِ وَالْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ، وَلَمَا تَدَافَنَ الناسُ، كَمَا في الصحِيحِ عنه ﷺ «لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَا أَسْمَعُ» [(١)] [(٢)]. وَلَما كَانَتْ هذه الْحِكْمَة مُنْتَفِيَة في حَق الْبَهَائِمِ سَمِعَتْ وَأَدْرَكَتْ.

---

(١) مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٧) ، أحمد (١٩٠/٥) .

(٢) صحيح مسلم ٢ : ٣٥٨ ، ولكن ليس في آخره كلمة " ما أسمع " ، فلعل الشارح رآها في رواية أخرى ، فإن البخاري لم يرو هذا الحديث .

سُؤَالُ مُنْكِرٍ وَنَكِيرٍ

وَللناس في سُؤَالِ مُنْكِرٍ وَنَكِيرٍ: هَلْ هُوَ خَاص بِهَذِهِ الْأمة أَمْ لَا -: ثَلَاثَة أَقْوَالٍ: الثالِثُ التوَقفُ، وَهُوَ قَوْلُ جَمَاعَة، مِنْهُمْ أَبو عُمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبر، فَقَالَ: وفي حَدِيثِ زَيْدِ بْن ثَابِتٍ عَن النبي ﷺ أنه قَالَ: ﴿إِن هذه الْأمة تُبْتَلَى في قُبورِهَا﴾ [(١)] - مِنْهُمْ مَنْ يَرْويه "تُسْأَلُ"، وعلى هَذَا اللفْظِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هذه الْأمة قَدْ خُصتْ بِذَلِكَ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يُقْطَعُ به، وَيظْهَرُ عَدَمُ الِاخْتِصاص، والله أَعْلَمُ.

وَكَذَلِكَ اخْتُلِفَ في سُؤَالِ الْأَطْفَالِ أَيْضًا.

عَذَابُ الْقَبرِ نَوْعَانِ

وَهَلْ يَدُومُ عَذَابُ الْقَبرِ أَوْ يَنْقَطِعُ ؟ جَوَابُه أنه نَوْعَانِ:

منه مَا هُوَ دَائِمٌ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ [(٢)]. وَكَذَا في حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْن عَازِبٍ في قِصة الْكَافِرِ: ﴿ثُم يُفْتَحُ له بَابٌ إلى النارِ فَيَنْظُرُ إلى مَقْعَدِه فِيهَا حتى تَقُومَ السَاعَةُ﴾ [(٣)]، رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ في بَعْضِ طُرُقِه.

وَالنوْعُ الثاني: أنه مُدة ثُم يَنْقَطِعُ، وَهُوَ عَذَابُ بَعْضِ الْعُصَاة [الذِينَ] [(٤)] خَفتْ جَرَائِمُهُمْ، فَيُعَذبُ بِحَسَبِ جُرْمِه، ثُم يُخَففُ عنه، كَمَا تَقَدمَ ذكره في الْمُمَحصَاتِ الْعَشْرَة [(٥)].

---

(١) مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٧) ، أحمد (١٩٠/٥) .

(٢) سورة غَافِرٍ آية ٤٦ .

(٣) أحمد (١٤٠/٦) .

(٤) في الأصل : (بعض أهل العصاة الذي) . والتصحيح من " الروح " ص ٨٩ . ن .

(٥) هي الأعمال التي تمحص من الذنوب . وهي عشرة ، مضى بيانا ، ص : ٣٠٨ - ٣١١ . وختامها هناك بالحادي عشر : عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة .

الاختلاف في مستقر الأرواح بعد الموت

وقد اختلف في مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة:

فقيل: أرواح المؤمنين في الجنة، وأرواح الكافرين في النار.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها.

وقيل: على أفنية قبورهم.

وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة، تذهب حيث شاءت.

وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله ﷻ ولم يزيدوا على ذلك.

وقيل: إن أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق، وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت!

وقال كعب: أرواح المؤمنين في عليين في السماء السابعة، وأرواح الكافرين في سجين في الأرض السابعة تحت خد إبليس!

وقيل: أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت.

وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن شماله.

قال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها.

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم.

وعن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش، تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتي ربها كل يوم تسلم عليه.

وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض. وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن، كحياته وإدراكه! وقولهم مخالف للكتاب والسنة.

وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التي اكتسبتها في حال حياتها، فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح! وهذا قول التناسخية منكري المعاد، وهو قول خارج عن أهل الإسلام كلهم. ويضيق هذا المختصر

عَنْ بَسْطِ أدلة هذه الْأقْوالِ وَالْكَلَامِ عَلَيْها.

وَيَتَلَخصُ مِنْ أدِلتِهَا: أن الْأرْوَاحَ في الْبَرْزَخِ مُتَفَاوِتَة أعْظَمَ تَفَاوُتٍ:

فَمِنْهَا: أرْوَاحٌ في أعْلَى عِلِيينَ، في الْمَلَأِ الْأعْلَى، وهي أرْوَاحُ الْأنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ الله عَلَيْهِمْ وَسَلَامُه، وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ في مَنَازِلِهِمْ.

وَمِنْهَا: أرْوَاحٌ في حَوَاصِلِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَسْرَحُ في الْجَنة حَيْثُ شَاءَتْ، وهي أرْوَاحُ بَعْضِ الشهَدَاءِ، لَا كُلهِمْ، بَلْ مِنَ الشهَدَاءِ مَنْ تُحْبَسُ رُوحُه عَنْ دُخُولِ الْجَنة لِدَيْنٍ عليه. كَمَا في الْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ الله بْنِ جَحْشٍ: ﴿ أن رَجُلًا جَاءَ إلى النبي ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله: مَا لِي إنْ قُتِلْتُ في سَبِيلِ الله ؟ قَالَ: " الْجَنة "، فَلَما وَلى، قَالَ: " إلا الدينَ، سَارنِي به [جِبْرِيلُ] [(١)] آنفا ﴾ [(٢)].

وَمِنَ الْأرْوَاحِ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا على بَابِ الْجَنة، كَمَا في الْحَدِيثِ الذي قَالَ فيه رَسُولُ الله ﷺ ﴿ رَأيتُ صَاحِبَكُمْ مَحْبُوسًا على بَابِ الْجَنة ﴾ ..

وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ مَحْبُوسًا في قَبْرِه.

وَمِنْهُمْ مَنْ [مَحْبُوسًا] [(٣)] في الْأرْضِ.

وَمِنْهَا أرْوَاحٌ في تَنورِ الزنَاة وَالزوَانِي، وَأرْوَاحٌ في نَهْرِ الدمِ تَسْبَحُ فيه وَتُلْقَمُ الْحِجَارَة، كُل ذَلِكَ تَشْهَدُ له السنة، والله أعْلَمُ.

وَأما الْحَيَاة التي اخْتَص بِهَا الشهِيدُ وَامْتَازَ بِهَا عَنْ غيره، في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [(٤)] وقوله تعالى: ﴿ وَلَا

---

(١) في الأصل : (جبرائيل) . والتصويب المسند ٤ / ١٣٩ ، ٣٥٠ ، والروح ص ١١٥ . ن .

(٢) المسند : ١٧٣١٩ ، ١٧٣٢٠ (ج ٤ ص ١٣٩ - ١٤٠ طبعة الحلبي) .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . والتصويب من " الروح " ص ١١٥ . ن .

(٤) سورة آل عِمْرَانَ آية ١٦٩ .

تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتُۢ ۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ (1) - [فهي]: أن الله تعالى جَعَلَ أَرْوَاحَهُمْ في أَجْوَافِ طَيرٍ خُضْرٍ. كَمَا في حَدِيثِ عَبْدِ الله بن عَباسٍ، أنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ لما أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ - يعني يَوْمَ أُحُدٍ - جَعَلَ الله أَرْوَاحَهُمْ في أَجْوَافِ طَيرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنهَارَ الْجَنة، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إلى قَنادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُظللَة في ظِل الْعَرْشِ ﴾ (2) ، الْحَدِيثَ رواه الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَبو دَاوُدَ، وَبِمَعْنَاه في حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، رواه مُسْلِمٌ.

فَإِنهُمْ لما بَذَلُوا أَبْدَانَهُمْ لله ﷻ حتى أَتْلَفَهَا أَعْدَاؤُه فيه، أَعَاضَهُمْ مِنْهَا في الْبَرْزَخِ أَبْدَانًا خَيْرًا مِنْهَا، تَكُونُ فِيهَا إلى يَوْمِ الْقِيَامَة، وَيَكُونُ تَنَعُّمُهَا بِوَاسِطَة تِلْكَ الْأَبْدَانِ أَكْمَلَ مِنْ تَنعمِ الْأَرْوَاحِ الْمُجَردَة عَنْهَا.

وَلِهَذَا كَانَتْ نَسَمَة الْمُؤْمِنِ في صُورَة طَيرٍ، أَوْ كَطَيرٍ، وَنَسَمَة الشهِيدِ في جَوْفِ طَيرٍ.
وَتَأَملْ لَفْظَ الْحَدِيثَيْنِ، ففي الْمُوَطإِ أن كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ كَانَ يُحَدثُ أن رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: ﴿ إن نَسَمَة الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلَقُ في شَجَرِ الْجَنة، حتى يُرْجِعَه الله إلى جَسَدِه يَوْمَ يَبْعَثُه ﴾ (3)؛ فقوله: "نَسَمَة الْمُؤْمِنِ" تَعُم الشهيدَ وغيره، ثُم خَص الشهيدَ بِأَنْ قَالَ: ﴿ هي في جَوْفِ طَيرٍ خُضْرٍ ﴾ (4) ، وَمَعْلُومٌ أنها إِذَا كَانَتْ في جَوْفِ طَيرٍ صَدَقَ عَلَيْهَا أَنهَا طَيرٌ، فَتَدْخُلُ في عُمُومِ الْحَدِيثِ الْآخَرِ بِهَذَا الِاعْتِبَارِ، فَنَصِيبُهُمْ مِنَ النعِيمِ في الْبَرْزَخِ أَكْمَلُ مِنْ نَصِيبِ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمْوَاتِ على فُرُشِهِمْ، وَإِنْ كَانَ الْمَيتُ [على فراشه] (5)

---

(1) سورة الْبَقَرَة آية ١٥٤ .

(2) أبو داود الجهاد (٢٥٢٠) ، أحمد (٢٦٦/١) .

(3) النسائي الجنائز (٢٠٧٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٧١) ، أحمد (٤٥٦/٣) ، مالك الجنائز (٥٦٦) .

(4) مسلم الإمارة (١٨٨٧) ، الترمذي تفسير القرآن (٣٠١١) ، ابن ماجه الجهاد (٢٨٠١) ، الدارمي الجهاد (٢٤١٠) .

(5) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . واستدركناه من " الروح " ص ٩٨ . ن .

أَعْلَى دَرَجَة مِنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ، [فله] [١] نَعِيمٌ يَخْتَص به لَا يُشَارِكُه فيه مَنْ هُوَ دُونَه، والله أَعْلَمُ. وَحَرَمَ الله على الْأَرضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنبِيَاءِ، كَمَا رُوِي في السَنَنِ. وَأَما الشهَدَاءُ فَقَدْ شُوهِدَ مِنهم بَعْدَ مُدَدٍ مِنْ دَفْنِه كَمَا هُوَ لَمْ يَتَغير، فَيُحْتَمَلُ بَقَاؤُه كَذَلِكَ في تُرْبَتِه إلى يَوْمِ مَحْشَرِه، وَيُحْتَمَلُ أنه يَبْلَى مَعَ طُولِ الْمُدة، والله أَعْلَمُ. وَكَأَنه - والله أَعْلَمُ - كُلمَا كَانَتِ الشهَادَة أَكْمَلَ، وَالشهِيدُ أَفْضَلَ، كَانَ بَقَاءُ جَسَدِه أَطْوَلَ.

الْإِيمَانُ بِالْمَعَادِ

الْإِيمانُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ

قوله: (وَنُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَة الْكِتَابِ، وَالثوَابِ وَالْعِقَابِ، وَالصرَاطِ وَالْمِيزَانِ).

ش: الْإِيمَانُ بِالْمَعَادِ مما دَل عليه الْكِتَابُ والسنة، وَالْعَقْلُ وَالْفِطْرَة السلِيمَة. فَأَخْبَرَ الله سبحانه عنه في كِتَابِه الْعَزِيزِ، وَأَقَامَ الدلِيلَ عليه، وَرَدَ على الْمُنكِرِين، في غَالِبِ سُوَرِ الْقُرْآنِ.

وَذَلِكَ: أن الْأَنبِيَاءَ كُلهُمْ مُتفِقُونَ على الْإِيمانِ بالله، فَإِن الْإِقْرَارَ بِالرب عَام في بني آدَمَ، وَهُوَ فِطْرِي، كُلهُمْ يُقِر بِالرب، إلا مَنْ عَانَدَ، كَفِرْعَوْنَ، بِخِلَاف الْإيمانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَإِن مُنكِرِيه كَثِيرُونَ، وَمُحَمدٌ ﷺ لما كَانَ خَاتَمَ الْأَنبِيَاءِ، وَكَانَ قَدْ بُعِث هُوَ وَالساعَة كَهَاتَيْنِ. وَكَانَ هُوَ الْحَاشِرُ الْمُقَفِي [٢] - بَينَ تَفْصِيلَ الْآخِرَة بَيَانًا لَا يُوجَدُ في شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْأَنبِيَاءِ. وَلِهَذَا ظَن طَائِفَة مِنَ الْمُتَفَلْسِفَة وَنَحْوِهِمْ أنه لَمْ يُفْصِحْ بِمَعَادِ الْأَبْدَانِ إلا مُحَمدٌ ﷺ وَجَعَلُوا هَذَا حُجة لَهُمْ في أنه مِنْ بَابِ التخْيِيلِ وَالْخِطَابِ الْجُمْهُورِي !.

وَالْقُرْآنُ بَين مَعَادَ النفْسِ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَمَعَادَ الْبَدَنِ عِنْدَ الْقِيَامَة الْكُبْرَى، في غَيْرِ مَوْضِعٍ. وَهَؤُلَاءِ يُنكِرُونَ الْقِيَامَة الْكُبْرَى، وَيُنكِرُونَ مَعَادَ الْأَبْدَانِ، وَيَقُولُ مَنْ يَقُول مِنهُمْ: أنه لَمْ يُخْبِرْ به إلا مُحَمدٌ ﷺ على طَرِيقِ التخْيِيلِ ! ! وَهَذَا كَذِبٌ، فَإِن الْقِيَامَة الْكُبْرَى هي

---

(١) في الأصل : (فلهم) . والتصويب من الروح ص ٩٨ . ن .

(٢) في المطبوعة " المفضي " ! وليس لها معنى في أسمائه . وأقرب رسم إليها من أسمائه المقفي ، بضم الميم وفتح القاف وتشديد الفاء المكسورة - يعني أنه قفى النبيين ، فجاء بعدهم ، وكان خاتمهم .

مَعْرُوفَة عِنْدَ الْأَنبِيَاءِ، مِنْ آدَمَ إلى نُوحٍ، إلى إِبْرَاهِيمَ وموسى وَعِيسَى وَغَيْرِهِمْ [عَلَيْهِمُ السَّلَامُ] (1).

[وَقَدْ أَخْبَرَ الله بِهَا] (2) مِنْ حِينِ أُهْبِطَ آدَمُ، فَقَالَ تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ (3) وَلَما قَالَ إِبْلِيسُ اللعِينُ: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (4) قَالَ: ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾ (5).

وَأَما نُوحٌ عليه السلَامُ فَقَالَ: ﴿ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ ﴾ (6).

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلَامُ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (7). إلى آخِرِ الْقِصة. وَقَالَ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ (8). وَقَالَ: ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ (9) الآية.

وَأَما موسى عليه السلَامُ، فَقَالَ الله تعالى لَما نَاجَاه: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ

---

(1) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من سائر النسخ . ن .
(2) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من سائر النسخ . ن .
(3) سورة الْأَعْرَافِ الآيتان ٢٤ ، ٢٥ .
(4) سورة ص آية ٧٩ .
(5) سورة ص الآيتان ٨٠ ، ٨١ .
(6) سورة نُوحٍ الآيتان ١٧ - ١٨ .
(7) سورة الشعَرَاءِ آية ٨٢ .
(8) سورة إِبْرَاهِيمَ آية ٤١ .
(9) سورة الْبقَرَة آية ٢٦٠ .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ (١).

بَلْ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ كَانَ يَعْلَمُ الْمَعَادَ، وَإِنَّمَا آمَنَ بِمُوسَى، قَالَ تعالى حِكَايَةً عنه: ﴿ وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ (٢) إلى قوله: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٣) إلى قوله: ﴿ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (٤). وَقَالَ موسى: ﴿ ۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَۚ ﴾ (٥).

وَقَدْ أَخْبَرَ الله في قِصة الْبَقَرة: ﴿ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (٦).

وَقَدْ أَخْبَرَ الله أنه أَرْسَلَ الرسُلَ مُبشرين وَمُنْذِرِينَ، في آياتٍ [مِنَ] الْقُرْآنِ، وَأَخْبَرَ عَنْ أَهْلِ النارِ أَنهُمْ إِذَا قَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ ﴾ (٧) وَهَذَا اعْتِرَافٌ مِنْ أَصْنَافِ الْكُفارِ الداخِلِينَ جَهَنمَ أَن الرسُلَ أَنْذَرَتْهُمْ لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا. فَجَمِيعُ الرسُلِ أَنْذَرُوا بِمَا أَنْذَرَ به خَاتَمُهُمْ مِنْ عُقُوبَاتِ الْمُذْنِبِينَ في الدنْيا وَالْآخِرَة. فَعَامة

---

(١) سورة طه الآيتان ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة غَافِر الآيتان ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) سورة غَافِر آية ٣٩ .

(٤) سورة غافر آية : ٤٦ .

(٥) سورة الْأَعْرَاف آية ١٥٦ .

(٦) سورة الْبقَرَة آية ٧٣ .

(٧) سورة الزمر آية : ٧١ .

سُوَرِ الْقُرْآنِ التي فِيهَا ذِكْرُ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، يُذْكُرُ ذَلِكَ فِيهَا: في الدنْيا وَالْآخِرَة.

وَأَمَرَ نَبِيه أَنْ يُقْسِمَ به على الْمَعَادِ، فَقَالَ: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ ﴾ (1) الآيات. وَقَالَ تعالى: ﴿ ۞ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (2). وَقَالَ تعالى: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ ﴾ (3).

وَأَخْبَرَ عَنِ اقْتِرَابِهَا، فَقَالَ: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ (4). ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ (5). ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (6) إلى أَنْ قَالَ: ﴿ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ ﴾ (7).

وَذَمَ الْمُكَذِبِينَ بِالْمَعَادِ، فَقَالَ: ﴿ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ (8). ﴿ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾ (9). ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ

---

(1) سورة سَبِأٍ آية ٣ .

(2) سورة يُونُسَ آية ٥٣ .

(3) سورة التَغَابُنِ آية ٧ .

(4) سورة الْقَمَرِ آية ١ .

(5) سورة الْأَنبِيَاءِ آية ١ .

(6) سورة الْمَعَارِجِ الآيتان ١ ، ٢ .

(7) سورة الْمَعَارِجِ الآيتان ٦ ، ٧ .

(8) سورة الأنعام آية ٣١ .

(9) سورة الشورَى آية ١٨ .

مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾[1]. ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾[2] إلى أنْ قال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾[3]. ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾[4]. ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ ﴾[5]. ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ ﴾[6].

فَتأملْ مَا أُجِيبوا به عَنْ كُل سُؤَالٍ على التفْصِيل: فَإِنهُمْ قَالُوا أولًا: ﴿ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[7] ؟ ! فَقِيلَ لَهُمْ في جَوَابِ هَذَا السؤَالِ: إِنْ

---

(١) سورة النمْل آية ٦٦ .

(٢) سورة النحْل آية ٣٨ .

(٣) سورة النحْل آية ٣٩ .

(٤) سورة غَافِر آية ٥٩ .

(٥) الْإِسْرَاء ٩٧ - ٩٩ .

(٦) الْإِسْرَاء ٤٩ - ٥٢ .

(٧) سورة الإسراء آية : ٤٩ .

كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ أنه لَا خَالِقَ لَكُمْ وَلَا رب لَكُمْ، فَهَلا كُنْتُمْ خَلْقًا لَا يُفْنِيه الْمَوْتُ، كَالْحِجَارَة وَالْحَدِيدِ وَمَا هُوَ أَكْبَرُ في صُدُورِكُمْ مِنْ ذَلِكَ ؟ ! فَإِنْ قُلْتُمْ: كُنا خَلْقًا على هذه الصفة التي لَا تَقْبَلُ الْبقَاءَ - فَمَا الذي يَحُولُ بين خَالِقِكُمْ وَمُنْشِئِكُمْ وَبَيْنَ إِعَادَتِكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا؟!

وَلِلْحُجة تَقْدِيرٌ آخَرُ، وَهُوَ: لَوْ كُنْتُمْ مِنْ حِجَارَة أَوْ حَدِيدٍ أَوْ خَلْقٍ أَكْبَر مِنْهُمَا، [فإنه] قَادِرٌ على أَنْ يُفْنِيَكُمْ وَيُحِيلَ ذَوَاتَكُمْ، وَيَنْقُلَهَا مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ، وَمَنْ يَقْدِرُ على التصَرف في هذه الْأَجْسَامِ، مَعَ شِدتِهَا وَصَلَابَتِهَا، بِالْإِفْنَاءِ وَالْإِحَالَة - فَمَا الذي يُعْجِزُه فِيمَا دُونَهَا ؟ ثُم أَخْبَرَ أنهُمْ يَسْأَلُونَ [سُؤَالًا آخَرَ] (١) بِقَوْلِهِمْ: ﴿ مَن يُعِيدُنَا ﴾ (٢) إِذَا اسْتَحَالَتْ جُسُومُنَا وَفَنِيَتْ ؟ فَأَجَابَهُمْ بقوله: ﴿ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ (٣). فَلَما أَخَذَتْهُمُ الْحُجة، وَلَزِمَهُمْ حُكْمُهَا، انْتَقَلُوا إلى سُؤَالٍ آخَرَ يَتَعَللُونَ به بِعِلَلِ الْمُنْقَطِعِ، وَهُوَ قَوْلُهُمْ: متى هُوَ ؟ فَأُجِيبُوا بقوله: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ ﴾ (٤).

وَمِنْ هَذَا قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ ﴾ (٥) إلى آخِرِ السورة. فَلَوْ رَامَ أَعْلَمُ الْبَشَرِ وَأَفْصَحُهُمْ وَأَقْدَرُهُمْ على الْبَيَانِ، أَنْ يأتي بِأَحْسَنَ مِنْ هذه الْحُجة، أَوْ بِمِثْلِهَا، بِأَلْفَاظٍ تُشَابِه هذه الْأَلْفَاظ في الْإِيجَازِ وَوَضَحِ الْأَدِلة (٦) وَصِحة الْبُرْهَانِ - لَمَا قَدَرَ. فإنه سبحانه افْتَتَحَ هذه الْحُجة بِسُؤَالٍ أَوْرَدَه

---

(١) في الأصل : (آخرا) فقط . والصواب ما أثبتناه ، كما في إحدى النسخ ، وكما في مختصر الصواعق المرسلة ١ / ١٠٣ . ن .

(٢) سورة الإسراء آية : ٥١ .

(٣) سورة الإسراء آية : ٥١ .

(٤) سورة الإسراء آية : ٥١ .

(٥) يس ٧٨ .

(٦) الوضح ، بفتحتين : الضوء والبياض . يريد نصوع الأدلة وانتشار ضوئها كضوء النهار . وفي المطبوعة " ووضع الأدلة " . وهو - فيما أرى - تحريف .

مُلْحِدٌ، اقْتَضَى جَوَابًا، فَكَانَ في قوله: ﴿ وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ﴾ [1] [مَا وَفَى] [2] بِالْجَوَابِ، وَأَقَامَ الْحُجة وَأَزَالَ الشبْهَة، [لولا ما] [3] أَرَادَ سبحانه [مِنْ] [4] تَأْكِيدِ الْحُجة وَزِيَادَة تَقْرِيرِهَا - فَقَالَ: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [5] فَاحْتَج بِالْإِبْدَاءِ على الْإِعَادَة، [وَبالنشْأَة الأولى] [6] على النشْأَة الأخرى. إِذْ كل عَاقِلٍ يَعْلَمُ [علما] [7] ضَرُوريا أن مَنْ قَدَرَ على هذه [قَدَرَ على هذه] [8] وأنه لَوْ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الثانِيَة لَكَانَ عَنِ الأولى أَعْجَزَ وَأَعْجَزَ. وَلما كَانَ الْخَلْقُ يَسْتَلْزِمُ قُدْرَة الْخَالِقِ على الْمَخْلُوق، وَعِلْمَه بِتَفَاصِيل خَلْقِه - أَتبَعَ ذَلِكَ بقوله: ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [9]. فَهُوَ عَلِيمٌ بِتَفَاصِيلِ الْخَلْقِ الْأَول وَجُزْئِيَاته، وَمَوَاده وَصُورَته، فَكَذَلِكَ الثاني. فَإِذَا كَانَ تَام الْعِلْمِ، كَامِلَ الْقُدْرَة، كَيْف يَتَعَذرُ عليه أَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وهي رَمِيمٌ ؟.

ثُم أَكدَ الْأَمْرَ بِحُجة قَاهِرَة، وَبُرْهَانٍ ظَاهِرٍ، يَتَضَمنُ جَوَابًا عَنْ سُؤَالِ مُلْحِدٍ آخَرَ يَقُولُ: الْعِظَامُ إِذَا صَارَتْ رَمِيمًا عَادَتْ طَبِيعَتُهَا بَارِدَة يَابِسَة، وَالْحَيَاة لَا بُد أَنْ تَكُونَ مَادتُهَا وَحَامِلُهَا طَبِيعَتُه حَارة رَطْبَة - بِمَا يَدُل على أَمرِ الْبَعْثِ، ففيه الدلِيلُ وَالْجَوَابُ، فَقَالَ: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [10]. فَأَخْبَرَ

---

(1) سورة يس آية : ٧٨ .

(2) في الأصل : (ما يفي) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(3) في الأصل : (لما) . والتصويب من مختصر الصواعق المرسلة ١ / ١٠٠ . ن .

(4) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من مختصر الصواعق المرسلة ١ / ١٠٠ . ن .

(5) سورة يس آية : ٧٩ .

(6) في الأصل : (وبالإنشاء الأول) . ولعل الصواب ، ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(7) سقطت من الأصل . والصواب إثباتا . ن .

(8) الزيادة ضرورية ، يقتضيها نسق الكلام وتمامه .

(9) سورة يس آية : ٧٩ .

(10) سورة يس آية : ٨٠ .

سبحانه بإخْرَاجِ هَذَا الْعُنْصُرِ، الذي هُوَ في غَايَة الْحَرَارَة وَالْيُبوسَة، مِنَ الشجَرِ الأَخْضَرِ الْمُمْتَلِئِ بالرطُوبَة وَالْبُرُودَة، فالذي يُخْرِجُ الشيْءَ مِنْ ضِده، وَتَنْقَادُ له مَوَاد الْمَخْلُوقَاتِ وَعَنَاصِرُهَا وَلَا تَسْتَعْصِي عليه - هُوَ الذي يَفْعَلُ مَا أَنْكَرَه الْمُلْحِدُ وَدَفَعَه، مِنْ إِحْيَاءِ الْعِظَامِ وهي رَمِيمٌ.

ثُم أكدَ هَذَا بِأَخْذِ الدلالَة مِنَ الشيْءِ الأَجَل الأَعْظَمِ، على الأَيسَرِ الأَصْغَرِ، فَإِن كُل عَاقِلٍ يَعْلَمُ أن مَنْ قَدَرَ على الْعَظِيمِ الْجَلِيلِ فَهُوَ على مَا دُونه بِكَثِيرٍ أَقْدَرُ وَأَقْدَرُ، فَمَنْ قَدَرَ على حَمْلِ قِنْطَارٍ كان [1] على حَمْلِ أُوقِية أَشَد اقْتِدَارًا، فَقَالَ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [2] ؟ فَأَخْبَرَ أن الذي أَبْدَعَ السمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، على [جَلَالَتِهمَا] [3] وَعِظَمِ شَأْنِهمَا، وَكِبَرِ أَجْسَامِهِمَا، وَسَعَتِهِمَا، وَعَجِيبِ خَلْقِهِمَا - أَقْدَرُ على أَنْ يُحْيِيَ عِظَامًا قَدْ صَارَتْ رَمِيمًا، فَيَردهَا إلى حَالَتِهَا الأولى. كمَا قَالَ في مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [4] وَقَالَ: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ ﴾ [5]. ثُم أكدَ سبحانه ذَلِكَ وَبَينه بِبَيَانٍ آخَرَ، وَهُوَ أنه لَيسَ فِعْلُه بِمَنْزِلَة غيره، الذي يَفْعَلُ بِالْآلَاتِ وَالْكُلْفَة، وَالنصبِ وَالْمَشَقة، وَلَا يُمْكِنُه الِاسْتِقْلَالُ بِالْفِعْلِ، بَلْ لَا بُد معه مِنْ آلَة وَمُعِينٍ، بَلْ يَكْفِي في خَلْقِه لِمَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَه وَيكَونه نَفْسُ إِرَادَتِه، وقوله لِلْمُكَون: " كُنْ "، فَإِذَا هُوَ كَائِنٌ كمَا شَاءَه وَأَرَادَه.

ثُم خَتَمَ هذه الْحُجة بِإِخْبَارِه أن مَلَكُوتَ كُل شَيْءٍ بِيَدِه، فَيَتَصَرفُ فيه بِفِعْلِه وقوله،

---

(١) في المطبوعة " قدر " بدل " كان " . ولا تستقيم با العبارة .

(٢) سورة يس آية : ٨١ .

(٣) في الأصل : (حالتهما) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٤) سورة غافر آية : ٥٧ .

(٥) سورة يس آية : ٨١ .

﴿ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾[1].

وَمِنْ هَذَا قوله سبحانه: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾[2]. فَاحْتَج سبحانه على أنه لَا يَتْرُكُه مُهْمَلًا عَنِ الْأَمرِ وَالنهْي، وَالثوَابِ وَالْعِقَابِ، وَأن حِكْمَتَه وَقُدْرَتَه تَأبى ذَلكَ أشَد الْإِبَاءِ، كَمَا قَالَ تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[3] إلى آخِرِ السورة. فَإِن مَنْ نَقَلَه مِنَ النطْفَة إلى الْعَلَقَة، ثم إلى الْمُضْغَة، ثُم شَق سَمْعَه وَبَصَرَه، وَرَكبَ فيه الْحَواس وَالْقُوَى، وَالْعِظَامَ وَالْمَنَافِعَ، وَالْأَعْصَابَ وَالرباطَاتِ التي هي أَشَده، وَأَحْكَمَ خَلْقَه غَايَةَ الْإِحْكَامِ، وَأَخْرَجَه على هَذَا الشكْلِ وَالصورَة، التي هي أَتم الصوَرِ وَأَحْسَنُ الْأَشْكَالِ - كَيْفَ يَعْجِزُ عَنْ إِعَادَتِه وَإِنْشَائِه مرة ثَانِيَة ؟ أَم كَيْفَ تَقْتَضِي حِكْمَتُه وَعِنَايَتُه أَنْ يَتْرُكَه سُدًى ؟ فَلَا يَلِيقُ ذَلكَ بِحِكْمَتِه، وَلَا تَعْجِزُ عنه قُدْرَتُه.

فَانْظُرْ إلى هَذَا الِاحْتِجَاجِ الْعَجِيبِ، بِالْقَوْلِ الْوَجِيزِ، الذي لَا يَكُونُ أَوْجَزَ منه، وَالْبَيانِ الْجَلِيلِ، الذي لَا يَتَوهمُ أَوْضَحُ منه، وَمَأْخَذِه الْقَرِيبِ، الذي لَا تَقَعُ الظنونُ على أَقْرَبَ منه.

وَكَمْ في الْقُرْآنِ مِنْ مِثْلِ هَذَا الِاحْتِجَاجِ، كَمَا في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾[4] إلى أَنْ قَالَ: ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾[5]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن

---

(١) سورة يس آية : ٨٣ .

(٢) الْقِيَامَة ٣٦ - ٤٠ .

(٣) سورة المؤمنون آية : ١١٥ .

(٤) سورة الحج آية : ٥ .

(٥) سورة الحج آية : ٧ .

طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [(١)] إلى أنْ قَالَ: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [(٢)]. وَذكَرَ قِصة أصْحَابِ الْكَهْفِ، وَكَيْفَ أبقَاهُمْ مَوْتى ثَلَاثِمِائَة سنة شَمْسِية، [وهي] [(٣)] ثَلَاثُمِائَة وَتسْعُ سِنِينَ قَمَرِية، وَقَال فِيهَا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ ﴾ [(٤)].

وَالْقَائِلُونَ بِأن الْأجْسَامَ مُركبَة مِنَ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَة - لَهُمْ في الْمَعَادِ خَبْطٌ وَاضْطِرَابٌ. وَهُمْ فيه على قَوْلَيْنِ: مِنْهم مَنْ يَقولُ: تُعْدَمُ الْجَوَاهِرُ ثم تُعَادُ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: تُفرقُ الْأجْزَاءُ ثم تُجْمَعُ. فَأورِدَ عَلَيْهِمُ الْإنْسَانُ الذي يَأكُلُه حَيَوَانٌ، وَذَلِكَ [الْحَيَوَانُ] [(٥)] أكَلَه إنْسَانٌ، فَإنْ أُعِيدَتْ تِلْكَ الْأجْزَاءُ مِنْ هَذَا، لَمْ تُعَدْ مِنْ هَذَا ؟ وَأُورِدَ عَلَيْهِمْ: أن الْإنسَانَ يَتحَللُ دَائِمًا، فَمَاذَا الذي يُعَادُ ؟ أهُوَ الذي كَانَ وَقْتَ الْمَوْتِ ؟ فَإنْ قِيلَ بِذَلِك، لَزِمَ أنْ يُعَادَ على صُورَة ضَعِيفَة، وَهُوَ خِلَافُ مَا جَاءَتْ به النصُوصُ، وَإنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَيْسَ بَعْضُ الْأبدَانِ بِأولى مِنْ بَعْضٍ ! فَادعَى بَعْضُهُمْ أن في الْإنسَانِ أجْزَاءً أصْلِية لَا تَتحَللُ، وَلَا يَكُونُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ الذي أكَلَه الثاني ! وَالْعُقَلَاءُ يَعْلَمُونَ أن بَدَنَ الْإنسَانِ نَفْسَه كله يَتحَللُ، لَيْسَ فيه شَيْءٌ بَاقٍ، فَصَارَ مَا ذَكَرُوه في الْمَعَادِ مِما قَوى شُبْهَة الْمُتَفَلْسِفَة في إنْكَارِ مَعَادِ الْأبْدَانِ.

وَالْقَوْلُ الذي عليه السلَفُ وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ: أن الْأجْسَامَ تَنْقَلِبُ مِنْ حَالٍ إلى حَالٍ، فَتسْتَحِيلُ تُرَابًا، ثُم يُنْشِئُهَا [(٦)] الله نَشْأة أخرى، كَمَا اسْتَحَالَ في النشْأة الأولى: فإنه كَانَ

---

(١) سورة المؤمنون آية : ١٢ .

(٢) سورة المؤمنون آية : ١٦ .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٤) سورة الكهف آية : ٢١ .

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٦) في المطبوعة " ثم أنشأها " . والفعل الماضي هنا غير مناسب للسياق . والمضارع أجود وأدق .

نُطْفَة، ثُم صَارَ عَلَقَة، [ثُم صَارَ مُضْغَة] [(١)] ثُم صَارَ عِظَامًا وَلَحْمًا، ثُم أَنْشَأَه خَلْقًا سَويا. كَذَلِكَ الْإِعَادَة: يُعِيدُه الله بَعْدَ أَنْ يَبْلَى كله إِلا عَجْبَ الذَنبِ، كَمَا ثَبتَ في الصحِيحِ عَن النبي ﷺ أنه قَالَ: ﴿كُل ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلا عَجْبَ الذَنبِ، منه خُلِقَ ابْنُ آدَمَ، ومنه يُركبُ﴾ [(٢)] [(٣)]. وفي حَدِيثٍ آخَرَ: ﴿إِن السماء تُمْطِرُ مطَرًا كَمَنِي الرجَالِ، يَنْبُتون في الْقُبورِ كمَا يَنْبتُ النَباتُ﴾ . فَالنشْأَتَانِ نَوْعَانِ تَحْتَ جِنْسٍ، يَتفقَانِ وَيَتمَاثَلَانِ مِنْ وَجْه، وَيفْتَرِقَانِ وَيَتَنوعَانِ مِنْ وَجْه. وَالْمُعَادُ هُوَ الْأَولُ بِعَيْنِه، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ لَوَازِمِ الْإِعَادَة وَلَوَازِمِ الْبَدَاءَة فَرْقٌ، فَعَجْبُ الذَنبِ هُوَ الذي يَبْقَى، وَأَما سَائِرُه فَيَسْتَحِيلُ، فَيُعَادُ مِنَ الْمَادة التي اسْتَحَالَ إِلَيْهَا. وَمَعْلُومٌ أَن مَنْ رأى شَخْصًا وَهُوَ صَغِيرٌ، ثُم رَآه وَقَدْ صَارَ شَيْخًا، عَلِمَ أَن هَذَا هُوَ ذَاكَ، مَعَ أنه دَائِمًا في تَحَللٍ وَاسْتِحَالَة. وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْحَيَوَانِ وَالنبَاتُ، فَمَنْ رأى شَجَرَة وهي صَغِيرَة، ثُم رَآهَا كَبِيرَة، قَالَ: هذه تِلْكَ. وَلَيْسَتْ صِفَة تِلْكَ النشْأَة الثانِيَة مُمَاثِلَة لِصِفَة هذه النشْأَة، حتى يُقَالَ إِن الصفَاتِ هي الْمُغَيرَة، لَا سِيمَا أَهْلُ الْجَنة إِذَا دَخَلُوهَا فَإِنهُمْ يَدْخُلُونَهَا على صُورَة آدَمَ، طُولُه سِتونَ ذِرَاعًا، كَمَا ثَبتَ في الصحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا، وَرُوِيَ: أَن عَرْضَه سَبْعَة أَذْرُعٍ. وَتِلْكَ نَشْأَة بَاقِيَة غَيْرُ مُعَرضَة لِلْآفَاتِ، وهذه النشْأَة فَانِيَة مُعَرضَة لِلْآفَاتِ.

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٢) البخاري تفسير القرآن (٤٦٥١) ، مسلم الفتن وأشراط الساعة (٢٩٥٥) ، النسائي الجنائز (٢٠٧٧) ، أبو داود السنة (٤٧٤٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٦٦) ، أحمد (٢/٤٢٨) ، مالك الجنائز (٥٦٥) .

(٣) ليس هذا اللفظ في الصحيحين تماما . ومعناه ثابت في البخاري ٨ : ٤٢٤ ، ٥٢٩ ومسلم ٢ : ٣٨٣ ، من حديث أبي هريرة . وأقرب لفظ إلى ذكره الشارح ، إحدى روايات مسلم : " كل ابن آدم يأكله التراب ، إلا عجب الذنب ، منه خلق ، وفيه يركب " . و " العجب " ، بفتح المهملة وسكون الجيم بعدها موحدة : عظم لطيف في أصل الصلب ، وهو رأس العصعص ، وهو مكان رأس الذنب من ذوات الأربع . قاله الحافظ في الفتح .

وقوله: " وَجَزَاءِ الْأَعْمَالِ " - قَالَ تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤ ﴾ [1]. ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ۝٢٥ ﴾ [2]. وَالدينُ: الْجَزَاءُ، يُقَالُ: كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، أي كما تُجَازِي تُجَازَى، وَقَالَ تعالى: ﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٧ ﴾ [3]. ﴿ جَزَآءٗ وِفَاقًا ۝٢٦ ﴾ [4]. ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٦٠ ﴾ [5]. ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٩٠ ﴾ [6]. ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٨٤ ﴾ [7]. وَأَمْثَالُ ذَلِكَ.

وَقَالَ ﷺ فِيمَا يروي عَنْ ربه ﷻ مِنْ حَدِيثِ أبي ذر الْغِفَارِي رضي الله عنه: «يا عِبَادِي، إنمَا هي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثم أُوفيكُمْ إياهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله، وَمَنْ وَجد غَيرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَن إلا نَفْسَه» [8]. وَسَيأْتِي لِذَلِكَ زِيَادَة بَيَانٍ عَنْ قَرِيبٍ، إنْ شَاءَ الله تعالى.

الْإِيمَانُ بِالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ

وقوله: " وَالْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَقِرَاءَة الْكِتَابِ، وَالثوابِ وَالْعِقَابِ " - قَالَ تعالى:

---

(١) سورة الفاتحة آية : ٤ .

(٢) سورة النور آية : ٢٥ .

(٣) سورة السجدة آية : ١٧ .

(٤) سورة النبأ آية : ٢٦ .

(٥) سورة الأنعام آية : ١٦٠ .

(٦) النمْل ٨٩ - ٩٠ .

(٧) الْقَصَص ٨٤ .

(٨) مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) .

﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ۝ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ۝ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝ ﴾ (1) إلى آخر السورة. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝ ﴾ (2). ﴿ وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ﴾ (3). ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝ ﴾ (4). ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝ ﴾ (5) إلى آخر السورة.

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (6) إلى قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝ ﴾ (7). ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ ﴾ (8).

---

(1) الحاقة ١٥ - ١٨ .
(2) الانشقاق ٦ - ١٥ .
(3) الكهف ٤٨ .
(4) الكهف ٤٩ .
(5) إبراهيم ٤٨ .
(6) غافر ١٥ .
(7) غافر ١٧ .
(8) البقرة ٢٨١ .

وروى البخاري رحمه الله في صَحِيحِه، عَنْ عَائِشَة، أن النبي ﷺ قَالَ: ﴿ لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ يَوْمَ الْقِيَامَة إلا هَلَكَ ﴾ [1] "، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، أَلَيْسَ قَدْ قَالَ الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ ﴾ [2] ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ إنمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَيسَ أَحَدٌ يُنَاقَشُ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَة إلا عُذبَ ﴾ [3]. يعني أنه لَوْ نَاقَشَ في حِسَابِه لِعَبِيدِه لَعَذَبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَكِنه تعالى يَعْفُو وَيَصْفَحُ. وَسَيَأْتي لِذَلِكَ زِيَادَة بَيَانٍ، إنْ شَاءَ الله تعالى.

وفي الصحِيحِ عَنِ النبي ﷺ أنه قَالَ: ﴿ إن الناسَ يُصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَأَكُونُ أَولَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا موسى آخِذٌ بِقَائِمَة الْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي، أَمْ جُوزِيَ بِصَعْقَة يَوْمِ الطورِ ﴾ [4] ؟". وَهَذَا صَعْقٌ في مَوْقِفِ الْقِيَامَة، إذَا جَاءَ الله لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنورِه، فَحِينَئِذٍ يَصْعَقُ الْخَلَائِقُ كُلهُمْ.

فَإنْ قِيلَ: كَيْفَ تَصْنَعُونَ بقوله في الْحَدِيثِ: ﴿ إن الناسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة، فَأَكُونُ أَولَ مَنْ تَنْشَق عنه الْأَرْضُ، فَأَجِدُ موسى بَاطِشًا بِقَائِمَة الْعَرْشِ ﴾ [5] ؟ قِيلَ: لَا رَيْبَ أن هَذَا اللفْظَ قَدْ وَرَدَ هَكَذَا، ومنه نَشَأَ الْإشْكَالُ. وَلَكِنه دَخَلَ فيه على الراوي حَدِيثٌ في حَدِيثٍ، فَرَكبَ بَيْنَ اللفْظَيْنِ، فَجَاءَ هَذَانِ الْحَدِيثَانِ هَكَذَا: أَحَدُهُمَا: ﴿ أن الناسَ يَصْعَقُونَ

---

(١) البخاري الرقاق (٦١٧٢) ، مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٦) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٢٦) ، أبو داود الجنائز (٣٠٩٣) ، أحمد (١٨٥/٦) .

(٢) الِانْشِقَاق ٧ - ٨ .

(٣) البخاري الرقاق (٦١٧٢) ، مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٧٦) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٢٦) ، أبو داود الجنائز (٣٠٩٣) ، أحمد (١٨٥/٦) .

(٤) البخاري الديات (٦٥١٩) ، أحمد (٤١/٣) .

(٥) البخاري الخصومات (٢٢٨١) ، أحمد (٤١/٣) .

يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَكُونُ أول مَنْ يُفِيقُ ﴾ [(١)] ، كَمَا تَقدمَ، والثاني: ﴿ أَنَا أَولُ مَنْ تَنْشَقّ عنه الْأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [(٢)] ، فَدَخَلَ على الراوي هَذَا الْحَدِيثُ في الْآخَرِ. وَمِمنْ نَبه على هَذَا أَبو الْحَجاجِ الْمِزي، وبعده الشَّيْخُ شَمْسُ الدينِ ابْنُ الْقَيمِ، وَشَيْخُنَا الشَّيْخُ عِمَادُ الدينِ ابْنُ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ الله.

وَكَذَلِكَ اشْتَبه على بَعْضِ الروَاة، فَقَالَ: " فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلي أَمْ كَانَ مِمنِ اسْتَثْنَى الله ﷻ " ؟ وَالْمَحْفُوظُ الذي تَوَاطَأَتْ عليه الروَايَاتُ الصحِيحَة هُوَ الْأَولُ، وعليه المعنى الصحِيحُ، فَإِن الصعْقَ يَوْمَ الْقِيَامَة لِتَجَلي الله لِعِبَادِه إِذَا جَاءَ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ، فَمُوسَى عليه السلَامُ إِنْ كَانَ لَمْ يَصْعَقْ مَعَهُمْ، فَيَكُونُ قَدْ جُوزِيَ بِصَعْقَة يَوْمَ تَجَلى رَبه لِلْجَبَلِ فَجَعَلَه دَكًّا، فَجُعِلَتْ صَعْقَة هَذَا التجَلي عِوَضًا عَنْ صَعْقَة الْخَلَائِقِ لِتَجَلي ربه يَوْمَ الْقِيَامَة. فَتَأَملْ هَذَا المعنى الْعَظِيمَ وَلَا تُهْمِلْه.

وروى الْإِمَامُ أَحْمَدُ، والترمذي، وَأَبو بَكْرِ بْنِ أبي الدنْيَا، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا موسى الْأَشْعَرِي يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ﴿ يُعْرَضُ الناسُ يَوْمَ الْقِيَامَة ثَلَاث عَرَضَاتٍ، فَعَرْضَتَانِ جِدَالٌ وَمَعَاذِيرُ، وَعَرْضَة تَطَايُرِ الصحُفِ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَه بِيَمِينِه، وَحُوسِبَ حِسَابًا يَسِيرًا، دَخَلَ الْجَنة، وَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَه بِشِمَالِه، دَخَلَ النارَ ﴾ [(٣)] [(٤)].

---

(١) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢١٧) ، أحمد (٤١/٣) .

(٢) أحمد (٥/١) .

(٣) الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٢٥) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٧٧) ، أحمد (٤١٤/٤) .

(٤) وهم الشارح رحمه الله في نسبة هذا الحديث للترمذي ، من حديث أبي موسى . فإن الترمذي رواه بنحوه معناه ٣ : ٢٩٤ ، من طريق الحسن البصري عن أبي هريرة ، وأشار إلى حديث أبي موسى ، فقال : " ولا يصح هذا الحديث ، من قبل أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة . وقد رواه بعضهم عن علي بن علي ، وهو الرفاعي ، عن الحسن ، عن أبي موسى ، عن النبي " . وأما حديث أبي موسى فقد رواه الإمام أحمد في المسند ٤ : ٤١٤ (طبعة الحلبي) ، عن وكيع عن علي بن علي ، عن الحسن ، عن أبي موسى . وكذلك رواه ابن ماجه : ٤٢٧٧ ، من طريق وكيع ، بنحوه . بل إن رواية الترمذي إياه - من حديث أبي هريرة - هي من رواية وكيع عن علي بن علي أيضا . فالإسنادان ثابتان إذن عن وكيع . والحديث - عندنا - صحيح من الوجهين . فإن

وَقَدْ روى ٱبْنُ أبي الدنْيا عَنِ ٱبْنِ الْمُبَارَكِ: أنه أنْشَدَ في ذَلكَ شِعْرًا:

وَطَارَتِ الصحُفُ في الْأيدِي مُنَشرَة ... فِـيهَا الســرَائِرُ وَالْأخْـبَارُ تُطلَعُ
فَكَـيْفَ سَـهْوُكَ وَالْأنـبَاءُ وَاقِعَـة ... عَمـا قَلِـيلٍ، وَلَـا تَـدْرِي بِمَـا تَقَعُ
أفِـي الْجِـنَانِ وَفَـوْزٍ لَـا انْقِطَاعَ له ... أمِ الْجَحِـيمِ فَلَـا تُـبْقِي وَلَـا تَـدَعُ
تَهْـوِي بِسَـاكِنِهَا طَـوْرًا وَتَـرْفَعُهُمْ ... إذَا رَجَـوْا مَخْـرَجًا مِـنْ غَمهَا قُمِعُوا
طَـالَ الْـبُكَاءُ فَلَـمْ يُرْحَمْ تَضَرعُهُمْ ... فِـيهَا، وَلَـا رِقْـية تُغْـنِي وَلَا جَزَعُ
لِيَـنْفَعِ الْعِلْـمُ قَـبْلَ الْمَـوْتِ عَالِمَه ... قَـدْ سَـالَ قَوْمٌ بِهَا الرجْعَى فَمَا رَجَعُوا

وقوله " وَالصرَاطُ " - أي وَنُؤْمِنُ بِالصرَاطِ، وَهُوَ جِسْرٌ على جَهَنمَ، إذَا انتهى الناسُ بَعْدَ مُفَارَقَتِهِمْ مَكانَ الْمَوْقِفِ إلى الظلْمَة التي دُونَ الصرَاطِ، كَمَا قَالَتْ عَائِشَة رضي الله عَنْهَا: ﴿إن رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ: أيْنَ الناسُ يَوْمَ تُبدلُ الْأرْضُ غَيْرَ الْأرْضِ وَالسمَاوَاتُ؟ فَقَالَ: " هُمْ في الظلْمَة دُونَ الْجِسْرِ﴾ [(١)]. وفي هَذَا الْمَوْضِعِ يَفْتَرِقُ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَتَخَلفُونَ عَنْهُمْ، وَيَسْبِقُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، وَيُحَالُ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْوُصُولِ إلَيْهِمْ.

وروى البيهقي بِسَنَدِه، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: "يَجْمَعُ الله الناسَ يَوْمَ الْقِيَامَة"، إلى أنْ قَالَ: " فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ على قَدْرِ أعْمَالِهِمْ "، قَالَ: " فَمِنْهُمْ مَنْ يُعطى نُورَه مِثْلَ الْجَبَلِ بيْنَ يَدَيْه، وَمِنهُمْ مَنْ يُعطى نُورَه فَوْقَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ من يعطى نوره مثل

سماع الحسن من أبي هريرة صحيح ثابت ، كما بينت ذلك مفصلا في شرح الحديث : ٧١٣٨ من المسند . وقد أعل البوصيري في زوائد ابن ماجه - حديث أبي موسى أيضا ، بأن الحسن لم يسمع من أبي موسى . وفي ذلك خلاف ، ولكنه عاصره يقينا ، فإن الحسن ولد سنة ٢١ ، وأبو موسى مات سنة ٥٢ على القول الراجح . وأما هذه الرواية - التي ذكرها الشارح - وفيها قول الحسن : " سمعت أبا موسى الأشعري " - فإن إسنادها ليس بين يدي ، ولعلها رواية ابن أبي الدنيا . فلو كان إسنادها صحيحا كصحة إسنادي أحمد وابن ماجه ، لكانت قاطعة في سماع الحسن من أبي موسى .

(١) مسلم الحيض (٣١٥) .

النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام "، قال: " فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف، دحض، مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشد الرجل، يرمل رملا [1] فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبام قدمه، تخر يد، وتعلق يد، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار " قال: " فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحد "، الحديث.

مَعْنى الْوُرُودِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى " وَإِنْ مِنْكُمْ إِلا وَارِدُهَا "

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [2] - ما هو ؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [3]. وفي الصحيح أنه ﷺ قال: ﴿ والذي نفسي بيده، لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة "، قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [4] ؟ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ [5] ﴾ [1]. أشار ﷺ إلى أن

---

(١) في المطبوعة " كأشد الرحل ويرمل رملا " . وهو كلام غير مستقيم ، ولم أجد نص الأثر كاملا في موضع آخر ، ولكن روى الحاكم في المستدرك ٢ : ٣٧٥ عن ابن مسعود مرفوعا نحو هذا المعنى مختصرا ، وفيه : " ثم كالراكب ، ثم كشد الرجال ، ثم كمشيهم " . وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي ، وذكر ابن كثير في التفسير ٥ : ٣٩٠ نحو معناه مطولا موقوفا ، ونسبه لابن أبي حاتم في تفسيره .

(٢) مريم ٧١ .

(٣) مريم ٧٢ .

(٤) سورة مريم آية : ٧١ .

(٥) سورة مريم آية : ٧٢ .

ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجاه الله منهم. ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ (٢). ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا ﴾ (٣). و ﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ (٤). ولم يكن العذاب أصابهم، ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا. فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور: أن الورود هو الورود على الصراط.

وروى الحافظ أبو نصر الوائلي (٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال ﷺ « علم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك، وإن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة، فلا تحدثن في دين الله حدثا برأيك » . أورده القرطبي.

وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجار، عن يعلى بن منية، عن رسول الله ﷺ قال: « تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي » (٦) ".

---

(١) هو في صحيح مسلم ٢ : ٢٦٣ ، بنحو هذا المعنى .

(٢) هود ٥٨ .

(٣) هود ٦٦ .

(٤) هود ٩٤ .

(٥) هو الحافظ الوائلي البكري ، أبو نصر السجزي ، المتوفى سنة ٤٤٤ ، ترجمه الذهبي في تذكرة الحفاظ ٣ : ٢٧٩ - ٢٩٨ .

(٦) يعلى بن منية ، بضم الميم وسكون النون وفتح الياء التحتية ، وهي أمه ، وأبوه اسمه " أمية " ، وصحف اسم أمه في المطبوعة ومجمع الزوائد ، كتب " منبه " ! والحديث ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠ : ٣٦٠ ، وقال : " رواه الطبراني ، وفيه سليم بن منصور بن عمار ، وهو ضعيف " .

الْإِيمَانُ بِالْمِيزَانِ وَحَقِيقَتُهُ

وقوله: " والميزان " - أي: ونؤمن بالميزان. قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [(١)]. وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [(٢)].

قال القرطبي: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها ليكون الجزاء بحسبها. قال: وقوله: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة) - يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال الموزونة، والله أعلم.

والذي دلت عليه السنة: أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان. روى الإمام أحمد، من حديث أبي عبد الرحمن الحبلي، قال: سمعت عبد الله بن عمرو يقول: قال رسول الله ﷺ ﴿ إن الله سيخلص رجلا من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا، كل سجل مد البصر، ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئا ؟ أظلمتك كتبتي الحافظون ؟ قال: لا يا رب. فيقول: ألك عذر أو حسنة ؟ فيبهت الرجل، فيقول: لا يا رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فتخرج له بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فيقول: أحضروه. فيقول: يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فيقال: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، [والبطاقة في كفة]، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا

(١) الأنبياء ٤٧ .

(٢) المؤمنون ١٠٢ - ١٠٣ .

يثقل شيء بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ [1] [2]. وهكذا رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، من حديث الليث، زاد الترمذي: ﴿ ولا يثقل مع اسم الله شيء ﴾ [3] [4]. وفي سياق آخر: ﴿ توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل فيوضع في كفة ﴾ [5]، الحديث.

وفي هذا السياق فائدة جليلة، وهي: أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما روى البخاري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: ﴿ إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن عند الله جناح بعوضة " قال: " اقرءوا إن شئتم: ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [6] ﴾.

وروى الإمام أحمد، عن ابن مسعود: ﴿ أنه كان يجني سواكا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ " مم تضحكون " ؟ قالوا: يا نبي الله، من دقة ساقيه. فقال: والذي نفسي بيده، لهما أثقل في الميزان من أحد ﴾ [7] [8].

---

(١) الترمذي الإيمان (٢٦٣٩) ، ابن ماجه الزهد (٤٣٠٠) ، أحمد (٢١٣/٢) .

(٢) هو الحديث : ٦٩٩٤ من المسند ، وهذا لفظه ، وكان في المطبوعة بعض تحريف صححناه منه ، وزيادة [والبطاقة في كفة] ليست في نسخ المسند ، وهي ثابتة في رواية الترمذي ٣ : ٣٦٧ ، والحديث من رواية الليث بن سعد عن عامر بن يحيى عن أبي عبد الرحمن الحبلي .

(٣) الترمذي الإيمان (٢٦٣٩) ، أحمد (٢١٣/٢) .

(٤) في المطبوعة : " ولا يثقل شيء اسم الله " . والذي أثبتنا هو نص ما في الترمذي . وقد أشار الشارح رحمه الله إلى هذا الحديث فيما مضى ص : ٣١٧ .

(٥) أحمد (٢٢٢/٢) .

(٦) سورة الكهف آية : ١٠٥ .

(٧) أحمد (٤٢١/١) .

(٨) المسند : ٣٩٩١ . وفي المطبوعة " فجعلت الريح تكفيه " ، وصححناه من المسند .

وقد وردت الأحاديث أيضا بوزن الأعمال أنفسها، كما في صحيح مسلم، عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان ﴾ (1).

وفي الصحيح، وهو خاتمة كتاب البخاري، قوله ﷺ ﴿ كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم ﴾ (2).

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي، عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: ﴿ يؤتى بابن آدم يوم القيامة، فيوقف بين كفتي الميزان، ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا. وإن خف ميزانه، نادى الملك بصوت يسمع الخلائق: شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا ﴾ .

فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزن الأجسام !! فإن الله يقلب الأعراض أجساما، كما تقدم، وكما روى الإمام أحمد، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ يؤتى بالموت كبشا [أغثر] (3) فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، ويقال: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، ويرون أن قد جاء الفرج، فيذبح، ويقال: خلود لا موت ﴾ . ورواه البخاري بمعناه. فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان. والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات.

---

(1) مسلم الطهارة (223) ، الترمذي الدعوات (3517) ، ابن ماجه الطهارة وسننها (280) ، أحمد (342/5) ، الدارمي الطهارة (653) .

(2) البخاري الدعوات (6043) ، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (2694) ، الترمذي الدعوات (3467) ، ابن ماجه الأدب (3806) ، أحمد (232/2) .

(3) في الأصل : (أغر) . والتصويب من المسند 2 / 423 . ن .

فعلينا الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق ﷺ من غير زيادة ولا نقصان.

ويا خيبة من ينفي وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع، لخفاء الحكمة عليه، ويقدح في النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال !! وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنا. ولو لم يكن من الحكمة في وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين. فكيف ووراء ذلك من الحكم ما لا اطلاع لنا عليه. فتأمل قول الملائكة، لما قال الله لهم: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [(١)]. وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ [(٢)].

وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبي رحمه الله، أن الحوض قبل الميزان، والصراط بعد الميزان. ففي الصحيحين: « أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة » [(٣)]. وجعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطا ثانيا للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار، والله تعالى أعلم.

الْجَنةُ وَالنارُ مَخْلُوقتَان وَهُمَا مَوْجُودَتَان الْآنَ

الْجَنةُ وَالنارُ مَخْلُوقتَانِ وَهُمَا مَوْجُودَتَانِ الْآنَ وَلَا تَفْنَيَانِ أَبَدًا

قوله: (والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدا ولا تبيدان، فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلا، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران

(١) البقرة ٣٠ .

(٢) الإسراء ٨٥ .

(٣) البخاري الرقاق (٦١٧٠) ، أحمد (٣/٦٣) .

على العباد).

ش: أما قوله: " إن الجنة والنار مخلوقتان " - فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية، فأنكرت ذلك، وقالت: بل [ينشئهما] [1] الله يوم القيامة!! وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا!! وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة ! وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث ! لأنها تصير معطلة مددا متطاولة !! فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم.

فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [2]. ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [3]. وعن النار: ﴿ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [4]. ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [5]. وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ [6]. وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى. كما في الصحيحين، من حديث أنس رضي الله عنه في قصة الإسراء، وفي آخره: « ثم انطلق بي جبرائيل، حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوان لا أدري ما

---

(١) في الأصل : (ينشئها) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٢) آل عمران ١٣٣ .

(٣) الحديد ٢١ .

(٤) آل عمران ١٣١ .

(٥) النبأ ٢١ - ٢٢ .

(٦) النجم ١٣ - ١٥ .

هي " قال: " ثم دخلت الجنة، فإذا هي جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابا المسك ﴾ [1].

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة ﴾ [2] [3].

وتقدم حديث البراء بن عازب، وفيه: ﴿ ينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها ﴾ [4].

وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء.

وفي صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ﴿ خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ ﴾ [5]. فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول الله ﷺ ﴿ رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدتم به، حتى لقد رأيتني آخذ قطفا من الجنة حين رأيتموني تقدمت [ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت ﴾ [6] [7] ".

---

(١) البخاري أحاديث الأنبياء (٣١٦٤) ، مسلم الإيمان (١٦٣) .

(٢) البخاري الجنائز (١٣١٣) ، مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٦٦) ، الترمذي الجنائز (١٠٧٢) ، النسائي الجنائز (٢٠٧٠) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٧٠) ، أحمد (١١٣/٢) ، مالك الجنائز (٥٦٤) .

(٣) رواه مالك في الموطأ ١ : ٣٣٧ - ٣٣٨ ، بذا اللفظ ، ورواه أحمد : ٥٩٢٦ من طريق مالك ورواه أيضا من أوجه أخر : ٤٦٥٨ ، ٥١١٩ ، ٥٢٤٣ . ورواه الشيخان كذلك .

(٤) أبو داود السنة (٤٧٥٣) ، أحمد (٢٨٨/٤) .

(٥) البخاري الجمعة (٩٩٩) ، مسلم الكسوف (٩٠١) ، الترمذي الجمعة (٥٦١) ، النسائي الكسوف (١٤٧٢) ، أبو داود الصلاة (١١٨٠) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٦٣) ، أحمد (١٦٤/٦) ، الدارمي الصلاة (١٥٢٧) .

(٦) البخاري الجمعة (١١٥٤) ، النسائي الكسوف (١٤٧٢) .

(٧) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، وأثبتناه من سائر النسخ . ن .

وفي الصحيحين، واللفظ للبخاري، عن عبد الله ابن عباس، قال: ﴿ انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ ﴾ [(١)]. فذكر الحديث، وفيه: ﴿ فقالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئا في مقامك، ثم رأيناك تكعكعت ؟ فقال: " إني رأيت الجنة، وتناولت عنقودا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظرا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساء "، قالوا: بم، يا رسول الله ؟ قال: " بكفرهن "، قيل: أيكفرن بالله ؟ قال: " يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله، ثم رأت منك شيئا، قالت: ما رأيت خيرا قط !! ﴾ [(٢)] .

وفي صحيح مسلم من حديث أنس: ﴿ وايم الذي نفسي بيده، لو رأيتم ما رأيت، لضحكتم قليلا [ولبكيتم] [(٣)]. كثيرا " قالوا: وما رأيت يا رسول الله ؟ قال: " رأيت الجنة والنار ﴾ .

وفي الموطأ والسنن، من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجر الجنة، حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة ﴾ [(٤)].

وهذا صريح في دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة.

وفي صحيح مسلم والسنن والمسند. من حديث أبي هريرة رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ لما خلق الله الجنة والنار، أرسل جبرائيل إلى الجنة، فقال: اذهب

(١) البخاري الجمعة (١٠٠٤) ، مسلم الكسوف (٩٠٧) ، النسائي الكسوف (١٤٩٣) ، أحمد (٢٩٨/١) ، مالك النداء للصلاة (٤٤٥) .

(٢) البخاري النكاح (٤٩٠١) ، مسلم الكسوف (٩٠٧) ، النسائي الكسوف (١٤٩٣) ، أحمد (٢٩٨/١) ، مالك النداء للصلاة (٤٤٥) .

(٣) في الأصل : (وبكيتم) . والتصويب من صحيح مسلم ح (٤٢٦) . ن .

(٤) الترمذي فضائل الجهاد (١٦٤١) ، النسائي الجنائز (٢٠٧٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٧١) ، أحمد (٤٥٦/٣) ، مالك الجنائز (٥٦٦) .

فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحد إلا دخلها. فأمر بالجنة، فحفت بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فنظر إليها، ثم رجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا يدخلها أحد. قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها. قال: فنظر إليها، فإذا هي يركب بعضها بعضا، ثم رجع فقال: وعزتك، لا يدخلها أحد سمع بها. فأمر بها فحفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها. فذهب فنظر إليها، فرجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها ﴾ [1]. ونظائر ذلك في السنة كثيرة.

وأما على قول من قال: إن الجنة الموعود بها هي الجنة التي كان فيها آدم ثم أخرج منها - فالقول بوجودها الآن ظاهر، والخلاف في ذلك معروف.

وأما شبهة من قال: إنها لم تخلق بعد، وهي: أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطرارا أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت، لقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾ [2]. و ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ﴾ [3].

وقد روى الترمذي في جامعه، من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ ﴿ لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال: يا محمد، أقرئ أمتك مني السلام، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسها سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ﴾ [4] ، قال: هذا حديث حسن غريب.

---

(١) الترمذي صفة الجنة (٢٥٦٠) ، النسائي الأيمان والنذور (٣٧٦٣) ، أحمد (٣٣٣/٢) .
(٢) القصص ٨٨ .
(٣) آل عمران ١٨٥ .
(٤) الترمذي الدعوات (٣٤٦٢) .

وفيه أيضا من حديث أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿من قال سبحان الله وبحمده، غرست له نخلة في الجنة﴾ [1] ، قال: هذا حديث حسن صحيح، قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغا منها لم تكن قيعانا، ولم يكن لهذا الغراس معنى. قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنا قالت: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ ﴾ [2].

- فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم إنا الآن معدومة بم لة النفخ في الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنا لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنا لا يزال الله يحدث فيها شيئا بعد شيء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورا أخر- فهذا حق لا يمكن رده، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر.

وأما احتجاجكم بقوله تعالى: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [3] فأثبتم سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم با على عدم وجود الجنة والنار الآن - نظير احتجاج إخوانكم با على فنائهما وخرابما وموت أهلهما !! فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية، وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام.

فمن كلامهم: أن المراد "كل شيء" مما كتب الله عليه الفناء والهلاك "هالك"، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذلك العرش، فإنه سقف الجنة. وقيل: المراد إلا ملكه. وقيل: إلا ما أريد به وجهه. وقيل: إن الله تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [4] فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء

(١) الترمذي الدعوات (٣٤٦٥) .

(٢) التحريم ١١ .

(٣) القصص ٨٨ .

(٤) الرحمن ٢٦ .

والأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ (١) لأنه حي لا يموت، فأيقنت الملائكة عند ذلك بالموت. وإنما قالوا ذلك توفيقا بينها وبين النصوص المحكمة، الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار أيضا، على ما يذكر عن قريب، إن شاء الله تعالى.

وقوله: " لا تفنيان أبدا ولا تبيدان " - هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف.

وقال ببقاء الجنة وقال بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها.

وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، ولا من أهل السنة. وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض. وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث ! وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم. فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي، يمنعه في المستقبل !! فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي !! وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة !! وقد تقدم الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربا قادرا فعالا لما يريد، فإنه لم يزل حيا عليما قديرا. ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعا عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكنا لذاته، من غير تجدد شيء، وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكنا له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنعا عليه. فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده.

---

(١) القصص ٨٨ .

فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد، فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (1) أي غير مقطوع، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ ﴾ (2).

واختلف السلف في هذا الاستثناء:

فقيل: معناه إلا مدة مكثهم في النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لكلهم.

وقيل: إلا مدة مقامهم في الموقف.

وقيل: إلا مدة مقامهم في القبور والموقف.

وقيل: هو استثناء [استثناه] (3) الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه.

وقيل: " إلا " بمعنى الواو، وهذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف. [ومنهم] من يجعل " إلا " بمعنى " لكن "، فيكون الاستثناء منقطعا، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ (4). قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك داري حولا إلا ما شئت. أي سوى ما شئت، [أو لكن] (5) ما شئت من الزيادة عليه.

---

(1) سورة هود آية : ١٠٨ .

(2) سورة هود آية : ١٠٨ .

(3) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، واستدركناه من " حادي الأرواح " الباب السابع والستون ص ٢٤٢ . ن .

(4) سورة هود آية : ١٠٨ .

(5) في الأصل : (ولكن) . والتصويب من حادي الأرواح ص ٢٤٣ . ن .

وقيل: الاستثناء لإعلامهم، بأنهم مع خلودهم في مشيئة الله، لأنهم لا يخرجون عن مشيئته، ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ ﴾ [2] وقوله: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ ﴾ [3]. ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

وقيل: إن " ما " بمعنى " من " أي: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء.

وقيل غير ذلك.

وعلى كل تقدير، فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [4] محكم. وكذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [5]. وقوله: ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ ﴾ [6] وقوله: ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [7].

وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد في عدة مواضع من القرآن، وأخبر أنهم: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ ﴾ [8] وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى

(١) الإسراء ٨٦ .

(٢) الشورى ٢٤ .

(٣) يونس ١٦ .

(٤) سورة هود آية : ١٠٨ .

(٥) ص ٥٤ .

(٦) الرعد ٣٥ .

(٧) الحجر ٤٨ .

(٨) الدخان ٥٦ .

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ [(١)] - تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذي لم يكونوا فيه في الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتم الأبدية، [وذاك] [(٢)]. مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة: كقوله ﷺ ﴿ من يدخل الجنة ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت ﴾ [(٣)]. وقوله: ﴿ينادي مناد: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا [أبدا] [(٤)] وأن تشبوا فلا ترموا أبدا، وأن تحيوا فلا تموتوا أبدا ﴾ .

وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: ﴿ يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت ﴾ [(٥)].

الأقوال في أبدية النار

وأما أبدية النار ودوامها، فللناس في ذلك ثمانية أقوال:

أحدها: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة.

والثاني: أن أهلها يعذبون فيها، ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة [نارية] [(٦)] يتلذذون بها لموافقتها لطبعهم ! وهذا قول إمام الاتحادية ابن عربي الطائي !! الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه

---

(١) سورة هود آية : ١٠٨ .

(٢) في الأصل : (وذلك) ولعل الصواب ما أثبتناه من حادي الأرواح ص ٢٤٤ . ن .

(٣) الترمذي صفة الجنة (٢٥٢٥) .

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، والصواب ما أثبتناه من صحيح مسلم (٤ / ٢١٨٢) رقم ٢٨٣٧ ، ومن حادي الأرواح ص ٢٤٤ . ن .

(٥) البخاري تفسير القرآن (٤٤٥٣) ، مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٤٩) ، أحمد (٩/٣) .

(٦) في الأصل : (النارية) ولعل الصواب ما أثبتناه من حادي الأرواح ص ٢٤٨ . ن .

اليهود للنبي ﷺ وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قائل: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [(١)].

الرابع: يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد.

الخامس: أنا تفنى بنفسها، لأنا حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه !! وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده في ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم.

السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جمادا، لا يحسون بألم، وهذا قول أبي الهذيل كما تقدم.

السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد في الحديث، ثم يبقيها شيئا، ثم يفنيها، فإنه جعل لها أمدا تنتهي إليه.

الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من شاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ رحمه الله.

وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان. وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتهما [(٢)]

فمن أدلة القول الأول منهما: قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [(٣)]. وقوله تعالى. ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ

---

(١) البقرة ٨٠ - ٨١ .

(٢) في المطبوعة " دليليهما " بالتثنية . وهو خطأ ، والجمع هو المناسب للكلام هنا .

(٣) الأنعام ١٢٨ .

رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [(١)] ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [(٢)]. وقوله تعالى: ﴿ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [(٣)].

وهذا القول - أعني القول بفناء النار دون الجنة - منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم.

وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر ﷺ أنه قال: ﴿ لو لبث أهل النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقت يخرجون فيه ﴾ ، ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ [(٤)]. قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته. وقد قال ﷺ ﴿ لما قضى الله الخلق، كتب كتابا، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي ﴾ [(٥)]. وفي رواية: ﴿ تغلب غضبي ﴾ [(٦)]. رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ [(٧)].

---

(١) هود ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) هود ١٠٨ .

(٣) النبأ ٢٣ .

(٤) النبأ ٢٣ .

(٥) البخاري التوحيد (٧١١٤) ، مسلم التوبة (٢٧٥١) ، الترمذي الدعوات (٣٥٤٣) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٩٥) ، أحمد (٣٥٨/٢) .

(٦) صحيح البخاري كتاب التوحيد (٦٩٦٩) ، صحيح مسلم كتاب التوبة (٢٧٥١ ، ٢٧٥١) ، سنن الترمذي كتاب الدعوات (٣٥٤٣) ، سنن ابن ماجه كتاب الزهد (٤٢٩٥) ، مسند أحمد (٤٣٣/٢) .

(٧) الأنعام ١٥ .

و ﴿ أَلِيمٍ ﴾ [(١)]. و ﴿ عَقِيمٍ ﴾ [(٢)]. ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: ﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ ﴾ [(٣)] وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ [(٤)]. فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا في العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته. وقد ثبت في الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذبون فيها متفاوتون في مدة لبثهم في العذاب بحسب جرائمهم، وليس في حكمة أحكم الحاكمين ورحمة أرحم الراحمين أن يخلق خلقا يعذبم أبد الآباد عذابا سرمدا لا نهاية له. وأما أنه يخلق خلقا ينعم [عليهم] [(٥)] ويحسن إليهم نعيما سرمدا - فمن مقتضى الحكمة. والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض.

قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابا مقيم، وأنه غرام - كله حق مسلم، لا نزاع فيه، وذلك يقتضي الخلود في دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها في حال بقائها أهل التوحيد. ففرق بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها: قوله: ﴿ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾ [(٦)]. ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴾ [(٧)]. ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [(١)].

---

(١) هود ٢٦ .
(٢) الحج ٥٥ .
(٣) الأعراف ١٥٦ .
(٤) غافر ٧ .
(٥) في الأصل : (إليهم) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .
(٦) المائدة ٣٧ .
(٧) الزخرف ٧٥ .

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ ﴾ [2]. ﴿ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [3]. ﴿ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [4]. ﴿ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ ﴾ [5]. ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ ﴾ [6]. ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [7] أي مقيما لازما.

وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: " لا إله إلا الله "، وأحاديث الشفاعة صريحة في خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان. وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما.

وقوله: " وخلق لهما أهلا " - قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ ﴾ [8] الآية. وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءا ولم يدركه. فقال: " أوغير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلا، خلقهم لها

---

(١) النبأ ٣٠ .

(٢) البينة ٨ .

(٣) الحجر ٤٨ .

(٤) البقرة ١٦٧ .

(٥) الأعراف ٤٠ .

(٦) فاطر ٣٦ .

(٧) الفرقان ٦٥ .

(٨) الأعراف ١٧٩ .

وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم ﴾ [(١)]. رواه مسلم وأبو داود والنسائي.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ ﴾ [(٢)]. والمراد الهداية العامة، وأعم منها الهداية المذكورة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [(٣)].

فالموجودات نوعان: أحدهما مسخر بطبعه، والثاني متحرك بإرادته، فهدى الأول لما سخره له طبيعة، وهدى الثاني هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره.

ثم قسم [هذا النوع] [(٤)]. إلى ثلاثة أنواع: نوع لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سواه، كالملائكة.

ونوع لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة سواه، كالشيطان.

ونوع يتأتى منه إرادة القسمين، كالإنسان. ثم جعله ثلاثة أصناف:

صنف يغلب إيمانه ومعرفته وعقله هواه وشهوته، فيلتحق بالملائكة.

وصنف عكسه، فيلتحق بالشياطين.

وصنف تغلب شهوته البهيمية عقله، فيلتحق بالبهائم.

لَا مَوْجُودَ إِلَّا بِإِيجَادِ اللهِ

والمقصود: أنه سبحانه أعطى الوجودين: العيني والعلمي، فكما أنه لا موجود إلا بإيجاده، فلا هداية إلا بتعليمه، وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته، وثبوت وحدانيته،

---

(١) مسلم القدر (٢٦٦٢) ، النسائي الجنائز (١٩٤٧) ، أبو داود السنة (٤٧١٣) ، ابن ماجه المقدمة (٨٢) ، أحمد (٢٠٨/٦) .

(٢) الدهر ٢ - ٣ .

(٣) طه ٥٠ .

(٤) في الأصل : (الأنواع) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

وتحقيق ربوبيته، سبحانه وتعالى.

وقوله: " فمن شاء منهم إلى الجنة فضلا منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلا منه " إلخ - مما يجب أن يعلم: أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه، وهو العمل الصالح، فإنه: (من يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما). وكذلك لا يعاقب أحدا إلا بعد حصول سبب العقاب، فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝ ﴾ [1].

وهو سبحانه المعطي المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. لكن إذا من على الإنسان بالإيمان [والعمل] [2] الصالح، فلا يمنعه موجب ذلك أصلا، بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه [3] وهو العمل الصالح.

ولا ريب أنه يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل، فمنعه للأسباب التي هي الأعمال الصالحة من حكمته وعدله. وأما المسببات بعد وجود أسبابها، فلا يمنعها بحال، إذا لم تكن أسبابا غير صالحة، إما لفساد في العمل، وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه، فيكون ذلك لعدم المقتضي، أو لوجود المانع. وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح، وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداء إلا حكمة منه وعدلا. فله الحمد في الحالين، وهو المحمود على كل حال، كل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل، فإن الله تعالى حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ

---

(١) الشورى ٣٠ .

(٢) الزيادة ضرورية بداهة .

(٣) في المطبوعة " فلا انتفاء لسببه "؛ وهو كلام باطل محرف .

حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [(١)]. وكما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [(٢)]. ونحو ذلك.

وسيأتي لهذا زيادة، إن شاء الله تعالى.

الِاسْتِطَاعَةُ تَكُونُ مَعَ الْفِعْلِ وَقَبْلِهِ

قوله: (والاستطاعة التي يجب بها الفعل، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به - تكون مع الفعل. وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكين وسلامة الآلات - فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ ﴾ [(٣)].

ش: الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع، ألفاظ متقاربة، وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين، كما ذكره الشيخ رحمه الله، وهو قول عامة أهل السنة، وهو الوسط. وقالت القدرية والمعتزلة: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل. وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا: لا تكون إلا مع الفعل.

والذي قاله عامة أهل السنة: أن للعبد قدرة هي مناط الأمر والنهي، وهذه قد تكون قبله، لا يجب أن تكون معه، والقدرة التي بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التي من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات - فقد تتقدم الأفعال. وهذه القدرة المذكورة في قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ

(١) الأنعام ١٢٤ .

(٢) الأنعام ٥٣ .

(٣) البقرة ٢٨٦ .

﴿ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ ﴾ [(1)]. فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يعاقب أحدا على ترك الحج ! وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [(2)]. فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب من لم يتق ! وهذا معلوم الفساد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ﴾ [(3)] والمراد منه استطاعة الأسباب والآلات.

وكذا ما حكاه سبحانه من قول المنافقين: ﴿ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ﴾ [(4)]. وكذبهم في ذلك القول، ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التي هي حقيقة قدرة الفعل - ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كذبهم دل أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال، على ما بين تعالى بقوله: ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ ﴾ [(5)] إلى أن قال: ﴿ ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ۚ ﴾ [(6)]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [(7)]. والمراد: استطاعة

---

(1) آل عمران ٩٧ .

(2) التغابن ١٦ .

(3) المادلة ٤ .

(4) التوبة ٤٢ .

(5) التوبة ٩١ .

(6) التوبة ٩٣ .

(7) النساء ٢٥ .

الآلات والأسباب. ومن ذلك قوله ﷺ لعمران بن حصين: ﴿صل قائما فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب﴾ [(١)]. وإنما نفى استطاعة الفعل معها.

وأما دليل ثبوت الاستطاعة التي هي حقيقة القدرة، فقد ذكروا فيها قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [(٢)]. والمراد نفي حقيقة القدرة، لا نفي الأسباب والآلات، لأنا كانت ثابتة. وسيأتي لذلك زيادة بيان عند قوله: " ولا يطيقون إلا ما كلفهم "، إن شاء الله تعالى. وكذا قول صاحب موسى: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [(٣)]. وقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [(٤)]. والمراد منه حقيقة قدرة الصبر، لا أسباب الصبر وآلاته، فإن تلك كانت ثابتة له، ألا ترى أنه عاتبه على ذلك؟ ولا يلام من عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل، لاشتغاله بغير ما أمر به، أو [لعدم] شغله إياها بفعل ما أمر به [(٥)]. ومن قال: إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل - يقولون: إن القدرة لا تصلح للضدين، فإن القدرة المقارنة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل، وهي مستلزمة له، لا توجد بدونه.

وما قالته القدرية - بناء على أصلهم الفاسد، وهو إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء، فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان، بل هذا

---

(١) البخاري الجمعة (١٠٦٦) ، الترمذي الصلاة (٣٧١) ، النسائي قيام الليل وتطوع النهار (١٦٦٠) ، أبو داود الصلاة (٩٥٢) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٣١) ، أحمد (٤/٤٣٥) .

(٢) هود ٢٠ .

(٣) الكهف ٦٧ .

(٤) الكهف ٧٥ .

(٥) في المطبوعة " أو شغله إياها . . " ! وهو تافت في القول ، غير مستقيم ، من خطأ الناسخين ، فصححناه ما استطعنا .

بنفسه رجح الطاعة، وهذا بنفسه رجح المعصية ! كالوالد الذي أعطى كل واحد من بنيه سيفا، فهذا جاهد به في سبيل الله، وهذا قطع به الطريق.

وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية، خصه بها دون الكافر، وأنه أعانه على الطاعة إعانة لم يعن بها الكافر. كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ (١).

فالقدرية يقولون: إن هذا التحبيب والتزيين عام في كل الخلق، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق. والآية تقتضي أن هذا خاص بالمؤمن، ولهذا قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ (٢). والكفار ليسوا راشدين. وقال تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ (٣). وأمثال هذه الآية في القرآن كثير، يبين أنه سبحانه هدى هذا وأضل هذا. قال تعالى: ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرۡشِدًا ﴾ (٤). وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

وأيضا فقول القائل: يرجح بلا مرجح - إن كان لقوله: " يرجح " معنى زائد على الفعل، فذاك هو السبب المرجح، وإن لم يكن له معنى زائد كان (٥) حال الفاعل قبل

(١) الحجرات ٧ .

(٢) سورة الحجرات آية : ٧ .

(٣) الأنعام ١٢٥ .

(٤) الكهف ١٧ .

(٥) في المطبوعة " كما أن " بدل " كان " . وهو خطأ بين .

وجود الفعل كحاله عند الفعل، ثم الفعل حصل في إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح ! وهذا مكابرة للعقل !! فلما كان أصل قول القدرية أن فاعل الطاعات وتاركها كلاهما في الإعانة والإقدار سواء - امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه، لأن القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك، وإنما تكون للفاعل، ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى. وهم لما رأوا أن القدرة لا بد أن تكون قبل الفعل، قالوا: لا تكون مع الفعل، لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك، فلهذا قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل ! وهذا باطل قطعا، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع، بل لا بد أن يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الأمور الوجودية موجودا عند الفعل. فنقيض قولهم حق، وهو: أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة.

لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين: حزب قالوا: لا تكون القدرة إلا معه، ظنا منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين، وظنا من بعضهم أن القدرة عرض، فلا تبقى زمانين، فيمتنع وجودها قبل الفعل.

والصواب: أن القدرة نوعان كما تقدم: نوع مصحح للفعل، يمكن معه الفعل والترك، وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي، وهذه تحصل للمطيع والعاصي، وتكون قبل الفعل، وهذه تبقى إلى حين الفعل، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول إن الأعراض لا تبقى زمانين، وهذه قد تصلح للضدين، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة، فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة، وضد هذه العجز، كما تقدم.

وأيضا: فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع عدمها وإن لم يعجز عنه. فالشارع ييسر على عباده، ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل عليكم في الدين من حرج، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا في الشرع غير مستطيع، لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعا. فالشارع لا ينظر في الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك، فإن كان الفعل

ممكنا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذي يقدر على الحج مع ضرر يلحقه في بدنه أو ماله، أو يصلي قائما مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته، ونحو ذلك. فإن كان الشارع قد اعتبر في المكنة عدم المفسدة الراجحة، فكيف يكلف مع العجز ؟!

ولكن هذه الاستطاعة - مع بقائها إلى حين الفعل - لا تكفي في وجود الفعل، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى تقارن، مثل جعل الفاعل مريدا، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، والاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة، بخلاف المشروطة في التكليف، فإنه لا يشترط فيها الإرادة. فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه. وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد، لكن لا يأمره بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة، لزم وجود الفعل. وعلى هذا ينبني تكليف ما لا يطاق، فإن من قال: القدرة لا تكون إلا مع الفعل - يقول: كل كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق. وما لا يطاق يفسر بشيئين: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أحدا، ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده، فهذا هو الذي وقع فيه التكليف، كما في أمر العباد بعضهم بعضا، فإنهم يفرقون بين هذا وهذا، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف ! ويأمره إذا كان قاعدا أن يقوم، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة.

أَفْعَالُ الْعِبَادِ

أَفْعَالُ الْعِبَادِ خَلْقُ اللهِ وَهُمْ فَاعِلُونَ لَهَا حَقِيقَةً

قوله: (وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد).

ش: اختلف الناس في أفعال العباد الاختيارية، فزعمت الجبرية ورئيسهم الجهم بن

صفوان السمرقندي (١) أن التدبير في أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهي كلها اضطرارية، كحركات المرتعش، والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز ! وهي على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله !

وقابلتهم المعتزلة، فقالوا: إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها، لا تعلق لها بخلق الله تعالى. واختلفوا فيما بينهم: أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا ؟!

وقال أهل الحق: أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهي مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه. فالجبرية غلوا في إثبات القدر، فنفوا صنع العبد أصلا، كما غلت المشبهة في إثبات الصفات، فشبهوا. والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى. ولهذا كانوا " مجوس هذه الأمة "، بل أردأ من المجوس، من حيث أن المجوس أثبتوا خالقين، وهم أثبتوا خالقين !!

وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. فكل دليل صحيح تقيمه الجبري، فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل في الحقيقة ولا مريد ولا مختار، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار.

وكل دليل صحيح يقيمه القدري فإنما يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته.

فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى - فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون

---

(١) في المطبوعة " الترمذي " ! وهو خطأ يظهر أنه من الناسخين ، والجهم بن صفوان ينسب إلى " سمرقند " ويقال له أيضا " الراسبي " ، لأنه مولى " بني راسب " . انظر ترجمته وأخباره في تاريخ الطبري ٩ : ٦٦ - ٦٩ ، وتاريخ الإسلام للذهبي ٥ : ٥٦ - ٥٨ ، وتاريخ ابن كثير ١ : ٢٦ - ٢٧ ، ولسان الميزان ٢ : ١٤٢ .

من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم.

وهذا هو الواقع في نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض، والحق يصدق بعضه بعضا. ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين، ولكنها تتكافأ وتتساقط، ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخرين. ولكن أذكر شيئا مما استدل به كل من الفريقين، ثم أبين أنه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل:

الرد عَلَى الْجَبْرِيةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ

فمما استدلت به الجبرية، قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [1]. فنفى الله عن نبيه الرمي، وأثبته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لا صنع للعبد. قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال، بدليل قوله ﷺ ﴿ لن يدخل أحد الجنة بعمله ". قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: " ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل ﴾ [2].

ومما استدل به القدرية، قوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [3]. قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض، كما قال تعالى: ﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [4]. ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [5]. ونحو ذلك.

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) الأنفال ١٧ .

(٢) البخاري الرقاق (٦٠٩٨) ، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٠١) ، أحمد (٢ /٤٦٩) .

(٣) المؤمنون ١٤ .

(٤) السجدة ١٧ .

(٥) الزخرف ٧٢ .

رَمَىٰ ﴾ [1] - فهو دليل عليهم؛ لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رميا، بقوله: ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ [2] ، فعلم أن المثبت غير المنفي، وذلك أن الرمي له ابتداء وانتهاء: فابتداؤه الحذف، وانتهاؤه الإصابة، وكل منهما يسمى رميا، فالمعنى حينئذ - والله تعالى أعلم: وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب. وإلا فطرد قولهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى ! وما صمت إذ صمت ! وما زنيت إذ زنيت ! وما سرقت إذ سرقت ! ! وفساد هذا ظاهر.

وأما ترتب الجزاء على الأعمال، فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة. فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله ﷺ ﴿ [لا] يدخل [أحدكم] الجنة بعمله ﴾ [3] [4] - باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله ! بل ذلك برحمة الله وفضله.

والباء التي في قوله تعالى: ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [5] ونحوها، باء السبب، أي بسبب عملكم، والله تعالى هو خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

---

(١) الأنفال ١٧ .

(٢) سورة الأنفال آية : ١٧ .

(٣) البخاري المرضى (٥٣٤٩) ، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٠١) ، أحمد (٢/٢٥٦) .

(٤) في الأصل : " لن يدخل الجنة بعمله " ! هكذا فقط ، والتعديل من المسند ٢ / ٢٥٦ . ن .

(٥) السجدة ١٧ .

لَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ " كُل " إِلا الْمَخْلُوقَاتُ

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [(١)] - فمعنى الآية: أحسن المصورين المقدرين. و " الخلق " يذكر ويراد به التقدير، وهو المراد هنا، بدليل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ ﴾ [(٢)] أي الله خالق كل شيء مخلوق، فدخلت أفعال العباد في عموم " كل ". وما أفسد قولهم في إدخال كلام الله تعالى في عموم: " كل "، الذي هو صفة من صفاته، يستحيل عليه أن يكون مخلوقا ! وأخرجوا أفعالهم التي هي مخلوقة من عموم " كل " ! ! وهل يدخل في عموم " كل " إلا ما هو مخلوق ؟ ! فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة في هذا العموم، ودخل سائر المخلوقات في عمومها. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [(٣)]. ولا نقول إن " ما " مصدرية، أي: خلقكم وعملكم - إذ سياق الآية يأباه؛ لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم عبادة المنحوت، لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتا إلا بفعلهم، فيكون ما هو من آثار فعلهم مخلوقا لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقا له، بل الخشب أو الحجر لا غير.

وذكر أبو [الحسين] [(٤)] البصري إمام المتأخرين من المعتزلة: أن العلم بأن العبد يحدث فعله - ضروري. وذكر الرازي أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه - ضروري، وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضروري، ثم ادعاء كل منهما أن هذا العلم الضروري يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة - غير مسلم، بل كلاهما صادق فيما

---

(١) المؤمنون ١٤ .

(٢) الرعد ١٦ .

(٣) الصافات ٩٦ .

(٤) في الأصل : (الحسن) ، والصواب ما أثبتناه من تاريخ بغداد ٣ / ١٠٠ ، وميزان الاعتدال ٣ / ٦٥٤ ، وسير أعلام النبلاء ١٧ / ٥٨٧ . ن .

ادعاه من العلم الضروري، وإنما وقع غلطه في إنكاره ما مع الآخر من الحق. فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثا لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ ﴾[1]. فقوله: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ ﴾[2] - إثبات للقدر بقوله: فألهمها، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه، ليعلم أنا هي الفاجرة والمتقية. وقوله بعد ذلك: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝ ﴾[3] - إثبات أيضا لفعل العبد، ونظائر ذلك كثيرة.

وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التي فرقتهم، بل مزقتهم كل ممزق، وهي: أنم قالوا؟ كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبم وهو خلقها فيهم؟ فأين العدل في تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم ؟ وهذا السؤال لم يزل مطروقا في العالم على ألسنة الناس، وكل منهم يتكلم في جوابه بحسب علمه ومعرفته، وعنه تفرقت بم الطرق: فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة الله تعالى، وطائفة أنكرت الحكم والتعليل، وسدت باب السؤال. وطائفة أثبتت كسبا لا يعقل ! جعلت الثواب [والعقاب] عليه. وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدور بين قادرين، ومفعول بين فاعلين ! وطائفة التزمت الجبر، وأن الله يعذبم على ما لا يقدرون عليه ! وهذا السؤال هو الذي أوجب هذا التفرق والاختلاف.

والجواب الصحيح عنه، أن يقال: إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقا لله تعالى، فهي عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها. فالذنوب كالأمراض التي يورث بعضها بعضا.

---

(١) الشمس ٧ - ٨ .

(٢) الشمس ٨ .

(٣) الشمس ٩ - ١٠ .

يبقى أن يقال: فالكلام في الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب ؟ يقال: هو عقوبة أيضا على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له، وفطره على محبته، وتألهه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ (١). فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه، من محبة الله وعبوديته، والإنابة إليه - عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي، فإنه صادف قلبا خاليا قابلا للخير والشر، ولو كان فيه الخير الذي يمنع ضده لم يتمكن منه الشر، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (٢). وقال إبليس: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٣). وقال الله ﷻ ﴿ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ (٤) والإخلاص: خلوص القلب من تأله ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته، فخلص لله، فلم يتمكن منه الشيطان. وأما إذا صادفه فارغا من ذلك، تمكن منه بحسب فراغه، فيكون جعله مذنبا مسيئا في هذه الحال عقوبة له على عدم هذا الإخلاص. وهي محض العدل.

فإن قلت: فذلك العدم من خلقه فيه ؟ قيل: هذا سؤال فاسد، فإن العدم كاسمه، لا يفتقر إلى تعلق التكوين والإحداث به، فإن عدم الفعل ليس أمرا وجوديا حتى يضاف إلى الفاعل، بل هو شر محض، والشر ليس إلى الله سبحانه، كما قال ﷺ في حديث الاستفتاح:

---

(١) الروم ٣٠ .

(٢) يوسف ٢٤ .

(٣) ص ٨٢ - ٨٣ .

(٤) الحجر ٤١ - ٤٢ .

﴿ لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك ﴾ [1] [2].

وكذا في حديث الشفاعة يوم القيامة، ﴿ حين يقول الله له: يا محمد. فيقول: " لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك " ﴾ [3]

وقد أخبر الله تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين يتولونه والذين هم به مشركون، فلما تولوه دون الله وأشركوا به معه - عوقبوا على ذلك بتسليط الله [إياه] عليهم، وكانت هذه الولاية والإشراك عقوبة خلو القلب وفراغه من الإخلاص. فإلهام البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور عقوبة على خلوه من الإخلاص.

فإن قلت: إن كان هذا الترك أمرا وجوديا عاد السؤال جذعا، وإن كان أمرا عدميا فكيف يعاقب على العدم المحض ؟

قيل: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه، فهذا قد يقال: إنه أمر وجودي، وإنما هنا عدم وخلو من أسباب الخير، وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها، والعقوبة على الأمر العدمي هي بفعل السيئات، لا بالعقوبات التي تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل. فلله فيه عقوبتان:

إحداهما: جعله مذنبا خاطئا، وهذه عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله، وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتا، لموافقتها شهوته وإرادته، وهي في الحقيقة من أعظم العقوبات.

والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات. وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين

---

(١) البخاري أحاديث الأنبياء (٣١٧٠) ، مسلم الإيمان (٢٢٢) ، أحمد (٣/٣٣) .

(٢) رواه أحمد في المسند رقم ٨٠٣ ، ومسلم في الصحيح ١ : ٢١٥ في حديث طويل من حديث علي بن أبي طالب ، وكان في المطبوعة هنا " بيديك " - وأثبتنا ما هو الثابت في المسند والصحيح .

(٣) مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١) ، الترمذي الدعوات (٣٤٢٢) ، النسائي الافتتاح (٨٩٧) ، أبو داود الصلاة (٧٦٠) ، أحمد (١/١٠٣) ، الدارمي الصلاة (١٢٣٨) .

في قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [(١)].
فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً ﴾ [(٢)] فهذه العقوبة الثانية.

فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده - من غير أن يخلق ذلك في قلوبهم ويجعلهم مخلصين له منيبين له محبين له ؟ أم ذلك محض جعله في قلوبهم وإلقائه فيها ؟

قيل: لا، بل هو محض منته وفضله، وهو من أعظم الخير الذي هو بيده، والخير كله في يديه، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقي من الشر إلا ما وقاه.

فإن قيل: فإذا لم يخلق ذلك في قلوبهم ولم يوفقوا له، ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم، عاد السؤال وكان منعهم منه ظلما، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك في ملكه بما يشاء، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون - قيل: لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالما، وإنما يكون المانع ظالما إذا منع غيره حقا لذلك الغير عليه، وهذا هو الذي حرمه الرب على نفسه وأوجب على نفسه خلافه. وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له، بل هو محض فضله ومنته عليه - لم يكن ظالما بمنعه، فمنع الحق ظلم، ومنع الفضل والإحسان عدل. وهو سبحانه العدل في منعه، كما هو المحسن المنان بعطائه.

فإن قيل: فإذا كان العطاء والتوفيق إحسانا ورحمة، فهلا كان العمل له والغلبة، كما أن رحمته تغلب غضبه ؟

قيل: المقصود في هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة - ليس بظلم، بل هو محض العدل.

وهذا سؤال عن الحكمة التي أوجبت تقديم العدل على الفضل في بعض المحال، وهلا

---

(١) الأنعام ٤٤ .
(٢) الأنعام ٤٤ .

سوى بين العباد في الفضل ؟ وهذا السؤال حاصله: لم يتفضل على هذا ولم يتفضل على الآخر ؟ وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (١). وقوله: ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ (٢). ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين وإعطائهم [هم أجرا أجرا] (٣) ﴿ قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئا ؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء ﴾ (٤). وليس في الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته في عطائه ومنعه، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد، حتى أبصر جزءا يسيرا من حكمته في خلقه، وأمره وثوابه وعقابه، وتخصيصه وحرمانه، وتأمل أحوال محال ذلك - استدل بما علمه على ما لم يعلمه. ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص، قالوا: ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ ﴾ (٥) ؟ قال تعالى مجيبا لهم: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (٦). فتأمل هذا الجواب، تر في ضمنه أنه سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر، من المحل الذي لا يصلح لغرسها، فلو غرست فيه لم تثمر، فكان غرسها هناك ضائعا لا يليق بالحكمة، كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ ﴾ (٧).

---

(١) الحديد ٢١ .

(٢) الحديد ٢٩ .

(٣) في الأصل : (أجرهم) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٤) البخاري الإجارة (٢١٤٩) ، الترمذي الأمثال (٢٨٧١) ، أحمد (١٢٩/٢) .

(٥) الأنعام ٥٣ .

(٦) الأنعام ٥٣ .

(٧) الأنعام ١٢٤ .

الْعَبْدُ فَاعِلٌ لِفِعْلِهِ حَقِيقَةً وَلَكِنْ مَخْلُوقٌ لِلهِ

فإن قيل: إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد، فإذا لا فعل للعبد أصلا ؟ قيل: العبد فاعل لفعله حقيقة، وله قدرة حقيقة. قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ (1). ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝﴾ (2) وأمثال ذلك.

وإذا ثبت كون العبد فاعلا، فأفعاله نوعان:

نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، فيكون صفة له ولا يكون فعلا، كحركات المرتعش.

ونوع يكون منه مقارنا لإيجاد قدرته واختياره، فيوصف بكونه صفة وفعلا وكسبا للعبد، كالحركات الاختيارية. والله تعالى هو الذي جعل العبد فاعلا مختارا، وهو الذي يقدر على ذلك وحده لا شريك له. ولهذا أنكر السلف الجبر، فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز، فلا يكون إلا مع الإكراه، يقال: للأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح، وليس له إجبار الثيب البالغ، أي: ليس له أن يزوجها مكرهة.

لَا يُوصَفُ اللهُ بِالْإِجْبَارِ

والله تعالى لا يوصف بالإجبار بذا الاعتبار، لأنه سبحانه خالق الإرادة والمراد قادر على أن يجعله مختارا بخلاف غيره. ولهذا جاء في ألفاظ الشارع: " الجبل " دون " الجبر "، كما قال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك لخلقين يحبهما الله: الحلم والأناة "، فقال: أخلقين تخلقت بما ؟ أم خلقين جبلت عليهما ؟ فقال: " بل خلقان جبلت عليهما " فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله تعالى» (3). والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختياري. والفرق بين العقاب على الفعل الاختياري وغير

---

(1) البقرة ١٩٧ .

(2) هود ٣٦ .

(3) أبو داود الأدب (٥٢٢٥) ، أحمد (٢٠٦/٤) .

الاختياري مستقر في الفطر والعقول.

وإذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم ! كان بمنزلة أن يقال: خلق أكل السم ثم حصول الموت به ظلم ! ! فكما أن هذا سبب للموت، فهذا سبب للعقوبة، ولا ظلم فيهما.

فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله تعالى، ومفعول لله، ليس هو نفس فعل الله. ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق.

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: " وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد " - أثبت للعباد فعلا وكسبا، وأضاف الخلق إلى الله تعالى. والكسب: هو الفعل الذي يعود على فاعله منه نفع أو ضرر، كما قال تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [1].

التكليفُ بِحَسَبِ الطاقَةِ

قوله: (ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم. وهو تفسير " لا حول ولا قوة إلا بالله "، نقول: لا حيلة لأحد، ولا تحول لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله، إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شيء يجري بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدره. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها. يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبدا. لا يسأل عما يفعل وهم يسألون).

ش: فقوله: " لم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون " - قال تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [2]. ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [3].

---

(١) البقرة ٢٨٦ .

(٢) البقرة ٢٨٦ .

(٣) الأنعام ١٥٢ .

وعن أبي الحسن الأشعري أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلا، ثم تردد أصحابه أنه: هل ورد به الشرع أم لا ؟ واحتج من قال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان، فإنه تعالى أخبر بأنه لا يؤمن، وأنه سيصلى نارا ذات لهب، فكان مأمورا بأن يؤمن بأنه لا يؤمن. وهذا تكليف بالجمع بين الضدين، وهو محال.

والجواب عن هذا بالمنع: فلا نسلم بأنه مأمور [بأن يؤمن] بأنه لا يؤمن، والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة، فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان، فما كلف إلا ما يطيقه كما تقدم في تفسير الاستطاعة. ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: ﴿ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾[1]. مع عدم علمهم بذلك، ولا للمصورين يوم القيامة: ﴿ أحيوا ما خلقتم ﴾[2]، وأمثال ذلك - لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب فاعله ويعاقب تاركه، بل هو خطاب تعجيز.

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[3] لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفا، بل يجوز أن يحمله جبلا لا يطيقه فيموت. وقال ابن الأنباري: أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه، قال: فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليه، وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه. ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب ولو امتنع يعاقب، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفسا إلا وسعها.

ومنهم من يقول: يجوز تكليف الممتنع عادة، دون الممتنع لذاته، لأن ذلك لا يتصور وجوده، فلا يعقل الأمر به، بخلاف هذا.

---

(١) البقرة ٣١ .

(٢) البخاري البيوع (١٩٩٩) ، مسلم اللباس والزينة (٢١٠٧) ، أحمد (٢٤٦/٦) ، مالك الجامع (١٨٠٣) .

(٣) البقرة ٢٨٦ .

ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه، بخلاف ما لا يطاق للاشتغال بضده، فإنه يجوز تكليفه. وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة في المعنى، لكن كونهم جعلوا ما يتركه العبد لا يطاق لكونه تاركا له مشتغلا بضده - بدعة في الشرع واللغة. فإن مضمونه أن فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه !

وهم التزموا هذا، لقولهم: إن الطاقة - التي هي الاستطاعة وهي القدرة - لا تكون إلا مع الفعل ! فقالوا: كل من لم يفعل فعلا، فإنه لا يطيقه ! وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، وخلاف ما عليه عامة العقلاء، كما تقدمت الإشارة إليه عند ذكر الاستطاعة.

وأما ما لا يكون إلا مقارنا للفعل، فذلك ليس شرطا في التكليف، مع أنه في الحقيقة إنما هناك إرادة الفعل. وقد يحتجون بقوله تعالى: ﴿ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ ﴾ [(1)]. ﴿ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [(2)]. وليس في ذلك إرادة ما سموه استطاعة، وهو ما لا يكون إلا مع الفعل، فإن الله ذم هؤلاء على كونهم لا يستطيعون السمع، ولو أراد بذلك المقارن لكان جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع ! فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى، ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم، إما حسدا لصاحبه، وإما اتباعا للهوى - لا يستطيعون السمع. وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر، لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع، وليس عنده منه علم. وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقال: إنه لا يستطيع الإحسان إليه، ومن يحبه يقال: إنه لا يستطيع عقوبته، لشدة محبته له، لا لعجزه عن عقوبته، فيقال ذلك للمبالغة، كما تقول: لأضربنه حتى يموت، والمراد الضرب الشديد. وليس هذا عذرا، فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

---

(١) هود ٢٠ .

(٢) الكهف ٦٧ .

فِيهِنَّ ﴾[1].

وقوله: " ولا يطيقون إلا ما كلفهم به "، إلى آخر كلامه - أي: ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه. وهذه الطاقة هي التي من نحو التوفيق، لا التي من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات، و "لا حول ولا قوة إلا بالله" - دليل على إثبات القدر. وقد فسرها الشيخ بعدها.

ولكن في كلام الشيخ إشكال: فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار، وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهي، وهو قال: " لا يكلفهم إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم ". وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد، ولا يصح ذلك، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به، لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف، كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[4]. فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه، ولكنه تفضل علينا ورحمنا، وخفف عنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم: أن المراد الطاقة التي من نحو التوفيق، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، لكن في العبارة قلق، فتأمله.

(١) المؤمنون ٧١ .

(٢) البقرة ١٨٥ .

(٣) النساء ٢٨ .

(٤) الحج ٧٨ .

الفَرْقُ بَيْنَ القَضَاءِ الشرْعِي وَالقَضَاءِ الكَوْني

وقوله: " وكل شيء يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره ".

يريد بقضائه القضاء الكوني لا الشرعي، فإن القضاء يكون كونيا وشرعيا، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات، ونحو ذلك.

أما القضاء الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾ [(١)].

والقضاء الديني الشرعي، في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [(٢)].

وأما الإرادة الكونية والدينية، فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ: " ولا يكون إلا ما يريد ".

وأما الأمر الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [(٣)]. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [(٤)] في أحد الأقوال، وهو أقواها.

والأمر الشرعي، في قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ ﴾ [(٥)] الآية.

وقوله: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [(٦)].

وأما الإذن الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ

---

(١) فصلت ١٢ .

(٢) الإسراء ٢٣ .

(٣) يس ٨٢ .

(٤) الإسراء ١٦ .

(٥) النحل ٩٠ .

(٦) النساء ٥٨ .

ٱللَّهِۚ﴾[1].

والإذن الشرعي، في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[2].

وأما الكتاب الكوني، ففي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ١١﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥﴾[4].

والكتاب الشرعي الديني، في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾[5]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[6].

وأما الحكم الكوني، ففي قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام: ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠﴾[7]. وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١١٢﴾[8]. والحكم الشرعي، في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ

---

(١) البقرة ١٠٢ .

(٢) الحشر ٥ .

(٣) فاطر ١١ .

(٤) الأنبياء ١٠٥ .

(٥) المائدة ٤٥ .

(٦) البقرة ١٨٣ .

(٧) يوسف ٨٠ .

(٨) الأنبياء ١١٢ .

ﱡﭐ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﱠ[1]. وقال تعالى: ﱡﭐ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ ﱠ[2].

وأما التحريم الكوني، ففي قوله تعالى: ﱡﭐ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﱠ[3]. ﱡﭐ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﱠ[4].

والتحريم الشرعي، في قوله: ﱡﭐ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ ﱠ[5]. و ﱡﭐ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ ﱠ[6] الآية.

وأما الكلمات الكونية، ففي قوله تعالى: ﱡﭐ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ ﱠ[7]. وفي قوله ﷺ ﴿أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر﴾[8].

والكلمات الشرعية الدينية، في قوله تعالى: ﱡﭐ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ ﱠ[9].

---

(١) المائدة ١ .

(٢) الممتحنة ١٠ .

(٣) المائدة ٢٦ .

(٤) سورة الأنبياء آية : ٩٥ .

(٥) المائدة ٣ .

(٦) النساء ٢٣ .

(٧) الأعراف ١٣٧ .

(٨) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٨) ، الترمذي الدعوات (٣٤٣٧) ، ابن ماجه الطب (٣٥٤٧) ، أحمد (٦/٤٠٩) ، الدارمي الاستئذان (٢٦٨٠) .

(٩) البقرة ١٢٤ .

كَتَبَ اللهُ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ

وقوله: " يفعل ما يشاء، وهو غير ظالم أبدا " - الذي دل عليه القرآن من تـ يه الله نفسه عن ظلم العباد، يقتضي قولا وسطا بين قولي القدرية والجبرية، فليس ما كان من بني آدم ظلما وقبيحا يكون منه ظلما وقبيحا، كما تقوله القدرية والمعتزلة ونحوهم ! فإن ذلك تمثيل لله بخلقه ! وقياس له عليهم ! هو الرب الغني القادر، وهم العباد الفقراء المقهورون. وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم، يقولون: إنه يمتنع أن يكون في الممكن المقدور ظلم ! بل كل ما كان ممكنا فهو منه - لو فعله - عدل، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهي، والله ليس كذلك. فإن قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [3] وقوله تعالى: ﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [4] وقوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ ﴾ [5] - يدل [6] على نقيض هذا القول.

---

(١) طه ١١٢ .

(٢) سورة ق آية : ٢٩ .

(٣) الزخرف ٧٦ .

(٤) الكهف ٤٩ .

(٥) غافر ١٧ .

(٦) سياق الكلام : " فإن قوله تعالى . . يدل . . " والآيات بين اسم " إن " وخبرها هي الدلائل التي يستدل بها ، وفي المطبوعة : " وذلك يدل " ، وأنا أرجح أن زيادة " وذلك " إما من الناسخ ، وإما من الطابع ! غفلة عن ربط الجملة .

ومنه قوله الذي رواه عنه رسوله: ﴿يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا﴾ [1]. فهذا دل على شيئين:

أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم، والممتنع لا يوصف بذلك.

الثاني: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، وهذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهي، والله ليس كذلك. فيقال لهم: هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه. وأيضا: فإن قوله: ﴿ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [2] - قد فسره السلف، بأن الظلم: أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [3].

وأيضا فإن الإنسان لا يخاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القدرة حتى يأمن من ذلك، وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ [4] - علم أنه ممكن مقدور عليه. وكذا قوله: ﴿ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ [5] إلى قوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [6] - لم يعن با نفي ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفى ما هو مقدور عليه ممكن، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم. فعلى قول هؤلاء ليس الله م ها عن شيء من الأفعال أصلا، ولا مقدسا عن أن يفعله، بل كل ممكن فإنه لا ي ه عن فعله، بل فعله

---

(١) مسلم البر والصلة والآداب (٢٥٧٧) .

(٢) طه ١١٢ .

(٣) الإسراء ١٥ .

(٤) سورة طه آية : ١١٢ .

(٥) ق ٢٨ .

(٦) ق ٢٩ .

حسن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع، والممتنع لا حقيقة له !!

والقرآن يدل على نقيض هذا القول، في مواضع، نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له، فعلم أنه ه ه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه ه ه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم، وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾[1]. فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثا، وأنكر على من حسب ذلك، وهذا فعل. وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾[3] - إنكار منه على من جوز أن يسوي الله بين هذا وهذا. وكذا قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[4] - إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيء قبيح، وهو مما ي ه الرب عنه.

وروى أبو داود، والحاكم في المستدرك، من حديث ابن عباس، وعبادة بن الصامت، وزيد بن ثابت، عن النبي ﷺ «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه، لعذبم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم»[5] [6].

---

(١) المؤمنون ١١٥ .

(٢) القلم ٣٥ .

(٣) ص ٢٨ .

(٤) الجاثية ٢١ .

(٥) أبو داود السنة (٤٦٩٩) ، ابن ماجه المقدمة (٧٧) ، أحمد (١٨٥/٥) .

(٦) هذا جزء من حديث طويل رواه أبو داود : ٤٦٩٩ ، ورواه ابن ماجه : ٧٧ بأطول منه ، وروى بعضه أحمد في المسند ٥ : ١٨٢ - ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٩ (طبعة الحلبي) . وخفي علي موضعه في مستدرك الحاكم ، بعد

وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة ! ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل !!

وأسعد الناس به أهل السنة، الذين قابلوه بالتصديق، وعلموا من عظمة الله تعالى وجلاله، قدر نعم الله على خلقه، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزا، وإما جهلا، وإما تفريطا وإضاعة، وإما تقصيرا في المقدور من الشكر، ولو من بعض الوجوه. فإن حقه على أهل السماوات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وتكون قوة الحب والإنابة، والتوكل والخشية والمراقبة والخوف والرجاء -: جميعها متوجهة إليه، ومتعلقة به، بحيث يكون القلب عاكفا على محبته وتألهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوسا على ذكره، والجوارح وقفا على طاعته.

ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة، ولكن النفوس تشح به، وهي في الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى. وأكثر المطيعين تشح به نفسه من وجه، وإن أتى به من وجه آخر. فأين الذي لا تقع منه إرادة تزاحم مراد الله وما يحبه منه ؟ ومن [ذا] الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له، ولو في وقت من الأوقات ؟ فلو وضع سبحانه عدله على أهل سماواته وأرضه، لعذبهم بعدله، ولم يكن ظالما لهم.

وغاية ما يقدر، توبة العبد من ذلك واعترافه، وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالما ولو قدر أنه تاب منها. لكن أوجب على نفسه - بمقتضى فضله ورحمته - أنه لا يعذب من تاب، وقد كتب على نفسه الرحمة، فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار، أو يدخل الجنة،

طول البحث . ولكن الشارح أخطأ في ذكر الصحابة الذين رووه ، فلم يروه ابن عباس ولا عبادة بن الصامت وإنما الثابت في هذه الروايات : أن ابن الديلمي سأل أبي بن كعب عن شيء من القدر فأجابه ، ثم سأل ابن مسعود فأجابه بمثله ، ثم سأل حذيفة بن اليمان فقال له مثل ما قالا ، ثم سأل زيد بن ثابت فأجابه كذلك ، ولكنه ذكر له أنه سمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فالحديث موقوف عن أولئك الثلاثة ، مرفوع عن زيد بن ثابت وحده ، ولكن الموقوف عنهم - هو موقوف لفظا ، مرفوع حكما؛ لأنه مما لا يعلم بالرأي ، وهو حديث صحيح ، رجاله ثقات .

كما قال أطوع الناس لربه، وأفضلهم عملا، وأشدهم تعظيما لربه وإجلالا: ﴿لن ينجي أحدا منكم عمله "، قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: " ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل﴾ [1] وسأله الصديق دعاء يدعو به في صلاته، فقال: ﴿قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم﴾ [2].

فإذا كان هذا حال الصديق، الذي هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين - فما الظن بسواه ؟ بل إنما صار صديقا بتوفيته هذا المقام حقه، الذي يتضمن معرفة ربه، وحقه وعظمته، وما ينبغي له، وما يستحقه على عبده، ومعرفة تقصيره. فسحقا وبعدا لمن زعم أن المخلوق يستغني عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها ! وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية !! فإن لم يتسع فهمك لهذا، فانزل إلى وطأة النعم، وما عليها من الحقوق، ووازن من شكرها وكفرها، فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذب أهل سماواته وأرضه، لعذبهم وهو غير ظالم لهم.

---

(١) البخاري المرضى (٥٣٤٩) ، مسلم صفة القيامة والجنة والنار (٢٨١٦) ، ابن ماجه الزهد (٤٢٠١) ، أحمد (٢/٢٣٥) .

(٢) البخاري الأذان (٧٩٩) ، مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٥) ، الترمذي الدعوات (٣٥٣١) ، النسائي السهو (١٣٠٢) ، ابن ماجه الدعاء (٣٨٣٥) ، أحمد (١/٤) .

الْأَمْوَاتُ يَنْتَفِعُونَ مِنْ سَعْيِ الْأَحْيَاءِ

اِنْتِفَاعُ الْأَمْوَاتِ مِنْ سَعْيِ الْأَحْيَاءِ

قوله: (وفي دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة للأموات).

ش: اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعي الأحياء بأمرين:

أحدهما: ما تسبب إليه الميت في حياته.

والثاني: دعاء المسلمين واستغفارهم له، والصدقة والحج، على نزاع فيما يصل إليه من ثواب الحج: فعن محمد بن الحسن: أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة، والحج للحاج. وعند عامة العلماء: ثواب الحج للمحجوج عنه، وهو الصحيح.

واختلف في العبادات البدنية، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر: فذهب أبو حنيفة وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعي ومالك عدم وصولها.

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة، لا الدعاء ولا غيره. وقولهم مردود بالكتاب والسنة، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ ﴾[1]. وقوله: ﴿ وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤ ﴾[2]. وقوله: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾[3].

وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده »[4]. فأخبر أنه إنما ينتفع بما

---

(١) النجم ٣٩ .

(٢) يس ٥٤ .

(٣) البقرة ٢٨٦ .

(٤) مسلم الوصية (١٦٣١) ، الترمذي الأحكام (١٣٧٦) ، النسائي الوصايا (٣٦٥١) ، أبو داود الوصايا (٢٨٨٠) ، ابن ماجه المقدمة (٢٤٢) ، أحمد (٣٧٢/٢) ، الدارمي المقدمة (٥٥٩) .

كان تسبب فيه في الحياة، وما لم يكن تسبب فيه في الحياة فهو منقطع عنه.

واستدل المقتصرون على وصول العبادات التي [تدخلها النيابة كالصدقة والحج بأن النوع الذي لا تدخله] (١) النيابة بحال، كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن، - يختص [ثوابه] (٢) بفاعله لا يتعداه، كما أنه في الحياة لا يفعله أحد عن أحد، ولا ينوب فيه عن فاعله غيره، [وقد] (٣) روى النسائي بسنده، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ لا يصلي أحد عن أحد، ولا يصوم أحد عن أحد، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدا من حنطة ﴾ (٤).

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه، الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح.

أما الكتاب، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ (٥) فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء. وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة، والأدعية التي وردت بها السنة في صلاة الجنازة مستفيضة. وكذا الدعاء له بعد الدفن، ففي سنن أبي داود، من حديث عثمان بن عفان ؓ قال:

---

(١) في الأصل سقط وتحريف وتعديل يحيل المعنى ، والتصويب من " الروح " المسألة السادسة عشرة . ن .

(٢) في الأصل سقط وتحريف وتعديل يحيل المعنى ، والتصويب من " الروح " المسألة السادسة عشرة . ن .

(٣) في الأصل سقط وتحريف وتعديل يحيل المعنى ، والتصويب من " الروح " المسألة السادسة عشرة . ن .

(٤) هكذا ذكره الشارح منسوبا للنسائي من حديث ابن عباس مرفوعا ! ورفعه وهم يقينا ، إما من الشارح وإما من الناسخ ، وليس هو في سنن النسائي التي في أيدينا ولكنه في السنن الكبرى موقوف على ابن عباس ، نقله الحافظ الزيلعي في نصب الراية ٢ : ٤٦٣ . وكذلك جاء عن ابن عمر ونحوه موقوفا ، ذكره مالك في الموطأ " أنه بلغه " عن ابن عمر ، ولم يذكر أحد من شارحيه من رواه موصولا ، ولكن الحافظ الزيلعي نقله من مصنف عبد الرزاق بإسناد صحيح عن ابن عمر ، وصرح الزيلعي بما يفيد أنه لم يعرفه مرفوعا قط .

(٥) الحشر ١٠ .

﴿كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: " استغفروا لأخيكم، واسألوا له التثبيت، فإنه الآن يسأل ﴾ (١).

وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم، كما في صحيح مسلم، من حديث بريدة بن الحصيب، قال: ﴿كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: " السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية ﴾ (٢). وفي صحيح مسلم أيضا، عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ سألت النبي ﷺ كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور ؟ قال: " قولي: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ﴾ (٣).

وأما وصول ثواب الصدقة، ففي الصحيحين، عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي افتلتت نفسها، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها ؟ قال: " نعم ﴾ (٤).

وفي صحيح البخاري، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن أمي توفيت وأنا غائب عنها، فهل ينفعها إن تصدقت

---

(١) أبو داود الجنائز (٣٢٢١) .

(٢) مسلم الجنائز (٩٧٥) ، النسائي الجنائز (٢٠٤٠) ، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٥٤٧) ، أحمد (٣٥٣/٥) .

(٣) مسلم الجنائز (٩٧٤) ، النسائي الجنائز (٢٠٣٧) ، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٥٤٦) ، أحمد (٢٢١/٦) .

(٤) البخاري الجنائز (١٣٢٢) ، مسلم الزكاة (١٠٠٤) ، النسائي الوصايا (٣٦٤٩) ، أبو داود الوصايا (٢٨٨١) ، ابن ماجه الوصايا (٢٧١٧) ، أحمد (٥١/٦) ، مالك الأقضية (١٤٩٠) .

عنها ؟ قال: " نعم "، قال: فإني أشهدك أن حائطي المخراف صدقة عنها ﴾ [١]. وأمثال ذلك كثيرة في السنة.

وأما وصول ثواب الصوم، ففي الصحيحين، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ من مات وعليه صيام صام عنه وليه ﴾ [٢]. وله نظائر في الصحيح.

ولكن أبو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه، لحديث ابن عباس المتقدم. والكلام على ذلك معروف في كتب الفروع.

وأما وصول ثواب الحج، ففي صحيح البخاري، عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها ؟ قال: " حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين، أكنت قاضيته ؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء ﴾ [٣]. ونظائره أيضا كثيرة.

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمة الميت، ولو كان من أجنبي، ومن غير تركته. وقد دل على ذلك حديث أبي قتادة، حيث ضمن الدينارين عن الميت، فلما قضاهما قال النبي ﷺ ﴿ الآن بردت عليه جلدته ﴾ [٤].

وكل ذلك جار على قواعد الشرع. وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك، كما لم يمنع من هبة ماله له في حياته، وإبرائه له منه بعد وفاته.

---

(١) البخاري الوصايا (٢٦١١) ، النسائي الأيمان والنذور (٣٨١٨) ، أبو داود الأيمان والنذور (٣٣٠٧) ، ابن ماجه الكفارات (٢١٣٢) ، أحمد (٣٣٣/١) ، مالك النذور والأيمان (١٠٢٥) .

(٢) البخاري الصوم (١٨٥١) ، مسلم الصيام (١١٤٧) ، أبو داود الصوم (٢٤٠٠) ، أحمد (٦٩/٦) .

(٣) البخاري الحج (١٧٥٤) ، النسائي مناسك الحج (٢٦٣٣) ، أحمد (٢٧٩/١) ، الدارمي النذور والأيمان (٢٣٣٢) .

(٤) أحمد (٣٣٠/٣) .

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية. يوضحه: أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية، وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت، فكيف بالقراءة التي هي عمل ونية ؟ !

مَعْنى قَوْلِهِ تَعَالَى " وَأَنْ لَيسَ لِلْإِنسَانِ إلا مَا سَعَى "

والجواب عما استدلوا به من قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ (١)

- قد أجاب العلماء بأجوبة: أصحها جوابان:

أحدهما: أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير وتودد إلى الناس، فترحموا عليه، ودعوا له، وأهدوا له ثواب الطاعات، فكان ذلك أثر سعيه، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه، في حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم.

يوضحه: أن الله تعالى جعل الإيمان سببا لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه ذلك. الثاني: - وهو أقوى منه -: أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى. فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه، وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يبقيه لنفسه.

وقوله سبحانه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ (٢) - آيتان محكمتان، مقتضيتان عدل الرب تعالى:

فالأولى تقتضي أنه لا يعاقب أحدا بجرم غيره، ولا يؤاخذه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا.

---

(١) النجم ٣٩ .

(٢) النجم ٣٨ - ٣٩ .

والثانية تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله، ليقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشائخه، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، وهو سبحانه لم يقل: لا ينتفع إلا بما سعى.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتۡ ﴾ (١) وقوله: ﴿ وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ ﴾ (٢). على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفي عقوبة العبد بعمل غيره، فإنه تعالى قال: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ ﴾ (٣).

وأما استدلالهم بقوله ﷺ ﴿ إذا مات ابن آدم انقطع عمله ﴾ (٤) فاستدلال ساقط، فإنه لم يقل انقطع انتفاعه، وإنما أخبر بانقطاع عمله. وأما عمل غيره فهو لعامله، فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل، لا ثواب عمله هو، وهذا كالدين يوفيه الإنسان عن غيره، فتبرأ ذمته، لكن ليس له ما وفى به الدين.

وأما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية - فقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم الصوم عن الميت، كما تقدم، مع أن الصوم لا تجزي فيه النيابة، [وكذلك] (٥) حديث جابر ﷺ قال: ﴿ صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش

---

(١) البقرة ٢٨٦ .

(٢) يس ٥٤ .

(٣) يس ٥٤ .

(٤) مسلم الوصية (١٦٣١) ، الترمذي الأحكام (١٣٧٦) ، النسائي الوصايا (٣٦٥١) ، أبو داود الوصايا (٢٨٨٠) ، ابن ماجه المقدمة (٢٤٢) ، أحمد (٣٧٢/٢) ، الدارمي المقدمة (٥٥٩) .

(٥) في الأصل : (ولكن) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

فذبحه، فقال: " بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي ﴾ [1] ، رواه أحمد وأبو داود والترمذي، وحديث الكبشين اللذين قال في أحدهما: ﴿ اللهم هذا عن أمتي جميعا ﴾ ، وفي الآخر: ﴿ اللهم هذا عن محمد وآل محمد ﴾ "، رواه أحمد. والقربة في الأضحية إراقة الدم، وقد جعلها لغيره.

وكذلك عبادة الحج بدنية، وليس [المال] ركنا فيه، وإنما هو وسيلة، ألا ترى أن المكي يجب عليه الحج إذا قدر على المشي إلى عرفات، من غير شرط المال. وهذا هو الأظهر، أعني أن الحج غير مركب من مال وبدن، بل بدني محض، كما قد نص عليه جماعة من أصحاب أبي حنيفة المتأخرين.

وانظر إلى فروض الكفايات: كيف قام فيها البعض عن الباقين ؟ ولأن هذا [إهداء] [2] ثواب، وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنه، وله أن يعطي أجرته لمن شاء.

الِاسْتِئْجَارُ عَلَى تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ وَإِهْدَائِهِ لِلْمَيِّتِ

وأما استئجار قوم يقرءون القرآن ويهدونه للميت !! فهذا لم يفعله أحد من السلف، ولا أمر به أحد من أئمة الدين، ولا رخص فيه. والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف. وإنما اختلفوا في جواز الاستئجار على التعليم ونحوه، مما فيه منفعة تصل إلى الغير. والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله، وهذا لم يقع عبادة خالصة، فلا يكون [له من] ثوابه ما يهدى إلى الموتى !! ولهذا لم يقل أحد أنه يكتري من يصوم ويصلي ويهدي ثواب ذلك إلى الميت، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك، كان هذا من جنس الصدقة عنه، فيجوز.

---

(١) الترمذي الأضاحي (١٥٢١) ، أبو داود الضحايا (٢٨١٠) ، ابن ماجه الأضاحي (٣١٢١) ، أحمد (٣/٣٥٦) ، الدارمي الأضاحي (١٩٤٦) .

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، ولعل الصواب إثباتا من سائر النسخ . ن .

وفي الاختيار: لو أوصى بأن يعطى شيء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره، فالوصية باطلة، لأنه في معنى الأجرة، انتهى.

وذكر الزاهدي في [القنية] (١) أنه لو وقف على من يقرأ عند قبره، فالتعيين باطل.

قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ وَإِهْدَاؤُهَا لِلْمَيتِ بِغَيرِ أُجْرَةٍ

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له [تطوعا] (٢) بغير أجرة، فهذا يصل إليه، كما يصل ثواب الصوم والحج.

فإن قيل: هذا لم يكن معروفا في السلف، ولا أرشدهم إليه النبي ﷺ ؟

فالجواب: إن كان مورد هذا السؤال معترفا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء، قيل له: ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجة في عدم الوصول، ومن أين لنا هذا النفي العام ؟

فإن قيل: فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة ؟ قيل: هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه، وهذا سأله عن الصوم عنه، فأذن له فيه، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأي فرق بين وصول ثواب الصوم - الذي هو مجرد نية وإمساك - وبين وصول ثواب القراءة والذكر ؟ فإن قيل: ما تقولون في الإهداء إلى رسول الله ﷺ ؟

قيل: من المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، ولأن النبي ﷺ له مثل أجر كل من عمل خيرا من أمته، من غير أن ينقص من أجر العامل شيء، لأنه هو الذي دل أمته على كل خير، وأرشدهم إليه.

ومن قال: إن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده، باعتبار سماعه كلام الله - فهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين. ولا شك في سماعه، ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح، فإن

---

(١) في الأصل: (الغنية) والتصويب من " الجواهر المضية في طبقات الحنفية " للقرشي ٣ / ٤٦٠، وهدية العارفين ٢ / ٤٢٣. ن.

(٢) في الأصل: (طوعا) ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ. ن.

ثواب الاستماع مشروط بالحياة، فإنه عمل اختياري، وقد انقطع بموته، بل ربما يتضرر ويتألم، لكونه لم يمتثل أوامر الله ونواهيه، أو لكونه لم يزدد من الخير.

اخْتِلَافُ الْعُلَمَاءِ فِي حُكْمِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عِنْدَ الْقُبُورِ

واختلف العلماء في قراءة القرآن عند القبور، على ثلاثة أقوال: هل تكره، أم لا بأس بها وقت الدفن، وتكره بعده ؟

فمن قال بكراهتها، كأبي حنيفة ومالك وأحمد في رواية - قالوا: لأنه محدث، لم ترد به السنة، والقراءة تشبه الصلاة، والصلاة عند القبور منهي عنها، فكذلك القراءة.

ومن قال: لا بأس بها، كمحمد بن الحسن وأحمد في رواية - استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضي الله عنه أنه أوصى أن يقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها. ونقل أيضا عن بعض المهاجرين قراءة سورة البقرة.

ومن قال: لا بأس بها وقت الدفن فقط، وهو رواية عن أحمد - أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين.

وأما بعد ذلك، كالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده - فهذا مكروه، فإنه لم تأت به السنة، ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلا. وهذا القول لعله أقوى من غيره، لما فيه من التوفيق بين الدليلين.

اسْتِجَابَةُ اللهِ الدعَاءَ

اسْتِجَابَةُ اللهِ دُعَاءَ عَبْدِهِ

[قوله]: (والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات).

ش: قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (1). ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ (2). والذي عليه أكثر الخلق من المسلمين

(1) غافر ٦٠ .

(2) البقرة ١٨٦ .

وسائر أهل الملل وغيرهم - أن الدعاء من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنم إذا مسهم الضر في البحر دعوا الله مخلصين له الدين، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعدا أو قائما. وإجابة الله لدعاء العبد، مسلما كان أو كافرا، وإعطاؤه سؤله - من جنس رزقه لهم، ونصره لهم. وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقا، ثم قد يكون ذلك فتنة في حقه ومضرة عليه، إذ كان كفره وفسوقه يقتضي ذلك.

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ ﴿من لم يسأل الله يغضب عليه﴾ [1] [2]. وقد نظم بعضهم هذا المعنى، فقال:

الـرب يغضـب إن تركت سؤاله ... وبـني آدم حـين يسـأل يغضب

قال ابن عقيل: قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفي ذلك معان:

أحدها: الوجود، فإن من ليس بموجود لا يدعى.

الثاني: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

الثَانِي: الْغَنى، فَإن الْفَقِيرَ لَا يُدْعَى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسي لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى.

ومن يقول بالطبائع يعلم أن النار لا يقال لها: كفي ! ولا النجم يقال له: أصلح مزاجي ! ! لأن هذه عندهم مؤثرة طبعا لا اختيارا، فشرع الدعاء وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع.

---

(١) الترمذي الدعوات (٣٣٧٣) ، ابن ماجه الدعاء (٣٨٢٧) .

(٢) رواه ابن ماجه : ٣٨٢٧ . ورواه أيضا الإمام أحمد في المسند : ٩٦٩٩ ، ٩٧١٧ ، ١٠١٨١ . وكذلك رواه الترمذي ٤ : ٢٢٤ . وكذلك رواه البزار ، كما ذكر ابن كثير في التفسير ٧ : ٣٠٩ - ٣١٠ . واللفظ الذي هنا هو لفظ الترمذي والبزار .

الرد عَلَى مَنْ يَزْعُمُ عَدَمَ فَائِدَةِ الدعَاءِ

وذهب قوم من المتفلسفة وغالية المتصوفة [إلى] أن الدعاء لا فائدة فيه ! قالوا: لأن المشيئة الإلهية إن اقتضت وجود المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، وإن لم تقتضه فلا فائدة في الدعاء !! وقد يخص بعضهم بذلك خواص العارفين ! ويجعل الدعاء علة في مقام الخواص!! وهذا من غلطات بعض الشيوخ. فكما أنه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام - فهو معلوم الفساد بالضرورة العقلية، فإن منفعة الدعاء أمر أنشئت عليه تجارب الأمم، حتى إن الفلاسفة تقول: ضجيج الأصوات، في هياكل العبادات، بفنون اللغات، تحلل ما عقدته الأفلاك المؤثرات !! هذا وهم مشركون.

وجواب الشبهة بمنع المقدمتين: فإن قولهم عن المشيئة الإلهية: إما أن تقتضيه أو لا - [فـ]ثم قسم ثالث، وهو: أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه، وقد يكون الدعاء من شرطه، كما توجب الثواب مع العمل الصالح، ولا توجبه مع عدمه، وكما توجب الشبع والري عند الأكل والشرب، ولا توجبه مع عدمهما، وحصول الولد بالوطء، والزرع بالبذر. فإذا قدر وقوع المدعو به بالدعاء لم يصح أن يقال لا فائدة في الدعاء، كما لا يقال لا فائدة في الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب. فقول هؤلاء - كما أنه مخالف للشرع، فهو مخالف للحس والفطرة. ومما ينبغي أن يعلم، ما قاله طائفة من العلماء، وهو: أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ! ومحو الأسباب أن تكون أسبابا، نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع. ومعنى التوكل والرجاء، يتألف من وجوب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه، ورجاؤه والاستناد إليه. وليس في المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس بمستقل، ولا بد له من شركاء وأضداد مع هذا كله، فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر.

وقولهم: إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء ؟ قلنا: بل قد تكون إليه حاجة، من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجلة، ودفع مضرة أخرى عاجلة وآجلة.

وكذلك قولهم: وإن لم تقتضه [1] فلا فائدة فيه ؟ قلنا: بل فيه فوائد عظيمة، من جلب منافع، ودفع مضار، كما نبه عليه النبي ﷺ بل ما يعجل للعبد، من معرفته بربه، وإقراره به، وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم، وإقراره بفقره إليه واضطراره إليه، وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحوال الزكية، التي هي من أعظم المطالب.

فإن قيل: إذا كان إعطاء الله معللا بفعل العبد، كما يعقل من إعطاء [المسؤول] [2] للسائل، كان السائل قد أثر في المسؤول حتى أعطاه ؟!

قلنا: الرب سبحانه هو الذي حرك العبد إلى دعائه، فهذا الخير منه، وتمامه عليه. كما قال عمر رضي الله عنه " إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه ". وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [3]. فأخبر سبحانه أنه يبتدئ بتدبير [الأمر]، ثم يصعد إليه الأمر الذي دبره، فالله سبحانه هو الذي يقذف في قلب العبد حركة الدعاء، ويجعلها سببا للخير الذي يعطيه إياه، كما في العمل والثواب، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه، فما أثر فيه شيء من المخلوقات، بل هو جعل ما يفعله سببا لما يفعله. قال مطرف بن عبد الله بن الشخير، أحد أئمة التابعين: نظرت في هذا الأمر، فوجدت مبدأه من الله، وتمامه على الله، ووجدت ملاك ذلك الدعاء.

بَيَانُ الْحِكْمَةِ أن الداعِيَ قَدْ لَا يُعْطَى شَيْئًا أَوْ يُعطى غَيْرَ مَا سَأَلَ

وهنا سؤال معروف، وهو: أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى، أو يعطى غير ما سأل ؟ وقد أجيب عنه بأجوبة، فيها ثلاثة أجوبة محققة:

---

(١) في المطبوعة " وإن تقتضيه " ! وهو خطأ ولحن .

(٢) في الأصل : (المال) . ولعل الصواب ما أثبتناه . ن .

(٣) السجدة ٥ .

أحدها: أن الآية لم تتضمن عطية السؤال مطلقا، وإنما تضمنت إجابة الداعي، والداعي أعم من السائل، وإجابة الداعي أعم من إعطاء السائل. ولهذا قال النبي ﷺ ﴿ ي ل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ﴾ [(١)] ؟.

ففرق بين الداعي والسائل، وبين الإجابة والإعطاء، وهو فرق بالعموم والخصوص، كما أتبع ذلك بالمستغفر، وهو نوع من السائل، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص. وإذا علم العباد أنه قريب، مجيب دعوة الداعي، [و] علموا قربه منهم، وتمكنهم من سؤاله -: علموا علمه ورحمته وقدرته، فدعوه دعاء العبادة في حال، ودعاء المسألة في حال، وجمعوا بينهما في حال، إذ " الدعاء " اسم يجمع العبادة والاستعانة، وقد فسر قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [(٢)] - بالدعاء، الذي هو العبادة، والدعاء الذي هو الطلب. وقوله بعد ذلك: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ [(٣)] - يؤيد المعنى الأول.

الجواب الثاني: أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء المسؤول، كما فسره النبي ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال: ﴿ ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل دعوته، أو يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها "، قالوا: يا رسول الله، إذا نكثر.

---

(١) البخاري الدعوات (٥٩٦٢) ، مسلم صلاة المسافرين وقصرها (٧٥٨) ، الترمذي الدعوات (٣٤٩٨) ، أبو داود السنة (٤٧٣٣) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٦٦) ، أحمد (٤٣٣/٢) ، مالك النداء للصلاة (٤٩٦) ، الدارمي الصلاة (١٤٨٤) .

(٢) غافر ٦٠ .

(٣) غافر ٦٠ .

قال: " الله أكثر " [1] [2]. فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلا، أو مثله من الخير مؤجلا، أو يصرف عنه من السوء مثله.

الجواب الثالث: أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب، والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب، بل قد يحصل غيره. وهكذا سائر الكلمات الطيبات، من الأذكار المأثورة المعلق عليها جلب منافع أو دفع مضار، فإن الكلمات بمـ لة الآلة في يد الفاعل، تختلف باختلاف قوته وما يعينها، وقد يعارضها مانع من الموانع. ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر- من هذا الباب. وكثيرا ما تجد أدعية دعا بـا قوم فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمت منه، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكر الحسنة، أو صادف وقت إجابة، ونحو ذلك - فأجيبت دعوته، فيظن أن السر في ذلك الدعاء، فيأخذه مجردا عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي.

وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعا في الوقت الذي ينبغي، فانتفع به، فظن آخر أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب، وكان غالطا.

وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر، فيجاب، فيظن أن السر للقبر، ولم يدر أن السر للاضطرار وصدق اللجء [3] إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب إلى الله تعالى.

---

(١) الترمذي الدعوات (٣٥٧٣) ، أحمد (٣٢٩/٥) .

(٢) لم أجده بـذا السياق في صحيح مسلم ، وقد روى أحمد نحوه في المسند : ١١١٥٠ من حديث أبي سعيد الخدري ، وهو في مجمع الزوائد ١٠ : ١٤٨ - ١٤٩ . وروى الترمذي ٤ : ٢٧٩ - ٢٨٠ نحو هذا المعنى مختصرا من حديث عبادة بن الصامت . وذكر في الزوائد ١٠ : ١٤٧ حديث عبادة مطولا ، من رواية الطبراني في الأوسط .

(٣) " اللجء " - بفتح اللام وسكون الجيم : مصدر ، كاللجوء .

فالأدعية والتعوذات والرقى بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحا تاما والساعد ساعدا قويا، والمحل قابلا، والمانع مفقودا - حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير.

فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء، أو كان ثم مانع من الإجابة - لم يحصل الأثر.

قوله: (ويملك كل شيء، ولا يملكه شيء. ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين، فقد كفر وصار من أهل الحين).

ش: كلام حق ظاهر لا خفاء فيه. والحين، بالفتح: الهلاك.

غَضَبُ اللهِ وَرِضَاهُ

قوله: (والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى).

ش: قال تعالى: ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ [1]. ﴿ ۞ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [2]. وقال تعالى: ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ ﴾ [3]. ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ [4]. ﴿ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ﴾ [5]. ونظائر ذلك كثيرة. ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب، والرضى، والعداوة، والولاية، والحب، والبغض، ونحو ذلك من الصفات، التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى. كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات، كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله: " إذ كان تأويل الرؤية

---

(١) المائدة ١١٩ .

(٢) الفتح ١٨ .

(٣) المائدة ٦٠ .

(٤) النساء ٩٣ .

(٥) البقرة ٦١ .

وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية - بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين " [(١)].

وانظر إلى جواب الإمام مالك ﷺ في صفة [الاستواء]: الاستواء معلوم [(٢)] والكيف مجهول. وروي أيضا عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفا عليها، ومرفوعا إلى النبي ﷺ.

وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم: " من لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب الت يه ". ويأتي في كلامه " أن الإسلام بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل ".

فقول الشيخ رحمه الله: " لا كأحد من الورى " - نفي التشبيه. ولا يقال: إن الرضى إرادة الإحسان، والغضب إرادة الانتقام - فإن هذا نفي للصفة. وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وإن كان لا يريده ولا يشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه، ويبغضه ويغضب على فاعله، وإن كان قد شاءه وأراده. فقد يحب عندهم ويرضى ما لا يريده، ويكره ويسخط ويغضب لما أراده.

ويقال لمن تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان: لم تأولت ذلك ؟ فلا بد أن يقول: لأن الغضب غليان دم القلب، والرضا الميل والشهوة، وذلك لا يليق بالله تعالى ! فيقال له: غليان دم القلب في الآدمي أمر ينشأ عن صفة الغضب، [لا أنه الغضب] [(٣)]. ويقال له أيضا: وكذلك الإرادة والمشيئة فينا، هي ميل الحي إلى الشيء أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحي منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرة، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه، ويزداد بوجوده، وينقص بعدمه. فالمعنى الذي صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذي صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذاك، وإن امتنع هذا امتنع ذاك.

فإن قالوا: [الإرادة] التي يوصف الله بها مخالفة للإرادة التي يوصف بها العبد، وإن كان كل منهما حقيقة ؟ قيل له: فقل: إن الغضب والرضا الذي يوصف الله به مخالف لما

---

(١) مضى في ص : ١٨٠ .

(٢) في المطبوعة " في صفة كيف الاستواء معلوم " ! وهو كلام مضطرب لا معنى له ، تخليط من الناسخين .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، ولعل الصواب إثباته من سائر النسخ . ن .

يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة. فإذا كان ما يقوله في الإرادة يمكن أن يقال في هذه الصفات، لم يتعين التأويل، بل يجب تركه؛ لأنك تسلم من التناقض، وتسلم أيضا من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب. فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام، ولا يكون الموجب للصرف ما دل عليه عقله، إذ العقول مختلفة، فكل يقول إن عقله دل على خلاف ما يقوله الآخر !

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى، لامتناع مسمى ذلك في المخلوق، فإنه لا بد أن يثبت شيئا لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى في صفة الوجود، فإن وجود العبد كما يليق به، ووجود الباري تعالى كما يليق به، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم، وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته، مثل الحي والعليم والقدير، أو سمى به بعض صفاته، كالغضب والرضى، وسمى به بعض صفات عباده - فنحن نعقل بقلوبنا معاني هذه الأسماء في حق الله تعالى، وأنه حق ثابت موجود، ونعقل أن بين المعنيين قدرا مشتركا، لكن هذا المعنى لا يوجد في الخارج مشتركا، إذ المعنى المشترك الكلي لا يوجد مشتركا إلا في الأذهان، ولا يوجد في الخارج إلا معينا مختصا. فيثبت في كل منهما كما يليق به. بل لو قيل: غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة - لم يجب أن يكون مماثلا لكيفية غضب الآدميين، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة، حتى تغلي دماء قلوبهم كما يغلي دم قلب الإنسان عند غضبه. فغضب الله أولى.

وقد نفى الجهم ومن وافقه كل ما وصف الله به نفسه، من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك، وقالوا: إنما هي أمور مخلوقة منفصلة عنه، ليس هو في نفسه متصفا بشيء من ذلك !!

وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب ومن وافقه، فقالوا: لا يوصف الله بشيء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلا، [و] جميع هذه الأمور صفات لازمة لذاته، قديمة أزلية، فلا يرضى في وقت دون وقت، ولا يغضب في وقت دون وقت. كما قال في حديث

الشفاعة: ﴿ إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ﴾ [(١)].

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ ﴿ إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة. فيقولون: لبيك وسعديك والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدا من خلقك ! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدا ﴾ [(٢)].

فيستدل به على أنه يحل رضوانه في وقت دون وقت، وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط، كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانا لا يتعقبه سخط.

وهم قالوا: لا يتكلم إذا شاء، ولا يضحك إذا شاء، ولا يغضب إذا شاء، ولا يرضى إذا شاء، بل إما أن يجعلوا الرضى والغضب والحب والبغض هو الإرادة، أو يجعلوها صفات أخرى، وعلى التقديرين فلا يتعلق شيء من ذلك لا بمشيئته ولا بقدرته، إذ لو تعلقت بذلك لكان محلا للحوادث !! فنفى هؤلاء الصفات [الفعلية] [(٣)] الذاتية بهذا الأصل، كما نفى أولئك الصفات مطلقا بقولهم ليس محلا للأعراض. وقد يقال: بل هي أفعال، ولا تسمى حوادث، كما سميت تلك صفات، ولم تسم أعراضا. وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى، ولكن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في الصفات في المختصر في مكان واحد، وكذلك الكلام في القدر ونحو ذلك، ولم يعتن فيه بترتيب.

وأحسن ما يرتب عليه كتاب أصول الدين ترتيب جواب النبي ﷺ لجبريل عليه السلام،

---

(١) البخاري تفسير القرآن (٤٤٣٥) ، مسلم الإيمان (١٩٤) ، الترمذي صفة القيامة والرقائق والورع (٢٤٣٤) .

(٢) البخاري التوحيد (٧٠٨٠) ، مسلم الجنة وصفة نعيمها وأهلها (٢٨٢٩) ، الترمذي صفة الجنة (٢٥٥٥) ، أحمد (٨٨/٣) .

(٣) في الأصل : (العقلية) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

حين سأله عن الإيمان، فقال: ﴿ أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ﴾ [(١)] ، الحديث - فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك، ثم بالكلام على الملائكة، ثم وثم، إلى آخره.

الثَنَاءُ عَلَى الصحَابَةِ

مَا وَرَدَ مِنَ النصُوصِ فِي الثَنَاءِ عَلَى الصحَابَةِ

وقوله: (ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم. ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم. ولا نذكرهم إلا بخير. وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان).

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض والنواصب. وقد أثنى الله على الصحابة هو ورسوله، ورضي عنهم، ووعدهم الحسنى كما قال تعالى: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ } [(٢)].

وقال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعٗا سُجَّدٗا ﴾ [(٣)] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [(٤)].

---

(١) البخاري تفسير القرآن (٤٤٩٩) ، مسلم الإيمان (١٠) ، النسائي الإيمان وشرائعه (٤٩٩١) ، ابن ماجه المقدمة (٦٤) ، أحمد (٤٢٦/٢) .

(٢) التوبة ١٠٠ .

(٣) الفتح ٢٩ .

(٤) الفتح ١٨ .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [1]. إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [2].

﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [3].

وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاءوا من بعدهم، يستغفرون لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء. فمن كان في قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق في الفيء نصيبا، بنص القرآن. وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء، فسبه خالد، فقال رسول الله ﷺ ﴿ لا تسبوا أحدا من أصحابي، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبا، ما أدرك مد أحدهم ولا

---

(١) الأنفال ٧٢ .

(٢) الحديد ١٠ .

(٣) الحشر ٨ - ١٠ .

نصيفه ﴾ [1] [2]. انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن، دون البخاري. فإن النبي ﷺ يقول لخالد ونحوه: ﴿ لا تسبوا أصحابي ﴾ [3]، يعني عبد الرحمن وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون، وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا، وهم أهل بيعة الرضوان، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وبعد مصالحة النبي ﷺ أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة، وسموا الطلقاء، منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية.

والمقصود أنه نهى من له صحبة أخرى أن يسب من له صحبة أولى، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه.

فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية، وإن كان قبل فتح مكة - فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة ؟ رضي الله عنهم أجمعين.

والسابقون الأولون - من المهاجرين والأنصار - هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة.

وقيل: إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين، وهذا ضعيف. فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة، لأن النسخ ليس من فعلهم، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعي، كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التي كانت تحت الشجرة.

---

(١) البخاري المناقب (٣٤٧٠) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٥٤١) ، الترمذي المناقب (٣٨٦١) ، أبو داود السنة (٤٦٥٨) ، أحمد (٥٥/٣) .

(٢) صحيح مسلم ٢ : ٢٧٣ . وصححنا لفظه هنا منه .

(٣) البخاري المناقب (٣٤٧٠) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٥٤١) ، الترمذي المناقب (٣٨٦١) ، أبو داود السنة (٤٦٥٨) ، ابن ماجه المقدمة (١٦١) ، أحمد (٥٥/٣) .

وأما ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم ﴾ - فهو حديث ضعيف، قال البزار: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ وليس هو في كتب الحديث المعتمدة [(١)].

وفي صحيح مسلم عن جابر، قال: قيل لعائشة رضي الله عنها: إن ناسا يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر ! فقالت: (وما تعجبون من هذا ! انقطع عنهم العمل، فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر).

وروى ابن بطه بإسناد صحيح، عن ابن عباس، أنه قال: (لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فلمقام أحدهم ساعة - يعني مع النبي ﷺ - خير من عمل أحدكم أربعين سنة). وفي رواية وكيع: (خير من عبادة أحدكم عمره).

وفي الصحيحين من حديث عمران بن حصين وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: ﴿ خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم " قال عمران: فلا أدري: أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة؟ ﴾ [(٢)]، الحديث.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن جابر، أن النبي ﷺ قال: ﴿ لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة ﴾ [(٣)].

وقال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [(٤)] الآيات.

---

(١) ذكره الذهبي في الميزان ١ : ١٩١ في ترجمة " جعفر بن عبد الواحد الهاشمي القاضي "، وهو ممن يضع الحديث ، ويروي أحاديث لا أصل لها ، ووصف الذهبي هذا الخبر بأنه من بلايا جعفر .

(٢) مسلم فضائل الصحابة (٢٥٣٥) ، الترمذي الفتن (٢٢٢١) ، النسائي الأيمان والنذور (٣٨٠٩) ، أبو داود السنة (٤٦٥٧) ، أحمد (٤/٤٢٦) .

(٣) الترمذي المناقب (٣٨٦٠) ، أبو داود السنة (٤٦٥٣) ، أحمد (٣/٣٥٠) .

(٤) التوبة ١١٧ .

ولقد صدق عبد الله بن مسعود ﷺ في وصفهم، حيث قال: (إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ الْعِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيهِ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْهُ سَيئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيئٌ). وَفِي رِوَايَةٍ: (وَقَدْ رَأَى أَصْحَابُ مُحَمدٍ جَمِيعًا أَنْ يَسْتَخْلِفُوا أَبَا بَكْرٍ).

وَتَقَدمَ قَوْلُ ابْنِ مَسْعُودٍ: " مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتنا فَلْيَسْتَن بِمَنْ قَدْ مَاتَ.. ". إِلَخْ، عِنْدَ قَوْلِ الشيْخِ: " وَنَتبِعُ السنةَ وَالْجَمَاعَةَ ".

فَمَنْ أَضَل مِمنْ يَكُونُ فِي قَلْبِهِ [حِقْدٌ] عَلَى خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ، وَسَادَاتِ أَوْلِيَاءِ اللهِ تَعَالَى بَعْدَ النبِيينَ ؟ بَلْ قَدْ فَضَلَهُمُ الْيَهُودُ وَالنصَارَى بِخَصْلَةٍ، قِيلَ لِلْيَهُودِ: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلتِكُمْ ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُوسَى، وَقِيلَ لِلنصَارَى: مَنْ خَيْرُ أَهْلِ مِلتِكُمْ ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ عِيسَى، وَقِيلَ لِلرافِضَةِ: مَنْ شَر أَهْلِ مِلتِكُمْ ؟ قَالُوا: أَصْحَابُ مُحَمدٍ !! لَمْ يَسْتَثْنُوا مِنْهُمْ إِلا الْقَلِيلَ، وَفِيمَنْ سَبوهُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِمنِ اسْتَثْنَوْهُمْ بِأَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ.

وَقَوْلُهُ: " وَلَا نُفَرطُ فِي حُب أَحَدٍ مِنْهُمْ " - أَيْ لَا نَتَجَاوَزُ الْحَد فِي حُب أَحَدٍ مِنْهُمْ، كَمَا تَفْعَلُ الشيعَةُ، فَنَكُونُ مِنَ الْمُعْتَدِينَ. قَالَ تَعَالَى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ (١).

لَا يَجُوزُ التبَرؤُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الصحَابَةِ

وَقَوْلُهُ: " وَلَا نَتَبرأُ مِنْ أَحَدٍ مِنْهُمْ " - كَمَا فَعَلَتِ الرافِضَةُ ! فَعِنْدَهُمْ لَا وَلَاءَ إِلا بِبَرَاءٍ، أَيْ لَا يَتَوَلى أَهْلَ الْبَيْتِ حَتى يَتَبرأَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا !! وَأَهْلُ السنةِ يُوَالُونَهُمْ كُلهُمْ، وَيُنْزِلُونَهُمْ مَنَازِلَهُمُ التِي يَسْتَحِقونَهَا، بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، لَا بِالْهَوَى وَالتعَصبِ. فَإِن ذَلِكَ كُلهُ مِنَ الْبَغْيِ الذِي هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَد، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَا

(١) النسَاءِ : ١٧١ .

﴿ ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ ﴾ [1]. وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مَنْ قَالَ مِنَ السلَفِ: الشهَادَةُ بِدْعَةٌ، وَالْبَرَاءَةُ بِدْعَةٌ. يُرْوَى ذَلِكَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ السلَفِ، مِنَ الصحَابَةِ وَالتابِعِينَ، مِنْهُمْ: أَبو سَعِيدٍ الْخُدْرِي، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِي، وَإِبْرَاهِيمُ النخَعِي، وَالضحَاكُ، وَغَيْرُهُمْ.

وَمَعْنَى الشهَادَةِ: أَنْ يَشْهَدَ عَلَى مُعَينٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنهُ مِنْ أَهْلِ النارِ، أَوْ أَنهُ كَافِرٌ، بِدُونِ الْعِلْمِ بِمَا خَتَمَ اللهُ لَهُ بِهِ.

وَقَوْلُهُ: وَحُبهُمْ دِينٌ وَإِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ - لِأَنهُ امْتِثَالٌ لِأَمْرِ اللهِ فِيمَا تَقَدمَ مِنَ النصُوصِ.

وَرَوَى الترْمِذِي عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُغَفلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: « اللهَ اللهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتخِذُوهُمْ غَرَضًا [بَعْدِي]، فَمَنْ أَحَبهُمْ فَبِحُبي أَحَبهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللهَ، وَمَنْ آذَى اللهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ » [2].

وَتَسْمِيَةُ حُب الصحَابَةِ إِيمَانًا مُشْكِلٌ عَلَى الشيْخِ رَحِمَهُ اللهُ، لِأَن الْحُب عَمَلُ الْقَلْبِ، وَلَيْسَ هُوَ التصْدِيقَ، فَيَكُونُ الْعَمَلُ دَاخِلًا فِي مُسَمى الْإِيمَانِ. وَقَدْ تَقَدمَ فِي كَلَامِهِ: أَن الْإِيمَانَ هُوَ الْإِقْرَارُ بِاللسَانِ وَالتصْدِيقُ بِالْجَنَانِ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْعَمَلَ دَاخِلًا فِي مُسَمى الْإِيمَانِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ مِنْ مَذْهَبِ أَهْلِ السنةِ، إِلا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ التسْمِيَةُ مَجَازًا.

وَقَوْلُهُ: " وَبُغْضُهُمْ كُفْرٌ وَنِفَاقٌ وَطُغْيَانٌ " - تَقَدمَ الْكَلَامُ فِي تَكْفِيرِ أَهْلِ الْبِدَعِ، وَهَذَا الْكُفْرُ نَظِيرُ الْكُفْرِ الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [3]. وَقَدْ تَقَدمَ الْكَلَامُ فِي ذَلِكَ.

---

(١) الْجَاثِيَة : ١٧ .

(٢) الترمذي ٤ : ٣٦٠ ، وقال : " هذا حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه " . وقال شارحه : " وأخرجه أحمد " .

(٣) الْمَائِدَة : ٤٤ .

ثُبوتُ الخِلَافَةِ لِأبي بَكْرٍ الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بِالنص

قَوْلُهُ: (وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أولًا لِأبي بَكْرٍ الصديق ﷺ تَفْضِيلًا لَهُ وَتَقْدِيمًا عَلَى جَمِيعِ الْأُمةِ).

ش: اخْتَلَفَ أَهْلُ السنةِ فِي خِلَافَةِ الصديقِ ﷺ هَلْ كَانَتْ بِالنص، أَوْ بِالاخْتِيَارِ ؟ فَذَهَبَ الْحَسَنُ الْبَصْرِي وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ إِلَى أنهَا ثَبَتَتْ بِالنص الْخَفِي وَالْإِشَارَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ بِالنص الْجَلِي. وَذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالْمُعْتَزِلَةِ وَالْأَشْعَرِيةِ إِلَى أنهَا ثَبَتَتْ بِالاخْتِيَارِ.

وَالدلِيلُ عَلَى إِثْبَاتِهَا بِالنص أَخْبَارٌ:

مِنْ ذَلِكَ مَا أَسْنَدَهُ الْبُخَارِي عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، قَالَ: ﴿ أَتَتِ امْرَأَةٌ النبِي ﷺ فَأَمَرَهَا أَنْ تَرْجِعَ إِلَيْهِ، قَالَتْ: أَرَأَيْتَ إِنْ جِئْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ ؟ كَأَنهَا تُرِيدُ الْمَوْتَ، قَالَ: إِنْ لَمْ تَجِدِينِي فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ ﴾ [(١)]. وَذَكَرَ لَهُ سِيَاقًا آخَرَ، وَأَحَادِيثَ أُخَرَ. وَذَلِكَ نَص عَلَى إِمَامَتِهِ.

وَحَدِيثُ حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ اقْتَدُوا بِاللذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ﴾ [(٢)]. رَوَاهُ أَهْلُ السنَنِ.

وَفِي الصحِيحَيْنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا، قَالَتْ: ﴿ دَخَلَ عَلَي رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْيَوْمِ الذِي بُدِئَ فِيهِ، فَقَالَ: ادْعِي لِي أَبَاكِ وَأَخَاكِ، حَتى أَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا، ثُم قَالَ: يَأْبَى اللهُ وَالْمُسْلِمُونَ إِلا أَبَا بَكْرٍ ﴾ [(٣)].

وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿ فَلَا يَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ طَامِعٌ ﴾ .

---

(١) البخاري المناقب (٣٤٥٩) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٨٦) ، الترمذي المناقب (٣٦٧٦) ، أحمد (٨٢/٤) .

(٢) الترمذي المناقب (٣٦٦٢) ، ابن ماجه المقدمة (٩٧) ، أحمد (٣٩٩/٥) .

(٣) البخاري المرضى (٥٣٤٢) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٨٧) ، أحمد (١٤٤/٦) .

وَفي رِوَايَةٍ: قَالَ: ﴿ ادْعِي لِي عَبْدَ الرحْمَنِ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، لِأَكْتُبَ لِأَبِي بَكْرٍ كِتَابًا لَا يُخْتَلَفُ عَلَيْهِ، ثُم قَالَ. مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَخْتَلِفَ الْمُؤْمِنُونَ فِي أَبِي بَكْرٍ ﴾ [(١)].

وَأَحَادِيثُ تَقْدِيمِهِ فِي الصلَاةِ مَشْهُورَةٌ مَعْرُوفَةٌ، وَهُوَ يَقُولُ: ﴿ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَل بِالناسِ ﴾ [(٢)].

وَقَدْ رُوجِعَ فِي ذَلِكَ مَرةً بَعْدَ مَرةٍ، فَصَلى بِهِمْ مُدةَ مَرَضِ النبِي ﷺ.

وَفِي الصحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿ بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ، عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللهُ، ثُم أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ، فَنَزَعَ مِنْهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُم اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيا مِنَ الناسِ يَفْرِي فَرِيَهُ، حَتى ضَرَبَ الناسُ بِعَطَنٍ ﴾ [(٣)].

وَفِي الصحِيحِ أَنهُ ﷺ قَالَ عَلَى مِنْبَرِهِ: ﴿ لَوْ كُنْتُ مُتخِذًا مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، لَا يَبْقَيَن فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلا سُدتْ، إِلا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ ﴾ [(٤)].

وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ، مِنْ حَدِيثِ الْأَشْعَثِ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي بَكْرَةَ، ﴿ أَن النبِي ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ رُؤْيَا ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا رَأَيْتُ مِيزَانًا أُنْزِلَ مِنَ السمَاءِ، فَوُزِنْتَ أَنْتَ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحْتَ أَنْتَ بِأَبِي بَكْرٍ، ثُم وُزِنَ عُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ، فَرَجَحَ أَبُو بَكْرٍ، وَوُزِنَ عُمَرُ وَعُثْمَانُ، فَرَجَحَ عُمَرُ، ثُم رُفِعَ [الْمِيزَانُ]، فَرَأَيْتُ الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ

---

(١) أحمد (٦/٤٧) .

(٢) البخاري الأذان (٦٣٣) ، مسلم الصلاة (٤١٨) ، الترمذي المناقب (٣٦٧٢) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١٢٣٢) ، أحمد (٦/٣٤) ، مالك النداء للصلاة (٤١٤) ، الدارمي الصلاة (١٢٥٧) .

(٣) البخاري المناقب (٣٤٣٤) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٩٣) ، الترمذي الرؤيا (٢٢٨٩) ، أحمد (٢/١٠٧) .

(٤) البخاري المناقب (٣٦٩١) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٨٢) ، الترمذي المناقب (٣٦٦٠) ، أحمد (٣/١٨) .

النبي ﷺ فقال: " خِلَافَةُ [نُبوةٍ] (١) ثم يُؤْتِي اللهُ الْمُلْكَ مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

فَبين رَسُولُ اللهِ ﷺ أن وِلَايَةَ هَؤُلَاءِ خِلَافَةُ نُبوةٍ، ثم بَعْدَ ذَلِكَ مُلْكٌ.

وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ عَلي ﷺ لأنهُ لَمْ يَجْتَمِعِ الناسُ في زَمَانِه، بَلْ كَانُوا مُخْتَلِفِينَ، لَمْ يَنْتَظِمْ فِيهِ خِلَافَةُ النُبوةِ وَلَا الْمُلْكُ.

وَرَوَى أبو دَاوُدَ أيْضًا عَنْ جَابِرٍ ﷺ أنهُ كَانَ يُحَدثُ، أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: ﴿ رَأى اللَيْلَةَ رَجُلٌ صَالِحٌ أن أبَا بَكْرٍ نِيطَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَنِيطَ عُمَرُ بِأبي بَكْرٍ، وَنِيطَ عُثْمَانُ بِعُمَرَ، قَالَ جَابِرٌ: فَلَما قُمْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قُلْنَا: أما الرجُلُ الصالِحُ فَرَسُولُ اللهِ ﷺ وَأما الْمَنُوطُ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَهُمْ وُلَاةُ هَذَا الْأمرِ الذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ نَبِيهُ ﴾ (٢).

وَرَوَى أبو دَاوُدَ أيْضًا عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ: ﴿ أن رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، رَأيْتُ كَأن دَلْوًا دُلِيَ مِنَ السمَاءِ، فَجَاءَ أبُو بَكْرٍ فَأخَذَ بِعَرَاقِيهَا، فَشَرِبَ شُرْبًا ضَعِيفًا، ثم جَاءَ عُمَرُ فَأخَذَ بِعَرَاقِيهَا فَشَرِبَ حَتى تَضَلعَ، ثم جَاءَ عُثْمَانُ فَأخَذَ بِعَرَاقِيهَا فَشَرِبَ حَتى تَضَلعَ، ثم جَاءَ عَلِي فَأخَذَ بِعَرَاقِيهَا، فَانْتَشَطَتْ مِنْهُ، فَانْتَضَحَ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ ﴾ (٣).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُمْهَانَ (٤) عَنْ سَفِينَةَ. قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ خِلَافَةُ النُبوةِ ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثم يُؤْتِي اللهُ مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ أوِ الْمُلْكَ ﴾ (٥).

وَاحْتَج مَنْ قَالَ لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِالْخَبَرِ الْمَأثُورِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنهُ قَالَ: إِنْ أسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِني، يَعْنِي أبَا بَكْرٍ، وَإِنْ لَا

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . واستدركناه من سنن أبي داود ٥ / ٣٠ رقم (٤٦٣٤ ، ٤٦٣٥) . ن .

(٢) أبو داود السنة (٤٦٣٦) ، أحمد (٣/٣٥٥) .

(٣) أبو داود السنة (٤٦٣٧) ، أحمد (٥/٢١) .

(٤) " جمهان " : بضم الجيم وسكون الميم بعدها هاء . وفي المطبوعة " جهمان " - بتقديم الهاء ، وهو خطأ .

(٥) الترمذي الفتن (٢٢٢٦) ، أبو داود السنة (٤٦٤٦) .

أَسْتَخْلِفْ، فَلَمْ يَسْتَخْلِفْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ [مني]، يَعْنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ [قال عبد الله: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف] [1].

وَالظاهِرُ - وَاللهُ أَعْلَمُ - أن الْمُرَادَ أنه لَمْ يَسْتَخْلِفْ بِعَهْدٍ مَكْتُوبٍ، وَلَوْ كَتَبَ عَهْدًا لَكَتَبَهُ لِأَبِي بَكْرٍ، بَلْ قَدْ أَرَادَ كِتَابَتَهُ ثم تَرَكَهُ، وَقَالَ: يَأْبَى اللهُ وَالْمُسْلِمُونَ إلا أَبَا بَكْرٍ.

فَكَانَ هَذَا أَبْلَغَ مِنْ مُجَرِدِ الْعَهْدِ، فَإِن النبي ﷺ دَل الْمُسْلِمِينَ عَلَى اسْتِخْلَافِ أَبِي بَكْرٍ، وَأَرْشَدَهُمْ إِلَيهِ بِأُمُورٍ مُتَعَددَةٍ، مِنْ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَخْبَرَ بِخِلَافَتِهِ إِخْبَارَ رَاضٍ بِذَلِكَ، حَامِدٍ لَهُ، وَعَزَمَ عَلَى أَنْ يَكْتُبَ بِذَلِكَ عَهْدًا، ثم عَلِمَ أن الْمُسْلِمِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَيهِ، فَتَرَكَ الْكِتَابَ اكْتِفَاءً بِذَلِكَ، ثُم عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ فِي مَرَضِهِ يَوْمَ الْخَمِيسِ، ثُم لَما حَصَلَ لِبَعْضِهِمْ شَك: هَلْ ذَلِكَ الْقَوْلُ مِنْ جِهَةِ الْمَرَضِ ؟ أَوْ هُوَ قَوْلٌ يَجِبُ اتبَاعُهُ ؟ تَرَكَ الْكِتَابَةَ، اكْتِفَاءً بِمَا عَلِمَ أن اللهَ يَخْتَارُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ مِنْ خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ.

فَلَوْ كَانَ التعْيِينُ مِما يَشْتَبِهُ عَلَى الْأُمةِ لَبَينَهُ بَيَانًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ، لَكِنْ لَما دَلهُمْ دَلَالَاتٍ مُتَعَددَةٍ عَلَى أن أَبَا بَكْرٍ الْمُتَعَينُ، وَفَهِمُوا ذَلِكَ - حَصَلَ الْمَقْصُودُ. وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ ﷺ فِي خُطْبَتِهِ التِي خَطَبَهَا بِمَحْضَرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ: (أَنتَ خَيْرُنَا وَسَيدُنَا وَأَحَبنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ)، وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَلَا قَالَ أَحَدٌ مِنَ الصحَابَةِ إِن غَيْرَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَحَق بِالْخِلَافَةِ مِنْهُ، وَلَا نَازَعَ أَحَدٌ فِي خِلَافَتِهِ إِلا بَعْضُ الْأَنْصَارِ، طَمَعًا فِي أَنْ يَكُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ أَمِيرٌ وَمِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَمِيرٌ، وَهَذَا مِما ثَبَتَ بِالنصُوصِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنِ النبِي ﷺ بُطْلَانُهُ.

ثُم الْأَنْصَارُ كُلهُمْ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ، إِلا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، لِكَوْنِهِ هُوَ الذِي كَانَ يَطْلُبُ الْوِلَايَةَ. وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ مِنَ الصحَابَةِ قَط أن النبِي ﷺ نَص عَلَى غَيْرِ أَبِي بَكْرٍ، لَا عَلِي، وَلَا الْعَباسُ، وَلَا غَيْرُهُمَا، كَمَا قَدْ قَالَ أَهْلُ الْبِدَعِ !.

وَرَوَى ابْنُ بَطةَ بِإِسْنَادِهِ أن عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعَثَ مُحَمدَ بْنَ الزبَيْرِ الْحَنْظَلِي إِلَى الْحَسَنِ، فَقَالَ: هَلْ كَانَ النبِي ﷺ اسْتَخْلَفَ أَبَا بَكْرٍ ؟ فَقَالَ: أَوَ فِي شَك صَاحِبُكَ ؟ نَعَمْ،

---

(1) رواه بنحوه ، الإمام أحمد في المسند : ٣٣٢ . وأبو داود : ٢٩٣٩ . ورواه مسلم مطولا ٢ : ٨٠ - ٨١ من وجهين . وقد صححناه من إحدى روايتي مسلم . وفي المطبوعة " من هو خير ، يعني رسول الله مستخلفا لو استخلف " ! وهو كلام مضطرب ناقص! .

وَاللهِ الذِي لَا إِلَهَ إِلا هُوَ اسْتَخْلَفَهُ، لَهُوَ كَانَ أَتْقَى لِلهِ مِنْ أَنْ يَتَوَثبَ عَلَيْهَا [1].

وَفي الْجُمْلَةِ: فَجَمِيعُ مَنْ نُقِلَ عَنْهُ أَنهُ طَلَبَ تَوْلِيَةَ غَيرِ أَبِي بَكْرٍ، لَمْ يَذْكُرْ حُجةً دِينيةً شَرْعِيةً، وَلَا ذَكَرَ أَن غَيرَ أَبِي بَكْرٍ أَفْضَلُ مِنْهُ، أَوْ أَحَق بِهَا، وَإِنمَا نَشَأَ مِنْ حُب قَبِيلَتِهِ وَقَوْمِهِ فَقَطْ، وَهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ فَضْلَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ وَحُب رَسُولِ اللهِ ﷺ لَهُ. فَفِي الصحِيحَيْنِ، عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: ﴿أَن رَسُولَ اللهِ ﷺ بَعَثَهُ عَلَى جَيْشِ ذَاتِ السلَاسِلِ، فَأَتَيْتُهُ، فَقُلْتُ: أَي الناسِ [2] أَحَب إِلَيْكَ ؟ قَالَ: عَائِشَةُ، قُلْتُ: مِنَ الرجَالِ ؟ قَالَ: أَبُوهَا، قُلْتُ: ثُم مَنْ ؟ قَالَ: عُمَرُ، وَعَد رِجَالًا﴾ .

وَفِيهِمَا أَيْضًا، عَنْ أَبِي الدرْدَاءِ، قَالَ: ﴿كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ النبِي ﷺ إِذْ أَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ آخِذًا بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، حَتى أَبْدَى عَنْ رُكْبَتِهِ، فَقَالَ النبِي ﷺ أَما صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ، فَسَلمَ، وَقَالَ: [يا رسول الله]، إِنهُ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ ابْنِ الْخَطابِ شَيْءٌ فَأَسْرَعْتُ إِلَيْهِ، ثُم نَدِمْتُ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَغْفِرَ لِي [فَأَبَى عَلَي، فَأَقْبَلْتُ إِلَيْكَ]، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، ثَلَاثًا، ثُم إِن عُمَرَ نَدِمَ، فَأَتَى مَنْزِلَ أَبِي بَكْرٍ، فَسَأَلَ: أَثَم أَبُو بَكْرٍ ؟ فَقَالُوا: لَا، فَأَتَى إِلَى النبِي ﷺ [فَسَلمَ عَلَيْهِ، فَجَعَلَ وَجْهُ النبِي ﷺ يَتَمَعرُ، حَتى أَشْفَقَ أَبُو بَكْرٍ فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَاللهِ أَنَا كُنْتُ أَظْلَمَ، مَرتَيْنِ]، فَقَالَ النبِي ﷺ "إِن اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي ؟ مَرتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا﴾ [3] [4]. وَمَعْنَى: غَامَرَ: غَاضَبَ وَخَاصَمَ. وَيَضِيقُ هَذَا

(١) هذا أثر ضعيف الإسناد جدا . محمد بن الزبير الحنظلي : قال البخاري في كتاب الضعفاء ، ص ٣١ : " منكر الحديث " .

(٢) في المطبوعة " أي النساء! " وهو خطأ . انظر صحيح مسلم ٢ : ٢٣١ .

(٣) البخاري المناقب (٣٤٦١) .

(٤) الحديث كان في المطبوعة محرفا وناقصا بعض ألفاظه . فصححناه من رواية البخاري ٧ : ١٧ - ١٨ من الفتح . وقد أوهم الشارح - رحمه الله - في نسبته للصحيحين ، فإن مسلما لم يروه في صحيحه . وقد نص الحافظ في الفتح ٧ : ١٢٣ على أنه من أفراد البخاري .

الْمُخْتَصَرُ عَنْ ذِكْرِ فَضَائِلِه.

وَفِي الصحِيحَيْنِ أَيضًا، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ﴿ أَن رَسُولَ اللِه صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ مَاتَ وَأَبو بَكْرٍ بِالسنْحِ [1] - فَذَكَرَتِ الْحَدِيث - إِلَى أَنْ [قَالَتْ] [2] وَاجْتَمَعَتِ الْأَنصَارُ إِلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَقَالُوا: مِنا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ ! فَذَهَبَ إِلَيهِمْ أَبو بَكْرٍ [الصديق]، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطاب، وَأَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَراحِ، فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكلمُ، فَأَسْكَتَهُ أَبو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلا أَني هَيأْتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي، خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبو بَكْرٍ ! ثُم تَكَلمَ أَبو بَكْرٍ، فَتَكَلمَ أَبْلَغَ الناسِ، فَقَالَ فِي كَلَامِهِ: نَحْنُ الْأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، [فَقَالَ حُبَابُ ابْنُ الْمُنْذِرِ: لَا وَاللهِ لَا نَفْعَلُ، مِنا أَمِيرٌ وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ. فَقَالَ أَبو بَكْرٍ: لَا وَلَكِنا الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ] [3] هُمْ أَوْسَطُ الْعَرَبِ، وَأَعَزهُمْ أَحْسَابًا، فَبَايِعُوا عُمَرَ، أَوْ أَبا عُبَيدَةَ بْنَ الْجَراحِ، فَقَالَ عُمَرُ: بَلْ نُبَايِعُكَ، فَأَنْتَ سَيدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ [4] فَأَخَذَ عُمَرُ بِيَدِهِ، فَبَايَعَهُ، وَبَايَعَهُ الناسُ، فَقَالَ قَائِلٌ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ [بن عبادة]، فَقَالَ عُمَرُ: قَتَلَهُ اللهُ ﴾ . وَالسنْحُ: الْعَالِيَةُ، وَهِيَ حَدِيقَةٌ بِالْمَدِينَةِ مَعْرُوفَةٌ بِهَا.

خِلَافَةُ عُمَرَ الْفَارُوقِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قَوْلُهُ: (ثُم لِعُمَرَ بْنِ الْخَطابِ رضي الله عنه).

ش: أَيْ وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنه لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وَذَلِكَ بِتَفْوِيضِ أَبِي

---

(١) " السنح " ، بضم السين المهملة وسكون النون - ويجوز ضمها - وآخره حاء مهملة : طرف من أطراف المدينة بعواليها ، كان بينها وبين م ل النبي ميل ، وكان با م ل أبي بكر . وفي المطبوعة " بالسخ " ! وهو خطأ مطبعي .

(٢) في الأصل : (قال) والصواب ما أثبتناه . ن .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل واستدركناه من صحيح البخاري (٧ / ٢٠ فتح) . ن .

(٤) الحديث في البخاري ٧ : ٢٢ - ٢٥ من الفتح ، وكان في المطبوعة محرفا ، فصححناه منه . وقد أوهم الشارح أيضا في نسبته للصحيحين ، فإنه من أفراد البخاري ، كما نص عليه الحافظ ٧ : ١٢٣ .

بَكْرٍ الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ، وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ بَعْدَهُ عَلَيْهِ. وَفَضَائِلُهُ ﷺ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ تُنْكَرَ، وَأَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُذْكَرَ.

فَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّهُ قَالَ: " قُلْتُ لِأَبِي: يَا أَبَتِ، مَنْ خَيْرُ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ، أَوَمَا تَعْرِفُ ؟ فَقُلْتُ ؟ لَا، قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ: عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: ثُمَّ عُثْمَانُ ! فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ ؟ فَقَالَ. مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ".

وَتَقَدَّمَ قَوْلُهُ ﷺ ﴿ اقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ﴾ [(١)].

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: (وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ، فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُثْنُونَ وَيُصَلُّونَ عَلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ، وَأَنَا فِيهِمْ، فَلَمْ يَرُعْنِي إِلَّا بِرَجُلٍ قَدْ أَخَذَ بِمَنْكِبِي مِنْ وَرَائِي، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ عَلِيٌّ، فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَفْتُ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ اللَّهِ، إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ، وَذَلِكَ أَنِّي كُنْتُ كَثِيرًا مَا أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿ جِئْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَإِنْ كُنْتُ لَأَرْجُو، أَوْ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَهُمَا ﴾ [(٢)] [(٣)].

وَتَقَدَّمَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ فِي رُؤْيَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَزْعِهِ مِنَ الْقَلِيبِ، ثُمَّ نَزْعِ أَبِي بَكْرٍ، ثُمَّ اسْتَحَالَتِ الدَّلْوُ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الْخَطَّابِ، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ.

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ: قَالَ: ﴿ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

(١) الترمذي المناقب (٣٦٦٢) ، ابن ماجه المقدمة (٩٧) ، أحمد (٥/٣٩٩) .
(٢) البخاري المناقب (٣٤٧٤) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٨٩) ، ابن ماجه المقدمة (٩٨) ، أحمد (١/١١٢) .
(٣) صحيح مسلم ٢ : ٢٣٢ .

عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ نِسَاءٌ مِنْ قُرَيْشٍ، يُكَلِّمْنَهُ، عَالِيَةً أَصْوَاتُهن - ﴿ [1] الْحَدِيثَ، وَفِيهِ - ﴿ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إيه يَا ابْنَ الْخَطَّابِ ! وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجا إِلا سَلَكَ فَجا غَيْرَ فَجكَ ﴾ [2].

وَفِي الصحِيحَيْنِ أَيْضًا، عَنِ النبِي ﷺ أَنهُ كَانَ يَقُولُ: ﴿ قَدْ كَانَ فِي الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ مُحَدثُونَ، فَإِنْ يَكُنْ فِي أُمتِي مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَإِن عُمَرَ بْنَ الْخَطابِ مِنْهُمْ ﴾ [3]. قَالَ ابْنُ وَهْبٍ: تَفْسِيرُ "مُحَدثُونَ": مُلْهَمُونَ.

خِلَافَةُ عُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

قَوْلُهُ: (ثُم لِعُثْمَانَ رضي الله عنه).

ش: أَيْ وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ عُمَرَ لِعُثْمَانَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وَقَدْ سَاقَ الْبُخَارِي رَحِمَهُ اللهُ قِصةَ قَتْلِ عُمَرَ رضي الله عنه وَأَمْرَ الشورَى وَالْمُبَايَعَةِ لِعُثْمَانَ، فِي صَحِيحِهِ، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْرُدَهَا، كَمَا رَوَاهَا بِسَنَدِهِ: عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ [4]. وقد صححناه وأثبتنا ما نقص منه هنا - من الطبعة السلطانية.، قَالَ: رَأَيْتُ عُمَرَ [بن الخطاب] رضي الله عنه قَبْلَ أَنْ يُصَابَ بِأَيامٍ بِالْمَدِينَةِ، وَوَقَفَ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ وَعُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ، فَقَالَ: كَيْفَ فَعَلْتُمَا ؟ أَتَخَافَانِ أَنْ تَكُونَا قَدْ حَملْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ ؟ قَالَا: حَملْنَاهَا أَمْرًا هِيَ لَهُ مُطِيقَةٌ، مَا فِيهَا كَثِيرُ فَضْلٍ، قَالَ: انْظُرَا أَنْ تَكُونَا حَملْتُمَا الْأَرْضَ مَا لَا تُطِيقُ ؟ قَالَا: لَا، فَقَالَ عُمَرُ: لَئِنْ سَلمَنِي اللهُ لَأَدَعَن أَرَامِلَ أَهْلِ الْعِرَاقِ لَا يَحْتَجْنَ إِلَى رَجُلٍ بَعْدِي أَبَدًا، قَالَ: فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ [إلا] أَرْبَعَةٌ حَتى أُصِيبَ. قَالَ: إِني لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلا عَبْدُ اللهِ بْنُ عَباسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَر بَيْنَ الصفيْنِ قَالَ: اسْتَوُوا، حَتى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِن خَلَلًا تَقَدمَ [فَكَبرَ، وَرُبمَا قَرَأَ سُورَةَ

(١) البخاري بدء الخلق (٣١٢٠) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٩٧) ، أحمد (١٧١/١) .

(٢) البخاري الأدب (٥٧٣٥) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٣٩٧) ، أحمد (١٧١/١) .

(٣) مسلم فضائل الصحابة (٢٣٩٨) ، الترمذي المناقب (٣٦٩٣) ، أحمد (٥٥/٦) .

(٤) صحيح البخاري ٥ : ١٥ - ١٨ (من الطبعة السلطانية) ، و(٧ : ٤٩ - ٥٦ من الفتح) .

يُوسُفَ، أو النحل، أوْ نَحْوَ ذَلِكَ فِي الركْعَةِ الْأولى، حَتى يَجْتَمِعَ الناسُ، فَمَا هُوَ إلا أنْ كبرَ]، فَسَمِعْتُه يَقُولُ: قتلني، أوْ أكَلني الْكَلْبُ، حِينَ طعَنه، فَطَارَ الْعِلْجُ بِسِكين ذَاتِ طَرَفين، لَا يَمر عَلَى أحَدٍ يميناً وَشِمَالًا إلا طَعَنَهُ، حَتى طعَنَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ، فَلَما رَأى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُساً، فَلَما ظَن [العلج] أنهُ مَأخُوذٌ، نَحَرَ نَفْسَهُ، وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَقَدمَهُ، فَمَنْ يَلِي عُمَرُ فَقَدْ رَأى الذِي أرَى، وَأما نَوَاحِي الْمَسْجِدِ، فَإِنهُمْ لَا يَدْرُونَ غَيْرَ أنهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللهِ، سُبْحَانَ اللهِ، فَصَلى بِهِمْ عَبْدُ الرحْمَنِ صَلَاةً خَفِيفَةً، فَلَما انْصَرَفُوا، قَالَ: يَا ابْنَ عَباسٍ انْظُرْ مَنْ قتلني ؟ فَجَالَ سَاعَةً، ثُم جَاءَ فَقَالَ: غُلَامُ الْمُغِيرَةِ، قَالَ: الصنَعُ ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قَاتَلَهُ اللهُ ! لَقَدْ أمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفاً ! الْحَمْدُ للهِ الذِي لَمْ يَجْعَلْ مَنِيتِي عَلَى يَدِ رَجُلٍ يَدعِي الْإِسْلَامَ، قَدْ كُنْتَ أنْتَ وَأبُوكَ تُحِبانِ أنْ تَكْثُرَ الْعُلُوجُ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ الْعَباسُ أكْثَرَهُمْ رَقِيقاً، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَعَلْتُ ؟ أيْ: إِنْ شِئْتَ قَتَلْنَا ؟ قَالَ: كَذَبْتَ ! بَعْدَ مَا تَكَلمُوا بِلِسَانِكُمْ، وَصَلوْا قِبْلَتَكُمْ، وَحَجوا حَجكُمْ ؟ فَاحْتُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ، فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، وَكَأن الناسَ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: لَا بَأسَ عَلَيْهِ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: أخَافُ عَلَيْهِ، فَأُتِيَ بِنَبِيذٍ فَشَرِبَهُ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، ثُم أُتِيَ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، فَعَرَفُوا أنهُ ميتٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَجَاءَ الناسُ يُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ شَاب، فَقَالَ: أبْشِرْ يَا أمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ لَكَ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَدَمٍ فِي الْإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُم وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُم شَهَادَةٌ، قَالَ: وَدِدْتُ أن ذَلِكَ كَفَافٌ، لَا عَلَي وَلَا لِيَ، فَلَما أدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَس الْأرْضَ، قَالَ: رُدوا عَلَي الْغُلَامَ، قَالَ: يَا ابْنَ أخِي، ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنهُ أنْقَى لِثَوْبِكَ، وَأتْقَى لِرَبكَ، يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ، انْظُرْ مَا عَلَي مِنَ الدينِ ؟ فَحَسَبُوهُ، فَوَجَدُوهُ ستةً وَثَمَانِينَ ألْفاً وَنَحْوَهُ، قَالَ: إِنْ وَفَى لَهُ مَالُ آلِ عُمَرَ، فَأدهِ مِنْ أمْوَالِهِمْ، وَإِلا فَسَلْ فِي بَنِي عَدِي بْنِ كَعْبٍ، فَإِنْ لَمْ تَفِ أمْوَالُهُمْ، فَسَلْ فِي قُرَيْشٍ، وَلَا تَعْدُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَأد عَني هَذَا الْمَالَ، انْطَلِقْ إِلَى عَائِشَةَ أم الْمُؤْمِنِينَ، فَقُلْ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السلَامَ، وَلَا تَقُلْ: أمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِني لَسْتُ الْيَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أمِيراً، وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطابِ

أنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي، فَقَالَ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ [بْنُ الْخَطَّابِ] السَّلَامَ، وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَقَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ، قِيلَ: هَذَا عَبْدُ اللَّهِ [بْنُ عُمَرَ] قَدْ جَاءَ، قَالَ: ارْفَعُونِي، فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ، قَالَ. مَا لَدَيْكَ ؟ قَالَ: الَّذِي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَذِنَتْ، قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمَّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمْ فَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي، وَإِنْ رَدَّتْنِي فَرُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَجَاءَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ حَفْصَةُ وَالنِّسَاءُ يَسْتُرْنَهَا، فَلَمَّا رَأَيْنَاهَا قُمْنَا، فَوَلَجَتْ عَلَيْهِ، فَبَكَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، وَاسْتَأْذَنَ الرِّجَالُ، فَوَلَجَتْ دَاخِلًا لَهُمْ، فَسَمِعْنَا بُكَاءَهَا مِنَ الدَّاخِلِ، فَقَالُوا: أَوْصِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، اسْتَخْلِفْ ؟ قَالَ: مَا أَجِدُ أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ أَوِ الرَّهْطِ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ، وَقَالَ: يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، كَهَيْئَةِ التَّعْزِيَةِ لَهُ، فَإِنْ أَصَابَتِ الْإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ، فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ مِنْ عَجْزٍ وَلَا خِيَانَةٍ.

وَقَالَ: أُوصِي الْخَلِيفَةَ مِنْ بَعْدِي بِالْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، أَنْ يَعْرِفَ لَهُمْ حَقَّهُمْ، وَيَحْفَظَ لَهُمْ حُرْمَتَهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالْأَنْصَارِ خَيْرًا، الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ، أَنْ يُقْبَلَ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَأَنْ يُعْفَى عَنْ مُسِيئِهِمْ. وَأُوصِيهِ بِأَهْلِ الْأَمْصَارِ خَيْرًا، فَإِنَّهُمْ رِدْءُ الْإِسْلَامِ، وَجُبَاةُ الْأَمْوَالِ، وَغَيْظُ الْعَدُوِّ، وَأَنْ لَا يُؤْخَذَ مِنْهُمْ إِلَّا فَضْلُهُمْ عَنْ رِضَاهُمْ، وَأُوصِيهِ بِالْأَعْرَابِ خَيْرًا، فَإِنَّهُمْ أَصْلُ الْعَرَبِ، وَمَادَّةُ الْإِسْلَامِ، أَنْ يُؤْخَذَ مِنْ حَوَاشِي أَمْوَالِهِمْ، وَتُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، وَأُوصِيهِ بِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ رَسُولِهِ، أَنْ يُوفَى لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَأَنْ يُقَاتَلَ مِنْ وَرَائِهِمْ، وَلَا يُكَلَّفُوا [إِلَّا طَاقَتَهُمْ].

فَلَمَّا قُبِضَ خَرَجْنَا بِهِ، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي، فَسَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ؟ قَالَتْ: أَدْخِلُوهُ، فَأُدْخِلَ، فَوُضِعَ هُنَالِكَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَلَمَّا فُرِغَ مِنْ دَفْنِهِ اجْتَمَعَ هَؤُلَاءِ الرَّهْطُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: اجْعَلُوا أَمْرَكُمْ إِلَى ثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ، قَالَ الزُّبَيْرُ: قَدْ جَعَلْتُ

أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن [بن عوف]، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه ؟ والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلي ؟ والله علي أن لا آلو عن أفضلكم ؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما، فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك، لئن أمرتك لتعدلن ؟ ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن ؟ ثم خلا بالآخر، فقال له مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق، قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له علي، وولج أهل الدار فبايعوه.

وعن حميد بن عبد الرحمن [(1)] (أن المسور بن مخرمة أخبره: أن [الرهط] الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا، قال لهم عبد الرحمن: لست بالذي أنافسكم عن هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم ؟ فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلما ولوا عبد الرحمن أمرهم، مال الناس إلى عبد الرحمن، حتى ما أرى أحدا من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه، ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالي، حتى إذا كانت تلك الليلة [التي] أصبحنا فيها فبايعنا عثمان، - قال المسور بن مخرمة -: طرقني عبد الرحمن بعد هجع من الليل، فضرب الباب حتى استيقظت، فقال: أراك نائما ؟! فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكبير نوم، انطلق فادع لي الزبير وسعدا، فدعوتهما [له]، فشاورهما ثم دعاني، فقال: ادع لي عليا، فدعوته، فناجاه حتى ابهار الليل، ثم قام علي من عنده وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى من علي شيئا، ثم قال: ادع لي عثمان، [فدعوته]، فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح، فلما صلى الناس الصبح، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر، وأرسل إلى من كان حاضرا من المهاجرين والأنصار، و[أرسل] إلى أمراء الأجناد، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن، ثم قال: أما بعد، يا علي، إني قد نظرت في أمر الناس،

---

(1) وهذا رواه البخاري أيضا ٩ : ٧٨ (من الطبعة السلطانية) ، و(١٣ : ١٦٨ - ١٧١ من الفتح) . وصححناه كسابقه .

فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ فَلَا تَجْعَلَن عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلًا، فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى سُنةِ [اللهِ وَ] رَسُولِهِ وَالْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ، فَبَايَعَهُ عَبْدُ الرحْمَنِ، وَالْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنصَارُ وَأُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ وَالْمُسْلِمُونَ).

وَمِنْ فَضَائِلِ عُثْمَانَ ﷺ الْخَاصةِ: كَوْنُهُ خَتَنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلَى ابْنَتَيْهِ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ [(١)].، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: ﴿كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُضْطَجِعًا [فِي بَيْتِهِ]، كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَتَحَدثَ، ثُم اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ كَذَلِكَ، فَتَحَدثَ، ثُم اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَوى ثِيَابَهُ، فَدَخَلَ فَتَحَدثَ، فَلَما خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهَش لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، [ثُم دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهَش وَلَمْ تُبَالِهِ]، ثُم دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَويْتَ ثِيَابَكَ ؟ فَقَالَ: أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [(٢)].

وَفِي الصحِيحِ: ﴿لَما كَانَ يَوْمُ بَيْعَةِ الرضْوَانِ، وَأَن عُثْمَانَ ﷺ كَانَ قَدْ بَعَثَهُ النبِي ﷺ إِلَى مَكةَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ [بِيَدِهِ] الْيُمْنَى: " هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فَقَالَ: هَذِهِ لِعُثْمَانَ﴾ [(٣)] [(٤)].

خِلَافَةُ عَلِي بن أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَفَضَائِلُهُ

قَوْلُهُ: (ثُم لِعَلِي بن أَبِي طَالِبٍ ﷺ).

ش: أَيْ: وَنُثْبِتُ الْخِلَافَةَ بَعْدَ عُثْمَانَ لِعَلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. لَما قُتِلَ عُثْمَانُ وَبَايَعَ الناسُ عَلِيا صَارَ إِمَامًا حَقا وَاجِبَ الطاعَةِ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ فِي زَمَانِهِ خِلَافَةَ نُبُوةٍ، كَمَا دَل عَلَيْهِ حَدِيثُ سَفِينَةَ الْمُتَقَدمُ ذِكْرُهُ، أَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ:

---

(١) صحيح مسلم ٢ : ٢٣٤ - ٢٣٥ . وصححناه منه كسابقيه .

(٢) مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠١) ، أحمد (١٥٥/٦) .

(٣) البخاري المناقب (٣٤٩٥) ، الترمذي المناقب (٣٧٠٦) ، أحمد (١٠١/٢) .

(٤) هذه قطعة مختصرة ، من حديث رواه البخاري ٧ : ١٨ - ١٩ (من الفتح) ، وصححناها منه .

﴿ خِلَافَةُ النبوة ثَلَاثُونَ سَنَةً، ثم يُؤتي الله مُلْكَهُ مَنْ يشاء ﴾ (١) (٢).

وَكَانَتْ خِلَافَةُ أبي بَكْرٍ الصديق سَنَتَيْنِ وَثَلَاثَةَ أشْهُرٍ، وَخِلَافَةُ عُمَرَ عَشْرَ سِنِينَ وَنِصْفًا، وَخِلَافَةُ عُثْمَانَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَخِلَافَةُ عَلِي أَرْبَعَ سِنِينَ وَتِسْعَةَ أشْهُرٍ، [وَخِلَافَةُ الْحَسَن ستة أشْهُرٍ] (٣).

وَأول مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ مُعَاوِيَةُ ﷺ [وَهُو خَيْرُ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ]، لَكِنَّهُ إنما صَارَ إمَامًا حَقًّا لَمَا فَوضَ إلَيْهِ الْحَسَنُ بْنُ عَلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ الْخِلَافَةَ، فَإن الْحَسَنَ ﷺ بَايَعَهُ أَهْلُ الْعِرَاقِ بَعْدَ مَوْتِ أبيه، ثم بَعْدَ سِتةِ أشْهُرٍ فَوضَ الْأَمْرَ إلَى مُعَاوِيَةَ، فَظَهَرَ صِدْقُ قَوْلِ النبي ﷺ ﴿ إن ابْني هَذَا سَيدٌ، وَسَيُصْلِحُ اللهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (٤).

وَالْقِصةُ مَعْرُوفَةٌ فِي مَوْضِعِهَا.

فَالْخِلَافَةُ ثَبَتَتْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي بْنِ أبي طَالِبٍ ﷺ بَعْدَ عُثْمَانَ ﷺ بِمُبَايَعَةِ الصحَابَةِ، سِوَى مُعَاوِيَةَ مَعَ أَهْلِ الشامِ.

وَالْحَق مَعَ عَلِي ﷺ فَإن عُثْمَانَ ﷺ لَما قُتِلَ كَثُرَ الْكَذِبُ وَالِافْتِرَاءُ عَلَى عُثْمَانَ وَعَلَى [مَنْ] (٥) كَانَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ أكَابِرِ الصحَابَةِ كَعَلِي وَطَلْحَةَ وَالزبَيْرِ، وَعَظُمَتِ الشبْهَةُ عِنْدَ مَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْحَالَ، وَقَوِيَتِ الشهْوَةُ فِي نُفُوسِ ذَوِي الْأَهْوَاءِ وَالْأَغْرَاضِ، مِمنْ بَعُدَتْ دَارُهُ مِنْ أَهْلِ الشامِ، وَيَحْمِي اللهُ عُثْمَانَ أَنْ يَظُن بِالْأَكَابِرِ ظُنُونَ سُوءٍ، وَيَبْلُغُهُ عَنْهُمْ أَخْبَارٌ، مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا هُوَ مُحَدثٌ، وَمِنْهَا مَا لَمْ يُعْرَفْ وَجْهُهُ، وَانْضَم إلَى ذَلِكَ أَهْوَاءُ قَوْمٍ يُحِبونَ الْعُلُو فِي الْأَرْضِ. وَكَانَ فِي عَسْكَرِ عَلِي ﷺ - مِنْ أولَئِكَ الطغَاةِ الْخَوَارِجِ،

---

(١) الترمذي الفتن (٢٢٢٦) ، أبو داود السنة (٤٦٤٦) .

(٢) مضى في ص ٤٨٣ .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل وأثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٤) البخاري الصلح (٢٥٥٧) ، الترمذي المناقب (٣٧٧٣) ، النسائي الجمعة (١٤١٠) ، أبو داود السنة (٤٦٦٢) ، أحمد (٥/٥١) .

(٥) في الأصل : (و) ، والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

الذِينَ قتلُوا عُثْمَانَ - مَنْ لَمْ يُعرفْ بِعَينِه، وَمَنْ تَنْتَصِرُ لَهُ قَبِيلَتُه، وَمَنْ لَمْ تَقُمْ عَلَيْهِ حُجةٌ بِمَا فَعَلَهُ، وَمَنْ فِي قَلْبِهِ نِفَاقٌ لَمْ يَتَمكنْ مِنْ إِظْهَارِه كُلِه، وَرَأى طَلْحَةُ وَالزبيْرُ أنهُ إِنْ لَمْ يُنْتَصَرْ لِلشهِيدِ الْمَظْلُومِ، وَيُقْمَعْ أهْلُ الْفَسَادِ وَالْعُدْوَانِ، وَإِلا اسْتَوْجَبُوا غَضَبَ اللهِ وَعِقَابَه. فَجَرَتْ فِتْنَةُ الْجَمَلِ عَلَى غَيرِ اخْتِيَارٍ مِنْ عَلِي، وَلَا مِنْ طَلْحَةَ وَالزبيْرِ، وَإِنمَا أثَارَهَا الْمُفْسِدُونَ بِغَيرِ اخْتِيَارِ السابِقِينَ، ثُم جَرَتْ فِتْنَةُ صِفينَ لِرَأيٍ، وَهُوَ أن أهْلَ الشامِ لَمْ يُعْدَلْ عَلَيْهِمْ، أوْ لَا يُتَمَكنْ مِنَ الْعَدْلِ عَلَيهِمْ - وَهُمْ كَافُونَ، حَتى تَجْتَمِعَ الْأمةُ، وَأنهُمْ يَخَافُونَ طُغْيَانَ مَنْ فِي الْعَسْكَرِ، كَمَا طَغَوْا عَلَى الشهِيدِ الْمَظْلُومِ، وَعَلِي ﷺ هُوَ الْخَلِيفَةُ الراشِدُ الْمَهْدِي الذِي تَجِبُ طَاعَتُه، وَيَجِبُ أنْ يَكُونوا مُجْتَمِعِينَ عَلَيْهِ، فَاعْتَقَدَ أن الطاعَةَ وَالْجَمَاعَةَ الْوَاجِبَتَيْنِ عَلَيْهِمْ تَحْصُلُ بِقِتَالِهِمْ، فَيُطْلَبُ إِمَامٌ، فَاعْتَقَدَ أنهُ يَحْصُلُ بِهِ أدَاءُ الْوَاجِبِ [(١)] وَلَمْ يَعْتَقِدْ أن التأْلِيفَ لَهُمْ كَتَأْلِيفِ الْمُؤَلفَةِ قُلُوبُهُمْ عَلَى عَهْدِ النبِي ﷺ وَالْخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ مِما يَسُوغُ [(٢)] فَحَمَلَهُ مَا رَآهُ - مِنْ أن الدينَ إِقَامَةُ الْحَد عَلَيْهِمْ وَمَنْعُهُمْ مِنَ الْإِثَارَةِ، دُونَ تَأْلِيفِهِمْ -: عَلَى الْقِتَالِ، وَقَعَدَ عَنِ الْقِتَالِ أكْثَرُ الْأكَابِرِ، لِمَا سَمِعُوهُ مِنَ النصُوصِ فِي الْأمْرِ بِالْقُعُودِ فِي الْفِتْنَةِ، وَلِمَا رَأوْهُ مِنَ الْفِتْنَةِ التِي تَرْبُو مَفْسَدَتُهَا عَلَى مَصْلَحَتِهَا. وَنَقُولُ فِي الْجَمِيعِ بِالْحُسْنَى: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [(٣)].

وَالْفِتَنُ التِي كَانَتْ فِي أيامِهِ قَدْ صَانَ اللهُ عَنْهَا أيْدِيَنَا، فَنَسْألُ اللهَ أنْ يَصُونَ عَنْهَا ألْسِنَتَنا، بِمَنِه وَكَرَمِه.

وَمِنْ فَضَائِلِ أمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِي بْنِ أبِي طَالِبٍ ﷺ

مَا فِي الصحِيحَيْنِ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أبِي وَقاصٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِعَلِي: ﴿ أنتَ

(١) هذه الجملة جاءت هكذا في المطبوعة عن أصلها ، ولم نوفق لوجه تصويبها! .

(٢) في المطبوعة " بما يسوغ " . وهو تحريف - فيما أرى .

(٣) الْحَشْرِ : ١٠ .

مِني بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ [مِنْ مُوسَى]، إلا أنهُ لَا نَبِي بَعْدِي ﴾ [1].

وَقَال ﷺ يَوْمَ خَيْبَرَ: ﴿ لَأُعْطِيَن الرايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِب اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَتَطَاوَلْنَا لَهَا، فَقَالَ: ادْعُوا لِي عَلِيا، فَأُتِيَ بِهِ أَرْمَدَ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَفَعَ الرايَةَ إِلَيْهِ، فَفَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ [2].

وَلَما نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ [3] دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيا وَفَاطِمَةَ وَحَسَنًا وَحُسَيْنًا، فَقَالَ: " ﴿ اللهُم هَؤُلَاءِ أَهْلِي ﴾ [4].

---

(1) البخاري المغازي (٤١٥٤) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٤) ، الترمذي المناقب (٣٧٢٤) ، ابن ماجه المقدمة (١٢١) ، أحمد (١٨٥/١) .

(2) البخاري المغازي (٣٩٧٣) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٦) ، أحمد (٣٣٣/٥) .

(3) آل عِمْرَانَ : ٦١ .

(4) مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٤) ، أحمد (١٨٥/١) .

الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ هُمُ الْخُلَفَاءُ الراشِدُونَ

قَوْلُهُ: (وَهُمُ الْخُلَفَاءُ الراشِدُونَ، وَالْأَئمةُ الْمَهْدِيون).

ش: تَقدمَ الْحَدِيثُ الثابِتُ فِي السنَنِ [1] وَصححَهُ الترْمِذِي، عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، قَالَ: ﴿ وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَن هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا ؟ فَقَالَ: " أُوصِيكُمْ بِالسمْعِ وَالطاعَةِ، فَإِنهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنتِي وَسُنةِ الْخُلَفَاءِ الراشِدِينَ الْمَهْدِيينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسكُوا بِهَا، وَعَضوا عَلَيْهَا بِالنوَاجِذِ، وَإِياكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِن كُل بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ ﴾ [2].

وَتَرْتِيبُ الْخُلَفَاءِ الراشِدِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ فِي الْفَضْلِ، كَتَرْتِيبِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ. وَلِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا مِنَ الْمَزِيةِ: أَن النبِي ﷺ أَمَرَنَا بِاتبَاعِ سُنةِ الْخُلَفَاءِ الراشِدِينَ، وَلَمْ يَأْمُرْنَا فِي الِاقْتِدَاءِ فِي الْأَفْعَالِ إِلا بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: ﴿ اقْتَدُوا بِاللذَيْنِ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ﴾ [3]، وَفَرْقٌ بَيْنَ اتبَاعِ سُنتِهِمُ وَالِاقْتِدَاءِ [بِهِمْ] [4] فَحَالُ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَوْقَ حَالِ عُثْمَانَ وَعَلِي رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ تَقْدِيمُ عَلِي عَلَى عُثْمَانَ، وَلَكِنْ ظَاهِرُ مَذْهَبِهِ تَقْدِيمُ عُثْمَانَ عَلَى عَلِي. [وَعَلَى] هَذَا عَامةُ أَهْلِ السنةِ.

وَقَدْ تَقَدمَ قَوْلُ عَبْدِ الرحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ لِعَلِي رضي الله عنه إني قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ الناسِ فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ.

---

(١) تقدم في ص : ٣٧٥ .

(٢) الترمذي العلم (٢٦٧٦) ، أبو داود السنة (٤٦٠٧) ، ابن ماجه المقدمة (٤٤) ، أحمد (١٢٦/٤) ، الدارمي المقدمة (٩٥) .

(٣) الترمذي المناقب (٣٦٦٢) ، ابن ماجه المقدمة (٩٧) ، أحمد (٣٩٩/٥) .

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من سائر النسخ . ن .

وَقَالَ أيوبُ السخْتِيَانِي: مَنْ لَمْ يُقدمْ عُثْمَانَ عَلَى عَلِي فَقَدْ أَزْرَى بِالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

وَفي الصحِيحَيْنِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: ﴿ كُنا نَقُولُ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَي: أَفْضَلُ أُمةِ النبِي ﷺ بَعْدَهُ - أَبو بَكْرٍ، ثُم عُمَرُ، ثُم عُثْمَانُ ﴾ [(١) (٢)].

الْمُبشرُونَ بِالْجَنةِ

الْعَشَرَةُ الْمُبشرُونَ بِالْجَنةِ

قَوْلُهُ: (وَأَن الْعَشَرَةَ الذِينَ سَماهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَبَشرَهُمْ بِالْجَنةِ، نَشْهَدُ لَهُمْ بِالْجَنةِ، عَلَى مَا شَهِدَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَوْلُهُ الْحَق، وَهُمْ. أَبو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِي، وَطَلْحَةُ، وَالزبَيْرُ، وَسَعْدٌ، وَسعِيدٌ، وَعَبْدُ الرحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَأَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَراحِ، وَهُوَ أَمِينُ هَذِهِ الْأُمةِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ).

ش: تَقَدمَ ذِكْرُ بَعْضِ فَضَائِلِ الْخُلَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ. وَمِنْ فَضَائِلِ الستةِ الْبَاقِينَ مِنَ الْعَشَرَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ: مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: ﴿ أَرِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ، [فَقَالَ]: " لَيْتَ رَجُلًا صَالِحًا مِنْ أَصْحَابِي يَحْرُسُنِي اللَّيْلَةَ "، قَالَتْ: وَسَمِعْنَا صَوْتَ السلَاحِ، فَقَالَ النبِي ﷺ مَنْ هَذَا ؟ فَقَالَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقاصٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، جِئْتُ أَحْرُسُكَ ﴾ [(٣)] - وَفي لَفْظٍ آخَرَ: ﴿ وَقَعَ فِي نَفْسِي خَوْفٌ عَلَى

---

(١) البخاري المناقب (٣٤٥٥) ، أبو داود السنة (٤٦٢٨) ، أحمد (١٤/٢) .

(٢) هذا الحديث رواه البخاري ٧ : ١٤ ، ٤٧ بلفظين آخرين . وهو من أفراده ، لم يروه مسلم في صحيحه ، كما نص على ذلك الحافظ (٧ : ١٢٣) . وأما اللفظ الذي هنا فهو لفظ أبي داود : ٤٦٢٨ ، من رواية سالم عن ابن عمر . ورواه أيضا بنحوه ، من غير هذا الوجه : أحمد في المسند : ٤٦٢٦ ، وأبو داود : ٤٦٢٧ ، والترمذي ٤ : ٣٢٢ - ٣٢٣ . فقد تساهل الشارح كثيرا !! .

(٣) البخاري التمني (٦٨٠٤) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤١٠) ، الترمذي المناقب (٣٧٥٦) ، أحمد (١٤١/٦) .

رَسُولِ اللهِ ﷺ فَجِئْتُ أَحْرُسُهُ، فَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثُم نَامَ ﴾ [1] [2].

وَفي الصحِيحَيْنِ: ﴿ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ جَمَعَ لِسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقاصٍ أَبَوَيْهِ يَوْمَ أُحُدٍ، فَقَالَ: " ارْمِ، فِدَاكَ أَبِي وَأمي ﴾ [3].

وَفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ قَيسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: ﴿ رَأَيْتُ يَدَ طَلْحَةَ التِي وَقَى بِهَا النبِي ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ قَدْ شُلتْ ﴾ [4] [5].

وَفيهِ أَيْضًا عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النهْدِي، قَالَ: ﴿ لَمْ يَبْقَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْأَيامِ التِي قَاتَلَ فِيهَا النبِي ﷺ غَيْرُ طَلْحَةَ وَسَعْدٍ ﴾ [6] [7].

وَفي الصحِيحَيْنِ، وَاللفْظُ لِمُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: ﴿ نَدَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الناسَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَانْتَدَبَ الزبَيْرُ، ثُم نَدَبَهُمْ، فَانْتَدَبَ الزبَيْرُ، فَقَالَ النبِي ﷺ لِكُل نَبِي

---

(١) البخاري الجهاد والسير (٢٧٢٩) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤١٠) ، الترمذي المناقب (٣٧٥٦) ، أحمد (٦/ ١٤١) .

(٢) صحيح مسلم ٢ : ٢٣٩ .

(٣) البخاري المغازي (٣٨٣١) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤١٢) ، الترمذي الأدب (٢٨٣٠) ، ابن ماجه المقدمة (١٣٠) ، أحمد (١/١٨٦) .

(٤) البخاري المناقب (٣٥١٨) ، ابن ماجه المقدمة (١٢٨) ، أحمد (١/١٦١) .

(٥) رواه البخاري ٧ : ٦٦ . وقد وهم الشارح في نسبته لمسلم . فإنه من أفراد البخاري . وقد نص الحافظ على ذلك ٧ : ١٢٣ . وقوله " يوم أحد " ليس في لفظ البخاري . وذكر الحافظ أنه ثابت في رواية الإسماعيلي ، يعني في مستخرجه على البخاري .

(٦) البخاري المناقب (٣٥١٧) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤١٤) .

(٧) صحيح مسلم ٢ : ٢٤٠ . ورواه أيضا البخاري ٧ : ٦٥ - ٦٦ . وسها الحافظ في الفتح ٧ : ١٢٣ فجعله من أفراد البخاري .

حَوَارِي، وَحَوَارِيي الزبير ﴾ (١) (٢).

وَفيهِمَا أيضًا عَنِ الزبير ﷺ أن النبي ﷺ قَالَ: ﴿ مَنْ يَأْتِي بَنِي قُرَيْظَةَ فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ ؟ فَانْطَلَقْتُ، فَلَما رَجَعْتُ جَمَعَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ أَبَوَيْهِ، فَقَالَ: " فِدَاكَ أَبِي وَأُمي ﴾ (٣).

وَفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَنسِ بنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ: ﴿إِن لِكُل أُمةٍ أَمِينًا، وَإِن أَمِينَنَا أَيتُهَا الأُمةُ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَراحِ ﴾ (٤) (٥).

وَفي الصحِيحَيْنِ عَنْ حُذَيْفَةَ بنِ الْيَمَانِ، قَالَ. ﴿ جَاءَ أَهْلُ نَجْرَانَ إِلَى النبِي ﷺ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْعَثْ إِلَيْنَا [رَجُلًا] أَمِينًا، فَقَالَ: لَأَبْعَثَن إِلَيْكُمْ رَجُلًا أَمِينًا حَق أَمِينٍ، فَاسْتَشْرَفَ لَهَا الناسُ، قَالَ: فَبَعَثَ أَبَا عُبَيْدَةَ بْنَ الْجَراحِ ﴾ (٦) (٧).

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ ﷺ قَالَ: ﴿ أَشْهَدُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أني سَمِعْتُهُ يَقُولُ: عَشَرَةٌ في الْجَنةِ: النبِي فِي الْجَنةِ، وَأَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنةِ، وَعَلِي فِي الْجَنةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنةِ، وَالزبَيْرُ فِي الْجَنةِ وَسَعْدُ بْنُ مَالِكٍ فِي الْجَنةِ، وَعَبْدُ الرحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنةِ "، وَلَوْ شِئْتُ لَسَميْتُ الْعَاشِرَ، قَالَ: فَقَالُوا: مَنْ هُوَ ؟ قَالَ: " سَعِيدُ بْنُ

---

(١) البخاري أخبار الآحاد (٦٨٣٣) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤١٥) ، الترمذي المناقب (٣٧٤٥) ، ابن ماجه المقدمة (١٢٢) ، أحمد (٣/٣٦٥) .

(٢) مسلم ٢ : ٢٤٠ .

(٣) البخاري المناقب (٣٥١٥) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤١٦) ، الترمذي المناقب (٣٧٤٣) ، أحمد (١/١٦٦) .

(٤) البخاري المناقب (٣٥٣٤) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤١٩) ، الترمذي المناقب (٣٧٩١) ، ابن ماجه المقدمة (١٥٥) ، أحمد (٣/٢٨١) .

(٥) مسلم ٢ : ٢٤١ . وكذلك رواه البخاري ٧ : ٧٣ .

(٦) البخاري المغازي (٤١٢٠) ، مسلم فضائل الصحابة (٢٤٢٠) ، الترمذي المناقب (٣٧٩٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٣٥) ، أحمد (٥/٣٩٨) .

(٧) هذا لفظ مسلم ٢ : ٢٤١ - وأما البخاري فرواه موجزا جدا ٧ : ٧٣ - ٧٤ .

زَيدٍ "، وَقَالَ. لَمَشْهَدُ رَجُلٍ مِنْهُمْ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَغْبر مِنْهُ وَجْهُهُ، خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَحَدِكُمْ، وَلَوْ عُمرَ عُمُرَ نُوحٍ ﴾ (١) (٢). رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ، وَابْنُ مَاجَهْ، وَالتِّرْمِذِي وَصَحَّحَهُ (٣). وَرَوَاهُ التِّرْمِذِي عَنْ عَبْدِ الرحْمَن بن عَوْفٍ.

وَعَنْ عَبْدِ الرحْمَنِ بْن عَوْفٍ ﷺ أن النبي ﷺ قَالَ: " ﴿ أَبو بَكْرٍ فِي الْجَنةِ، وَعُمَرُ فِي الْجَنةِ، وَعَلِي فِي الْجَنةِ، وَعُثْمَانُ فِي الْجَنةِ، وَطَلْحَةُ فِي الْجَنةِ، وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوامِ فِي الْجَنةِ، وَعَبْدُ الرحْمَن بْنُ عَوْفٍ فِي الْجَنةِ، [وَسَعْدٌ فِي الْجَنةِ] (٤). وَسَعِيدُ بْنُ زَيدٍ فِي الْجَنةِ، وَأَبو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَراحِ فِي الْجَنةِ ﴾ .

رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ (٥). وَرَوَاهُ أَبو بَكْرِ بْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ، وَقَدمَ فِيهِ عُثْمَانَ عَلَى عَلِي، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: ﴿ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى حِرَاءٍ، [هُوَ] وَأَبو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِي وَطَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ، فَتَحَركَتِ الصخْرَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اهْدَأْ، فَمَا عَلَيْكَ إِلا نَبِي أَوْ صِدِيقٌ أَوْ شَهِيدٌ ﴾ (٦). رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِي وَغَيْرُهُمَا (٧). وَرُوِيَ مِنْ طُرُقٍ.

---

(١) الترمذي المناقب (٣٧٤٨) ، أبو داود السنة (٤٦٤٩) ، ابن ماجه المقدمة (١٣٣) ، أحمد (١٨٧/١) .

(٢) هذا لفظ روايتي أبي داود (٥ / ٣٩ - ٤٠) . وقد سقط من الأصل : علي والزبير ، وقُدم طلحة على عمر وعثمان ، فأثبتنا لفظ أبي داود . ن .

(٣) جمع المؤلف لفظه من روايتين لأبي داود : ٤٦٤٩ ، ٤٦٥٠ . ورواه أحمد في المسند ، نحوه ، مطولا : ١٦٢٩ .

(٤) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، وأثبتناه من المسند ١ / ١٩٣ ، والترمذي رقم (٣٧٤٧) . ن .

(٥) المسند : ١٦٧٥ ، والترمذي ٤ : ٣٣٤ .

(٦) مسلم فضائل الصحابة (٢٤١٧) ، الترمذي المناقب (٣٦٩٦) ، أحمد (٤١٩/٢) .

(٧) مسلم ٢ : ٢٤١ .

اِلاتفاقُ عَلَى تَعْظِيم هَؤُلَاءِ الْعَشَرَةِ

وَقَدِ اتفقَ أَهْلُ السنةِ عَلَى تَعْظِيمِ هَؤُلَاءِ الْعَشَرَةِ وَتَقْدِيمِهِمْ، لِمَا اشْتهرَ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَنَاقِبِهِمْ. وَمَنْ أَجْهَلُ مِمنْ يَكْرَهُ [التكلمَ بِلَفْظِ] (١) الْعَشَرَةِ، أَوْ فِعْلَ شَيْءٍ يَكُونُ عَشَرَةً !! لِكَوْنِهِمْ يُبْغِضُونَ خِيَارَ الصحَابَةِ، وَهُمُ الْعَشَرَةُ الْمَشْهُودُ لَهُمْ بِالْجَنةِ، وَهُمْ يَسْتَثْنُونَ مِنْهُمْ عَلِيا ﷺ ! فَمِنَ الْعَجَبِ: أَنهُمْ يُوَالُونَ لَفْظَ التسْعَةِ ! وَهُمْ يُبْغِضُونَ التسْعَةَ مِنَ الْعَشَرَةِ ! وَيُبْغِضُونَ سَائِرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ، مِنَ السابِقِينَ الْأَولِينَ، الذِينَ بَايَعُوا رَسُولَ اللهِ تَحْتَ الشجَرَةِ، وَكَانُوا أَلْفًا وَأَرْبَعمِائَةٍ، وَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (٢).

وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ جَابِرٍ ﷺ عَنِ النبِي ﷺ أَنهُ قَالَ: ﴿ لَا يَدْخُلُ النارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشجَرَةِ ﴾ (٣) (٤).

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَيْضًا، عَنْ جَابِرٍ: ﴿ أن غُلَامًا [لحَاطِبٍ] (٥) قَالَ: لَيَدْخُلَن حَاطِبٌ النارَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَذَبْتَ، [لَا يَدْخُلُهَا]، فَإِنه شَهِدَ بَدْرًا وَالْحُدَيْبِيَةَ ﴾ (٦) (٧).

وَالرافِضَةُ يَتَبَرءُونَ مِنْ جُمْهُورِ هَؤُلَاءِ، بَلْ يَتَبَرءُونَ مِنْ سَائِرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إلا مِنْ نَفَرٍ قَلِيلٍ، نَحْوَ بِضْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا !! وَمَعْلُومٌ أَنهُ لَوْ فُرِضَ فِي الْعَالَمِ عَشَرَةٌ مِنْ أَكْفَرِ

---

(١) في الأصل : (لفظ) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٢) الْفتح : ١٨ .

(٣) الترمذي المناقب (٣٨٦٠) ، أبو داود السنة (٤٦٥٣) ، أحمد (٣٥٠/٣) .

(٤) مسلم ٢ : ٢٦٣ ، ولكنه ليس من حديث جابر ، بل من روايته عن أم مبشر ، ولفظه " لا يدخل النار ، إن شاء الله ، من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها " .

(٥) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من صحيح مسلم (١٩٤٢/٤) رقم ٢٤٩٥ . ن .

(٦) مسلم فضائل الصحابة (٢٤٩٥) ، الترمذي المناقب (٣٨٦٤) ، أحمد (٣٤٩/٣) .

(٧) مسلم ٢ : ٢٦٣ . وقد صححنا لفظه منه .

الناس، لم يهجر هذا الاسم لذلك، كما أنه سبحانه لما قال: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (1) لم يجب هجر اسم التسعة مطلقًا. بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه في مواضع من القرآن: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (2). ﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾ (3). ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ ﴾ (4).

وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، وكان في ليلة القدر يقول: ﴿ التمسوها في العشر الأواخر من رمضان ﴾ (5). وقال: ﴿ ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من أيام العشر ﴾ (6). يعني عشر ذي الحجة.

الأئمة الاثنا عشر عند الإمامية

والرافضة توالي بدل العشرة المبشرين بالجنة، الاثني عشر إمامًا، أولهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ويدعون أنه وصي النبي ﷺ دعوى مجردة عن الدليل، ثم الحسن رضي الله عنه ثم الحسين رضي الله عنه ثم علي بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن علي الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى بن جعفر الكاظم، ثم علي بن موسى الرضي، ثم محمد بن علي الجواد، ثم علي بن محمد الهادي، ثم [الحسن] (7) بن علي العسكري، ثم محمد

---

(1) النمل : 48 .

(2) البقرة : 196 .

(3) الأعراف : 142 .

(4) الفجر : 1 - 2 .

(5) البخاري صلاة التراويح (1917) ، أبو داود الصلاة (1381) ، أحمد (259/1) .

(6) البخاري الجمعة (926) ، الترمذي الصوم (757) ، أبو داود الصوم (2438) ، ابن ماجه الصيام (1727) ، أحمد (224/1) ، الدارمي الصوم (1773) .

(7) ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل . وأثبتناها من سائر النسخ . ن .

بْنُ الْحسَنِ، وَيُغَالُونَ فِي مَحَبتِهِمْ، وَيَتَجَاوَزُونَ الْحد !! وَلَمْ يَأتِ ذِكْرُ الْأَئِمةِ الِاثْنَيْ عَشَرَ، إلا عَلَى صِفَةٍ تَرُد قَوْلَهُمْ وَتُبْطِلُهُ، وَهُوَ مَا خَرجَاهُ فِي الصحِيحَيْنِ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: ﴿ دَخَلْتُ مَعَ أَبِي عَلَى النبِي ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَا يَزَالُ أَمْرُ الناسِ مَاضِيًا مَا وَلِيَهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، ثُم تَكَلمَ النبِي ﷺ بِكَلِمَةٍ خَفِيَتْ عَلَي، فَسَأَلْتُ أَبِي: مَاذَا قَالَ النبِي ﷺ؟ قَالَ: "كُلهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ ﴾ [1]. وَفِي لَفْظٍ: ﴿ لَا يَزَالُ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً ﴾ [2] [3].

وَكَانَ الْأَمْرُ كَمَا قَالَ النبِي ﷺ. وَالِاثْنَا عَشَرَ: الْخُلَفَاءُ الراشِدُونَ الْأَرْبَعَةُ، وَمُعَاوِيَةُ، وَابْنُهُ يَزِيدُ، وَعَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ، وَأَوْلَادُهُ الْأَرْبَعَةُ، وَبَيْنَهُمْ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ، ثُم أَخَذَ الْأَمْرُ فِي الِانْحِلَالِ.

وَعِنْدَ الرافِضَةِ أَن أَمْرَ الْأُمةِ لَمْ يَزَلْ فِي أَيامِ هَؤُلَاءِ فَاسِدًا، يَتَوَلى عَلَيْهِمُ الظالِمُونَ الْمُعْتَدُونَ، بَلِ الْمُنَافِقُونَ الْكَافِرُونَ، وَأَهْلُ الْحَق أَذَل مِنَ الْيَهُودِ ! وَقَوْلُهُمْ ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، بَلْ لَمْ يَزَلِ الْإِسْلَامُ عَزِيزًا فِي ازْدِيَادٍ فِي أَيامِ هَؤُلَاءِ.

أَصْلُ الرفْضِ أَحْدَثَهُ مُنَافِقٌ زِنْدِيقٌ

قَوْلُهُ: (وَمَنْ أَحْسَنَ الْقَوْلَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَزْوَاجِهِ الطاهِرَاتِ مِنْ كُل دَنَسٍ، وَذُرياتِهِ الْمُقَدسِينَ مِنْ كُل رِجْسٍ، فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النفَاقِ).

ش: تَقَدمَ بَعْضُ مَا وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسنةِ مِنْ فَضَائِلِ الصحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، قَالَ: ﴿ قَامَ فِينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطِيبًا، بِمَاءٍ يُدْعَى: خُما، بَيْنَ مَكةَ وَالْمَدِينَةِ، فَقَالَ: " أَما بَعْدُ، أَلَا أَيهَا الناسُ، فَإِنمَا أَنَا بَشَرٌ، يُوشِكُ

---

(١) البخاري الأحكام (٦٧٩٦) ، مسلم الإمارة (١٨٢١) ، الترمذي الفتن (٢٢٢٣) ، أبو داود المهدي (٤٢٧٩) ، أحمد (٥/٩٩) .

(٢) البخاري الأحكام (٦٧٩٦) ، مسلم الإمارة (١٨٢١) ، الترمذي الفتن (٢٢٢٣) ، أبو داود المهدي (٤٢٧٩) ، أحمد (٥/٩٩) .

(٣) الروايتان في صحيح مسلم ٢ : ٧٩ - ٨٠ .

أنْ يَأتي رَسُولُ رَبي، فَأُجِيبَ، وَأنا تارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أولُهُما كِتابُ اللهِ، فِيهِ الْهُدَى وَالنورُ، فَخُذُوا بِكِتابِ اللهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِه ﴾ [1]، فَحَث عَلَى كِتابِ اللهِ وَرَغب فِيه، ثُم قَالَ: ﴿ وَأَهْلُ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ في أَهْلِ بَيْتِي، ثَلاثًا ﴾ [2] [3].

وَخرجَ الْبخاري عَنْ أبي بَكْرٍ الصديق رضي الله عنه قَالَ: ﴿ ارْقُبوا مُحَمدًا في أَهْلِ بَيْتِه ﴾ [4] [5].

وَإنما قَالَ الشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ: " فَقَدْ بَرِئَ مِنَ النفَاقِ " - لِأنَّ أَصْلَ الرفْضِ إنما أَحْدَثَهُ مُنَافِقٌ زِنْدِيقٌ، قَصْدُهُ إبْطَالُ دِينِ الْإسْلَامِ، وَالْقَدْحُ فِي الرسُولِ ﷺ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ. فَإن عَبْدَ اللهِ بْنَ سَبَإٍ لَما أَظْهَرَ الْإسْلَامَ أَرَادَ أَنْ يُفْسِدَ دِينَ الْإسْلَامِ بِمَكْرِهِ وَخُبْثِهِ، كَمَا فَعَلَ بُولسُ بِدِينِ النصْرَانِيةِ، فَأَظْهَرَ التنَسكَ، ثُم أَظْهَرَ الْأمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتى سَعَى فِي فِتْنَةِ عُثْمَانَ وَقَتْلِهِ، ثُم لَما قَدِمَ عَلَى الْكُوفَةِ أَظْهَرَ الْغُلُو فِي عَلِي وَالنصْرَ لَهُ، لِيَتَمَكنَ بِذَلِكَ مِنْ أَغْرَاضِهِ، وَبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيا، فَطَلَبَ قَتْلَهُ، فَهَرَبَ مِنْهُ إِلَى قرقيس. وَخَبَرُهُ مَعْرُوفٌ فِي التارِيخِ. وَتَقَدمَ أَنهُ مَنْ فَضلَهُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ جَلَدَهُ جَلْدَ مُفْتَرٍ.

وَبَقِيَتْ فِي نُفُوسِ الْمُبْطِلِينَ خَمَائِرُ بِدْعَةِ الْخَوَارِجِ، مِنَ الْحَرُورِيةِ وَالشيعَةِ، وَلِهَذَا كَانَ الرفْضُ بَابُ الزنْدَقَةِ، كَمَا حَكَاهُ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الطيبِ [6] عَنِ الْبَاطِنِيةِ وَكَيْفِيةِ إفْسَادِهِمْ لِدِينِ الْإسْلَامِ، قَالَ: فَقَالُوا لِلداعِي: يَجِبُ عَلَيْكَ إذَا وَجَدْتَ مَنْ تَدْعُوهُ مُسْلِمًا أَنْ تَجْعَلَ التشَيعَ عِنْدَهُ دِينَكَ وَشِعَارَكَ، وَاجْعَلِ الْمَدْخَلَ مِنْ جِهَةِ ظُلْمِ السلَفِ لِعَلِي وَقَتْلِهِمُ

(١) مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٨) ، أحمد (٣٦٧/٤) ، الدارمي فضائل القرآن (٣٣١٦) .
(٢) مسلم فضائل الصحابة (٢٤٠٨) ، أحمد (٣٦٧/٤) ، الدارمي فضائل القرآن (٣٣١٦) .
(٣) مسلم ٢ : ٢٣٧ - ٢٣٨ ، في حديث طويل : وكان في المطبوعة تحريف ، صححناه منه .
(٤) البخاري المناقب (٣٥٠٩) .
(٥) رواه البخاري عن أبي بكر ، في موضعين ٧ : ٦٣ ، ٧٥ من فتح الباري .
(٦) هو أبو بكر الباقلاني ، محمد بن الطيب .

الْحُسَيْنَ، وَالتبري مِنْ تَيْمٍ وَعَدِي، وَبَنِي أُمية وَبَنِي الْعَباسِ، وَأَن عَلِيا يَعْلَمُ الْغَيبَ ! يُفَوضُ إِلَيهِ خَلْقُ الْعَالَمِ !! وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنْ أَعَاجِيبِ الشيعَةِ [فإن وجدت منه] [1] عِنْدَ الدعْوَةِ إِجَابَةً وَرَشَدًا، أَوْقَفْتُه عَلَى مَثَالِبِ عَلِي وَوَلَدِهِ، رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ. انْتَهَى.

وَلَا شَك أَنهُ يَنْصَرِفُ مِنْ سَب الصحَابَةِ إِلَى سَب أَهْلِ الْبَيْتِ، ثُم آلِ الرسُولِ ﷺ إِذْ أَهْلُ بَيْتِهِ وَأَصْحَابُهُ مِثْلُ هَؤُلَاءِ الْفَاعِلِينَ الضالِينَ.

وُجُوبُ مُوَالَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَبِخَاصةٍ أَهْلِ الْعِلْمِ

قَوْلُهُ: (وَعُلَمَاءُ السلَفِ مِنَ السابِقِينَ، وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ التابِعِينَ - أَهْلِ الْخَيْرِ وَالْأَثَرِ، وَأَهْلِ الْفِقْهِ وَالنظَرِ - لَا يُذْكَرُونَ إِلا بِالْجَمِيلِ، وَمَنْ ذَكَرَهُمْ بِسُوءٍ فَهُوَ عَلَى غَيْرِ السبِيلِ).

ش: قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [2]. فَيَجِبُ عَلَى كُل مُسْلِمٍ بَعْدَ مُوَالَاةِ اللهِ وَرَسُولِهِ مُوَالَاةُ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ، خُصُوصًا الذِينَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، الذِينَ جَعَلَهُمُ اللهُ بِمَنْزِلَةِ النجُومِ، يُهْدَى بِهِمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَر وَالْبَحْرِ. وَقَدْ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، إِذْ كُل أُمةٍ قَبْلَ مَبْعَثِ مُحَمدٍ ﷺ عُلَمَاؤُهَا شِرَارُهَا، إِلا الْمُسْلِمِينَ، فَإِن عُلَمَاءَهُمْ خِيَارُهُمْ، فَإِنهُمْ خُلَفَاءُ الرسُولِ مِنْ أُمتِهِ، وَالْمُحْيُونَ لِمَا مَاتَ مِنْ سُنتِهِ، فَبِهِمْ قَامَ الْكِتَابُ وَبِهِ قَامُوا، وَبِهِمْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَبِهِ نَطَقُوا، وَكُلهُمْ مُتفِقُونَ اتفَاقًا يَقِينًا عَلَى وُجُوبِ اتبَاعِ الرسُولِ ﷺ. وَلَكِنْ إِذَا وُجِدَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ قَوْلٌ قَدْ جَاءَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِخِلَافِهِ -: فَلَا بُد لَهُ فِي تَرْكِهِ مِنْ عُذْرٍ.

وَجِمَاعُ الْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ:

أَحَدُهَا: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ أَن النبِي ﷺ قَالَهُ.

وَالثانِي: عَدَمُ اعْتِقَادِهِ أَنهُ أَرَادَ تِلْكَ الْمَسْأَلَةَ بِذَلِكَ الْقَوْلِ.

---

(١) هذه الزيادة - أو ما في معناها - ضرورية لنسق الكلام .

(٢) النسَاء : ١١٥ .

وَالثالِثُ: اعْتِقَادُهُ أن ذَلِكَ الْحُكْمَ مَنْسوخٌ [(١)].

فَلَهُمُ الْفَضْلُ عَلَيْنَا وَالْمِنةُ بِالسبْقِ، وَتَبْلِيغِ مَا أُرسِلَ بِهِ الرسُولُ ﷺ إِلَيْنَا، وَإِيضَاحِ مَا كَانَ مِنْهُ يَخْفَى عَلَيْنَا، فَرَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ. ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠ ﴾ [(٢)].

لَا يُفَضلُ الْأَوْلِيَاءُ عَلَى الْأَنبِيَاءِ

لَا يُفَضلُ أَحَدٌ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنبِيَاءِ

قَوْلُهُ: (وَلَا نُفَضلُ أَحَدًا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السلَامُ، وَنَقُولُ: نَبِي وَاحِدٌ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الْأَوْلِيَاءِ).

ش: يُشِيرُ الشيْخُ رَحِمَهُ اللهُ إِلَى الرد عَلَى الِاتحَادِيةِ [وَجَهَلَةِ] [(٣)] الْمُتَصَوفَةِ، وَإِلا فَأَهْلُ الِاسْتِقَامَةِ يُوصُونَ بِمُتَابَعَةِ الْعِلْمِ وَمُتَابَعَةِ الشرْعِ. فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ عَلَى الْخَلْقِ كُلهِمْ مُتَابَعَةَ الرسُلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ ﴾ [(٤)] إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥ ﴾ [(٥)]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ ﴾ [(٦)].

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ النيْسَابُورِي: مَنْ أَمرَ السنةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا، نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ، وَمَنْ أَمرَ الْهَوَى عَلَى نَفْسِهِ، نَطَقَ بِالْبِدْعَةِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَا تَرَكَ بَعْضُهُمْ شَيْئًا مِنَ السنةِ إِلا

---

(١) في المطبوعة " محكم منسوخ " ! وهو خطأ ناسخ أو طابع .

(٢) الْحَشْرِ : ١٠ .

(٣) في الأصل : (وجملة) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٤) سورة النساء آية : ٦٤ .

(٥) النسَاءِ : ٦٤-٦٥ .

(٦) آلِ عِمْرَانَ : ٣١ .

لكبر في نفسه. والأمر كما قال، فإنه إذا لم يكن متبعا للأمر الذي جاء به الرسول، كان يعمل بإرادة نفسه، فيكون متبعا لهواه، بغير هدى من الله، وهذا غش النفس، وهو من الكبر، فإنه شبيه بقول الذين قالوا: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ ﴾ [1].

وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته واجتهاده في العبادة، [وتصفية] [2] نفسه، إلى ما وصلت إليه الأنبياء من غير اتباع لطريقتهم !.

ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء !!

ومنهم من يقول إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء!! ويدعي لنفسه أنه خاتم الأولياء !! ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه، ليس له صانع مباين له، لكن هذا يقول: هو الله ! وفرعون أظهر الإنكار بالكلية، لكن كان فرعون في الباطن أعرف بالله منهم، فإنه كان مثبتا للصانع، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق، كابن عربي وأمثاله !! وهو لما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره - قال: النبوة ختمت، لكن الولاية لم تختم ! وادعى من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأن الأنبياء مستفيدون منها ! كما قال:

مقام النبوة في برزخ ... فويق الرسول ودون الولي !

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ [3]. والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخص من النبوة، كما تقدم التنبيه على ذلك.

---

(١) الأنعام : ١٢٤ .

(٢) في الأصل : (ويضيف) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٣) يونس : ٦٢ - ٦٣ .

وَقَالَ ابْنُ عَرَبِي أَيْضًا فِي فُصُوصِهِ: وَلَما مَثلَ النبي ﷺ النُبوةَ بِالْحَائِطِ مِنَ اللبِنِ قَرَآهَا قَدْ كَمُلَتْ إلا لَبِنةً، فَكانَ هُوَ ﷺ موضِعَ اللبِنَةِ، وَأما خَاتَمُ الْأَوْلِيَاءِ فَلَا بُد لَهُ مِنْ هَذِهِ الرؤْيَة، فَيرى مَا مَثلَهُ النبي ﷺ وَيَرى نَفْسَهُ فِي الْحَائِطِ فِي مَوْضِعِ لَبِنَتَيْنِ !! وَيَرى نَفْسَهُ تَنطَبِعُ فِي مَوْضِعِ اللبِنَتَيْنِ، فَيُكْمِلُ الْحَائِطَ !! والسببُ الْمُوجِبُ لِكَوْنِهِ يَرَاهَا لَبِنَتَيْنِ: أَن الْحَائِطَ لَبِنَةٌ مِنْ فِضةٍ وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَاللبِنَةُ الْفِضةُ هِيَ ظَاهِرُهُ وَمَا يَتْبَعُهُ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ، كَمَا هُوَ أَخْذٌ عَنِ اللهِ فِي الشرْعِ مَا هُوَ فِي الصورَةِ الظاهِرَةِ مُتبِعٌ فِيهِ، لِأَنهُ يَرَى الْأَمْرَ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ، فَلَا بُد أَنْ يَرَاهُ هَكَذَا، وَهُوَ مَوْضِعُ اللبِنَةِ الذهَبِيةِ فِي الْبَاطِنِ ! فَإِنهُ يَأْخُذُ مِنَ الْمَعْدِنِ الذِي يَأْخُذُ مِنْهُ الْمَلَكُ الذِي يُوحِي إِلَيْهِ الرسُولُ ﷺ قَالَ: فَإِنْ فَهِمْتَ مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ فَقَدْ حَصَلَ لَكَ الْعِلْمُ النافِعُ !!

كُفْرُ ابْنِ عَرَبِي وَأَمْثَالِهِ

فَمَنْ أَكْفَرُ مِمنْ ضَرَبَ لِنَفْسِهِ الْمَثَلَ بِلَبِنَةِ ذَهَبٍ، وَلِلرسُلِ الْمَثَلَ بِلَبِنَةِ فِضةٍ، فَيَجْعَلُ نَفْسَهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ مِنَ الرسُولِ ؟! تِلْكَ أَمَانِيهِمْ: ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [1]. وَكَيْفَ يَخْفَى كُفْرُ مَنْ هَذَا كَلَامُهُ ؟ وَلَهُ مِنَ الْكَلَامِ أَمْثَالُ هَذَا، وَفِيهِ مَا يَخْفَى مِنْهُ الْكُفْرُ، وَمِنْهُ مَا يَظْهَرُ، فَلِهَذَا يَحْتَاجُ إِلَى نَاقِدٍ جَيدٍ، لِيَظْهَرَ زَيْفُهُ، فَإِن مِنَ الزغَلِ مَا يَظْهَرُ لِكُل نَاقِدٍ، وَمِنْهُ مَا لَا يَظْهَرُ إلا لِلناقِدِ الْحَاذِقِ الْبَصِيرِ. وَكُفْرُ ابْنِ عَرَبِي وَأَمْثَالِهِ فَوْقَ كُفْرِ الْقَائِلِينَ: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [2]. وَلَكِن ابْنَ عَرَبِي وَأَمْثَالَهُ مُنَافِقُونَ زَنَادِقَةٌ، [اتحَادِيةٌ] [3] فِي الدرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النارِ، وَالْمُنَافِقُونَ يُعَامَلُونَ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ، لِإِظْهَارِهِمُ الْإِسْلَامَ، كَمَا كَانَ يُظْهِرُهُ الْمُنَافِقُونَ فِي حَيَاةِ النبي ﷺ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ، وَهُوَ يُعَامِلُهُمْ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ لِمَا يَظْهَرُ مِنْهُمْ. فَلَوْ أَنهُ ظَهَرَ [مِنْ

---

(١) غَافِر : ٥٦ .

(٢) الْأَنْعَام : ١٢٤ .

(٣) في الأصل : (والاتحادية) ، ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

أَحدٍ] [1] مِنْهُمْ مَا يبطِنُه مِنَ الْكُفرِ، لَأجْرى عَلَيْهِ حُكْمَ الْمُرْتد. وَلَكِنْ فِي قبول تَوْبَتِهِ خِلَافٌ، وَالصحِيحُ عَدَمُ قبولهَا، وَهِيَ رِوَايَةُ مُعلى عَنْ أبي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ.

كَرَامَاتُ الأَوْلِيَاءِ

ثُبوتُ كَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ

قَوْلُهُ: (وَنُؤمِنُ بِمَا جَاءَ مِنْ كَرَامَاتِهِمْ، وَصَح عَنِ الثقَاتِ مِنْ رِوَايَاتِهِمْ).

ش: فالْمُعْجِزَةُ فِي اللغَةِ تَعم كُل خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، وَ [كذلك الكرامة] فِي عُرْفِ أَئِمةِ أَهْلِ الْعِلْمِ الْمُتَقدمِينَ. وَلَكِنْ كَثِيرٌ مِنَ الْمُتَأخرِينَ يُفرقُونَ فِي اللفْظِ بَيْنَهُمَا، فَيَجْعَلُونَ الْمُعْجِزَةَ لِلنبِي، وَالْكَرَامَةَ لِلْوَلِي. وَجِمَاعُهُمَا: الْأَمْرُ الْخَارِقُ لِلْعَادَةِ.

وَالْكَمَالُ يَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثَةٍ: الْعِلْمِ، وَالْقُدْرَةِ، وَالْغِنَى. وَهَذِهِ الثلَاثَةُ لَا تَصْلُحُ عَلَى الْكَمَالِ إِلا لِلهِ وَحْدَهُ، فَإِنهُ الذِي أَحَاطَ بِكُل شَيْءٍ عِلْمًا، وَهُوَ عَلَى كُل شَيْءٍ قَدِيرٌ، وَهُوَ غَنِي عَنِ الْعَالَمِينَ. وَلِهَذَا أَمَرَ النبِي ﷺ أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دَعْوَى هَذِهِ الثلَاثَةِ بِقَوْلِهِ: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۚ ﴾ [2].

وَكَذَلِكَ قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السلَامُ، فَهَذَا أَولُ أُولِي الْعَزْمِ، وَأَولُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، وَهَذَا خَاتَمُ الرسُلِ، وَخَاتَمُ أُولِي الْعَزْمِ، وَكِلَاهُمَا تبرأ مِنْ ذَلِكَ، وَهَذَا لِأَنهُمْ يُطَالِبُونَهُمْ تَارَةً بِعِلْمِ الْغَيْبِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ ﴾ [3] وَتَارَةً بِالتأْثِيرِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .
(٢) الْأَنعَامِ : ٥٠ .
(٣) النازعَاتِ : ٤٢ .

يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ (١) الْآيَاتِ، وَتَارَةً يعيبون عَلَيهِمُ الْحَاجَةَ الْبَشَرِيَة، كَقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِى فِى ٱلۡأَسۡوَاقِ ۙ﴾ (٢) الْآيَةَ.

فَأَمَرَ الرسولُ أَنْ يُخْبِرَهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ، وَإِنمَا يَنالُ مِنْ تِلْكَ الثلَاثَةِ بِقَدْرِ مَا يُعْطِيهِ اللهُ، فَيَعْلَمُ مَا عَلَّمَهُ اللهُ إِياهُ، وَيَسْتَغْنِي عَما أَغْنَاهُ عَنْهُ، وَيَقْدِرُ عَلَى مَا أَقْدَرَهُ عَلَيهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُخَالِفَةِ لِلْعَادَةِ الْمُطرِدَةِ، أَوْ لِعَادَةِ أَغْلَبِ الناسِ. فَجَمِيعُ الْمُعْجِزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ مَا تَخْرُجُ عَنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ.

ثم الْخَارِقُ: إِنْ حَصَلَ بِهِ فَائِدَةٌ مَطْلُوبَةٌ فِي الدينِ، كَانَ مِنَ الْأَعْمَالِ الصالِحَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا دِينًا وَشَرْعًا، إِما وَاجِبٌ أَوْ مُسْتَحَب، وَإِنْ حَصَلَ بِهِ أَمْرٌ مُبَاحٌ، كَانَ مِنْ نِعَمِ اللهِ الدنْيَوِيةِ التِي تَقْتَضِي شُكْرًا، وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهٍ يَتَضَمنُ مَا هُوَ مَنْهِي عَنْهُ نَهْيَ تَحْرِيمٍ أَوْ نَهْيَ تَنْزِيهٍ، كَانَ سَبَبًا لِلْعَذَابِ أَوِ الْبُغْضِ، كَالذِي أُوتِيَ الْآيَاتِ فَانْسَلَخَ مِنْهَا: بَلْعَامُ بْنُ بَاعُورَا، [لكن قد يكون صاحبها معذورا] (٣) لِاجْتِهَادٍ أَوْ تَقْلِيدٍ، أَوْ نَقْصِ عَقْلٍ أَوْ عِلْمٍ، أَوْ غَلَبَةِ حَالٍ، أَوْ عَجْزٍ أَوْ ضَرُورَةٍ.

الْمَحْمُودُ مِنَ الْخَوَارِقِ وَالْمَذْمُومُ وَالْمُبَاحُ

فَالْخَارِقُ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ: مَحْمُودٌ فِي الدينِ، وَمَذْمُومٌ، وَمُبَاحٌ. فَإِنْ كَانَ الْمُبَاحُ فِيهِ مَنْفَعَةٌ كَانَ نِعْمَةً، وَإِلا فَهُوَ كَسَائِرِ الْمُبَاحَاتِ التِي لَا مَنْفَعَةَ فِيهَا.

قَالَ أَبو عَلِي الْجَوْزَجَانِي: كُنْ طَالِبًا لِلِاسْتِقَامَةِ، لَا طَالِبًا لِلْكَرَامَةِ، فَإِن نَفْسَكَ مُتَحَرِّكَةٌ فِي طَلَبِ الْكَرَامَةِ، وَرَبكَ يَطْلُبُ مِنْكَ الِاسْتِقَامَةَ.

---

(١) سورة الإسراء آية : ٩٠ .

(٢) الْفُرْقَان : ٧ .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ولا يستقيم الكلام إلا به ، وهو بنصه في فتاوى ابن تيمية ١١ / ٣١٩ فنقلناه منه . ن .

قَالَ الشَّيْخُ السهْرَوَرْدِي فِي عَوَارِفِهِ: [وَهَذَا الذِي ذَكَرَهُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي الْبَابِ] [1] فَإِن كَثِيرًا مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ [وَالْمُتَعَبِدِينَ] [2] سَمِعُوا [عَن] [3] سَلَفِ الصالِحِينَ الْمُتَقَدمِينَ، وَمَا مُنِحُوا بِهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، فَنُفُوسُهُمْ لَا تَزَالُ تَتَطَلعُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَيُحِبونَ أَنْ يُرْزَقُوا شَيْئًا مِنْهُ، وَلَعَل أَحَدَهُمْ يَبْقَى مُنْكَسِرَ الْقَلْبِ، مُتهِمًا لِنَفْسِهِ فِي صِحةِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَمْ يَحْصُلْ لَهُ خَارِقٌ، وَلَوْ عَلِمُوا بِسِر ذَلِكَ لَهَانَ عَلَيْهِمُ الْأَمْرُ، فَيَعْلَمُ أَن اللهَ يَفْتَحُ عَلَى بَعْضِ [الْمُجتهِدِينَ] [4] الصادِقِينَ مِنْ ذَلِكَ بَابًا، وَالْحِكْمَةُ [فِيهِ] [5] أَنْ يَزْدَادَ بِمَا [يَرَى] [6] مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَآثَارِ الْقُدْرَةِ - يَقِينًا، فَيَقْوَى عَزْمُهُ عَلَى الزهْدِ فِي الدنْيَا، وَالْخُرُوجِ عَنْ دَوَاعِي الْهَوَى. فَسَبِيلُ الصادِقِ مُطَالَبَةُ النفْسِ بِالِاسْتِقَامَةِ، فَهِيَ كُل الْكَرَامَةِ.

وَلَا رَيْبَ أَن لِلْقُلُوبِ مِنَ التأْثِيرِ أَعْظَمَ مِما لِلْأَبْدَانِ، لَكِنْ إِنْ كَانَتْ صَالِحَةً كَانَ تَأْثِيرُهَا صَالِحًا، وَإِنْ كَانَتْ فَاسِدَةً كَانَ تَأْثِيرُهَا فَاسِدًا. فَالْأَحْوَالُ يَكُونُ تَأْثِيرُهَا مَحْبُوبًا لِلهِ تَعَالَى تَارَةً، وَمَكْرُوهًا لِلهِ أُخْرَى.

وَقَدْ تَكَلمَ الْفُقَهَاءُ فِي وُجُوبِ الْقَوَدِ عَلَى مَنْ يَقْتُلُ غَيْرَهُ فِي الْبَاطِنِ. وَهَؤُلَاءِ يَشْهَدُونَ

(١) انظر كلام السهروردي في عوارف المعارف له (مطبوع ضمن الإحياء ٥ / ٥٤) وفي مجموع الفتاوى ١١ / ٣٢٠ ، والتصحيح الذي بين المعقوفتين منهما . ن .

(٢) انظر كلام السهروردي في عوارف المعارف له (مطبوع ضمن الإحياء ٥ / ٥٤) وفي مجموع الفتاوى ١١ / ٣٢٠ ، والتصحيح الذي بين المعقوفتين منهما . ن .

(٣) انظر كلام السهروردي في عوارف المعارف له (مطبوع ضمن الإحياء ٥ / ٥٤) وفي مجموع الفتاوى ١١ / ٣٢٠ ، والتصحيح الذي بين المعقوفتين منهما . ن .

(٤) انظر كلام السهروردي في عوارف المعارف له (مطبوع ضمن الإحياء ٥ / ٥٤) وفي مجموع الفتاوى ١١ / ٣٢٠ ، والتصحيح الذي بين المعقوفتين منهما . ن .

(٥) انظر كلام السهروردي في عوارف المعارف له (مطبوع ضمن الإحياء ٥ / ٥٤) وفي مجموع الفتاوى ١١ / ٣٢٠ ، والتصحيح الذي بين المعقوفتين منهما . ن .

(٦) انظر كلام السهروردي في عوارف المعارف له (مطبوع ضمن الإحياء ٥ / ٥٤) وفي مجموع الفتاوى ١١ / ٣٢٠ ، والتصحيح الذي بين المعقوفتين منهما . ن .

بِبَوَاطِنِهِمْ وَقُلُوبِهِمُ الْأَمرَ الْكَوْنِي، وَيَعُدونَ مُجَرَدَ خَرْقِ الْعَادَةِ لِأَحَدِهِمْ أَنَّهُ كَرَامَةٌ مِنَ اللهِ لَهُ، وَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ إِنمَا الْكَرَامَةُ لُزُومُ الِاسْتِقَامَةِ، وَأَن اللهَ تَعَالَى لَمْ يُكْرِمْ عَبْدًا بِكَرَامَةٍ أَعْظَمَ مِنْ مُوَافَقَتِهِ فِيمَا يُحِبهُ وَيَرْضَاهُ، وَهُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ، وَمُوَالَاةُ أَوْلِيَائِهِ، وَمُعَادَاةُ أَعْدَائِهِ. وَهَؤُلَاءِ هُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.

وَأَما مَا يَبْتَلِي اللهُ بِهِ عَبْدَهُ، مِنَ السرِ بِخَرْقِ الْعَادَةِ أَوْ بِغَيْرِهَا أَوْ بِالضراءِ - فَلَيْسَ ذَلِكَ لِأَجْلِ كَرَامَةِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِهِ وَلَا هَوَانِهِ عَلَيْهِ، بَلْ قَدْ سَعِدَ بِهَا قَوْمٌ إِذَا أَطَاعُوهُ، وَشَقِيَ بِهَا قَوْمٌ إِذَا عَصَوْهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [(١)].

وَلِهَذَا كَانَ الناسُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: قِسْمٌ تَرْتَفِعُ دَرَجَتُهُمْ بِخَرْقِ الْعَادَةِ، وَقِسْمٌ يَتَعَرضُونَ بِهَا لِعَذَابِ اللهِ، وَقِسْمٌ يَكُونُ فِي حَقهِمْ بِمَنْزِلَةِ الْمُبَاحَاتِ، كَمَا تَقَدمَ.

كَلِمَاتُ اللهِ نَوْعَانِ كَوْنِيةٌ وَدِينِيةٌ

وَتَنَوعُ الْكَشْفِ وَالتأْثِيرِ بِاعْتِبَارِ تَنَوعِ كَلِمَاتِ اللهِ. وَكَلِمَاتُ اللهِ نَوْعَانِ: كَوْنِيةٌ، وَدِينِيةٌ:

فَكَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيةُ هِيَ التِي اسْتَعَاذَ بِهَا النبِي ﷺ فِي قَوْلِهِ: « أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التامَاتِ التِي لَا يُجَاوِزُهُن بَر وَلَا فَاجِرٌ » [(٢)]. قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [(٣)]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ ﴾ [(٤)]. وَالْكَوْنُ كُلهُ دَاخِلٌ تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَسَائِرِ الْخَوَارِقِ.

---

(١) الْفَجْرِ : ١٥ - ١٧ .

(٢) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٠٨) ، الترمذي الدعوات (٣٤٣٧) ، ابن ماجه الطب (٣٥٤٧) ، أحمد (٦/٤٠٩) ، الدارمي الاستئذان (٢٦٨٠) .

(٣) يس : ٨٢ .

(٤) الْأَنْعَامِ : ١١٥ .

وَالنوْعُ الثانِي: الْكَلِمَاتُ الدينيةُ، وَهِيَ الْقُرْآنُ وَشَرْعُ اللهِ الذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ، وَهِيَ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ وَخَبَرُهُ، وَحظ الْعَبْدِ مِنْهَا الْعِلْمُ بِهَا، وَالْعَمَلُ، وَالْأَمْرُ بِمَا أَمرَ اللهُ بِهِ، كَمَا أَن حَظ الْعِبَادِ عُمُومًا وَخُصُوصًا الْعِلْمُ بِالْكَوْنياتِ وَالتأْثِيرُ فِيهَا، أَيْ بِمُوجِبِهَا. فَالْأُولَى تَدْبِيرِيةٌ كَوْنيةٌ، وَالثانِيَةُ شَرْعِيةٌ دِينيةٌ. فَكَشْفُ الْأُولَى الْعِلْمُ بِالْحَوَادِثِ الْكَوْنيةِ، وَكَشْفُ الثانِيَةِ الْعِلْمُ بِالْمَأْمُورَاتِ الشرْعِيةِ.

وَقُدْرَةُ الْأُولَى التأْثِيرُ فِي الْكَوْنياتِ، إِما فِي نَفْسِهِ كَمَشْيِهِ عَلَى الْمَاءِ، وَطَيَرَانِهِ فِي الْهَوَاءِ، وَجُلُوسِهِ فِي النارِ، وَإِما فِي غَيْرِهِ، بِإِصْحَاحٍ وَإِهْلَاكٍ، وَإِغْنَاءٍ وَإِفْقَارٍ.

وَقُدْرَةُ الثانِيَةِ التأْثِيرُ فِي الشرْعِياتِ، إِما فِي نَفْسِهِ بِطَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ، وَإِما فِي غَيْرِهِ فَيُطَاعُ فِي ذَلِكَ طَاعَةً شَرْعِيةً.

فَإِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ، فَاعْلَمْ أَن عَدَمَ الْخَوَارِقِ عِلْمًا وَقُدْرَةً لَا تَضُر الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ، فَمَنْ لَمْ يَنْكَشِفْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْمُغَيبَاتِ، وَلَمْ يُسَخرْ لَهُ شَيْءٌ مِنَ الْكَوْنياتِ -: لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ فِي مَرْتَبَتِهِ عِنْدَ اللهِ، بَلْ قَدْ يَكُونُ عَدَمُ ذَلِكَ أَنْفَعَ لَهُ، فَإِنهُ إِنِ اقْتَرَنَ بِهِ الدينُ وَإِلا هَلَكَ صَاحِبُهُ فِي الدنْيَا وَالْآخِرَةِ، فَإِن الْخَارِقَ قَدْ يَكُونُ مَعَ الدينِ، وَقَدْ يَكُونُ مَعَ عَدَمِهِ، أَوْ فَسَادِهِ، أَوْ نَقْصِهِ.

الْخَوَارِقُ النافِعَةُ تَابِعَةٌ لِلدينِ خَادِمَةٌ لَهُ

فَالْخَوَارِقُ النافِعَةُ تَابِعَةٌ لِلدينِ، خَادِمَةٌ لَهُ، كَمَا أَن الرِّيَاسَةَ النافِعَةَ هِيَ [التابِعَةُ] (١) لِلدينِ، وَكَذَلِكَ الْمَالُ النافِعُ، كَمَا كَانَ السلْطَانُ وَالْمَالُ النافِعُ بِيَدِ النبِي ﷺ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ. فَمَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمَقْصُودَةَ، وَجَعَلَ الدينَ تَابِعًا لَهَا، وَوَسِيلَةً إِلَيْهَا، لَا لِأَجْلِ الدينِ فِي الْأَصْلِ -: فَهُوَ شَبِيهٌ بِمَنْ يَأْكُلُ الدنْيَا بِالدينِ، وَلَيْسَتْ حَالُهُ كَحَالِ مَنْ تَدَينَ خَوْفَ الْعَذَابِ، أَوْ رَجَاءَ الْجَنةِ، فَإِن ذَلِكَ مَا هُوَ مَأْمُورٌ بِهِ، وَهُوَ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَشَرِيعَةٍ صَحِيحَةٍ.

---

(١) في الأصل : (النافعة) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ ومن الفتاوى ١١ / ٣٣٤ . ن .

وَالْعجَبُ أن كَثِيرًا مِمنْ يَزْعُمُ أن هَمهُ قدِ ارْتفعَ عَنْ أنْ يَكُون خَوْفًا مِنَ النارِ أوْ طَلَبًا لِلْجَنةِ - يَجْعَلُ هَمهُ بِدِينِه أدْنى خَارِقٍ مِنْ خَوَارِقِ الدنْيا !! ثُم إن الدينَ إذَا صَح عِلْمًا وَعَمَلًا فَلَا بُد أنْ يُوجِبَ خَرْقَ الْعَادَةِ، إذَا احْتَاجَ إلَى ذَلِكَ صَاحِبُه. قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾[1]. وَقَالَ تعالَى: ﴿ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾[2]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ ﴾[3]. وَقَالَ تعالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾[4].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ اتقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإنهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ " ثُم قَرَأَ قَوْلَهُ ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ۝ ﴾[5] ﴾. رَوَاهُ التِّرْمِذِي مِنْ رِوَايَةِ أبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي.

وَقَالَ تعالَى، فِيمَا يَرْوِي عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ ﴿ مَنْ عَادَى لِي وَلِيا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمُحَارَبَةِ، وَمَا تَقَربَ إلَي عَبْدِي بِمِثْلِ أدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقربُ إلَي بِالنوَافِلِ حَتى أحِبهُ، فَإذَا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ التِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ التِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ سَألَنِي لَأُعْطِيَنهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنهُ، وَمَا تَرَددْتُ فِي شَيْءٍ أنَا فَاعِلُهُ تَرَددِي فِي قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأكْرَهُ

---

(١) الطلَاق : ٢ - ٣ .

(٢) الْأنفَال : ٢٩ .

(٣) النسَاء : ٦٦ - ٦٨ .

(٤) يُونُس : ٦٢ - ٦٤ .

(٥) سورة الحجر آية : ٧٥ .

مَسَاءَتَه، وَلَا بد لَه مِنْهُ ﷺ [1]. فَظَهَرَ أن الِاسْتِقَامَة حَظ الرب، وَطَلَبَ الْكَرَامَة حَظ النفْسِ. وَبِاللهِ التوْفِيقُ.

وَقَوْلُ الْمُعْتَزِلَةِ فِي إِنْكَارِ الْكَرَامَةِ: ظَاهِرُ الْبُطْلَانِ، فَإِنهُ بِمَنْزِلَةِ إِنْكَارِ الْمَحْسُوسَاتِ. وَقَوْلُهُمْ: لَوْ صَحتْ لَاشْتَبَهَتْ بِالْمُعْجِزَةِ، فَيُؤَدي إِلَى الْتِبَاسِ النبِي بِالْوَلِي، وَذَلِكَ لَا يَجُوزُ ! وَهَذِهِ الدعْوَى إِنمَا تَصِح إِذَا كَانَ الْوَلِي يَأْتِي بِالْخَارِقِ وَيَدعِي النُبوةَ، وَهَذَا لَا يَقَعُ، وَلَوِ ادعَى النُبوةَ لَمْ يَكُنْ وَلِيا، بَلْ كَانَ مُتَنَبئًا كَذابًا، وَقَدْ تَقَدمَ الْكَلَامُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ النبِي وَالْمُتَنَبئِ، عِنْدَ قَوْلِ الشيْخِ: " وَأَن مُحَمدًا عَبْدُهُ الْمُجْتَبَى وَنَبِيهُ الْمُصْطَفَى ".

أَنوَاعُ الْفِرَاسَةِ

وَمِما يَنْبَغِي التنْبِيهُ عَلَيْهِ هَاهُنَا: أن الْفِرَاسَةَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ:

إِيمَانِيةٌ، وَسَبَبُهَا نُورٌ يَقْذِفُهُ اللهُ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ، وَحَقِيقَتُهَا أَنهَا خَاطِرٌ يَهْجُمُ عَلَى الْقَلْبِ، يَثِبُ عَلَيْهِ كَوُثُوبِ الْأَسَدِ عَلَى الْفَرِيسَةِ، وَمِنْهَا اشْتِقَاقُهَا [2] وَهَذِهِ الْفِرَاسَةُ عَلَى حَسَبِ قُوةِ الْإِيمَانِ، فَمَنْ كَانَ أَقْوَى إِيمَانًا أَحَدَ فِرَاسَتَهُ. قَالَ أَبو سُلَيْمَانَ الدارَانِي رَحِمَهُ اللهُ: الْفِرَاسَةُ مُكَاشَفَةُ النفْسِ وَمُعَايَنَةُ الْغَيْبِ، وَهِيَ مِنْ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ. انْتَهَى.

وَفِرَاسَةٌ رِيَاضِيةٌ، وَهِيَ التِي تَحْصُلُ بِالْجُوعِ وَالسهَرِ وَالتخَلي، فَإِن النفْسَ إِذَا تَجَردَتْ عَنِ الْعَوَائِقِ صَارَ لَهَا مِنَ الْفِرَاسَةِ وَالْكَشْفِ بِحَسَبِ تَجَردِهَا، وَهَذِهِ فِرَاسَةٌ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ، وَلَا تَدُل عَلَى إِيمَانٍ، وَلَا عَلَى وِلَايَةٍ، وَلَا تَكْشِفُ عَنْ حَق نَافِعٍ، وَلَا عَنْ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ، بَلْ كَشْفُهَا مِنْ جِنْسِ فِرَاسَةِ الْوُلَاةِ وَأَصْحَابِ [عِبَارَةِ الرؤْيَا وَالْأَطِباءِ] [3] وَنَحْوِهِمْ.

وَفِرَاسَةٌ خَلْقِيةٌ، وَهِيَ التِي صَنفَ فِيهَا الْأَطِباءُ وَغَيْرُهُمْ، وَاسْتَدَلوا بِالْخَلْقِ عَلَى الْخُلُقِ، لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الِارْتِبَاطِ، الذِي اقْتَضَتْهُ حِكْمَةُ اللهِ، كَالِاسْتِدْلَالِ بِصِغَرِ الرأْسِ الْخَارِجِ عَنِ

---

(١) البخاري الرقاق (٦١٣٧) .

(٢) في الأصل " إشعالها " ! ولا معنى لها ، ولعل ما أثبتناه هو الصواب .

(٣) في الأصل : (عبادة الرؤساء والأظناء) . ولعل الصواب ما أثبتناه من مدارج السالكين ٢ / ٤٨٧ . ن .

الْعَادَةِ عَلى صِغَرِ الْعَقْلِ، وَبِكِبَرِهِ عَلى كِبَرِهِ، وَسِعَةِ الصدْرِ عَلى سِعَةِ الْخُلُقِ، وَبِضِيقِهِ عَلى ضِيقِهِ، وَبِجُمُودِ الْعَيْنَيْنِ وَكَلَالِ نَظَرِهِمَا عَلى بَلَادَةِ صَاحِبِهِمَا وَضَعْفِ حَرَارَةِ قَلْبِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ.

الْإِيمَانُ بِأَشْرَاطِ السَاعَةِ

قَوْلُهُ: (وَنُؤْمِنُ بِأَشْرَاطِ الساعَةِ: مِنْ خُرُوجِ الدجالِ، وَنُزُولِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السلَامُ مِنَ السمَاءِ، وَنُؤْمِنُ بِطُلُوعِ الشمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجِ دَابةِ الْأَرْضِ مِنْ مَوْضِعِهَا).

ش: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِي، قَالَ: ﴿أَتَيْتُ النبِي ﷺ فِي غَزْوَةِ [تَبُوكَ]، وَهُوَ فِي قُبةٍ [مِنْ] أَدَمٍ، فَقَالَ: " اعْدُدْ سِتا بَيْنَ يَدَيِ الساعَةِ: مَوْتِي، ثُم فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، ثُم مُوتَانٌ يَأْخُذُ فِيكُمْ كَقُعَاصِ الْغَنَمِ، ثُم اسْتِفَاضَةُ الْمَالِ حَتى يُعْطَى الرجُلُ مِائَةَ دِينَارٍ فَيَظَل سَاخِطًا، ثُم فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلا دَخَلَتْهُ، ثُم هُدْنَةٌ تَكُونُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَيَغْدِرُونَ، فَيَأْتُونَكُمْ تَحْتَ ثَمَانِينَ غَايَةً، تَحْتَ كُل غَايَةٍ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا﴾ (١).

وَرُوِيَ " رَايَةً "، بِالراءِ وَالْغَيْنِ، وَهُمَا بِمَعْنًى. رَوَاهُ الْبُخَارِي وَأَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ وَالطبَرَانِي (٢).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ بْنِ أَسِيدٍ، قَالَ: ﴿اطلَعَ النبِي ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الساعَةَ، فَقَالَ: " مَا تَذَاكَرُونَ " ؟ قَالُوا: نَذْكُرُ الساعَةَ، فَقَالَ: " إِنهَا لَنْ تَقُومَ حَتى تَرَوْنَ [قَبْلَهَا] عَشْرَ آيَاتٍ "، [فَذَكَرَ]: " الدخَانُ، وَالدجالُ، وَالدابةُ، وَطُلُوعُ الشمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ: خَسْفٌ بِالْمَشْرِقِ، وَخَسْفٌ بِالْمَغْرِبِ، وَخَسْفٌ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ الناسَ إِلَى

---

(١) البخاري الجزية (٣٠٠٥) ، أبو داود الأدب (٥٠٠٠) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٤٢) ، أحمد (٢٥/٦) .

(٢) رواه البخاري ٦ : ١٩٨ - ١٩٩ من (الفتح) . ورواية " راية " بالراء - هي رواية أبي داود ، كما نص عليه الحافظ . وفي معناه حديث لعبد الله بن عمرو بن العاص . رواه أحمد في المسند : ٦٦٢٣ .

مَحْشَرِهِمْ ﴾ [1]. رَوَاهُ مُسْلِمٌ [2].

وَفي الصحِيحَيْن، وَاللفْظُ لِلْبُخَارِي، عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: ﴿ ذُكِرَ الدجالُ عِنْدَ النبِي ﷺ فَقَالَ: "إن اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إن اللهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى عَيْنِهِ، وَإِن الْمَسِيحَ الدجالَ أَعْوَرُ عَيْنِ الْيُمْنَى، كَأَن عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ ﴾ [3].

وَعَنْ أَنسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " ﴿ مَا مِنْ نَبِي إِلا وَأَنْذَرَ قَوْمَهُ الْأَعْوَرَ الدجالَ، أَلَا إِنهُ أَعْوَرُ، وَإِن رَبكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، وَمَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ك ف ر ﴾ [4]، فَسرَهُ فِي رِوَايَةٍ: " أَيْ كَافِرٌ ".

وَرَوَى الْبُخَارِي وَغَيْرُه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿ وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَن أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَيَكْسِرُ الصلِيبَ، وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتى لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، حَتى تَكُونَ السجْدَةُ خَيْرًا مِنَ الدنْيَا وَمَا فِيهَا ﴾ [5]. ثُم يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ: اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ ﴾ [6] [7].

---

(١) مسلم الفتن وأشراط الساعة (٢٩٠١) ، الترمذي الفتن (٢١٨٣) ، أبو داود الملاحم (٤٣١١) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٥٥) ، أحمد (٧/٤) .

(٢) مسلم ٢ : ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٣) البخاري التوحيد (٦٩٧٢) ، مسلم الإيمان (١٦٩) ، أحمد (١٣٥/٢) .

(٤) البخاري التوحيد (٦٩٧٣) ، مسلم الفتن وأشراط الساعة (٢٩٣٣) ، الترمذي الفتن (٢٢٤٥) ، أبو داود الملاحم (٤٣١٦) ، أحمد (٢٩٠/٣) .

(٥) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٦٤) ، مسلم الإيمان (١٥٥) ، الترمذي الفتن (٢٢٣٣) ، أبو داود الملاحم (٤٣٢٤) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٧٨) ، أحمد (٤٨٣/٢) .

(٦) النسَاء : ١٥٩ .

(٧) رواه البخاري ١٣ : ٣٢٩ (من الفتح) .

وَأحَادِيثُ الدجالِ، وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السلَامُ، يَنزِلُ مِنَ السمَاءِ وَيَقْتُلُهُ، وَيَخْرُجُ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ فِي أيامِهِ بَعْدَ قَتْلِهِ الدجالَ، فَيُهْلِكُهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ فِي لَيْلَةٍ وَاحِدَةٍ بِبَرَكَةِ دُعَائِهِ عَلَيْهِمْ: يَضِيقُ هَذَا الْمُخْتَصَرُ عَنْ بَسْطِهَا.

وَأما خُرُوجُ الدابةِ وَطُلُوعُ الشمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ - فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[1].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾[2].

وَرَوَى الْبُخَارِي عِنْدَ تَفْسِيرِ الْآيَةِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ﴿لَا تَقُومُ الساعَةُ حَتى تَطْلُعَ الشمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا الناسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَلِكَ حِينَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ [3] [4].

وَرَوَى مُسْلِمٌ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿إِن أولَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعُ الشمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدابةِ عَلَى الناسِ ضُحًى، وَأَيهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا﴾ [5] [1]. أَيْ أولُ الْآيَاتِ التِي لَيْسَتْ مَأْلُوفَةً، وَإِنْ كَانَ الدجالُ وَنُزُولُ عِيسَى عَلَيْهِ

---

(١) النمْل : ٨٢ .

(٢) الْأَنعَام : ١٥٨ .

(٣) البخاري تفسير القرآن (٤٣٥٩) ، مسلم الإيمان (١٥٧) ، أبو داود الفتن والملاحم (٤٢٥٥) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٤٧) ، أحمد (٢/٤١٧) .

(٤) البخاري ٨ : ٢٢٣ (فتح) . والمسند : ٧١٦١ .

(٥) مسلم الفتن وأشراط الساعة (٢٩٤١) ، أبو داود الملاحم (٤٣١٠) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٦٩) ، أحمد (٢/٢٠١) .

السلَامُ مِنَ السمَاءِ قَبْلَ ذَلِكَ، وَكَذَلِكَ خُرُوجُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، كُل ذَلِكَ أُمورٌ مَألُوفَةٌ؛ لِأنهُمْ بَشَرٌ، مُشَاهَدَةُ مِثْلِهِمْ مَألُوفَةٌ، [أما خُرُوجُ الدابةِ بِشَكْلٍ غَرِيبٍ غَيْرِ مَألُوفٍ] [٢] ثُم مُخَاطَبَتُهَا الناسَ وَوَسْمُهَا إِياهُمْ بِالْإِيمَانِ أَوِ الْكُفْرِ فَأَمْرٌ خَارِجٌ عَنْ مَجَارِي الْعَادَاتِ. وَذَلِكَ أَولُ الْآيَاتِ الْأَرْضِيةِ، كَمَا أن طُلُوعَ الشمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، عَلَى خِلَافِ عَادَتِهَا الْمَألُوفَةِ - أَولُ الْآيَاتِ السمَاوِيةِ.

وَقَدْ أَفْرَدَ الناسُ [في] أَحَادِيثِ أَشْرَاطِ الساعَةِ مُصَنفَاتٍ مَشْهُورَةٍ، يَضِيقُ عَلَى بَسْطِهَا هَذَا الْمُخْتَصَرُ.

الْكَاهِنُ وَالْعَرافُ

كَذِبَ الْكَاهِنُ وَالْعَرافُ

قَوْلُهُ: (وَلَا نُصَدقُ كَاهِنًا وَلَا عَرافًا، وَلَا مَنْ يَدعِي شَيْئًا يُخَالِفُ الْكِتَابَ وَالسنةَ وَإِجْمَاعَ الْأُمةِ).

ش: رَوَى مُسْلِمٌ وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ صَفِيةَ بِنْتِ أَبِي عُبَيْدٍ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النبِي ﷺ عَنِ النبِي ﷺ قَالَ: ﴿ مَنْ أَتَى عَرافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [٣].

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن النبِي ﷺ قَالَ: ﴿ مَنْ أَتَى عَرافًا أَوْ كَاهِنًا، فَصَدقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمدٍ ﴾ [٤].

وَالْمُنَجمُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْعَرافِ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، وَعِنْدَ بَعْضِهِمْ هُوَ فِي مَعْنَاهُ. فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ حَالُ السائِلِ، فَكَيْفَ بِالْمَسْئُولِ ؟.

(١) مسلم ٢ : ٢٧٩ . ورواه أحمد في المسند مطولا . ٦٨٨١ .

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وقد استدركناه من سائر النسخ . ن .

(٣) مسلم السلام (٢٢٣٠) ، أحمد (٦٨/٤) .

(٤) الترمذي الطهارة (١٣٥) ، أبو داود الطب (٣٩٠٤) ، ابن ماجه الطهارة وسننها (٦٣٩) ، أحمد (٤٢٩/٢) ، الدارمي الطهارة (١١٣٦) .

وَفي الصحِيحْين وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أحْمَدَ، عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: ﴿ سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن الْكُهانِ ؟ فَقَالَ: " لَيْسُوا بِشَيْءٍ "، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنهُمْ يُحَدثُونَ أحْيَانًا بِالشيْءِ يَكُونُ حَقّا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ " تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَق يَخْطَفُهَا الْجِني فَيُقَرْقِرُهَا فِي أُذُنِ وَلِيهِ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا [أَكْثَرَ مِنْ] مِائَةِ كَذْبَةٍ ﴾ (١) (٢).

وَفي الصحِيحِ عَنْهُ ﷺ أنهُ قَالَ: ﴿ ثَمَنُ الْكَلْبِ خَبِيثٌ، وَمَهْرُ الْبَغِي خَبِيثٌ، وَحُلْوَانُ الْكَاهِنِ خَبِيثٌ ﴾ (٣). وَحُلْوَانُهُ: الذِي تُسَميهِ الْعَامةُ حَلَاوَتَهُ.

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا يُعْطَاهُ الْمُنَجمُ وَصَاحِبُ الْأَزْلَامِ التِي يُسْتَقْسَمُ بِهَا، مِثْلُ الْخَشَبَةِ الْمَكْتُوبِ عَلَيْهَا " ا ب ج د " وَالضارِبُ بِالْحَصَى، وَالذِي يَخُط فِي الرمْلِ. وَمَا تَعَاطَاهُ هَؤُلَاءِ حَرَامٌ. وَقَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى تَحْرِيمِهِ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، كَالْبَغَوِي وَالْقَاضِي عِيَاضٍ وَغَيْرِهِمَا.

وَفي الصحِيحْين عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ، قَالَ: ﴿ خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ، عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَيْلِ، فَقَالَ: أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبكُمُ اللَيْلَةَ ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَما مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَما مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ ﴾ (٤) (٥).

---

(١) البخاري بدء الخلق (٣٠٣٨) ، مسلم السلام (٢٢٢٨) ، أحمد (٨٧/٦) .

(٢) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وقد استدركناه من سائر النسخ . ن .

(٣) مسلم المساقاة (١٥٦٨) ، الترمذي البيوع (١٢٧٥) ، النسائي الصيد والذبائح (٤٢٩٤) ، أبو داود البيوع (٣٤٢١) ، أحمد (٤٦٤/٣) ، الدارمي البيوع (٢٦٢١) .

(٤) البخاري الأذان (٨١٠) ، مسلم الإيمان (٧١) ، النسائي الاستسقاء (١٥٢٥) ، أبو داود الطب (٣٩٠٦) ، أحمد (١١٧/٤) ، مالك النداء للصلاة (٤٥١) .

(٥) البخاري ٢ : ٤٣٣ - ٤٣٤ ، و٧ : ٣٣٨ (فتح) . ومسلم ١ : ٣٤ .

وَفي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَمُسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِي أن النبي ﷺ قَالَ: ﴿أَرْبَعٌ فِي أُمتي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَة، لَا يَتْرُكُونَهن: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطعْنُ فِي الْأَنسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنجُومِ، وَالنيَاحَةُ﴾ (١) (٢).

وَالنصُوصُ عَنِ النبي ﷺ وَأَصْحَابِهِ وَسَائِرِ الْأَئِمةِ، بِالنهْيِ عَنْ ذَلِكَ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَتسِعَ هَذَا الْمَوْضِعُ لِذِكْرِهَا.

وَصِنَاعَةُ التنْجِيمِ، التي مَضْمُونُهَا الْإِحْكَامُ وَالتأْثِيرُ، وَهُوَ الِاسْتِدْلَالُ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيةِ [بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكِيةِ أَوِ التمْزِيجِ بَيْنَ الْقُوَى الْفَلَكِيةِ وَالْغَوَائِلِ الْأَرْضِيةِ] (٣) -: صِنَاعَةٌ مُحَرمَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسنةِ، بَلْ هِيَ مُحَرمَةٌ عَلَى لِسَانِ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ ﴾ (٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ (٥). قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطابِ رضي الله عنه وَغَيْرُهُ: الْجِبْتُ السحْرُ.

وَفي صَحِيحِ الْبُخَارِي، [عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ] (٦) (كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ غُلَامٌ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ، فَأَكَلَ مِنْهُ أَبو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الْغُلَامُ: تَدْرِي مِم هَذَا ؟ قَالَ: وَمَا هُوَ ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الْجَاهِلِيةِ، وَمَا أُحْسِنُ الْكِهَانَةَ، إِلا أَني خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي، فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبو بَكْرٍ يَدَهُ فَقَاءَ كُل

---

(١) مسلم الجنائز (٩٣٤) ، ابن ماجه ما جاء في الجنائز (١٥٨١) ، أحمد (٣٤٣/٥) .

(٢) مسلم ١ : ٢٥٦ . والمسند ٥ : ٣٤٢ - ٣٤٣ (طبعة الحلبي) .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٤) طه : ٦٩ .

(٥) النساء : ٥١ .

(٦) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ) [1].

وَالْوَاجِبُ عَلَى وَلِي الْأَمْرِ وَكُل قَادِرٍ أَنْ يَسْعَى فِي إِزَالَةِ هَؤُلَاءِ الْمُنَجمِينَ وَالْكُهانِ وَالْعَرافِينَ وَأَصْحَابِ الضرْبِ بِالرمْلِ وَالْحَصَى وَالْقُرْعِ وَالْفَالَاتِ، وَمَنْعِهِمْ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْحَوَانِيتِ وَالطرُقَاتِ، أَوْ يَدْخُلُوا عَلَى الناسِ فِي مَنَازِلِهِمْ لِذَلِكَ. وَيَكْفِي مَنْ يَعْلَمُ تَحْرِيمَ ذَلِكَ وَلَا يَسْعَى فِي إِزَالَتِهِ، مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى ذَلِكَ - قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [2]. وَهَؤُلَاءِ الْمَلَاعِينُ يَقُولُونَ الْإِثْمَ وَيَأْكُلُونَ السحْتَ، بِإِجْمَاعِ الْمُسْلِمِينَ. وَثَبَتَ فِي السنَنِ عَنِ النبِي ﷺ بِرِوَايَةِ الصديقِ ﷺ أَنهُ قَالَ: ﴿ إِن الناسَ إِذَا رَأَوُا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يُغَيرُوهُ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ ﴾ [3].

وَهَؤُلَاءِ الذِينَ يَفْعَلُونَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ الْخَارِجَةَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسنةِ، أَنْوَاعٌ:

نَوْعٌ مِنْهُمْ: أَهْلُ تَلْبِيسٍ وَكَذِبٍ وَخِدَاعٍ، الذِينَ يُظْهِرُ أَحَدُهُمْ طَاعَةَ الْجِن لَهُ، أَوْ يَدعِي الْحَالَ مِنْ أَهْلِ الْمُحَالِ، مِنَ الْمَشَايِخِ النصابِينَ، وَالْفُقَرَاءِ الْكَذابِينَ، وَالطرُقِيةِ الْمَكارِينَ، فَهَؤُلَاءِ يَسْتَحِقونَ الْعُقُوبَةَ الْبَلِيغَةَ التِي تَرْدَعُهُمْ وَأَمْثَالَهُمْ عَنِ الْكَذِبِ وَالتلْبِيسِ. وَقَدْ يَكُونُ فِي هَؤُلَاءِ مَنْ يَسْتَحِق الْقَتْلَ، كَمَنْ يَدعِي النبُوةَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْخُزَعْبَلَاتِ، أَوْ يَطْلُبُ تَغْيِيرَ شَيْءٍ مِنَ الشرِيعَةِ، وَنَحْوَ ذَلِكَ.

وَنَوْعٌ يَتَكَلمُ فِي هَذِهِ الْأُمُورِ عَلَى سَبِيلِ الْجِد وَالْحَقِيقَةِ، بِأَنْوَاعِ السحْرِ. وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ يُوجِبُونَ قَتْلَ الساحِرِ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ فِي الْمَنْصُوصِ عَنْهُ، وَهَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ عَنِ الصحَابَةِ، كَعُمَرَ وَابْنِهِ وَعُثْمَانَ وَغَيْرِهِمْ. ثُم اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ: هَلْ يُسْتَتَابُ أَمْ لَا ؟ وَهَلْ يَكْفُرُ بِالسحْرِ ؟ أَمْ يُقْتَلُ لِسَعْيِهِ فِي الْأَرْضِ بِالْفَسَادِ ؟ وَقَالَ طَائِفَةٌ: إِنْ

---

(١) البخاري ٧ : ١١٧ (من الفتح) .

(٢) الْمَائِدَة : ٧٩ .

(٣) الترمذي الفتن (٢١٦٨) ، ابن ماجه الفتن (٤٠٠٥) .

قَتلَ بِالسحْرِ قُتِلَ، وَإِلا عُوقِبَ بِدُونِ الْقَتْلِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَوْلِهِ وَعَمَلِهِ كُفْرٌ، وَهَذَا هُوَ الْمَنْقُولُ عَنِ الشافِعِي، وَهُوَ قَوْلٌ فِي مَذْهَبِ أَحْمَدَ رَحِمَهُمَا اللهُ.

التنازع في حقيقة السحر وأنواعه

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه: والأكثرون يقولون: إنه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه، وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل.

واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة، أو غيرها، أو خطابها، أو السجود لها، والتقرب إليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك - فإنه كفر، وهو من أعظم أبواب الشرك، فيجب غلقه، بل سده. وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه السلام، ولهذا حكى الله عنه بقوله: ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ﴾[2] الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[3].

واتفقوا كلهم أيضا على أن كل رقية وتعزيم أو قسم، فيه شرك بالله، فإنه لا يجوز التكلم به، وإن أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به، لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف. ولهذا قال النبي ﷺ ﴿ لا بأس بالرقى ما لم تكن شركا ﴾[4].

ولا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾[5]. قالوا: كان

---

(١) الصافات : ٨٨ - ٨٩ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٧٦ .

(٣) الأنعام : ٧٦- ٨٢ .

(٤) مسلم السلام (٢٢٠٠) ، أبو داود الطب (٣٨٨٦) .

(٥) الجن : ٦ .

الْإِنسِي إِذَا نَزَلَ بِالْوَادِي يَقُولُ: أَعُوذُ بِعَظِيمِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سُفَهَائِهِ، فَيَبِيتُ فِي أَمْنٍ وَجِوَارٍ حَتى يُصْبِحَ، ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝ ﴾ [1] يَعْنِي الْإِنسُ لِلْجِن، بِاسْتِعَاذَتِهِمْ بِهِمْ، رَهَقًا، أَيْ إِثْمًا وَطُغْيَانًا وَجَرَاءَةً وَشرا، وَذَلِكَ أَنهُمْ قَالُوا: قَدْ سُدْنَا الْجِن، وَالْإِنسَ ! فَالْجِن تَعَاظَمُ فِي أَنْفُسِهَا وَتَزْدَادُ كُفْرًا إِذَا عَامَلَتْهَا الْإِنسُ بِهَذِهِ الْمُعَامَلَةِ. وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [2]. فَهَؤُلَاءِ الذِينَ يَزْعُمُونَ أَنهُمْ يَدْعُونَ الْمَلَائِكَةَ وَيُخَاطِبُونَهُمْ بِهَذِهِ الْعَزَائِمِ، وَأَنهَا تَنزلُ عَلَيْهِمْ -: ضَالونَ، وَإِنمَا [تَنزلُ] [3] عَلَيْهِمُ الشيَاطِينُ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [4]. فَاسْتِمْتَاعُ الْإِنسِي بِالْجِني: فِي قَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَإِخْبَارِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُغَيبَاتِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاسْتِمْتَاعُ الْجِن بِالْإِنسِ: تَعْظِيمُهُ إِياهُ، وَاسْتِعَانَتُهُ بِهِ، وَاسْتِغَاثَتُهُ وَخُضُوعُهُ لَهُ.

وَنَوْعٌ مِنْهُمْ [يَتكلمُ] [5] بِالْأَحْوَالِ الشيْطَانِيةِ، [وَالْكُشُوفِ وَمُخَاطَبَةِ] [6] رِجَالِ الْغَيْبِ، وَأَن لَهُمْ خَوَارِقَ تَقْتَضِي أَنهُمْ أَوْلِيَاءُ اللهِ ! وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُعِينُ الْمُشْرِكِينَ

---

(١) سورة الجن آية : ٦ .

(٢) سبأ : ٤٠ - ٤١ .

(٣) في الأصل : (ي ل) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٤) الأنعام : ١٢٨ .

(٥) في الأصل : (ونوع منهم بالأحوال الشيطانية والتسوف ومخاطبته) . والصواب ما أثبتناه من إحدى النسخ . ن .

(٦) في الأصل : (ونوع منهم بالأحوال الشيطانية والتسوف ومخاطبته) . والصواب ما أثبتناه من إحدى النسخ . ن .

عَلَى الْمُسْلِمِينَ ! وَيقُولُ: إن الرسُول أَمَرَهُ بِقِتَالِ الْمُسْلِمِين مَعَ الْمُشْرِكِينَ، لِكَوْن الْمُسْلِمِينَ قَدْ عَصَوْا !! وَهَؤُلَاءِ فِي الْحَقِيقَةِ إِخْوَانُ الْمُشْرِكِينَ.

وَالناسُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيهِمْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَحْزَابٍ:

حِزْبٌ يُكَذِّبُونَ بِوُجُودِ رِجَالِ الْغَيْبِ، وَلَكِنْ قَدْ عَايَنَهُمُ الناسُ، وَثَبَتَ عَمنْ عَايَنَهُمْ أَوْ حَدثَهُ الثقَاتُ بِمَا رَأَوْهُ، وَهَؤُلَاءِ إِذَا رَأَوْهُمْ وَتَيَقنُوا وُجُودَهُمْ خَضَعُوا لَهُمْ.

وَحِزْبٌ عَرَفُوهُمْ، وَرَجَعُوا إِلَى الْقَدَرِ، وَاعْتَقَدُوا أَن ثَم فِي الْبَاطِنِ طَرِيقًا إِلَى اللهِ غَيْرَ طَرِيقَةِ الْأَنْبِيَاءِ !.

وَحِزْبٌ مَا أَمْكَنَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا وَلِيا خَارِجًا عَنْ دَائِرَةِ الرسُولِ، فَقَالُوا: يَكُونُ الرسُولُ هُوَ مُمِدا لِلطائِفَتَيْنِ. فَهَؤُلَاءِ مُعَظمُونَ لِلرسُولِ جَاهِلُونَ بِدِينِهِ وَشَرْعِهِ.

وَالْحَق: أَن هَؤُلَاءِ مِنْ أَتْبَاعِ الشيَاطِينِ، وَأَن رِجَالَ الْغَيْبِ هُمُ الْجِن، وَيُسَمونَ رِجَالًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾[1]. وَإِلا فَالْإِنْسُ يُؤْنَسُونَ، أَيْ يظهرون[2] وَيُرَوْنَ، وَإِنمَا يَحْتَجِبُ الْإِنْسِي أَحْيَانًا، لَا يَكُونُ دَائِمًا مُحْتَجِبًا عَنْ أَبْصَارِ الْإِنْسِ، وَمَنْ ظَن أَنهُمْ مِنَ " الْإِنْسِ " فَمِنْ غَلَطِهِ وَجَهْلِهِ. وَسَبَبُ الضلَالِ فِيهِمْ، وَافْتِرَاقِ هَذِهِ الْأَحْزَابِ الثلَاثَةِ - عَدَمُ الْفُرْقَانِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الشيْطَانِ وَأَوْلِيَاءِ الرحْمَنِ.

وَيَقُولُ بَعْضُ الناسِ: الْفُقَرَاءُ يُسَلمُ إِلَيْهِمْ حَالُهُمْ ! وَهَذَا كَلَامٌ بَاطِلٌ، بَلِ الْوَاجِبُ عَرْضُ أَفْعَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ عَلَى الشرِيعَةِ الْمُحَمدِيةِ، فَمَا وَافَقَهَا قُبِلَ ! وَمَا خَالَفَهَا رُد، كَمَا قَالَ النبِي ﷺ ﴿مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَد﴾[3]. وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿مَنْ أَحْدَثَ فِي

---

(١) الْجِن : ٦ .

(٢) في الأصل " يشهون " ، ولا معنى لها . ولعل ما أثبتنا أقرب إلى تصحيح الكلمة .

(٣) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (٢٥٦/٦) .

أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد ﴾ [1].

فلا طريقة إلا طريقة الرسول ﷺ ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا شريعة إلا شريعته، ولا عقيدة إلا عقيدته، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطنا وظاهرا.

ومن لم يكن له مصدقا فيما أخبر، ملتزما لطاعته فيما أمر، في الأمور الباطنة التي في القلوب، والأعمال الظاهرة التي على الأبدان -: لم يكن مؤمنا، فضلا عن أن يكون وليا لله تعالى، ولو طار في الهواء، ومشى على الماء، وأنفق من الغيب، وأخرج الذهب من الخشب، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل !! فإنه لا يكون، مع تركه الفعل المأمور وعمل المحظور - إلا من أهل الأحوال الشيطانية، المبعدة لصاحبها عن الله تعالى، المقربة إلى سخطه وعذابه. لكن من ليس يكلف من الأطفال والمجانين، قد رفع عنهم القلم، فلا يعاقبون، وليس لهم من الإيمان بالله والإقرار باطنا وظاهرا ما يكونون به من أولياء الله المقربين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين. لكن يدخلون في الإسلام تبعا لآبائهم، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [2].

اعتقاد الولاية في بعض البله بدعة وضلال

فمن اعتقد في بعض البله أو المولعين، مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله - أنه من أولياء الله، ويفضله على متبعي طريقة الرسول ﷺ فهو ضال مبتدع، مخطئ في اعتقاده. فإن ذاك الأبله، إما أن يكون شيطانا زنديقا، أو زوكاريا [3] متحيلا،

---

(١) البخاري الصلح (٢٥٥٠) ، مسلم الأقضية (١٧١٨) ، أبو داود السنة (٤٦٠٦) ، ابن ماجه المقدمة (١٤) ، أحمد (٦/٢٧٠) .

(٢) الطور : ٢١ .

(٣) هذه لفظة مولدة . وفي شرح القاموس ٣ : ٢٤٠ " الزواكرة : من يتلبس فيظهر النسك والعبادة ، ويبطن الفسق والفساد . نقله المقري في نفح الطيب " .

أو مَجْنونًا مَعْذُورًا ! فَكَيفَ يُفَضلُ عَلَى مَنْ هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، الْمُتبِعِين لِرَسُولِهِ ؟! أَوْ يُساوَى بِهِ ؟! وَلَا يُقالُ: يُمْكِنُ أنْ يَكُونَ هَذا مُتبِعًا فِي الْبَاطِنِ [وإِنْ كَانَ تارِكًا لِلاتبَاعِ فِي الظاهِرِ] [(١)] ؟ فَإِن هَذَا خَطَأٌ أَيضًا، بَلِ الْوَاجِبُ مُتَابَعَةُ الرسُولِ ﷺ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا. قَالَ مُوسَى بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى الصدَفِي: قُلْتُ لِلشافِعِي: إن صَاحِبَنا اللَّيْث كَانَ يَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُمُ الرجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ فَلَا تَغْتَرُوا بِهِ حَتى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسنةِ ؟ فَقَالَ الشافِعِي: قَصرَ اللَّيْثُ رَحِمَهُ اللهُ، بَلْ إِذَا رَأَيْتمُ الرجُلَ يَمْشِي عَلَى الْمَاءِ، وَيَطِيرُ فِي الْهَوَاءِ، فَلَا تَغْتَرُوا بِهِ حَتى تَعْرِضُوا أَمْرَهُ عَلَى الْكِتَاب [(٢)].

وَأما مَا يَقُولُهُ بَعْضُ الناسِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنهُ قَالَ: " اطلَعْتُ عَلَى الْجَنةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْبُلْهَ " فَهَذَا لَا يَصِح عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا يَنْبَغِي نِسْبَتُهُ إِلَيْهِ [(٣)] فَإِن الْجَنةَ إِنمَا خُلِقَتْ لِأُولِي الْأَلْبَابِ، الذِينَ أَرْشَدَتْهُمْ عُقُولُهُمْ وَأَلْبَابُهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ أَهْلَ الْجَنةِ بِأَوْصَافِهِمْ فِي كِتَابِهِ، فَلَمْ يَذْكُرْ فِي أَوْصَافِهِمُ الْبَلَهَ، الذِي هُوَ ضَعْفُ الْعَقْلِ، وَإِنمَا قَالَ النبِي ﷺ «اطلَعْتُ فِي الْجَنةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الْفُقَرَاءَ» [(٤)] [(٥)]. وَلَمْ يَقُلِ الْبُلْهَ !.

وَالطائِفَةُ الْمَلَامِيةُ، وَهُمُ الذِينَ يَفْعَلُونَ مَا يُلَامُونَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ نَحْنُ مُتبِعُونَ فِي الْبَاطِنِ، وَيَقْصِدُونَ إِخْفَاءَ الْمَرَاسِين [(٦)] [(٧)] ! رَدوا بَاطِلَهُمْ بِبَاطِلٍ آخَرَ !! وَالصرَاطُ

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل . وأثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٢) هكذا وردت القصة في الأصل . وانظر القصة في تفسير ابن كثير ١ / ٨٠ . ن .

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفا ٢ : ١٦٤ ، بلفظ : " أكثر أهل الجنة البله " . ومجموع ما قيل فيه : أنه لا أصل له .

(٤) مسلم الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢٧٣٧) ، الترمذي صفة جهنم (٢٦٠٢) ، أحمد (٢٣٤/١) .

(٥) رواه أحمد والشيخان ، من حديث ابن عباس - ورواه البخاري والترمذي ، من حديث عمران بن حصين . وانظر كشف الخفا ٢ : ١٣٩ .

(٦) في سائر النسخ : (المرائين) . ن .

(٧) كذا في المطبوعة ، فيحرر .

الْمُسْتَقِيمِ بين ذَلِكَ.

تبديع من يصعق عند سماع الأنغام الحسنة

وَكَذَلِكَ الذِينَ يُصْعَقُونَ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَنْغَامِ الْحَسَنَةِ، مُبْتَدِعُونَ ضَالونَ ! وَلَيس لِلْإِنسَانِ أَنْ يَسْتَدْعِيَ مَا يَكُونُ سَبَبَ زَوَالِ عَقْلِهِ ! وَلَمْ يَكُنْ فِي الصحَابَةِ وَالتابِعِينَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ، وَلَوْ عِنْدَ سَمَاعِ الْقُرْآنِ، بَلْ كَانُوا كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[(١)]. وَكَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[(٢)].

وَأما الذِينَ ذَكَرَهُمُ الْعُلَمَاءُ بِخَيْرٍ مِنْ عُقَلَاءِ الْمَجَانِينِ، فَأُولَئِكَ كَانَ فِيهِمْ خَيْرٌ، ثم زَالَتْ عُقُولُهُمْ. وَمِنْ عَلَامَةِ هَؤُلَاءِ، أَنهُ إِذَا حَصَلَ فِي جُنُونِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الصحْوِ، تَكَلمُوا بِمَا كَانَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ. وَيَهْذُونَ بِذَلِكَ فِي حَالِ زَوَالِ عَقْلِهِمْ، بِخِلَافِ غَيْرِهِمْ مِمنْ تَكَلمَ إِذَا حَصَلَ لَهُمْ نَوْعُ إِفَاقَةٍ بِالْكُفْرِ وَالشرْكِ، وَيَهْذُونَ بِذَلِكَ فِي حَالِ زَوَالِ عَقْلِهِمْ. وَمَنْ كَانَ قَبْلَ جُنُونِهِ كَافِرًا أَوْ فَاسِقًا، لَمْ يَكُنْ حُدُوثُ جُنُونِهِ مُزِيلًا لِمَا ثَبَتَ مِنْ كُفْرِهِ أَوْ فِسْقِهِ. وَكَذَلِكَ مَنْ جُن مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتقِينَ، يَكُونُ مَحْشُورًا مَعَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتقِينَ. وَزَوَالُ الْعَقْلِ بِجُنُونٍ أَوْ غَيْرِهِ، سَوَاءٌ سُمِيَ صَاحِبُهُ مُولَهًا أَوْ وَلِهًا، لَا يُوجِبُ مَزِيدَ حَالٍ، بَلْ حَالُ صَاحِبِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالتقْوَى يَبْقَى عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرٍ وَشَر، لَا أَنهُ يَزِيدُهُ أَوْ يَنْقُصُهُ، وَلَكِن جُنُونَهُ يَحْرِمُهُ الزيَادَةَ مِنَ الْخَيْرِ، كَمَا أَنهُ يَمْنَعُ عُقُوبَتَهُ عَلَى الشر، وَلَا يَمْحُو عَنْهُ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَبْلَهُ.

وَمَا يَحْصُلُ لِبَعْضِهِمْ عِنْدَ سَمَاعِ الْأَنْغَامِ الْمُطْرِبَةِ، مِنَ الْهَذَيَانِ، وَالتكَلمِ بِبَعْضِ اللغَاتِ

---

(١) الأنفال : ٢ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

الْمُخَالِفَةِ لِلِسَانِ الْمَعْرُوفِ مِنْهُ !! فَذَلِكَ شَيْطَانٌ يَتَكلمُ عَلَى لِسَانِهِ، كَمَا يَتَكلمُ عَلَى لِسَانِ الْمَصْرُوعِ، وَذَلِكَ كُلهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الشَّيْطَانِيةِ ! وَكَيْفَ يَكُونُ زَوَالُ الْعَقْلِ سَبَبًا أَوْ شَرْطًا أَوْ تَقَرُّبًا إِلَى وِلَايَةِ اللهِ، كَمَا يَظُنهُ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الضلَالِ ؟ ! حَتى قَالَ قَائِلُهُمْ:

هُمْ مَعْشَرٌ حَلوا النظَامَ وَخَرَقُوا الـ ... ـسِّيَاجَ فَلَا فَرْضٌ لَدَيْهِمْ وَلَا نَفْلُ

مَجَانِينُ، إِلَّا أَن سِرَّ جُنُونِهِمْ ... عَزِيزٌ عَلَى أَبْوَابِهِ يَسْجُدُ الْعَقْلُ

وَهَذَا كَلَامُ ضَال، بَلْ كَافِرٍ، يَظُن أَن [فِي] الْجُنُونِ سِرا يَسْجُدُ الْعَقْلُ عَلَى بَابِهِ !! لِمَا رَآهُ مِنْ بَعْضِ الْمَجَانِينِ مِنْ نَوْعِ مُكَاشَفَةٍ، أَوْ تَصَرفٍ عَجِيبٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ [بِسَبَبِ] [1] مَا اقْتَرَنَ بِهِ مِنَ الشَّيَاطِينِ، كَمَا يَكُونُ لِلسحَرَةِ وَالْكُهانِ ! فَيَظُن هَذَا الضال أَن كُل مَنْ خُبِلَ [2] أَوْ خَرَقَ عَادَةً كَانَ وَلِيا لِلهِ !! وَمَنِ اعْتَقَدَ هَذَا فَهُوَ كَافِرٌ، فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [3]. فَكُل مَنْ تَنَزلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ لَا بُد أَنْ يَكُونَ عِنْدَهُ كَذِبٌ وَفُجُورٌ.

وَأَما الذِينَ يَتَعَبدُونَ بِالرِّيَاضَاتِ وَالْخَلَوَاتِ، وَيَتْرُكُونَ الْجُمَعَ وَالْجَمَاعَاتِ، فَهُمُ الذِينَ ضَل سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا، وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا، قَدْ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ. كَمَا قَدْ ثَبَتَ فِي الصحِيحِ عَنِ النبِي ﷺ أَنهُ قَالَ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ، طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ» [4]. وَكُل مَنْ عَدَلَ عَنِ اتبَاعِ [سُنةِ] الرسُولِ، إِنْ كَانَ عَالِمًا بِهَا فَهُوَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِ، وَإِلا فَهُوَ ضَال. وَلِهَذَا شَرَعَ اللهُ لَنَا أَنْ نَسْأَلَهُ فِي كُل صَلَاةٍ أَنْ يَهْدِيَنَا الصرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ، مِنَ النبِيينَ وَالصديقِينَ وَالشهَدَاءِ

(١) في الأصل : (سبب) والتصويب من الفتاوى (١٠ / ٤٤٥) . ن .

(٢) الذي في الفتاوى : (كاشف) . ن .

(٣) الشعراء : ٢٢١ - ٢٢٢ .

(٤) الترمذي الجمعة (٥٠٠) ، النسائي الجمعة (١٣٦٩) ، أبو داود الصلاة (١٠٥٢) ، ابن ماجه إقامة الصلاة والسنة فيها (١١٢٥) ، أحمد (٣/٤٢٥) ، الدارمي الصلاة (١٥٧١) .

وَالصالِحِينَ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا، غْيرِ الْمَغْضُوبِ عَلْيهِمْ وَلَا الضالينَ.

وَأما مَنْ يَتعَلقُ بِقصةِ مُوسَى مَعَ الْخَضِرِ عَلْيهِ السلَامُ، فِي تَجْوِيزِ الِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الْوَحْيِ بِالْعِلْمِ اللدُني، الذِي يَدعِيهِ بَعْضُ مَنْ عَدِمَ التوْفِيقَ -: فَهُوَ مُلْحِدٌ زِنْدِيقٌ. فَإِن مُوسَى عَلْيهِ السلَامُ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَى الْخَضِرِ، وَلَمْ يَكُنِ الْخَضِرُ مَأْمُورًا بِمُتَابَعتِهِ. وَلِهَذَا قَالَ لَهُ: أَنتَ مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَمُحَمدٌ ﷺ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِ الثقَلْينِ، وَلَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيينِ لَكَانَا مِنْ أَتْباعِهِ، وَإِذَا نَزَلَ عِيسَى عَلْيهِ السلَامُ إِلَى الْأَرْضِ، إِنمَا يَحْكُمُ بِشَرِيعَةِ مُحَمدٍ، فَمَنِ ادعَى أَنهُ مَعَ مُحَمدٍ ﷺ كَالْخَضِرِ مَعَ مُوسَى، أَوْ جَوزَ ذَلِكَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمةِ -: فَلْيُجَددْ إِسْلَامَهُ، وَلْيَشْهَدْ شَهَادَةَ الْحَق، فَإِنهُ مُفَارِقٌ لِدِينِ الْإِسْلَامِ بِالْكُليةِ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ، وَإِنمَا هُوَ مِنْ أَوْلِيَاءِ الشيْطَانِ. وَهَذَا الْمَوْضِعُ مُفَرقٌ بَيْنَ زَنَادِقَةِ الْقَوْمِ وَأَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ، [وَحَركْ تَرَ] [1].

وَكَذَا مَنْ يَقُولُ بِأَن الْكَعْبَةَ تَطُوفُ بِرِجَالٍ مِنْهُمْ حَيْثُ كَانُوا !! فَهَلا خَرَجَتِ الْكَعْبَةُ إِلَى الْحُدَيْبِيَةِ فَطَافَتْ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ حِينَ أُحْصِرَ عَنْهَا، وَهُوَ يَوَد مِنْهَا نَظْرَةً ؟! وَهَؤُلَاءِ لَهُمْ شَبَهٌ بِالذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ تَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ ﴾ [2] إِلَى آخِرِ السورَةِ.

الْجَمَاعَةُ حَق

الْجَمَاعَةُ حَق وَالْفُرْقَةُ زَيْغٌ

[قَوْلُهُ]: (وَنَرَى الْجَمَاعَةَ حَقا وَصَوَابًا، وَالْفُرْقَةَ زَيْغًا وَعَذَابًا).

ش: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ ﴾ [3]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

---

(١) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، وأثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٢) الْمُدثِر : ٥٢ .

(٣) آل عِمْرَانَ : ١٠٣ .

عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾[(١)]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ }[(٢)]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾[(٣)]. فَجَعَلَ أَهْلَ الرحْمَةِ مُسْتَثْنِين مِنْ الِاخْتِلَافِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ﴾[(٤)].

وَقَدْ تقدم قَوْلُهُ ﷺ ﴿إِن أَهْلَ الْكِتَابَيْنِ افْتَرَقُوا فِي دِينِهِمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلةً، وَإِن هَذِهِ الْأُمة سَتَفْتَرِقُ عَلى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلةً - يَعْنِي الْأَهْوَاءَ - كُلهَا فِي النارِ إلا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ﴾[(٥)]. وَفِي رِوَايَةٍ: ﴿قَالُوا: مَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ: مَا أَنا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي﴾[(٦)]. فَبَين أَن عَامةَ الْمُخْتَلِفِينَ هَالِكُونَ إِلا أَهْلَ السنةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَأَن الِاخْتِلَافَ وَاقِعٌ لَا مَحَالَةَ.

وَرَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، أَن النبِي ﷺ قَالَ: ﴿إِن [الشيْطَانَ] ذِئْبُ الْإِنْسَانِ، كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشاةَ الْقَاصِيَةَ، [والناحِيَةَ]، فَإِياكُمْ وَالشعَابَ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَالْعَامةِ، وَالْمَسْجِدِ﴾[(٧)] [(٨)].

---

(١) آلِ عِمْرَانَ : ١٠٥ .

(٢) الْأَنْعَامِ : ١٥٩ .

(٣) هُودٍ : ١١٨ - ١١٩ .

(٤) الْبَقَرَةِ : ١٧٦ .

(٥) أبو داود السنة (٤٥٩٧) ، أحمد (١٠٢/٤) ، الدارمي السير (٢٥١٨) .

(٦) الترمذي الإيمان (٢٦٤١) .

(٧) أحمد (٢٣٣/٥) .

(٨) المسند ٥ : ٢٣٢ - ٢٣٣ (طبعة الحلبي) . وصححناه وأتممناه منه ومجمع الزوائد ٥ : ٢١٩ .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لما نزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾ [1] قال: " أعوذ بوجهك " ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [2] قال: " أعوذ بوجهك "] [3] ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [4] - قال: ﴿ هاتان أهون ﴾ . فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض، مع براءة الرسول من هذه الحال، وهم فيها في جاهلية. ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح [5] أصيب بتأويل القرآن - فهو هدر، نزلوهم منزلة الجاهلية.

وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية، يعني قوله تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ ﴾ [6]. فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية، وهكذا تسلسل النزاع.

وجوب رد المسائل المتنازع فيها إلى الله ورسوله

[والأمور] التي تتنازع فيها الأمة، في الأصول والفروع - إذا لم ترد إلى الله والرسول - لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإنهم [إن] رحمهم الله أقر بعضهم بعضًا، ولم يبغ بعضهم على بعض، كما كان الصحابة في خلافة عمر وعثمان يتنازعون في بعض مسائل الاجتهاد، فيقر بعضهم بعضًا، ولا يعتدي ولا

---

(١) سورة الأنعام آية : ٦٥ .

(٢) سورة الأنعام آية : ٦٥ .

(٣) ما بين المعقوفتين سقط من الأصل ، واستدركناه من صحيح البخاري (٨ / ٢٩١ فتح) . ن .

(٤) سورة الأنعام آية : ٦٥ .

(٥) هكذا بالأصل ولعل صوابا : (فرج) . ن .

(٦) الْحُجُرَاتِ : ٩ .

يُعتدى عَلَيه، وَإنْ لمْ يُرحَموا وَقعَ بَينهمُ الاختِلافُ المَذمُومُ، فَبَغى بَعضُهمْ عَلى بَعضٍ، إما بِالقَول، مِثلَ تكفِيرِه وَتفسِيقِه، وَإما بِالفِعل، مِثلَ حَبسِه وَضربِه وَقتلِه. وَالذِينَ امْتحَنوا الناسَ بِخلقِ القُرآنِ، كانُوا مِن هَؤلاءِ، ابتَدعُوا بِدعَةً، وَكفرُوا مَنْ خَالفَهمْ فِيهَا، وَاستَحلوا مَنعَ حَقهِ وَعُقوبَتِه.

فَالناسُ إذَا خَفِيَ عَلَيهِمْ بَعضُ مَا بَعثَ اللهُ بِهِ الرسُولَ: إما عَادِلُونَ وَإما ظَالِمُونَ، فَالعَادِلُ فِيهِمْ: الذِي يَعمَلُ بِمَا وَصلَ إلَيهِ مِنْ آثارِ الأنبِيَاءِ، وَلَا يَظلِمُ غَيرَهُ، وَالظالِمُ: الذِي يَعتَدِي عَلَى غَيرِه. وَأكثرُهمْ إنمَا يَظلِمُونَ مَعَ عِلمِهِمْ بِأنهُمْ يَظلِمُونَ، كمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ ﴾[(1)]. وَإلا فَلوْ سَلَكُوا مَا عَلِمُوهُ مِنَ العَدلِ، أقرَّ بَعضُهُمْ بَعضًا، كَالمُقلِدِينَ لِأئمةِ العِلمِ، الذِينَ يَعرِفُونَ مِنْ أنفُسِهِمْ أنهُمْ عَاجِزُونَ عَنْ مَعرِفَةِ حُكمِ اللهِ وَرَسُولِهِ فِي تِلكَ المَسَائِلِ، فَجَعَلُوا أئمَتَهُمْ نُوابًا عَنِ الرسُولِ، وَقَالُوا: هَذَا غَايَةُ مَا قَدَرنَا عَلَيهِ، فَالعَادِلُ مِنهُمْ لَا يَظلِمُ الآخَرَ، وَلَا يَعتَدِي عَلَيهِ بِقَولٍ وَلَا فِعلٍ، مِثلَ أنْ يَدعِيَ أن قَولَ مُقلدِهِ هُوَ الصحِيحُ بِلَا حُجةٍ يُبدِيهَا، وَيَذمُ مَنْ خَالَفَهُ، مَعَ أنهُ مَعذُورٌ.

الاختِلافُ نَوعَانِ اختِلافُ تَنوعٍ وَاختِلافُ تَضَادٍ

ثُم إن أنوَاعَ الافتِرَاقِ وَالاختِلافِ فِي الأصلِ قِسمَانِ: اختِلافُ تَنوعٍ، وَاختِلافُ تَضَادٍ:

وَاختِلافُ التَنوعِ عَلَى وُجُوهٍ:

مِنهُ مَا يَكُونُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ القَولَينِ أوِ الفِعلَينِ حَقًا مَشرُوعًا، كَمَا فِي القِرَاءَاتِ التِي اختَلَفَ فِيهَا الصحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ، حَتى زَجَرَهُمُ النبِي ﷺ وَقَالَ: " كِلَاكُمَا مُحسِنٌ "، وَمِثلُهُ اختِلافُ الأنوَاعِ فِي صِفَةِ الأذَانِ، وَالإقَامَةِ، وَالاستِفتَاحِ، وَمَحَلِ سُجُودِ السهوِ، وَالتشَهدِ، وَصَلَاةِ الخَوفِ، وَتَكبِيرَاتِ العِيدِ، وَنَحوِ ذَلِكَ، مِما قَدْ شُرِعَ جَمِيعُهُ، وَإنْ كَانَ بَعضُ أنوَاعِهِ أرجَحَ أوْ أفضَلَ.

(1) آل عِمرَانَ : ١٩ .

ثم تجد لكثير من الأمة في ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك ! وهذا عين المحرم. وكذا تجد كثيرا منهم في قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع، والإعراض عن الآخر والنهي عنه -: ما دخل به فيما نهى عنه النبي ﷺ.

ومنه ما يكون كل من القولين هو في المعنى القول الآخر، لكن العبارتان مختلفتان، كما قد يختلف كثير من الناس في ألفاظ الحدود، وصوغ الأدلة، والتعبير عن المسميات، ونحو ذلك. ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذم الأخرى والاعتداء على قائلها ! ونحو ذلك.

وأما اختلاف التضاد، فهو القولان المتنافيان، إما في الأصول، وإما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد. والخطب في هذا أشد، لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيرا من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقا ما، فيرد الحق مع الباطل، حتى يبقى هذا مبطلا في البعض، كما كان الأول مبطلا في الأصل، وهذا يجري كثيرا لأهل السنة.

وأما أهل البدعة، فالأمر فيهم ظاهر. ومن جعل الله له هداية ونورا رأى من هذا ما يبين له منفعة ما جاء في الكتاب والسنة من النهي عن هذا وأشباهه، وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا، لكن نور على نور.

والاختلاف الأول، الذي هو اختلاف التنوع، الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه. وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين في مثل ذلك، إذا لم يحصل بغي، كما في قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ (١). وقد كانوا اختلفوا في قطع الأشجار، فقطع قوم، وترك آخرون. وكما في

(١) الحشر ، آية : ٥ .

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ۝٧٨ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ (١) فَخَص سُلَيْمَانَ بِالْفَهْمِ وَأَثْنَى عَلَيْهِمَا بِالْحُكْمِ وَالْعِلْمِ.

وَكَمَا فِي إِقْرَارِ النبي ﷺ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ لِمَنْ صَلى الْعَصْرَ فِي وَقْتِهَا، وَلِمَنْ أَخرَهَا إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ.

وَكَمَا فِي قَوْلِهِ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْحَاكِمُ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ» (٢).

وَالِاخْتِلَافُ الثانِي، هُوَ مَا حُمِدَ فِيهِ إِحْدَى الطائِفَتَيْنِ، وَذُمتِ الْأُخْرَى، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ ﴾ (٣). وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ ۞ هَـٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ (٤) الْآيَاتِ.

وَأَكْثَرُ الِاخْتِلَافِ الذِي يَئُولُ إِلَى الْأَهْوَاءِ بَيْنَ الْأُمةِ - مِنَ الْقِسْمِ الْأَولِ، وَكَذَلِكَ إِلَى سَفْكِ الدمَاءِ وَاسْتِبَاحَةِ الْأَمْوَالِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ. لِأَن إِحْدَى الطائِفَتَيْنِ لَا تَعْتَرِفُ لِلْأُخْرَى بِمَا مَعَهَا مِنَ الْحَق، وَلَا تُنْصِفُهَا، بَلْ تَزِيدُ عَلَى مَا مَعَ نَفْسِهَا مِنَ الْحَق زِيَادَاتٍ مِنَ الْبَاطِلِ، وَالْأُخْرَى كَذَلِكَ. [وَلِذَلِكَ] (٥) جَعَلَ اللهُ مَصْدَرَهُ الْبَغْيَ فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

---

(١) الْأَنبِيَاء : ٧٨ - ٧٩ .

(٢) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٩١٩) ، مسلم الأقضية (١٧١٦) ، الترمذي الأحكام (١٣٢٦) ، أبو داود الأقضية (٣٥٧٤) ، ابن ماجه الأحكام (٢٣١٤) ، أحمد (١٩٨/٤) .

(٣) الْبَقَرَة : ٢٥٣ .

(٤) الْحَج : ١٩ .

(٥) في الأصل : (وكذلك) ، ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

ﭐﻟَّﺬِﻳﻦَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [1]. لِأن الْبَغْي مُجَاوَزَةُ الْحَد، وَذُكِرَ هَذَا فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنَ الْقُرْآنِ لِيَكُونَ عِبْرَةً لِهَذِهِ الْأمة.

وَقَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْبَابِ مَا خَرجَاهُ فِي الصحِيحَيْنِ، عَنْ أَبِي الزنَادِ، عَنِ الْأعْرَجِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أن رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ» [2]. فَأَمَرَهُمْ بِالْإِمْسَاكِ عَما لَمْ يُؤْمَرُوا بِهِ، مُعَلِّلًا بِأَن سَبَبَ هَلَاكِ الْأولِينَ إِنمَا كَانَ كَثْرَةَ السؤَالِ ثُم الِاخْتِلَافَ عَلَى الرسُلِ بِالْمَعْصِيَةِ.

الِاخْتِلَافُ فِي الْكِتَابِ

ثُم الِاخْتِلَافُ فِي الْكِتَابِ، مِنَ الذِينَ يُقِرُّونَ بِهِ - عَلَى نَوْعَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: اخْتِلَافٌ فِي تَنْزِيلِهِ.

وَالثانِي: اخْتِلَافٌ فِي تَأْوِيلِهِ. وَكِلَاهُمَا فِيهِ إِيمَانٌ بِبَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ.

فَالْأولُ كَاخْتِلَافِهِمْ فِي تَكَلمِ اللهِ بِالْقُرْآنِ وَتَنْزِيلِهِ، فَطَائِفَةٌ قَالَتْ: هَذَا الْكَلَامُ حَصَلَ بِقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ لِكَوْنِهِ مَخْلُوقًا فِي غَيْرِهِ لَمْ يَقُمْ بِهِ، وَطَائِفَةٌ قَالَتْ: بَلْ هُوَ صِفَةٌ لَهُ قَائِمٌ بِذَاتِهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، لَكِنهُ لَا يَتَكَلمُ بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ. وَكُل مِنَ الطائِفَتَيْنِ جَمَعَتْ فِي كَلَامِهَا بَيْنَ حَق وَبَاطِلٍ، فَآمَنَتْ بِبَعْضِ الْحَق، وَكَذبَتْ بِمَا تَقُولُهُ الْأُخْرَى مِنَ الْحَق، وَقَدْ تَقَدمَتِ الْإِشَارَةُ إِلَى ذَلِكَ.

وَأَما الِاخْتِلَافُ فِي تَأْوِيلِهِ، الذِي يَتَضَمنُ الْإِيمَانَ بِبَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ، فَكَثِيرٌ، كَمَا فِي حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدهِ، قَالَ: «خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ، هَذَا يَنْزِعُ بِآيَةٍ وَهَذَا يَنْزِعُ بِآيَةٍ، فَكَأَنمَا فُقِئَ فِي

(١) البقرة : ٢١٣ .

(٢) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٥٨) ، مسلم الحج (١٣٣٧) ، الترمذي العلم (٢٦٧٩) ، النسائي مناسك الحج (٢٦١٩) ، ابن ماجه المقدمة (٢) ، أحمد (٢/٥٠٨) .

وَجْهِهِ حب الرمان، فَقَالَ: " أَبِهَذَا أُمِرْتم ؟ أَم بِهَذَا وُكلْتم ؟ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ ؟ اُنْظُرُوا مَا أُمِرْتم بِهِ فَاتبِعُوهُ، وَمَا نُهِيتم عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [1] [2]. وفي رِوَايَةٍ: ﴿ يَا قَوْمِ بِهَذَا ضَلت الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ وَضَرْبِهِمِ الْكِتَابَ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِن الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ لِتَضْرِبُوا بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَلَكِنْ نَزَلَ الْقُرْآنُ يُصَدقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، مَا عَرَفْتم مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا تَشَابَهَ فَآمِنُوا بِهِ ﴾ [3]. وَفي رِوَايَةٍ: ﴿ فَإِن الْأُمَمَ قَبْلَكُمْ لَمْ يُلْعَنُوا حَتى اخْتَلَفُوا، وَإِن الْمِرَاءَ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ ﴾ [4]. وَهُوَ حَدِيثٌ مَشْهُورٌ، مُخَرجٌ فِي الْمَسَانِدِ وَالسنَنِ.

وَقَدْ رَوى أَصْلَ الْحَدِيثِ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، مِنْ ﴿ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ رَبَاحٍ الْأَنْصَارِي، أَن عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو قَالَ: هَجرْتُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعْرَفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ، فَقَالَ: إِنمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ ﴾ [5] [6].

وَجَمِيعُ أَهْلِ الْبِدَعِ مُخْتَلِفُونَ فِي تَأْوِيلِهِ، مُؤْمِنُونَ بِبَعْضِهِ دُونَ بَعْضٍ، يُقِرونَ بِمَا يُوَافِقُ رَأْيَهُمْ مِنَ الْآيَاتِ، وَمَا يُخَالِفُهُ: إِما أَنْ يَتَأَولُوهُ تَأْوِيلًا يُحَرفُونَ فِيهِ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَإِما أَنْ يَقُولُوا [7] [هَذَا مُتَشَابِهٌ لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مَعْنَاهُ، فَيَجْحَدُونَ مَا أَنْزَلَهُ اللهُ مِنْ مَعَانِيهِ] وَهُوَ فِي مَعْنَى الْكُفْرِ بِذَلِكَ، لِأَن الْإِيمَانَ بِاللفْظِ بِلَا مَعْنًى هُوَ مِنْ جِنْسِ إِيمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ، كَمَا قَالَ

---

(١) ابن ماجه المقدمة (٨٥) ، أحمد (١٩٦/٢) .

(٢) المسند : ٦٨٤٥ ، ٦٨٤٦ ، بنحو هذا .

(٣) مسلم العلم (٢٦٦٦) ، ابن ماجه المقدمة (٨٥) ، أحمد (١٨١/٢) .

(٤) أبو داود السنة (٤٦٠٣) ، أحمد (٣٠٠/٢) .

(٥) مسلم العلم (٢٦٦٦) ، أحمد (١٩٢/٢) .

(٦) مسلم ٢ : ٣٠٤ . وكذلك رواه أحمد في المسند ، من هذا الوجه : ٦٨٠١ وهو من حديث " عبد الله بن عمرو بن العاص " . وكان في المطبوعة هنا " عبد الله بن عمر " ، وهو خطأ .

(٧) في الأصل : (يقول) . والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

تَعَالَى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ۚ ﴾ (١).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾ (٢) أَيْ: إِلا تِلَاوَةً مِنْ غَيْرِ فَهْمِ مَعْنَاهُ. وَلَيْسَ هَذَا كَالْمُؤْمِنِ الذِي فَهِمَ مَا فَهِمَ مِنَ الْقُرْآنِ فَعَمِلَ بِهِ، وَاشْتَبَهَ عَلَيْهِ بَعْضُهُ فَوَكَلَ عِلْمَهُ إِلَى اللهِ، كَمَا أَمَرَهُ النبِي ﷺ بِقَوْلِهِ: ﴿ فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدوهُ إِلَى عَالِمِهِ ﴾ (٣) "، فَامْتَثَلَ مَا أَمَرَ بِهِ ﷺ.

الْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ اللهِ

الْإِسْلَامُ هُوَ دِينُ اللهِ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْأَرْضِ وَالسمَاءِ

قَوْلُهُ: (وَدِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ وَالسمَاءِ وَاحِدٌ، وَهُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ۗ ﴾ (٤). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ۚ ﴾ (٥).

وَهُوَ بَيْنَ [الْغُلُوِّ وَ] التقْصِيرِ، وَبَيْنَ التشْبِيهِ وَالتعْطِيلِ، وَبَيْنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ، وَبَيْنَ الْأَمْنِ وَالْإِيَاسِ).

ش: ثَبَتَ فِي الصحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النبِي ﷺ أَنهُ قَالَ: ﴿ إِنا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ ﴾ (٦). وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ ﴾ (٧) - عَامٌ فِي كُل زَمَانٍ، وَلَكِن الشرَائِعَ تَتَنوعُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ

(١) الْجُمُعَةِ : ٥ .
(٢) الْبَقَرَةِ : ٧٨ .
(٣) مسلم العلم (٢٦٦٦) ، ابن ماجه المقدمة (٨٥) ، أحمد (١٨١/٢) .
(٤) آلِ عِمْرَانَ : ١٩ .
(٥) الْمَائِدَةِ : ٣ .
(٦) البخاري أحاديث الأنبياء (٣٢٥٩) ، مسلم الفضائل (٢٣٦٥) ، أبو داود السنة (٤٦٧٥) .
(٧) آلِ عِمْرَانَ : ٨٥ .

وَمِنْهَاجًا ﴾ [1].

[فَدِينُ الْإِسْلَامِ] [2] هُوَ مَا شَرَعَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لِعِبَادِهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ، وَأُصُولُ هَذَا الدينِ وَفُرُوعُهُ مَوْرُوثَةٌ عَنِ الرسُلِ، وَهُوَ ظَاهِرٌ غَايَةَ الظهُورِ، يُمْكِنُ كُل مُمَيزٍ مِنْ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، وَفَصِيحٍ وَأَعْجَمِي، وَذَكِي وَبَلِيدٍ - أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ بِأَقْصَرِ زَمَانٍ، وَإِنهُ يَقَعُ الْخُرُوجُ مِنْهُ بِأَسْرَعَ مِنْ ذَلِكَ، مِنْ إِنْكَارِ كَلِمَةٍ، أَوْ تَكْذِيبٍ، أَوْ مُعَارَضَةٍ، أَوْ كَذِبٍ عَلَى اللهِ، أَوِ ارْتِيَابٍ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى، أَوْ رَد لِمَا أَنْزَلَ، أَوْ شَك فِيمَا نَفَى اللهُ عَنْهُ الشك، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِما فِي مَعْنَاهُ.

سُهُولَةُ تَعَلمِ الْإِسْلَامِ

فَقَدْ دَل الْكِتَابُ وَالسنةُ عَلَى ظُهُورِ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَسُهُولَةِ تَعَلمِهِ، وَأَنهُ يَتَعَلمُهُ الْوَافِدُ ثُم يُوَلي فِي وَقْتِهِ. وَاخْتِلَافُ تَعْلِيمِ النبِي ﷺ فِي بَعْضِ الْأَلْفَاظِ بِحَسَبِ مَنْ يَتَعَلمُ، فَإِنْ كَانَ بَعِيدَ الْوَطَنِ، كَضِمَامِ بْنِ ثَعْلَبَةَ النجْدِي، وَوَفْدِ عَبْدِ الْقَيْسِ، عَلمَهُمْ مَا لَا يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ، مَعَ عِلْمِهِ أَن دِينَهُ سَيَنْتَشِرُ فِي الْآفَاقِ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِمْ مَنْ يُفَقهُهُمْ فِي سَائِرِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، وَمَنْ كَانَ قَرِيبَ الْوَطَنِ يُمْكِنُهُ الْإِتْيَانُ كُل وَقْتٍ، بِحَيْثُ يَتَعَلمُ عَلَى التدْرِيجِ، أَوْ كَانَ قَدْ عَلِمَ فِيهِ أَنهُ قَدْ عَرَفَ مَا لَا بُد مِنْهُ - أَجَابَهُ بِحَسَبِ حَالِهِ وَحَاجَتِهِ عَلَى مَا تَدُل قَرِينَةُ حَالِ السائِلِ، كَقَوْلِهِ: ﴿ قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُم اسْتَقِمْ ﴾ [3].

وَأَما مَنْ شَرَعَ دِينًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ، فَمَعْلُومٌ أَن أُصُولَهُ الْمُسْتَلْزِمَةَ لَهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ مَنْقُولَةً عَنِ النبِي ﷺ وَلَا عَنْ غَيْرِهِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ هُوَ بَاطِلٌ، وَمَلْزُومُ الْبَاطِلِ بَاطِلٌ، كَمَا أَن لَازِمَ الْحَق حَق.

---

(١) الْمَائِدَة : ٤٨ .

(٢) في الأصل : (فالدين) . ولعل الصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

(٣) مسلم الإيمان (٣٨) ، ابن ماجه الفتن (٣٩٧٢) ، أحمد (٤١٣/٣) ، الدارمي الرقاق (٢٧١٠) .

وَهُوَ بين الْغُلُو وَالتقْصِير

وَقوْلُه: "بيْنَ الْغُلو وَالتقْصِير " - قَال تَعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾ (١). وَقَال تَعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ (٢).

وَفي الصحِيحيْن عَنْ عَائِشَة رَضِيَ الله عَنْهَا: ﴿ أن نَاسًا مِنْ أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ سَألُوا أزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَنْ عَمَلِهِ فِي السر ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا آكُلُ اللحْمَ، وَقَالَ بَعْضُهمْ: لَا أتزَوجُ النسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهمْ: لَا أنَامُ عَلى فِرَاشٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النبِي ﷺ فَقَالَ: " مَا بَالُ أقْوَامٍ يَقُولُ أحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا ؟! لَكِني أصُومُ وَأفْطِرُ، وَأنَامُ وَأقُومُ، وَآكُلُ اللحْمَ، وَأتزَوجُ النسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنتِي فَلَيْسَ مِني ﴾ (٣) (٤). وَفي غيْر الصحِيحيْن: سَألوا عَنْ عِبَادَتِه فِي السر، فَكأنهُمْ تقَالوهَا (٥).

وَذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ أن عُثْمَانَ بْنَ مَظْعُونٍ، وَعَلِيَ بْنَ أبِي طَالِبٍ، وَابْنَ مَسْعُودٍ، وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأسْوَدِ، وَسَالِمًا مَوْلَى أبِي

---

(١) الْمَائِدَة : ٧٧ .

(٢) الْمَائِدَة : ٨٧ - ٨٨ .

(٣) البخاري النكاح (٤٧٧٦) ، مسلم النكاح (١٤٠١) ، النسائي النكاح (٣٢١٧) ، أحمد (٢٨٥/٣) .

(٤) مسلم ١ : ٣٩٤ . ورواه البخاري أطول قليلا ٩ : ٨٩ - ٩٠ . ورواه أيضا ابن حبان في صحيحه ، رقم ١٣ بتحقيقنا . وكذلك رواه أحمد في المسند : ١٣٥٦٨ ، ١٣٧٦٣ ، ١٤٠٩٠ - كلهم من حديث أنس بن مالك . وقد وهم الحافظ ابن كثير ، فذكره في التفسير ٣ : ٢١٤ ، فذكر أنه " في الصحيحين عن عائشة " ! وقلده في وهمه تلميذ الشارح ، هنا . وما وجدته من حديث عائشة قط ، لا في الصحيحين ولا في غيرهما ، ما استطعت .

(٥) بل هذه بمعناها في صحيح البخاري في هذا الحديث .

حُذيفةَ، في أصْحَابِهِ [(١)] - تبتلوا، فجلسوا في البيوتِ، واعْتزلوا النساءَ، ولبسوا المُسُوحَ، وحرموا طيباتِ الطعامِ واللباسِ، إلا ما يأكلُ ويلبسُ أهْلُ السياحةِ من بني إسْرائيل، وهموا بالاختصاءِ، وأجْمعُوا لقيامِ الليْل وصيامِ النهارِ، فنزلتْ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [(٢)] يقول: لا تسيروا بغيرِ سُنةِ المُسْلمين، يريدُ ما حرموا من النساءِ والطعامِ واللباسِ، وما أجْمعُوا له من قيامِ الليْل وصيامِ النهارِ، وما هموا به من الاختصاءِ، فلما نزلتْ فيهمْ، بعث النبي ﷺ إليهمْ، فقال: ﴿ إن لأنفسكمْ عليكمْ حقّا، وإن لأعْينكمْ حقّا، صُومُوا وأفْطِرُوا، وصلوا وناموا، فليس منا منْ ترك سُنتنا ﴾ ، فقالوا: اللهُم سلمْنا واتبعْنا ما أُنزلت [(٣)].

وهو بين التشْبيه والتعْطيل

وقوْله: " وبين التشْبيه والتعْطيل " - تقدمَ أن الله سُبْحانهُ وتعالى يجب أنْ يوصفَ بما وصف به نفْسَهُ، وبما وصفهُ به رسُولهُ، منْ غيْر تشْبيه، فلا يقالُ: سمْعٌ كسمْعنا، ولا بصرٌ كبصرنا، ونحْوهُ، ومنْ غيْر تعْطيل، فلا ينفى عنْهُ ما وصف به نفْسهُ، أوْ وصفهُ به أعْرفُ الناس به: رسُولهُ ﷺ فإن ذلك تعْطيلٌ، وقدْ تقدمَ الكلامُ في هذا المعْنى.

ونظيرُ هذا القوْل قوْلُه: " ومنْ لمْ يتوق النفْي والتشْبيه، زل ولمْ يصب التنْزيه ". وهذا المعْنى مُسْتفادٌ منْ قوْله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ ﴾ [(٤)].

فقوْلهُ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ ﴾ [(٥)] - رد على المُشبهة، وقوْلهُ: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) في تفسير ابن جرير (١٢٣٤٨ شاكر) : " في أصحاب " . ن .

(٢) المائدة : ٨٧ .

(٣) رواية ابن جريج عن عكرمة - ذكرها ابن كثير في التفسير ٣ : ٢١٦ ، وهكذا بدون إسناد .

(٤) الشورى : ١١ .

(٥) سورة الشورى آية : ١١ .

﴿ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ (١) - رد عَلَى الْمُعطلَةِ.

وَهُوَ بين الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ

وَقَوْلُهُ: " وَبين الْجَبْرِ وَالْقدرِ " - تقدمَ الْكَلَامُ أيضًا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَأن الْعَبدَ غَيْر مَجْبورٍ عَلَى أفْعَالِهِ وَأقْوالِهِ، وَأنها [لَيْسَتْ] بِمَنْزِلَةِ حَرَكَاتِ الْمُرْتَعِش وَحَرَكَاتِ الْأشْجَارِ بِالرِياحِ وَغيرِهَا، وَلَيستْ مَخْلُوقةً لِلْعَبدِ، بَلْ هِيَ فِعْلُ الْعَبدِ وكَسْبُهُ وَخَلْقُ اللهِ تَعَالَى.

وَهُوَ بين الْأمنِ وَالْيأسِ

وَقَوْلُهُ: " وَبين الْأمنِ وَالْإِيَاسِ " - تقدمَ الْكَلَامُ أيضًا عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَأنهُ يَجِبُ أنْ يَكُونَ الْعَبْدُ خَائِفًا مِنْ عَذَابِ رَبِهِ، رَاجِيًا رَحْمَتَهُ، وَأن الْخَوْفَ وَالرجَاءَ بِمَنْزِلَةِ الْجَنَاحَيْنِ لِلْعَبدِ، فِي سَيْرِهِ إِلَى اللهِ تَعالَى وَالدارِ الْآخِرَةِ.

الْبَرَاءَةُ مِن الْفِرَقِ الضالةِ

قَوْلُهُ: (فَهَذَا دِينُنَا وَاعْتِقَادُنَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَنَحْنُ بُرَآءُ إِلَى اللهِ تَعالَى مِنْ كُل مَنْ خَالَفَ الذِي ذَكَرْنَاهُ وَبيناه، وَنسْأَلُ اللهَ تَعَالَى أنْ يُثبتَنَا عَلَى الْإِيمَانِ، وَيَخْتِمَ لَنا بِهِ، وَيَعْصِمَنَا مِنَ الْأهْوَاءِ الْمُخْتلِفَةِ، وَالْآرَاءِ الْمتفرقَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الرديةِ، مِثْلِ الْمُشبهَةِ، وَالْمُعْتزِلَةِ، وَالْجَهْمِيةِ، وَالْجَبرِيةِ، وَالْقَدرِيةِ، وَغَيْرِهَا، مِنَ الذِينَ خَالَفُوا السنةَ والْجَمَاعَةَ، وَحَالَفُوا الضلَالَةَ، وَنَحْنُ مِنْهُمْ بُرَآء، وَهُمْ عِنْدَنَا ضُلالٌ وَأرْدِيَاءُ. وَبِاللهِ الْعِصْمَةُ وَالتوْفِيقُ).

ش: الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: " فَهَذَا " إِلَى كُل مَا تقدمَ مِنْ أولِ الْكِتَابِ إِلَى هُنَا. وَالْمُشَبهَةُ: هُمُ الذِينَ شَبهُوا اللهَ سُبْحَانَهُ بِالْخَلْقِ فِي صِفَاتِهِ، وَقَوْلُهُمْ عَكْسُ قَوْلِ النصَارَى، شَبهُوا الْمَخْلُوقَ - وَهُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السلَامُ - بِالْخَالِقِ وَجَعَلُوهُ إِلَهًا، وَهَؤُلَاءِ شَبهُوا الْخَالِقَ بِالْمَخْلُوقِ، كَدَاوُدَ الْجَوَارِبِي وَأشْبَاهِهِ.

أُصُولُ الْمُعْتَزِلَةِ الْخَمْسَةُ

وَالْمُعْتزِلَةُ: هُمْ عَمْرُو بْنُ عُبَيدٍ، وَوَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ الْغَزالُ وَأصْحَابُهُمَا، سُموا بِذَلِكَ لَما

---

(١) سورة الشورى آية : ١١ .

اعْتَزَلُوا الْجَمَاعَةَ بَعْدَ مَوْتِ الْحَسَنِ الْبَصْرِي رَحِمَهُ اللهُ، فِي أَوَائِلِ الْمِائَةِ الثَّانِيَة، وَكَانُوا يَجْلِسُونَ مُعْتَزِلِينَ، فَيَقُولُ قَتَادَةُ وَغَيْرُهُ: أُولَئِكَ الْمُعْتَزِلَةُ.

وَقِيلَ: إِن وَاصِلَ بْنَ عَطَاءٍ هُوَ الذِي وَضَعَ أُصُولَ مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَة، وَتَابَعَهُ عَمْرُو بْنُ عُبَيْدٍ تِلْمِيذُ الْحَسَنِ الْبَصْرِي، فَلَما كَانَ زَمَنُ هَارُونَ الرشِيدِ صَنفَ لَهُمْ أَبو الْهُذَيْل كِتَابَيْن، وَبينَ مَذْهَبَهُمْ، وَبَنَى مَذْهَبَهُمْ عَلَى الْأُصُولِ الْخَمْسَةِ، التِي سَموْهَا: الْعَدْلَ، وَالتوْحِيدَ، وَإِنْفَاذَ الْوَعِيدِ، وَالْمَنْزِلَةَ بَيْنَ الْمَنْزِلَتيْنِ، وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ! وَلَبسُوا فِيهَا الْحَق بِالْبَاطِلِ، إِذْ شَأْنُ الْبِدَعِ هَذَا، اشْتِمَالُهَا عَلَى حَق وَبَاطِلٍ.

وَهُمْ مُشَبهَةُ الْأَفْعَالِ؛ لِأَنهُمْ قَاسُوا أَفْعَالَ اللهِ تَعَالَى عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِه، وَجَعَلُوا مَا يَحْسُنُ مِنَ الْعِبَادِ يَحْسُنُ مِنْهُ، وَمَا يَقْبُحُ مِنَ الْعِبَادِ يَقْبُحُ مِنْهُ ! وَقَالُوا: يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، وَلَا يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا، بِمُقْتَضَى ذَلِكَ الْقِيَاسِ الْفَاسِدِ !! فَإِن السيدَ مِنْ بَنِي آدَمَ لَوْ رَأَى عَبِيدَهُ تَزْنِي بِإِمَائِهِ وَلَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ لَعُد إِما مُسْتَحْسِنًا لِلْقَبِيحِ، وَإِما عَاجِزًا، فَكَيْفَ يَصِح قِيَاسُ أَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى أَفْعَالِ عِبَادِهِ ؟! وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ.

فَأَما الْعَدْلُ، فَسَتَرُوا تَحْتَهُ نَفْيَ الْقَدَرِ، وَقَالُوا: إِن اللهَ لَا يَخْلُقُ الشر وَلَا يَقْضِي بِهِ، إِذْ لَوْ خَلَقَهُ ثُم يُعَذبُهُمْ عَلَيْهِ يَكُونُ ذَلِكَ جَوْرًا !! وَاللهُ تَعَالَى عَادِلٌ لَا يَجُورُ. وَيَلْزَمُهُمْ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ الْفَاسِدِ أَن اللهَ تَعَالَى يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُهُ، فَيُرِيدُ الشيْءَ وَلَا يَكُونُ، وَلَازِمُهُ وَصْفُهُ بِالْعَجْزِ ! تَعَالَى اللهُ عَنْ ذَلِكَ.

وَأَما التوْحِيدُ فَسَتَرُوا تَحْتَهُ الْقَوْلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، إِذْ لَوْ كَانَ غَيْرَ مَخْلُوقٍ لَزِمَ تَعَددُ الْقُدَمَاءِ !! وَيَلْزَمُهُمْ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْفَاسِدِ أَن عِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ وَسَائِرَ صِفَاتِهِ مَخْلُوقَةٌ، أَوِ التنَاقُضُ !.

وَأَما الْوَعِيدُ، فَقَالُوا: إِذَا أَوْعَدَ بَعْضَ عَبِيدِهِ وَعِيدًا فَلَا يَجُوزُ أَنْ لَا يُعَذبَهُمْ وَيُخْلِفَ وَعِيدَهُ، لِأَنهُ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ، فَلَا يَعْفُو عَمنْ يَشَاءُ، وَلَا يَغْفِرُ لِمَنْ يُرِيدُ، عِنْدَهُمْ !!.

وَأَما الْمَنْزِلَةُ بَيْنَ الْمَنْزِلَتيْنِ، فَعِنْدَهُمْ أَن مَنِ ارْتَكَبَ كَبِيرَةً يَخْرُجُ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا يَدْخُلُ

فِي الْكُفْرِ !!.

وَأما الْأَمرُ بِالْمَعْرُوفِ، فَهُوَ أنهُمْ قَالُوا: عَلَيْنَا أَنْ نَأْمرَ غَيْرَنَا بِمَا أُمِرْنَا بِهِ، وَأَنْ نُلْزِمَهُ بِمَا يَلْزَمُنَا، وَذَلِكَ هُوَ الْأَمرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنهْيُ عَنِ الْمُنْكرِ، وَضَمنُوهُ أَنهُ يَجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَى الْأَئمةِ بِالْقِتَالِ إِذَا جَارُوا !! وَقَدْ تقدمَ جَوابُ هَذِهِ الشبَهِ الْخَمْسِ فِي مَوَاضِعِهَا.

وَعِنْدَهُمْ أن التوْحِيدَ وَالْعَدْلَ مِنَ الْأُصُولِ الْعَقْلِيةِ التِي لَا يُعْلَمُ صِحةُ السمْعِ إِلا بَعْدَهَا، وَإِذَا اسْتَدَلوا عَلَى ذَلِكَ بِأَدِلةٍ سَمْعِيةٍ، إِنمَا يَذْكُرُونَهَا لِلِاعْتِضَادِ بِهَا، لَا لِلِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا، فَهُمْ يَقُولُونَ: لَا نُثْبِتُ هَذِهِ بِالسمْعِ، بَلِ الْعِلْمُ بِهَا مُتَقَدمٌ عَلَى الْعِلْمِ بِصِحةِ النقْلِ ! فَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَذْكُرُهَا فِي الْأُصُولِ، إِذْ لَا فَائِدَةَ فِيهَا عِنْدَهُمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَذْكُرُهَا لِيُبين مُوَافَقَةَ السمْعِ لِلْعَقْلِ، وَلِإِينَاسِ الناسِ بِهَا، لَا لِلِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا ! وَالْقُرْآنُ وَالْحَدِيثُ فِيهِ عِنْدَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الشهُودِ الزائِدِينَ عَلَى النصَابِ ! وَالْمَدَدِ اللاحِقِ بِعَسْكَرٍ مُسْتَغْنٍ عَنْهُمْ ! وَبِمَنْزِلَةِ مَنْ يَتبِعُ هَوَاهُ وَاتفَقَ أَن الشرْعَ مَا يَهْوَاهُ !! كَمَا قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَا تَكُنْ مِمنْ يَتبِعُ الْحَق إِذَا وَافَقَ هَوَاهُ، وَيُخَالِفُهُ إِذَا خَالَفَ هَوَاهُ، فَإِذًا أَنتَ لَا تُثَابُ عَلَى مَا وَافَقْتَهُ مِنَ الْحَق، وَتُعَاقَبُ عَلَى مَا تَرَكْتَهُ مِنْهُ، لِأَنكَ إِنمَا اتبَعْتَ هَوَاكَ فِي الْمَوْضِعَيْنِ. وَكَمَا أَن " الْأَعْمَالَ بِالنياتِ، وَإِنمَا لِكُل امْرِئٍ مَا نَوَى "، وَالْعَمَلُ يَتبَعُ قَصْدَ صَاحِبِهِ وَإِرَادَتَهُ، فَالِاعْتِقَادُ الْقَوِي يَتبَعُ أَيضًا عِلْمَ ذَلِكَ وَتَصْدِيقَهُ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ تَابِعًا لِلْإِيمَانِ كَانَ مِنَ الْإِيمَانِ، كَمَا أَن الْعَمَلَ الصالِحَ إِذَا كَانَ عَنْ نِيةٍ صَالِحَةٍ كَانَ صَالِحًا، وَإِلا فَلَا، فَقَوْلُ أَهْلِ الْإِيمَانِ التابِعُ لِغَيْرِ الْإِيمَانِ، كَعَمَلِ أَهْلِ الصلَاحِ التابِعِ لِغَيْرِ قَصْدِ أَهْلِ الصلَاحِ. وَفِي الْمُعْتَزِلَةِ زَنَادِقَةٌ كَثِيرَةٌ، وَفِيهِمْ مَنْ ضَل سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا.

الْجَهْمِيةُ وَأَصْلُ مَذْهَبِهِمْ

وَالْجَهْمِيةُ: هُمُ الْمُنْتَسِبُونَ إِلَى جَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ السمَرْقَنْدِي [1] وَهُوَ الذِي أَظْهَرَ نَفْيَ الصفَاتِ وَالتعْطِيلَ، وَهُوَ أَخَذَ ذَلِكَ عَنِ الْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، الذِي ضَحى بِهِ خَالِدُ بْنُ عَبْدِ

(١) في المطبوعة " الترمذي " . وانظري ما مضى ص : ٤٣٨ - ٤٣٩ .

اللهِ الْقَسْرِي بِوَاسِطَ، فَإِنَّهُ خَطَبَ النَّاسَ فِي يَوْمِ عِيدِ الْأَضْحَى، وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، ضَحُّوا تَقَبَّلَ اللهُ ضَحَايَاكُمْ، فَإِنِّي مُضَحٍّ بِالْجَعْدِ بْنِ دِرْهَمٍ، إِنَّهُ زَعَمَ أَنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى تَكْلِيمًا، تَعَالَى اللهُ عَمَّا يَقُولُ الْجَعْدُ عُلُوًّا كَبِيرًا ! ثُمَّ نَزَلَ فَذَبَحَهُ. وَكَانَ ذَلِكَ بَعْدَ اسْتِفْتَاءِ عُلَمَاءِ زَمَانِهِ، وَهُمُ السَّلَفُ الصَّالِحُ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعَالَى.

وَكَانَ الْجَهْمُ بَعْدَهُ بِخُرَاسَانَ، فَأَظْهَرَ مَقَالَتَهُ هُنَاكَ، وَتَبِعَهُ عَلَيْهَا نَاسٌ، بَعْدَ أَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا شَكًّا فِي رَبِّهِ ! وَكَانَ ذَلِكَ لِمُنَاظَرَتِهِ قَوْمًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، يُقَالُ لَهُمُ السُّمَنِيَّةُ، [مِنْ] فَلَاسِفَةِ الْهِنْدِ، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا سِوَى الْحِسِّيَّاتِ، قَالُوا لَهُ: هَذَا رَبُّكَ الَّذِي تَعْبُدُهُ، [هَلْ] [1] يُرَى أَوْ يُشَمُّ أَوْ يُذَاقُ أَوْ يُلْمَسُ ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَالُوا: هُوَ مَعْدُومٌ !! فَبَقِيَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا لَا يَعْبُدُ شَيْئًا، ثُمَّ لَمَّا خَلَا قَلْبُهُ مِنْ مَعْبُودٍ يُؤَلِّهُهُ، نَقَشَ الشَّيْطَانُ اعْتِقَادًا نَحَتَهُ فِكْرُهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ الْوُجُودُ الْمُطْلَقُ !! وَنَفَى جَمِيعَ الصِّفَاتِ، وَاتَّصَلَ بِالْجَعْدِ.

وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ الْجَعْدَ كَانَ قَدِ اتَّصَلَ بِالصَّابِئَةِ الْفَلَاسِفَةِ مِنْ أَهْلِ حَرَّانَ، وَأَنَّهُ أَيْضًا أَخَذَ شَيْئًا عَنْ بَعْضِ الْيَهُودِ الْمُحَرِّفِينَ لِدِينِهِمُ الْمُتَّصِلِينَ بِلَبِيدِ بْنِ الْأَعْصَمِ، السَّاحِرِ الَّذِي سَحَرَ النَّبِيَّ ﷺ. فَقُتِلَ جَهْمٌ بِخُرَاسَانَ، قَتَلَهُ سَلْمُ بْنُ أَحْوَزَ وَلَكِنْ كَانَتْ قَدْ فَشَتْ مَقَالَتُهُ فِي النَّاسِ، وَتَقَلَّدَهَا بَعْدَهُ الْمُعْتَزِلَةُ. وَلَكِنْ كَانَ الْجَهْمُ أَدْخَلَ فِي التَّعْطِيلِ مِنْهُمْ، لِأَنَّهُ يُنْكِرُ الْأَسْمَاءَ حَقِيقَةً، وَهُمْ لَا يُنْكِرُونَ الْأَسْمَاءَ بَلِ الصِّفَاتِ.

وَقَدْ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِي الْجَهْمِيَّةِ: هَلْ هُمْ مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً أَمْ لَا ؟ وَلَهُمْ فِي ذَلِكَ قَوْلَانِ: وَمِمَّنْ قَالَ إِنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الثِّنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً - عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ.

وَإِنَّمَا اشْتَهَرَتْ مَقَالَةُ الْجَهْمِيَّةِ مِنْ حِينِ مِحْنَةِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ مِنْ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ، فَإِنَّهُ مِنْ إِمَارَةِ الْمَأْمُونِ قَوُوا وَكَثُرُوا، فَإِنَّهُ قَدْ أَقَامَ بِخُرَاسَانَ مُدَّةً وَاجْتَمَعَ بِهِمْ، ثُمَّ كَتَبَ بِالْمِحْنَةِ مِنْ طَرَسُوسَ سَنَةَ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ وَفِيهَا مَاتَ، وَرَدُّوا الْإِمَامَ أَحْمَدَ إِلَى

---

(١) في الأصل : (هذا) والصواب ما أثبتناه من سائر النسخ . ن .

الْحَبس بِبَغْدَادَ إِلَى سَنَةِ عِشْرِينَ، وَفِيهَا كَانَتْ مِحْنَتُهُ مَعَ الْمُعْتَصِمِ وَمُنَاظَرَتُهُ لَهُمْ بِالْكَلَامِ، فَلَما رد عَلَيْهِمْ مَا احْتَجوا بِهِ عَلَيْهِ، وَبَين أَنهُ لَا حُجةَ لَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَأَن طَلَبَهُمْ مِنَ الناسِ أَنْ يُوَافِقُوهُمْ وَامْتِحَانَهُمْ إِياهُمْ -: جَهْلٌ وَظُلْمٌ، وَأَرَادَ الْمُعْتَصِمُ إِطْلَاقَهُ، أَشَارَ عَلَيْهِ مَنْ أَشَارَ بِأَن الْمَصْلَحَةَ ضَرْبُهُ، لِئَلَا تَنْكَسِرَ حُرْمَةُ الْخِلَافَةِ مَرةً بَعْدَ مَرةٍ ! فَلَما ضَرَبُوهُ قَامَتِ الشنَاعَةُ فِي الْعَامةِ، وَخَافُوا، فَأَطْلَقُوهُ. وَقِصتُهُ مَذْكُورَةٌ فِي كُتُبِ التارِيخِ.

وَمِما انْفَرَدَ بِهِ الْجَهْمُ: أَن الْجَنةَ وَالنارَ تَفْنَيَانِ، وَأَن الْإِيمَانَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ فَقَطْ، وَالْكُفْرَ هُوَ الْجَهْلُ فَقَطْ، وَأَنهُ لَا فِعْلَ لِأَحَدٍ فِي الْحَقِيقَةِ إِلا لِلهِ وَحْدَهُ، وَأَن الناسَ إِنمَا تُنْسَبُ إِلَيْهِمْ أَفْعَالُهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمَجَازِ، كَمَا يُقَالُ تَحَركَتِ الشجَرَةُ، وَدَارَ الْفَلَكُ، وَزَالَتِ الشمْسُ ! وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْقَائِلُ:

عَجِبْــتُ لِشَيْطَانٍ دَعَا الناسَ جَهْرَةً إِلَــى النارِ وَاشْتَق اسْمُهُ مِنْ جَهَنمَ

وَقَدْ نُقِلَ أَن أَبَا حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللهُ، لَما سُئِلَ عَنِ الْكَلَامِ فِي الْأَعْرَاضِ وَالْأَجْسَامِ ؟ فَقَالَ: لَعَنَ اللهُ عَمْرَو بْنَ عُبَيْدٍ، هُوَ فَتَحَ عَلَى الناسِ الْكَلَامَ فِي هَذَا.

الْجَبْرِيةُ وَأَصْلُ قَوْلِهِمْ

وَالْجَبْرِيةُ: أَصْلُ قَوْلِهِمْ مِنَ الْجَهْمِ بْنِ صَفْوَانَ، كَمَا تَقَدمَ، وَأَن فِعْلَ الْعَبْدِ بِمَنْزِلَةِ طُولِهِ وَلَوْنِهِ ! وَهُمْ عَكْسُ الْقَدَرِيةِ نُفَاةِ الْقَدَرِ، فَإِن الْقَدَرِيةَ إِنمَا نُسِبُوا إِلَى الْقَدَرِ لِنَفْيِهِمْ إِياهُ، كَمَا سُميَتِ الْمُرْجِئَةُ لِنَفْيِهِمُ الْإِرْجَاءَ، وَأَنهُ لَا أَحَدَ مُرْجَأٌ لِأَمْرِ اللهِ إِما يُعَذبُهُمْ وَإِما يَتُوبُ عَلَيْهِمْ. وَقَدْ تُسَمى الْجَبْرِيةُ " قَدَرِيةً " لِأَنهُمْ غَلَوْا فِي إِثْبَاتِ الْقَدَرِ، وَكَمَا يُسَمى الذِينَ لَا يَجْزِمُونَ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، بَلْ يَغْلُونَ فِي إِرْجَاءِ كُل أَمْرٍ حَتى الْأَنوَاعِ، فَلَا يَجْزِمُونَ بِثَوَابِ مَنْ تَابَ، كَمَا لَا يَجْزِمُونَ بِعُقُوبَةِ مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَكَمَا لَا يُجْزَمُ لِمُعَينٍ. وَكَانَتِ الْمُرْجِئَةُ الْأُولَى يُرْجِئُونَ عُثْمَانَ وَعَلِيا، وَلَا يَشْهَدُونَ بِإِيمَانٍ وَلَا كُفْرٍ !!.

وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَم الْقَدَرِيةِ أَحَادِيثُ فِي السنَنِ: مِنْهَا مَا رَوَى أَبُو دَاوُدَ فِي سُنَنِهِ، مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النبِي ﷺ قَالَ: « الْقَدَرِيةُ

مَجُوسُ هَذِهِ الْأُمةِ، إنْ مَرِضُوا فَلَا تَعُودُوهُمْ، وَإِنْ مَاتُوا فَلَا تَشْهَدُوهُمْ ﴾ [(١)] [(٢)]. وَرُوِيَ فِي ذَم الْقَدَرِيةِ أَحَادِيثُ أُخَرُ كَثِيرَةٌ، تَكلمَ أَهْلُ الْحَدِيثِ فِي صِحةِ رَفْعِهَا، وَالصحِيحُ أَنهَا مَوْقُوفَةٌ، بِخِلَافِ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي ذَم الْخَوَارِجِ، فَإِن فِيهِمْ فِي الصحِيحِ وَحْدَهُ عَشَرَةُ أَحَادِيثَ، أَخْرَجَ الْبُخَارِي مِنْهَا ثَلَاثَةً، وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ سَائِرَهَا. وَلَكِن شَبَهُهُمْ لِلْمَجُوسِ ظَاهِرٌ، بَلْ قَوْلُهُمْ أَرْدَأُ مِنْ قَوْلِ الْمَجُوسِ، فَإِن الْمَجُوسَ اعْتَقَدُوا وُجُودَ خَالِقَيْنِ، وَالْقَدَرِيةَ اعْتَقَدُوا خَالِقِينَ !!.

وَهَذِهِ الْبِدَعُ الْمُتَقَابِلَةُ حَدَثَتْ مِنَ الْفِتَنِ الْمُفَرقَةِ بَيْنَ الْأُمةِ، كَمَا ذَكَرَ الْبُخَارِي فِي صَحِيحِهِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيبِ، قَالَ: وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ الْأُولَى، يَعْنِي مَقْتَلَ عُثْمَانَ، فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ بَدْرٍ أَحَدًا. ثُم وَقَعَتِ الثانِيَةُ فَلَمْ تُبْقِ مِنْ أَصْحَابِ الْحُدَيْبِيَةِ أَحَدًا. ثُم وَقَعَتِ الثالِثَةُ، فَلَمْ تَرْتَفِعْ وَلِلناسِ طَبَاخٌ، أَيْ عَقْلٌ وَقُوةٌ.

فَالْخَوَارِجُ وَالشيعَةُ حَدَثُوا فِي الْفِتْنَةِ الْأُولَى، وَالْقَدَرِيةُ وَالْمُرْجِئَةُ فِي الْفِتْنَةِ الثانِيَةِ، وَالْجَهْمِيةُ وَنَحْوُهُمْ بَعْدَ الْفِتْنَةِ الثالِثَةِ. فَصَارَ هَؤُلَاءِ الذِينَ فَرقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا - يُقَابِلُونَ الْبِدْعَةَ بِالْبِدْعَةِ، أُولَئِكَ غَلَوْا فِي عَلِي، وَأُولَئِكَ كَفرُوهُ ! وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي الْوَعِيدِ، حَتى خَلدُوا بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي الْوَعْدِ حَتى نَفَوْا بَعْضَ الْوَعِيدِ أَعْنِي الْمُرْجِئَةَ! وَأُولَئِكَ غَلَوْا فِي التنْزِيهِ حَتى نَفَوُا الصفَاتِ، وَهَؤُلَاءِ غَلَوْا فِي الْإِثْبَاتِ، حَتى وَقَعُوا فِي التشْبِيهِ ! وَصَارُوا يَبْتَدِعُونَ مِنَ الدلَائِلِ وَالْمَسَائِلِ مَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ، وَيُعْرِضُونَ عَنِ الْأَمْرِ الْمَشْرُوعِ، وَفِيهِمْ مَنِ اسْتَعَانَ عَلَى ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْأَوَائِلِ: الْيَهُودِ وَالنصَارَى وَالْمَجُوسِ وَالصابِئِينَ، فَإِنهُمْ قَرَءُوا كُتُبَهُمْ، فَصَارَ عِنْدَهُمْ مِنْ ضَلَالَتِهِمْ مَا أَدْخَلُوهُ فِي مَسَائِلِهِمْ وَدَلَائِلِهِمْ، وَغَيرُوهُ فِي اللفْظِ تَارَةً، وَفِي الْمَعْنَى أُخْرَى ! فَلَبَسُوا الْحَق بِالْبَاطِلِ، وَكَتَمُوا حَقًّا جَاءَ بِهِ نَبِيهُمْ، فَتَفَرقُوا وَاخْتَلَفُوا وَتَكَلمُوا حِينَئِذٍ فِي الْجِسْمِ وَالْعَرَضِ

---

(١) أبو داود السنة (٤٦٩١) ، أحمد (٢/٨٦) .

(٢) أبو داود : ٤٦٩١ . وروى أحمد نحوه بمعناه ، في المسند : ٥٥٨٤ ، من وجه آخر عن ابن عمر . وفصلنا القول فيه هناك .

وَالتجْسِيمِ، نَفْيًا وَإِثْبَاتًا.

سَبَبُ الضلَالِ الْعُدُولُ عَنِ الصرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ الذِي أَمَرَ اللهُ بِاتبَاعِهِ

وَسَبَبُ ضَلَالِ هَذِهِ الْفِرَقِ وَأَمْثَالِهِمْ عُدُولُهُمْ عَنِ الصرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، الذِي أَمَرَنَا اللهُ بِاتبَاعِهِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾ (١). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ ﴾ (٢). فَوَحدَ لَفْظَ " صِرَاطِهِ " وَ " سَبِيلِهِ "، وَجَمَعَ " السبُلَ " الْمُخَالِفَةَ لَهُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: « خَط لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خَطا، وَقَالَ: " هَذَا سَبِيلُ اللهِ "، ثُم خَط خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَقَالَ: "هَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُل سَبِيلٍ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ"، ثُم قَرَأَ: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (٣) ».

وَمِنْ هَاهُنَا يُعْلَمُ أَن اضْطِرَارَ الْعَبْدِ إِلَى سُؤَالِ هِدَايَةِ الصرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَوْقَ كُل ضَرُورَةٍ، وَلِهَذَا شَرَعَ اللهُ تَعَالَى فِي الصلَاةِ قِرَاءَةَ أُم الْقُرْآنِ فِي كُل رَكْعَةٍ، إِما فَرْضًا أَوْ إِيجَابًا، عَلَى حَسَبِ اخْتِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ، لِاحْتِيَاجِ الْعَبْدِ إِلَى هَذَا الدعَاءِ الْعَظِيمِ الْقَدْرِ، الْمُشْتَمِلِ عَلَى أَشْرَفِ الْمَطَالِبِ وَأَجَلهَا. فَقَدْ أَمَرَنَا اللهُ تَعَالَى أَنْ نَقُولَ: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (٤).

وَقَدْ ثَبَتَ عَنِ النبِي ﷺ أَنهُ قَالَ: « الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنصَارَى ضَالونَ ».

وَثَبَتَ فِي الصحِيحِ عَنِ النبِي ﷺ أَنهُ قَالَ: « لَتَتبِعُن سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ الْقُذةِ

---

(١) الْأَنْعَام : ١٥٣ .

(٢) يُوسُف : ١٠٨ .

(٣) سورة الأنعام آية : ١٥٣ .

(٤) الْفَاتِحَة : ٦ - ٧ .

بِالْقُذةِ، حَتى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَب لَدَخَلْتُمُوهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: الْيَهُودُ وَالنصَارَى ؟ قَالَ: فَمَنْ ؟! ﴾ [1].

قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السلَفِ: مَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَمَنِ انْحَرَفَ مِنَ الْعُبادِ فَفِيهِ شَبَهٌ مِنَ النصَارَى. فَلِهَذَا تَجِدُ أَكْثَرَ الْمُنْحَرِفِينَ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ، مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ - فِيهِ شَبَهٌ مِنَ الْيَهُودِ، حَتى إن عُلَمَاءَ الْيَهُودِ يَقْرَؤُونَ كُتُبَ شُيوخِ الْمُعْتَزِلَةِ، وَيَسْتَحْسِنُونَ طَرِيقَتَهُمْ، وَكَذَا شُيوخُ الْمُعْتَزِلَةِ يَمِيلُونَ إِلَى الْيَهُودِ وَيُرَجحُونَهُمْ عَلَى النصَارَى. وَأَكْثَرُ الْمُنْحَرِفِينَ مِنَ الْعُبادِ، مِنَ الْمُتَصَوفَةِ وَنَحْوِهِمْ - فِيهِمْ شَبَهٌ مِنَ النصَارَى، وَلِهَذَا يَمِيلُونَ إِلَى نَوْعٍ مِنَ الرهْبَانِيةِ وَالْحُلُولِ وَالِاتحَادِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَشُيوخُ هَؤُلَاءِ يَذُمونَ الْكَلَامَ وَأَهْلَهُ، وَشُيوخُ أُولَئِكَ يَعِيبُونَ طَرِيقَةَ هَؤُلَاءِ وَيُصَنفُونَ فِي ذَم السمَاعِ وَالْوَجْدِ وَكَثِيرٍ مِنَ الزهْدِ وَالْعِبَادَةِ التِي أَحْدَثَهَا هَؤُلَاءِ.

لِفِرَقِ الضلَالِ طَرِيقَتَانِ فِي الْوَحْيِ

وَلِفِرَقِ الضلَالِ فِي الْوَحْيِ طَرِيقَتَانِ: طَرِيقَةُ التبْدِيلِ، وَطَرِيقَةُ التجْهِيلِ. أَما أَهْلُ التبْدِيلِ فَهُمْ نَوْعَانِ: أَهْلُ الْوَهْمِ وَالتخْيِيلِ، وَأَهْلُ التحْرِيفِ وَالتأْوِيلِ.

فَأَهْلُ الْوَهْمِ وَالتخْيِيلِ، هُمُ الذِينَ يَقُولُونَ: إِن الْأَنْبِيَاءَ أَخْبَرُوا عَنِ اللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْجَنةِ وَالنارِ بِأُمُورٍ غَيْرِ مُطَابِقَةٍ لِلْأَمْرِ فِي نَفْسِهِ ! لَكِنهُمْ خَاطَبُوهُمْ بِمَا يَتَخَيلُونَ بِهِ وَيَتَوَهمُونَ بِهِ أَن اللهَ شَيْءٌ عَظِيمٌ كَبِيرٌ، وَأَن الْأَبْدَانَ تُعَادُ، وَأَن لَهُمْ نَعِيمًا مَحْسُوسًا، وَعِقَابًا مَحْسُوسًا، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ لَيْسَ كَذَلِكَ، لِأَن مَصْلَحَةَ الْجُمْهُورِ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا فَهُوَ كَذِبٌ لِمَصْلَحَةِ الْجُمْهُورِ !! وَقَدْ وَضَعَ ابْنُ سِينَا وَأَمْثَالُهُ قَانُونَهُمْ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ.

وَأَما أَهْلُ التحْرِيفِ وَالتأْوِيلِ، فَهُمُ الذِينَ يَقُولُونَ: إِن الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَقْصِدُوا بِهَذِهِ الْأَقْوَالِ مَا هُوَ الْحَق فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، وَإِن الْحَق فِي نَفْسِ الْأَمْرِ هُوَ مَا عَلِمْنَاهُ بِعُقُولِنَا ! ثُم يَجْتَهِدُونَ

(١) البخاري الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٨٨٩) ، مسلم العلم (٢٦٦٩) ، أحمد (٨٤/٣) .

في تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات !! ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل، بل يقولون: يجوز أن يراد كذا. وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ.

وأما أهل التجهيل والتضليل، الذين حقيقة قولهم: إن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء ! ويقولون: يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء، فضلا عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن محمدا ﷺ كان يقرأ: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥ ﴾ [(١)]. ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ [(٢)]. ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ [(٣)]. وهو لا يعرف معاني هذه الآيات ! بل معناها الذي دلت عليه لا يعرفه إلا الله تعالى !! ويظنون أن هذه طريقة السلف !!.

ثم منهم من يقول: إن المراد [بها] [(٤)] خلاف مدلولها الظاهر المفهوم، ولا يعرفه أحد، كما لا يعلم وقت الساعة ! ومنهم من يقول: بل تجرى على ظاهرها وتحمل على ظاهرها !! ومع هذا، فلا يعلم تأويلها إلا الله، فيتناقضون حيث أثبتوا لها تأويلا يخالف ظاهرها، وقالوا مع هذا: إنها تحمل على ظاهرها !! وهؤلاء يشتركون في القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التي يجعلونها مشكلة أو متشابهة، ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلا.

ثم منهم من يقول: لم يعلم معانيها أيضا ! ومنهم من يقول: علمها ولم يبينها، بل أحال في بيانها على الأدلة العقلية، وعلى من يجتهد في العلم بتأويل تلك النصوص !!

---

(١) طه : ٥ .

(٢) فاطر : ١٠ .

(٣) ص : ٧٥ .

(٤) في الأصل : (بذا) . والتصويب من درء تعارض العقل والنقل ١ / ١٦ . ن .

فَهُمْ مُشْتَرِكُونَ فِي أن الرسُولَ [لَمْ يَأْتي بِهَا] عَلَى مَا يُوَافِقُ مَعْقُولنا [1] وَأن الْأَنبياءَ وَأتباعَهُمْ لَا يَعْرِفُونَ الْعَقْليات !! وَلَا يَفْهَمُونَ السمْعِيات !! وَكُل ذَلِكَ ضَلَالٌ وَتَضْلِيلٌ عَنْ سَوَاءِ السبِيل.

نَسْأَلُ اللهَ السلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ مِنْ هَذِهِ الْأَقْوالِ الْوَاهِيَة، الْمُفْضِيَة بِقَائِلِهَا إلَى الْهَاوِيَة.

---

(١) زدنا هذه الزيادة ، ليمكن بها فهم الكلام . إذ هو من غيرها - أو غير ما في معناها - كلام مضطرب يحتاج إلى تصحيح .

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

الفهرس